في ضوء القرآن الكريم

سلسلة الأنبياء عليهم السلام

عثمان نوري طوباش

دار الأرقم

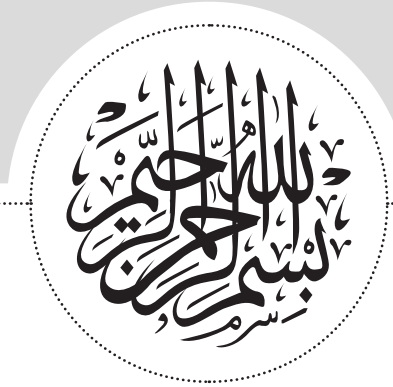

إسطنبول: ١٤٤١هـ- ٢٠٢٠م

إسطنبول: ١٤٤١/ ٢٠٢٠

اسم الكتاب باللغة التركية: Kur'ân-ı Kerîm Işığında Nebîler Silsilesi

اسم الكتاب بالعربية: سلسلة الأنبياء.

الترجمة للعربية: د. وسيم إبراهيم بكراكي؛ د.عبد الله قلبلك؛ د.أرسين اشجي أوغلو.

مراجعةو تصحيح وتدقيق: الدكتور.آدم أقيـــن؛ د.أرسين اشجي أوغلو/ فاطمة اشجي أوغلو.

تصميم وتنضيد: حسام يوسف

ISBN:٩٧٨٩٩٤٤٨٣٣٨١٣

طباعة وتغليف: مطبعة دار الأرقم

Language : Arabic

العنوان:

دار الأرقم

▸ Adres: Ikitelli Organize Sanayi Bölgesi Mahallesi - Atatürk Bulvarı Haseyad 1. Kısım No: 60/3-C Başakşehir - İstanbul / TURKEY

Phone : +90 212 671 07 00 (Pbx)

Faks : +90 212 671 07 48

E-mail : info@islamicpublishing.org

Web site : www.islamicpublishing.org

في ضوء القرآن الكريم

سلسلة الأنبياء

عصام نوري طوباش

دار الأرقم

يقول الله تعالى:

﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ (الأنبياء، ١٠٥)

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلاَّ رِجَالاً نُّوحِي إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ الْقُرَى أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ الآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ اتَّقَواْ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ﴾ (يوسف، ١٠٩)

﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا﴾ (مريم، ٩٨)

﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاء وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ﴾ (الدخان، ٢٩)

﴿وَالَّذِينَ عَمِلُواْ السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُواْ مِن بَعْدِهَا وَآمَنُواْ إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (الأعراف، ١٥٣)

﴿أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى﴾ (القيامة، ٣٦)

﴿فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ﴾ (الأعراف، ٦)

﴿فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِنْ كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا﴾ (المزمل، ١٧)

﴿وَمَنْ نُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ﴾ (يس، ٦٨)

﴿إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ. وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انْتَثَرَتْ. وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ. وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ. عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ﴾ (الإنفطار، ١-٥)

﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ (آل عمران، ١٩١)

يقول رسول الله ﷺ:

«**الدِّينُ النَّصِيحَةُ...**» (البخاري، الإيمان، ٤٢)

«**وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَتَأْمُرُنَّ بِالمَعْرُوفِ وَلَتَنْهَوُنَّ عَنِ المُنْكَرِ أَوْ لَيُوشِكَنَّ اللهُ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عِقَابًا مِنْهُ ثُمَّ تَدْعُونَهُ فَلَا يُسْتَجَابُ لَكُمْ**» (الترمذي، الفتن، ٩/ ٢١٦٩)

وجاء في المثنوي:

- من الممكن كتابة ظاهر القرآن الكريم بمقدار معينٍ من الحبر، وأما أسراره فلا يكفي لكتابتها ملء محيطات وبحار لا حدود لها من الحبر!

- القرآن الكريم هو أوصاف وأحوال الأنبياء، فاقرأ القرآن الكريم بخشوع، وطبّق أحكامه وكأنك في حضرة الأنبياء والأولياء! وعندما تقرأ قصص الأنبياء يبدأ قفص الجسد بالتضييق على طيور الروح!

- إن القرآن الكريم هو وصف وحال الأنبياء. فإن قرأت القرآن متدبراً بخشوع وطبقت ما فيه، فاعتقد أنك التقيت بالأنبياء! ومع قراءة قصص الأنبياء، يصبح الجسد حبساً أو سجناً ضيقاً أمام طائر الروح!.

مولانا جلال الدين الرومي

مُقَدِّمَة

يقدم اللّه ﷻ العون لعباده حتى يصلوا إلى الهداية، بإلقاء تلك المسؤلية على أُناسٍ من بينهم ممن لهم صفات الصلاح بالإضافة لما اختصهم به اللّه ﷻ من أخلاق رفيعةً، حتى يقوموا بدور المُرشد والمُوَجِّه للناس. وأكرمهم سبحانه وتعالى بالوحي وجعلهم أنبياء. وأمر اللّه ﷻ هؤلاء الرسل المباركين الذين يمثلون قدوة للأمم، بثلاثة أمور:

أ- أن يتلوا آيات اللّه ويبلغونها.

ب- أن يُطهروا أنفسهم ويزكونها.

ج- أن يُعلموا الناس الكتاب والحكمة.

وبدأ اللّه ﷻ بآدم عليه السلام حتى تكون الكيفية التي يتم بها إرسال الرسل الذين يمثلون مساعدة ربانية استثنائية للناس، حتى تكون شاملة للإنسانية كلها. فكان آدم عليه السلام هو أول إنسان وأول نبي في الوقت نفسه.

وإن ظل هذا الطريق المبارك للهداية الذي أيده وقوّاه اللّه ﷻ بسلسلة من الأنبياء بلغت مائة وعشرين ألفاً ونيِّفاً، فإنه لم يجد الكمال إلا بمجيء سيدنا النبي عليه الصلاة والسلام مُتّبعاً لمسيرة تكامل وتعادل الإرتقاء الذي حققته البشرية. لقد أكرم اللّه ﷻ الإنسانية كلها بمجيء النبي ﷺ، فهو مرشد الهداية لها حتى قيام الساعة، وهو الذي أبهر المؤمنين وأعجز الكافرين بما فيه من معجزات.

لقد أُرسل القرآن الكريم لهداية الناس كي يمنحهم السعادة في الدارين؛ الدنيا والآخرة. وحتى يتحقق هذا المقصد، فإنه يتعرض للكثير من الموضوعات. ونجد قصص الأمم السابقة من أكثر الخصوصيات القرآنية أهمية والتي تخدم هذه الغاية.

وهناك حكمة من وجود القصص في القرآن الكريم مثل تحذير الناس من الوقوع في الضلال وحثهم على العبودية للّه ﷻ بواسطة الأحداث التي لا تخلو من العبر والعظات التي عايشها الأقوام السابقين. فيتجسد في القرآن الكريم السلوك الضال وما يقابله من تجلٍّ للعدالة الإلهية، كما يتجسد السلوك القويم وما يقابله من مكافآت باعثة على السعادة. وهو الأمر الذي يخدم غاية أخرى مثل الترغيب في الأعمال التي تصل بالإنسان إلى السعادة، إلى جانب أخذ العظة والدرس للحذر من الأخطاء المماثلة.

لقد أولى القرآن الكريم أهميةً كبيرةً للإرشاد بواسطة قصص الأمم السابقة. ويتضح ذلك من إفراده مساحةً واسعةً للغاية من القرآن الكريم بلغت الثُلث لمثل هذه القصص.

يقول مولانا جلال الدين الرومي – رحمه الله – في معرض حديثه عن أهمية هذه القصص:

«القرآن الكريم هو حال ووصف للأنبياء. فإذا أنت قرأت القرآن الكريم بخشوع وطبقت ما جاء فيه، فكأنك التقيت بنفسك مع الأنبياء والأولياء. فكلما قرأت قصص الأنبياء كلما بدأ قفص الجسم يصير ضيقاً على طائر الروح!»

«ونحن لن نتحرر من قفص هذا الجسد إلا بهذه الوسيلة. فلا يوجد مفر للخلاص من هذا القفص سوي بهذا الطريق أي طريق التوحيد!...»

«ألم تر ما فعلته الريح بقوم عاد؟ ألم تسمع عمّا فعله الماء في الطوفان؟»

«ألم تر كيف أهلك بحر الحقد ذلك «البحر الأحمر» فرعون، وكيف خُسفت الأرض بقارون...»

«ألم تر ما فعلته الطيور الأبابيل بجيش الفيل، ألم تسمع كيف أكلت ذبابة صغيرة للغاية مخ نمرود الذي ادعى الإلوهية...»

«هل تعرف كيف أمطرت السماء حجارةً فوق قوم لوط الفاسقين وكيف دُفنوا في الظلام تحت ماء بحيرة ملوث؟»

«وماذا لو تحدثتُ بإسهاب عن العون الذي قدمته الجمادات التي نظن انه لا روح فيها للأنبياء...»

«كم كان المثنوي عظيماً كبير الحجم لدرجة تعجز معها أربعون ناقة عن حمله...».

وقد تناول القرآن الكريم في هذه القصص تبليغ الأنبياء للرسالة وموقف أمة كل نبي منهم، وذلك لتقوية عقيدة التوحيد في القلوب.

ويمكن تلخيص الهدف من القصص في شكل يتناسب مع الغاية من نزول القرآن الكريم، على النحو التالي:

يمكن القول أن الهدف من وجود القصص في القرآن الكريم هو إثبات نبوة سيدنا النبي ﷺ وبيان أن كل الأنبياء قاموا بنشر عقيدة التوحيد، وحتى يأخذ المُخاطبون بحديث القرآن الكريم العبرة والعظة وحتى يثير انتباه القلوب فتُغبِط الصالحين وتنحو نحوهم ويحذر الناس من الفاسقين. وهو بذلك يُعلِّم الناسَ أن يصبروا متخذين المثل في ذلك من الأنبياء الذين عانوا المحن والإبتلاءات.

ويضم هذا الكتاب الذي بذلت أنا العبد الضعيف الجهد في تأليفه بتوفيق ولطف من اللّه، يضم الأنبياء الذين ورد ذكرهم في القرآن الكريم من أول صفحة فيه حتى آخر صفحة وما في حياتهم من حكم وعِبر. فيحتوي هذا المؤلف:

سيدنا آدم عليه السلام الذي أُمرت الملائكة بالسجود إليه.

إدريس عليه السلام الذي حمل سر الإعجاب السماوي.

نوح عليه السلام الذي تطهرت الأرض من الكفر في عصره بالطوفان.

هود عليه السلام نبي قوم عاد الذين سوّت الريح العاتية بدارهم الأرض.

صالح عليه السلام نبي قوم ثمود الذين اهتزت ديارهم الفارهة بالزلازل.

إبراهيم عليه السلام الذي حوّل بخضوعه لأمر اللّه نيران نمرود الظالم إلى بستان من الورود.

إسماعيل عليه السلام الذي صار بإخلاصه وصدقه وتوكله وتسليمه لأمر اللّه مثلاً أعلى. وسيظل يُذكر بين المؤمنين حتى يوم القيامة.

إسحاق عليه السلام الذي جاء من نسله بني إسرائيل.

لوط عليه السلام النبي الذي ظل يدعو قومه الطغاة الفاسقين للهدايه حتى اللحظة الأخيرة.

ذو القرنين عليه السلام الذي حمل راية التوحيد من الشرق إلى الغرب.

يعقوب عليه السلام الذي انكوى بنار الشوق والمحبة وصار مثلاً أعلى في الصبر.

يوسف عليه السلام الذي صار بنوره الذي يوازي نور البدر سلطاناً لمصر وللقلوب بعد ما مر به من الأسى ومحنتي العبودية والسجن واغترابه عن بلده وإحساسه بالوحدة والألم ومجاهدته للنفس.

شُعيب عليه السلام الذي لُقِّب بـِ «**خطيب الأنبياء**» بخطابته التي أسرت القلوب.

موسى عليه السلام الذي أغرق بعصاه المُعجزة فرعون الأحمق في دوامات البحر الأحمر

هارون عليه السلام الأخ الصالح الذي صار عوناً لسيدنا موسى عليه السلام.

داود عليه السلام الذي جيّش بأذكاره الجبال والحجارة وحتى الحيوانات المتوحشة.

سليمان عليه السلام الذي لم تستأثر ثروته وجاهه وسلطانه العظيم في الدنيا على قلبه.

عُزير عليه السلام الذي أحياه اللّه بعد مائة عام ليكون مثالاً لإحياء الموتى يوم القيامة.

أيوب عليه السلام الذي صبر على البلاء بتَفكُّره العميق.

يونس عليه السلام الذي جاشت نفسه فتخطى الظلمات وتعمق في حقيقة الذكر والدعاء.

إلياس عليه السلام الذي خلّف من بعد ذلك شهرة بقول اللّه عز وجل عنه « سلام على إلياس»

إليسع عليه السلام الذي رُفع على العالمين.

ذو الكِفل عليه السلام النبي الصالح الذي استحق رحمة اللّه.

لُقمان الحكيم عليه السلام شيخ الحكماء ظاهرهم وباطنهم.

زكريا عليه السلام النبي الذي ظُلم وظل متوكلاً خاضعاً لأمر اللّه ولم يَتَأَوَّهْ والقوم يشُقونه بالمنشار.

يحيى عليه السلام الذي لقي الشهادة مثل أبيه.

عيسى عليه السلام الذي زكى نفسه وكان يشفي المرضى ويحيي الموتى بتضرعه ولجوئه إلى اللّه عز وجل.

والخلاصة هي أننا قد بذلنا الجهد كي ننقل شرارة الحكمة من الأحداث التي مر بها كل الأنبياء وأممهم، حتى يمكن أن تكون مداراً يدرك منه الناس في زماننا احتياجاتهم

الروحية وما يمر بهم من محن فتضيء لهم مثل هذه الأحداث أي لَبْس قد يحدث. وفي الوقت نفسه حاول العبد الفقير بإمكانياته المحدودة وبما أسعفته قدرته أن يبين أن الأنبياء قد كُلفوا بتجهيز وإعداد الأرضية البشرية على شكل قافلة من المبشرين «حاملي البشرى» في تسلسل يعقب أحدهما الآخر، من أجل نقطة كمال النبوة التي سيرسلها اللّه هداية للعالمين، من أجل نور الوجود وسر الخلق من أجل محمد ﷺ.

لقد تم إعداد كتابنا «**سلسلة الأنبياء**» ليكون أكثر تفصيلاً وأدق دلالة بناءً على رغبة عامة لذلك. وإني لأتوجه بالشكر الخاص لأصدقائي الأكاديميين وأعضاء اللجنة الذين بذلوا الجهد في إعادة تجهيز الكتاب على هذا الشكل، وأرجو من اللّه ﷻ أن يتقبل هذا العمل صدقةً جاريةً منا.

أعوذ برحمة اللّه ومغفرته التي لا حدود لها وأتضرع إليه أن يسامحني لخطأ أو سهو وقع مني تقصيراً أو سهواً.

وما التوفيق إلاّ من عند اللّه ﷻ ...

عثمان نوري طوبّاش

١٤٣٢هـ/ ٢٠١١م

أسكدار – اسطنبول

تمهيد

الحمد للّه ﷻ الذي رزق عباده الضعفاء نشوة الإيمان وطمأنينته!

والصلاة والسلام على سيد الخلق الذي أخرج الناس من الظلمات إلى النور!.

أهمية القصص في القرآن الكريم

يُحدّثنا المولى ﷻ في القرآن الكريم عن حقائق التبليغ والحكمة الإلهية بذكر خبر عن الأمم السابقة. وينتهج القرآن الكريم في هذا أسلوب القص، وهو أسلوب يسهل على البشر إدراكه وفهمه. يقول اللّه ﷻ:

﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَـذَا الْقُرْآنَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ﴾ [١]

﴿تِلْكَ مِنْ أَنبَاء الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلاَ قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَـذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [٢]

﴿وَكُـلاًّ نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاء الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءكَ فِي هَـذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [٣]

١. يوسف: ٣.
٢. هود: ٤٩.
٣. هود: ١٢٠.

الهدف من وجود القصص القرآني

كان لوجود القصص في القرآن الكريم أهمية كبيرة لتحقيق مجموعة من الأهداف المتصلة بالدين. وتعرض هذه الغايات لمحتوى محيطي واسع. لأن الغاية من هذه القصص تضم كل الأهداف والغايات التي يدعو إليها القرآن تقريباً. فهي تضم أهداف مثل إثبات الوحي والنبوة وإثبات وحدانية اللّه تعالى والوحدة بين الأديان وعدم وجود تعارض بينها والترهيب والترغيب وبيان الأماكن التي تجلت فيها قدرة اللّه ﷻ والخير والشر والصبر والتذمر والشكوى والشكر وجحود النعمة بالإضافة إلى عدد آخر من القيم والغايات الدينية والأخلاقية التي عَمدتْ القصص القرآني إلى توضيحها والحض عليها.

ويمكن تلخيص الأهداف والغايات الواضحة والمهمة للقصص القرءانية كما يلي:

١- إثبات وتوضيح أسس الإيمان.

٢- إثبات الوحي والرسالة.

لقد كان نبينا عليه الصلاة والسلام أُمياً لا يعرف القراءة والكتابة. ولم يُعرَف عنه أنه جالس أو تسامر مع أحبار اليهود أو قساوسة المسيحيين. وعلى الرغم من هذا فقد نزل عليه القرآن الكريم به قصص أذهل المسيحيين واليهود جميعهم. وقد فسرت القصص القرءانية في بعض مواضعها تفسيراً عميقاً ودقيقاً للأحداث؛ كما هو الحال في قصص إبراهيم ويوسف وموسى وعيسى عليهم السلام. وكثيراً ما يفصح القرآن الكريم عن تلك الغاية وذلك الهدف سواء أكان ذلك في بداية تناوله لقصة من القصص أو في نهايتها:

﴿وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الأَمْرَ وَمَا كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ. وَلَكِنَّا أَنْشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ وَمَا كُنْتَ ثَاوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ. وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَكِنْ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ لِتُنْذِرَ قَوْمًا مَا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [٤]

٤. القصص: ٤٤-٤٦.

٣- التأكيد على أن كل الأديان من آدم عليه السلام حتى نبينا عليه الصلاة والسلام، هي جميعاً من عند اللّه عز وجل، وأن المؤمنين كلهم أمةٌ واحدةٌ، وأن ربهم جميعاً هو اللّه وحده لا إله غيره.

٤- بيان النعم التي أنعم اللّه عز وجل على أنبيائه ومن اصطفى من عباده.

٥- التحذير من الشيطان بوصفه العدو الأزلي لبني آدم.

يقول اللّه عز وجل:

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِي الأَرْضِ حَلاَلاً طَيِّباً وَلاَ تَتَّبِعُواْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ. إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاء وَأَن تَقُولُواْ عَلَى اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾ [٥]

٦- الترويح عن رسول اللّه ﷺ والمؤمنين كافة وتثبيت قلوبهم على الإيمان، وتقديم اللّه عز وجل العون لكل الأنبياء وإهلاك المكذبين.

ولهذا أيضاً مقصد آخر وهو شد أزر نبينا عليه الصلاة والسلام وشد عزيمة من آمنوا به.

٧- ضمان تربية وتزكية النفوس بشكل تدريجي.

وهناك عدد آخر كبير جداً من الغايات والأهداف للقصص القرءانية. من هذه الغايات إثبات أن اللّه عز وجل قادر على كل شيء لا تعجزه الخوارق وأظهار القصص القرءانية لهذا لهو من الأمر المهم. مثال ذلك خلق اللّه عز وجل لآدم عليه السلام من العدم وخلقه عز وجل لعيسى عليه السلام من دون وجود أب.

خلاصة القول أن اللّه عز وجل يُرشد بني آدم عن طريق القصص القرءانية إلى عدد لا حصر له من التعاليم العلوية الواضحة. فيشير إلى ما تَميَّز به كل نبي من الأنبياء ويُسكنها عقول البشر وإدراكهم. مثال ذلك:

لو أننا نظرنا إلى حياة سيدنا نوح عليه السلام؛ لوجدنا أنه لم يَلق سوي نظرة البغض من أرباب الكفر بدون سببٍ غير أنه دعاهم للإيمان وتحمّل وصبر على آذاهم.

٥. البقرة: ١٦٨ - ١٦٩.

أما سيدنا إبراهيم عليه السلام فقضى حياته يحارب بلا هوادة ضد الشرك ويحاول القضاء على عبادة الأوثان، فأصبح نموذجاً فريداً في التسليم لأمر اللّه ﷻ وتوكله عليه، فحوّل اللّه ﷻ له نار نمرود إلى بساتين.

وقضى سيدنا موسى عليه السلام حياته يحارب فرعون وأعوانه، وأسس بعد ذلك بنصرته للحق لنظام اجتماعي بين المؤمنين.

ووُصِف سيدنا عيسى عليه السلام بأن له قلباً رقيقاً ملؤه الشفقة والرحمة في تعامله مع المؤمنين. كما لفت الإنتباه بتواضعه وحبه للعفو عن الناس.

أما سيدنا سليمان عليه السلام، فعلى الرغم من أنه حكم سلطنة مبهرة صارت حديث الألسنة، إلا أنه ارتقى في عبوديته للّه ﷻ وحافظ على قلبه متواضعاً شاكراً.

وأيوب عليه السلام الذي صار في حياته مظهراً عالياً في الصبر على البلاء وشكر اللّه ﷻ في كل الأحوال.

وحياة سيدنا يونس عليه السلام التي كانت مثالاً كاملاً أظهر اللجوء إلى اللّه ﷻ والندم على فعل الذنب.

وسيدنا يوسف عليه السلام الذي كان في ذروة التعلق باللّه ﷻ والدعوة إليه حتى وهو في الأسر سجيناً. وعرض مثالاً عظيماً للعفة حتى في الوقت الذي دعته إليها امرأة جميلة ذات مال وجاه، امرأة تملكت منها الغريزة وهي تقول له «**هَيْتَ لَكَ**». فكان قلبه الذي زُيِّن بتقوى عالية، مصدراً عظيماً لكمال السلوك.

وسيدنا داود عليه السلام الذي امتلأت حياته بصفحات من العبرة والعظة أمام العظمة الإلهية. وكم هي كثيرة تلك العبر المستقاة من حمده وثنائه وذكره وتضرعه للّه ﷻ ساكباً دموع عينيه.

أما سيرة سيدنا يعقوب عليه السلام، فكانت نموذجاً عظيماً في التعلق باللّه والصبر الجميل بدلاً عن الوقوع في اليأس في وقت أظلمت الدنيا من أمام عينيه، إلا أن أمله لم ينقطع من رحمة اللّه ﷻ.

أما حياة سيدنا النبي عليه الصلاة والسلام فقد شملت الجميع بكماله وسموه بشكل تعجز الكلمات عن وصفه.

الخصوصيات التي تُميز القصص في القرآن الكريم:

ويلفت القرآن الكريم الإنتباه إلى جوهر الأحداث. ولا يولي اهتماماً كبيراً لعنصري الزمان والمكان وأسمائهما. لأن الدخول في تفاصيل لا تخدم الغاية الأساسية من القصص من شأنه أن يزج بالمسألة في تفرعات لا طائل من ورائها ويجعل من العسير إدراك الهدف منها.

وها هي خصوصية أخرى تجذب الإنتباه في القصص القرءانية:

فالقرآن الكريم إذا نقل لأي سبب من الأسباب قصة ما، فإنه يتناول الجزء الذي يحتوي على المقصد فقط. ولأن القرآن الكريم يولي الإهتمام بالغاية الدينية من القصة، لذا نجده لا يُلقي بالاً للتسلسل التاريخي، فيبدأ القصة من أولها أو منتصفها أو حتى من آخرها. ولا يترك القرآن الكريم الشخص المُخاطب يذهب بوقائع القصة بعيداً ويتعمق فيها؛ بل يوزع الإرشاد الديني والحكمة والعظة في فواصل مختلفة.

ويستهل القرآن الكريم القصص بصفة عامة بمقدمة تجذب المُخاطَب. أي أنه لا يقدم الحوادث بشكل جاف يدعو إلى النفور منها. بل وعلى العكس من ذلك يعمد إلى تقديم الأحداث في شكل مجسد يمتلئ بالحركة والحيوية. وتحتوي معظم التعبيرات القرآنية على صور تمثيلية. ويعرض المشاهد المهمة بوضوح تام؛ ويترك كثيراً من التفرعات الأخرى التي تحتويها القصة لفكر وخيال المُخاطب.

وتتضح هذه الحقائق كلها في القرآن الكريم عن طريق التكرار.

الحكمة من التكرار

والتكرار هو أحد أهم سمات القصص القرءانية. فتغلب صفة التكرار في القصص القرءانية بشكل أكبر من المواضيع الأخرى التي يتعرض لها القرآن. والتكرار المقصود هنا ليس تكراراً تاماً بمعنى انه يأتي بأسلوب يحتوي على تفاصيل مختلفة عن المرات السابقة.

لذلك فكل تكرار هو وسيلة لإستنباط عبر وعظات جديدة. ويفتح آلاف النوافذ العلوية من القلب نحو العوالم الغيبية. فعلى سبيل المثال لقد تكررت مسألة عدم سجود

إبليس لآدم عليه السلام سبع مرات في القرآن الكريم. وفي كل مرة يلفت القرآن الكريم الإنتباه إلى واحدة من حيل ودسائس إبليس اللعين.

وتتضح الحكمة من التكرار في الآيتين الآتيتين:

﴿وَكَذَلِكَ أَنزَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْراً﴾ [٦]

﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [٧]

إن المقصد الأساسي من التكرار هو تقديم المراد ولكن بأساليب مختلفة. لهذا السبب لم تتكرر الأحداث العادية. فعلى سبيل المثال لا نجد تكراراً لحوادث ميلاد وشباب وزواج موسى عليه السلام. وعلى النقيض من ذلك تكررت حادثة المباراة التي أقيمت بين موسى عليه السلام والسحرة من بني إسرائيل لأن بها خصوصيات مهمة لهدف الرسالة.

ومن ناحية أخرى، فإننا لو قمنا بتجميع كل المعلومات الخاصة بشخص واحد والتي وردت في أماكن مختلفة، فإننا سنشاهد بناءً كلياً متكاملاً بخصوص تلك الشخصية. وبذلك فهو يعرض كل قصة من القصص في وحدة متكاملة ذات موضوع واحد متوافق العناصر لا تضاد فيها أو اختلاف فيه.

وتكرار المعنى هو الذي يهم أكثر في القصص القرءانية. فالهدف الأساسي من ذلك هو نقش الغايات الإلهية العلوية على الأرواح والقلوب. فالإنسان يفهم ويدرك المسألة بشكل أفضل إذا تكررت بأسلوب تعبيرين مختلفين. وهذا يشير أيضاً إتباع كتاب اللّه لأسلوب تعليمي إلهي يتناسب مع الطبيعة النفسية للبشر.

ويعبر التكرار عن المعنى نفسه ولكن بقوالب وأساليب متعددة، والقرآن من المعجزات الإلهية التي أنزلها اللّه عزّ وجلّ وأن البشر لا طاقة لهم أن يأتوا بمثله.

وأحياناً ما يكون التكرار للتفصيل، أو للإجمال في أحيان أخرى. وقد عمد القرآن الكريم إلى إتباع هذا الأسلوب حتى يتمكن من خطاب كافة المستويات الذهنية المختلفة. لأن هناك من الناس من يهتم بالإجمال والبعض الآخر يفضل التفصيل. ولأن

٦. طه: ١١٣.
٧. الذاريات: ٥٥.

القرآن الكريم يخاطب الإنسانية جميعها بعوامها وخواصها. وبذلك يستطيع الناس من أي مستوى وطبقة ومرتبة وأي قدرة عقلية، يستطيعون أن يستفيدوا مما جاء فيه.

لقد عمد القرآن الكريم إلى تكرار الكلمات والجمل حتى يضمن تحقيق كل صفة من صفات البلاغة مثل إثارة الدهشة والحيرة وإفادة التحذير. مثال ذلك ما جاء في سورة «**القارعة**» فنجده يكرر كلمة القارعة ثلاث مرات، وهو في ذلك يستثير خيال المُخاطَب ليجعله يشعر بفزع القيامة.

والحال نفسه في سورة الرحمن فنجده بعد أن يُعدّد النِعم التي خلقها اللّه ﷻ للإنس والجن، نجده يقول: ﴿**فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ**﴾

ويظل يكرر نفس العبارة واحداً وثلاثين مرة، وهو بذلك يريد أن يزيح ستار الغفلة عن العباد ويحثهم على الإعتراف بالنعم الإلهية وتذكيرهم أن يشكروا اللّه ﷻ على نعمائه.

إضافة إلى أن أسلوب قراءة هذه الجملة المكررة واحداً وثلاثين مرة في ثنايا سورة الرحمن بشكل طمأنينة دون ملل أو ضجر، هي خصوصية استثنائية لا نظير لها في الأدب العربي.

وفي سورة المُرْسلات يكرر القرآن الكريم ﴿**وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ**﴾ عشر مرات. وتأتى هذه الآية بعد آيات تحدث فيها عن كثير من الحقائق الإلهية ويخبر أنه من يكذب بهذه الحقائق ستكون عاقبته الخسران المبين وسيلقى عذاباً أليماً.

لهذا السبب كان المفسرون كُلّمَا تعرضوا لمثل هذه الآية، كانوا ينظرون إلى المعاني الواردة قبلها ويفسرونها قائلين:

«ويل لكل من يكذب بيوم الدين وآيات اللّه ﷻ وقدرته المطلقة ونعمائه التي لا تُعد ولا تحصى، ويل لكل من يكذب بجهنم التي هي محل العذاب وبالجنة التي هي محل الثواب.!».

والقرآن الكريم هو كتاب للدعاء والذكر وهو المرشد الذي يهدي الناسَ للحقيقة. ولا يكون الدعاء ولا يظهر ولا يصبح له تأثير إلا بالتكرار.

فتكرار قراءة الفاتحة في كل ركعة من الركعات في الصلاة، وتسبيحنا دبر كل صلاة عدداً مختلفاً مثل ثلاث وثلاثون وتسع وتسعون ومائة وعشرة مراتٍ وتسبيحنا في الركوع والسجود، كلها أمور مباركةٌ الهدف منها طبعها جميعاً بشكل جيد داخل القلب.

وكما أنه من شأن هذه العبادات النوعية تقوية الصلة بين العبد وربه، فإن الصلوات الشريفة من شأنها كذلك تقوية الرابطة مع رسول اللّه ﷺ. وسيأتي يوم تُؤمِّن فيه هذه الأذكار التي تتكرر بكثرة، انتقالها في القلب وفي الإدراك إلى حقيقة الذكر.

جاء رجل إلى جُنيد البغدادي – رحمه الله – وسأله قائلاً:

– أستاذي، ما معنى «لا إله إلا اللّه»؟ فأجابه هذا الرجل العارف باللّه ﷻ وقال:

– أكثر من تكرار هذه الكلمة كثيراً يا بني حتى تصل إلى معناها الحقيقي.

ومن ناحية أخرى هناك تأثيرات مختلفة ومتنوعة لسور القرآن الكريم التي تتكرر بتلاواتها القرآنية بنغمتها القلبية واللغوية.

لذلك قال سيدنا النبي ﷺ متحدثاً عن فضل الآيات الثلاثة الأخيرة من سورة الحشر:

«من قال حين يصبح ثلاث مرات أعوذ باللّه السميع العليم من الشيطان الرجيم وقرأ ثلاث آيات من آخر سورة الحشر ،وكَّلَ اللّهُ به سبعين ألف مَلَكٍ يصلّون عليه حتى يمسي،وإن مات في ذلك اليوم مات شهيداً، ومن قالها حينُ يمسي كان بتلك المنزلة» [٨]

ويضم القرآن الكريم عدداً كبيراً جداً من التجليات المشابهة لذلك فمثلاً من قرأ سورة الواقعة فلن تُصيبَه الفاقة، وهناك آيات أخرى إذا قرأها المرء شُفي من الحسد.

ولأن القرآن الكريم من ناحية اللفظ والمعنى هو نفحة إلهية، لذلك ينال الإنسان كسباً معنوياً من تكرار الآيات سواء أكان المحتوى هو نفسه أو بتكرارها بألفاظ مختلفة والموضوع هنا هو تأثير ذلك التكرار على الناحية المعنوية للإنسان وعلى الناحية المادية له أيضاً في نطاق من الإرادة الإلهية. ولعل حادثة سيدنا علي ﷺ مع البدوي من أفضل الأمثلة التي تعرض الحاجة إلى القوام القلبي الذي نتحدث عنه:

قصد أحد الفقراء من البدو ذات يوم سيدنا عليّاً طالباً الصدقة. ولم يكن لدى علي ﷺ في تلك اللحظة شيء يعطيه إياه، فأخذ حفنة من الرمل ونفخ فيها وهو يقرأ أشياءً. ثم سكب ما بيده من رمل في كف البدوي وقد صار ذهباً. فتملكت البدوي الدهشة لما رأى، وتوسل إلى علي ﷺ أن يفسر له كيف تحول الرمل الذي في يده إلى ذهب.

٨. الترمذي، فضائل القرآن، ٢٢، ٢٩٢٢.

فرد عليه سيدنا علي ﷺ بأنه لم يفعل شيئاً سوى أنه قرأ سورة الفاتحة بخشوع. فقام البدوي مغتبطاً واغترف حفنةً من الرمل في يده وبدأ يقرأ الفاتحة وهو ينفخ عليها. ولكن شيئاً لم يتغير وظل الرمل كما هو رملاً. فسأل سيدنا عليّاً ﷺ سبب ذلك. فلخص سيدنا علي ﷺ المسألة للبدوي في قوله: «هذا لأن القلب مختلف».

ويتمكن أي شخص يتعسر في قراءة القرآن الكريم كاملاً؛ سواءً أكان ذلك لغفلة منه أو لضعف مقدرته على ذلك، يتمكن من قراءة أي سورة من السور الصغيرة بسلاسة. لأجل هذا أدرج الخالق ﷻ أهم الرسائل -أحياناً بشكل جزئي وأحياناً أخرى بشكل كلي- في قصار السور في شكل شِفرات علوية محددة النقاط وعادةً ما كان يجعل كل واحدة منها في شكل حكم قرآني صغير.

وفي ذلك يقول الإمام الشافعي رحمه الله:

«لو تدبر الناس هذه السورة لوسعتهم» [٩]

الأنبياء والقصص في القرآن الكريم

يُقدم الأنبياء في القرآن الكريم بوصفهم أفضل وأصلح أناس في البشرية. وأنهم لم يصلوا إلى ما وصلوا إليه بجهد أو عمل عملوه بل باختيار واصطفاء إلهي[١٠].

يقول اللّه ﷻ:

﴿... وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [١١]

﴿اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلاً وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ [١٢]

---

٩. ابن كثير، التفسير، سورة العصر، ٥، ٤٥٦.

١٠. توضح الآيات الكريمة الآتية أن النبوة هبة من الله ﷻ وليست كسب:

﴿ذَلِكَ فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ (الجمعة، ٤)

﴿وَإِذَا جَاءتْهُمْ آيَةٌ قَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَى مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللهِ اللهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُواْ صَغَارٌ عِندَ اللهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُواْ يَمْكُرُونَ﴾ (الأنعام، ١٢٤)

﴿وَمَا كُنتَ تَرْجُو أَن يُلْقَى إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيراً لِّلْكَافِرِينَ﴾ (القصص، ٨٦)

١١. الأنعام: ٨٧.

١٢. الحج: ٧٥.

وقد فصل القرآن الكريم في آيات مختلفة ما يميز كل نبي ورسول من فضائل وعلامات فارقة. وفيما يلي ذكر لبعض هذه الآيات:

﴿...وَاتَّخَذَ اللّٰهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً﴾ [١٣]

﴿وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِبْ بِهِ وَلَا تَحْنَثْ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ. وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ. إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ. وَإِنَّهُمْ عِنْدَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ. وَاذْكُرْ إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ وَكُلٌّ مِنَ الْأَخْيَارِ﴾ [١٤]

﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَى إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصاً وَكَانَ رَسُولاً نَّبِيّاً. وَنَادَيْنَاهُ مِن جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيّاً. وَوَهَبْنَا لَهُ مِن رَّحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيّاً. وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولاً نَّبِيّاً. وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِ مَرْضِيّاً. وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقاً نَّبِيّاً. وَرَفَعْنَاهُ مَكَاناً عَلِيّاً﴾ [١٥]

أما نور الخلق سيدنا الرسول الذي خاطبه المولى قائلاً «حبيبي» فقد اجتمعت لديه فضائل كل الأنبياء. ونزلت بحقه الآية الكريمة:

﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [١٦]. [١٧]

---

١٣. النساء: ١٢٥.

١٤. ص: ٤٤-٤٨.

١٥. مريم: ٥١-٥٧.

١٦. الأنبياء: ١٠٧.

١٧. النبي ﷺ هو رحمة للعالمين في الدنيا والآخرة. فهو الهادي في الدنيا والشفيع في الآخرة. فقد ورد كثيراً في الأحاديث أن الناس سيتجمعون في أرض المحشر يوم القيامة وهي يومئذٍ أرض واسعة مستوية. وأن الناس الذين سيتجمعون منتظرون حسابهم سيكونون في هم وفزع شديدين، وأنهم سيبدؤن في البحث عن من يخلصهم مما هم فيه. وأنهم سيذهبون إلى النبي ﷺ ويتوسلون إليه بعدما يئسوا من مساعدة الأنبياء الذين لجئوا إليهم. لذلك سيتوجه نبينا ويسجد تحت عرش الرحمن وسيطلب من الله أن يُشفِّعه في أمته. فيعطيه الله إياها فيشفع لأناس يدخلون الجنة مباشرةً ثم يشفع بعد مدة معلومة للعُصاةِ الذين لا يملكون من الخير سوى قولهم كلمة الشهادة فيدخلون الجنة كذلك. (انظر: البخاري، الرقاق ٥١، التوحيد ٣٦؛ مسلم، الإيمان، ٣٢٢، ٣٢٦، ٣٢٧)

بيد أن اختيار اللّه ﷻ للأنبياء واصطفاءهم ينطوي على مسؤلية عظيمة ثقيلة. واللّه ﷻ يعرف أنهم عاجزون، كما أنه لا يمكن إسناد صفة الألوهية إليهم على الإطلاق لأجل هذا قال اللّه ﷻ:

﴿فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ﴾ [١٨]

فالأنبياء بالشكل الذي بينته الآية الكريمة وإن كانوا آمنين، إلا أن اللّه ﷻ سيسألهم عن درجة اعتنائهم واهتمامهم بتبليغ رسالات ربهم. وتذكر احدى الروايات أن سليمان عليه السلام سيدخل الجنة متأخراً عن باقي الأنبياء بسبب ما أعطي إليه من عظمة وثروة في الدنيا.[١٩]

ولا أحد غير الأنبياء آمن بعد ذلك[٢٠]. والإنسان العاقل هو الذي ينظر إلى حال نفسه المعنوي، ويسعى لأن يحقق الكمال في قلبه، أما في نواحي المادة فيجب أن يبذل الجهد كي يعيش حياته شاكراً للّه وأن ينظر إلى من هو أدنى منه.

وقد جاء في الحديث الشريف:

«إذا نظر أحدكم إلى من فُضِّل عليه في المال والخلق فلينظر إلى من هو أسفل منه» [٢١]

ويبين المولى ﷻ في الآيات الآتية مخاطباً الرسول ﷺ أن جميع الأنبياء مسؤلون أمام اللّه ﷻ:

﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ قَالُواْ لاَ عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنتَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ﴾ [٢٢]

﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ. لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ. ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ. فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ﴾ [٢٣]

ويقول اللّه ﷻ:

---

١٨. الأعراف: ٦.

١٩. انظر: الطبراني، المجمع الكبير، ٥، ٩٤- ٩٥.

٢٠. على الرغم من هذا فهناك أشخاص بشرهم سيدنا رسول الله ﷺ بالجنة، لهذا يمكن اعتبارهم من الآمنين.

٢١. البخاري، الرقاق، ٣٠، ٦٤٩٠.

٢٢. المائدة: ١٠٩.

٢٣. الحاقة: ٤٤-٤٧.

﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَـؤُلاء شَهِيداً. يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُواْ وَعَصَوُاْ الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّى بِهِمُ الأَرْضُ وَلاَ يَكْتُمُونَ اللّهَ حَدِيثاً﴾ [٢٤]

حدثنا محمد بن يوسف: حدثنا سفيان، عن الأعمش، عن إبراهيم، عن عبيدة، عن عبد اللّه بن مسعود قال: قال لي النبي ﷺ:

«اقرأ عليَّ».

قلت: يا رسول اللّه، اقرأ عليك وعليك أنزل؟

قال: **«إني أحب أن أسمعه من غيري»**.

فقرأت سورة النساء، حتى أتيت إلى هذه الآية:

﴿فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيدا﴾. [٢٥]

قال: **«أَمْسِكْ»**.

فالتفت إليه فإذا عيناه تذرفان. [٢٦]

عظمة القرآن الكريم وفضائل النبي ﷺ

ورد في الآيات الكريمة التي سبق ذكرها أنه إلى جانب كون النبوة مسؤلية عظيمة، فإن كل ما ينطق به الرسول ﷺ إنما هو وحي أوحى به اللّه ﷻ إليه. ويوضح هذا الكتاب العظيم تلك الحقيقة في الآية الكريمة:

﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [٢٧]

ومما لاشك فيه أن هذا الكتاب قد نزل من عند اللّه ﷻ، وأن هذا يستوجب أن يكون كاملاً بشكل يتلاءم والعظمة الإلهية. فكان الإعجاز القرءاني واحداً من أهم الخصوصيات التي تشهد على كماله. كما أن تأمينه السعادة للإنسان في الحياة الدنيا وفي الآخرة هو سبب ومظهر آخر من مظاهر هذا الكمال.

---

٢٤. النساء: ٤١-٤٢.

٢٥. النساء: ٤١.

٢٦. البخاري، فضائل القرآن، ٣٢ / ٥٠٥٦؛ مسلم، المسافرين، ٢٤٨ / ٨٠٠.

٢٧. البقرة: ٢.

وقد أنعم اللّه ﷻ بآخر الكتب المقدسة على سيدنا رسول اللّه ﷺ فكان أكبر معجزة ستستمر حتى قيام الساعة. لأن اللّه ﷻ أعطى كل نبي مجموعة من المعجزات يستطيع بها إثبات صدق نبوته في زمانه. فشاهد الناس هذه المعجزات الإلهية الخارقة للعادة، فقال من أضاءت قلوبهم بنور الهداية:

- أنت رسول اللّه!. وصدقوا رسولهم.

أما التعساء الذين حُرموا الهداية فقالوا:

- ما أنت إلا ساحرّ.

وبذلك كان المؤمنون والجاحدون كذلك مرغمين على تصديق المعجزات الخارقة للعادة التي أتى بها الرسل. فقد شاهد كل أهل مكة معجزة انشقاق القمر في عهد رسول اللّه ﷺ إلى جزأين.

ولكن اختلفت طريقة تقبلهم لهذه المعجزة، وانعكس ذلك في إيمان البعض واستمرار البعض الآخر في الكفر وفق قلب كل منهم.

لقد تحولت عصا موسى عليه السلام وهي المعجزة التي أعطاه اللّه إياها، تحولت إلى حية وجدت صدى عند بني إسرائيل فقضت على سحرهم. وأُعطي عيسى عليه السلام معجزة إحياء الموتى وهي المعجزة التي لم يستطع عالم الطب الوصول إليها. فوقف عالم الطب عاجزاً حائراً أمامها.

أما في زمن الرسول ﷺ فكان الشعر والبلاغة يعيشان عصرهما الذهبي. وكان يُرتب لأسواق مثل سوق عكاظ وذو المجاز ومجنّي حيث كان يتبارى الأدباء والشعراء مع بعضهما البعض. ومن يُحرز منهم قصب السبق، تُكتب آثاره على قماش ذي اللمعان وتُعلق على جدار الكعبة. وقد عُلقت سبعة أشعار على جدار الكعبة وأُطلق عليها اسم "**المعلقات السبعة**".

ومع نزول القرآن الكريم ببلاغته المُعجِزة وخطابتها اضطربت أسواق الأدب تلك التي استمرت كتقليد تعودوا عليه حتى لعصور. ولم تَفُز أشعار أي شاعر بعد ذلك لتُعلق أشعاره على جدار الكعبة.

وستستمر قدرة نبوة الرسول ﷺ التي أعجزت حتى أعتى الخطباء وأشدهم بلاغة، ستستمر لتشمل كل مكان وزمان حتى قيام الساعة، لهذا السبب فاقت معجزة القرآن كل ما أُعطي الأنبياء السابقين جميعهم من معجزات وصلاحيات.

ومن الضروري هنا الإشارة إلى نقطة مهمة، وهي أن كل الأنبياء السابقين قد انحصرت رسالاتهم في زمان ومكان محدودين. لهذا السبب لم ينتقل إلينا عنهم منظومة واسعة ثرية تبين سلوكهم وتصرفاتهم. هذا في الوقت الذي شملت فيه بعثة الرسول ﷺ كل زمان وكل مكان إلى أن تقوم الساعة، لهذا السبب انتقلت إلينا أدق تفصيل سيرته بروايات صحيحة وسيظل هذا الموروث متسلسلاً إلى أن تقوم الساعة.

وتتحدث الآيات الكريمة الآتية عن شمولية رسالة النبي ﷺ للعالم كله:

﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [٢٨]

﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيراً وَنَذِيراً وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [٢٩]

﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيراً. الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَداً وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيراً﴾ [٣٠]

ويأتي السبب وراء ذلك إلى أن اللّه ﷻ أراد لأمة آخر الزمان الذي بُعث فيها النبي ﷺ أن تكون"أسوة حسنة" أي نموذج وقدوة يقتدون بها.

من أجل هذا أنعم اللّه ﷻ على الرسول ﷺ بعدد من المعجزات حتى تتجلّى إرادة اللّه ﷻ. فالغرض من المعجزات هو تحقيق طاعة الناس للأنبياء وطاعة وجهاء القوم وأكثرهم سطوة كذلك، وقد استند سيدنا النبي ﷺ إلى جانب عدد من المعجزات الأخرى التي

٢٨. الأعراف: ١٥٨.
٢٩. سبإ: ٢٨.
٣٠. الفرقان: ١-٢.

أعطاه اللّه إياها، استند إلى معجزة القرآن الكريم الذي حاز الكمال في الإعجاز بشكل تجاوز كل المعجزات الأخرى.

وعلى الرغم من أن المعجزات هي أحوال خارقة تصدر عن الأنبياء، إلا أن القرآن الكريم بوصفه معجزة لا نظير لها، كان أكثر تأثيراً على مسامع وقلوب الناس، وظلَّت الوسيلة الأساسية التي استخدمها الرسول ﷺ في نشر الرسالة.

ولهذه الأسباب أصبح إعجاز القرآن الكريم الذي قدمه الرسول ﷺ إلى البشرية بيديه مضيئاً كالمشعل لا ينطفئ إلى الأبد، وأصبح المؤثر الأساسي الذي ضمن طاعة إنسان "**عصر السعادة**" الذي فقه الفصاحة والبلاغة، للنبي ﷺ. ففي الوقت الذي مضيفيه سيدنا عمر رضي الله عنه قاصداً أقبح الغايات مثل إطفاء شمس السعادة الأبدية، نجده يتحول بسرعة البرق بعد أن استمع بالمصادفة لبعض آيات القرآن الكريم، انتقل إلى الهداية كما لو كانت آيات القرآن الكريم قد انتقلت به من قطب الشرك إلى قطب الإيمان.

و كذلك الأمر مع ابنة الشاعر الشهير امرؤ القيس التي تملكتها الدهشة والذعر لما استمعت إلى جزء صغير من القرآن الكريم، وقالت من كثرة دهشتها:

«إنه ليس بكلام البشر! فلو كان في الدنيا حديث مثله، لوجب إنزال أشعار أبي من فوق جدار الكعبة! اذهبوا فأنزلوه، وعلقوا هذه الآيات بديلاً عنه!..»[٣١]

وهذا مثال واحد فقط من الأمثلة التاريخية الشاهدة على هذه الحقيقة الإلهية[٣٢].

لقد ألجم القرآن الكريم بجلاله حتى المشركين وهم يستمعون إليه لدرجة أنهم كانوا على وشك الإيمان لولا أن هناك من أخذوا يصيحون حتى يعيقوا ويمنعوا الناس من الإستماع إليه. وقد تحدث القرآن الكريم في الآية التالية عن هذه الحقيقة بقوله ﷻ:

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾[٣٣]

---

٣١. انظر: أحمد جودت باشا، ١، ٨٣.

٣٢. الكلمة تُذكِّر بصاحبها. وبقدر ما للمتحدث من شأن ومقدرة، يقدم الجلال والكمال. لهذا السبب تركت بلاغة وفصاحة القرآن الكريم بسبب قدرة وعظمة شأن صاحبه وهو المولى عز و جل، تركت البشرية جمعاء مشدوهةً عاجزة. فوصف القرآن الكريم بأنه السهل الممتنع، هو سر إلهي آخر، فكلنا يدرك كم هو القرآن سهل البيان، ولكن ليس بمقدور أي شخص على الإطلاق أن يأتي بمثله.

٣٣. فصلت: ٢٦.

وعلى الرغم من هذا فقد كان بعض المشركين يستمعون خفيةً للقرآن الكريم. فقد كان ألد المشركين مثل أبو جهل يستمعون إلى القرآن الكريم من وراء الجُدر، وكانوا يتأثرون به حتى لو لم يؤمنوا، فغلبهم كفرهم وعنادهم، وكان الواحد منهم يفر من أخيه حتى لا يراه وهو يستمع إلى القرآن الكريم.

وللقرآن الكريم تأثير عظيم من شأنه أن يغير فهم الإنسانية التي تعيش الكفر والجحود، أن يغير فهمها عن الكون والحياة والإنسان، وبالتالي تنهض البشرية وتحقق أعظم انقلاب لها. ولعل أبرز مثال على ذلك هو تحول المجتمع الجاهلي إلى مجتمع مسلم يسير على طريق الهداية. والقرآن كلام عظيم، يتجاوز تأثيره الإنسان إلى الحيوان كذلك.

وقد رُوي عن أُسيد بن حضير ﷺ:

بينما هو يقرأ من الليل سورة البقرة، وفرسه مربوط عنده، إذ جالت الفرس، فسكت فسكتت، فقرأ فجالت الفرس، فسكت وسكتت الفرس، ثم قرأ فجالت الفرس، فانصرف، وكان ابنه يحيى قريباً منها، فأشفق أن تصيبه، فلما اجْتَرَّهُ رفع رأسه إلى السماء حتى ما يراها، فلما أصبح حدث النبي ﷺ فقال:

«اقرأ يا ابن حضير، اقرأ يا ابن حضير».

قال: فأشفقت يا رسول اللّه أن تطأ يحيى، وكان منها قريباً، فرفعت رأسي فانصرفت إليه، فرفعت رأسي إلى السماء، فإذا مثل الظلة فيها أمثال المصابيح، فخرجت حتى لا أراها، قال:

«وتدري ما ذاك».

قال: لا، قال:

«تلك الملائكة دنت لصوتك، ولو قرأت لأصبحت ينظر الناس إليها، لا تتوارى منهم» [٣٤]

وتكمن الحكمة في أن تأثير القرآن الكريم وأحكامه تشمل الموجودات كلها في تشكيل منظومة كاملة للوحي تنتهي فيها حلقة النبوة بخاتم الأنبياء والمرسلين سيدنا محمد ﷺ وتوضح أن ما سيأتي من زمان بعد ذلك وحتى الأمكنة هي نطاق لنبوة رسول اللّه ﷺ أيضاً.

---

٣٤. البخاري، فضائل القرآن، ١٥/ ٥٠١٨.

أي أن هذا الكتاب الإلهي الأخير يحتوي من القواعد ما سيلبي مصالح وأمور الناس ما دامت الدنيا موجودة. ومن هنا كان محتوى ومعنى القرآن الكريم عبارة عن منظومة من حكم وإعجاز لا نظير له. وسوف تستمر هذه الهبة الإلهية حتى يوم القيامة مثبتةً صدق الرسول وصدق النبوة.

ولم ينل أي نبي من الأنبياء كتاباً مثل القرآن الكريم بفصاحة أسلوبه وبلاغته وبما يحوي من أحكام وبامتداد حكمه لكل زمان ومكان. ولعل أبرز علامات هذا التفوق أنه سيستمر حتى يوم القيامة وستأتي امة محمد ﷺ يوم القيامة أكثر الأمم عدداً.

وكل ما يحوي القرآن الكريم؛ من تعبير وأسلوب ومعجزات وتاريخ وأي شيء آخر كلها أمور خاصة باللّه ﷻ. وبناءً على ذلك يكون ترتيب نزول الآيات هو أيضاً من أمر اللّه ﷻ ولم يتدخل فيها الرسول ﷺ بأي حال من الأحوال.

وبالطريقة نفسها تكون نغمة الصوت في القرآن مثلها مثل الأسلوب القرآني أمر راجع للّه ﷻ أيضاً. فالتصرف في القرآن الكريم بإحداث أي تغير في نظمه سواء بالتقديم أو بالتأخير من شأنه إحداث خلل في التناغم بين آيات القرآن. وقد تحدث محمد حميد اللّه وهو من علماء الإسلام المعاصرين، عن التناغم في القرآن الكريم على هذا الشكل:

– حدثني احد الموسيقيين الفرنسيين الذين اعتنقوا الإسلام قائلاً أن قراءة سورة النصر على هذا الشكل ﴿**فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا. فَسَبِّحْ** ...﴾ أمر غير متزن موسيقياً.

فوضحت له الأمر بقولي أننا لا نتوقف في القراءة عند كلمة «أفواجاً» بل نقرأها «أفواجاً فسبح...» أي أننا ندمج بين النون «التنوين» في أفواجاً والفاء في بداية كلمة «فسبح».

فرد عليَّ أخونا الموسيقي الفرنسي على الفور قائلاً:

– أنا الآن أُجدد إيماني. فلم يعد عندي بعد ما أوضحت لي الآن أي اعتراض على القرآن الكريم من ناحية التناغم الموسيقي. ويمكنني القول أن القرآن الكريم به انسجام يفوق المعايير البشرية. فهو يعرض في معظمه روعة في التناغم. فهل هناك ثمة أحد يمكنه التفكير في أن يأتي بشيء بشري على غرار القرآن الكريم؟!. [٣٥]

٣٥. محمد حميد الله، تاريخ القرآن الكريم، ص ٩٤-٩٥.

لقد استنهض القرآن الكريم بخاصيته تلك تأثيراً قوياً في قلوب الناس. فجاء العرب من كل فج عميق واستمعوا إليه من فم رسول اللّه ﷺ فآمنوا به.

وفيما يلي مثال يعود لتاريخ قريب يدل على روعة القرآن وتأثيره:

عمل إمام وخطيب جامع «ير آلطي» السيد علي أسكداري إماماً للسرايا في فترة حكم عبد الحميد خان. ويُروى وفق ما نقله السيد محمد علي صاري وإسماعيل قره تشم وهم من طلبة معهد الإسلام العالي، يُروى أن ملك المجر قد وجه الدعوة لعلي أسكداري بصحبة وفد آخر لزيارة المجر. وبعد أن شارك في الأنشطة الثقافية المختلفة هناك، استدعاه الملك على وجه الخصوص وبعد عدة لقاءات بينهم طلب ملك المجر من علي أسكداري أن يقرأ عليه القرآن الكريم. فظل يقرأ عليه القرآن من مقام النهاوند الموسيقي وفق رواية محمد علي. وكان علي أسكداري وقتها في ريعان شبابه وكان حافظاً للقرآن الكريم وقد حباه اللّه بصوت عذب جميل وأداء حسن في قراءته للقرآن. لهذا السبب أخذ الآيات التي قرأها لُب الملك، لدرجة أنه التفت إلى الملكة وحدثها ببعض الكلمات. فأصاب الفضول علي أسكداري كي يعرف ماذا قال الملك، فتحدث إلى المترجم وقال:

- ماذا قال جلالة الملك للملكة؟.

فرد عليه المترجم وقال بأن الملك خاطب الملكة قائلاً:

- إن هذا الكلام المقروء لا يمكن أن يكون كلام بشر. فكلام البشر لا يؤثر بهذا الشكل في الإنسان....

وقد بيَّن رسول اللّه ﷺ أن أمته ستكون أكبر الأمم بالنظر إلى الأمم السابقة، وأن السبب في ذلك ما في القرآن الكريم من إعجاز عقلي علوي وماله من تأثير على من يسمعه، فقال رسول اللّه ﷺ:

«ما من الأنبياء نبي إلا أعطي ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أوتيت وحيا أوحاه الله إلي، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة» [٣٦]

رأينا في الحديث الشريف كيف ربط الرسول ﷺ بين زيادة عدد أمته وبين معجزة القرآن الكريم. ويمكن رصد الحكمة من ذلك فيما يلي: القرآن الكريم ليس مثل باقي

٣٦. البخاري، الإعتصام، ١/ ٤٩٨١.

المعجزات التي جاءت وانتهت في زمن بعينه، فالقرآن الكريم معجز في ألفاظه ومعانيه التي تخاطب عقل الإنسان. وسيظل الإنسان يتفكر في آيات القرآن الكريم طالما وجد العقل والعلم لتظهر مع الوقت ما يحويه من دقائق.

لا ترتبط المعاني التي يحويها القرآن الكريم بزمن أو أمة بعينها، بل تحيط بكل الأزمنة وكل الناس. وسيظل العلماء في كل عصر يمر يشهدون على إعجاز القرآن، وبهذه الوسيلة ستستمر أمة رسول اللّه في التزايد.

وستعاود الإكتشافات العلمية التي ستظهر بعد عصور، وتلقي الضوء على إعجاز القرآن الكريم، وستؤيد كونه كلام اللّه ﷻ ولا دخل للبشر فيه. وتؤكد لنا الأبحاث العلمية التي يجريها العلماء في مجالات خلق الإنسان وأسرار الكون والأرض والشمس وحال القمر بل، والأبحاث الأكثر دقة في مجالات الفيزياء والجغرافيا والاجتماع وما شابه ذلك من مجالات أخرى، ستؤكد جميعاً على هذه الحقائق الواردة في القرآن الكريم.

وإذا وجب علينا أن نضرب مثالاً على هذا لقلنا أن هناك أبحاثاً تجري مؤخراً مفادها أنه يمكن نقل الأشياء عن طريق الإشعاع وهو أمر مقبول من الناحية العلمية ويمكن تحقيقه. وقد نجح العلماء للمرة الأولى في تفكيك جزيئات مقدار من الماء ونقلها لمكان آخر بواسطة الإشعاع. ولم يتصور أحد أو يقبل بإمكانية حدوث مثل هذا الشيء قبل خمسة عشر قرناً، ومع هذا فقد أخبر القرآن الكريم عن ذلك. فتذكر الآية ٤٠ من سورة النمل كيف تم نقل عرش بلقيس ملكة سبأ في طرفة عين مسافة لا تقل عن ألفي كيلو متر.

من أجل هذا يزداد فهمنا كل يوم يمر لحديث مولانا جلال الدين الرومي عن القرآن الكريم، حيث يقول:

«يمكننا أن نخط كلمات القرآن الكريم بحبر مِحبرةٍ واحدةٍ. أما إذا أردنا أن نكتب كل الأسرار التي يحويها فلن يكفي لذلك بحر مترامي الأطراف من الحبر، ولن تكفي أشجار الدنيا كلها لو أنها صُنعت أقلاماً لهذا الغرض».

❁

لقد تحدى اللّه ﷻ الإنس والجن حتى يوم القيامة أن يأتوا بمثل القرآن الكريم. وظل هذا التحدي الإلهي قائماً منذ يومها دون جواب من أحد. وتشير الآية الكريمة إلى هذه النقطة في قوله ﷻ:

﴿قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَن يَأْتُواْ بِمِثْلِ هَـذَا الْقُرْآنِ لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً﴾ [٣٧]

وعلى الرغم من أن اللّه ﷻ قد ضيّق مجال التحدي وحصره في أن يأتوا بعشر سور منه فقط، إلا أن الإنس والجن وقفوا عاجزين مجدداً. تبين ذلك الآية الكريمة الآتية:

﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُواْ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُواْ مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [٣٨]

وزيادة في التحدي ضيق المولى ﷻ مجال التحدي أكثر وحصره في أن يأتوا بسورة واحدةٍ كي يظهر للعيان مدى العجز البشري وأن القرآن الكريم هو كلام اللّه ﷻ. وتحدثتا الآيتان الكريمتان الآتيتان عن ذلك في قوله ﷻ:

﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُواْ شُهَدَاءكُم مِّن دُونِ اللّهِ إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ[٣٩]**. فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ وَلَن تَفْعَلُواْ فَاتَّقُواْ النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾** [٤٠]

ويحدثنا مولانا جلال الدين الرومي –رحمه الله– عن ضرورة أن يقرأ الإنسان القرآن بقلب صاف براق، عندها فقط تكتسب القلوب الحكمة والعبرة وأسرار القرآن الكريم:

---

٣٧. الإسراء: ٨٨.

٣٨. هود: ١٣.

٣٩. فكما أنهم لن يستطيعوا أن يأتوا بسورة مثله، فإنهم بالقدر نفسه لن يستطيعوا أن يلحقوا ثمة ضرر بالقرآن الكريم. أي أنهم لن يستطيعوا تحريف القرآن الكريم كما حدث مع الكتب الإلهية السابقة. لأن الله ﷻ يحفظه ويحميه: **﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾** (الحجر: ٩). ولعل المثال الروسي هو أبرز النماذج التي تدل على مدى حماية الله ﷻ للقرآن. فلم يدخر الروس وسعاً حتى يثنوا ملايين المسلمين عن دينهم. ومع هذا فلم يمسوا حرفاً واحداً من حرف القرآن الكريم.

٤٠. البقرة: ٢٣– ٢٤.

«هيِّيء نفسك جيداً قبل أن تقرأ آيات القرآن الكريم والأحاديث الشريفة! فإن لم تَشْمُم الروائح الجميلة في بساتين الورود، فابحث عن العيب في أنفك أو في قلبك وليس في البستان!...».

يقول اللّه ﷻ في الآية الكريمة:

﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ [٤١]

يحتاج الإنسان كما ورد في الآية الكريمة إلى قلب سليم حتى يتمكن من فهم القرآن الكريم وإدراكه وحتى يشعر ويحس بأنه يقف على أسراره. لأن القرآن الكريم يفيض على كل قلب من أسراره حسب حالة هذا القلب أو ذاك. يقول اللّه ﷻ:

﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ. عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ[٤٢]﴾ [٤٣]

لهذا السبب يجب أن نأخذ القرآن الكريم عن النبي ﷺ تماماً كما فعل الصحابة الكرام. وتتوقف الإستفادة الحقيقية على درجة الإهتمام والإستعداد لذلك.

يقول النبي ﷺ:

«مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم، كمثل الغيث الكثير أصاب أرضا، فكان منها نقية، قبلت الماء، فأنبتت الكلأ والعشب الكثير، وكانت منها أجادب، أمسكت الماء، فنفع الله بها الناس، فشربوا وسقوا وزرعوا، وأصابت منها طائفة أخرى، إنما هي قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ، فذلك مثل من فقه في دين الله، ونفعه ما بعثني الله به فعلم وعلم، ومثل من لم يرفع بذلك رأسا، ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به» [٤٤]

يشبه رسول اللّه ﷺ النوعين الأولين من أنواع الأراضي الثلاثة المتباينة في خواصها، يشبهها بأناس عرفوا وتفقهوا فيه وانتفعوا مما أتى به. أما الصِنف الثالث، فهو مثل شخص لا يرفع حتى رأسه كي ينظر لأي شيء حوله وهو الذي لم يقبل بالهداية التي أُرسل بها رسول اللّه ﷺ.

---

٤١. محمد: ٢٤.

٤٢. الإنذار: هو الأمر والنهي والتحذير ببث الخوف من وخامة الفعل.

٤٣. الشعراء: ١٩٣، ١٩٤.

٤٤. البخاري، العلم، ٢٠/ ٧٩.

قلب العلماء هو أرض خصبة بماء العلم الإلهي والهداية الممتلئه بماء الحياء، وهي أرض اخضرت أوراقها وأعطت محصولاً مباركاً. يقول اللّه ﷻ:

﴿أَنزَلَ مِنَ السَّمَاء مَاء فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا ...﴾ [٤٥]

وفسر بن عباس هذه الآية قائلاً:

«الماء المقصود في الآية هو العلم أما الأودية فهي القلب».

ولأن النبي ﷺ هو أعظم مفسر لآيات القرآن الكريم، فقد أتى تفسير ما يرد في القرآن الكريم في الأحاديث الشريفة.

يقول اللّه ﷻ في الآيتان الكريمتان:

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلاَّ رِجَالاً نُّوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُواْ أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ. بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [٤٦]

وأعظم المفسرين الذين جاؤا بعد سيدنا النبي هم أولياء اللّه الذين عملوا بعلمه، وأخذوا حصةً من حياته عليه الصلاة والسلام القلبية.[٤٧]

وتُحرم القلوب السوداء من أن تنال أي حصة من القرآن الكريم. فالقرآن الكريم لا يفيض بأسراره على المشركين ولا يهبهم الهداية، حتى إن ملكوا من علوم الدنيا الظاهرية؛ ذلك لأنهم حُرموا من الحياة القلبية. يقول ﷻ:

---

٤٥. الرعد: ١٧.

٤٦. النحل: ٤٣-٤٤.

٤٧. في هذا الخصوص يقول السيوطي وهو من علماء الإسلام وعظام المحدثين والمفسرين للقرآن الكريم: «لا ينهض أي شخص لتفسير القرآن الكريم دون أن يلم بتلك العلوم: اللغة، النحو، الصرف، الإشتقاق، المعاني، البيان، البديع، القراءات، الكلام، أصول الفقه، أسباب النزول والقصص، الناسخ، المنسوخ، الفقه، الأحاديث المبينة لتفسير المجمل والمبهم وعلم الموهبة. ويُقصد بالعلم الأخير: العلم الذي يهبه الله ﷻ للشخص الذي يعمل بعلمه. وفي الحديث الشريف «**من عَمل بما يَعْلَم ، عَلَّمَه اللهُ ما لا يَعلم**» إشارة لذلك». (السيوطي، الإتقان، ٣، ٢١٣ - ٢١٥)

﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ﴾[٤٨]

لهذا السبب استخدمت كلمة «**لاَ يَهْدِي**»[٤٩] في آيات كثيرةٍ مع الظالمين والكافرين والفاسقين.

كم هو كتاب عظيم هذا القرآن الكريم الذي نستقي منه لِزَمَننا الحاضر العبر والإرشاد والتحذير من خلال تناولنا لعدد من القصص التي وردت ضمن محتواه العميق.

اللّهم اجعل لنا نصيباً من الخصال الحميدة كالصبر والشكر على النعم والتوكل والتسليم بقدرك والرحمة والشفقة والتواضع وإنكار الذات وهي صفات ذخرت بها حياة أنبيائك الواردة في القرآن الكريم، ربنا ولا تحرمنا نصيباً من أن نعيش عباداً لك حقاً!...

آمين!...

٤٨. الأعراف: ١٤٦.

٤٩. "**لَا يُهدِى**": أي لا يمنحه الهداية. وقد تكررت هذه الكلمة في ٢٦ آية في القرآن الكريم، منها:
﴿...**وَاللهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ**﴾ (البقرة: ٢٥٨)
﴿...**وَاللهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ**﴾ (البقرة، ٢٦٤)
﴿...**وَاللهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ**﴾ (المائدة، ١٠٨)

سیدنا آدم
علیہ السلام

سيدنا آدم عليه السلام
الذي أُمِرَت الملائكة بالسجود له

لقد خلق اللَّه ﷻ هذا الكون بتجلي أسمائه الحسنى وصفاته العُليا، وكانت إرادته بخلق الكون في الأزل حيث كان ولم يكن شيء معه وقد أحب اللَّه ﷻ أن يُعرف من خلال هذا الخلق.

إن أكثر المواضيع التي ظهرت فيها تجليات ما استطعنا وما لم نستطع أن نعلمه من صفات اللَّه تعالى هي ثلاثة:

أ- الكون.

ب- القرآن الكريم.

ج- الإنسان.

فالكون مظهر فعلي للأسماء الإلهية. وأما القرآن الكريم فهو مظهر كلامي للأسماء الإلهية، وبعبارة أخرى فإن القرآن الكريم هو عالم مغَلَّفٌ في صورة كلام.

وأما الإنسان فنستطيع أن نشبهه بلبِّ الكون وبذرته، لأنه الكائن الوحيد الذي كان له الحظ في الأخذ من جميع صفات اللَّه تقريباً، بقلة أو بكثرة، وهذا سبب نعته بأشرف المخلوقات، ولكن لأنه تجلّى فيه صفات الجلال كـ «**المضل**»[٥٠] و«**المتكبر**»[٥١]، وصفات الجمال كـ «**الهادي**» و «**الرحمن**» و «**الرحيم**» وغيرها فإنه مَيّال إلى الخير وإلى الشر بالفطرة، وفي ذلك قال اللَّه تعالى:

﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا. فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا. قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا. وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾ [٥٢]

٥٠. المضل: يخذله ولا يلطُف به لما يعلم أنه لا ينجع فيه الإلطاف

٢. المكتبِّر: هو الذي يُظهِر جلالته وعظمته في كل شيء وأمر.

٥٢. الشمس: ٧-١٠.

ومن هنا فإن على الإنسان أن يحاول الوصول إلى درجة الكمال، وذلك يكون عن طريق اتباع إرشاد الأنبياء والأولياء، ذلك الإرشاد الذي يدعونا إلى تزكية نفوسنا وتصفية قلوبنا، والتخلص من الطباع والصفات السُّفلية الموجودة بداخلنا، والعمل على تنمية الصفات الروحانية.

ولأن الملائكة ليست لديها قدرة أو استعداد للشَّر فإن الإنسان يمكنه أن يتخطى درجتهم بوصوله إلى اللَّه ﷻ. ولذلك فإن درجة الإنسان تكون بين مقامين؛ فقد تكون في مقامٍ عالٍ أعلى من مقام الملائكة، وقد تكون في الدرك الأسفل أدنى من مقام الحيوان، فبينَ هذين المقامين تكون درجته، وذلك حسب اتباعه لوحي اللَّه تعالى. إن الإنسان الذي يستطيع اجتياز حاجز النفس يقدم لنا نموذجاً فنياً رائعاً وعملاً عظيماً، فهو فاتحة كتاب هذا الكون وخلاصته وسر خلقه، لأنه بالرغم من كونه عبارة عن دم ولحم في الظاهر إلا أنه يكمن داخل هذا الظاهر كائن معنوي يحوي الكثير من أسرار وأنوار وحقائق التجليات الإلهية.

يوضح لنا هذه الحقيقة سيدنا علي ﷺ في هذين البيتين:

دواؤك فيك وما تبصر وداؤك منك وما تشعر

وتزعم أنـــــك جرم صغير وفيك انطوى العالَمُ الأكبر.

ربط بعض العلماء بين الأعضاء والأحداث الموجودة في جسم الإنسان وبين الكائنات والحوادث المبثوثة في الكون؛ فشبَّهوا العظام بالجبال، والشعر بالنباتات، والأوردة والشرايين بالأنهار، والتَّنَفُّس بالرياح، والتكلُّم بالرعد. أي إنه يوجد في هذا الإنسان الذي هو شكل مصَغَّر عن الكون أثر ورائحة هذا الكون الكبير.

المهم أن نحاول قراءة الآيات السبحانية المبثوثة في جميع أنحاء الكون وأن نفهمها على وجهتها الحقيقية. فإن الآية الأولى التي أوحى بها اللَّه تعالى إلى نبينا محمدٍ ﷺ هي قوله تعالى: «**اقرأ**»، ومعنى القراءة هنا لا يقتصر على الشيء المكتوب فقط، بل يدل أيضاً على إنعام النظر بالعين، والتذكر والتفكر بالعقل. ومن هذا المنطلق قد تعني الآية الكريمة المعنى التالي:

«أيها الرسول، اقرأ الكلام الإلهي، تذكر وتفكر في الحقائق المكنونة في نفسك وفي الكون، وحاول إدراك حقائق الأشياء».

وبناء على هذا المعنى وضع شارحوا «المثنوي» التفسير التالي:

- ابتُدئ القرآن الكريم بـ «اقرأ» وأما المثنوي فبـ «بِشْنَوْ» يعني: «استمع»، كلمة «بِشْنَوْ» هي تفسير كلمة «اقرأ»، بمعنى:

«استمع إلى الكلام الإلهي، استمع إلى الأسرار، استمع إلى الحقائق المكنوزة في داخلك».

إن ظهور الإنسان في هذا العالم قد بدأ بآدم عليه السلام، فهو الإنسان الأول والنبي الأول والمرشد الكامل الأول، وإن نسل البشرية جمعاء المتسلسل منذ بدايتها إلى يوم القيامة كان محتوىً ومدموجاً بعضها فوق بعض في شخصه، وذلك عندما خلقه اللَّه، ويشير اللَّه تعالى إلى هذه الحقيقة بقوله:

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِى خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً﴾ [٥٣]

ويخبرنا أيضاً أنه كرم الإنسان وشرَّفه على جميع خلقه بقوله ﷻ:

﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً﴾ [٥٤]

إن هذا المخلوق الرائع - أي الإنسان- يمثل قمة الإبداع الإلهي في هذا العالم المُزَيّن بنقوش القدرة الإلهية. وفي هذا الموضوع يقول سليمان شلبي في «المولد»: «خَلَقَ الحقُّ آدمَ وزَيَّنَ به العالمَ» وكأنهما توأمان، وبعبارة أخرى فقد ألقي على عاتق الإنسان أكبر وظيفة، ألا وهي فهم أسرار الكون وإدراك حقائق الأشياء، وذلك لأنه نموذج مصغر عن الكون.

وكما تحوي حبة القمح بداخلها جميع الخصائص الموجودة في جنسها من القمح فإن بذرة كل نوع من أي جنس تحوي بداخلها خصائص وطباع جنسها. والإنسان كذلك هو كائن متميز يحتوي على حقائق جميع الأشياء الموجودة في هذا الكون. ومن هذا

٥٣. النساء: ١.

٥٤. الإسراء: ٧٠.

الوجه فكأن الإنسان بذرة أو جوهر انطوى بداخله العالم. حيث يقول في شأن هذه الحقيقة الشيخ غالب:

«انظر إلى نفسك بتمعُّن، فأنت زبدة العالَم، وأنت آدم الذي هو بؤبؤ الكون».

هناك الكثير من المقاصد الإلهية في خلق الإنسان؛ فمنها أن اللَّه سبحانه أراد أن يظهر لنا دليلاً جلياً على جماله وإبداع خلقه، فالمراد الإلهي في خلق الإنسان مهم جداً لدرجة أن اللَّه سبحانه من أجل تحقيق مقصده خَلَقَ الكون بما فيه مما يمكن إدراكه وما لا يمكن وسخره للإنسان لكي يستفيد منه.

إن الإنسان مكلَّف بعمارة الأرض، وبأعمال هي عبارة عن حصائد قلبه، لأنه خُلِق ليكون خليفة اللَّه على الأرض. ووظيفة الخلافة هذه التي تعني العيش كوكيل للّه تعالى هي بناءً على احتوائه القابلية التي تمكنه من تحقيق تلك الوظيفة الكامنة في فطرته. واللَّه سبحانه قد وضع للإنسان برنامجاً لا بد منه لكي ينمي هذا الإستعداد كما تنمو البذرة في المنبت، ألا وهو الأوامر والنواهي الموجودة في القرآن الكريم.

وقد بين اللَّه تعالى في الحديث القدسي الدرجات المعنوية للذين يسيرون في هذا الطريق، فقال تعالى:

«من عادى لي وليا فقد آذنته بالحرب، وما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إلي مما افترضت عليه، وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته: كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، وإن سألني لأعطينه، ولئن استعاذني لأعيذنه...» [٥٥]

وفي الآية الكريمة: **﴿الْحَمْدُ لِلّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾** [٥٦]

فإن اللَّه سبحانه وتعالى قد خلق عوالم كثيرة، وقد جاء بشأن عدد هذه العوالم في روايات مختلفة أنها بين ١٨٠٠٠ و ٣٦٠٠٠٠ عالَم. وقد تعتبر هذه الروايات كناية عن الكثرة بسبب أن عقل الإنسان لا يستطيع أن يدرك عدد هذه العوالم. وهذه العوالم كلها ممكن أن نصنفها ضمن شكلين رئيسين:

٥٥. الفاتحة: ١.

٥٦. البخاري، الرقائق، ٣٨/ ٦٥٠٢.

١- عالم الخلق.

٢- عالم الأمر.

وقد حصل الإنسان على حصة في خلقه من هذين العالمين.

وبين اللّه تعالى خلقه لعالمي الخلق والأمر بقوله:

﴿...أَلاَ لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [٥٧]

وقد قدم المفسر ألمالي لي حمدي يازِر شرحاً يتعلق بهذه الآية فقال:

«إن التقدير والتكوين من الأزل إلى الأبد له سبحانه، وإن القبول ووضع التشريع له أيضاً.

ومن هنا فإن المخلوقات الموجودة حجماً ومقدارا ملكه، والأوامر التي تجري عليها والتي ليس لها مقدار ولا حجم له أيضاً، أي إن الخلق له والأمر له. فالجسم والمادة والشكل بإيجادها وتكوينها، والروح والقوة التي تديرها هي من تأثيره وقوته. ولا يمكن لغيره أن يصدر منه إيجاد عدم أو إيجاد ممكنات. فالإيجاد له، وجعل الشيء واجبا يرجع له، والمعجزة له، والقانون له، وكل ما سواه خاضع لحُكمه، هذا ما يؤخذ من قوله تعالى: ﴿لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾ . أما هو فخالق كل شيء، وصاحب التصرف المطلق، ولا يوجد كائن غير مستند لإيجاده، ولا يمكن أن يصدر أمر على خلاف أمره وإيجاده».

إن العالم المتشكل من الأكوان المخلوقة والمحدودة بالزمان والمكان يقال له عالم الخلق، كما يقال له عالم المُلك والشهادة، والأشياء التي نحسها بحواسنا الخمسة الظاهرية هي من هذا العالم.

أما العالم الغيبي المعنوي والروحي فيقال له عالم الأمر.

وبعبارة أخرى عالم الأمر هو العالم الكائن بأمر اللَّه تعالى بكلمة «كن»، والغير متعلق بموضوع المادة والزمان، ويقال له عالم الملكوت وعالم الغيب أيضاً، والعقل والنفس والروح والقلب والسر وغيرها من اللطائف تعود لهذا العالم. وقد بين اللَّه تعالى في القرآن الكريم أن الروح من عالم الأمر فقال:

٥٧. الأعراف: ٥٤.

﴿...قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي...﴾ [٥٨]

والآية الكريمة التي تشير إلى نوعي الخلق في هذين العالمين هي قوله تعالى:

﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [٥٩]

الأسباب والحِكَم الأساسية من خلقنا:

١ – المقصد الأساس من خلق الإنسان هي عبوديته ومعرفته للّه تعالى. قال تعالى:

﴿وَمَاخَلَقْتُ الْجِنَّ[٦٠] وَالْاِنْسَ اِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾ [٦١]

إن العبودية التي هي الغاية المذكورة من خلق الإنسان في هذه الآية الكريمة هي مرتبة شريفة لدرجة أننا نرى موقعها الجليل في كلمة الشهادة، وبناءً عليه فإن النبي ﷺ كان عبداً أولاً ثم أصبح رسولاً، وهذا يدلنا على أن العبودية تكون أولاً، أما الرسالة فهي لا تخرج عن حدود العبودية. وقد قال النبي ﷺ تنبيهاً لمن بالغ في تعظيمه زيادة على حده، وللدلالة على أهمية مرتبة العبودية:

«**لا ترفعوني فوق حقي، فإن اللَّه تعالى اتخذني عبداً قبل أن يتخذني رسولاً**» [٦٢]

وقال اللَّه تعالى في آية أخرى:

﴿قُلْ مَا يَعْبَؤُا بِكُمْ رَبِّى لَوْلا دُعَاؤُكُمْ...﴾ [٦٣]

---

٥٨. الإسراء:٨٥.

٥٩. يس: ٨٢.

٦٠. لقد خُلِق الإنسان من التراب الذي هو جوهره الأصلي، وبالمقابل فإن الجوهر الذي خُلِق منه الجن هو النار البراقة التي لا دخان فيها «مارج من نار»، وبالتالي فإن الجن ليس له كثافة، لكن عنده قابلية للتشَكُّل في مختلف أنواع المخلوقات ذات الكثافة. وبالرغم من أن لديه القدرة على الحركة بسرعة الضوء إلا أنه ليس مخلوق متكامل مثل الإنسان في الكثير من المجالات؛ فهو من حيث المنزلة أقل من الإنسان. إن نبينا محمداً ﷺ قد أُعطي مَيِّزة خاصة به، ألا وهي أنه بُعِثَ رسولاً لكل من الإنس والجن، ولهذا لُقِّب بـ«رسول الثقلين»، وفي صعيد آخر فإن«مفتي الثقلين» هو لقب كان يُطلق على الإمام الغزالي وأبو السعود أفندي وأمثالهما ممن كانوا يُفتون كلاً من الإنس والجن، وأما «مرشد الثقلين» فلقب يطلق على المرشدين الكاملين الذين يتخصصون في تربية الإنس والجن في سلوكهم إلى اللَّه ﷻ.

٦١. الذاريات: ٥٦.

٦٢. الهيثمي، مجمع الزوائد، ٩، ٢١/ ١٤٢٢٨.

٦٣. الفرقان: ٧٧.

أي لولا عبوديتكم بالدعاء والتضرع لما كان لكم قيمة عند اللَّه تعالى ولا يُبالي ولا يَعْبأُ بكم. ومن معاني العبودية «**معرفة اللَّه**»، ولذا فإن الإمام الماتُريدي رحمه اللَّه وضع شرطين للإيمان، وهما:

أ- **معرفة اللَّه** ﷻ

إن خلق الإنسان متعلق بغاية تحقيق العبودية، ومعرفة الإنسان للّه ﷻ. ولهذا قال اللَّه تعالى في الآية الكريمة السابقة التي تبين سبب خلقنا: «**لِيَعْبُدُونِ**» [٦٤]

وقد فسر بعض المفسرين هذه الكلمة بكلمة: «**ليعرفون**» أي ليصلوا إلى معرفة اللَّه في القلب، والتي تؤدي إلى معرفته حقيقة. [٦٥]

ب- **المحبة**

يقول اللَّه تعالى في الآية الكريمة:

﴿...**وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبّاً لِلّهِ**...﴾ [٦٦]

ولهذا فإن حب اللَّه تعالى أكثر من أي شيء آخر حباً شديداً هو من أهم الأسباب والحِكَم لخلقنا، لأن اللَّه تعالى أَحَبَّنا، وأنعم علينا بنعمه التي لا تحصى، ولذلك فقد طلب من عباده أن يحبوا ذاته الإلهية، وأن لا يطغى حبهم لأي شيء آخر على حبهم له تعالى، فإن تصرفوا بخلاف ما طلب منهم فإنه يُعلِمهم أن عاقبتهم ستكون وخيمة، وأنه ينتظرهم عذاب أليم، وقد بيَّن اللَّه تعالى في الآية الكريمة، فقال:

﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ**...﴾ [٦٧]

وفي آية أخرى كأن اللَّه سبحانه وتعالى يخبرنا بأن السبب الأول لهلاك بعض الأفراد والأقوام هو قطع المحبة، فيقول:

---

٦٤. الذاريات: ٥٦.
٦٥. انظر: ابن كثير، تفسير، ٤، ٢٥٥.
٦٦. البقرة: ١٦٥.
٦٧. المائدة: ٥٤.

﴿قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ [٦٨]

وقد جاء في الحديث الشريف أن حلاوة الإيمان لا يذوقها إلا من يحمل هذه الخصائص الثلاثة:

- **أن يكون اللَّه ورسوله أحب إليه مما سواهما**
- **أن يحب في اللَّه ويبغض في اللَّه.**
- **وأن يكره أن يعود في الكفر بعد إذ أنقذه اللَّه منه كما يكره أن يُلقَى في النار.** [٦٩]

ولكن شرط محبة اللَّه ﷻ هي المحبة المفرطة لرسول اللَّه ﷺ النابعة من القلب، والتي ينتج عنها اتِّباعه والاقتداء به، وذلك يعني الفناء فيه، يقول اللَّه تعالى:

﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [٧٠]

وقد جاء في الحديث الشريف أيضاً أن محبة الرسول الكريم ﷺ هي شرط للإيمان الحقيقي، قال ﷺ:

«لا يؤمن أحدكم، حتى أكون أحب إليه من والده وولده والناس أجمعين» [٧١]

٢- إن اللَّه سبحانه وتعالى خلق الإنسان لكي يُظهر العظمة والإبداع في خلقه، فالإنسان من روائع الخلق وبدائع الوجود، ولذا فقد قال اللَّه تعالى:

﴿وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ. وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [٧٢]

وفي آية أخرى أيضاً بعد أن بين اللَّه تعالى لنا مراحل خلق الإنسان يلفت نظرنا إلى عظمته، فيقول ﷻ:

---

٦٨. التوبة: ٢٤.
٦٩. انظر: البخاري، الإيمان ٩، ١٤، مسلم، الإيمان، ٦٧/ ٤٣.
٧٠. آل عمران: ٣١.
٧١. البخاري، الإيمان، ٧/ ١٥.
٧٢. الذاريات: ٢٠-٢١.

﴿... فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ [٧٣] . [٧٤]

وهناك وجه آخر لعظمة خلق الإنسان، ألا وهو كونه أشرف المخلوقات واتخاذ اللَّه سبحانه له خليفة في الأرض، يقول اللَّه تعالى:

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [٧٥]

وقد وضع المفسر ألمالي لي حمدي يَزِر لقوله تعالى جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً التفسير التالي:

«سأهبه نصيباً من إرادتي ومن قدرتي ومن بعض صفاتي، وهو باسمي وبوكالتي سيكون صاحب التصرف في العديد من المخلوقات، ونيابة عني سيطبق أحكامي، ولن يكون أصلاً في هذا الخصوص، فهو لن يطبق الأحكام باسمه الشخصي أصالة، ولكنه سيكون نائبي ووكيلي، وسيكون مأمورا بتنفيذ إراداتي وأوامري وبتطبيق قوانيني بإرادته هو، ثم سيكون من يأتي بعده خلفاً له، فتكون وظيفتهم نفس وظيفته، وعندها يظهر سر قوله تعالى:

﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلاَئِفَ الْأَرْضِ...﴾ [٧٦] ». [٧٧]

حقاً لقد خُلق الإنسان بأوصاف واستعدادات يغبطه عليها الملائكة لقربها من الحق تعالى. ونرى هذه الحقيقة في قوله تعالى:

﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [٧٨]

٣- إن اللَّه ﷻ خلق الإنسان لكي يُظهر تجلي الأسماء الإلهية في مستوى أعلى.

فنرى أن أكبر نسبة تَجلٍّ للأخلاق الإلهية نجدها في الإنسان من بين كل المخلوقات.

٧٣. المؤمنون: ١٤.

٧٤. في اللغة العربية يمكن أن يُضاف إلى معنى كلمة «خالق» معناً آخر وهو «إيجاد شئ ما». ولهذا عحينما يُقال «أحسن الخالقين» فهذا لا يعنى أن هناك خالقاً آخر غير الله. فمثلاً عندما يُقال: «عليُ أحسن طالب» فإن هذا ليس شرطاً لوجود طلاب آخرون متفوقون في الفصل، ويمك أن يُستخدم هذا التعبير حتى لو أن علياً كان هو الطالب الوحيد في الفصل، وفي هذه الحالة يكون المعنى أن «علياً طالباً متفوقاً جداً».

٧٥. البقرة: ٣٠.

٧٦. الأنعام: ١٦٥.

٧٧. المالليي محمد حمدي يازير، حق ديني قرآن ديلي، أستانبول، ١٩٣٥، ١، ٢٩٩-٣٠٠.

٧٨. التين: ٤.

ولأن الملائكة ليس لها نصيب من تجلي بعض الأسماء كالمضلِ والمتكبرِ فإن نفسها لا تشكل مانعاً ولا ترتكب ذنباً. ولهذا فإن الإستعداد الذي يُمَكِّن صاحبه من تخطي النفس والوصول إلى اللَّه سبحانه وخلافته قد امتن اللَّه به فقط على الإنسان وحده.

ولهذا فإن أشرف المخلوقات سيدُنا محمدٌ ﷺ قد نفذ في معراجه إلى حيث لم يستطع أن ينفذ أكبر الملائكة سيدُنا جبريلُ عليه السلام من الحدود، أي إلى سدرة المنتهى.

والخلاصة أن الإنسان يجب أن يعيش حياته مدركا أنه عبد للّه أرسله إلى هذه الدنيا، وأن يكون همه دائما شكر النعم اللا متناهية التي أنعمها اللَّه عليه.

خلق سيدنا آدم عليه السلام

إنَّ خالقَ ومالكَ هذا الكون هو اللَّه ﷻ، وقد أراد خلق الإنسان وشَرَّفه على سائر المخلوقات لكي يعرفه، ولكي يطيعه ويعبده، ويعمر الأرض. وقد أبلغ اللَّه سبحانه ملائكته الذين كان قد خلقهم من قبلُ واصطفاهم لعبادته هذه الإرادة الإلهية، فقال تعالى:

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾ [٧٩]

وقد كانت ردة فعل الملائكة تجاه هذا الأمر أنهم جميعاً قالوا:

﴿قَالُوا سُبْحَانَكَ لاَ عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ [٨٠]

فالخلافة كالوكالة، وهي تقابل الأصالة، أي النيابة عن الغير، وهي تقريباً تعني تمثيل الغير بأخذ مكانه. والخليفة هنا بمعنى الوكيل الذي يمثل إرادة اللَّه تعالى في الأرض والذي يمتثل لأوامره ونواهيه، ومن هنا فإن الإنسان سيكون واسطة ووسيلة لإتمام نور اللَّه ﷻ.

والوكالة في نفس الوقت تعني تكريم وتشريف الأصل للفرع، وجَعْلُ اللَّه أنبياءه خلفاء على هذه الأرض يعتبر من هذا القبيل. وفي الحقيقة إن هناك إشارة لذلك في الروح

٧٩. البقرة: ٣٠.
٨٠. البقرة: ٣٢.

المنفوخة في الإنسان، أي يوجد وصف لهذا التوجيه فيها، وإلا لم تكن هذه الخلافة لتأتي بمعنى الوكالة عن الألوهية بأي شكل من الأشكال.

في هذه الآية الكريمة عندما أجرى اللَّه نوعاً من المشاورة مع الملائكة وأخبرهم أنه سيخلق خليفة له كأنهم بدؤوا يظهرون أنهم أليق بمقام الخلافة هذا، وبرهنوا على ذلك أنهم يسبحون اللَّه وينزهونه، ولكن اللَّه رد عليهم قائلاً: ﴿**إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ**﴾ مُعْلمهم بذلك أن خاصية التسبيح والتنزيه التي يتصفون بها ليست كافية لأن تخولهم خلافته، وأن الخلافة يمكن أن تستأهل بنفخ سره، أي روحه، فيمن يخلفه، وتعليمه الأسماء.

وهكذا فقد كانت الخلافة لائقة بالإنسان، وذلك لكونه من بدائع المحدثات أي من روائع إبداع الخلق الإلهي ظاهراً وباطناً، فهو المخلُوقُ الرائع الذي اجتمع فيه تجلي كل أسماء اللَّه تقريبا.

حكم السؤال الذي سألته الملائكة للّه سبحانه وتعالى:

١- أرادت الملائكة أن تعرف الحكمة من خلق الإنسان، وإلا فلم يكن الغرض من سؤالهم الإعتراض أو حسد سيدنا آدم، لأنه حسب ما أخبرتنا النصوص فإن الملائكة لا تتصف بمعصية اللَّه أو الإعتراض عليه سبحانه، ولا بالأخلاق السيئة كالحسد والحقد.

٢- هناك احتمال أن تكون الملائكة استطاعت أن تعرف من اللوح المحفوظ أن الإنسان سيفسد في الأرض ويسفك الدماء، فمن الممكن أن تكون قد سألت لهذا السبب، حيث إن بعض علماء الكلام ذهبوا إلى أن الملائكة تستطيع أن تقرأ ما هو مكتوب في اللوح المحفوظ.[٨١]

٣- قد تكون الملائكة سألت هذا السؤال لأن اللَّه سبحانه قد أطلعهم على هذا الحال «حال الإنسان» من قبل.

٤- طبقاً لرأي آخر فإن الملائكة سألت هذا السؤال لأنها كانت على علم بالفساد والخراب الذي سوف يحدثه الجِنُّ.

٨١. انظر: الرازي، التفسير، ٣١/ ١١٤.

يروى أن المولى ﷻ عندما أراد أن يخلق آدم عليه السلام بعث الله جبرئيل عليه السلام إلى الأرض ليأتيه بطين منها، فقالت الأرض: إني أعوذ بالله منك أن تنقص مني شيئا وتشينى[٨٢]، فرجع ولم يأخذ، وقال: يا رب إنها عاذت بك فأعذتها، فبعث ميكائيل فعاذت منه فاعاذها فرجع، فقال كما قال جبرئيل، فبعث ملك الموت فعاذت منه، فأعاذها فرجع، فقال كما قال جبرئيل، فبعث ملك الموت فعاذت منه، فقال: وأنا أعوذ بالله أن أرجع، ولم أنفذ

---

٨٢. يظهر أن الجمادات المعهودة لنا وغير المعهودة لها شعور تدرك به ثقل التكليف الملقى عليها، حيث إن سيدنا محمد ﷺعندما كان في إحدى المرات مع أبي بكر وعمر وعلي ﷺ كانوا يصعدون جبل أُحد، فبدأ الجبل يرتجف بهم، فقال له رسول اللّه ﷺ: «**اثبت أُحد، فإنما عليك نبي وصِدِّيق وشهيدان**» (الترمذي، المناقب، ١١٨\ ٣٧٠٣) إن كل فرد من الجمادات والنباتات والحيوانات يسبح بحمد ربه بلسانه الخاص، وهذا ما يبينه قوله تعالى في الآية الكريمة:

﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ (الإسراء، ٤٤)

ومن أفضل الأمثلة التي تؤيد ما قلناه: أنين جذع النخلة للنبي ﷺ (البخاري، المناقب، ٢٥)، وتفريق البحر الأحمر بين سيدنا موسى وفرعون (البقرة، ٥٠).

ومثال آخر: البحث العلمي الذي قام به العالم الياباني Masaru Emoto على بلورات الماء المتجمد، حيث وجد أن منها المستوي ومنها المتناسق ومنها سداسي الشكل، وهذه البلورات لم تمسها يد الإنسان، بل هي موجودة في مصادر المياه الطبيعية، فأدرك أنها ذات أشكال من الجمال والتناسق بحيث تسحر أعين الناس. فأخذ من ماء هذه البلورات ثم فرَّغه في وعائين منفصلين وأجرى عليها تجربة، ورأى أن بلورات ماء الكوب الأول والذي نفث فيه كلمات حب وشفقة ودعاء وامتنان قد حُفظت بالجمال الطبيعي، وأما بلورات الماء الذي نفث فيه كلمات نابية ولفظ «الشيطان» فرأى أنها تصدّعت وفسدت أشكالها وفقدت كل ميزات جمالها. وفي نفس التجربة وجد أن أثر الموسيقى الجميلة والمريحة على هذا الماء يختلف عن أثر الموسيقى المزعجة والإيقاع غير المتناغم عليه.

ولتأكيد هذه الحقيقة التي وصل إليها Masaru Emoto فقد أجريت تجربة أخرى مشابهة لها على أرز مسلوق وضع في جرار منفصلة، فوضعت في جرة بطاقة مكتوب عليها «شكرا»، ووضع في الأخرى بطاقة مكتوب عليها «غبي»، وخلال مدة شهر ظلت هذه العبارات تُلفظ، فاكتشفوا أن الأرز الموجود في الجرة الأولى بقي محافظا على بياضه ونضارته، وأما الأرز الموجود في الجرة الأخرى فوجدوا أنه اسودّ وفاح برائحة نتنة.

أمره، فاخذ من وجه الأرض، وخلط فلم يأخذ من مكان واحد، وأخذ من تربة حمراء وبيضاء وسوداء، فلذلك خرج بنو آدم مختلفين، فصعد به فبل التراب حتى عاد طينا لازبا- واللازب هو الذي يلتزق بعضه ببعض- ثم ترك حتى تغير وأنتن، وذلك حين يقول: ﴿مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ﴾[٨٣] ، قال: منتن.[٨٤]

وبسبب القرار الذي اتخذه عزرائيل في هذا الموقف وكلَّ اللَّه تعالى إليه وظيفة قبض الأرواح. ولأن الإنسان خُلق من تراب فإنه يحمل خصائصه، فالتراب ييبس أحيانا، ويُصلى من الحر، ويتلهف شوقاً إلى الماء. يتحمل قسوة موسم الشتاء، ولكنه سرعان ما ينتعش ببركة أمطار الربيع، وعندها يعرض لنا مختلف أشكال القدرة الإلهية المتمثلة بالجمال والألوان والروائح والتناغم.

والإنسان يشابه التراب أيضاً في قدَر آخر، وذلك أن الشهوات الدنيوية تعصف بالإنسان كما يعصف الإعصار الموجود في الصحراء بالرمال، ثم يهدأ. فإن النفس إنْ تسلَّطَتْ على الإنسان تجعل حياته تعسة، ولكنه بتخطيه حاجز النفس يصل إلى الكمال. وكما أن التراب يجد الحياة في أمطار الربيع فإنه ينال معها الفيض وتجليات الرحمة ويؤثر ما ناله إلى غيره. وهكذا فإن الإنسان ينفق النعم التي اكتسبها من أجل رضاء اللَّه ﷻ مثله في ذلك مثل التراب المُنبِت في فصل الربيع وبركته وجماله.

وبسبب أن جسد الإنسان الفاني مخلوق من التراب فإنه يتغذى عليه وفي النهاية يفنى فيه، أي يعود لأصله. إن جميع العناصر الموجودة في التراب موجودة في جسم الإنسان، سواء بقلة أو بكثرة، وأيضا فإن جسم الإنسان هو مظهر آخر من مظاهر التراب، حيث جاء في رواية أن آدم عليه السلام سمي «آدم» لأنه خلق من تراب[٨٥]. والآية الكريمة التي تخبرنا أن آدم عليه السلام خلق من تراب هي قوله تعالى:

﴿...خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾[٨٦]

٨٣. الحجر: ٢٨.
٨٤. الطبري، التاريخ، ١، ٩٠.
٨٥. انظر: ابن سعد، الطبقات، ١، ٢٦
٨٦. آل عمران: ٥٩.

وكما أن التراب له ألوان مختلفة كالأحمر والأسود والأبيض وغيرها فإن للإنسان المخلوق منه كذلك ألواناً مختلفةً أيضاً. ومن ناحية أخرى فكما أن بعض أجزاء التراب صلب وبعضها لَيّن فإن الناس من حيث الإستعداد والقابلية متنوعون كذلك. وهذا ما يخبرنا به اللَّه سبحانه في قوله:

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ. وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾ [٨٧]

وفي هذا الشأن يقول سيدنا محمد ﷺ:

«إن الله خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض، فجاء بنو آدم على قدر الأرض: جاء منهم الأحمر، والأبيض، والأسود، وبين ذلك، والسهل، والحزن، والخبيث، والطيب -زاد في حديث يحيى- وبين ذلك ». [٨٨]

وحسب ما روي فإن اللَّه ﷻ عَجَنَ التراب الذي خُلق منه آدم بيده أربعين يوماً [٨٩]، وإن كَيفيّةَ كل يوم من هذه الأيام هو مجهول بالنسبة لدينا.

وحسب ما أطلعتنا عليه المصادر فإن الطين الذي خُلق منه آدم عليه السلام تُرِك أربعين سنةً، وأحمي على قالبه النار، وأمطر عليه أمطار الحزن تسعاً وثلاثين سنةً، وأمطار السرور سنة واحدةً، ولهذا فإن الحزن عند ابن آدم أكثر من السرور. وقد قال أصحاب الحكمة:

ها هي الدنيا إذا أضحكتْ يوما أبكتْ أياماً

المطر المذكور هنا ليس مادياً، وإنما هو تجليات معنوية، سمي مطراً مجازاً.

الحزن دائماً يعقبه سرور، فالمكافآت الكبرى تأتي دائماً بعد الصبر والمعاناة، وذلك كمعجزة المعراج، فإن اللَّه أنعم على نبينا بها بعد جولته الشاقة والمؤلمة إلى الطائف، والمرحلة المدنية السعيدة جاءت بعد المرحلة المكية الصعبة. فقد قال اللَّه تعالى:

٨٧. فاطر: ٢٧-٢٨.
٨٨. أبو داود، السنة، ١٦/ ٤٦٩٣.
٨٩. الطبري، التفسير، ٣، ٣٠٦.

﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا. إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ [٩٠] .[٩١]

عندما نزلت سورة الانشراح سُرَّ رسول اللَّه ﷺ لأن اللَّه تعالى قرن العسر بيسرين، فخرج إلى أصحابه مسروراً فرحاً وهو يضحك وقال:

«**لن يغلب عسرٌ يسرين**» ثم تلا: ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا. إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ . [٩٢]

يقول الشاعر لمن واجه ظرفاً صعباً من مشقات هذه الحياة مرشداً إياه إلى طريق الخلاص:

إذا ضاقت بك الدنيا ... ففكر في «ألم نشرح»

فعسر بين يسرين ... متى تذكرهما تفرح

لا شك أن الدنيا دار ابتلاء مليء بالمحن المختلفة، وذلك ما أخبرنا اللَّه به في قوله تعالى:

﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ. الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلّٰهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعونَ. أُولَـئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَـئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾ [٩٣]

حتى الجمادات والنباتات فإنه عندها نضوج بعد مرورها بمرحلة عمومية من مراحل الصبر، فمجيء الربيع يكون بعد تحمل التراب العذاب في موسم الشتاء، والإنسان أيضاً ينضج بالصبر وتحمل المشقة، ويصبح إنساناً كاملاً.

يبين اللَّه تعالى لنا في القرآن الكريم مراحل خلق آدم عليه السلام من تراب كما يلي:

---

٩٠. الشرح: ٥- ٦.

٩١. تكررت في هذه الآية كلمتي«العسر» و«اليسر»، ولكن كلمة «العسر» جاءت مُعَرّفة بأل، وجاءت كلمة «يُسر» منكّرة، وحسب قواعد اللغة العربية فإن تكرار الكلمة المعرّفة يُفيد نفس المعنى، ولكن تكرار الكلمة المنكرة يفيد شيئا آخر، ولهذا السبب فإنه بالرغم من ورود كلمة «العسر» في السورة الكريمة مرتين فأنهما تفيدان عسراً واحداً، وأما اليسر فأنه موجود مرتين كما ورد. (انظر: البخاري، التفسير، ٩٤)

٩٢. الحاكم، المستدرك،٢، ٥٧٥/ ٣٩٥٠.

٩٣. البقرة: ١٥٥-١٥٧.

١. مرحلة التراب

﴿...خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [٩٤]

ولأن الإنسان خُلق من تراب فإنه يحتوي على خصائصه المختلفة في بنيته، فكما أن من التراب الطيني، ومنه الرملي، ومنه الناعم ومنه الخشن، فكذلك الناس يعرضون لنا في طبيعتهم هذا الإختلاف. وكذلك فإن التراب يُداس، ويمكن أن يُعمل عليه أي شيء بشكل مريح، ولا يصدر من التراب أي تذمر تجاه هذه الأمور، وهكذا فإن الصفات الموجودة في الإنسان كالصبر والتواضع تأتي من هنا. وبالمقابل فإن بعض الأوصاف كالسكون والعطل والكسل الموجود في التراب نراه في الإنسان أيضاً.

٢. مرحلة الطين

﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ﴾ [٩٥]

في مرحلة الطين يأتي دور الماء. قبل كل شيء فإن الماء منظِّف، فيمثل النظافة، ومن هذا المنظور فإن الماء يمثل العفة والشرف وطهارة الحواس المادية والمعنوية عند الإنسان.

٣. مرحلة الطين اللازب «الملتصق بعضه ببعض»

﴿...إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ طِينٍ لَازِبٍ﴾ [٩٦]

اللصوق يمثل عدم الإنقطاع وحس الولاء والتعلق عند الإنسان، وأيضاً فإن العناد والإصرار في الدفاع عن فكر معين عند الإنسان ناتج عن هذه المرحلة.

٤. مرحلة الصلصال «الطين المجفف بالهواء»

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ﴾ [٩٧]

٩٤. آل عمران: ٥٩.
٩٥. السجده: ٧.
٩٦. الصافات: ١١.
٩٧. الحجر: ٢٦.

في مرحلة الصلصال من حمإ مسنون المذكورة يدخل عنصر الهواء، والهواء يُدخِل لطين الإنسان قابليته للحركة، فعدم الإستقرار والتقلب وعدم الوفاء بالعهد والتهدم ومثل ذلك من الأوصاف الموجودة في طبيعة الإنسان ناتجة عن هذه المرحلة.

٥. مرحلة الحمأ المسنون «الطين المُشَكَّل»

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ﴾ [٩٨]

تشير مرحلة الحمأ المسنون إلى خاصية قابلية الإنسان للتشكل والتربية والتزكية، ويمكن لهذه الخاصية أن تُستعمل في الخير أو الشر، والمهم أنها تمكنه من تقويم نفسه.

٦. مرحلة «صلصال كالفخار»

﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ﴾ [٩٩]

يدخل في هذه المرحلة عنصر النار. وتنشأ من هذه النار بعض أوصاف الإنسان، كالكبر والغرور والحسد ومخالفة أوامر اللَّه والخيانة.

تلخص لنا الآيات ١٢-١٤ من سورة المؤمنون أحداث خلق الإنسان منذ سيدنا آدم عليه السلام إلى من بعده ممن جاء من صلبه من النّاس، يقول الحق تعالى:

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ. ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ. ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً[١٠٠] **فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَاماً فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْماً ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقاً آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾**

لم يستطع علم الطب أن يصل إلى هذه الحقائق إلا في عصرنا هذا، ولكن اللَّه سبحانه أخبرنا بمراحل خلق الإنسان في القرآن الكريم على نحو موافق للحقائق العلمية قبل ألف وأربعمئة سنة ونيّف.

---

٩٨. الحجر: ٢٨.

٩٩. الرحمن: ١٤.

١٠٠. التعبير بالمضغة: أي لحمة ممضوغة، في هذه الآية الكريمة هو معجزة قرآنية اكتُشِفت في عصرنا الحديث، إن المضغة التي تشكل المرحلة الثالثة من خلق الإنسان، ويكون الإنسان في فيها كأنه لحم ممضوغ تظهر عليه آثار الأسنان.

يذكر اللَّه تعالى في الآيات الكريمة السابقة مراحل خلق الإنسان المليئة بالعبر والملفتة للنظر. إن الطين الذي يشكل المرحلة الأولى من مراحل خلق الإنسان، أي مرحلة التراب المستعمل في خلق آدم عليه السلام، هو من حيث المظهر مادة ليس لها جمال ولا قيمة، وأما ما بعدها من المراحل

فهي تقدم لنا مادّة غير جذّابة، بل مُقرفة، تعرض لنا مناظر من ماء مهين لا قيمة له، وتخثر دم جامد دَبِق «العلقة»، ومضغة. وبعد ذلك تتدخل التجليات الإلهية، فتظهر قدرة اللَّه تعالى في بديع تشكيل الإنسان وروعة وظرافة مظهره. ويعقُبُ ذلك زوال القوة المودَعة في هذه المادة، وخروج الروح منها، فتنعكس الرحلة سيرها، ويُكمِلُ ذلك الجسد رحلته بعد اكتمال مراحل نضوجه، ويعود مرة أخرى إلى المكان الذي أتى منه، ألا وهو التراب، فيتعَفَّن ويتحلّل فيه. وبعد ذلك يأتي دور بذرة الجسد الوحيدة التي لا تَفنى ولا تتعفَّن، والتي تُسَمّى «عُجبُ الذَّنَب»، والتي تكون في هذا البدن المتعفِّن كأنها قطرة زِئبق، فتُنبِتُ الجسد مرة أخرى وتدب فيه الحياة بشكل سريع، وتخرجه من مرقده.

وقد دعا اللَّه سبحانه وتعالى الإنسان إلى التفكُّر في سير رحلته هذه في آيات كثيرة، ومنها قوله تعالى:

﴿وَمَنْ نُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ أَفَلاَ يَعْقِلُونَ﴾ [١٠١]

﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ﴾ [١٠٢]

﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى﴾ [١٠٣]

مما سبق تخبرنا هذه الحقائق أنَّ بدن الإنسان نتيجة للمراحل التي يمر بها في الدنيا، ووفقاً لطبيعته وظروفه الذاتية فإنه محكوم عليه بالفناء، وأن الشيء الأصيل والدائم الأبدي هو سلطان الروح التي يكون معها طريق السعادة أو الشقاوة، الطريق إلى الجنة أو إلى النار.

١٠١. يس: ٦٨.
١٠٢. الروم: ٥٤.
١٠٣. طه: ٥٥.

نفخ الروح «نفث الروح»

بعد أن خلق ﷻ جسد الإنسان من قبضة تراب، نفخ فيه سرا من روحه منعماً عليه بأعظم المراتب بين المخلوقات. غير أن الحياة الموجودة في الإنسان المخلوق كجسد كانت قد بدأت بنفخ الروح. ومن هذا المنطلق فإن نفخ الروح يعد قبل كل شئ تقدير من اللّه ﷻ لعبده، ومنحه الحياة. ويبين اللّه ﷻ هذه الحقيقة في الآية الكريمة:

﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُواْ لَهُ سَاجِدِينَ﴾ [١٠٤]

إن نفخ اللّه تعالى من روحه في آدم عليه السلام إنما هو تعبير مجازى. وكذلك في منح اللّه ﷻ العبدَ بعضاً من صفاته وفقاً لقدرات العبد واستعداداته. وبهذا النفخ يعرف الإنسان ربه ببركة وقدرة هذه الأمانة التي تلقاها منه، ويكون عبداً له. ويكون الإنسان على بصيرة من الأسرار والعظمة الإلهية على قدر طاقته وقدرته. أما مركز هذه الإحاطة فهو القلب. والقلب هنا ليس ككيان فيزيقي، إنما بوصفه مكاناً للتجلي ومركزاً للإحساس. إن امتلاك النفس السلطانية يجعل الإنسان بثلاث مهام أساسية ويكون مزوداً بالقدرة على الإيفاء بتلك المهام وهي:

١- معرفة نفسه، أي معرفة ذاته وحقيقتها.

٢- معرفة خالقه، أي معرفة ربه «معرفة اللّه».

٣- إدراك فقره وحاجته إلى خالقه، الوصول إلى العدم.

ولقد ورد في الأثر أن: «من عرف نفسه فقد عرف ربه».

إن أول موجود خُلق إنما هو النور المحمدي، مثلما أن روحه الشريفة هي الأولى في خلق الأرواح. أما الأرواح الأخرى فهي من قبيل مكنون الجوهر وذلك من أجل معرفة قدر وقيمة روحه الشريفة.

ويروي أبو هريرة أن الصحابة ﷺ سألوا رسول اللّه ﷺ قائلين:

- يا رسول الله متى وجبت لك النبوة؟ قال: «**وَآدَمُ بَيْنَ الرُّوحِ وَالجَسَدِ**» [١٠٥]

١٠٤. الحجر: ٢٩.

١٠٥. الترمذى، المناقب، ١، ٣٦٠٩.

وعلى هذا يكون سيدنا محمد ﷺ هو الأول في النبوة أيضاً. وإن الحكمة الكامنة في كونه الأول من حيث خلق الجسد، الروح، والنبوة سنتناولها لاحقا في موضوع أمر اللّه للملائكة بالسجود لسيدنا آدم عليه السلام. ويمكننا أن ندرس الروح في قسمين:

١- الروح السلطانية:

وهي من عالم الأمر. وتكون منفصلة عن الجسد. وكونها معه إنما يكون لسيطرتها عليه وتحكمها فيه. ولا يؤثر فيها كون الجسد يفنى ويتعفن. غير أن الرغبات الجسدية بهذه الصورة تتخلص من السيطرة التي هي عليها.

٢- الروح الحيوانية:

وهي من عالم الخلق. وتنتشر في كل أنحاء البدن. تكون سيطرتها الأساسية على الدم. مركزها هو المخ. وهي تشكل نقطة البداية بالنسبة للأفعال والحركات. ولو لم تكن هناك الروح الحيوانية لما أصبح هناك تأثيرا في الجسد.[١٠٦]

الأطوار الخمسة للروح:

١- طور العدم: كان اللّه ﷻ موجودا وحده في الأزل، ولم يكن يوجد هناك أي موجود آخر سواه. وخلال تلك الفترة كانت الأرواح في عدم تام. وهكذا تخبرنا الآية الكريمة:

﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى الإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئاً مَّذْكُوراً﴾ [١٠٧]

٢- طور وجود عالم الأرواح «مرحلة ألست»:

خلق اللّه ﷻ الأرواحَ قبل خلق الأجساد لحِكَم كثيرة جداً. وهكذا يتناول الحديث الشريف هذه الحقيقة:

«خُلقت الأرواحُ قبل الأجساد بألفي عام» [١٠٨]

---

١٠٦. انظر: اسماعيل حقي البروصوي، تمام الفيض، «تحقيق على نامل»، رسالة ماجستير غير منشورة، اسطنبول، ١٩٩٤، ص ٤٧.

١٠٧. الإنسان: ١.

١٠٨. الديلمى، المسند، جـ٢، ص ١٨٧- ١٨٨.

٣- طور إرسال الأرواح إلى الأجساد:

إن الأرواح التي خلقت قبل الأجساد بأزمنة بعيدة، والتي أُخذ منها العهد والميثاق فيما يتعلق بالإقرار بربوبية اللّه ﷻ، كان قد شُرع في نقلها وإرسالها إلى الأجساد واحدة فواحدة بما يتواءم مع خطة القدر التي كانت قد أُعدت في الأزل. وهكذا تتحدث الآية الكريمة عن نفخ الروح في آدم عليه السلام بوصفه أول إنسان:

﴿...وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى﴾ [١٠٩]

٤- طور الانفصال عن الأبدان:

تنفصل الأرواح التي استوفت أجلها الذي كان قد قُسِم لها في هذه الحياة الفانية، تنفصل واحدة فواحدة عن أبدان التي لبثت فيها فترة مؤقتةً. وهذا المصير المحتوم الذي لا يمكن لأي أحد أن ينجو منه يقال له: الموت. وهكذا تخبرنا الآية الكريمة:

﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ الْمَوْتِ...﴾ [١١٠]

٥- طور العودة إلى الأبدان مرة أخرى:

الموت في العقيدة الإسلامية ليس فناءً وزوالاً، إنما هو أشبه تمام الشبه بميلاد الطفل الموجود في رحم الأم حينما ينقطع ارتباطه به. فحينما تتخلص الروح من هذا العالم الفاني يكون ميلادها في صباح حياة أبدية. وهناك سيحاسب الإنسان عن الحياة التي عاشها في الدنيا، وكنتيجة لهذا، فإما سيصل الإنسان إلى سعادة لا حد لها، أو يتعرض لعذاب أبدى.

وهاتان آيتان اثنتان من بين مئات الآيات المتعلقة بهذا الموضوع:

﴿قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ [١١١]

وعندما يتحدث المولى ﷻ في الآية السابعة من سورة التكوير عن علامات يوم القيامة الشديدة والرادعة يخبرنا اللّه ﷻ برده الأرواح للجسد من جديد:

﴿وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ﴾ [١١٢]

١٠٩. الحجر: ٢٩.
١١٠. آل عمران: ١٨٥.
١١١. يس: ٧٩.
١١٢. التكوير: ٨٧.

ليس ممكناً بأي حال من الأحوال معرفة ماهية الروح التي تُنفخ من قبل اللّه ﷻ في الإنسان بوصفها سراً. ذلك لأنها تنتمي إلى عالم الغيبيات وتعبر عن ماهية لن يستطيع أن يعيها إدراك البشر. وبناء على هذا يخبرنا المولى ﷻ في الآية الكريمة بشأن ماهية الروح:

﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلا﴾ [١١٣]

- الروح من الأمور التي لا يعلمها إلا ربنا ﷻ.
- الروح هي الجوهر الذي يكون أساس «الأمر».
- الروح عبارة عن فعل من قبيل أمر ربنا ﷻ.

ويمكن إيضاح كلمة «أمر» الواردة في الآية بكلمات مثل «الأمر، السلطة، السيادة، الإمارة» بوصفها متعلقة أيضاً بكلمة إمارة التي هي من نفس أصلها. وفي هذه الحالة يكون معنى الروح صفة وحالة الأمر. وهذا أيضاً يعتبر تجلى لصفات اللّه في العبد.

وهذا يعنى أيضاً أن الإمارة «الحكم والإدارة» تكون إحدى الصفات التي تتجلى في العبد. وبناء على هذا فإن كون الإنسان خليفة اللّه، فهذا يتصل بتجلي السلطة «الإدارة» التي توجد هنا.

والإمارة خاصة بالإنسان. فالبرغم من أن الأسد يكون أقوى من الإنسان من الناحية الجسمانية، إلا أنه يظل ضعيفا في مقابل نضج الإنسان وتكامله العقلي، فمثلا إذا عاش الأسد ألف عام فلن يستطيع أن يصنع لنفسه آلة أو منزلاً.

علاوة على ذلك أيضاً فلا يوجد تجلياً بالمعنى الكامل عند الملائكة. إن هذا النمط من التجلي يكون متوائماً مع الإنسان فقط. والإنسان يكون بين «أحسن تقويم» و«بل هم أضل: درجة أدنى من الحيوانات».

فمثلاً نجد صفات «**الرحمن**» و«**الرحيم**» التي تتجلى في محيط قلب الإنسان، مجتمعة في نفسه جنباً إلى جنب مع صفات «مُضِل» و«كبرياء».أي أن الإنسان يعد جامع الأضداد. فهو يجمع في داخله جميع الصفات الإيجابية والسلبية. وكونه جامع الأضداد إنما هو أمر يختص به الإنسان دون غيره من المخلوقات.

---

١١٣. الإسراء: ٨٥.

في نهاية الآية الكريمة السابق ذكرها يتم التعبير بشكل قاطع عن أن الإنسان أُعطى علم قليل فيما يتعلق بماهية الروح بوجه خاص.

وعلى هذا يجب على الإنسان ألا ينشغل بفك أسرار الروح متجاوزاً في ذلك حده، وعليه أيضاً ألا يغتر بعلمه، وفي مقابل ذلك عليه أن يولى أهمية أكبر للعبودية متفكراً بشكل أعمق في طبيعة مسؤولياته. بعد أن خلق اللّه ﷻ آدم عليه السلام علَّمه أسماء الأشياء كلها من أجل تحقيق القوامة له على سائر المخلوقات. وتروى الآية الكريمة التالي ذلك في قوله ﷻ:

﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [١١٤]

وعندئذ سبّحت الملائكة بحمد اللّه تعالى منزهين إياه عن كل صفات النقص، وفي هذا يقول اللّه تعالى:

﴿قَالَ يَا آدَمُ أَنبِئْهُمْ بِأَسْمَآئِهِمْ فَلَمَّآ أَنبَأَهُمْ بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ [١١٥]

إن المقصود بالأسماء التي عُلمت لآدم عليه السلام طبقاً لأحد التفسيرات- كان أسماء جميع الأشياء الموجودة على وجه الأرض، وماهيتها، وخصائصها.

نحن لا نستطيع أن نعلم بقدر ما ينبغي مظاهر القدرة الإلهية، جميع الأسرار الإلهية بما فيها من حِكم، أي غايات الأسماء الحسنى ودلالتها. ومن ثم فإمكانية معرفة اللّه ﷻ يمكن أن تتم فقط من خلال حياة قلبية. وهكذا تتضح حقيقة الأشياء وأسرارها من خلال الحدث القلبي. وهذا يتعلق فقط بالإحاطة بأسماء اللّه الحسنى والتعرف إليه. ويعرف اللّه سبحانه وتعالى نفسه لعباده من خلال الأسماء الحسنى فيقول سبحانه وتعالى:

﴿وَلِلَّهِ الأَسْمَآءُ الْحُسْنَىٰ...﴾ [١١٦]

١١٤. البقرة: ٣١.
١١٥. البقرة: ٣٣.
١١٦. الأعراف: ١٨٠.

ذلك لأن العبد يحقق من خلال الاسم صلته بالإلوهية. وتوضح هذه الحقيقة أن اسم اللّه تعالى يُعد مكوناً لا يمكن التخلي أو الانقطاع عنه. ومن هذا المنطلق فإن أفعال الخير والشر التي يقوم بها العبد تجاه اللّه لا تتجه إلى حقيقة الإلوهية وإنما تتجه إلى اسمه. وهكذا تظل حقيقته جل وعلا منزهة دوماً.

وفي حقيقة الأمر، فإذا لم تكن هناك أسماء قد اختص بها اللّه ﷻ نفسه، لواجه العبد حينها متاعب في تنظيم صلاته باللّه. ذلك لأن الإنسان متعود على رؤية الموجودات في أسمائها، ومتعود أيضاً على التعبير بالاسم. فالاسم بالنسبة للإنسان هو تجلى الكون. ولذلك فحينما خلق اللّه ﷻ آدم عليه السلام علَّمه الأسماء كلها، ولقد عبر سبحانه بهذا عن أفضلية سيدنا آدم بالنسبة للملائكة. ذلك لأن معرفة أحد أسماء الوجود يعنى التعرف على وجوده الحقيقي في أحد المعاني. وبناء على هذا فإننا إذا لم نعرف اللّه ﷻ بأسمائه الجليلة فماذا نستطيع أن نعلم بشأنه سبحانه وتعالى؟

ومعنى هذا أن الإنسان محتاج دوماً إلى الأسماء التي تبين سمات ربه جل وعلا. كل عبد يريد أن يدعو ربه باسم يلاءم حاله، وذلك من خلال المواقف المختلفة التي يعيشها. ولولا هذه الأسماء لبقيت صلة الإنسان باللّه ﷻ منقوصة جداً، بل لعلها أيضاً ستكون مستحيلة.

ويمكن القول بأن هذه الأسماء تعد بمثابة الأقوال التي تزيل بَكْم الإنسان حيال الذات والإلوهية، أي أنها تعد أيضاً المفاتيح التي تفتح مغاليق النفس البشرية وتخلصها من مآزقها. فحتى مجرد ذكر أسماء اللّه ﷻ فقط يكون له بالغ الأثر في زيادة إيمان العبد، وجعله يشعر بالحضرة الإلهية، وزيادة عشقه ومحبته للّه ﷻ، وجعله خاشعاً للّه ﷻ.

وفي الترغيب في التواجد في معية اللّه ﷻ، وهجر الدنيا والتخلي عن متعها ولذاتها الزائلة، وجعله يتجه إلى كل ما هو خالد أبدى، والشعور برغبة عارمة في العودة إلى الحق جل وعلا والوصل به. إن الأدعية والأذكار التي أوصى النبي ﷺ بقراءتها، إنما هي مليئة بأسماء اللّه الحسنى، ومثل هذا يوجد فوائدها أيضاً.

إن أي مؤمن يواجه ظروفاً شديدة الصعوبة يكون حينئذ في أمس الحاجة إلى رحمة اللّه. وحينما يريد عون ربه فإنه سرعان ما يبحث عن عبارة لكي يلخص بها حاله ويعبر عنه: فيتعلق بأسماء: «الرحمن والرحيم».

وحين يشعر بانقطاع صلة القلب وذلك عندما يُسحَق تحت وطأة ذنوبه الثقيلة، فإنه حينئذ يبادر بالبحث عن وسيلة تقربه من اللّه: فيلوذ بأسماء: «الغفار والستار».

وعندما يمعن النظر في العظمة أو في القدرة الإلهية التي تتجلى في الكون أو في نفسه، فإنه يبحث عن تعبير يعبر من خلاله عن عاطفته وانطباعه، الأمر الذي لا يمكن التعبير عنه من خلال الكتب: فيهدئ نفسه الهائجة قائلاً: «اللّه أكبر». وجملة القول أن العبد في مختلف أحوال نفسه يستطيع أن يتغلب على الكثير من حاجاته واختلاجاته التي يشعر بها، ويفتح أبواب نفسه المنغلقة وذلك بواسطة صفات اللّه ﷻ المتنوعة.

ومن أجل هذا، فلقد عرَّف اللّه ﷻ نفسه بأسلوب يتمكن الإنسان من فهمه، وبشكل يتفق مع الواقع. أي أن اللّه ﷻ حينما يُعرِّف نفسه من خلال صفات: العليم، الحكيم، القدير الغفور، وغيرها، وكذلك في معرفة الإنسان للّه ﷻ هكذا، فإنه في حقيقة الأمر يوجد سبب خاص يتعلق بالإنسان. ذلك لأنه يوجد بداخل الإنسان –ولو بدرجة محدودة جداً– جزء من هذه الصفات. وهذه أيضاً تُعد موهبة إلهية مُلطَّفة من أجل هداية وإيمان البشر.

وفي أحد معاني الآية الكريمة التي أخبرنا اللّه ﷻ فيها أنه علم آدم عليه السلام الأسماءَ، يقول تعالى فيما معناه:

«سأعلم الإنسان أسماء الأشياء، وأسرارها، وحكمها الدقيقة ومظاهر جمالها، والإعجاز الإلهي...»

وهنا يمكن الإشارة إلى أن شرف الإنسان وفضيلته سيتمكن من تحقيقهما بفضل العلم النافع الذي سيحصله. ولهذا ينبغي على الإنسان أن يبذل قصارى جهده في القيام بالأعمال الصالحة، وفي تحويل علمه إلى فهم ومعرفة، ذلك لأن الهدف إنما هو التقوى. يقول اللّه ﷻ في الآية الكريمة:

﴿...إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ...﴾ [١١٧]

والعقل هو مخلوق من مخلوقات اللّه ﷻ. ويمكن للعقل أن يثبت وجود اللّه بالحجة. ذلك لأنه يصل من خلال الأثر إلى المُؤثِّر، ومن الإبداع إلى المبدع. أما حكمته

١١٧. الحجرات: ١٣.

فيمكن أن تُحل فقط في ضوء الوحي. إلا أن قدرة وصلاحية العقل ومضمون الوحي تكون محدودة من حيث الفهم والإدراك. فحيثما ينتهي العقل ويتوقف، فإن القلب يواصل تقدمه بفضل نشاطه وفعاليته.

لكن حتى هذا لا يعد كافيا من أجل الوصول إلى الحقيقة المطلقة. لأن ذات اللّه مطلقة. وليس من الممكن الوصول إليها بواسطة العقل المقيد «أي أنه ليس مطلقاً» إلى الذات المطلقة وإدراكها بشكل تام على ما يقتضيه الأمر. فيقول اللّه تعالى:

﴿...وَلاَ يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلاَّ بِمَا شَآءَ...﴾ [١١٨]

وبالرغم من ذلك ينبغي على الإنسان ألا يُحجم عن طريق المعرفة، وأن يبذل كل جهده في البحث عن مختلف الوسائل للوصول إلى ربه. وإن أفضل النماذج لمن يبذلون هذا الجهد إنما هم الأنبياء. وعلى هذا، كان إبراهيم عليه السلام قد قال:

﴿وَقَالَ إِنِّى ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّى سَيَهْدِينِ﴾ [١١٩]

ويشار في الخبر أيضاً إلى عدم إمكانية معرفة اللّه ﷻ كما ينبغي، ومع ذلك يشار إلى أهمية هذه المعرفة قائلاً:

«سبحانك ما عرفناك حق معرفتك...» [١٢٠]

لقد تلقى رسول اللّه ﷺ العلم على ثلاثة وجوه:

أولاً: **علم محفوظ** بينه وبين اللّه ﷻ. وهذا العلم لم يصرح به للناس، لكونه فوق مستوى إدراك البشر. لكن يمكن إدراكه واستيعابه بنور النبوة. ومن هذا القبيل تلك المعاني التي تحملها الأحرف المقطعة. وبناء على هذا لم ينقل سيدنا رسول اللّه إلى أصحابة كل معرفة أُخبر بها على نحو خاص، فيما عدا الوحي لكونه مأمور بتبليغه. ويشير حديث سيدنا رسول اللّه لهذه الحقيقة بقوله:

«... لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا» [١٢١]

---

١١٨. البقرة: ٢٥٥.

١١٩. الصافات: ٩٩.

١٢٠. المناوى، فيض القدير،١١ ،٢٥٠/ ٢١٧٠.

١٢١. البخارى، الكسوف ٢/ ١٠٤٤؛ مسلم، الصلاة، ١١٢/ ٤٢٦.

ويقول رسول اللّه ﷺ أيضاً في نفس الموضوع:

«لي مع الله وقت لا يسعني فيه ملك مقرب ولا نبي مرسل» [١٢٢]

ثانيا: **علم الشريعة** الذي يتعلق بالعامة. وكل البشرية مكلفة بالإيمان بهذا العلم والعمل به. وتعبر هذه الآية الكريمة عن هذا النوع من العلم:

﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ...﴾ [١٢٣]

ثالثاً: **قسم يُتاح لأهل الاختصاص**. ولقد نهى اللّه تعالى رسولَه ﷺ للأشخاص ممن هم ليسوا أهل اختصاص. فذات مرة أوصى النبي ﷺ ابن عباس رضي الله عنه قائلاً:

«يا ابن عباس! لا تحدث حديثاً لا تحتمله عقولهم فيكون فتنة عليهم» [١٢٤]

ولهذا يقول سيدنا علي رضي الله عنه:

«حدثوا الناس بما يعرفون، أتريدون أن يُكَذَّب اللّه ورسوله» [١٢٥]

وعن ابن عباس رضي الله عنه أن الصحابة الكرام سألوا رسول اللّه ﷺ قائلين:

– يا رسول الله ما نسمع منك نحدث به كله؟ فأجاب رسول اللّه ﷺ قائلاً:

«نعم إلا أن تحدث قوما حديثا لا تضبطه عقولهم فيكون على بعضهم فتنة، فكان ابن عباس يكن أشياء يفشيها إلى قوم» [١٢٦]

وبعد هذا التحذير كان ابن عباس رضي الله عنه يوضح بعض الأشياء بالتلميح «بطريق غير مباشر» وذلك إذا قام بشرح مسألة إلى العامة من الناس.

وهكذا يقول أبو هريرة رضي الله عنه في هذا الشأن:

«حفظت من رسول الله ﷺ وعاءين: فأما أحدهما فبثثته، وأما الآخر فلو بثثته قطع هذا البلعوم » [١٢٧]

---

١٢٢. العجلوني، كشف الخفاء، ٢، ١٧٣/ ٢١٥٩؛ المناوى، فيض القدير، ٤، ٦ / ٤٣٧٧.

١٢٣. المائدة: ٦٧.

١٢٤. الديلمي، الفردوس، ٥، ٣٥٩/ ٨٤٣٤.

١٢٥. البخاري، العلم، ٤٩/ ١٢٧.

١٢٦. علي المتقى، كنز العمال، ٥، ٣٠٧/ ٢٩٥٣٧.

١٢٧. البخاري، العلم، ٨٢/ ١٢٠.

هذا العلم الذي كتمه خيار الصحابة عمن هم ليسوا أهلا له كان عبارة عن حقائق سيتمكن من إدراكها أناس مستثنون، مزودون بمقدرة فائقة فيما يتعلق بالفهم والإدراك.

كان رسول اللّه ﷺ قد نقل حقائق كهذه إلى بعض الأشخاص ذوى الفهم الفائق من أصحابه الكرام أمثال سيدنا أبو بكر الصديق وسيدنا علي ﷺ. إن كل شخص يكون مسئولا عن هذا بقدر استعداده ومهارته. وينبغي على العبد تنمية هذا الاستعداد من أجل نجاته وبلوغه السلامة، والوصول إلى مشاعر الزهد والتقوى والإحسان، وبتعبير آخر ينبغي عليه أن يسعى إلى معايشة التصوف في أبهى صوره وأجملها. وهذا أيضا يمكن تحقيقه فقط من خلال تزكية النفس وتصفية القلب.

وبادئ ذي بدء، فإن سلامة الفرد تكون ممكنة بإتباع التكاليف الشرعية. أما كونها تتفق مع مبادئ التصوف، فذلك يضمن تحقيق هذه السلامة بسمو عالٍ وعلى نحو خاص.

ولما كانت التكاليف الشرعية تخاطب كل الناس، لذا فهي تُطبَّق في حدها الأدنى بما تقتضيه الرحمة الإلهية، وتؤخذ قدرة أكثر أفراد العامة عجزاً كمقياس لذلك. أما فيما يتعلق بالترقي والسير قدما في طريق التصوف فتظل مقدمة هذا الطريق مفتوحة وفقا للاستعداد، وتعرف رخصة إلى أهلة حتى الفناء في اللّه والبقاء باللّه.

فمثلاً بالرغم من أن زكاة المال تكون اثنين ونصف بالمائة، فإن اللّه ﷻ لم يضع حداً للإنفاق. فلقد حث اللّه المؤمن على إعطاء أخيه المحتاج ولو حتى نصيبه الذي يكون هو نفسه في حاجة إليه مُؤْثرا إياه على نفسه. وهذا النصاب الشرعي للزكاة يكون طبقاً للحد الأدنى فيما يتعلق بالقلب.وكلما زادت محبة القلب زاد معها حد الإنفاق.

ومن هذا المنطلق فإن علم التصوف بوصفه حقيقة إنما هو «علم لدنى»، والذي يمكن الوصول إليه على حسب قدرة الفرد واستعداده نتيجة الرياضة الروحية. والدليل على ذلك تحدث القرآن الكريم بشأن هذا العلم في عددٍ من الآيات الكريمة. يلطف اللّه كثيراً باللذين يتقونه على ما ينبغي من تلقاء أنفسهم، وكذلك بقلوب العباد اللذين تخضع إرادتهم البشرية ورغباتهم لإرادة اللّه تعالى، كما يلطف كثيراً أيضاً بهؤلاء اللذين لا يستطيعون أن يزنوا الأمور ويقدروها. وبناء على هذا، يخبرنا ربنا جلَّ وعلا في القرآن الكريم أنه سبحانه قد تفضل على عبادة المتقين بحكمة وعلم على نحو خاص:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِن تَتَّقُواْ اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَاناً وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ [١٢٨]

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [١٢٩]

إن أشخاصاً مثل الإمام الغزالي وعبد القادر الجيلانى كانوا قد وصلوا من قبل إلى قمة العلم الظاهري، لكنهم تمكنوا بعد ذلك من الوصول إلى بعض التفاصيل الغيبية، وذلك بفضل المشاعر الرقيقة المتجهة إلى اللّه، التلطف والرأفة، وكذلك بفضل قوة المشاعر القلبية وعمق التفكير القلبي، فصاروا عشاقاً للّه ﷻ.

لقد منح اللّه ﷻ بعضَ صفوة الخلق بعضَ الأسرار التي لم ينعم بها على العامة، وذلك بقدر قوة مشاعرهم القلبية. ولو لم يكن الأمر هكذا لما ظهرت تلك الشخصيات المعروفة.

سجود الملائكة لآدم عليه السلام

بعد أن خلق اللّه آدم عليه السلام ونفخ فيه من روحه، وعلمه الأسماء كان قد أمر الملائكة بالسجود له. وفي هذا الشأن يقول اللّه ﷻ في الآية الكريمة:

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ للملائكة إِنِّى خَالِقٌ بَشَراً مِّن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ. فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُواْ لَهُ سَاجِدِينَ. فَسَجَدَ الْمَلائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ. إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ. قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ. قَالَ لَمْ أَكُنْ لِأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ﴾ [١٣٠]

ولقد تم الحديث عن هذه الواقعة في القرآن الكريم وأُفرد لها مكان في سبع سور باعتبار أن كل واحدة منها تختلف عن الأخرى من حيث السياق والسباق. وهذا أيضا يوضح أهمية الموضوع. وهنا توجد توجيهات بالغة الأهمية:

١٢٨. الأنفال: ٢٩.
١٢٩. الحديد: ٢٨.
١٣٠. الحِجْر: ٢٨- ٣٣.

لم يأخذ إبليس أوامر اللّه بعين الاعتبار، وتحرك في اتجاه رغباته وأهواءه. كان قد قدم مقايسة المنطقية وقياسه العقلي على أوامر اللّه ﷻ.ولهذا فإن العبد أيضاً إذا قدم عقله ومنطقه ورأيه على أمر اللّه ﷻ فإنه سيصبح حينئذٍ عرضة للخطأ نفسه الذي وقع فيه إبليس. حيث ورد ذلك التحذير الإلهي بهذا الشأن في الآية الكريمة:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [١٣١]

ويخاطب اللّه ﷻ إبليس ويسأله عن سبب امتناعه عن السجود بقوله:

﴿قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بيدي...﴾ [١٣٢]

إن كلمة «بيدي» التي ذُكرت في هذه الآية إنما تعبر عن قدرة اللّه تعالى، وفي الوقت نفسه فإن هذا التعبير يظهر تلك الأهمية التي أولاها اللّه ﷻ للإنسان.

وهكذا يعبر «محي الدين بن العربي» عن هذا المعنى بتعبير آخر إشارى فيقول: «اليدان هما تجليات اللّه الجلالية والجمالية. حيث إن بُنية جسد الإنسان وجانب الخلق الجسدي يعتبر تجلى جلال، أما الجانب الروحاني المعنوي فيعد تجلى جمال. وفي الإنسان يكون الجمع بين الاسمين، أما عند إبليس فيتوافر له تجلى الجلال فقط، ويظل محروما من تجلى الجمال».

ولقد ورد في الحديث الشريف:

«... إن الله خلق آدم على صورته» [١٣٣]

إن الحقيقة التي تم التعبير عنها في الحديث الشريف ليست صورة جسدية، إنما هي صورة باطنية ومعنوية. فهي ليست جانب الجسد والكينونة وإنما جانب السر والروح.

لو لم يكن يوجد في آدم عليه السلام مظهر هذه التجليات الإلهية بكاملها، ولو لم يكن فيه صفات سامية تختلف عن بقية المخلوقات، لكان مستحيلاً أن يصبح خليفة، ولما استطاع الإيفاء بمهمته. لكن قيامه بإنجاز تكليفه بوصفه خليفة في الكون إنما هي كيفية

١٣١. الحجرات: ١.
١٣٢. ص: ٧٥.
١٣٣. مسلم، البر،١١٥/ ٢٦١٢.

تعود إلى إنسان كامل امتلك النضج مرورا بمراحل تزكية النفس، تهذيب الأخلاق وتصفية النفس.

وإذا تمكن الإنسان من الوصول إلى الطليعة في الحياة. ستكتمل تجليات اسم «الهادي» مثل: الهداية، الاستقامة، الإيمان، الإقرار، القبول، التودد «الصحبة والمحبة»، فإنه حينئذٍ يرتقى إلى درجة تفوق حتى الملائكة. وعلى العكس من ذلك، فإذا غلبت عليه تجليات الاسم الشريف «المُضل» مثل: الإضلال، الحيلة، الكفر، الإنكار، الحسد، والتسلط فإنه يتهاوى حينئذ إلى درجة أدنى من الحيوانات.

وبناء على هذا يقول اللّه تعالى في الآية الكريمة:

﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ [١٣٤]

إن عدم سجود الشيطان لآدم عليه السلام كان إشارة دالة على الخيلاء والكبر الكامن في شخصيته. لأنه كان في وقت من الأوقات يملك علما بدرجة جعلته كبيراً للملائكة. ولهذا السبب تبوأ مكانة بارزة.

ويتبين من هذه النقطة مدى خطورة العلم والجاه، كإثارة مشاعر الأنانية عند الإنسان. ومع هذا توجد إشارة أيضاً إلى أن العلم وحد غير كافٍ لطاعة اللّه ﷻ. حيث كان الشيطان من طائفة الجن مخلوق من نار ملتهبة بلا دخان. أجرى الشيطان مقارنة وفقاً لعقله المحدود مدعياً أن النار الملتهبة بلا دخان التي خلق منها إنما هي أعظم قدراً من الطين المبلل الذي خُلق منه آدم عليه السلام، ذلك لأنه كان يتصور في داخله أن ذلك يعد شرفاً وقيمة له. لأنه كان يعتبر أن من المذلة أن يسجد لآدم الذي هو أقل منه قدراً -طبقا لرأيه!- المخلوق من طين على اعتبار أصل الكينونة، معتبراً نفسه أعظم شرفاً حيث نشأ من أصل أعظم قيمة على اعتبار الجوهر الأصلي. ومثل هذا الموقف يشير إلى عدم كفاية العقل للوصول إلى الحقيقة.

١٣٤. الأعراف: ١٧٩.

وطبقا لما يُفهم من هنا فإنه يجب ألا تجرى مقارنة حيال أمر اللّه ﷻ. فالقياسات التي تجرى مخالفة للأصل تكون باطلة وفاسدة، ولا يُعتد بها.وهكذا وقع الشيطان في هذه السقطة.

إلى جانب ذلك، فحتى إدعاء الشيطان بأن منزلة النار أعلى من التراب يبقى تصوراً نسبياً. لأنه توجد خصائص كثيرة جداً في التراب تجعله أعلى منزلة من النار.

لكن المهم في ذلك ليس المقارنة وإنما الإمتثال لأمر اللّه تعالى. والذنب الأساسي الذي ارتكبه الشيطان إنما هو محاولة إضافة أمر بخلاف أمر اللّه.

وبناء على هذا قال إبليس بحماقة وتهور:

﴿...قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾ [١٣٥]

نظر الشيطان إلى الطين الذي خُلق منه سيدنا آدم في حين أنه لم ير عظمته. شاهد الطين المرتبط بهذه الدنيا، لكنه عمى عن المعنويات المتعلقة بالعالم الآخر.

والجانب الذي لم يستطع الشيطان إدراكه هو أن الإنسان «خليفة اللّه» بعين الواقع، وهكذا لم يستطع إدراكه أن يتجاوز مجرد مادة آدم عليه السلام. كان قد استمد إدراكه من نفسه وليس من اللّه ﷻ.

ولهذا السبب تحير وتحرك تحت تأثير عاطفته وانفعاله. إن إبليس الذي لم ينفذ أمراً آذى شعوره ولم يوافق رغبته، والذي لم يجتز اختباراً كهذا لم يستطع إدراك الحكمة الإلهية في ذلك. كان قد غرق وسط دوامات النفس وعصى اللّه بصورة قبيحة.

كان إبليس قد انقاد لنفسه المتفلتة وامتنع عن السجود لسيدنا آدم بسبب خوفه من فقدان كبريائه. لكنه بهذا التصرف أوقع نفسه في حالة أسوء من الخوف، حيث طُرد من هذا المقام العظيم الذي تفضل اللّه به عليه. أصبح مُحقراً وانقلب في هاوية سوء الحظ مطروداً من جانب الملائكة بعد أن كان في وقت من الأوقات يحتل مكانة كبيرة بينهم. وبناء على هذا يقول اللّه بشأن عصيان إبليس:

---

١٣٥. الأعراف: ٨٢.

﴿قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ. وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ﴾ [١٣٦]

أيضاً قول اللّه تعالى لإبليس:

﴿قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ﴾ [١٣٧]

وهكذا فقد الشيطان مكانه بين الملائكة حينما ادعى التكبر والتعالي على سيدنا آدم عليه السلام. وحينما قلق بشأن حياته قال متوسلاً إلى اللّه:

﴿قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [١٣٨]

فتحقق له هذا المطلب بفضل الحكمة الإلهية:

﴿قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ. إِلَىٰ يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ﴾ [١٣٩]

يوجد لكل شخص في داخله نصيب من تكريم الإنسان، نظراً لأن جميع البشر الذين سيولدون إلى يوم القيامة من صلب آدم عليه السلام، ولكوننا متصلين جميعاً منذ البداية.

وهناك حقيقة أيضاً تتمثل في أن الناس جميعاً -متمثلين في شخص سيدنا آدم- مخاطبون بمعاداة الشيطان. هناك حاجة إلى اختبار العبد حتى تخرج جميع الرغبات التي تملكها النفس وتحتفظ بها. ومن أجل هذا كان من الضروري وجود محرض مثل الشيطان.

إن واقعة الإقتراب من الشجرة المحرمة التي كانت سبباً في طرد البشر من الجنة ومجيئهم إلى الدنيا، كانت ضرورية من أجل إخراج الشيطان للرغبات الجسدية الكامنة في الإنسان حتى يوم القيامة.

وبناء على هذا فإن إبليس أيضاً يشكل عائقاً يحول دون الارتقاء الروحي للإنسان، وذلك بتحريضه له دوماً وإيقاظه المستمر لرغبات الجسد الجسدية. ولهذا السبب فالبشر جميعاً مضطرون إلى أن يكونوا دائماً في حالة تيقظ وانتباه.

وهكذا فبسبب كل هذه الحِكم كان اللّه ﷻ قد أمهل الشيطان إلى يوم القيامة. وفي المقابل أيضا أبقى اللّه باب التوبة والعفو مفتوحاً أمام البشر إلى أن يأتي الموت. لكن

١٣٦. الحجر: ٣٤-٣٥.

١٣٧. الأعراف: ١٣؛ بالإضافة إلى ذلك، انظر: سورة ص ٧٧-٧٨.

١٣٨. الحجر: ٣٦؛ بالإضافة إلى ذلك، انظر: سورة الأعراف، ١٤.

١٣٩. الحجر: ٣٧-٣٨.

العبد بهذه الوسيلة كان قد عانى امتحان عسير في الآخرة. وهكذا يُسرد في سورة الإسراء بأسلوب بالغ الدقة طلب الشيطان الإذن من اللّه بذلك:

﴿قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا. قَالَ اذْهَبْ فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ جَزَاءً مَوْفُورًا. وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا﴾ [١٤٠]

وفي هذه الآيات الكريمة تم تناول العديد من النقاط التي تحدثت عن تأثير الشيطان في الإنسان، وأنه مُسلط عليه بصورة كبيرة. ووفقا لهذا:

- الشيطان يستطيع فقط أن يوسوس لهؤلاء الأشخاص الذين يقعون تحت سيطرته وتحكمه.
- يضلل الشيطانُ الإنسان بكل أنواع اللّهو التي تحقق سهولة انحرافه لكونه ميال إليه بالفطرة، وبالمعازف والأغنيات التي تخاطب الجسد.

ولقد جاء في تفسير كلمة «صوت» التي وردت في الآية: كل أنواع الأصوات التي تؤدى بالإنسان إلى عصيان اللّه.

- يضلل الشيطان الناسَ عن طريق كثرة الأموال والأولاد في الدنيا.

شعر الشيطان بالأمان في داخله بعد أن أجاب له اللّه تعالى طلبه وأذن له، فقال الشيطان بسوء أدب مسنداً سبب عصيانه للمولى ﷻ:

﴿قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَـأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ. ثُمَّ لَـأَتِيَنَّهُمْ مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ وَلاَ تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾ [١٤١]

﴿قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [١٤٢]

أي سأزين لهم ذنوبهم بأن أظهر لهم الشر في صورة شئ جميل.

---

١٤٠. الإسراء: ٦٢- ٦٤.
١٤١. الأعراف: ١٦-١٧.
١٤٢. الحجر: ٣٩.

وهكذا يروي المتصوف الكبير يحي بن معاذ، مدى الهمة التي أظهرها الشيطان من أجل خداع الإنسان وإقناعه:

«الشيطان متفرغ غير مشغول، أما نحن فمشغولون، فلدينا أعمالنا ومشاكلنا. هو يرانا، أما نحن فلا نراه. نحن ننسى، أما هو فلا ينسى مهمته أبداً. علاوة على أن النفس التي هي عدونا الأكبر تسعى أيضاً لصالح الشيطان».

وفي القرآن الكريم، بقول اللّه تعالى:

﴿...وَلاَ تَتَّبِعُواْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ...﴾ [١٤٣]

﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوّاً إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُواْ مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ [١٤٤]

﴿وَقُلْ رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّياطِينِ. وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ﴾ [١٤٥]

﴿وَإِماَّ يَنَزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ. إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَواْ إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾ [١٤٦]

ويلزم الإستقواء بشي آخر من أجل الوقاية من أي شئ يُتَخوَّف منه. وهذا يلزم الدخول في كنف اللّه ﷻ والتشبث به. يأمرنا اللّه ﷻ في سورة الناس باللجوء إليه وحده وذلك من أجل الوقاية من هذا الإفساد الذي يقوم به الشيطان ذاكراً المولى ﷻ صفاته: رب، ملك، إله، لأن اللّه ﷻ وحده القدير المتفرد بالملك الذي يستطيع حماية الناس ووقايتهم من شر الشيطان الذي يصرف كل جهوده، ويجرب كل أنواع الطرق من أجل إضلال الناس وخداعهم. أما رسول اللّه ﷺ فيوصي بالتسمية من أجل الوقاية من الشيطان فيقول:

«إذا دخل الرجل بيته، فذكر الله عند دخوله وعند طعامه، قال الشيطان: لا مبيت لكم، ولا عشاء، وإذا دخل، فلم يذكر الله عند دخوله، قال الشيطان: أدركتم المبيت، وإذا لم يذكر الله عند طعامه، قال: أدركتم المبيت والعشاء» [١٤٧]

---

١٤٣. البقرة: ٢٠٨.
١٤٤. فاطر: ٦.
١٤٥. المؤمنون: ٩٧ -٩٨.
١٤٦. الأعراف: ٢٠٠-٢٠١.
١٤٧. مسلم، الأشربة، ٢٠١٨/١٠٣.

وفي الآية الكريمة يكون التمسك بالإخلاص بمثابة طريق آخر للوقاية من الشيطان، يقول اللّه تعالى:

﴿إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾ [١٤٨]

﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلاَّ مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾ [١٤٩]

الإخلاص: هو عدم السماح بالرياء في العبادة وسائر الأعمال، والابتعاد عن المباهاة في العبادة والطاعة، وإبقاء القلب بمنأى عن الأشياء التي تعكر صفوه. وينبغي أن تكون العبودية للّه وحده، والتحرك وفقاً له، والتفكير في إرضاء اللّه وحده. ولهذا السبب فإن الإخلاص يكون بمثابة الدرع الذي يمنع الشرور التي يسعى الشيطان إلى تزينها للناس، كما أنه يعيق محاولاته لإفساد الناس وإضلالهم ولكي يتم الوصول لتلك الحالة فإنه يلزم وصول العبد لمستوى الإخلاص، واجتهاده لنيل نصيب من معرفة اللّهﷻ.

كما أن ذكر اللّه قلباً ولساناً يعد أيضاً أحد أكثر العوامل تأثيراً في الوقاية من شر الشيطان. أما ترك الذكر فيكون ذلك سبب في عدم مفارقة الشيطان لنا أبداً. فجميع الذنوب تُرتكب إذا ما نسى اللّه ﷻ. فلا يمكن لأي إنسان أن يرتكب إثماً وهو يقول «باسم اللّه»، ولا يستطيع أن يظلم قائلاً «اللّه» ولا أن يجرح قلباً، ولا أن يغمس فيه شوكة. وهكذا يبين اللّه ﷻ هذه الحقيقة بقوله:

﴿وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ﴾ [١٥٠]

وثمة وسيلة مهمة أخرى للوقاية من الشيطان تتمثل في طاعة اللّه والرسول، والامتثال لأوامر الإسلام بكل صدق وإخلاص،وأن نجتهد بكل طاقتنا من أجل إعلاء كلمة اللّه ﷻ.

يقول ربنا جلّ وعلا:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدامَكُمْ﴾ [١٥١]

١٤٨. الحجر: ٤٠.
١٤٩. الحجر: ٤٢.
١٥٠. الزخرف: ٣٦.
١٥١. محمد: ٧.

ومن جهة أخرى توضح الآية الكريمة التالية أن جهنم هي مصير اللذين يتبعون الشيطان تاركين أوامر اللّه ﷻ:

﴿لَأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [١٥٢]

﴿...لَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَـأَمْلَـأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [١٥٣]

وفي هذه الحالة فإن مهمتنا مثلما أخبرنا اللّه تعالى هي معرفة أن الشيطان عدوٌ لنا، ولا ننس أبداً أنه يلجأ إلى كل الحيل لكي نُقذف في جهنم.

وفقاً للرواية، فإن الملائكة حينما رفعوا رؤوسهم من السجود لآدم عليه السلام شاهدوا امتناع الجن أي الشيطان -الذي كان مشهوراً بكثرة عبادته والمعروف باسم عزازييل- عن السجود، وتحوله إلى صورة قبيحة.ولهذا خروا جميعا ساجدين مرة أخرى من أجل الشكر على نعمة إطاعة أمر اللّه ﷻ.

وتحول عزازيل الذي لُقب بـ «الشيطان» بعد أن امتنع عن السجود لآدم إلى ممثل للشر. إنه ليس مَلكاً لأنه كان قد خُلق من النار. كان واحداً من الجن وسط الملائكة الموجودة في الجنة، ولهذا السبب كان يرى أن خلقته هي الأفضل، ولم يكن يستوعب حمل سيدنا آدم عليه السلام روحاً من اللّه، ولا أفضليته ككونه خليفة للّه.

كان قد غفل عن أمر اللّه ﷻ، وتعرض لمحاسبة جسدية. وهكذا يعبر اللّه تعالى عن العجز والجهل والغفلة الموجودة عنده:

﴿مآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَلاَ خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُداً﴾ [١٥٤]

وفي آية كريمة أخرى يحذر اللّه ﷻ عباده موقظاً إياهم من الغفلة بألا يتخذوا الشيطان وأعوانه أولياء بالابتعاد عن هدف الخلق. يقول تعالى:

---

١٥٢. ص: ٨٥،٨.

١٥٣. الأعراف: ١٨.

١٥٤. الكهف: ٥١.

﴿كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلاً﴾ [١٥٥]

إن أمر اللّه تعالى للملائكة بقوله «اسجدوا لآدم!» ليس معناه التعبد لآدم أي عبادته، ولكن من أجل إخبارهم أن آدم عليه السلام له أفضلية عليهم بصفاته الكاملة وقدراته التي يمتلكها. لأن اللّه ﷻ كان قد نفخ فيه من روحه، وجهله صاحب امتياز عليهم.

وهناك سبب آخر أيضاً، وهو أن هذا الأمر كان معناه «نفذوا أمر اللّه!»، لأن هذه السجدة على الرغم من كونها لسيدنا آدم عليه السلام، إلا أنها كانت في حقيقة الأمر طاعة لذات اللّه ﷻ وعبادة له، مثلما أن التوجه نحو الكعبة والسجود هناك لا يكون عبادة للكعبة. فالكعبة ما هي إلا رمز وإشارة للّه ﷻ، والتي تنظم عبادة الخلق، والمكان الذي تتجلى فيه الرحمة.

خلق السيدة حواء

يبين اللّه ﷻ في الآيات التالية خلق السيدة حواء من سيدنا آدم:

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاء...﴾ [١٥٦]

﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا...﴾ [١٥٧]

لم يكن هناك وجود لأي موجود في الأزل -كما بينا من قبل- سوى اللّه ﷻ وحده. ولم تبدأ الموجودات في التزايد إلا بعد أن أراد اللّه لها ذلك، فجاء إلى الوجود هذا العالم.

وكان سبب ذلك هو أن اللّه ﷻ يحب أن يعرفه خلقه. لهذا السبب كان الدافع وراء كل خلق خلقه اللّه ﷻ هو المحبة؛ فكانت محبة اللّه ﷻ هي الدافع وراء خلق الحق ﷻ لرسول اللّه ﷺ.

١٥٥. الكهف: ٥٠.
١٥٦. النساء: ١.
١٥٧. الأعراف: ١٨٩.

وهذه الكيفية هي التي تهمنا عند الحديث عن آدم عليه السلام. بيد أن الهدف من المحبة والاشتياق الكامل كان بالميل إلى العودة إلى ربه أي إخلاص العبودية للّه ﷻ. لذا كان لابد أن تكون بداية الاستعداد لذلك من القلب.

لقد جعل اللّه ﷻ الوحدة أمر خاص به هو فقط، ولأجل ذلك جعل كل المخلوقات زوجين؛ فكل مخلوق له ما يقابله من نفس جنسه وألقي ﷻ في كل واحد منهما الرغبة في الطرف الآخر، فصار كل منهما ينجذب تجاه الآخر. وبذلك نجد أن هذا الكون وما به من ذرات وخلايا وحيوانات ونباتات وإنسان ومادة وحتى العناصر السرية الدقيقة مثل الإلكترونات والبروتونات داخل الذرة، كل هذه الأشياء تتبع وفق طبيعتها قانون خاص عجيب أي، قانون خلق الأشياء في شكل أزواج.

وتحدثنا الآية الكريمة عن ذلك في قوله ﷻ:

﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [١٥٨]

وهذا الأمر ضروري في القوت نفسه تتحقق الطمأنينة في أن الوجود سيعود إلى أصله أي يعود إلى ربّه. أي العودة من عالم الكثرة الذي هو الدنيا إلى عالم الوحدة الذي جاء منه، وهو ميل أو جنوح طبيعي وجبري في الوقت ذاته. ويمثل الميل بين الأجناس بعضها تجاه الآخر، يمثل جسر نحو الوحدة. وقد جعل اللّه ﷻ هذا الميل في الوقت نفسه، وسيلةً لاستمرار النسل.

من ناحية أخري، فالإنسان الذي خلقه اللّه ﷻ هو في غربةٍ لبُعده عن خالقه. والغربة لا تجلب سوى الوحدة والعجز وبالتالي الحزن والملل وهي تُوَلِّد الحاجة لدي الإنسان لمن يُسرِّي عنه ويواسيه. لهذا السبب قيل أن «الوحدة هي أمر خاص باللّه ﷻ وحده».

وما عدا المولى ﷻ في حاجة إلى التسلية والمواساة. وهذا ما حدث مع سيدنا آدم عليه السلام حيث جعلته تلك الأحاسيس الفطرية يشعر بضرورة خلق رفيقةٌ له من نفس جنسه على الرغم مما تزخر به الجنة من جميع صنوف الجمال. وبذلك تحققت الكيفية التي بها تكوَّن جسر يضمن أن تنتقل المحبة إلى المولى في النهاية.

١٥٨. الذاريات: ٤٩.

لقد أراد اللّه ﷻ لحكم كثيرة يعلمها، أن يخلق زوجةً لسيدنا آدم عليه السلام يجد معها الطمأنينة والسكينة. فخلق بناءً على ذلك السيدة حواء من العظمة السفلى في القفص الصدري من الناحية اليسري، فكانت مثل النبتة أو الشتلة.

روي عن بن عباس وبن مسعود رضي الله عنهما قولهما أن آدم عليه السلام بعدما أُخرج إبليس من الجنة، وسكنها هو، كان يتجول هناك وحيداً بلا رفيق. وعلى الرغم مما كان فيه من نعم، إلا أنه كان يرغب في وجود رفيقة له. وفي يوم من الأيام أبصر لدى استيقاظه من نومه، سيدةً إلى جواره وقد خُلقت من عظمة في الجهة اليسري من القفص الصدري. فتحدث معها قائلاً:

- «من أنتِ؟». فردت عليه قائلةً: «أنا امرأة»

فلما أراد أن يعرف منها عن السبب الذي من أجله خلقها اللّه ﷻ، ردت عليه وقالت:

- «لقد خلقني اللّه ﷻ كي تصل معي إلى الطمأنينة والسكينة»

- وقد أُطلق اسم «حواء» الذي يعنى الحية أو صاحبة الحياة نظراً لأنها خُلقت من مخلوق خُلِق من آدم وهو أيضاً مخلوق حي. [١٥٩]

قال رسول اللّه ﷺ في الحديث الذي رواه البخاري:

«استوصوا بالنساء، فإن المرأة خلقت من ضلع، وإن أعوج شيء في الضلع أعلاه، فإن ذهبت تقيمه كسرته، وإن تركته لم يزل أعوج، فاستوصوا بالنساء» [١٦٠]

لقد خلق اللّه ﷻ المرأة بطبيعتها أكثر ثراءً في العاطفة والأحاسيس من الرجل. وتعرض الآيات الكريمة المراحل الأولى لخلق الجنين موضحةً أن الجزء الذي يأتي من الذكر يكون مصدره مكان مجاور للصلب «عظمة الخصر» أما ما يأتي من المرأة فيكون مصدره الترائب وهي جزء موجود بالقرب من القلب وهي عظام الصدر حيث يوجد مركز حسي عصبي. [١٦١] وفي ذلك إشارة إلى أن المرأة غنية بعالم من الأحاسيس.

وهذا الثراء في الحس والمشاعر مؤهل للقيام بالوظيفة التي كلفه بها اللّه ﷻ؛ من المحافظة على النسل وتنشئته. لهذا السبب ينبغي حسن معاملتهن. فلا يهتم الأب بأبنائه

١٥٩. الطبري، التاريخ، ١، ١٠٣– ١٠٤.

١٦٠. البخاري، الأنبياء، ١، ٣٣٣١.

١٦١. انظر: سورة الطارق، ٦ – ٧.

كما تهتم الأم؛ ولا يغير لهم ملابسهم الداخلة إذا تلوثت ولا يترك نومه لأجل هذا. وفي الوقت الذي لا تتورع فيه الأم عن أن تفتدي ابنها بنفسها إذا جرفه السيل، نجد أن الأب لا يمكنه فعل ذلك. الأم تعيش أفراح وأطراح أولادها على الدوام. فهي تحمله في بطنها تسعة أشهر وتحمله في حضنها عامين، أما باقي العمر فهو محمول في قلبها. فإن لم يأكل أو يشرب حزنت وتوترت لذلك. وإن هو بكي بكيت لبكائه. لهذا السبب لا يمكن الوفاء بحق الأم.

خاطب اللّه ﷻ بعد ذلك سيدنا آدم عليه السلام وأمنا حواء قائلاً:

﴿وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلاَ مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلاَ تَقْرَبَا هَـذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [١٦٢]

من هنا بدأت مغامرة حياة واختبار الإنسان الذي هو أشرف المخلوقات.

الحياة في الجنة

أحل اللّه ﷻ لآدم وحواء بعد خلقهما أن يعيشا في الجنة وينعما بما فيها من صنوف النعم عدا شجرة واحدة حرم عليهما أن يأكلا من ثمرها. وأخبرهما ﷻ كما هو واضح من الآية الكريمة أن إبليس هو العدو اللدود لهما:

﴿فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى﴾ [١٦٣]

فعاشا في الجنة حياة رغد ورفاهية. وتحدثتا الآيتان الكريمتان عن ذلك في قوله ﷻ:

﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى. وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَضْحَى﴾ [١٦٤]

عاش سيدنا آدم والسيدة حواء في الجنة على هذا المنوال، إلا أن الشيطان وسوس لهما وجعلهما يأكلان من الشجرة التي حرمها عليهما اللّه ﷻ مستغلاً في ذلك ضعف أحاسيسهم وحرصهم على الخلود.

---

١٦٢. الأعراف: ١٩.
١٦٣. طه: ١١٧.
١٦٤. طه: ١١٨-١١٩.

النزول من الجنة إلى الأرض

لقد كانت مسألة اختبار اللّه ﷻ لعباده، إرادةً إلهيةً وضعها اللّه ﷻ موضع التطبيق مع خلق آدم عليه السلام.

فبقدر ما لدينا من معلومات أن الملائكة أيضاً تعرضت للإختبار عندما أُمرت في بادئ الأمر كي تسجد لآدم. ونجحت الملائكة جميعا في الإختبار. لأن الملائكة لا تملك نفس الميل والهوى النفسي الموجود عند البشر. أما الشيطان فعصى أمر ربه. لأنه كان ينتمي لطائفة من الجن تملك نفساً مثل البشر.

لقد عمد المولى ﷻ بعد أن اختبر الملائكة ثم اختبر الشيطان بواسطة سيدنا آدم عليه السلام، عمد إلى اختبار سيدنا آدم وزوجته السيدة حواء بواسطة الشيطان كذلك. لقد انتهز الشيطان هذه الفرصة ولم يضيعها. وكان اللّه ﷻ قد حرّم على آدم وحواء الاقتراب من احدي الأشجار.

لقد بدأ أول جهاد للإنسان مع النفس التي تحاول دائماً أن تثني الإنسان عن الانصياع لأمر ربه، بدأ مع وسوسة الشيطان لآدم في الجنة. وتتناقل بعض الروايات أن اقتراب آدم عليه السلام إلى الشجرة التي حرمها عليه اللّه ﷻ، كان بتأثير من السيدة حواء.

النساء مخلوقات لطيفة رقيقة خلقها اللّه ﷻ ووضع في قلب الرجال حساسية وجاذبية نحوهن. لهذا السبب من السهل أن يقع الكثيرون تحت تأثيرهن. من هنا حاول الشيطان أن يخدع سيدنا آدم عليه السلام وذريته من بعده مستغلاً هذه الخصوصية، وكثيراً ما كان يحالفه التوفيق في ذلك.

ولعل أبرز مثال على ذلك هو استخدام المرأة في جميع جوانب الحياة الاجتماعية والسياسية والإقتصادية والتجارية كوسيلة للدعاية والإعلان. وكما كانت المرأة مصدراً للسكينة والرفاه، فهي في الوقت ذاته وسيلة عظيمةٌ للاختبار. بيد أن سعادة الإنسان في الدنيا والآخرة مرتبطةٌ بالمرأة كذلك.

فعن ثوبان رضي الله عنه قال: لما نزلت:

﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلاَ يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [١٦٥]

١٦٥. التوبة: ٣٤.

كنا مع رسول اللّه ﷺ في بعض أسفاره فقال بعض الصحابة:

أنزلت في الذهب والفضة، لو علمنا أي المال خير فنتخذه؟

فقال رسول اللّه:

«أفضله لسان ذاكر، وقلب شاكر، وزوجة مؤمنة تعينه على إيمانه» [١٦٦]

وجاء في حديث شريف آخر أن رسول اللّه ﷺ قال:

«ما استفاد المؤمن بعد تقوى الله خيرا له من زوجة صالحة، إن أمرها أطاعته، وإن نظر إليها سرته، وإن أقسم عليها أبرته، وإن غاب عنها نصحته في نفسها وماله» [١٦٧]

«الدنيا متاع، وخير متاع الدنيا المرأة الصالحة» [١٦٨]

فَسَّرَ عَلِيٌّ رضي الله عنه الآية ٢٠١ من سورة البقرة:

﴿رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ بالمرأة الصالحة،

﴿وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً﴾ بالحور العين،

﴿وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ بالمرأة السليطة. [١٦٩]

حاول الشيطان -عليه اللعنة- أن يُضل سيدنا آدم والسيدة حواء بشتي الطرق والحيل. يقول اللّه ﷻ:

﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَى﴾ [١٧٠]

﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْآتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ. وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ. فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ

١٦٦. الترمذي، التفسير، ٩/ ٩، ٣٠٩٤.

١٦٧. ابن ماجة، النكاح، ٥/ ١٨٥٧.

١٦٨. مسلم، الرضا، ٦٤/ ١٤٦٧؛ النسائي، النكاح، ١٥؛ ابن ماجة، النكاح، ٥/ ١٨٥٥.

١٦٩. علي القاري، المرقاة، ٥، ٢٦٥/ ٣٠٨٣.

١٧٠. طه: ١٢٠.

عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ[١٧١] وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُلْ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾[١٧٢]

لقد كانت مسألة الاقتراب من الشجرة التي حرمها اللّه ﷻ هي السبب الذي من أجله وقف آدم عليه السلام وحواء في مواجهة مع النفس الأمّارة بالسوء. لأن قيمة النتيجة التي يصل إليها المرء تتوقف على حجم ما يقاسي من متاعب للوصول إليها. فإن اتبع المرء هوى النفس فحينئذٍ تكون الفاجعة، أما إن هذّبها وعوّدها الطاعة كان ذلك مصدر الفلاح. لهذا السبب قيل: «نفسك مطيتك! عاملها برفق ولطف».

وخلاصة القول اللّه ﷻ بوصفة المتصرف الوحيد في شئون خلقه، قد أعطي للإنسان بإرادته الكلية، إرادةً جزئية منقوصةً وأنه قدّر نتيجة ذلك سواء بالفوز أو بالخسران بناءاً على استخدام هذه الإرادة. ونظّم وفقاً لذلك شروط تحقق الأسباب.

لهذا السبب فنحن مكلفون بأن نستخدم كما أُمرنا إرادتنا الجزئية التي منحنا إياها المولى ﷻ وأن نخاف من قهره وترجوا رحمته.

هجر آدم عليه السلام وزوجته حواء الشيطان وقد شعرا بندم عظيم بعدما انطلت عليهما الحيلة التي نسجها إبليس رغبة منه في الانتقام. فضل آدم عليه السلام أنً يتبع طريق الملائكة، وتوجه إلى اللّه تائباً بكلمات تلقتها الملائكة من ربهم. فتضرعا إلى اللّه ﷻ قائلين:

﴿...رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾[١٧٣]

١٧١. التستر: هي كيفية تخص الإنسان وحده من بين سائر المخلوقات الأخرى. فالإنسان يجد نفسه مجبراً لأن يستر نفسه حتى يمكنه أن يحمي صفة الإنسانية والوقار والحياء والجدية التي أنعم بها اللّه ﷻ عليه. ويفقد الإنسان تلك الصفات بفقدانه صفة التستر. ويسقط حينها إلى مستوى ما دونه من المخلوقات الأخرى. وضياع الحياء من بين الناس احدى علامات قيام الساعة المعروفة. فقد جاء في الحديث الشريف: «**الحياء من الإيمان**» (البخاري، الإيمان، ٣). وعلى الرغم أنه لم يكن ثمة أناس آخرون في الجنة سوى سيدنا آدم وزوجته حواء، إلاّ أن كل منهما كان يخجل من الآخر ومن المخلوقات الأخرى. فحاولا جهديهما أن يسترا عورتيهما بأوراق الأشجار المتاحة. وهذا يشير إلى أن الغطاء المادي وما يرتبط به من غطاء معنوي آخر متمثل في الأدب والحياء، هو واحد من أفضل ما يميز بني آدم.

١٧٢. الأعراف: ٢٠-٢٢ .

١٧٣. الأعراف: ٢٣.

فقبل اللّه ﷻ توبتهما، ولكن قضت إرادة اللّه ﷻ المبنية على كثير من الحكم الإلهية، ان يُنزل آدم عليه السلام إلى الأرض. يقول اللّه ﷻ:

﴿قَالَ اهْبِطُواْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ [١٧٤] وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ. قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ﴾ [١٧٥]

وبيّن اللّه ﷻ إلى سيدنا آدم وحواء اللذان أنعما عليهما وقبل توبتهما ولنسليهما من بعد، طريق الخلاص والنجاة في قوله ﷻ:

﴿يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ [١٧٦]

ويُشار هنا في الآية الكريمة إلى أن الملابس الظاهرة لا تكفي لستر عيوب الإنسان ونواقصه، فالملبس الحقيقي هو «لباس التقوى» الذي يحمي الإنسان من الأفكار والمشاعر السلبية في القلب، وتضمن أن يدرك العبد مسئوليته تجاه ربه. فالتميز على الآخرين كما تشير الآية التالية لا يكون إلا بما وقر في القلب من تقوى:

﴿... إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ...﴾ [١٧٧]

ويحذر اللّه ﷻ عباده في الآية ٢٧ من سورة الأعراف بقوله ﷻ:

﴿يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [١٧٨]

---

١٧٤. العداوة: هي العداوة التي ستظهر وتستمر حتى يوم القيامة وستكون بين الشيطان والجن والإنس من ناحية وبين الإنس وبعضهم البعض.

١٧٥. الأعراف: ٢٤-٢٥.

١٧٦. الأعراف: ٢٦.

١٧٧. الحجرات: ١٣.

١٧٨. الأعراف: ٢٧.

لقد خلق اللّه ﷻ أبا البشر آدم عليه السلام وأودعه الجنة وجعله أكرم المخلوقات. ولكنه ما لبث أن أُخرج من الجنة حيث موطنه الأصلي بسبب اقترابه من الشجرة التي نهاه اللّه عنها، فكانت النتيجة أنه أُرسل إلى الأرض حيث عالم الاختبار. وينضوي هذا الأمر على بعض الحكم التي يمكن عدّها كما يلي:

١- لقد أُريد لذرية الإنسان ستأتي كلها عن آدم عليه السلام وأمنا حواء أن تستمر حياتها على الأرض.

٢- أُريد لآدم عليه السلام وأمنا حواء أن يسعيا لعمل الصالحات في الدنيا التي هي مكان اختبار على أمل نيل نعم الجنة التي خُلقوا فيها وعرفوا قيمة ما فيها من نعم.

٣- أراد اللّه ﷻ أن يفرق بين الذين لا يستحقون دخول الجنة من ذرية آدم عليه السلام ومن ثم سيدخلون جهنم وبين الصالحين.

٤- أراد اللّه ﷻ أن يجعل له خليفةً في الأرض يطبق فيها أحكام اللّه ويُعمِّرها.

٥- عقل الإنسان هو سر من أسرار القدر لا يستطيع أحد أن يدرك ماهيته.

نقاط الضعف في نفس الإنسان

لقد نثر اللّه ﷻ بذور الفجور والتقوى على فطرة الإنسان وأعطي لكلا النوعين إمكانية الارتقاء والتدني. وللحالة الروحانية للإنسان من هذه الناحية وجهان؛ أحدهما مثبت والآخر منفي. وقد تعرض القرآن الكريم بشكل أكبر لنقاط الضعف في نفسية الإنسان رغبة منه في حماية الإنسان من السقوط في مهالك النفس وحتى يُقومه ويضعه على طريق الخير والتقوى.

١- الإنسان ظلوم جهولاً

يقول اللّه ﷻ:

﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً﴾ [١٧٩]

١٧٩. الأحزاب: ٧٢.

والمقصود بالأمانة في الآية السابقة هي مسئولية الإنسان تجاه ربه أي كونه مكلف بتنفيذ أوامر اللّه ﷻ الخاصة بالدين. وسيفي الإنسان بهذه الأمانة «العقل» بواسطة ملكة «الإرادة» وهي المقدرة على استخدام ذلك العقل. وهذه الأمانة التي فوّض اللّه ﷻ الإنسان دون غيره بأدائها، هي التي تفرِّق بينه وبين سائر المخلوقات الأخرى. وتعرض الإنسان للاختبار في الحياة الدنيا، هو السبب وراء تفويضه لحمل هذه الأمانة.

ويشير عرض الأمانة كما ورد في الآية السابقة على الأرض والسماء والجبال، ثم رفضهم جميعاً لهذا العرض، يشير إلي أنه حتى الموجودات التي نعرفها على أنها مجرد جمادات، كانت على درجة من الوعي والشعور جعلتها ثقل التكليف بحمل الأمانة. يقول اللّه ﷻ:

﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعاً مُّتَصَدِّعاً مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [١٨٠]

نفهم من الآية السابقة كذلك أنه حتى الجبال وهي من الجمادات قد تبدي رد فعل تجاه أوامر اللّه ﷻ.

ويخبرنا اللّه ﷻ أن الإنسان لم يخشى المسئولية وحمل الأمانة لأنه كان ظلوماً جهولاً.

والظلم ضده العدل. وتستخدم كلمة العدل في الوقت نفسه بمعنى العمل الصالح، لأجل ذلك ينبغي بذل الجهد وأن نعمل صالحاً بكثرةٍ حتى لا نسقط في الظلم. ويتحدث الحق ﷻ في سورة العصر عن ضرورة أن يعمل الإنسان الصالحات حتى لا يكون من الخاسرين.

أما الجهل فضده «العلم». والعلم نوعان أحدهما ظاهري والآخر باطني. وفيما يلي حديث للإمام الغزالي –رحمه الله– يتحدث فيه عن العلم الحقيقي الذي يرتبط بجمع هذين النوعين معاً:

«العلماء الحقيقيون، أي ورثة الأنبياء، هم الذين يجمعون بين العلوم الظاهرية والعلوم الباطنية!».

---

١٨٠. الحشر: ٢١.

ويقول اللّه ﷻ في آية أخري:

﴿أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [١٨١]

وقد ورد في تفسير الزمخشري لهذه الآية الكريمة قوله:

«وأراد بالذين يعلمون: العاملين من علماء الديانة، كأنه جعل من لا يعمل غير عالم. وفيه ازدراء عظيم بالذين يقتنون العلوم، ثم لا يقتنون ويفتنون، ثم يفتنون بالدنيا، فهم عند الله جهلة، حيث جعل القانتين هم العلماء» [١٨٢]

فإذا نحن اقتضينا بالآية الكريمة لصرنا من أصحاب الأعمال الصالحة وتمكنا من تحويل علمنا الظاهري والباطني إلى العرفان، وبذلك نكون قد تخلصنا من صفة « ظلوم» وصفة «جهول». أي أنه يلزم وجود رأس مال قوامه العلم إلى جانب رأس مال قوماه القلب حتى نتعافي من هذه الأمراض المعنوية.

وتبين اللّه ﷻ في الآية الكريمة الواردة في السابق كذلك أن عيش الإنسان في غفلة عن الأسرار والعظمة الإلهية، لن ينتج عنه سوي التعاسة والنكبة.

يتحدث شارح المثنوي «طاهر المولوي» عن عِظم تلك المسئولية التي حملها الإنسان قائلاً:

صفر اليدين لا يسير حيث يكون المسير
يا ربي، لقد أتيت بذنب ولم آتي خاوي الوفاض
فها هو الحمل الذي لا تقوي الجبال على حمله
قد أتيت بضعفه أحمله على ظهري بصعوبة بالغة.

يرى الصوفيون أن أهم صفة تميز الإنسان هي الجهل. وأن كلمة جهول «كثير الجهل» الواردة في الآية الكريمة دليل على ذلك. فالعلم المطلق لا يخص إلا اللّه ﷻ وحده. من أجل هذا يقول اللّه ﷻ:

---

١٨١. الزمر: ٩.
١٨٢. الزمخشري، الكشاف، ٣، ١٥٦.

﴿... وَمَا أُوتِيتُم مِّن الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً﴾ [١٨٣]

وفي المقابل تؤكد الآية الكريمة التالية عظمة علم اللّه ﷻ الذي لا تحده حدود:

﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [١٨٤]

كما يبين الحديث الشريف التالي كذلك تلك الحقيقة أيضاً من خلال قصة الخضر وموسى التي وردت في سورة الكهف:

«...**فركبا السفينة، قال: ووقع عصفور على حرف السفينة فغمس منقاره في البحر، فقال الخضر لموسى: ما علمك وعلمي وعلم الخلائق في علم الله إلا مقدار ما غمس هذا العصفور منقاره...**» [١٨٥]

نستنتج من ذلك:

ما علم الناس إلى جانب علم أولياء اللّه ﷻ في علم اللّه ﷻ إلا قطرة من بحر؛

وما علم أولياء اللّه ﷻ، وعلم الأنبياء في علم اللّه ﷻ إلا قطرة من بحر؛

وما علم الأنبياء، وعلم سيدنا رسول اللّه ﷺ إلا قطرة من بحر

وما علم رسول اللّه ﷺ بجانب علم اللّه ﷻ إلا مثل قطرة بالنسبة إلى بحر.

ولكن وعلى الرغم من هذا، فإذا عمل الإنسان بهذا العلم القليل، فبإمكانه أن يصل إلى التقوى ومن ثم يصبح بلطف اللّه ﷻ وإحسانه عبداً من العارفين. أي انه يبدأ في تلقي حصةً من المعرفة أي يصبح بإمكانه أن يعرف اللّه ﷻ حق المعرفة.

يقول اللّه ﷻ:

﴿... وَاتَّقُواْ اللّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللّهُ وَاللّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [١٨٦]

وقد ذكر المفسر القرطبي في تفسيره لهذه الآية على النحو التالي:

---

١٨٣. الإسراء: ٨٥.

١٨٤. لقمان: ٢٧.

١٨٥. البخاري، التفسير، ١٨/ ٤٧٢٧.

١٨٦. البقرة: ٢٨٢.

«وعد من الله تعالى بأن من اتقاه علمه، أي يجعل في قلبه نورا يفهم به ما يلقى إليه، وقد يجعل الله في قلبه ابتداء فرقانا، أي فيصلا يفصل به بين الحق والباطل، ومنه قوله تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَاناً...﴾. [١٨٧] والله أعلم» [١٨٨]

ويؤيد الحديث الشريف هذا المعنى أيضا:

«من عمل بما يعلم ورثه الله ما لم يعلم» [١٨٩]

٢- خُلق الإنسان عَجُولاً

يبين اللّه ﷻ هذه الخصوصية في نفسية الإنسان على النحو التالي:

﴿خُلِقَ الْإِنسَانُ مِنْ عَجَلٍ سَأُرِيكُمْ آيَاتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ﴾ [١٩٠]

﴿وَيَدْعُ الإِنسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الإِنسَانُ عَجُولاً﴾ [١٩١]

يريد الإنسان الشر قدر رغبته في الخير ويدعوه بما يفعل. والسبب في ذلك هو أن الإنسان على عجلة من أمره. فيطلب تحقق الشيء قبل أوانه نظراً لأن تحقق الشيء في وقته يحتاج صبر وتحمل. ويخرج هذا التصرف في كثير من الأحيان بنتيجة غير مرغوبة. وقد قيل: «من استعجل شيئاً قبل وقته، عوقب بالحرمان». والمقصود من هذا أن أي شخص يرغب في تحقيق شيء ما قبل موعده المحدد لذلك فإنه يُعاقب بالحرمان من ذلك الشيء.

ومن أوصاف الإنسان العجول، أن له شهية الحصول على الأشياء بشكل سهل لا تعب فيه. لأنه يريد أن يعيش سعادة الآخرة في الحياة الدنيا. ولهذا السبب يترك عدد كبير من الناس الآخرة، ويميل إلى الدنيا.

١٨٧. الأنفال: ٢٩.
١٨٨. القرطبي، تفسير، ٣، ٤٠٦.
١٨٩. أبو نعيم، حلية الأولياء، ١٠، ١٥.
١٩٠. الأنبياء: ٣٧.
١٩١. الإسراء: ١١.

ولأنه لا يولى مكافأة الآخرة الأهمية المرجوة، نجده وبالقدر نفسه لا يفكر في عذابها الأليم. وهو بسبب تسرعه لا يضع في حسبانه عاقبة ذلك، لأنه لا يفرق بين الخير والشر. وتبين الآيتان الكريمتان انخداع الإنسان على هذا النحو:

﴿كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ. وَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ﴾ [١٩٢]

والحقيقة هي أن الإنسان يمكنه بمنتهي السهولة أن يدعو بالشر على مخاطبيه في وقت غضبه أو عندما تمر به أزمة أو عندما تواجهه مصاعب في حياته. بيد أنه من الواجب عليه بديلاً عن ذلك أن يعمل جاهداً للتخلص من هذه الأوضاع العصيبة الصعبة بالصبر والصلابة.

ولكن الإنسان وقد خُلق عجولاً، يظل يائساً متشائماً، ليس هذا فحسب، بل وقد يصل به الأمر ويدعو من تأثره ويدعوا على نفسه بالشر فيقول: «رب اقبض روحي، وخلصني مما أنا فيه!» والحقيقة هي أن تصرفه هذا خاطئ تماما.

يقول أنس رضي الله عنه:

«أن رسول اللّه ﷺ ، عاد رجلا من المسلمين قد خفت فصار مثل الفرخ، فقال له رسول الله ﷺ:

«هل كنت تدعو بشيء أو تسأله إياه؟»

قال: نعم. كنت أقول: اللّهم! ما كنت معاقبي به في الآخرة، فعجله لي في الدنيا. فقال رسول اللّه ﷺ

«سبحان اللّه! لا تطيقه - أو لا تستطيعه - أفلا قلت: اللّهم! آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار» قال، فدعا اللّه له. فشفاه» [١٩٣]

ويقول ﷺ في حديث آخر:

«لا يتمنى أحدكم الموت، ولا يدع به من قبل أن يأتيه، إنه إذا مات أحدكم انقطع عمله. وإنه لا يزيد المؤمن عمره إلا خيراً» [١٩٤]

١٩٢. القيامة: ٢٠-٢١.

١٩٣. مسلم، الذكر، ٢٣/ ٢٦٨٨؛ الترمذي، الدعوة، ٧١/ ٣٤٨٧.

١٩٤. مسلم، الذكر، ١٣/ ٢٦٨٢؛ البخاري، المرضى، ١٩، الدعوات، ٣٠.

لهذا السبب لا ينبغي للمؤمنين أن يدعوا بالشر، وأن يدعوا بديلاً عن ذلك بالخير متسلحين بالصبر والحذر. وتوصي الآية الكريمة الإنسان بضرورة أن يتضرع العبد ربه قائلاً:

﴿... رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ [١٩٥]

٣- الإنسان ولع بما ينفعه

تقرر الآية الكريمة وصفاً آخر للإنسان على النحو التالي:

﴿وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ﴾ [١٩٦]

لم يمنع اللّه ﷻ بلطفه ورحمته الإنسان أن يسعد، بل وعلى العكس أُمِرَ بذلك. [١٩٧] .ولكن السعادة المقصودة هنا هي السعادة مع معرفة واهب النعمة وشكره وحمده عليها. ولكن السعادة التي نتحدث عنها هنا هي حال الأشخاص الذين يخضعون لأهوائهم ويؤمنون بالنعمة فقط دون أن يضعوا في حسبانهم واهب هذه النعمة. ويعبر القرآن الكريم عن ذلك بقوله ﷻ:

﴿... لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ﴾ [١٩٨]

وهذا الصنف حتى لو عبدوا اللّه فإن عبادتهم تلك تكون بغرض منفعة دنيويه. ولأنهم يؤمنون بشكل محض في بالنعمة وحدها، فإنهم سرعان ما يقعون في اليأس إذا ألم بهم سوء جرّاء ما فعلوه. وهو يقنطون من رحمة اللّه تماماً. لأن تسليمهم وخضوعهم ليس للّه ﷻ ولكن لأشياء زائلة فانية. وتصور الآية الكريمة الآتية بشكل جميل حب هؤلاء لمنفعتهم الخاصة، على النحو التالي:

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾ [١٩٩]

١٩٥. البقرة: ٢٠١.
١٩٦. الروم: ٣٦.
١٩٧. انظر: يونس، ٥٨.
١٩٨. القصص: ٧٦.
١٩٩. الحج: ١١.

ويلجأ بعض الناس إلى عبادة اللّه ﷻ من زاويتهم الخاصة، لأنهم لا يستطيعون التخلص من أهواءهم النفسية؛ ليس هذا فحسب بل ويأخذون بمظاهر التدين، ولا يكون تدينهم هذا نابعاً من القلب ومن الداخل، بل يكون تديناً قائماً على الغفلة وهدفه قضاء مقصدٍ معين. والذكر عند هؤلاء لا يتعدى اللسان، فلا يصل إلى القلب ولا يستقر فيه. وإذا جاء هذا الصنف من الناس خيراً فرحوا، وإن أصابتهم الضراء عبس وانقلب على وجهه.

٤- إن الإنسان لربه لكنود

يقول اللّه ﷻ في محكم التنزيل:

﴿إِنَّ الْإِنسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ. وَإِنَّهُ عَلَى ذَلِكَ لَشَهِيدٌ﴾ [٢٠٠]

وتحكي الآيات التالية بشكل مباشر عن تلك الخصوصية عن الإنسان الغافل، وتعبر كيف أن أحوالهم النفسية عُرضة للتغير وفق الظروف التي هم فيها:

﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الْضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلاَّ إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الإِنْسَانُ كَفُوراً. أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِباً ثُمَّ لاَ تَجِدُواْ لَكُمْ وَكِيلاً. أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَى فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفا مِّنَ الرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لاَ تَجِدُواْ لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعاً﴾ [٢٠١]

وتتحدث هاتان الآيتان عن ذلك أيضاً، في قوله ﷻ:

﴿فَأَمَّا الْإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ. وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ﴾ [٢٠٢]

يمتحن اللّه ﷻ عبده كل لحظة حتى يكافئه على قدر صبره. وفي أثناء ذلك يمتعض الإنسان الذي ابتلاه اللّه ﷻ بضيق في الرزق أو بالمحن ويقول دون تفكير منه وبأنه سيؤجر على ذلك في الآخرة وسييسر اللّه ﷻ له حسابه نظير ذلك، يقول: «رَبِّي أَهَانَنِ».

٢٠٠. العاديات: ٦- ٧.
٢٠١. الإسراء: ٦٧-٦٩.
٢٠٢. الفجر: ١٥-١٦.

ويصل بذلك إلى حالة لا يستطيع معها أن يدرك نعم اللّه ﷻ عليه. ويغيب عنه ضرورة أن يؤدي المرء شكر الرزق حتى وإن كان قليلاً، ولا يستطيع إدراك أن الذي لا يعرف قيمة القليل، لا يمكنه أن يعرف قيمة الكثير كذلك. ولا يستقيم في ذهنه أن اللّه ﷻ يختبره بهذه الأشياء. والحال أن اللّه ﷻ يقول:

﴿... وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ [٢٠٣]

وإن لم يتخلى الإنسان عن ذلك فسوف تجره تلك الأحاسيس والأفكار السلبية إلى الكفر، ليس هذا فحسب بل وسيتحول إلى عدو للّه ﷻ. لأن ذلك الإنسان لم يوجه نظره إلى الفضيلة، بقدر ولهه بأمور الدنيا ما جاء منها وما ذهب. يقول المولى ﷻ:

﴿خَلَقَ الإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾ [٢٠٤]

٥- الإنسان حريص وبخيل

وإذا لم تُهذّب هذه الصفات المذمومة التي كان لها نصيب كبير في إخراج الإنسان من الجنة، فستتحول إلى واحدةٍ من أكبر المُهلكات في الحياة الدنيا والحياة الآخرة. واللّه ﷻ لا يريد لمثل هذه الصفات أن تكون في المؤمن. لذلك يحذر المولى ﷻ عباده في هذا الخصوص كما في الآيات التالية:

﴿كَلَّا بَل لَّا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ. وَلَا تَحَاضُّونَ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ. وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلاً لَّمّاً. وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبّاً جَمّاً﴾ [٢٠٥]

﴿إِنَّ الْإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً. إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً. وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعاً﴾ [٢٠٦]

﴿وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾ [٢٠٧]

٢٠٣. الأنبياء: ٣٥.
٢٠٤. النحل: ٤.
٢٠٥. الفجر: ١٧-٢٠.
٢٠٦. المعارج: ١٩-٢١.
٢٠٧. العاديات: ٨.

ويرجع السبب في التعبير بكلمة «الخير» في الآية الكريمة بديلاً عن التعبير بكلمة المال، لأن ميل الإنسان الفطري نحوه، جعل كثير من بني البشر يظنون أنها الخير المطلق لأن به تتحقق منافعهم الدنيوية. أي أن الإنسان يده مغلولة إلى عنقه، بخيل، لأنه أحب المال والثروة وظن أن فيهما الخير المطلق. فهو يحرص على المال ولا يريد أن يتصدق أو ينفق في أوجه الخير أو في شيء لصالح المنفعة العامة. وفي الوقت الذي يحرص على المال ويسعي لكسبه وهو في كامل قوته، نجده يجحد حق اللّه ويزعم عندما يأتي الوقت الذي سيؤدي فيه شكر المال، يزعم أنه ضعيف لا يقدر على شيء. وتعرض سورة القلم قصة أصحاب الجنة الذين لم يؤدوا شكر النعم التي أنعم اللّه ﷻ عليهم بل وجحدوها، فأصابتهم النكبة ولاقوا عاقبة حزينة.[٢٠٨]

ويحدثنا المولى ﷻ في الآيات الكريمة عن عاقبة الذين يحملون هذه الصفات البغيضة على النحو التالي:

﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ. الَّذِي جَمَعَ مَالاً وَعَدَّدَهُ. يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ. كَلَّا لَيُنبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ﴾ [٢٠٩]

﴿قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذاً لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الإِنفَاقِ وَكَانَ الإِنسَانُ قَتُوراً﴾ [٢١٠]

٦- الإنسان حسود غيور

الغيرة والحسد هي من أقبح الصفات المذمومة في فطرة الإنسان وأكثرها هلاكاً. يقول اللّه ﷻ:

﴿... وَأُحْضِرَتِ الأَنفُسُ الشُّحَّ...﴾ [٢١١]

﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللّهُ مِن فَضْلِهِ...﴾ [٢١٢]

٢٠٨. انظر: القلم، ١٦ – ٣٣.
٢٠٩. الهمزة: ١-٤.
٢١٠. الإسراء: ١.
٢١١. النساء: ١٢٨.
٢١٢. النساء: ٥٤.

وقد حذرنا رسول اللّه ﷺ من الحسد وبين لنا ضرره؛ فيقول:

«إياكم والحسد، فإن الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب» [٢١٣]

ويرشدنا المولى ﷻ في الآية الكريمة التالية إلى ضرورة للإنفاق والإيثار حتى نتخلص من تلك الصفة القبيحة:

﴿... وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [٢١٤]

٧- خُلق الإنسانُ ضعيفاً

خلق اللّه ﷻ الإنسان ضعيفاً عاجزاً، يحتاج عون الآخرين مدةً طويلةً، على الرغم من أنه ﷻ قد خلق المخلوقات الأخرى في قوة تستطيع بها أن تعيش بمفردها وتتكيف مع ظروف الحياة بعد مدة قصيرة من مولدها. وتحدثنا الآية الكريمة عن ذلك في قوله ﷻ:

﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفاً وَشَيْبَةً ...﴾ [٢١٥]

لا ينبغي للإنسان أن ينخدع بقوته في فترة الشباب ويعصي اللّه ﷻ. لأن فترة القوة لا بد وأن يتبعها فترة ضعف أخري. ولن يجدي الندم في مرحلة الشيخوخة نفعاً في إعادة الفرصة التي ضاعت من اليد، ولن يستطيع أن يوقف حسرة الروح واضطرابها. وتوضح الآية الكريمة العاقبة الحزينة لهذا الإنسان، على النحو التالي:

﴿وَمَنْ نُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ﴾ [٢١٦]

الإنسان ببنيته الفسيولوجية يحمل العديد من نقاط الضعف، ولعل نقطة ضعفه من الناحية النفسية هي الأكبر. وتشير الآية الكريمة إلى هذين النوعين في قوله ﷻ:

﴿... وَخُلِقَ الإِنسَانُ ضَعِيفاً﴾ [٢١٧]

---

٢١٣. أبو داود، الأدب، ٤٤/ ٤٩٠٣.
٢١٤. الحشر: ٩.
٢١٥. الروم: ٥٤.
٢١٦. يس: ٦٨.
٢١٧. النساء: ٢٨.

ويبين لنا الحق جل جلاله في شخص سيدنا آدم عليه السلام الضعف البشري من ناحية الإرادة والذاكرة والعزم، على النحو التالي:

﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً﴾ [٢١٨]

وقيل أن كلمة «إنسان» قد اُشتقَّت من جذرين مختلفين. الأول، هو «النسيان». فقد نسي آدم عليه السلام كما أوضحت الآية الكريمة العهد الذي قطعه على نفسه مع اللّه عز وجل. أما الجذر الثاني، فهو «المؤانسة'' أي أن الإنسان يألف ويتعود بسرعة على المكان الذي يوجد فيه، فيألفه ويتلون في الغالب بلونه.

ولا يوجد ثمة سبب على الإطلاق تجعل الإنسان الذي تحدثت الآية الكريمة عن ضعفه وعجزة، لا يوجد سبب يدعوه للتكبر والإختيال. يُضاف إلى هذا أن اللّه عز وجل لما خلق الإنسان لم يخلقه من عرق جبهة جميلة وبهية الطلعة، وإنما كان خلقة من ماء مهين قُذِف به. لهذا السبب لا يليق بمخلوق كهذا إلا أن يدرك عجزة ودونيته في مقابل قدرة الخالق اللامحدودة. وقد وجه المولى عز وجل تحذيراً في القرآن الكريم للإنسان في قوله عز وجل:

﴿وَلاَ تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحاً إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولا﴾ [٢١٩]

يميل الإنسان بالفطرة إلى العبودية. وميله هذا سيجعله عبداً لواحدٍ من ثلاث إما لهوى النفس أو لمتاع الدنيا أو أن يكون عبداً ربه. وحتى يصير الإنسان عبداً لربه، فلا بد له من تخطي عقبة النفس. وهذا يقتضي أن يظل العبد صادقاً لعهد ألست بربكم؟ حين اعترف بربوبية اللّه ورد مخاطباً اللّه عز وجل «نعم، أنت ربنا!».

لقد كان كل شيء واضح للعيان في الوقت الذي عاهدت الروح ربها. فكانت ترى الملائكة وتشاهد بكل سهولة ويسر العظمة الإلهية. ولكن عندما نُفخت هذه الروح التي عاهدت ربها، عندما نُفِخَت في بطن الأم في اليوم ١٢٠ وفق ما جاء في الحديث الشريف، دخلت تحت تأثير الحواس الخمسة. وتواجهت مع عقبة النفس. فتغطت متلفِّعةً بالسقم بعد النضارة والبهاء. ولكن كان هناك من يبين لها طريق الخلاص والنجاة من تلك السقم.

٢١٨. طه: ١١٥.

٢١٩. الإسراء: ٣٧.

ويكون الإنسان بذلك قد تخطي عقبة النفس بالاستعداد المعنوي الذي وهبه اللّه إياه وبتزكية الحواس الخمس في الاستقامة التي عرضها له. ولا تدخل الحواس الخمس إلى طريق الاستقامة إلا بتصفية القلب وتزكية النفس. وحينها ستتضاءل السقم، وتزداد الرهافة والصفاء ويتحول القلب إلى مُستقبِل للحقائق.

﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي...﴾ [٢٢٠]

والروح المقصودة في الآية الكريمة هي الروح السلطانية القادمة من «عالم الأمر». وهي التي دخلت إلى الجسد الفاني.

ويضرب مولانا جلال الدين الرومي المثال التالي بخصوص ضياع الروح السلطانية داخل الجسد وتحكمها فيه، ويقول:

«الروح التي في الجسد خفية غير ظاهرة تماماً مثل الزبد الذي في اللبن الرائب».

«يلزم رج اللبن الرائب بشده، حتي يظهر الزبد».

«والروح السلطانية مثل ذلك تماماً، فلا بد من المجاهدة والرياضة الروحية والصبر على الحرمان من مجموعة من الأشياء، حتى تتمكن من السيطرة على البدن أي الجسد».

ولا بد للقلب أن يتخلص من السقم أي من ملذات الدنيا السفلية، وأن يمتلئ بالمشاعر والأحاسيس الإلهية والصفاء. وإلّا لن يتمكن الإنسان من الوصول إلى معرفة اللّه ﷻ.

وكم هو جميل ما كتبه المرحوم نجيب فاضل عن الحقيقة القلبية في شكل تضرع:

الذنب عندي، والصفاء عندك

رب اغفر!

السقيم يرجو العفو من اللطيف...

رب اغفر!

لباس من لحم وعظم

رب اغفر!

---

٢٢٠. الحجر: ٢٩.

يقول اللّه ﷻ في الآيات الكريمة:

﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّى. وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى﴾ [٢٢١]

﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا. وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا. وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا.وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا. وَالسَّمَاء وَمَا بَنَاهَا. وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا. وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا. فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا. قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا. وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا﴾ [٢٢٢]

والغاية من الدين هي خلق وتربية إنسان جميل، ظريف، حساس، يخلص العبودية للّه ﷻ. ولا يتحقق هذا الكمال إلا عند أولئك الذين بإمكانهم الوصول إلى المراتب العلوية بالتفكر والتخصص. ويصور اللّه ﷻ في الآيات التالية أصحاب الإيمان الكامل على هذا النحو:

﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَاناً وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [٢٢٣]

﴿الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّابِرِينَ عَلَى مَا أَصَابَهُمْ وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [٢٢٤]

فإذا امتلأ القلب بمحبة اللّه ﷻ، فسيكون الهدف العام والنهائي لأي عمل يعمله الإنسان هو اكتساب مرضاة اللّه ﷻ. فيبدأ الإنسان ويسلك الطريق القويم ليعرف الحكمة من خلقة هو، ومعرفة حقيقة القرآن والكون. أما العباد ذوي القلوب الغافلة، التي لم تكتسب هذا العمق والرقة، فلا يحبهم اللّه ﷻ على الإطلاق. يقول الحق ﷻ:

﴿...فَوَيْلٌ لِّلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ اللَّهِ أُوْلَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ [٢٢٥]

٢٢١. الأعلى: ١٤-١٥.
٢٢٢. الشمس: ١-١٠.
٢٢٣. الأنفال: ٢.
٢٢٤. الحج: ٣٥.
٢٢٥. الزمر: ٢٢.

تبين الآية الكريمة أن الإنسان الذي ابتعد عن ذكر اللّه ﷻ، هو من عجز عن المحافظة على خاصية الإنسانية وشرفها عنده، أي أنه عجز عن إدراك خصوصية أن يكون في «أحسن تقويم».

تحاول النفس أن تجمع عندها كل الملذات الدنيوية. بيد أن «زكية النفس» تجعل من الممكن الإلقاء بكل هذا في خارج القلب. ويصبح الشخص الذي لم ينل هذه التربية المعنوية، أسيراً لهوي نفسه. يقول اللّه ﷻ:

﴿أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلاً﴾ [٢٢٦]

«أي أنك لن تستطيع أن تخلصه مما وقع فيه».

إن استخدام الآية الكريمة التعبير «مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ» الذي هو تعبير ثقيل من أجل أولئك الذين اتبعوا أهوائهم وابتعدوا عما جاء به الوحي، لهو أمر يسترعي منا الانتباه.

وتعبر كلمة «هوى» في القرآن الكريم عن مضاد للكمة العلم والعلم هنا هو العلم الذي يأتي من لدن اللّه ﷻ. يقول اللّه ﷻ:

﴿... وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءهُم مِّن بَعْدِ مَا جَاءكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذاً لَّمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [٢٢٧]

يذكر القرآن الكريم إتباع «الهوى» بوصفة السبب المهم والرئيس للضلالة. ومما شك فيه أن الذين يتبعون الهوى أي أهواء النفس فيما يخص الدين، من المحقق أنهم سيحيدون عن الطريق القويم ويبتعدون عن طريق اللّه ﷻ.

ويحتاج الإنسان إلى طرق التربية المعنوية والروحية مثل المناجاة والرياضة النفسية والذكر حتى يتمكن من أن يصل إلى تزكية النفس بشكل اللائق لذلك. وكما أن القلب هو مركز جوهر الإيمان، فهو أيضاً مركز جوهر الذكر. وتبدأ العبودية الحقيقية عندما يصل الذكر من اللسان إلى القلب؛ ويكون الإنسان بذلك قد دخل إلى الطريق الذي سيتخطى فيه عقبة النفس. والاستمرار في الذكر يجعل متحكماً في حقيقة الذكر وكل أحواله. وحينها سيمحى كل شيء من القلب ولا يبقي سوي اللّه ﷻ. ويظل العبد مع ربه. فينال إحساس الإحسان. ويستمر في عبادته كما لو كان يري اللّه...

٢٢٦. الفرقان: ٤٣.

٢٢٧. البقرة: ١٤٥.

العفو عن سيدنا آدم وأمنا حواء

أُخرج آدم عليه السلام وأمنا حواء بعد مخالفتهما لأمر اللّه ﷻ بإغواء من الشيطان، من الجنة وأُرسلا إلى الأرض. نزلت الملائكة بسيدنا آدم إلى جزيرة سيلان جنوب الهند، أما السيدة حواء فنزلوا بها إلى حيث المكان الذي توجد فيه مدينة جدة على ساحل البحر الأحمر. لهذا السبب ظل كل منهما بعيد عن الآخر مدة طويلةً. انقطع آدم عليه السلام وأمنا حواء للتوبة إلى اللّه والاستغفار. ولكنهم لم ينالوا عفو اللّه ﷻ. وفي النهاية دعيا ربهما وقالا:

﴿...رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [٢٢٨]

يروى كذلك أنهما توسلا بنبينا ﷺ. أي أنهما لجئوا إلى روحانية رسول اللّه ﷺ فعفي اللّه ﷻ عنهما ببركة رسولنا. وقد ورد في الحديث الشريف ذكر ذلك على النحو التالي:

«لما اقترف آدم الخطيئة، قال يا رب أسألك بحق محمد لما غفرت لي، فقال اللّه ﷻ يا آدم، وكيف عرفت محمدًا ولم أخلقه[٢٢٩]؟ قال لأنك يا رب لما خلقتني بيدك ونفخت فيّ من رُوحك رفعتُ رأسي فرأيتُ على قوائم العرش مكتوبًا لا إله إلا اللّه محمدٌ رسول اللّه، فعلِمتُ أنك لم تُضِفْ إلى اسمك إلا أحبَّ الخلق إليك، فقال اللّه ﷻ صدقت يا آدمُ، إنهُ لأحبُّ الخلق إليَّ، وإذْ سألتني بحقه فقد غفرتُ لك، ولولا محمد ما خلقتُك» [٢٣٠]

تذكر آدم عليه السلام شرف ومكانة رسول اللّه ﷺ عند اللّه ﷻ وعندما طلب أن يعفو اللّه عنه حُرمةً لوجه الرسول، استجاب اللّه ﷻ لدعائه وكلّف مَلَكاً يرشده الطريق إلى مكة.

وببركة هذا الدعاء أيضاً وكّل اللّه ﷻ مَلَكاً آخر سار بأمنا حواء إلى آدم عليه السلام وفي يوم التاسع من ذي الحجة اجتمعا معاً في عرفات وقت العصر، فتوجها من بين دموع عينيهما إلى ربهما مستغفرين مرة أخري.

---

٢٢٨. الأعراف: ٢٣.

٢٢٩. أراد اللّهّ ﷻ الذي لم يكن هنا موجود غيره في الأزل، أراد يُعرف على مستوى إدراك الإنس والجن فخلق كل ما سوى ذلك من مخلوقات. وكان «النور المحمدي» هو أول ما خلق اللّهّ تعالى. فعن أبي هريرة، قال: قالوا يا رسول الله متى وجبت لك النبوة؟ قال: «**وآدم بين الروح والجسد**» (الترمذي، المناقب، ١/ ٣٦٠٩). وهذا يعنى أن النور المحمدي –عليه الصلاة والسلام– هو جوهرة الأنبياء جميعهم، وهو مقابل كونه أول من خلق اللّهّ، سيكون خاتم الأنبياء والمرسلين. ونحن لا نقصد التعبير "النور المحمدي "بمعناها الحرفي بل «الذات محمد»المبعوث بصفاته البشرية.

٢٣٠. الحاكم، المستدرك، ٢، ٦٧٢/ ٤٢٢٨؛ ابن كثير، السيرة، ١، ٣٢٠.

لم يكن مصدر الحب والوله الذي جمع بين سيدنا آدم والسيدة حواء أنها من جنس آخر بل كان مصدره أن السيدة حواء خُلقت من آدم عليه السلام.

وكما استجاب الحق ﷻ بإحسانه وكرمه الذي لا تحده حدود لدعائهما، فإنه يستجيب بالكيفية نفسها ويعفو ويسامح حتى يوم القيامة من يأتي من عباده كل عام إلى عرفات في نفس الوقت ويسأل اللّه العفو والمغفرة. وهذه هي الحكمة من توجه الحجيج إلى عرفات واستغفارهم اللّه ﷻ هناك.

أول جريمة على سطح الأرض

اتخذ آدم عليه السلام والسيدة حواء بعد لقاءهما، مدينة مكة الحالية وطناً لهما بأمر من اللّه ﷻ. لهذا السبب أُطلق على مكة اسم«أُم القرى'' أي مركز المناطق السكنية. وهناك بدأ عدد الناس في التزايد.

ويرجع السبب وراء الزيادة السريعة في العدد، إلا أن السيدة حواء كانت تضع في البطن الواحدة أكثر من طفل. وكان وليدو البطن الواحدة أخوة يحرم على أحدهما أن يتزوج بالآخر. ولكن يحل للذكر أن يتزوج بمن تولد من بطن أخرى وكذلك الأنثى.

أراد قابيل أن يتزوج من أخته التي ولدت معه في نفس الوقت من بطن واحدة. أما هابيل فأخطر أخاه بأن ما ينوي فعله مخالفاً للشريعة وأنه لا بد وأن يتزوج من أخوات له لم يولدن معه في نفس الوقت. لم يلتفت قابيل لهذه التحذيرات، وادعى أنه بفعله هذا يكون قد سلك سلوكاً سليماً. وبناءً على هذا عرض هابيل على أخيه أن يقدم كل منهما قرباناً إلى اللّه ﷻ حتى يتضح لكليهما من كان على حق.

وكانت القرابين في حينذاك تُقدم من جنس مال الشخص ووفق وظيفته. وكانت توضع جميعاً فوق قمة جبل من الجبال، ويذهب الناس إلى هناك بعد مدة، فمن يجد قربانه وكان اللّه ﷻ يتقبل القربان بأن ينزل من الماء ناراً تحرقه عن آخره.

كان لهابيل قطيع من الخرفان، فأختار من بينها أسمنها وأجملها هيئة. أما قابيل فكان يشتغل بالزراعة. فقام بانتقاء حزمةً قمح رديئة كي يقدمها قرباناً للّه ﷻ.

وبعد مدة ذهب هابيل وقابيل معاً كي يتفحصا القرابين التي قدموها. فوجدا أن اللّه ﷻ قد تقبَّل الكبش الذي قدمه هابيل قرباناً؛ أما قابيل فوجد حزمة القمح الرديئة

التي قدمها مستقرة كما هي. [٢٣١] فغضب قابيل لذلك أشد ما يكون الغضب. وتصور الآية الكريمة الآتية كيف استبد به الغضب حتى قتل آخاه:

﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَاناً فَتُقُبِّلَ مِن أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ. لَئِن بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَاْ بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لَأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ. إِنِّي أُرِيدُ أَن تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاء الظَّالِمِينَ [٢٣٢]. **فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ. فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءَةَ أَخِيهِ قَالَ يَا وَيْلَتَا أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْءَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ﴾** [٢٣٣]

يُعرض في هذه القصة لمُقارنة بين العقل الذي أُضيء بنور الوحي والعقل الذي لم يستطع أن يتخلص من سلطة النفس فحُرم ذلك وتعرض القصة كذلك لمثال حي لنتيجة هذه المقارنة. وللعقل قيمة يعطيها له الوحي. والعقل الحكيم هو يقف في خدمة الوحي

٢٣١. ابن سعد، الطبقات، ١، ٣٦.

٢٣٢. ينضوي هذا الموضوع مسالتين: الأولى هي كيف يتحمل القاتل إثم المقتول والآية الكريمة تقول (**وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى**) (الإسراء، ١٥)؟ ويمكن توضيح هذه النقطة على أكثر من شكل: فقد ورد في الحديث الشريف «**المستبان ما قالا. فعلى البادئ، ما لم يعتد المظلوم**». (مسلم، البر، ٦٨/ ٢٥٨٧) أي أنه طالما لم يتعد المظلوم حده، فإن البادئ يُحَمَّل بمثل ذنب صاحبه لأنه ارتكاب الإثم نفسه من ناحية ولأنه كان السبب في ارتكاب صاحبة الإثم من ناحية أخري. فالمقصود هنا من قول (إِثْمِي)أي لو مددت يدي إليك، فسأحمل نفس الإثم. وبهذا الحال يتخطي أحدهما الحد، أما الآخر فيكون قد ارتكب الإثم كله. وإذا لم يبد الآخر رد فعل، يكون قد نجى من هذا الإثم. ويكون القاتل قد ارتكب جريمتين وحمل إثمين؛ الأولى لأنه قتل المظلوم، والأخرى لأنه استحق العقاب وألقى بنفسه إلى النار. وبذلك تكون (إِثْمِي) هي (إثم قتلي)؛ وتكون (إِثْمِكَ) الآثام التي ارتكبتها من قبل.

أما الشكل أو الجانب الآخر، فكما أنه من غير الجائز أن يطلب الإنسان لنفسه أن يعصي اللهّ، فلا يجوز أن يطلب لغيره أيضا أن يعصي اللهّ. وما دام الأمر كذلك فكيف يجوز لتقي مثله أن يطلب لأخيه أن يرتكب إثمين؟ لهذا جوابين: الأول، أن القصد الرئيس من هذه الكلمة لم يكن تمنى الطرف الآخر الوقوع في الإثم؛ بل كان يطلب ألا يقع هو أو أخيه في الإثم. ويكون المعنى بذلك، أنا لا أريد أن أقع في الإثم، فإن كنت مصراً، أنا لا أطلب من اللهّ أن يجزيك بما تصر عليه. ولكنى أرجح الشكل الأول. (المللي، ٣، ١٦٥٤)

٢٣٣. المائدة: ٢٧-٣١.

ويقبله مرشداً له. أما العقل الذي حُرم ممن يرشده الطريق، فلا يمكنه أن يحمي الإنسان من آفات النفس. فالعقل كالسكين الحاد الذي يمكن استخدامه في كل الأغراض. قيمكن لأي أحد إذا أراد أن يقطع به الخبز، ويمكن لآخر أن يرتكب به جريمة. وبالطريقة نفسها أن عقل قابيل الذي عارض الوحي، هو نفسه الذي ألقى به إلى الضلالة وقضى على آخرته.

والعقل عند الأشخاص الذين حُرموا التقوى والإخلاص هو الذي يزيد من ظلم ذلك الشخص لهم وللآخرين. ويمكنه أن يودي بصاحبه إلى قتل أخيه كما حدث في قصة قابيل. أما هابيل فاستخدم نعمة العقل على النحو الذي يقتضيه الوحي وتوجه بالنصح لقابيل، وكان عبداً مخلصاً لذا تحرك بخوف من اللّه ﷻ.

دائماً ما ينظر الذين أُبتليوا بداء الغيرة والحسد إلى النعم التي في أيدي الآخرين بدلاً من أن ينظروا إلى النعم التي وهبهم اللّه إياها. وإذا ما تمكنت الغيرة والحسد وهي من صفات النفس المذمومة، من شخص، فإنه تحثه على فعل كل أنواع الموبقات. حتى أن هذا الشخص قد لا يتورع عن قتل آخيه. ولا يمكن لمثل هؤلاء الأشخاص أن يرضوا بما قدّر اللّه لهم.

ونتيجة لذلك سيتملكهم الندم وعذاب وجداني عظيم لأنه سيعيشون من الأرزال في الدنيا. أما في الآخرة فلهم عذابُ أليم. ويمكن للإنسان أن يبرأ من هذا المرض؛ بإعادة تربية وتهذيب النفس والتخلص من النفس الأمارة بالسوء وإدراك النفس المطمئنة، وأن يرضي الإنسان بما قسم اللّه له على وجه الخصوص.

وفي شخصية قابيل وهابيل نوع من التكتل يذكرنا بما بين الملاك والشيطان من تباين وتضاد. ففي الوقت الذي يبحث فيه قابيل في مقابله عن نواقصه هو مثله في ذلك مثل الشيطان، نجد أن هابيل قد تصرف دون أن يشعر بتوتر مثله في هذا مثل المَلاك لا يخشي أن يفقد اعتباره ولا يهاب التهديد بالقتل، ولا يخاف إلا من اللّه فقط. أي أن أحدهما ظل يصر على خطئه تماماً مثل الشيطان، أما الآخر فكان وجهته نحو اللّه ﷻ.

ويبين القرآن الكريم عظم جريمة قتل النفس ظلماً ة طغياناً في الأرض ويؤكد كذلك على عظم أجر من يُنجي إنساناً من القتل:

﴿مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْساً بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعاً وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعاً ...﴾ [٢٣٤]

ويحدثنا رسول اللّه ﷺ في الحديث الشريف التالي عن حادثة سفك دم الأخ وهي أول حادثة في تاريخ الإنسانية كلها بقوله:

«لا تُقتل نفس ظلما، إلا كان على ابن آدم الأول كفل من دمها، لأنه كان أول من سنّ القتل» [٢٣٥]

ويقول سيدنا رسول اللّه ﷺ في حديث آخر:

«مَن سَنَّ في الإسلام سنة حسنة، فله أجرها، وأجر من عمل بها بعده، من غير أن ينقص من أجورهم شيء، ومن سن في الإسلام سنة سيئة، كان عليه وزرها ووزر من عمل بها من بعده، من غير أن ينقص من أوزارهم شيء» [٢٣٦]

يبين هذا الحديث الشريف أنه إذا دل أحد على خير، فله حصة من ذلك الخير الذي سيستمر من بعده؛ وإذا تسبب أحد في وقوع شر فله نصيب كذلك من ذلك الشر الذي سيستمر من بعده.

وللأمام الغزالي في كتابه «الإحياء» كلمة جميلة في هذا الخصوص:

طوبى لمن مات وماتت معه ذنوبه ،

والويل الطويل لمن يموت وتبقى ذنوبه مائة سنة.

وورد في الحديث الشريف أن الرسول الأكرم ﷺ قد قال:

«ستكون فتنةٌ القاعد فيها خيرٌ من القائم والقائم خيرٌ من الماشي والماشي خيرٌ من الساعي قال أفرأيت إن دخل على بيتي وبسط يده إلي ليقتلني قال كن كابن آدم» [٢٣٧]

---

٢٣٤. المائدة: ٣٢.

٢٣٥. البخاري، أحاديث الأنبياء، ١/ ٣٣٣٥؛ مسلم، القيامه، ٢٧/ ١٦٧٧.

٢٣٦. مسلم، الزكاة، ٦٩/ ١٠١٧؛ النسائي، الزكاة، ٦٤/ ٢٥٥٤.

٢٣٧. الترمذي، الفتن، ٢٩، ٢١٩٤.

أمرنا الدين الإسلامي أن نحافظ وندافع عن خمسة أشياء. هي: الروح والعقل والدين والنسل والمال. ويجب على الإنسان أن يجاهد ويفعل كل ما هو ضروري للدفاع ضد أي تعرض لهذه الأشياء. ولكن ينبغي عليه وهو في دفاعه هذا أن يتبع الطريق التي بينتها الشريعة.

وعندما يتعرض لموقف سيكون فيه إما ظالماً أو مظلوماً، فعليه أن يتبع وصية رسول اللّه ويختار أن يكون مظلوماً لا ظالماً.

رزق اللّه ﷻ سيدنا آدم عليه السلام والسيدة حواء بسيدنا شيت[٢٣٨] عليه السلام بعد مقتل قابيل. وكلمة شيت تعنى في اللغة «هبة اللّه».

أنزل اللّه ﷻ على سيدنا شيت هو أحد الأنبياء الذين لم يرد ذكرهم في القرآن، ٥٠ صحيفة. وقد نادى سيدنا آدم على سيدنا شيت -عليهما السلام- وهو يحتضر، وعلمه ساعات الليل والنهار، والعبادات الواجبة في تلك الساعات وأخبره أن طوفاناً سيحدث على الأرض.

توفي سيدنا آدم عليه السلام يوم الجمعة، وجاءته الملائكة فغسَّلته وكفّنته ثم قاموا بدفنه من بعد ذلك. ويروى أنه عاش على الأرض ألف عام أو ٩٣٠ عام.

العبر المُستقاة من قصة آدم عليه السلام

١- يجب أن نكون منتبهين يقظين إلى أبعد الحدود لحيل الشيطان، فهو عدو الإنسان اللدود والمحرض الدائم له على السوء.

٢- يجب أن نولي الاهتمام بتزكية النفس وتصفية القلب حتى نتخلص من الصفات المذمومة مثل الكِبر والحسد والحرص والعجلة وهي صفات تسوق بصاحبها إلى الخسران الأبدي.

٣- يجب على الإنسان أن يقتدي بسيدنا آدم عليه السلام في أن يُسرع بالاستغفار لدي ارتكابه الإثم.

٢٣٨. وجدنا في مصادرنا أن هذا الاسم قد ذُكر على الشكل شيث كذلك. بيد أننا رجحنا أن نذكره هنا على الشكل شيت حتى يكون سهل التلفظ بالنسبة للغة التركية ولأنه أشتُهِر بين الأتراك بهذا الشكل.

٤- يجب علينا أن نتوجه إلى اللّه بالاستغفار حتى إن لم نكن قد ارتكبنا إثماً معترفين بعجزنا عن تأدية شكر نعمائه علينا.

٥- يمكننا أن نستقي من حادثة اقتراب سيدنا آدم عليه السلام وأمنا حواء من الشجرة التي حرمها اللّه، أنه يمكن لروحانيات العباد التي تلاشت بعد ارتكابهم الذنوب، يمكنها أن تعود مرةً أخري إذا هم لزموا الاستغفار.

٦- يجب علينا أن نتوسل في دعائنا بسيدنا رسول اللّه ﷺ كما فعل سيدنا آدم عليه السلام، وألا نكف الصلاة عليه في وقت ضيقنا وراحتنا.

٧- يجب علينا نبذل جهدنا حتى ندرك سر «أحسن تقويم» ونجعل الروح السلطانية غالبةً على حياتنا النفسية.

٨- يجب ألا يغيب عن أذهاننا أنه إذا دل أحد على خير، فله حصة من ذلك الخير الذي سيستمر من بعده؛ وإذا تسبب أحد في وقوع شر فله نصيب كذلك من ذلك الشر الذي سيستمر من بعده. وبذلك يكون هابيل قد سنَّ سُنة في الخير، أما قابيل فسنَّ سُنةً في الشر.

٩- خلق اللّه ﷻ الإنسان مُكرماً وفضله على جميع مخلوقاته.

من كل ذلك يمكن الخلوص ببعض المعلومات عن سيدنا آدم عليه السلام:

- أول من عاش في الجنة والحياة الدنيا.
- أول من تغطّى.
- أول من نسي.
- أول من ارتكب الإثم.
- أول من تاب.
- أول الأنبياء «أنزل اللّه عليه ١٠ صحف».
- أول من كافح لإعلاء كلمة التوحيد.
- أول من شعر بفاجعة فقدان الولد.
- أول من ألقي السلام.
- أول من عمل بالأرض «فلح الأرض».
- وخلاصة القول أنه كان أول إنسان. عليه السلام!...

سيدنا آدم عليه السلام
البحر الأسود
الأناضول
البحر الأبيض
الشام
الجزيرة العربية
البحر الأحمر
مكة المكرمة
بحر قزوين
آسيا الوسطى
تركستان
ما بين النهرين
ايران
الهملايا
السند
الهند
أفريقيا
المحيط الهندي
سيلان

التوبة والإستغفار

الدنيا هي دار الإمتحان، يميل الناس فيها ويتجهون نحو الخير والشر. ومع مرور الزمن، تتكشف معالم هذا التوجه بالدعم والتشويق والإغراءات، فتتكون في نهاية الأمر هوية هذا الإنسان الشخصية.

أن يقوم أحدهم بتقديم كأس من الماء لمن هو أمامه، دون أن يكون مجبراً على ذلك، هو أمر يؤدي إلى ولادة واجب الشكر، كما أنه أمر يعتبر من الأمور الإنسانية والوجدانية. في الواقع، إن هذا الميزان يذكرنا بضرورة العيش وفق حس دائم يتزين بأحاسيس الشكر والمنة للحق سبحانه وتعالى أمام ما يقدمه لنا من نعم لا تُعد ولا تُحصى. وفي هذه الحالة، فإن التعامل وفقاً للصفات الإنسانية التي تولد معنا بالفطرة كالجهل والشهوة والكبر والغرور والحرص والبخل والحسد والإسراف والغضب، أو باختصار، أن يتعامل المرء حسبما تشتهيه نفسه فيجحد أمام نعم اللّٰه تعالى، فإن هذا التعامل هو خيانة كبرى للفطرة النقية التي نمتلكها.

ويميل الإنسان عادة إلى الخطيئة مستجيباً لرغبات نفسه عندما يفقد بريق الإيمان فيها. فعندما تضعف الأخلاق في وجدان البشر، يغيب معها التفكير السليم والعمق الروحي. ويظهر الضعف الشديد في الطريق نحو الإستقامة. فالخطايا هي كالنغمات الموسيقية التي تنساب إلى النفس البشرية بشكل عذب جميل، فكأنما يقع فيها المرء دون أن يشعر بثقل وبائها وشدته.

والخطايا التي يقع فيها المرء في ساعة غفلته في هذه الحياة الدنيا، تمزق شرفه وحيثيته الإنسانية. وهذا الأمر هو ما يجعل الروح تتلطخ بظلماء الخطيئة.

مع العلم أن ابن آدم يولد في هذه الدنيا طاهراً نقياً مفطوراً على الشرف. والدين هو التجلي الواضح للرحمة واللطف الذي تكرم اللّٰه به على البشرية حماية لهذه النقاوة الفطرية. ولهذا، إن تمكن العبد عبر هذين الدافعين من زحزحة أطراف ستار الخطيئة تكشف له في وجدانه ثقل هذه الخطيئة التي قام بها. فتصحو مشاعر الفضيلة المخبأة في عالمه الداخلي. ويحترق قلبه بندم كبير يجعل من قطرات الدمع تنساب طالبة مرضاة اللّٰه

ومغفرته. هذا التحرق وهذه الندامة هي ما يسمى «التوبة». وما يتبعها من رفع اليدين إلى السماء طلباً للمغفرة بكلمات تنبع من القلب التائب تسمى «استغفار».

❁

إن اللَّه تعالى جل جلاله يفرح ويرضى باستغفار وتوبة وندامة العبد. ذلك أن اللَّه هو الرحمن وهو الرحيم ولقوله تعالى:

﴿...إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [٢٣٩]

إن رحمة ولطف اللَّه تعالى بعباده دون أدنى شك أكثر بكثير من رحمة الأم لابنها. فهو لا يحب العذاب لعباده. أما إن أصرَّ العبد على نكران الجميل وعلى الظلم، فإنه يستحق عند ها كل ما سيناله من عقاب. إن الرحمة التي وضعها اللَّه في أسمائه الحسنى «**الرحمن والرحيم**» لهي أكثر بكثير من عذابه جَلَّ وعلا. علماً أن الحديث النبوي الشريف أدناه قد أخبر بشكل رائع عن رحمة اللَّه تعالى أمام توبة واستغفار العبد حيث قال رسول اللَّه ﷺ:

«للّه أشد فرحا بتوبة عبده حين يتوب إليه، من أحدكم كان على راحلته بأرض فلاة، فانفلتت منه وعليها طعامه وشرابه، فأيس منها، فأتى شجرة، فاضطجع في ظلها، قد أيس من راحلته، فبينا هو كذلك إذا هو بها، قائمة عنده، فأخذ بخطامها، ثم قال من شدة الفرح: اللهم أنت عبدي وأنا ربك، أخطأ من شدة الفرح» [٢٤٠]

إن رحمته تعالى قد أحاطت بكل شيء، حيث يقول تعالى مبيناً عظمة رحمته بعباده:

﴿...وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ...﴾ [٢٤١]

وفي إشارة منه إلى هذه الحقيقة الإلهية يقول رسول اللَّه ﷺ في الحديث القدسي: يقول اللَّه تعالى:

«لما خلق الله الخلق كتب في كتابه وهو يكتب على نفسه وهو وضع عنده على العرش إن رحمتي تغلب غضبي» [٢٤٢]

---

٢٣٩. البقرة: ٢٢.

٢٤٠. مسلم، التوبة، ٧/ ٧٤٧٢؛ الترمذي، القيامة، ٤٩.

٢٤١. الأعراف: ١٥٦.

٢٤٢. البخاري، التوحيد، ١٥/ ٤٠٤٧.

ولهذا، سعى الأنبياء جميعهم إلى حثَّ أممهم دائماً على التوبة والاستغفار.

إن كل نفس بشرية، عدا الأنبياء المعصومين، هي بما تمتلكه من خصائص بشرية غير معصومة عن الخطأ، ولهذا فهي معرضة دائماً للوقوع بالخطأ قليله أو كثيره.

ولهذا، فإن القرآن يحمل بين أرجائه سورة كاملة يبتدئُ اسمها بعبارة الطهارة من الخطايا أي «التوبة». إن كلمة التوبة قد ذكرت في القرآن الكريم في ما يزيد عن ثمانين موضعاً. كما يحتوي القرآن على مئات الكلمات التي تحمل في طياتها معنى المسامحة الربانية والمغفرة، ككلمة «غفور» التي ذكرت اثنين وتسعين مرةً، واسم الجلالة «الغفار»ذكر خمس مرات مختلفة، كما ذكر اسم الجلالة «الغافر» مرة واحدة. وجميع هذه الأسماء والكلمات تدل على أهمية التوبة وأن اللَّه سبحانه وتعالى سيقبل بها من عباده ويحثهم بذكرها على الاستغفار والتوبة.

إن اعتراف العبد بذنبه عند الخطيئة أو الغفلة هو عرفان بالجميل، وطلبه العفو من هذا الذنب هو دين وجداني. كما أن الغفلة التي هي انعدام الرؤية للخطيئة ضمن إطار الذنب، وبالتالي الغفلة عن إدراك ضرورة التوبة عنها، وهي بالتالي والعياذ باللَّه إفلاس للقلب وعلامة الدخول إلى جهنم. ولهذا، فإن اللَّه سبحانه وتعالى يحذر هؤلاء بشكل واضح فيقول:

﴿...وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [٢٤٣]

وفي الحديث النبوي الشريف: يقول رسول اللَّه ﷺ:

«الندم توبة، والتائب من الذنب كمن لا ذنب له» [٢٤٤]

ولا يجب على العبد في معصيته للّه أن يتذرع بأن اللَّه ﷻ سيغفر له فيؤجل من هذه التوبة والمغفرة، بل يجب عليه أن يباشر فوراً إلى التمسك بحبل التوبة. وفي هذا السياق، يحدد اللَّه سبحانه وتعالى التعجيل في التوبة شرطاً للقبول بها فيقول جَلَّ وعلا:

---

٢٤٣. الحجرات: ١١.

٢٤٤. الطبراني، المعجم الكبير، جـ٢٢، ص ٦٠٣، ٧٧٥.

﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [٢٤٥]

كما يبشر اللَّه ﷻ من يؤخر التوبة مستمعاً لوسوسة الشيطان بعاقبته الوخيمة فيقول:

﴿وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [٢٤٦]

ويوضح بعض علمائنا طرق النجاة من هذا التهديد والتنبيه في الآية الكريمة بقولهم:

«عجلوا بالصلاة قبل الفوت، وعجلوا بالتوبة قبل الموت» [٢٤٧]

كما أن ذكر اللسان لكلمة «أستغفر اللَّه» ليست أمراً كافياً لقبول هذه التوبة. إذ يجب مع هذا القول أن يهتز القلب وأن يعقد المرء نيته على عدم تكرار نفس الذنب مرة أخرى.

ولقد بين جلال الدين الرومي الحالة الروحانية الضرورية لتحقق هذه التوبة حين قال:

«تب بقلب مليء بنار الندامة وعيون رطبة! علماً أن الأزهار تنبت في الأماكن المشمسة والرطبة!»

إن التوبة والإستغفار تصل بالفرد والأمم إلى بر السلامة والأمان. وتعزلهم عن البلاء والمصائب. والحديث الشريف الآتي مهم جداً في تنظيم تصرفات المؤمنين. يقول رسول اللَّه ﷺ:

«لو يعلم المؤمن ما عند الله من العقوبة، ما طمع بجنته أحد، ولو يعلم الكافر ما عند الله من الرحمة، ما قنط من جنته أحد» [٢٤٨]

ومن هذا المنطلق يجب على المؤمن أن يحيا بين الخوف والرجاء. فإن قيل سيدخل النار رجل واحد. عليه أن يسأل نفسه بخوف: هل ذلك أنا؟. وإن قيل: سيدخل الجنة رجل واحد!. عليه أن يسأل بأمل: هل أنا ذلك؟.

---

٢٤٥. **النساء: ١٧.**

٢٤٦. النساء: ١٨.

٢٤٧. المنافي، فوز القادر، ٥، ٦٥.

٢٤٨. مسلم، التوبة، ٢٣/ ٢٧٥٥.

وكما أن مراحل الخوف هي متعددة، فإن مراحل الرجاء أيضاً هي الأخرى متعددة المراحل. فأهل الخطيئة هم أهل اللّه إن خافوا من عذاب اللّه تعالى، هم الذين يخافون من أذية محبوب القلوب سبحانه وتعالى والخائفون من أن يحرموا محبته.

لا يجب علينا أن ننسى أن الأنبياء حتى لم يعصموا من الزلاّتِ، وعاشوا ألم التوبة والإستغفار، فأذاقهم اللّه بذلك عجز نفوسهم البشرية. ذلك أن التفوق المطلق هو للّه وحده. والمستثنى والمنزّهُ عن العجز هو وحده لا شريك له.

إن أول من تاب إلى اللّه تعالى هو نبيه آدم عليه السلام. وتوبته التي تابها مع أمنا حواء هي هذه التوبة المشهورة:

﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [٢٤٩]

هذا الدعاء هو أجمل نموذج للإستغفار يستفيد منه أولادهم من بعدهم إلى أن تقوم الساعة. ويدعو اللّه تعالى في العديد من الآيات الكريمة عباده للتوبة والاستغفار استفادة من رحمته، ويبشرهم فيها بأنه سيقبل هذه التوبة فيقول:

﴿إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا. وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا﴾ [٢٥٠]

﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ. أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾ [٢٥١]

تؤكد هذه الآية الكريمة أن المحسن هو من يعيش حياته بعيداً عن الإصرار على المعصية وإن زل بأحدها سارع يطلب التوبة. فهم يتحركون ضمن أطر الحكمة التي تقول:

لا صغيرة مع الإصرار ولا كبيرة مع الاستغفار

٢٤٩. الأعراف: ٢٣.

٢٥٠. الفرقان: ٧٠-٧١.

٢٥١. آل عمران: ١٣٥-١٣٦.

ويقول اللّه تعالى في الآيات الكريمة:

﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [٢٥٢]

﴿قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ...﴾ [٢٥٣]

والأصل في الدعاء هو الإخلاص والمناجاة والصدق. فالأدعية الصادقة هي من مظاهر المناجاة. والآية التي تلى ذكرها تبين أن من يدعو اللّه سبحانه وتعالى مناجياً هو العبد الذي يكسب قيمة ودرجة عند ربه. ولهذا فإن التوبة يجب أن تتزين بالعمق الروحي. يقول اللّه تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحًا عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [٢٥٤]

﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُولَئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [٢٥٥]

﴿وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا﴾ [٢٥٦]

إن محاولة الإبتعاد بشكل كلي عن الخطيئة التي هي في مضمونها معارضة للأوامر الإلهية، لا تكون أمراً كافياً لإستثناء العبد من التوبة والإستغفار، وذلك لأنه لا يمكن لأحد من الناس أن يشكر اللّه تعالى بشكل كاف على ما أنعم عليه من نعم. وهذا العجز البشري

٢٥٢. التوبة: ١٠٤.
٢٥٣. الفرقان: ٧٧.
٢٥٤. التحريم: ٨.
٢٥٥. النساء: ١٤٦.
٢٥٦. النساء: ٢٧.

هو للجميع بدون أي استثناء. علماً أن التمكن من الشكر هو بحد ذاته مدعاة للشكر أيضاً. وهكذا فإن عملية الشكر هي عملية مستمرة إلى ما لا نهاية.

من الخطأ الإعتقاد بأن العبد بإمكانه الإبتعاد عن الخطايا بشكل كامل. فالعبد لا بد وأن يقع في الخطأ حتى ولو في لحظة غفلة، وسيشعر بعجزه وبالتالي سيلجأ إلى ربه جَلَّ وعلا. إن إدراك الإنسان لضعفه أمام عظمة ربه هو أمر ينبع من هذه النظرة والكيفية. يقول رسول اللَّه ﷺ:

«كُل بني آدم خطاء، وخير الخطائين التوابون» [٢٥٧]

حتى الأنبياء لم يستثنوا من كيفية ارتكاب الخطأ. فهم ارتكبوا الأخطاء بين الفينة والأخرى وتابوا واستغفروا اللَّه على ذلك. يقول رسول اللَّه ﷺ:

«إنه ليغان على قلبي، وإني لأستغفر الله، في اليوم مائة مرة» [٢٥٨]

«يا أيها الناس، توبوا إلى الله، واستغفروه، فإني أتوب إلى الله، وأستغفره في كل يوم مائة مرة أو أكثر من مائة مرة» [٢٥٩]

ولكن استغفار رسول اللَّه ﷺ وتوبته هذه هي في معظم الأحيان ليس لخطأ أو ذنب اقترفه، وإنما هي زيادة في التقرب من اللَّه تعالى وسعياً لكسب رضاه. ولكون رسولنا ﷺ كان في حالة ارتقاء دائم ومستمر، فإنه كان يستغفر اللَّه على حاله التي هي أقل من الحالة التي سيكون عليها بعد هذه المرحلة والحالة. وقد علم أمته ﷺ أنواع الإستغفار المتعددة. وأهمها:«سيد الاستغفار». عن شداد بن أوس رضي الله عنه عن رسول اللَّه ﷺ قال:

« سيد الاستغفار أن تقول: اللهم أنت ربي لا إله إلا أنت، خلقتني وأنا عبدك، وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت، أعوذ بك من شر ما صنعت، أبوء لك بنعمتك علي، وأبوء لك بذنبي فاغفر لي، فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت».

ويكمل رسول اللَّه ﷺ حديثه- فيقول:

---

٢٥٧. ابن ماجه، الزهد، ٣٠/ ١٥٢٤.

٢٥٨. مسلم، الذكر،٤١/ ٢٧٠٢؛ أبو داوود، الوتر،٢٦.

٢٥٩. أحمد، مسند، ٤، ١٦٢/ ١٨٢٩٤.

«ومن قالها من النهار موقنا بها، فمات من يومه قبل أن يمسي، فهو من أهل الجنة، ومن قالها من الليل وهو موقن بها، فمات قبل أن يصبح، فهو من أهل الجنة» [٢٦٠]

مما لا شك فيه أن نعم اللَّه تعالى علينا هي بقدر واسع لا يمكن لاستغفارنا أن يصل إليها أبداً. تقول الآية الكريمة:

﴿وَآتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ [٢٦١]

ويتحدث عطاء بن أبي رباح أحد أشهر علماء التابعين رحمة اللَّه عليه عن شكر واستغفار نبينا ﷺ فيقول:

دخلت انا وعبيد بن عمير على عائشة ﷺ فقال لها عبيد بن عمير: أخبرينا بأعجب شيء رأيته من رسول الله ﷺ، قال: فسكتت ثم قالت: لما كان ليلة من الليالي، قال:

«يا عائشة ذريني أتعبد الليلة لربي»

قلت: والله إني لأحب قربك، وأحب ما سرك، قالت: فقام فتطهر، ثم قام يصلي، قالت: فلم يزل يبكي حتى بل حجره، قالت: ثم بكى فلم يزل يبكي حتى بل لحيته، قالت: ثم بكى فلم يزل يبكي حتى بل الأرض، فجاء بلال يؤذنه بالصلاة، فلما رآه يبكي، قال: يا رسول الله، لم تبكي وقد غفر الله لك ما تقدم وما تأخر؟، قال:

«أفلا أكون عبدا شكورا، لقد نزلت علي الليلة آية، ويل لمن قرأها ولم يتفكر فيها:

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ. الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ [٢٦٢] » [٢٦٣]

---

٢٦٠. البخاري، الدعوات، ٦٣٠٦/١٦،٢؛ أبو داوود، الأدب، ١٠٠-١٠١/ ٥٠٧٠؛ الترمذي، الدعوات،١٥/ ٣٣٩٣؛ النسائي، الإستعاذة، ٥٧/ ٥٥٢٢.

٢٦١. إبراهيم: ٣٤.

٢٦٢. آل عمران: ١٩٠.

٢٦٣. ابن حبان، الصحيح، ٢، ٣٨٦/ ٦٢٠.

لقد أخبرنا رسول اللَّه ﷺ عبر كلماته هذه أن ما ذكره اللَّه جَلَّ وعلا من نعم لم تكن أبداً لانتقاص العبودية وإنما هي على العكس تماماً لكي تكون سبباً في زيادة الشكر.

وفي هذا الشأن ركزت الآيات الكريمة على ثلاث جوانب مهمة. أولها التفكر في العظمة الإلهية، فيدرك المرء من خلال ذلك عجزه أمام هذه العظمة وهو الأمر الذي يؤدي بنتيجته إلى التجائه إلى بارئه والتقرب منه.

ففي الليلة التي أنزلت هذه الآية الكريمة، أمضى رسول اللَّه ﷺ ليلته باكياً بشدة اهتزت لها النجوم. إن لطف اللَّه تعالى ودموع المؤمنين هي بدون أدنى شك زينة الليالي الزائلة، وضياء القبور المعتمة، وأريج حدائق الجنة في الآخرة.

وأهم أوقات التوبة هي أوقات السحر. فقد خص اللَّه تعالى أصحاب التقوى ممن يقومون الليل عبادة لله بالنعم الإلهية الظاهرة في قوله تعالى:

﴿كَانُوا قَلِيلًا مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُون. وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [٢٦٤]

﴿وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا﴾ [٢٦٥]

فكما أن فترة ما بعد السحر هي الفترة التي تذوب فيها الظلمة عند الشفق، فإن الإستغفار كذلك في فترة السحر أيضاً هو الوسيلة التي توصل المرء أيضاً إلى الشفق الذي تذوب فيه ظلمة الذنوب بين أشعة نور المغفرة والرحمة.

نسأل اللَّه تعالى أن يمن علينا بقلوب صاحية وأن يمن علينا بالسعادة بين أرجاء المغفرة.

آمين...

٢٦٤. الذاريات: ١٧ -١٨.

٢٦٥. الفرقان: ٦٤.

سيدنا
إدريس
عليه السلام

سيدنا ادريس عليه السلام
حامل أسرار العجائب السماوية

يروى أن ادريس عليه السلام ولد في جوار بابل[٢٦٦]. وهو من أحفاد آدم عليه السلام من النسل السادس.

وكان إدريس عليه السلام مشغولاً بالعبادة قبل أن تأتيه النبوة أيضاً. فكان يلتقي بالصالحين ويُؤمِّن معيشته من عرق جبينه. فكان أول من خاط اللباس في تاريخ البشرية، أي أن مهنة الخياطة بدأت مع إدريس عليه السلام.

وكان المجتمع الذي يعيش فيه هو جماعة من نسل قابيل. وكان مجتمعاً متردياً في كلا الناحيتين المادية والمعنوية. وكانوا قوماً ابتعدوا عن نهج شيت عليه السلام، وتركوا وظيفة العبادة. فكانوا يحلون كل محرم وخطيئة ويرتكبونها. فأرسل اللَّه تعالى إلى هذا المجتمع الذي ابتعد عن طريق الحق إدريس عليه السلام نبياً. وأنزل عليه ثلاثين صحيفة؛ بَيّن اللَّه تعالى فيها أوامره ونواهيه. فقام إدريس عليه السلام بتبليغ هذه الأوامر والنواهي إلى قومه.

وكان الملائكة يزورون إدريس عليه السلام على شكل جماعات، يتحدثون إليه. وآمن معه من الناس ما يقرب من الألف.

وكان إدريس عليه السلام يتوجه إلى قومه ناصحاً بكلمات حكيمة. ومن هذه الكلمات قوله:

«يزداد تواضع المرء الذكي كلما ازدادت مرتبته».

«العاقل لا ينظر إلى عيب الآخر! لا يرمي بعيوب الناس في وجوههم! وإذا ازداد ماله لا يصيبه الغرور فَتسُوء أخلاقه!».

«لا عقل لمن لا يحسن تزكية نفسه!».

«لا يجتمع حب الدنيا وحب الآخرة معاً أبداً!».

«إذا دعوت فادع بنية حسنة!».

---

٢٦٦. مدينة بابل تقع في العراق وتدعى اليوم بـ مدينة الحِلّة وهي مركز الحضارات القديمة وتقع بالقرب من مدينة بغداد.

وقد رفع إدريس عليه السلام في نهاية حياته إلى السماء العليا. وهو ما ذكره اللّه ﷻ في سورة مريم حين قال:

﴿وَرَفَعْنَاهُ مَكَاناً عَلِيّاً﴾ [٢٦٧]

والقصد من هذا المكان هو مرتبة رفيعة على مقربة من اللّه ﷻ أو الجنة، أو رفع إلى السماء الرابعة. علماً أن الحديث النبوي الشريف يقول في هذا السياق:

«...فأتينا السماء الرابعة، قيل: من هذا؟ قال: جبريل، قيل: من معك؟ قيل محمد، قيل: وقد أرسل إليه؟ قيل: نعم، قيل: مرحبا به ولنعم المجيء جاء، فأتيت على إدريس، فسلمت عليه، فقال: مرحبا بك من أخ ونبي...» [٢٦٨]

ويعتقد بعض العلماء أن إدريس عليه السلام هو حالياً في السماء وما زال على قيد الحياة.

ويتحدث اللّه تعالى عن صدق إدريس عليه السلام وفضيلته وصلاحه فيقول اللّه ﷻ:

﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقاً نَبِيّاً﴾ [٢٦٩]

كما أخبر تعالى في سورة الأنبياء عن إدريس عليه السلام بقوله:

﴿وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِنَ الصَّابِرِينَ. وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُمْ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [٢٧٠]

وكلمة «من الصالحين» التي يذكرها القرآن الكريم عند حديثه عن الأنبياء هي للتأكيد على فضيلة هؤلاء الأنبياء.

ويخبر مولانا جلال الدين الرومي رحمه اللّه عن حالة رفع إدريس وعيسى عليهما السلام إلى السماء فيقول:

«إن الجهاد ورياضة النفس اللتان قام بهما كل من إدريس وعيسى عليهما السلام بشكل يفوق العادة جعل منهما يصلان إلى مستوى الملائكة. فأصبحوا وكأنهم لا يأكلون ولا يشربون. فرفعوا إلى السماء وكأنهم من نفس فصيلة الملائكة...»

---

٢٦٧. مريم: ٥٧.

٢٦٨. البخاري، بدء الخلق، ٦/ ٣٢٠٧؛ مسلم، الإيمان، ٢٥٩ -٢٦٤.

٢٦٩. مريم: ٥٦.

٢٧٠. الأنبياء: ٨٥-٨٦.

وبنتيجة صبر وشكر ورياضة نفس روحيهما، اكتسبت هذه الروح وصف الكمال في إعمالها، والتفت بلطف اللَّه فرفعت إلى السماء، وهو ما يشير إلى أن تزكية العبد لنفسه وتصفية قلبه هي من الأمور الواضحة التي ترفع بالعبد إلى المقامات العلية المختلفة.

والأنبياء اللذين هم قمة التكامل المعنوي، كانوا مثالاً للبشرية في التكامل المادي أيضاً. تماماً كما كان آدم عليه السلام في الزراعة، وإدريس عليه السلام في الخياطة. كما أن الكتابة التي ابتدأت مع تاريخ البشرية نفسها، قد تطورت بشكل كبير جداً في عهد إدريس عليه السلام.

وبالنتيجة فإن إدريس عليه السلام:

- هو نبي أنزل إليه الصحف.
- مدح في القرآن الكريم بصدقه وصلاحه وفضيلته.
- هو من ابتدأ مهنة الخياطة.
- رفع إلى مكان عليّ.
- من العباد الصابرين والصالحين.
- ظهرت عليه الرحمة الإلهية.

عليه السلام!..

سيدنا ادريس عليه السلام
البحر الأحمر
مصر
منف
بابل
نينوى
نمرود
حران
بلخ
نهاوند
همذان
الري
الدينور
قزوين
أصبهان
الجبل
الري
بابل
نمرود
نينوى
منف
البحر الأحمر
مصر

القلب وأسراره

إن حياة إدريس عليه السلام هي مثال يظهر لنا أسرار العجائب السماوية وكيف يمكن للقلب النقي الصافي من أن يعكس التجلي الإلهي. وهي الحياة التي تظهر لنا أن الإنسان الذي هو متقلب في درجاته بدرجة أدنى من الحيوانات أو درجات أرقى من الملائكة، هو نفسه الإنسان الذي يمكنه أن يصل إلى الذروة مكتسباً خصائص الملائكة.

إن تنقية وتزكية القلب الذي هو مركز الروح والبدن، يمكنها أن تؤدي بلطف اللَّه وكرمه إلى نقطة تجعل من صاحب هذا القلب، وعلى الرغم من أنه بظاهره كغيره من الناس، إلا أنه بجانبه الروحي أعلى مرتبة من الملائكة أنفسهم.

ولكونه من العلامات الفارقة التي تميز بها إدريس عليه السلام، وجدنا أنّه من الضروري أن نعرج هنا على عالم القلب لنعطي بعض المعلومات حوله.

إن أهم وظيفة وأكثرها جدية يؤديها الإنسان في هذه الحياة هي أن يسعى للتحضر للحياة الباقية التي تأتي بعد الممات. وهذا الأمر يأتي أولاً عبر معرفة حقيقة القلب، والابتعاد به عن أي نوع من أنواع الخطر والسيئات وتوجيهه نحو الأخلاق الحميدة. علماً أن السعادة في هذه الحياة الدنيا والراحة النفسية والسلطنة في الحياة الآخرة هي من خلال امتلاك ذلك القلب السليم.

والقلب في اللغة هو انقلاب الشيء إلى عكسه، ويحمل أيضاً معنى الشكل واللون. ومن خلال هذه الخاصية، نجد أن القلوب هي دائماً في حالة تقلب يستمر مدى الحياة إما قلوب روحانية ملكية، أو نفسانية وشيطانية.

فالكمال والزوال عند الفرد والمجتمع هو دائماً مرتبط برقي أو تدني حالة القلب. فالقلوب المليئة بالروحانية، هي قلوب تسعى دوماً للأخلاق الحميدة والعمل الصالح. وبهذا يصبح العبد في «أحسن تقويم»، أي في أجمل مرتبة ممكنة.

أما القلوب المليئة بالنفسانية؛ فإنها قلوب تحمل في أرجائها الكفر والشرك والصفات السيئة والشهوة والوسوسة. وفي هذه الأحوال، يتحول القلب إلى عكس الغاية التي خلق من أجلها فيصدأ ويعمى. وبالتالي فإن من يمتلك قلباً كهذا هو «بل هم الضالون» أي الذين هم في مرتبة أدنى من مرتبة الحيوان. ولهذا، فإن الآية الكريمة تقول:

﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ [٢٧١]

والمحافظة على القلب من فساد النفس ووسوسة الشيطان ومن الدسائس لا تكون إلا عبر العبادة وذكر اللَّه ومجالس الذكر والأخلاق الحميدة. وفي نتيجة كل ذلك، تتجلى في هذا العبد حال التقوى ليحتل عند اللَّه تعالى مرتبة رفيعة حقيقية. يقول اللَّه تعالى:

﴿...إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ...﴾ [٢٧٢]

وللمحافظة على حال التقوى هذه، يجب على المرء أن يتسلح بألفة الصالحين والصادقين، ورفقتهم ومجالسهم. فأهمية الدعم الإلهي تتجلى في هذه المجالس بشكل واضح وكبير يساهم في تدعيم حالة القلوب وتغذيتها من الناحية المعنوية. فهذه المجالس هي أماكن مقدسة تشع بنور الفضائل المقتبسة من النور النبوي. بل، وبحسب ما يذكره أهل الإيمان، فإن هذه المجالس هي أول مجرى للنور والفوز الذي يتلطف به الفائز المطلق جناب الحق سبحانه وتعالى إلى قلوب عباده، وصدر رسول اللَّه ﷺ الشريف. فينتقل النور هنا إلى صدور الصالحين الصادقين. ومنهم تسلسلاً إلى المقربين والمستمعين في مجالس الذكر أجمعين.

وفي يومنا الحاضر، وكما أصبح مقبولاً لدى علوم النفس الاجتماعي، فإن الإنسان هو كائن يتأثر بشكل واضح بالمجتمع ممن حوله. فيتناقل الناس الطباع والعادات. لأن التبادل المعنوي بين الأرواح هي حقيقة لا يمكن لأحد إنكارها. ويكون هذا التأثير غالباً عبر الشخصيات الحيوية الناشطة. أي أن الشخصيات التي عادة ما تكون فاعلة مؤثرة، هي تلك التي تقوم بعملية النقل الروحي لصفاتها إلى من يلتف حولها ويستمع إليها من

٢٧١. الأعراف: ١٧٩.
٢٧٢. الحُجُرَاتِ: ١٣.

الناس. ولهذا، نجد أن من يلتف حول الصادقين الصالحين يصبح مثلهم صادقاً وصالحاً. ولهذا، نجد أن الآية الكريمة بدأت بذكر «أن تكون صاحب تقوى» ومن ثم «أن تكون مع الصالحين» في تسلسل مباشر. يقول اللّه تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ [٢٧٣]

إن عدم حماية جوهر القلب وعدم المحافظة عليه هو جناية ترتكب في حق الحياة الإنسانية وخسران مؤلم لها. وستكون النار مكاناً أليماً لكل من يقدم قلبه قرباناً للرغبات الشيطانية. إن القلب في الحقيقة هو بوصلة الحق والحقيقة. ولهذا، أينما تتجه إبرة الإرادة الإنسانية، وكيفما تقوم به من أعمال، خير أو شر، تتكون نتيجة هذا العبد. يقول النبي ﷺ:

«إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم» [٢٧٤]

وتقسم القلوب بحسب أعمالها إلى خمسة أقسام:

١ - القلوب المقفلة والمختومة:

هذه القلوب التي لا تمتلك أي ميزة معنوية، تتجه بشكل كامل نحو الحياة الحيوانية فتتخذ من الدنيا مكاناً للأكل والاستمتاع فقط بشكل يكون هدفها واهياً وفارغ الأفق. وبالتالي تكون هذه القلوب خالية من البصيرة والفراسة بعيدة كل البعد عن اكتشاف الأسرار الإلهية الموجودة في الكائنات والإنسان. وهذه الأبدان التي تمتلك قلوباً معاكسة تماماً للقلوب المحبة للّه وللأنبياء، هي إن صح التعبير كالقبور لا أكثر. فكما تذوب الأجساد في التراب وتزول، فإن هذه القلوب هي أيضاً ذائبة وزائلة في الظلام وفي مستنقعات الإنكار. وهذه القلوب المغروسة في الضلالة «الشذوذ» لا تكون سبباً في عاقبة وخيمة لها وحدها فحسب، وإنما لكل من يكون قريباً منها أيضاً. يقول اللّه سبحانه وتعالى في حق هؤلاء:

﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ [٢٧٥]

٢٧٣. التوبة: ١١٩.
٢٧٤. مسلم، البر، ٣٤/ ٢٥٦٤.
٢٧٥. محمد: ٢٤.

إن هؤلاء هم من يعيشونَ في الحياة الدنيا مستمتعين بنعم اللّه، منكرين لخالقهم، ومخالفين لأوامره وقوانينه بشكل يجعلهم في أشد حالات سوء الأخلاق ونكران الجميل. يقول اللّه سبحانه وتعالى في حق هؤلاء في الآيات الكريمة:

﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لاَ يَرْجِعُون﴾ [٢٧٦]

﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ. وَمَا أَنْتَ بِهَادِي الْعُمْيِ عَنْ ضَلَالَتِهِمْ إِنْ تُسْمِعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [٢٧٧]

ويصف اللّه سبحانه وتعالى هذه القلوب بالمقفلة والمختومة فيقول:

﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [٢٧٨]

فالقلوب المقفلة والمختومة التي أتى ذكرها في هذه الآية الكريمة هي القلوب المغلقة أمام الخير والحقيقة، والأفئدة التي انقطعت علاقتها بالحياة المعنوية والانسانية. وفتح أختام وأقفال هذه القلوب لا يمكن لأحد أن يقوم به إلا اللّه نفسه الذي ابتَعدَتْ قلوبهم عن ذكره.

هذه الكيفية تحتوي حكمة وسراً إلهياً يجعل جميع الإنسانية في خوف وخشية ترتجف لها النفوس. وفي هذه الحياة الدنيا، لا يمكن لأي أحد منا أن يعلم هذه القلوب المقفلة المختومة المغلقة أبوابها عن الهداية، فعلمها هو للّه وحده فقط. ذلك أن اللّه يرزق الهداية لمن يشاء من عباده قبل أن يحيط بهم الموت.

وعندما يتحدث القرآن الكريم عن أصحاب القلوب المختومة، فإنه لا يمكن أبداً الحديث عنها فرداً فرداً. ذلك أن العاقبة فيها مجهولة. كمثال سحرة فرعون الذين عاشوا في الضلالة وانتهت حياتهم بالهداية، وقارون وبلعم بن بَعورا اللذين عاشا حياتهما في الهداية وأغْلقا دفاترهما بالخسران والضلالة. ولهذا، لا يجب على المؤمنين عند قراءتهم هذه الآيات المماثلة، أن يخطئوا الفهم فيهملوا الدعوة إلى دين

٢٧٦. البقرة: ١٨.
٢٧٧. النمل: ٨-٨١.
٢٧٨. البقرة: ٧.

اللَّه جَلَّ وعلا. ومن جهة أخرى، يجب على كل فرد أن يقلق من الوقوع في عاقبة مماثلة فيسعى دائماً إلى الطلب من اللَّه أن يثبت قلبه على الإيمان، وأن يسعى للصحوة دائماً في حياته. وبخاصة أن القلوب التي يتم إهمالها تبتعد عن الهداية، وتتصلب أمام ذكر اللَّه، بل وتصبح مع الزمن أشد صلابة من الحجارة نفسها. وتتحدث الآية الكريمة في وصف ذلك فتقول:

﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [٢٧٩]

ولهذا السبب، فإن اللَّه تعالى ينبه عباده ويدعوهم للمحافظة على قلوبهم من الإقفال والختم فيقول:

﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [٢٨٠]

٢- القلوب المريضة:

وهي القلوب التي تقع في مرتبة ما بين القلوب المختومة والقلوب السليمة. ويتحدث القرآن الكريم عن القلوب المريضة فيقول:

﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾ [٢٨١]

وهؤلاء الأشخاص الذين تتحدث الآية الكريمة عن قلوبهم المريضة، هم الذين تتحدث ألسنتهم بالإيمان، وتكون اعمالهم بناءً لسلطة نفوسهم بعيدة عن الحياة الصالحة. فالإيمان لم يجد في قلوبهم مكانه بشكل كاف. وحال أصحاب هذا النوع من القلوب هو كحالة المريض من الناس من الألم. فهم لا يجدون الراحة في حياتهم الدنيوية ولا يجدونها في عالمهم الباطني. فعدم الوضوح في عالمهم الباطني يؤثر سلباً على عالمهم الخارجي، وكذلك الأمر فإن عدم الوضوح في عالمهم الخارجي يؤثر

٢٧٩. البقرة: ٧٤.
٢٨٠. الحشر: ١٩.
٢٨١. البقرة: ١٠.

سلباً أيضاً على عالمهم الباطني. ويتحدث اللّه سبحانه وتعالى عن الحالة التي تقع فيها هذه القلوب فيقول:

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى فَمَا رَبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ [٢٨٢]

والصفات التي تمنع القلب من إدراك آيات اللّه هي أمراض القلب المتعددة مثل الكبر، الإعجاب، الحسد، وحب الدنيا. وهؤلاء الأشخاص، إن لم يزكوا أنفسهم عبر التربية المعنوية فإنهم لا يمكن لهم الوصول إلى الأعمال التي ترضي اللّه تعالى وهم بالتالي بعيدون عن نيل حصة من أسرار القرآن الكريم. ولهذا يقول اللّه تعالى مهدداً بشكل واضح:

﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ...﴾ [٢٨٣]

إذاً، إن القلب الذي لا يترقى بنفسه عبر تلقي التربية المعنوية، هو قلب لا يمكن له أن ينال نصيبه بشكل كاف من أسرار الإنسانية والكون والقرآن. يقول جناب الحق جَلَّ وعلا في الآية الكريمة:

﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [٢٨٤]

وتبين هذه الآية الكريمة أن التفكر في خلق اللّه سبحانه وتعالى وكائناته وحوادثه بأفئدة ناظرة معتبرة من العاقبة التي تجلت فيها قدرة الإنتقام الإلهي بالأمم السابقة، هي دروس تحيي القلوب وتشفي الأفئدة.

وكم هو جميل الأسلوب الذي يتحدث فيه نبينا الأكرم -عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم- عن أساليب المحافظة على القلوب من مختلف أنواع الأمراض فيه. يقول:

«...ألا وإن في الجسد مضغة: إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب» [٢٨٥]

---

٢٨٢. البقرة: ١٦.

٢٨٣. الأعراف: ١٤٦.

٢٨٤. الحج: ٤٦.

٢٨٥. البخاري، الإيمان، ٣٩/ ٥٢؛ مسلم، المساقاة، ١٠٧/ ١٥٩٩.

ولقد تحدث العلماء عن أمراض القلوب بشكل عام تحت عنوانين رئيسيين هما الإعتقادي والأخلاقي. وبحسب ذلك، فإن الجنوح الإيماني مثل الإنكار والنفاق والشرك والجهل والشبهة هي جميعها تندرج ضمن «الأمراض العقائدية»؛ كما أن الأوصاف الأخرى مثل حب الدنيا والحسد والكبر والرياء والبخل والخوف والتمايل نحو الذنوب واتباع الشهوة هي جميعها تندرج ضمن «الأمراض الأخلاقية».

والسبب الرئيسي في مرض القلب هو في أساسه الجهل وضعف الإعتقاد النابعين من تبعية الانسان لهوسه وهوى نفسه. أما زيادة المعصية، فهي السبب في تفاقم المرض وربما تؤدي إلى إغلاق القلب وختمه والعياذ باللّه. فالقلب المغلف بالأعمال والأفكار والأحاسيس المنفية، يصبح بحالة لا يمكنه من خلالها أن يرى الحقيقة، أو أن يراها ناقصة أو خاطئة إن تمكن من رؤيتها. وهذا الأمر هو ما يؤدي بهذا القلب إلى الشك في الحق والحقيقة وبالتالي إلى العمى عنها. وعندما يصاب القلب وهو موضع الإيمان بجرح كهذا، فإن الإيمان أيضاً سيصاب بضحول وضُمُور في القوة والشدة ويعجز بالتالي عن القيام بصالح الأعمال. فهذه القلوب هي إذن قلوب لا تتمكن من إظهار الاحترام والمحبة الضرورية للّه ورسوله، وهي بالتالي أيضاً لا تتمسك بالعبادة بشكل متين.

وكنتيجة؛ إن الأعمال التي تقوم بها القلوب الغافلة والمريضة، هي أعمال تفقد قيمتها عند الحق تعالى. فالقلوب ما لم تتمكن من الضياء بنور الحق فإنها ستعمى وتفقد الإحساس. وتصبح بالتالي عمياء عن ألف ألف نقش وروعة من روائع الأسرار الإلهية في الكائنات.

٣- القلوب الغافلة

من أهم الأمراض المعنوية التي تصيب القلب هي الغفلة. فالغفلة تحيط بالقلب بشكل يزحزحه عن الاتجاه المعنوي الإنساني. حيث تقول الآية الكريمة:

﴿...وَلاَ تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطا﴾ [٢٨٦]

وتبين آية أخرى تأثير الغفلة في ابتعاد القلب عن الذكر فتقول:

٢٨٦. الكهف: ٢٨.

﴿وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ﴾ [٢٨٧]

ومع ازدياد الغفلة تزداد قساوة القلوب. فيبين اللَّه سبحانه وتعالى الحالة المحزنة لهؤلاء فيقول:

﴿...فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ [٢٨٨]

وتؤكد آية كريمة أخرى، أن ابتعاد الإنسان عن الذكر هو سبب سيجعله يقع في شرك الشيطان، وبالتالي فإنه سيفقد حسه الإنساني ليصبح لعبة بين يدي الشيطان. يقول اللّه تعالى:

﴿وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَيِّ ثُمَّ لاَ يُقْصِرُونَ﴾ [٢٨٩]

والأعمال التي تقوم بها القلوب الغافلة هي أعمال لا تلاقي القبول عند الحق جَلَّ وعلا، وهي بالتالي أعمال ضائعة.

والقلوب التي تقع في هذا النوع من الأمراض هي قلوب بحاجة إلى العلاج بشكل مطلق، ومجبرة على الدخول في بحر العلم المعنوي. ومن الضروري جداً الإنتباه إلى بعض الأمور أثناء عملية العلاج هذه. ومن بين هذه الأمور:

أ- الطعام الحلال

إننا نتمكن من القيام بعباداتنا من خلال القوة والصلابة التي نجدها في أبداننا. ولهذا فإن الطعام الحلال يؤمن لبنيتنا الفوز والروحانية في حين أن الطعام المشبوه يعطينا القسوة. ويتحدث أحد مشايخ التصوف عن أمرين يؤثران في انكشاف الحياة القلبية فيقول:

«انتبهوا لما يدخل أفواهكم عند طعامكم، وانتبهوا لما يخرج من أفواهكم عند حديثكم، كونوا دقيقين في هذا الشأن!»

ويتحدث عبد القادر الجيلاني -رحمه اللَّه- عن أهمية اللقمة في تنقية القلب فيقول:

---

٢٨٧. الأعراف: ٢٠٥.
٢٨٨. الزمر: ٢٢.
٢٨٩. الأعراف: ٢٠٢.

«أنظر بني! إن أكل الحرام يقتل القلب. هناك لقمة تضيء القلب؛ وهناك لقمة تخنقه في الظلام. كذلك الأمر هناك لقمة تشغلك بالدنيا؛ وهناك لقمة تشغلك بالعقبى. هناك لقمة تجعلك زاهداً في كلا الدارين، تتجه بقلبك في الدنيا والآخرة تجاه الخالق. والطعام الحرام يشغلك بالدنيا ويحبب إليك المعصية. الطعام المباح يشغلك بالآخرة، ويحبب إليك الطاعات. والطعام الحلال يقرب فؤادك من المولى جَلَّ وعلا. وتأثير الطعام وكيفيته لا يتم التعرف إليها إلا عبر معرفة اللَّه. ومعرفة اللَّه موضعها في القلب، وليس في الكتب أو الدفاتر. فالمعرفة الإلهية هي إحسان من اللَّه إلى القلب وليس من المخلوق. وهذا الأمر لا يتم إلا من خلال التصديق بالتوحيد الإلهي والعمل بالأحكام الإلهية».

واثناء استخدام النعم الحلال أيضاً يجب علينا أن نستخدمها بتوازن بعيد عن الإسراف. تقول الآية الكريمة:

﴿وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلاَ تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا. إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُوراً﴾ [٢٩٠]

وينبه الحديث الشريف بذلك بقوله: «**إن! من السرف، أن تأكل كل ما اشتهيت**» [٢٩١]

أما إكرام الضيف، فهو من الأمور التي يوصى بها ولا تعتبر من الإسراف بشرط أن تكون هذه الضيافة من الحلال.

ب- قراءة القرآن الكريم بتفكر

قراءة القرآن الكريم بتفكر هي أن تفكر بأوامره ونواهيه، وأن تأخذ العبرة من القصص فيه. وبقدر ما تكون قلوبنا طاهرة نقية بقدر ما يؤثر فينا فيض القرآن. وتتحدث الآية الكريمة عن القرآن بكونه شفاء للأمراض المعنوية التي تصيب القلب فتقول:

﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلاَ يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إَلاَّ خَسَارًا﴾ [٢٩٢]

---

٢٩٠. الإسراء: ٢٦-٢٧.

٢٩١. ابن ماجه، الأطعمة، ٥١/ ٣٣٥٢.

٢٩٢. الإسراء: ٢٨.

عن أبي ذر ﷺ قال: قلت: يا رسول اللَّه، أوصني؟ قال:

«أوصيك بتقوى اللَّه، فإنه رأس الأمر كله"

قلت: يا رسول اللَّه زدني؟ قال:

«عليك بتلاوة القرآن وذكر الله فإنه نور لك في الأرض وذخر لك في السماء ...» [٢٩٣]

وفي حديث نبوي شريف آخر، يقول رسول اللَّه ﷺ:

«يُقال لصاحب القرآن: اقرأ، وارتق، ورتل كما كنت ترتل في الدنيا، فإن منزلك عند آخر آية تقرؤها» [٢٩٤]

ج- أداء العبادات بخشوع:

يتوجب على المرء تأدية عباداته في جو من الخشوع للّه سبحانه وتعالى حيث يمكنه من تطهير قلبه من الأمراض. ولهذا يؤكد اللَّه ﷻ على رفضه للعبادة التي تتم خارج إطار الخشوع فيقول:

﴿فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ. الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾ [٢٩٥]

ويتحدث المفسر حمدي يازر ألمه لي لي في تفسير هذه الآية فيقول:

- إنهم الغافلون عن أهمية الصلاة الذين لا يؤدونها بجدية،
- لا يهتمون بأدائها أو عدمه،
- لا يهتمون لوقتها، فيؤخرون موعدها غير مهتمين بحلول أو مرور ساعتها،
- لا يتأثرون بترك الصلاك،
- وهم عندما يؤدون الصلاة فإنهم لا يؤدنونها خالصة للّه وإنما لأهداف دنيوية بحتة،
- وهم إن وجدوا في مجتمع من الناس صلوا وإن انفردوا بأنفسهم امتنعوا عن الصلاة. وإن صلوا فهم لا يصلون وكأنهم بين يدي اللَّه خاشعين معظمين، بل صلوا صلاتهم مراءً. [٢٩٦]

---

٢٩٣. ابن حبان، الصحيح، ٢، ٧٨.

٢٩٤. أبو داود، الوتر، ٢٠/ ١٤٦٤.

٢٩٥. الماعون: ٤- ٥.

٢٩٦. المالليي محمد حمدي يازير، حق ديني قرآن ديلي، إستانبول، ١٩٣٥، جـ٩، ٦١٦٨.

وفي سورة المؤمنون يقول اللّه تعالى:

﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ. الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾ [٢٩٧]

وتتحدث آية كريمة أخرى عن كيفية الخشوع في الصلاة فتقول:

﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ. الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُو رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ [٢٩٨]

ويعرف البعض الخشوع بأنه من أفعال القلب التي تختلط في ماهيتها مشاعر الخوف والقلق. أما البعض الآخر فيعرفه بأنه الابتعاد عن الحركات الغير ضرورية وأداء العبادة في جو من السكينة والسكون. وفي الحقيقة، إن الخشوع أصله في القلب وظاهره في البدن، فَهِي خليط يجمع بين الأمرين. فطرفه القلبي هو رؤية الضعف الذاتي أمام عظمة وجلالة رب العالمين، وإعطاء القلب إحساساً من الإحترام والتعظيم في جو كبير من الأدب يخفض فيه الإنسان رأسه ونفسه أمام الحق سبحانه. وجانبه الخارجي هو ظهور هذا الشعور القلبي على أعضاء الجسد فتسكن أدباً مع اللَّه كأن تنظر العين إلى موضع السجدة في الصلاة لا إلى ما هو حولها.

وعند التدقيق في الآية الكريمة نجد أن اللَّه تعالى استخدم قوله «إليه راجعون» وقوله «ملاقوا ربهم» عند التحدث عن شروط الخشوع في الصلاة وكلاهما من الحالات الروحية التي يجب على الإنسان الإحساس بها لتحقق هذا الخشوع. أي أن الصلاة يجب عليها أن تؤدى قلباً وقالباً. وهذا النوع من الصلاة هو النوع الذي يمكن الإنسان من النجاة من الفحشاء والمنكر.

سئل بهاء الدين النقشبند -رحمه اللَّه-: كيف يخشع العبد في الصلاة؟ فأجاب:

«يمكنه ذلك عبر أربعة أمور: اللقمة الحلال، الإبتعاد عن الغفلات أثناء الوضوء، أن يعرف المرء نفسه أنه في الحضرة الإلهية عند ابتدائه التكبيرة الأولى، أن لا ينسى جناب الحق تعالى أبداً وهو خارج الصلاة».

٢٩٧. المؤمنون: ١- ٢.

٢٩٨. البقرة: ٤٥-٤٦.

علماً أن الآية الكريمة تقول:

﴿الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ﴾ [٢٩٩]

ولكي يتمكن الإنسان من الخشوع في عباداته وأن يشعر خارج عبادته وكأنه قائم في صلاته في روحه المعنوية وحالته الروحية، فإن عليه أن يتمتع بقلب صاح يصاحبه قول وعمل بعيد بشكل كبير عن اللغو والفضول. تقول الآية الكريمة:

﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ﴾ [٣٠٠]

وباقي العبادات هي أيضاً كذلك. وفي هذا المعنى يقول جناب الحق تعالى:

﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ﴾ [٣٠١]

﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [٣٠٢]

وفي هذه الأية، يعلمنا اللّه تعالى أن الصدقة أي الإنفاق هي في أدائها كالصلاة تماماً بشكل يتوجب علينا القيام بها بكل خشوع بعيداً عن الرياء. وهذه الدقة تحدث عنها الحديث النبوي الشريف حين قال عليه الصلاة والسلام:

«...حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه...» [٣٠٣]

د- الإستمرار في ذكر اللّه ﷻ

تكررت كلمة «الذكر» في القرآن الكريم في حوالي ٢٥٠ موضعاً مختلفاً. والذكر هو تذكر العبد لربه بكثرة وأن لا ينساه. ولهذا يأمرنا اللّه تعالى عبر الآيات الكريمة بأن نذكره في الصباح وفي المساء، وقوفاً وقعوداً ومضطجعين، أي بشكل مستمر نذكره فيها ذكراً كثيراً. وفي بعض هذه الآيات الكريمة يقول اللّه تعالى:

---

٢٩٩. المعارج: ٢٣.
٣٠٠. المؤمنون: ٣.
٣٠١. المؤمنون: ٦٠.
٣٠٢. التوبة: ١٠٤.
٣٠٣. البخاري، الأذان، ٣٦/ ٦٦٠.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْراً كَثِيراً. وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلا﴾ [٣٠٤]

﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِهِمْ﴾ [٣٠٥]

أما رسول اللَّه ﷺ يبشر، ال «**رجل ذكر الله خاليا ففاضت عيناه**» أنه سيظله عرش الرحمن يوم القيامة يوم لا ظل إلا ظله. [٣٠٦]

وللذكر أهمية كبرى في تنقية القلب والرقي به من الناحية المعنوية. وسيعلم المؤمنون أهمية الذكر بشكل أكبر يوم القيامة. وبخاصة أن النبي عليه الصلاة والسلام أخبر عن أهل الجنة فقال:

«**لم يتحسر أهل الجنة إلا على ساعة مرت بهم لم يذكروا الله تعالى فيها**» [٣٠٧]

هـ- إحياء الليل:

إن الليل هو لباس النعمة والراحة الذي فصل بحسب خطوط الحياة واستمراريتها. وهي غطاء رائع لكل من أراد أن يستتر مادياً أو معنوياً. وهذا الوصف ذكره تعالى في سورة النبأ فقال:

﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا﴾ [٣٠٨]

بالفعل، إن الليل هو لباس صحي واجتماعي وأخلاقي وجسدي. فلا يمكن للإنسان أن يضع عنه أثقال النهار المادية والمعنوية أو أن يعود إلى ذاته ونفسه إلا من خلال سكون الليل وهدوئه. لأن النهار هو بعيد عن تقديم ما يقدمه الليل من راحة صحية وروحية. ومن لا يدرك نعمة الليل لا يمكنه أبداً أن يستفيد من خير النهار. فاستخدام الليل بالأمور الفارغة واستثماره بها ليس إلا تضييعاً لسلامة الصباح وحقيقته.

ولا يوجد وقت أكبر فضلاً من سكون الليل لأهل القلوب. ولهذا يجب الإستفادة من بركة وفيض الليل بقيام جزء منه -وقت محدد-. وفي هذا الخصوص يقول اللَّه تعالى:

٣٠٤. الأحزاب: ٤١- ٤٢.
٣٠٥. آل عمران: ١٩١.
٣٠٦. انظر: البخاري، الأذان، ٣٦ ؛ مسلم، الزكاة، ٩١/ ١٠٣١.
٣٠٧. الهيثمي، مجمع الزوائد، ١٠، ٧٣-٧٤/ ١٦٧٤٦.
٣٠٨. النبأ: ١٠.

﴿تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ. فَلاَ تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [٣٠٩]

﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلاً طَوِيلاً﴾ [٣١٠]

وللتمكن من رؤية مشاهد الليل الإلهي والمعنوي فإن مما لا بد منه هو استخدام هذا الليل لأهداف محددة واضحة.

﴿كَانُوا قَلِيلاً مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ. وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [٣١١]

﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَى أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا﴾ [٣١٢]

وفي هذه الآية الكريمة أصبحت صلاة التهجد فرضاً على رسولنا ﷺ وسنة لنا على أنَّنا أُمَّته من بعده. ويمتدح اللَّه سبحانه وتعالى من يؤدي هذه السنة بقوله:

﴿وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا﴾ [٣١٣]

وفي آية كريمة أخرى يقول سبحانه وتعالى:

﴿الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ. وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ﴾ [٣١٤]

وفي تفسير هذه الآية الكريمة يقول القاضي البيضاوي:

«بعد أن فرضت الصلوات الخمس على الأمة وأصبحت صلاة الليل هي من السنن المتبعة، وكما روي أنه عليه السلام لما نسخ قيام فرض الليل طاف عليه السلام تلك الليلة ببيوت أصحابه لينظر ما يصنعون حرصاً على كثرة طاعاتهم، فوجدها كبيوت الزنابير لما سمع بها من دندنتهم بذكر الله وتلاوة القرآن» [٣١٥]

٣٠٩. السجده : ٦-١٧ .
٣١٠. الإنسان : ٢٦ .
٣١١. الذاريات: ١٧-١٨.
٣١٢. الإسراء: ٧٩.
٣١٣. الفرقان: ٦٤.
٣١٤. الشعراء: ٢١٨- ٢١٩.
٣١٥. أنوار التنزيل، جـ٤، ١١١.

و- مصاحبة الصالحين والصادقين

محافظة على القلب، وتأميناً لسلامته وانكشافه، يجب مصاحبة الصادقين والصالحين. فالقلب يتأثر معنوياً بمن هم حوله من الناس وبهذا الشكل تبدأ عملية نقل الشخصية. فمن هم أقوياء من الناحية الروحانية يؤثرون على الضعفاء روحانياً ويصبحون مصدر إلهام لهم. أي أن الشفقة والرحمة والاحساس المرهف والمزايا التي يتمتع بها الصادقون والصالحون تنتقل إلى من هم حولهم. وما يجعل الصحابة الكرام على ما كانوا عليه من الفضيلة في أعلى درجة بين أفراد الأمة هو أنهم عايشوا الرسول ﷺ وتأثروا بصحبته وحديثه، ونالوا من فيضه نصيبهم. يقول اللَّه تعالى في الآية الكريمة:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ [٣١٦]

ويخبر رسول اللَّه ﷺ عن أهمية مصاحبة الصادقين فيقول:

«مثل الجليس الصالح والسوء، كحامل المسك ونافخ الكير، فحامل المسك: إما أن يحذيك، وإما أن تبتاع منه، وإما أن تجد منه ريحا طيبة، ونافخ الكير: إما أن يحرق ثيابك، وإما أن تجد ريحا خبيثة» [٣١٧]

كما يخبرنا رسول اللَّه ﷺ أيضاً عن أهمية مرافقة الصالحين في الممات كما هي في الحياة فيقول:

«ادفنوا موتاكم وسط قوم صالحين...» [٣١٨]

ومن يكن مع الصالحين فإنه سيصلح حاله مع الزمن كل بحسب قابليته. ومن يكن مع الفاسقين فإنه سيفسق. لذلك، إن القلب هو تحت تأثير دائم لكل إقليم معنوي يتواجد فيه سلبياً كان أم إيجابياً. فالقلب ليس كسائر الأعضاء التي تمتلك إرادة خاصة بها، بل هو عضو لا إرادة له محكوم بالتبعية للتأثيرات التي تأتيه ويتلقنها من محيطه عبر المسار الذي يكون عليه. ولهذا، فإن لقمان عندما أراد أن يتقدم بالنصح لابنه، عرج على الحس القلبي مؤكداً على ضرورة التواجد مع العلماء الصالحين.

٣١٦. التوبة: ١١٩.
٣١٧. البخاري، البيوع، ٣٨/ ٥٥٣٤.
٣١٨. الديلمي، الفردوس بمأثور الخطاب، ١، ١٠٢ / ٣٣٧.

قال رسول اللّه ﷺ:

«إن لقمان قال لابنه: يا بني، عليك بمجالسة العلماء، واسمع كلام الحكماء، فإن الله يحيي القلب الميت بنور الحكمة كما يحيي الأرض الميتة بوابل المطر» [٣١٩]

وكانت نساء الصحابة تنبه أولادها عند تأخرهم في رؤية رسول اللّه ﷺ وتقاعسهم في هذا الخصوص وبقاؤهم فترة طويلة دون اللقاء به. ولهذا نجد أن والدة حذيفة ﷺ تؤنب ولدها عندما تأخر لبضعة أيام عن لقاء النبي ﷺ ولم يتواجد في صحبته.

عن حذيفة ﷺ قال:

سألتني أمي متى عهدك تعني بالنبي ﷺ فقلت ما لي به عهد منذ كذا وكذا، فنالت مني، فقلت لها: دعيني آتي النبي ﷺ فأصلي معه المغرب، وأسأله أن يستغفر لي ولك، فأتيت النبي ﷺ فصليت معه المغرب فصلى حتى صلى العشاء، ثم انفتل فتبعته، فسمع صوتي، فقال: «من هذا، حذيفة»؟ قلت: نعم، قال:

«ما حاجتك غفر الله لك ولأمك»؟ [٣٢٠]

٤- القلوب الذاكرة

في هذه المرتبة، يكون القلب مضيئاً بالذكر، وتتحكم الروحانية بالنفس، ويتحد جوهر الإيمان بجوهر القلب، ويتم الوصول إلى درجة الإطمِئنان الإيماني. ويصف اللّه تعالى الذكر بأنه أكبر العبادات ويأمر المؤمنين بالإستمرار بالذكر في القرآن فيقول ﷻ:

﴿...وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ...﴾ [٣٢١]

﴿وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلاً﴾ [٣٢٢]

﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ﴾ [٣٢٣]

---

٣١٩. الهيثمي، مجمع الزوائد ١، ١٢٥/ ٥١٨.

٣٢٠. الترمذي، المناقب، ٣٠، ٣٧٨١؛ أحمد، مسند، ٥، ٣٩١-٣٩٢.

٣٢١. العنكبوت: ٤٥.

٣٢٢. المزمل: ٨.

٣٢٣. البقرة: ١٥٢.

ويمتدح اللَّه تعالى عباده الذين وصلوا إلى حقيقة الذكر فيرونه أشد لذة من مختلف لذائذ الدنيا الفانية، ويخبر بأنهم لا يخدعون بزينة الحياة الدنيا وقلوبهم مطمئنة بالذكر، فيقول اللّه ﷻ:

﴿رِجَالٌ لاَ تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلاَ بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّه...﴾ [٣٢٤]

﴿...أَلاَ بِذِكْرِ اللَّه تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ [٣٢٥]

كما يمتدح اللَّه تعالى المحافظين على الذكر من الرجال والنساء كل على حدة في الآية الكريمة فيقول:

﴿وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيراً وَالذَّاكِرَاتِ﴾ [٣٢٦]

والمواظبة على ذكر اللَّه ﷻ تؤمن نمو بذور الحب في القلب، وتبعده عن العلاقات الفانية مالئة قلبه بحب اللَّه.

يقول رسول اللَّه ﷺ:

«علامة حب الله تعالى حب ذكر الله...» [٣٢٧]

من هذا المنطلق، فإن البعيدين عن ذكر اللَّه هم مشمولون بالتهديد الإلهي لبعدهم عن حب اللَّه.[٣٢٨]

وتتحدث الآية الكريمة عن خطر الإبتعاد عن الذكر فتقول:

﴿وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ. وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ. حَتَّى إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ﴾ [٣٢٩]

٣٢٤. النور: ٣٧.
٣٢٥. الرعد: ٢٨.
٣٢٦. الأحزاب: ٣٥.
٣٢٧. السيوطي، الجامع الصغير، ٢، ٥٢/ ٨١٦٠.
٣٢٨. انظر: سورة الزمر، آية ٢٢
٣٢٩. الزخرف: ٣٦-٣٨.

لهذا السبب، يجب على الإنسان أن يستعين دوماً بذكر اللَّه وأن يعمل لكي يكون صاحب أخلاق حميدة حفاظاً على نفسه من وساوس الشيطان التي ستوقعه في خنادق الضلالة وتبعده عن طريق الاستقامة. ولا يمتلك الانسان أخلاقه الحميدة والخصال الحسنة إلا عبر مخافة اللَّه، ومحبته وذكره دائماً ذكراً كثيراً.

ويمتدح علي ﷺ مجالس الذكر ويحث عليها فيقول:

«ما الذي يمكنه أن يكون أكثر فضلاً من المجالس التي تجتمع لذكر اللَّه وتذكر نعمه؟ لقد كان رسول اللَّه ﷺ يجمع الصحابة حلقات حلقات وكانوا يذكرون اللَّه»

وكما يؤثر الذكر على المعنى «الأمور المعنوية»، فإنه يؤثر أيضاً على المادة. وفي تأكيد على هذا المعنى تقول الآية الكريمة:

﴿فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ﴾ [٣٣٠]

وللذكر أنواع متعددة. كما أنه لا يوجد تحديد لكيفية الذكر بأسلوب كذا أو كذلك. ولكل ذكر نوع من أنواع التجلي. ويأتي نوع الذكر الذي يناجى فيه باسم اللَّه الأعظم بأعلى مرتبة من مراتب الذكر لما لديه من نتيجة متميزة رفيعة، وهو ما يعتبر عند العامة الاسم الأكثر استخداماً من أسماء اللَّه بلفظ «اللَّه». فهذا الاسم وكأنه يجمع في طياته مختلف معاني الأسماء الأخرى.

ولهذا يشعر المرء عند التلفظ به بإحساس خاص مستثنى بكيفيته. فعلى سبيل المثال، عندما تقتطع الحرف الأول من لفظة اللّه «أ»فإنها تصبح «للّه». وإذا ما اقتطعنا الحرف الثاني وهو «ل» فتصبح عندها «له». وعند اقتطاعنا الحرف الثالث وهو «ل» أيضاً فإننا نحصل على «هـ. هو». وهي جميعها من الألفاظ التي تشير إلى الذات الإلهية للّه تعالى.

ويخبر أحد الأحاديث النبوية الشريفة أن استمرار الوجود بحد ذاته هو أمر قائم على استمرارية ذكر اللَّه تعالى. يقول رسول اللَّه ﷺ:

«لا تقوم الساعة حتى لا يقال في الأرض: الله، الله» [٣٣١]

---

٣٣٠. الأنعام: ١١٨ .

٣٣١. مسلم، الإيمان، ٢٣٤/ ١٤٨ .

ولفظ الجلالة هو من أكثر أنواع الذكر التي يهتم بها أهل الذكر والمخلصين. وما دام هناك من العباد من يواظب على الذكر فإن الساعة لن تقوم. وبقدر ما لهؤلاء العباد من صفات متميزة في العبادة، فإن اللَّه ﷻ يحفظ الحياة الدنيا بهم. فهم أينما وجدوا في أي قرية أو مكان فإن اللَّه تعالى يحفظ بهم ذلك المكان.

وذكر كلمة التوحيد «لا إله إلا اللَّه» هي أيضاً من الأذكار التي تتالت الأحاديث الشريفة التي تحث عليها. ومن هذه الأحاديث ما ذكره رسول اللَّه ﷺ بقوله:

«جددوا إيمانكم»

قيل: يا رسول اللَّه وكيف نجدد إيماننا، قال:

«أكثروا من ذكر لا إله إلا اللَّه» [٣٣٢]

كما قال سليمان عليه السلام وهو الذي أعطي التحكم بسائر العالم:

«إن سلطنتي زائلة. أما السلطنة التي سيأتي بها ذكر التوحيد فهي أبدية...»،

كما أن لذكر كلمة التوحيد بشكل جماعي في مجالس الذكر مكانة خاصة جداً. قال رسول الله ﷺ:

«إن لله ملائكة يطوفون في الطرق يلتمسون أهل الذكر، فإذا وجدوا قوما يذكرون الله تنادوا: هلموا إلى حاجتكم» قال: **«فيحفونهم بأجنحتهم إلى السماء الدنيا»** [٣٣٣]

وقال رسول الله ﷺ:

«لا يقعد قوم يذكرون الله عز وجل إلا حفتهم الملائكة، وغشيتهم الرحمة، ونزلت عليهم السكينة، وذكرهم الله فيمن عنده» [٣٣٤]

ففي الحديث الشريف الذي ذكره الصحابي الجليل شداد بن أوس رضي الله عنه يقول: كنا عند النبي ﷺ فقال:

«هل فيكم غريب؟» يعني أهل الكتاب قلنا: لا يا رسول اللَّه، فأمر بغلق الباب وقال:

«ارفعوا أيديكم وقولوا لا إله إلا اللَّه»

---

٣٣٢. الحاكم، المستدرك، ٤، ٢٨٥/ ٧٦٥٧ .

٣٣٣. البخاري، الدعوات، ٦٦/ ٨٠٤٦ .

٣٣٤. مسلم، الذكر، ٩٣/ ٢٧٠٠ .

ويكمل شداد بن أوس وصفه لهذا المجلس من الذكر فيقول: فرفعنا أيدينا ساعة ثم وضع عليه الصلاة والسلام يده ثم قال:

«الحمد اللَّه اللَّهم إنك بعثتني بهذه الكلمة وأمرتني بها ووعدتني عليها الجنة وإنك لا تخلف الميعاد» ثم قال: **«أبشروا فإن اللَّه قد غفر لكم»** [٣٣٥]

وفي حديث آخر يقول عليه الصلاة والسلام:

«إن لا إله إلا الله كلمة على الله كريمة، لها عند الله مكان، وهي كلمة من قالها صادقا أدخله الله بها الجنة، ومن قالها كاذبا حقنت دمه وأحرزت ماله، ولقي الله غدا فحاسبه» [٣٣٦]

وفي حديث آخر يؤكد رسول اللَّه ﷺ على ضرورة أن يكون الإنسان دائماً في حالة ذكر ومراقبة للشعور، فيقول عليه الصلاة والسلام:

«لا تكثروا الكلام بغير ذكر الله فإن كثرة الكلام بغير ذكر الله قسوة للقلب، وإن أبعد الناس من الله القلب القاسي» [٣٣٧]

وذكر كلمة التوحيد مهم جداً ساعة الموت، فيقول عليه الصلاة والسلام:

«من كان آخر كلامه لا إله إلا الله دخل الجنة» [٣٣٨]

ولقد كان رسول اللَّه ﷺ وفي سياق التعليم القلبي، يعلم أصحابه الكرام أنواع الذكر كل بحسب مقدرته.

عن أم هانئ رضي الله عنها قالت: أتيت إلى رسول الله ﷺ، فقلت: يا رسول الله، دلني على عمل فإني قد كبرت وضعفت وبدنت، فقال:

«كبري الله مائة مرة، واحمدي الله مائة مرة، وسبحي الله مائة مرة خير من مائة فرس ملجم مسرج في سبيل الله، وخير من مائة بدنة، وخير من مائة رقبة» {

٣٣٥. أحمد، مسند، ٤، ١٢٤ / ١٧١٢١.
٣٣٦. الهيثمي، مجمع الزوائد ١، ٢٦/ ٥٥.
٣٣٧. الترمذي، الزهد، ٦٢/ ٢٤١١.
٣٣٨. أبو داود، الجنائز، ١٥-١٦/ ٣١١٦.

وكخلاصة، إن ذكر اللَّه هو وسيلة الخروج من الظلام الداكن عبر التواصل مع اللَّه جَلَّ وعلا من خلال محبة اللَّه وإنارة الأفئدة بذكره. فبقدر ما نذكر اللَّه تعالى في حياتنا الدنيا هذه بقدر ما سننال الرفعة عند اللَّه في الحياة الآخرة. ولهذا فإن من واجبنا دائماً الإشارة إلى أهمية الذكر والتسبيح في ديننا. لأن من بركة الذكر أن يتحقق مفعوله في القلب، ولهذا فقد اهتم أولياء اللَّه ﷻ بدستور «**اعتبر أن كل من تراه هو الخضر**». لأن الأفئدة الممتلئة بالذكر، كل منها هو نافذة مفتوحة مع الحق سبحانه وتعالى بأنواع مختلفة من التجلي. وبالنتيجة، فإن الطرق المؤدية إلى اللَّه هي بأعداد أنفاس المخلوقات.

٥- **القلوب الحية «القلب السليم»:**

وهذه القلوب هي قلوب الأنبياء وأولياء اللَّه. وتتجلى في هذه القلوب جزء من صفات اللَّه جَلَّ وعلا. فمن امتلك قلباً سليماً فهو ذلك الذي أكرمه اللَّه تعالى بالكمال المستخلص من الأخلاق المستمدة من القرآن الكريم ورسول اللَّه ﷺ.

يقوم نجم الدين كبري، الذي هو من الأولياء الأكثر شهرة في العصر الهجري الثامن، بزيارة جنازة لأحد الصالحين برفقة جمع من طلابه. وأثناء تلقين الميت كما هو المعتاد يبتسم الشيخ نجم الدين كبرى. ويتعجب طلابه لتبسم شيخهم في موقف كهذا الموقف فيسألونه عن حكمته في ذلك. ولكن فضيلة الشيخ يرفض بدايةً الإفصاح عن السبب. ولكنه وأمام إصرار طلبته يقول:

«التلقين عادة ما يقوم به الحي للميت. أما ما حصل الآن فهو أن الملقن هو رجل بقلب غافل، ومن دخل إلى القبر هو صاحب قلب ينبض بالحياة. فلهذا تعجبت من رجل بقلب غافل يلقن من قلبه نابض بالحياة»

إن القلوب التي هي في حالة ذكر للّه تعالى، هي قلوب تدخل في حمايته وحفظه. ولذلك، فإن القلب يبدأ حينها باتخاذ طريقه نحو عالم الأسرار الإلهية. فتظهر لهذا القلب أسرار العالم الإلهي وحقيقة الأشياء وأسرار الكائنات والإنسان. ويصبح العبد ظاهراً بتجلي القلب السليم. يقول اللَّه تعالى:

﴿وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِنْدَنَا زُلْفَى إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ آمِنُونَ﴾ [٣٣٩]

وفي آية جليلة أخرى يقول تعالى:

﴿يَوْمَ لاَ يَنْفَعُ مَالٌ وَلاَ بَنُونَ. إِلاَّ مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [٣٤٠]

إذن، إن التقرب من اللّه ﷻ لا بد له من قلب طاهر وصل إلى مرتبة السلامة. وهذه الحقيقة هي مهمة في مختلف العبادات. ولهذا فإن الآية الكريمة تتحدث عن عبادة التقرب للّه بالقربان في عيد الأضحى فتقول:

﴿لَنْ يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلاَ دِمَاؤُهَا وَلكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنْكُمْ...﴾ [٣٤١]

إن الخزائن الألهية وأسرارها قد قدمت إلى الإنسان. وتجلت إرادة اللّه جَلَّ وعلا عندما أراد أن يعرّف الإنسان بقدسية ماهيته. ولهذا فإن الإنسان عندما يعقل ويدرك شرفه وصفاته وكرمه فإنه يصبح بذلك إنساناً بالمعنى الحقيقي للكلمة. والموت على الإيمان، والوصول إلى طريق الصفاء والنشوة الإلهية، لا بد لها وأن تمر عبر قلب سليم حي يعمر بالإحسان ويعيش به.

أسأل اللّه تعالى أن يذيقنا قبل الموت قلباً كهذا القلب الذي يمكننا من مقابلة وجهه الكريم به! آمين...!

٣٣٩. سبأ: ٣٧.

٣٤٠. الشعراء: ٨٨-٨٩ .

٣٤١. الحج: ٣٧.

سيدنا نوح
عليه السلام

سيدنا نوح عليه السلام
الذي تطهرت الدنيا من الكفر بطوفانه

إنَّ نوحاً عليه السلام هو نبيُّ اللَّه ﷻ الذي يحتل مكاناً واسعاً له في القرآن الكريم وأحاديث رسول اللَّه ﷺ الشريفة. وهو من الأنبياء أولي العزم.[٣٤٢] وذكر اسمه في القرآن لأسباب متعددة في ٤٣ موضعاً مختلفاً. وتحمل السورة ٧١ ذات الآيات ٢٨ اسمه. ويعتبر «الأب الثاني» للبشرية بسبب الطوفان الشهير.

بعد أن رفع إدريس عليه السلام إلى السماء ابتعد الناس من جديد عن الحقيقة وبدؤا بعبادة الوثنية والأصنام. ولهذا أرسل اللَّه نبيه نوحاً عليه السلام إلى قومه.

واسمه الأصلي هو «يشكر»، وقيل بأنه «ساكن» أو «عبد الغفار». ولقبه «نجي اللَّه» أي الذي أنقذه اللَّه و«شيخ الأنبياء» أي الأطول عمراً بينهم.

بعد أن رفع إدريس عليه السلام إلى السماء ابتدأ أتباعه ود وسواع ويعوق ونسر بإحياء الدين والدعوة إليه واحتلوا موقعاً علياً لهم بين الناس. وبعد وفاتهم، قام الناس بوسوسة من الشيطان بصناعة هياكل تجسمهم تكريماً لهم. ومع الزمن تحول الناس إلى عبادة هذه الإصنام. وبدؤا يعتقدون بأن لهذه الهياكل قدرة إلهية.

عن ابن عباس رضي الله عنه يقول:

«صارت الأوثان التي كانت في قوم نوح في العرب بعد أما ود كانت لكلب بدومة الجندل، وأما سواع كانت لهذيل، وأما يغوث فكانت لمراد، ثم لبني غطيف بالجوف، عند سبإ، وأما يعوق فكانت لهمدان، وأما نسر فكانت لحمير لآل ذي الكلاع، أسماء رجال

٣٤٢. الأنبياء أولو العزم: هم الأنبياء ذو الدرجات العُلى وهم: سيدنا محمد ﷺ وإبراهيم وموسى وعيسى وآدم ونوح عليهم السلام.

صالحين من قوم نوح، فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم، أن انصبوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون أنصابا وسموها بأسمائهم، ففعلوا، فلم تعبد، حتى إذا هلك أولئك وتنسخ العلم عبدت» [٣٤٣]

ويذكر أنه كان في منطقة الكوفة قوم لا يعبدون الأصنام فيها تابعوا إيمانهم بالتوحيد الإلهي بعيداً عن الوثنية. وكان نوح عليه السلام من أبناء هذا القوم.

وكان نوح عليه السلام في بعض الأحيان يعمل راعياً وفي أحيان أخرى يهتم بالتجارة. وكان على رأس قومه رجل ظالم من نسل قابيل يُدعى درمسيل. وكان لكل قبيلة منهم صنم مختلف. ولكل صنم خادمه الخاص. وكان نوح عليه السلام يجد ذلك الأمر مضحكاً. وكانت عبودية الأصنام وسوء الأخلاق قد وصلت إلى حدها الأقصى في تلك الفترة.

خصائص قوم نوح عليه السلام:

١- كانوا من عبدة الأصنام

وقد تحدث القرآن الكريم عن هذه الخاصية فيهم فقال:

﴿وَقَالُوا لاَ تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلاَ تَذَرُنَّ وَدّاً وَلاَ سُوَاعاً وَلاَ يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْراً﴾ [٣٤٤]

إن الأصنام وعبدتها كانوا على مدى التاريخ الإنساني مصدراً للإبتعاد عن طريق الحق ودافعاً إلى الشذوذ. فكانت الهياكل التي تصنع بداية بهدف الإحترام والذكرى، تتحول مع الزمن لتصبح أصناماً تعبد.

❁

إن عقيدة «أنتروبومورفيست» هي إعطاء الإله الذي يؤمن به الإنسان ويعبده أشكالاً مادية مختلفة وتصاوير مادية. وهذه العقيدة تؤدي إلى تأليه هذه الأشكال التمثيلية وعبادتها في النهاية. أما بالنسبة للديانات التوحيدية فإنها تتفق جميعاً على عبادة اللّه الواحد «المتعال»، أي الذي هو أعلى وأسمى من مختلف التصورات والعوالم. وهذا الإيمان يبتعد بالإنسان من ذهنية المادة ويوجهه إلى المعاني المجردة. فيعمل على

٣٤٣. البخاري، التفسير، ٧١/ ٤٩٢٠.
٣٤٤. نوح: ٢٣ .

فهم الحقيقة المعنوية متخطياً النظرة المادية البحتة. ولكن الذهنية البشرية، عوضاً عن الوصول إلى هذه المرتبة، تهرب إلى السهل فتعمد إلى تجسيم الإله وتشبيهه، أي أنها تقع في خطأ تصور اللَّه ضمن الأبعاد الدنيوية الخاصة به. وهو ما أدى دائماً إلى النزوح بالبشرية نحو الوثنية وعبادة الأصنام.

ولهذا عمد الدين الإسلامي بشكل رائع على تنقية هذا الميل الإنساني بأن حرم تصوير اللَّه تعالى وتشبيهه بأي نوع من الأنواع أو الأشكال. ولهذا ومنعاً للإنسان من الوقوع في ضلالة الإتجاه إلى تعبد المجرد المشخص، حرم الإسلام الأصنام والرسوم. علماً أن للرسوم والهياكل ضرراً آخر وهو تحديد قدرة التخيل وبالتالي إعاقة الإنسان عن إدراك واستيعاب المعاني التصورية العليا.

ولما كان رسول اللَّه ﷺ يعتقد بأن الإكثار من زيارة القبور تُؤدي بالإنسان إلى الوثنية، قام بداية بمنع هذه الزيارات. ولكن، وبعد أن تعمقت فكرة التوحيد في النفوس، سمح عليه السلام بذلك بقوله:

«**نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها...**» [٣٤٥]

وقال عليه الصلاة والسلام:

«**قد كنت نهيتكم عن زيارة القبور، فقد أذن لمحمد في زيارة قبر أمه، فزوروها فإنها تذكر الآخرة**» [٣٤٦]

إذن، إن زيارة القبور قد أوصى بها تذكيراً بالموت، وهدية من الأحياء إلى الموتى، أي لقراءة القرآن لهم والدعاء لهم، وتفكراً بالآخرة.

أما الأدعية والطلبات التي يتقدم بها الناس في حضرة قبور الأولياء والصالحين فإنها ولو كانت بشفاعتهم ومحبتهم إلا أنها يجب أن تطلب مباشرة من اللَّه تعالى. لأن طلبها من العبد يؤدي إلى الشرك. وهو ما حصل بالفعل لقوم نوح عليه السلام.

إن اللَّه جل جلاله لا يشبه أياً كان من المخلوقات، أي أنه بعيد في وصفه عن أي بعد أو شكل أو أي تصور من التصورات أو التوقعات البشرية.

٣٤٥. مسلم، الجنائز، ١٠٦/ ٩٧٧.

٣٤٦. الترمذي، الجنائز، ٦٠، ١٠٥٤.

يقول الشيخ الجليل الشبلي:

«عندما تحصرون أفكاركم وتعتقدون بأنكم قد توصلتم إلى تصور معين للذات الإلهية، إذا بهذه التصورات تعود إليكم. ذلك لأنها أفكار ابتدعتموها -أحدثتموها- وهي بالتالي مثلكم مخلوقة -مصنوعة-..»

فكان وكأن الشيخ الشبلي الجليل يريدنا في كلامه هذا أن نفرق بين القديم والمحدث، وأن الطريق الأمثل لمعرفة اللَّه ﷻ هي من خلال ما وصف لنا بها نفسه وبين لنا من خصائص، وأن لا طريق آخر لذلك. وبالتالي فإن ترك الإنسان للوحي المنزل ومحاولته تشخيص صورة اللَّه في نفسه، سيجره إلى نتائج سفلية محزنة.

العقل محدث -أي مخلوق-. ولهذا فإن من غير الممكن أبداً إدراك الحق سبحانه وتعالى عبر هذا المخلوق المحدث. ولكن نبي اللَّه موسى عليه السلام عندما كلمه اللَّه سبحانه وتعالى شعر بمتعة كبيرة من ذلك. فدفعته متعته هذه وجاذبيتها إلى طلب ما هو أبعد من ذلك فأراد رؤية الحق جَلَّ وعلا وألح عليه في ذلك. وقد روى القرآن الكريم تفاصيل هذا الأمر بقوله سبحانه و تعالى:

﴿...قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ تَرَانِي وَلَكِنِ انْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي...﴾ [٣٤٧]

إن رؤية اللَّه تعالى لن تكون إلا من نصيب أهل الجنة كل بحسب درجته ورفعته فيها.

٢- **لقد كان قوم نوح ظالمين وطاغين إلى أبعد الحدود.** وتتحدث الآية القرآنية الكريمة عن طغيانهم وظلمهم فتقول:

﴿وَقَوْمَ نُوحٍ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَى﴾ [٣٤٨]

٣- **كانوا فاسقين.** يقول اللَّه تعالى:

﴿... إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ [٣٤٩]

٣٤٧. الأعراف: ١٤٣.

٣٤٨. النجم: الآيات ٤٢.

٣٤٩. الذاريات: ٥٢.

٤- **كانوا مرتكبين للسيئات**. حيث تصف الآية الكريمة حالتهم هذه فتقول:

﴿...إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ...﴾ [٣٥٠]

٥- **كانوا بدون وجدان**. حيث تصف الآية الكريمة قوم نوح الذين حرموا من أحاسيس الشفقة والرحمة فتقول:

﴿...إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْماً عَمِينَ﴾ [٣٥١]

٦- **كانوا عنيدين جداً**. فقد كان قوم نوح أناس تعودوا على الكفر والمحرمات، واعتمدوا على العناد في الدنيا كمبدأ لهم في الحياة. وهم قوم سيستمرون في عنادهم هذا في الآخرة أيضاً، فينكرون بجهلهم أن نبياً من اللَّه قد أرسل إليهم.

عن أبي سعيد الخدري، قال: قال رسول الله ﷺ:

«يدعى نوح يوم القيامة، فيقول: لبيك وسعديك يا رب، فيقول: هل بلغت؟ فيقول: نعم، فيقال لأمته: هل بلغكم؟ فيقولون: ما أتانا من نذير، فيقول: من يشهد لك؟ فيقول: محمد وأمته، فتشهدون أنه قد بلغ» -والوسط العدل-

ويكمل أبو سعيد الخدري روايته بهذه الإضافة فيقول: وذلك قول اللَّه تعالى:

﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا...﴾ [٣٥٢] . [٣٥٣]

وهكذا فإننا نرى من خلال هذه الآية الكريمة أنها تؤكد بشكل واضح أن محمداً ﷺ وأمته سيشهدون لباقي الأنبياء وأممهم.

نعم، لقد أرسل اللَّه تعالى نوح عليه السلام بالفعل إلى هذا القوم الذين ضلوا عن الحقيقة. تقول الآية الكريمة:

﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [٣٥٤]

٣٥٠. الأنبياء: ٧٧ .
٣٥١. الأعراف: ٦٤.
٣٥٢. البقرة: ١٤٣.
٣٥٣. البخاري، التفسير، ٢/ ١٣/ ٧٨٤٤؛ الأنبياء، ٣/ ٣٣٣٩.
٣٥٤. نوح: ١.

سنوات التبليغ الطويلة:

جاء جبريل عليه السلام إلى نوح عليه السلام وهو في الخمسين من عمره وأعلمه بنبوته وقال له: «اذهب إلى درمسيل وقومه! وبَلِّغْهم عقيدةَ التوحيدِ!»

وأعطى سيدنا نوح عليه السلام عهده «**الميثاق**» بتبليغ عقيدة التوحيد حتى آخر يوم من حياته. يقول اللّه عز وجل:

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا﴾ [٣٥٥]

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ. أَن لاَ تَعْبُدُوا إِلاَّ اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾ [٣٥٦]

في بداية الأمر، عمد نوح عليه السلام إلى القيام بوظيفته بشكل سري ومن ثم انتقل بدعوته إلى العلانية. وعلى الرغم من أنه كان في شبابه محبوباً من الجميع، إلا أن هذا الأمر تغير عندما ابتدأ بالتبليغ. ولم يتبعه من قومه إلا قليل.

ويصل إلى درمسيل ملك القوم أخبار نشاطات الدعوة التي يقوم بها نوح عليه السلام فيقول لمن حوله:

«-ومن هو هذا؟». فيجيبون:

«على الرغم من أنه من قومنا إلا أنه لا يمتثل بأفعالنا... اسمه نوح بن لامك. وكان عاقلاً في البداية. ولكنه فقد عقله. وهو يقول بأنه نبي!» وعندما قالوا: «وهو يعارض عبادة الأصنام!» دَعَا درمسيل نوحاً عليه السلام إليه وقال له مؤنباً: «يا حسرة عليك! أأنت تنكر آلهتنا؟»

كما كان الناس يسخرون من نوح عليه السلام لكون أتباعه جميعهم من الفقراء. فيقول الكافرون لنوح عليه السلام:

﴿قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ﴾ [٣٥٧]

---

٣٥٥. الأحزاب: ٧.

٣٥٦. هود: ٢٥-٢٦.

٣٥٧. الشعراء: ١١١.

هذه الأمة الجاهلة والظالمة، كانت تحتقر الفقراء والغرباء تكبراً. ولكن نوحاً عليه السلام، وكما كان يدافع عن دعوته، كان يدافع أيضاً عن أتباع هذه الدعوة. فأجاب على اتهامات المنكرين بقوله:

﴿وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [٣٥٨]

﴿...إِنَّهُمْ مُلَاقُو رَبِّهِمْ وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ. وَيَا قَوْمِ مَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ طَرَدْتُهُمْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [٣٥٩]

وبعد وفاة درمسيل ينتقل الحكم من بعده إلى ولده نفلين. وكان هذا الأخير أشد ظلماً من أبيه. واستمر نوح عليه السلام بدعوته في زمن نفلين أيضاً.

قال ابن إسحاق وغيره:

«إن قوم نوح كانوا يبطشون به فيخنقونه حتى يغشى عليه، فإذا أفاق قال: اللهم اغفر لي ولقومي فإنهم لا يعلمون! حتى إذا تمادوا في معصيتهم وعظمت منهم الخطيئة، وتطاول عليه وعليهم الشأن اشتد عليه البلاء، وانتظر النجل بعد النجل فلا يأتي قرن إلا كان أخبث من الذي كان قبله حتى إن كان الآخر ليقول: قد كان هذا مع آبائنا، وأجدادنا مجنونا لا يقبلون منه شيئا، وكان يضرب ويلف، ويلقى في بيته، يرون أنه قد مات، فإذا أفاق اغتسل وخرج إليهم يدعوهم إلى الله، فلما طال ذلك عليه، ورأى الأولاد شرا من الآباء قال: رب قد ترى ما يفعل بي عبادك، فإن تك لك فيهم حاجة فاهدهم، وإن يك غير ذلك فصيرني إلى أن تحكم فيهم. فأوحى إليه: إنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن، فلما يئس من إيمانهم دعا عليهم فقال: {رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا} [نوح: ٢٦] » إلى آخر القصة . [٣٦٠]

على الرغم من كل هذه الأذية كان نوح عليه السلام يصبر صبراً كبيراً. ولهذا، ومن لطف اللّه عليه، كان جبريل عليه السلام يداوي جراحه بين الفينة والأخرى. ويقول المشركون له:

٣٥٨. الشعراء: ١١٤.
٣٥٩. هود: ٢٩-٣٠.
٣٦٠. ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ١، ٦٣.

«عار عليك يا نوح! ألا ترجع حتى الآن عن دعوتك بعد كل ضربنا وسبابنا؟!»
فيجيبهم نوح عليه السلام ناصحاً لهم:

«أنا لست بمجنون. أجدادكم الآن يتعذبون! ألا تعقلون!»

ويكمل نوح عليه السلام بقوله:

«إذا أعرضتم عن دعوتي، فلن تضروني بشيء!»

ذلك أن الإنسان يخاف من شيئين اثنين:

١. أذية الآخرين له.

٢. أن تنقطع مصالحه.

ولكن نوح عليه السلام يجيب على النوع الأول من الخوف بقوله لهم:

«أنا لا أخاف من أذاكم ! فأنا متوكل على ربي»

ويجيب على النوع الثاني من الخوف فيقول:

«أنا لا أريد منكم أجراً»

وهذا ما تتحدث عنه الآية القرآنية الكريمة حيث تقول:

﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ. فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ [٣٦١]

ولكن أحداً منهم لم يستمع إلى دعوته هذه. وما آمن معه إلا قليل من قومه. ومن أولاده آمن سام وحام ويافث. أما ابنه كنعان فلم يؤمن. وأهانه قومه وعذبوه طيلة فترة نبوته. فتحمل نوح عليه السلام أفعال قومه ٩٥٠ سنة كاملة. وبعد كل هذه السنين أخبر نوح ربه بعجزه وأن صبره على الأذى لن يأتي معهم بنتيجة.

على مدى التاريخ، كانت أهم الأسباب التي منعت الأمم من القبول برسالة التوحيد التي بشرهم بها أنبياؤُهم وبالتالي حرمانهم من الهداية هي بشكل رئيسي الأمور التالية:

١. في مختلف الديانات السماوية هناك إيمان «بالآخرة» التي ستكون مكاناً للمكافأة أو العقاب على الأعمال التي ترتكب في الدنيا. وهذا الأمر يمنع الأفراد من التحرك كما يشاؤون. فهم مجبرون على التحرك ضمن الأطر التي تنظمها نصوص هذا الدين.

٣٦١. الشعراء: ١٠٩-١١٠.

ولهذا، كان الخبر الأول الذي أقلق عبدة الأصنام عند ظهور الإسلام هو خبر «الآخرة». وقالوا عنه «الخبر الكبير». وانزعجوا بشدة منه.

ولهذا تحدث القرآن الكريم عن هذا الانزعاج والضيق فقال:

﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ. عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ. الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ﴾ [٣٦٢]

إن المجتمعات الوثنية تقوم على مبدأ أن يتحكم القوي بالضعيف وأن يستعبده وفقاً لرغباته النفسانية. فلا تجد قوانين تدافع عن حقوق الضعيف. وتتركز مصالح المجتمع جميعها في يد الأقوياء. وهم يؤمنون بأنهم لن يحاسبوا في الآخرة على ما يرتكبون من أمور وأفعال. ولهذا فإن فكرة الإيمان بالآخرة في الأديان السماوية هي سبب كبير في انزعاجهم.

٢. تتميز الديانات السماوية بأسلوب عبادة منظم ومنضبط. وهذا الأمر غير موجود لدى الوثنيين. فالوثنيون يستخدمون الأصنام كمساعدين لهم بحسب مصالحهم. ويعتقدون بأنها ستؤمن لهم الحماية. ولهذا فهم لا يريدون أن تخر رقابهم فيتنازلوا عن رغباتهم النفسية أمام العبادات المنضبطة في الديانات السماوية.

٣. إن الأنبياء في الأديان السماوية يشكلون شخصيات نموذجية «أسوة حسنة» في مجتمعاتهم. أما في الوثنية، فلا وجود لمثال أو أسوة هكذا. فهم يتحركون وفقاً لرغباتهم النفسية. والنساء متعددات الأزواج هن أحد هذه الأمثلة في المجتمعات الجاهلية.

إن الإيمان لدى الإنسان فطرة. فإذا لم يصل الإنسان إلى الحق تعالى أو وجد أن الحق صعب مناله، اتجه إلى الباطل. فإذا بقي الإيمان في الشعور الباطني ولم يصل إلى مصدره الحقيقي، غلبه الكفر. أما إن تمكن الإيمان من الرقي إلى طريق الوحي الإلهي فإنه يتحول إلى الكمال، وبالتالي يصبح الإيمان حقيقة حاصلة.

٤. إن الوثنيين من الأقوياء والأغنياء ورجالات المجتمع الراقي عندهم، ينظرون إلى الأنبياء وأصحابهم الذين يعيشون في المجتمع حياة بسيطة أو عادية باستصغار بسبب ما يشعرون به من كبر في نفوسهم. لأنهم يعتقدون أنهم إن أخذوا لهم صفاً مع الضعفاء فإن قيمتهم في المجتمع ستضعف ويفقدونها.

---

٣٦٢. النبأ: ١-٣.

٥. ومن الأسباب التي تمنع هداية الوثنيين أيضاً الرغبات الدنيوية كالمال والملك والأولاد. وهو ما يجعلهم يقعون في الغفلة في خداع مؤلم للنفس يغلق قلوبهم عن الحق ويغلفها.

تقول الآية الكريمة:

﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ﴾ [٣٦٣]

ويسرد نوح عليه السلام النوايا السيئة لقومه عبدة الأوثان ويقول لهم متحدياً:

﴿... يَا قَوْمِ إِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنْظِرُونِ﴾ [٣٦٤]

من المؤكد أن كلمات نوح عليه السلام هذه إن هي إلا دليل على توكله العميق على ربه.

طلب القوم السيئي الطالع للعذاب:

لم يؤمن لنوح عليه السلام إلا من آمن معه في السنوات الأولى من دعوته فقط. إضافة لهذا، كانت الأذية والإهانات التي يتوجه بها قومه إليه وإلى أصحابه قد وصلت إلى حدها الأكبر. بل لقد وصل بهم الحال إلى التجرء على طلب العذاب الإلهي:

﴿قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [٣٦٥]

وأمام هذا التحدي الذي ظهر من قومه بقولهم: «هيا أبعث علينا العذاب!» واستصغارهم للدعوة باعتبارها مجرد كذبة، عاد نوح ليبين لهم إرادة وقدرة اللّه تعالى فقال:

﴿قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُمْ بِهِ اللَّهُ إِنْ شَاءَ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ. وَلَا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [٣٦٦]

٣٦٣. آل عمران: ١٤.
٣٦٤. يونس: ٧١.
٣٦٥. هود: ٣٢ .
٣٦٦. هود: ٣٣-٣٤.

ويخبر اللَّه تعالى نوحاً بأنه لن يؤمن من قومه أحد ويخبره مواسياً:

﴿...لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ [٣٦٧]

وأخيراً، وكنذير لبداية العقاب الإلهي عليهم، عاقب اللَّه هذا القوم الذي لم يروض بأي شكل من الأشكال بأن منع عنهم المطر أربعين سنة كاملة. فتلفت حيواناتهم. ولم يولد لهم أطفال. فتوجهوا بعجز إلى نوح عليه السلام يسألونه. فقال لهم:

«عودوا عن شرككم؛ وسأدعو لكم!»

﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّاراً. يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَاراً. وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَاراً﴾ [٣٦٨]

يقول مقاتل بن سليمان رحمة اللَّه عليه: «بعد نزول هذه الآيات، تصبح قراءة الإستغفار في أدعية الاستسقاء مشهورة»

عن ابن عباس رضي الله عنهما، أنه حدثه، قال: قال رسول الله ﷺ:

«من لزم الاستغفار، جعل الله له من كل ضيق مخرجا، ومن كل هم فرجا، ورزقه من حيث لا يحتسب» [٣٦٩]

ويكمل نوح عليه السلام نصيحته لقومه وتحذيره فيقول:

﴿مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا. وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا. أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا. وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا. وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا. ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا. وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطًا. لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا﴾ [٣٧٠]

ولكن هذه الأمة الوثنية الحمقاء، لم تكن لتستمع إلى هذه النصائح الممتلئة بالحكمة. وهكذا:

---

٣٦٧. هود: ٣٦.

٣٦٨. نوح: ١٠-١٢ .

٣٦٩. أبو داود، الوتر، ٢٦/ ١٥١٨.

٣٧٠. نوح: ١٠-١٢.

﴿قَالَ نُوحٌ رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَنْ لَمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلاَّ خَسَاراً. وَمَكَرُوا مَكْراً كُبَّاراً. وَقَالُوا لاَ تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلاَ تَذَرُنَّ وَدّاً وَلاَ سُوَاعاً وَلاَ يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْراً. وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيراً وَلاَ تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلاَّ ضَلاَلاً﴾ [٣٧١]

ويشير أب إلى نوح عليه السلام ويقول لولده: " -أنظر، لا تؤمن لهذا!" فما كان من الولد إلا أن أخذ العصا من يد أبيه. وضرب نوحاً على رأسه فسال من رأسه الدم. فقال نوح حينها: «يا رب إن كنت تريد خيراً، فارزقهم الهداية! وإلا فالهمني الصبر إلى أن تحكم عليهم! لأنك أنت خير الحاكمين!" ولكن أذية القوم زادت كثيراً. ولم يبق ما يمكن فعله. وهكذا ما كان من نوح عليه السلام إلا أن دعا ربَّه:

﴿فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ﴾ [٣٧٢]

على الرغم من دعوة نوح سنوات طويلة إلا أنه لم يؤمن معه إلا القليل من قومه. وكان كل نسل يوصي أبناءه قبل موته بأن لا يؤمنوا لنوح وأن يتحالفوا ضده ويحاربوه. فكان الآباء يقولون لمن يبلغ من أبنائهم: «لا تؤمن بنوح ما دام على قيد الحياة» وفسدت فطرتهم بشكل كامل. والتفوا على الإيمان والحق يرفضونه. ولهذا السبب، قال نوح عليه السلام يشكو إلى ربه:

﴿وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لاَ تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّاراً. إِنَّكَ إِنْ تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلاَ يَلِدُوا إِلاَّ فَاجِراً كَفَّاراً.رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِناً وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلاَ تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلاَّ تَبَاراً﴾ [٣٧٣]

بعد هذا اللجوء، يأمر اللَّه جل جلاله نوحاً عليه السلام بصناعة سفينة:

﴿وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ﴾ [٣٧٤]

٣٧١. نوح: ٢١-٢٤.
٣٧٢. القمر: ١٠.
٣٧٣. نوح: ٢٦-٢٨.
٣٧٤. هود: ٣٧.

وكانت هذه السفينة أيضاً سبباً جديداً لسخرية قوم نوح عليه السلام مما يفعل ويقول. تقول الآية الكريمة:

﴿وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ. فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ﴾ [٣٧٥]

وكان الناس الذين عميت قلوبهم عن الحق والحقيقة يأتون في الليل يريدون أن يحرقوا السفينة، وعندما لا يفلحون في ذلك يقولون: «هذا من سحرك!». فيعمدون حينها إلى تلويث السفينة. وبعد مدة من الزمن أصابهم مرض الجرب.

واضطروا إلى مسح أبدانهم بقذارتهم ليتمكنوا من الشفاء. وعلى الرغم من أن اللَّه جل جلاله قد حذرهم بهذه الأمور وأنواع العقاب، إلا أنهم لم يتنبهوا.

العذاب القادم: الطوفان:

لقد كانت السفينة التي أنشأها نوح عليه السلام مع أصحابه ممن آمن له من قومه سفينة قوية من الأشخاب الصلبة التي تتحمل الشروط الصعبة. وتتحدث بعض الروايات على أنها كانت مؤلفة من طوابق ثلاثة تم إنشاؤها في فترة استغرقت من سنتين إلى أربع سنوات، وكانت تعمل على البخار الناتج من إشعال النار بداخلها.

وبحسب رواية ابن عباس رضي الله عنهما فإن سفينة نوح ركب فيها من البشر ٨٠ شخصاً. ووضع التابوت الذي سلم من جبريل عليه السلام إلى نوح في هذه السفينة أيضاً، فكان متوسطاً في موقعه في السفينة بين النساء والرجال فيها.

تقول الآية الكريمة:

﴿حَتَّى إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [٣٧٦]

٣٧٥. هود: ٣٨-٣٩.

٣٧٦. هود: ٤٠.

وكلمة «التنور» التي وردت في الآية الكريمة تعني في اللغة الفرن. ويمكن أن تحمل معاني أخرى أيضاً. ومن هذا المعنى انطلق بعض العلماء للقول بأن سفينة نوح عليه السلام كانت تعمل بالبخار الناتج من إشعال النار في موقد داخل هذه السفينة.

وتتحدث آية قرآنية كريمة أخرى في وصف من رَكِب في السفينة فتقول:

﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنِ اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ فَاسْلُكْ فِيهَا مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلاَّ مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ وَلاَ تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ﴾ [٣٧٧]

وركب الحيوانات في السفينة أيضاً. وبحسب إحدى الروايات فإن نوحاً عليه السلام لم يكن يريد أن يضع العقرب والحية مع الراكبين في السفينة. ولكنهما أعطياه عهدا فقالاً: «إنا لن نؤذي أحداً يذكر اسمك!». ولهذا ينصح البعض لمن يتعرض لخطر العقرب أو الحية أن يقرأ قوله تعالى: **﴿سَلاَمٌ عَلَى نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ﴾** [٣٧٨]

بنية صافية سليمة، وأن اللّه تعالى سينقذه عند ذلك من خطرهما. وبعد أن ملأ نوح عليه السلام السفينة على النحو الذي أمره به ربه سبحانه وتعالى، بدأت إمارات الطوفان بالظهور الواحدة تلو الأخرى. ويتحدث القرآن الكريم مصوراً هذا الأمر بقوله تعالى:

﴿فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ. وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ﴾ [٣٧٩]

وكان كنعان، وهو من أبناء نوح، من الذين رفضوا ركوب السفينة. وعلى الرغم من أن نوحاً عليه السلام حاول للمرة الأخيرة أن يقدم له النصح إلا أنه لم يفلح في ذلك. وينقل القرآن الكريم تفاصيل الحديث الذي دار بين نوح وابنه فيقول جلَّ وعلا:

﴿... وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ. قَالَ سَآوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ...﴾ [٣٨٠]

٣٧٧. المؤمنون: ٢٧ .
٣٧٨. الصافات: ٧٩ .
٣٧٩. القمر: ١١ -١٢.
٣٨٠. هود: ٤٢-٤٣.

ولما لم يوفق نوح بنتيجة مع ابنه بعد هذه الكلمات، توجه إلى ربه مناجياً وراجياً يقول:

﴿وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ﴾ [٣٨١]

وكان دعاء نوح لابنه بعد أن دعا على قومه الزلة التي قام بها نوح في حياته. ذلك أن اللَّه تعالى نهاه عن الدعاء للظالمين. ولهذا، وبعد هذه الزلة التي قام بها نوح عليه السلام، ناداه ربه يحذره أن يكون من الجاهلين فقال له تعالى منبهاً واعظاً:

﴿قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ. قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [٣٨٢]

وتقول إحدى الروايات أن نوحاً عليه السلام بكى بكاءً شديداً من هذه الزلة التي قام بها، وهو الأمر الذي كان سبباً في تسميته بهذا الاسم: نوح. واستغفر نوح ربه أمام ما قام به من زلة. ولكن ابنه لم يعد عن الكفر. وأخيراً:

﴿...وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ﴾ [٣٨٣]

أما نوح عليه السلام ومن آمن معه وكل من ركب في السفينة من المخلوقات كانوا جميعاً في الحفظ الآلهي. فكانت السفينة تجري بهم كالجبال بين الأمواج. يقول اللَّه تعالى:

﴿وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ...﴾ [٣٨٤]

﴿تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِمَنْ كَانَ كُفِرَ. وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ. فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ﴾ [٣٨٥]

---

٣٨١. هود: ٤٥.
٣٨٢. هود: ٤٦-٤٧.
٣٨٣. هود: ٤٣.
٣٨٤. هود: ٤٢.
٣٨٥. القمر: ١٤-١٦ .

انحسار الماء:

كان نوح عليه السلام في سلامة وأمن من خلال الدعاء الذي كان قد تعلمه قبل الركوب في السفينة الذي يخبر اللَّه عز وجل عنه بقوله:

﴿....فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّانَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ. وَقُلْ رَبِّ أَنْزِلْنِي مُنْزَلًا مُبَارَكًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ﴾ [٣٨٦]

وتقول الرواية بأن الطوفان بدأ في شهر رجب في اليوم الأول وأن السفينة بقيت ستة أشهر تبحر فوق الماء. ومن ثم أمر اللَّه تعالى الأرض والسماء فقال:

﴿وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي...﴾ [٣٨٧]

وأمام هذا الأمر الإلهي، سحب الماء ورست السفينة في العاشر من شهر محرم على جبل الجودي. وينادي اللَّه سبحانه وتعالى نوحاً عليه السلام فيقول:

﴿قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [٣٨٨]

وهكذا، نجا نوح عليه السلام ومن آمن معه. تقول الآية الكريمة:

﴿فَأَنْجَيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ﴾ [٣٨٩]

﴿...وَجَعَلْنَاهُمْ خَلَائِفَ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ﴾ [٣٩٠]

---

٣٨٦. المؤمنون، ٢٨-٢٩.
٣٨٧. هود: ٤٤.
٣٨٨. هود: ٤٨.
٣٨٩. الشعراء: ١١٩.
٣٩٠. يونس: ٧٣.

كوارث في الدنيا، وعذاب أليم في الآخرة...

ويتحدث اللَّه ﷻ عن عاقبة الظالمين في الآية الكريمة فيقول:

﴿مِمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْصَارًا﴾ [٣٩١]

عن الحسين بن علي ﷺ عن النبي ﷺ قال:

«أمان لأمتي من الغرق إذا ركبوا في الفلك بسم الله الرحمن الرحيم، ﴿وَما قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ وَالسَّماواتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحانَهُ وَتَعالى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [٣٩٢] **﴿بِسْمِ اللَّهِ مَجْراها وَمُرْساها إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾** [٣٩٣]**»** [٣٩٤]

وكان رسول اللَّه ﷺ إذا استوى على بعيره خارجا إلى سفر، كبر ثلاثا، ثم قال:

﴿... سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ. وَإِنَّا إِلَى رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ﴾ [٣٩٥]

ومن ثم يدعوا الدعاء التالي:

«اللهم إنا نسألك في سفرنا هذا البر والتقوى، ومن العمل ما ترضى، اللهم هون علينا سفرنا هذا، واطو عنا بعده، اللهم أنت الصاحب في السفر، والخليفة في الأهل، اللهم إني أعوذ بك من وعثاء السفر، وكآبة المنظر، وسوء المنقلب في المال والأهل».

وعند عودته من السفر كان رسول اللَّه ﷺ يردد نفس الدعاء مضيفاً إليه قوله:

«آيبون تائبون عابدون لربنا حامدون» [٣٩٦]

وبحسب العلماء فإن الطوفان كان شاملاً. أي أن مختلف أنحاء الأرض قد غمرت بالماء. وفي كتابه مرآت الكائنات يقول النيشانجي زاده محيي الدين محمد:

«عندما رست السفينة قام ثمانون إنساناً ببناء «مدينة الثمانين» ويقال لهذه المدينة أيضاً «سوق الثمانين».

---

٣٩١. نوح:٢٥.
٣٩٢. الزمر: ٦٧.
٣٩٣. هود: ٤١.
٣٩٤. القرطبي، تفسير، ٩، ٣٧؛ ابن كثير، تفسير، ٥، ٥٠١.
٣٩٥. الزخرف: ١٣ -١٤.
٣٩٦. مسلم، الحج، ٤٢٥/ ١٣٤٢؛ أبو داود، الجهاد، ٧٢.

وبدأ تكاثر البشر مرة أخرى من خلال هؤلاء الناس الثمانين. وكان ابن نوح الأكبر سام رجلاً ذكياً عاقلاً وصالحاً. ولهذا تسلم زمام الأمر بعد وفاة أبيه. ونال دعاء ورضى نوح. وأكثر الصالحين من الناس هم من نسله. كما أن العرب والفرس هم أيضاً من سلالته.

ويعتقد أيضاً بأن الأفارقة والحبش والهنود هم من نسل ابنه الآخر حام. أما الأتراك والروس والسلاف فهم من نسل يافث. ومن سلالته أيضاً الآسيويون والهنود الحمر الذين يعتقد بأنهم عبروا بحر بيرينغ إلى القارة الأميركية ليكونوا كما قيل عنهم سكانها الأصليين.

ولكن، ومع مرور الزمن ضاعت الحقيقة مرة أخرى. وعاد الناس إلى عبادة النجوم والشمس والأصنام.

وبحسب رواية المفسر فخر الدين الرازي، فإن ما كان في القرآن الكريم من سرد لقصة نوح عليه السلام هو لمواساة النبي محمد ﷺ وإعطائه أجمل مثال للصبر والعزيمة التي استمر بها نوح عليه السلام أكثر من ٩٥٠ عاماً متتالية متحملاً وصابراً على أذى قومه.

يوم عاشوراء:

بعد أن رست السفينة على جبل الجودي في اليوم العاشر من شهر محرم في اليوم الذي يعرف باسم يوم عاشوراء، صام نوح عليه السلام ومن آمن معه من المؤمنين هذا اليوم شكراً لله تعالى. وصنعوا مما بقي من المؤنة ما يعرف بطعام عاشوراء. ولهذا، فإن من السنة في يوم عاشوراء أن يصوم الناس ويتقربوا لله بالصدقات.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول اللَّه ﷺ:

«**أفضل الصيام بعد شهر رمضان شهر اللَّه المحرم...**» [٣٩٧]

ويروي علي بن أبي طالب رضي الله عنه عن النبي ﷺ يقول:

يأتي رجل إلى النبي ﷺ يسأله: يا رسول اللَّه، أي شهر تأمرني أن أصوم بعد شهر رمضان ؟

فيجيبه عليه الصلاة والسلام بقوله:

٣٩٧. مسلم، الصيام، ٢٠٢/ ١١٦٣.

«إن كنت صائما بعد شهر رمضان فصم المحرم، فإنه شهر الله، فيه يوم تاب فيه على قوم، ويتوب فيه على قوم آخرين» [٣٩٨]

وذلك اليوم هو يوم عاشوراء، وأولئك القوم هم قوم سيدنا موسى عليه السلام من بني إسرائيل.

ومن هذا المبدأ نرى أن اليهود أيضاً يحتفلون بيوم عاشوراء ويجعلونه عيداً لهم. وتعودوا أن يتزينوا رجالاً ونساءً في هذا اليوم.

ومع ما فيه، وبناءً على صيام موسى عليه السلام شكراً لله في ذلك اليوم أيضاً، فإننا نجد أن بعض اليهود يصومون يوم عاشوراء تماشياً بما قام به نبيهم موسى عليه السلام.

ويروى عن **فضائل هذا اليوم** أن اللَّه تعالى:

- تاب على آدم عليه السلام في هذا اليوم وأعلنه «صفي اللَّه»،
- رفع إدريس عليه السلام إليه في هذا اليوم،
- أخرج نوح عليه السلام وقومه من السفينة في هذا اليوم،
- أنقذ إبراهيم عليه السلام من النار في هذا اليوم،
- أنزل التوراة على موسى عليه السلام في هذا اليوم،
- خلص يوسف عليه السلام من السجن في هذا اليوم،
- أعاد إلى يعقوب عليه السلام بصره في هذا اليوم،
- شفى أيوب عليه السلام من مرضه في هذا اليوم،
- أنقذ يونس عليه السلام من بطن الحوت في هذا اليوم،
- فلق البحر الأحمر لبني إسرائيل في هذا اليوم وأوصلهم إلى بر السلامة فيه،
- غفر لداوود عليه السلام في هذا اليوم،
- أعطى الملك والسلطنة لسليمان عليه السلام في هذا اليوم،
- غفر لنبينا محمد المصطفى ﷺ ما تقدم من ذنبه وما تأخر في هذا اليوم.

٣٩٨. الترمذي، الصوم، ٤٠/ ٧٤١.

عن ابن عباس ﷺ، قال:

قدم النبي ﷺ المدينة فرأى اليهود تصوم يوم عاشوراء، فقال: «**ما هذا؟**»، قالوا: هذا يوم صالح هذا يوم نجى الله بني إسرائيل من عدوهم، فصامه موسى، قال: «**فأنا أحق بموسى منكم**»، فصامه، وأمر بصيامه. [٣٩٩]

وفي حديث آخر، وحرصاً من رسول اللَّه عليه الصلاة والسلام على عدم التشبه باليهود، أمر رسول اللَّه ﷺ بصيام التاسع والعاشر أو العاشر والحادي عشر من محرم في يومين على الأقل. وهذا الحديث إن دل على شيء فإنه يدل على ضرورة مخالفة غير المسلمين حتى في العبادة.

وعن عائشة ﷺ قالت:

«كان يوم عاشوراء تصومه قريش في الجاهلية، وكان رسول اللَّه ﷺ يصومه» [٤٠٠]

وبعد انتقاله إلى المدينة استمر رسول اللَّه عليه الصلاة والسلام ومن شاء بصيام يوم عاشوراء. ولكن، وبعد أن فرض اللَّه تعالى صيام شهر رمضان المبارك، أصبح صوم يوم عاشوراء من النوافل من شاء صامه ومن شاء أفطره. ويمكن من خلال الأحاديث التي يرويها البخاري ومسلم التبين أن صيام يوم عاشوراء قبل أن يفرض صيام شهر رمضان كان صوماً واجباً.

وتكمل عائشة ﷺ حديثها فتقول:

«فلما قدم المدينة صامه، وأمر بصيامه، فلما فرض رمضان ترك يوم عاشوراء، فمن شاء صامه، ومن شاء تركه» [٤٠١]

وحول عاشوراء وفضل الصيام فيه أمر النبي ﷺ رجلاً من أسلم:

«أن أذن في الناس: أن من كان أكل فليصم بقية يومه، ومن لم يكن أكل فليصم، فإن اليوم يوم عاشوراء » [٤٠٢]

---

٣٩٩. البخاري، الصوم، ٦٩/ ٢٠٠٤.

٤٠٠. البخاري، الصوم، ٦٩/ ٢٠٠٢، مناقب الأنصار، ٢٦، تفسير ٢/ ٢٤.

٤٠١. البخاري، الصوم، ٦٩/ ٢٠٠٢؛ مسلم، الصيام، ١١٥/ ١١٢٥.

٤٠٢. البخاري، الصوم، ٦٩/ ٢٠٠٧.

الأسباب الرئيسية لهلاك قوم نوح:

١. كفرهم. وإنكارهم لأنبيائهم والحشر والنشر.

٢.عبادتهم للأصنام ودعوتهم إلى الشرك.

٣. استصغارهم لنوح عليه السلام، ومعصيتهم وأذيتهم له.

٤. تكبرهم؛ ويظهر ذلك عبر مخاطبتهم للفقراء بكلمة «أراذلنا». واستصغارهم لأهل الحكمة. وبالفعل، يأتي استكبار الأقوام على فقرائهم ورفضهم الجلوس معهم في نفس الخانة على رأس الأسباب التي أدت إلى هلاكهم.

٥. لم يكن لدى نسائهم الأدب والحياء والعفة.

٦. إدمانهم على ملذات الدنيا.

٧. عدم شكرهم. علماً أن اللَّه تعالى أمر عباده بالشكر على نعمه وتركهم للجحود. ويصنف سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام أهل الشكر والصبر قائلاً:

«خصلتان من كانتا فيه كتبه الله شاكرا صابرا، ومن لم تكونا فيه لم يكتبه الله شاكرا ولا صابرا، من نظر في دينه إلى من هو فوقه فاقتدى به، ونظر في دنياه إلى من هو دونه فحمد الله على ما فضله به عليه كتبه الله شاكرا وصابرا، ومن نظر في دينه إلى من هو دونه، ونظر في دنياه إلى من هو فوقه فأسف على ما فاته منه لم يكتبه الله شاكرا ولا صابرا» [٤٠٣]

لقد كان نوح عليه السلام عبداً كثير الشكر. ولهذا تحدث اللَّه عن صفته هذه لتكون مثالاً لكل البشرية أمام النعم الإلهية فقال اللّه تعالى: ﴿...**إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا**﴾ [٤٠٤]

لقد كان نوح عليه السلام في حالة شكر دائم لله ﷻ.

يقول محمد بن كعب القرظي:

«إن نوحا عليه السلام كان إذا أكل قال: الحمد لله، وإذا شرب قال: الحمد لله، وإذا لبس قال: الحمد لله، وإذا ركب قال: الحمد لله؛ فسماه الله عبدا شكورا» [٤٠٥]

---

٤٠٣. الترمذي، القيامة، ٥٨/ ٢٥١٢.

٤٠٤. الإسراء: ٣.

٤٠٥. أحمد ابن حنبل، الزهد، ٤٥/ ٢٨١.

إن الشكر هو العبادة الخالصة من العبد لربه يؤديها بمختلف تصرفاته وأقواله على ما أنعم اللَّه به عليه من خيرات ونعم. أي أن الشكر هو أن تعرف صاحب النعمة الحقيقي.

يقول السرّي السّقطي -رحمه اللَّه-:

«إذا اكتسب أحدهم نعمة ولم يُوفِ شكرها حرم من هذه النعمة!»

وتصديقاً لهذا القول يؤكد اللّه تعالى على هذا المعنى بقوله:

﴿...لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ [٤٠٦]

من أوصاف نوح عليه السلام:

١. كان من أهل الخدمة.

٢. ركوبه البحر واستفادته من البحر.

٣. كان عبداً شاكراً وصابراً.

٤. كان كثير الاستغفار.

لقد استمرت نبوة نوح عليه السلام تسعمائةٍ وخمسين سنةً ومن ثم وكغيره من البشر، سلم هذا النبي العظيم روحه لربه.

عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو، قَالَ: كُنَّا عِنْدَ رَسُولِ اللهِ ﷺ قَالَ:

«إن نبي الله نوحا ﷺ لما حضرته الوفاة قال لابنه: إني قاص عليك الوصية: آمرك باثنتين، وأنهاك عن اثنتين، آمرك بلا إله إلا الله، فإن السموات السبع، والأرضين السبع، لو وضعت في كفة، ووضعت لا إله إلا الله في كفة، رجحت بهن لا إله إلا الله، ولو أن السموات السبع، والأرضين السبع، كن حلقة مبهمة، قصمتهن لا إله إلا الله، وسبحان الله وبحمده، فإنها صلاة كل شيء، وبها يرزق الخلق، وأنهاك عن الشرك والكبر. [٤٠٧] فإن استطعت أن تلقى الله ﷻ وليس في قلبك شيء من شرك، ولا كبر فافعل» [٤٠٨]

٤٠٦. إبراهيم: ٧.

٤٠٧. أحمد، مسند، ٢، ١٧٠/ ٦٥٨٣ .

٤٠٨. أحمد ابن حنبل، الزهد، ٤٥/ ٢٨٢.

حدثنا موسى يعني ابن علي قال: سمعت أبي يقول: بلغني أن نوحا عليه السلام قال لابنه سام:

«يا بني، لا تدخلن القبر وفي قلبك مثقال ذرة من الشرك بالله؛ فإنه من يأت الله مشركا فلا حجة له، ويا بني، لا تدخلن القبر وفي قلبك مثقال ذرة من الكبر؛ فإن الكبرياء رداء الله عز وجل، فمن ينازع الله رداءه يغضب عليه، ويا بني، لا تدخلن القبر وفي قلبك مثقال ذرة من القنط؛ فإنه لا يقنط من رحمة الله إلا ضال» [٤٠٩]

ولما حضرت نوحا الوفاة قيل له: كيف رأيت الدنيا؟ قال: كبيت له بابان دخلت من أحدهما وخرجت من الآخر. وأوصى إلى ابنه سام، وكان أكبر ولده. [٤١٠]

عن عبد الله بن المبارك، عن وهيب، قال:

«بنى نوح عليه السلام بيتا من قصب، فقيل له: لو بنيت غير هذا، فقال: هذا لمن يموت كثير» [٤١١]

ومع نوح الذي تحمل عذاب قومه وكفرهم وشركهم وظلمهم تسعمائةٍ وخمسين سنةً كاملة، فإنه أصبح خير مثال لمن أتى بعده من الأنبياء والأمم بما أظهره من مشهد رائع في التحمل. وهكذا، فإن أجمل ميراث تركه نبي اللَّه نوح عليه والسلام هو «الصبر». عليه السلام...

٤٠٩. أحمد ابن حنبل، الزهد، ٤٦/ ٢٨٣.
٤١٠. ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ١، ٦٧.
٤١١. أبو نعيم، حلية الأولياء، ٨، ١٤٥.

الخزر
شرق
شمال
جنوب
غرب
سيدنا نوح عليه السلام
ديار فارس
همدان
نهواد
البحرين
العراق
بغداد
أور
بابل
نينوى
الموصل
الجزيرة العربية
أرمينيا
دجلة
فرات
أرزوروم
ديار بكر
حلب
دمشق
اللاذقية
البحر الأبيض
إيلات

الصبر:

الصبر هو المحافظة على الإعتدال، والقدرة على التحمل، ومقاومة الألم، وسعة الصدر، ومقاومة الأزمات والمشقات بهدوء وروِيَّةٍ، والثبات في طريق العقل والدين. وموقع الصبر مهم جداً في ديننا لأنه يجمع في طياته كافة الأخلاق الحميدة. فالصبر هو الوصف الأخلاقي الذي يؤمن المرضاة الإلهية.

وبحسب الدين والأخلاق، فإن الصبر هو التسليم للخالق والهدوء أمام الحوادث والمشقات وكل ما لا يعجب المرء، دون الخروج عن الموازنة المطلوبة.

ويتحدث الإمام النووي بهذا الشأن فيقول:

«الصبر هو إجبار النفس على فعل ما أمرت به. وهو ما يتحقّق بتحمل مشقة العبادة، والبلاء وكل ما عدا المعصية»

ولكي نصبر أمام الحوادث المختلفة، يجب علينا أن نستخدم الصفات الروحانية من المزايا الأخلاقية كالعفو والحلم والتواضع والعفة والقناعة والرحمة والشفقة والإحترام والمسامحة.

والصبر هو نواة الأخلاق الحميدة. وهو نصف الإيمان ومفتاح الرفاهية والسعادة. وهو فضيلة كبرى توصل إلى نعم الجنة. ولهذا فإننا نجد أن الرسل جميعهم ومعهم الأنبياء والأولياء والعلماء اتخذوا الصبر وظيفة لهم لما فيه في كافة أنواع الخير والربح العظيم.

ويتحدث القرآن الكريم عن الصبر في أكثر من سبعين موقعاً مختلفاً. وتوصي مختلف هذه الآيات الكريمة نبينا ورسولنا ﷺ وأمته كافة بالصبر.

ومن هذه الآيات قوله ﷻ:

﴿وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ﴾ [٤١٢]

﴿ وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ﴾ [٤١٣]

﴿...وَاصْبِرْ حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ...﴾ [٤١٤]

﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ...﴾ [٤١٥]

وحياة الرسل والأنبياء مليئة بنماذج الصبر الرائعة أمام ما تعرضوا إليه من أزمات خلال دعوتهم إلى التوحيد. لقد صبر نوح عليه السلام تسعمائةٍ وخمسين عاماً أمام مختلف أنواع الضرب والإستهزاء. كما أوصى موسى قومه من بني إسرائيل بالصبر فقال:

﴿...اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا...﴾ [٤١٦]

وصبر أيوب عليه السلام أيضاً أمام كل ما تعرض له من ابتلاءات ومصائب بشكل جعل اللَّه تعالى يصف صبره في القرآن الكريم فيقول:

﴿...إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ [٤١٧]

وتتحدث الآية الكريمة عن وصية لقمان عليه السلام لولده فيقول الحق عز وجل:

﴿يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ [٤١٨]

كما صبر سيدنا محمد ﷺ كثيراً أمام الظلم والإهانة وبخاصة تلك التي كانت من أهل مكة والطائف إلى أن شرف اللَّه هؤلاء الناس بالإيمان.

ومن خلال الصبر نال الأنبياء والأولياء العون من اللَّه. ولهذا يجب عليهم أن يكونوا شخصيات نموذجية نتخذ منهم أمثلة في حياتنا. وطرف الصبر في الدنيا مؤلم

٤١٢. النحل: ١٢٧ .
٤١٣. الطور: ٤٨ .
٤١٤. يونس: ١٠٩ .
٤١٥. الكهف: ٢٨.
٤١٦. الأعراف: ١٢٨.
٤١٧. ص: ٤٤.
٤١٨. لقمان: ١٧.

وطرفه في الآخرة جميل جداً. ومن يعش آلام الصبر في الدنيا يَنَلْ رضى اللَّه وجنته في الدولة الأبدية.

ونحن، يجب علينا أن نمنع النفس عما تطلبه وتشتهيه من المحرمات. بل، ومهما كان ذلك صعباً وثقيلاً، نحن مكلفون بالصبر والتحمل. ونحن مجبرون على الصبر والوفاء بأوامر اللَّه تعالى مهما تغيرت صعوبة هذه الأوامر.

يخبر رسول اللَّه ﷺ عن أنواع الصبر وفضائله فيقول:

«الصبر ثلاثة: فصبر على المعصية وصبر على الطاعة وصبر عن المعصية فمن صبر على المصيبة حتى يردها بحسن عزائها كتب الله له ثلاثمائة درجة ما بين الدرجتين كما بين السماء والأرض ومن صبر على الطاعة كتب الله له ستمائة درجة ما بين الدرجتين كما بين تخوم الأرض إلى منتهى الأرضين السبع ومن صبر عن المعصية كتب الله له تسعمائة درجة ما بين الدرجتين كما بين تخوم الأرض إلى منتهى العرش مرتين» [٤١٩]

ومما لا شك فيه أن الإعتقاد بأن أوامر اللَّه ﷻ ونواهيه هي مصدر للنعمة والحكمة والمكافأة الإلهية هو أمر يهون علينا الصبر. في كثير من الأحيان لا يكون في وسعنا إلا تحمل الكوارث الطبيعية وحملها فوق ظهورنا. واللَّه تعالى هو علاج كل عجز. والشكوى والعويل والتذمر ليست إلا من الخسران فقط. ولهذا، فإن من التعقل أن نعتقد بوجوب الصبر أمام كل ما نتعرض له من حوادث فنلجأ إلى اللَّه ونصبر، وأن نؤمن بأن كل شيء هو من عنده، وأن ندرك بأنه امتحان منه، وننتظر مكافأته.

ولا يمكن للإنسان في دنيا الإمتحان هذه أن يحصل على كل ما يريد. وأن نقول أمام ما لا تصل إليه «لعل فيه خيراً» أو «عدم حصوله خير لنا» هو أجمل ما يليق بالعبادة وأفضل حال يؤمن لنا الدرجات المعنوية.

والصبر ليس بالإكراه، بل هو تسليم العبد لقضاء ربه بكل رضى نفس. والصبر عند القوة عن الأخذ بالثأر هو من أجمل الفضائل.

وشرط الصبر الأساسي هو أن يكون عند حدوث المصيبة. أما الصبر الذي تأخر عن موعده فلا مكافأة كبيرة له.

---

٤١٩. السيوطي، الجامع الصغير، ٢، ٤٢/ ٧٩٧١؛ الديلمي، ٢، ٤١٦.

ومن هذا المنطلق، فإن أهم لحظات للصبر لمن فقد ولده أو أحد أقاربه هي صبره وتسليمه من اللحظة الأولى!.

عن أنس بن مالك ﷺ، قال:

مرَّ النبي ﷺ بامرأة تبكي عند قبر، فقال: «**اتقي الله واصبري**» قالت: إليك عني، فإنك لم تصب بمصيبتي، ولم تعرفه، فقيل لها: إنه النبي ﷺ، فأتت باب النبي ﷺ، فلم تجد عنده بوابين، فقالت: لم أعرفك، فقال: «**إنما الصبر عند الصدمة الأولى**» [٤٢٠]

❁

من أسماء اللَّه تعالى أيضاً «الصبور». أي أن اللَّه تعالى يمهل عباده ويصبر عليهم فيمدهم حتى الجاحدين منهم بالرزق. فلو أن اللَّه تعالى انتقم من المجرمين في الدنيا مباشرة كيف كان حال الدنيا؟.. يجب التفكر في ذلك!..

تقول الآية الكريمة:

﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى...﴾ [٤٢١]

وأجمل تجلٍّ واضح لاسم الجلالة «**الصبور**» هو انعكاس هذه الصفة الإلهية متجلية في الأنبياء والصالحين. ولهذا كان الصبر الذي هو أهم ما نحتاجه في أوقات الوفرة والضيق هو أجمل نماذج الأخلاق الثنية التي تنتقل إلينا منهم.

الصبر في الرخاء الوفرة؛

هو عدم الانجرار إلى الكبر والغرور، وعدم الأخذ بالثأر، وأن لا تغلب الشهوات، وهو الابتعاد عن البخل والإسراف، وعدم احتقار الفقراء، وعدم التبجح عند المعروف. لأن النفس أمارة بالسوء. ولهذا يجب الصبر عليها وعدم الانجرار إلى العواقب المؤلمة.

وحالُ إبراهيم عليه السلام هي خير نموذج للصبر عند المقدرة. فهو لم ينجر إلى أي شيءٍ في الدنيا، بل على العكس، اعتبر أن كل شيء في الدنيا هو أمانة لله ﷻ. ولهذا، وعلى

٤٢٠. البخاري، الجنائز، ٣٢/ ١٢٨٣.

٤٢١. فاطر: ٤٥ .

الرغم من أن اللَّه تعالى من عليه بالكثير من الإمكانات في الدنيا، إلا أنه آثر الصبر وابتعد عن هوى نفسه فنال وصف اللَّه له بـ «**الخليل**».

وكذلك الأمر، لم يغترَّ سليمان عليه السلام بما رزقه اللَّه تعالى في الدنيا من سلطنة، وجعلها بعيداً عن قلبه. فعن حكيم بن محمد الأحمسي قال:

«كان سليمان بن داود عليه السلام إذا أصبح تصفح وجوه الأغنياء والأشراف حتى يجيء إلى المساكين فيقعد معهم ويقول: يا رب مسكين مع مساكين» [٤٢٢] وكان بذلك يعيش أجمل حال من أحوال التواضع.

الصبر عند الضيق؛

وهو حماية النفس عن الصفات الدميمة كالشكوى والحسد وإفشاء السر، والغضب والعصبية والتنازع مع الأهل والأقارب. إذ يجب في هذه الحالات المماثلة أن يصبر المرء ويبتعد عن الأفعال السيئة وأفكارها. ولهذا، يجب الاستفادة وأخذ العبرة من أحوال الأنبياء والصالحين في حالات الوفرة والضيق والعمل على تقليدهم. ويوصي فخر الكائنات عليه الصلاة والسلام المؤمنين بالتوكل والتضرع للّه تعالى عند حالة الضيق والمصيبة وعدم الوقوع في اليأس والعصيان فيقول ﷺ:

«**ما من مسلم تصيبه مصيبة، فيقول ما أمره الله: {إنا لله وإنا إليه راجعون}** [البقرة: ١٥٦]، **اللهم أجرني في مصيبتي، وأخلف لي خيرا منها، إلا أخلف الله له خيرا منها**» [٤٢٣]

إننا مجبرون ومحكومون بالصبر بهدف الحصول على الرضى الإلهي وبهدف التخلص من الآفات القلبية في الوفرة والضيق. وكم هو جميل مثال أيوب عليه السلام للصبر في ساعة الضيق: فلما ابتلاه الله واشتد عليه البلاء قالت له امرأته: إنك رجل مجاب الدعوة فادع الله أن يشفيك. فقال:

«كنا في النعماء سبعين سنة فلنصبر في البلاء سبعين سنة، والله لئن شفاني الله لأجلدنك مائة جلدة». [٤٢٤]

---

٤٢٢. ابن أبي الدنيا، التواضع، رقم: ١٠٣.

٤٢٣. مسلم، الجنائز، ٣/ ٩١٨.

٤٢٤. ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ١، ١١٧.

وفي النتيجة، لقد نال أيوب عليه السلام، هذا النبي المتميز الخلق، نتيجة صبره الذي اشتهر على كل لسان وأعاده اللَّه إلى صحته وشبابه وملكه. ولمن يصبر برغم كل ما يمتلكه من إمكانات ووفرة يقال «الأغنياء الشاكرين». ولمن يتعلق قلبه باللَّه فيشكر اللَّه ولا يشتكي أبداً برغم قلة حاله وضعفه يقال «**الفقراء الصابرين**». وتوجد الكثير من أخبار المكافآت التي لا تُعدُّ ولا تُحْصَى لكل من الأغنياء الشاكرين والفقراء الصابرين.

❁

روي أن عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه، أتي بطعام وكان صائما، فقال: :

«قتل مصعب بن عمير وهو خير مني، كفن في بردة، إن غطي رأسه، بدت رجلاه، وإن غطي رجلاه بدا رأسه – وأراه قال: وقتل حمزة وهو خير مني – ثم بسط لنا من الدنيا ما بسط – أو قال: أعطينا من الدنيا ما أعطينا – وقد خشينا أن تكون حسناتنا عجلت لنا، ثم جعل يبكي حتى ترك الطعام» [٤٢٥]

ومن الصحابة المتميزين أيضاً كان أبو ذر الأنصاري رضي الله عنه شديد الفقر. ولكنه كان لا يتأخر عن الإنفاق، وكانت حياته مليئة بالشكر. وقد كان الرسول ﷺ يقول له:

«**يا أبا ذر إذا طبخت مرقة، فأكثر ماءها، وتعاهد جيرانك**» [٤٢٦]

ها هما نموذجان لحالة القلب ممن اغترف من صحبة رسول اللَّه ﷺ، أحدهما غني والآخر فقير وكلاهما صاحب ذكرى كبيرة في الصبر. فكلاهما في نفس الحالة الروحانية، مظهرين أجمل نماذج الصبر سعياً لكسب رضى اللَّه، وللحياة الإسلامية بإيمان حقيقي، كل من موقعه الذي هو عليه من الغنى أو الفقر. ونحن أيضاً، ولكي نتمكن من التوصل إلى هذه الأحاسيس، يجب علينا أن نتمسك بالذكر ومجالس العلم بكل ما آتانا اللَّه من قوة!...

يقول الحق تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا...﴾ [٤٢٧]

٤٢٥. البخاري، الجنائز، ٢٧/ ١٢٧٥.
٤٢٦. مسلم، البر، ١٤٢/ ٢٦٢٥.
٤٢٧. آل عمران: ٢٠٠

ويقول الحق سبحانه وتعالى أيضاً:

﴿وَالْعَصْرِ. إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ. إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ [٤٢٨]

ولكن، قبل أن نتمكن من دعوة الناس للكلمة الحق والصبر، يجب علينا أن نطبق هذه الأمور على أنفسنا أولاً.

أسال اللَّه تعالى أن يرزقنا حلاوة الصبر! وأن يرزقنا نصيبنا من صبر الأنبياء والأولياء وسعة صدرهم، وأن يحفظنا من البلاء فلا نضعف فيه!... آمين!...

٤٢٨. العصر: ١-٣.

سيدنا
هود
عليه السلام

سيدنا هود عليه السلام
نبي قوم عاد الذين عاقبهم اللَّه بالريح فجعل اللَّه عاليها سافِلها

هود عليه السلام هو من نسل سام. أرسله اللَّه تعالى إلى قوم عاد.

وهود؛ هي من كلمة «هوادة» أي النعومة، والهدوء والصلح والسكينة. ومن أسماء هود عليه السلام أيضاً: العابر، ولقبه نبي اللَّه.

ولقد ولد هود عليه السلام في ديار الأحقاف وترعرع فيها. وكان نسبه شريفاً في قوم عاد. وكان قبل النبوة يعمل في التجارة. متوسط الطول، أسمر البشرة، كثيف الشعر، وجميل الوجه. وكان يشبه آدم عليه السلام.[٤٢٩] وكان مدمناً على العبادة تقياً وزاهداً. كريماً ورحيماً. وكان كريماً في عطائه للمحتاجين.

قوم عاد

ذكر القرآن الكريم قوم عاد في كل من سورة الأعراف، هود، المؤمنون، الشعراء، فصلت، الأحقاف، الذاريات، القمر، الحاقة والفجر.

وقوم عاد هم مجموعة من ثلاثة وعشرين قبيلة من العرب. وعاد الذي سمي هذا القوم على اسمه هو من أحفاد نوح عليه السلام. ويعتقد بأن حياتهم كانت بعد نوح عليه السلام بحوالي ثمانمائة سنة تقريباً.

ويقال بأن ديار الأحقاف التي رأى فيها قوم عاد مصرعهم وهلاكهم التي أصبحت عبرة للبشرية كافة، هي في المنطقة الواقعة بين اليمن وعدن وعمان. وكان قوم عاد هم أول الذين سكنوا شبه الجزيرة العربية التي كانت تسمى بعرب العاربة. وكان هذا القوم يمتلكون أراض غنية بالعشب والماء ومختلف أنواع النعم والكروم والحدائق. ينابيع متدفقة على وجه الأرض، وكروم وحدائق وماشية مختلفة الأنواع، ومن تحت الأرض أيضاً خزائن المياه المختلفة والقصور. بل إن منطقة الأحقاف كانت تعرف باسم «**إرم**».

٤٢٩. انظر: الحاكم، المستدرك، ٢، ٦١٤-٦١٦

والتسمية المشهورة «حدائق إرم» تأتي من هذا الاسم. وكان الناس في هذا القوم أقوياء أشداء، ضخام في الجسم، طوال في البنيان والعمر. وكان قوم عاد ينحتون الجبال فيحفرون منها بيوتاً لهم، وينشِؤن الأبنية المبهرة المشهد. وكانت هذه البيوت تحتوي على الكروم والحدائق والخزانات الجميلة. وكان كل مكان رائع التصميم والجمال.

وكان قوم عاد هم أول قوم عادوا إلى الوثنية بعد طوفان نوح عليه السلام. وبسبب انغماس هذا القوم في نعم الدنيا مع مرور الزمن، غفلوا عن ربهم وابتعدوا عن دينهم بانتشار الفساد والفتنة. وغرقوا في الدنيا بعيداً عن التفكير بحكمة ورعب طوفان نوح. واغتروا بوفرة نعم الدنيا. فأصابهم الكبر والتباهي. يخبرنا اللَّه تعالى عنهم فيقول:

﴿فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ [٤٣٠]

ولشدة ما ابتعدوا به عن الإستقامة الإلهية، بدأ قوم عاد بعبادة أصنام لهم سميت صمد وصمود وصدا وهبا. وأصبحوا ظالمين غادرين. فكانوا يسحقون الضعفاء والمساكين. وكانوا يأخذون المساكين ويصعدون بهم إلى أعالي الأبنية ويرمُونَهُم منها إلى الأسفل. ومن ثم كانوا ينظرون إلى أجسامهم المحطمة ويتمتعون بذلك. أي أن قلوبهم تحجرت إلى هذه الدرجة. وازداد الظلم بشكل لا يمكن للعقل تصوره. فكانوا يغيرون على القبائل الضعيفة ويستولون على بضائعهم. ووصلوا في ترفهم وتباهيهم إلى أبعد الحدود. فكان أول قوم هلكوا بعد طوفان نوح عليه السلام هم عاد قوم هود عليه السلام.

ولكن علاقة هود عليه السلام بهذا القوم لم تكن إلا مجرد رابطته النسبية. أما معيشته فكانت مختلفة تماماً عنهم. فلقد كان ابن عائلة عريقة وطاهرة

وأمام ضلال قوم عاد وتماديهم في المعصية وازدياد فسادهم مع مرور الزمن، أوحى اللَّه إلى هود عليه السلام يقول له:

«يا هود! لقد اخترتك من بين قومك. اذهب إليهم؛ ولا تخف منهم! وسأريهم آياتي لأجلك...»

---

٤٣٠. فصلت: ١٥.

وبعد أن جاءه الوحي، ذهب سيدنا هود عليه السلام إلى مكان اجتماع قومه. وكان ملكهم هلجان يجلس على عرش من الذهب. وبدأ سيدنا هود عليه السلام خطابه إليهم بصوت كث «حزين» فقال لهم:

- يا قوم اعبدوا اللَّه وحده ولا تشركوا به! وتذكروا قوم نوح، لقد هلكوا لنفس السبب!.

وتقص علينا الآيات الكريمة دعوة هود عليه السلام بقوله تعالى:

﴿وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ﴾ [٤٣١]

غضب هلجان وقال:

- عار عليك يا هود! أتعتقد بأنك ستغلبنا ونحن على ما نحن عليه من القوة والجمع؟ ألا تعلم أنك فرد واحد! أم أنك لا تعلم أنه يولد لنا في اليوم الواحد ألف طفل!

وهكذا، نجد أن هلجان وقوم عاد اغتروا بالمال والولد واحتقروا أمر هود عليه السلام ولم يؤمنوا معه. وتذكر الآيات الكريمة هذه القصة فتقول:

﴿وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ. قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ. قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [٤٣٢]

وتذكر سورة هود أحداث اعتراض قوم هود وإنكارهم لهود عليه السلام فتقول:

﴿قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ. إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ﴾ [٤٣٣]

٤٣١. هود: ٥٢ .
٤٣٢. الأعراف : ٦٥-٦٧ .
٤٣٣. هود: ٥٣- ٥٤.

ولم يكن جواب قوم عاد إلى هود عليه السلام بطريقة اعتراضهم بمختلف عن جواب بقية الأقوام إلى رسلها. بل كانت كما هو الحال من اعتراض للمنكرين في أيامنا. وكانت هذه الإعتراضات كما هو الحال دائماً هي من أشراف القوم بشكل خاص. وأهم أسباب هذه الإعتراضات هو الأسباب الدنيوية ومنافعها بالنسبة لهؤلاء الناس. ويمكن تحديد اعتراضات قوم هود عليه السلام ضمن هذه المواد والعناوين التالية:

١. اتهامهم هود عليه السلام بالضلالة والجهل لقلة حظهم وجحودهم، حيث تتحدث الآيات الكريمة عن ذلك بقوله تعالى:

﴿...إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ [٤٣٤]

﴿...إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ [٤٣٥]

٢. توجههم إليه بعصبيتهم الكبيرة التي جعلتهم بعتقدون بأن أفضل الطرق هو الدين الذي سلكه أجدادهم. وتروي الآية القرآنية هذا الأمر فتقول:

﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا...﴾ [٤٣٦]

٣. اعتقادهم بأنهم أقوياء وأشداء فلا يمكن لهود عليه السلام أن يضرهم بشيء. تقول الآية الكريمة:

﴿فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً...﴾ [٤٣٧]

٤. إنكارهم للآخرة وادعاؤهم بأن الحياة ليست إلا الحياة الدنيا فحسب. ويخبرنا اللَّه سبحانه وتعالى عن غفلتهم وجهالتهم هذه في الآية الكريمة فيقول:

﴿إِنْ هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ [٤٣٨]

٥. تحقيرهم لهود عليه السلام وللمؤمنين واستهزاؤهم بهم.

---

٤٣٤. الأعراف: ٦٠.
٤٣٥. الأعراف: ٦٦.
٤٣٦. الأعراف: ٧٠.
٤٣٧. فصلت: ١٥.
٤٣٨. المؤمنون: ٣٧.

تقول الآية الكريمة:

﴿وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِلِقَاءِ الْآخِرَةِ وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ. وَلَئِنْ أَطَعْتُمْ بَشَرًا مِثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَخَاسِرُونَ﴾ [٤٣٩]

تحذيرات إلهية مليئة بالعبر

حزن هود عليه السلام كثيراً لما وجده من تصرفات قومه. ورفع يده إلى السماء ملتجئاً إلى رب العزة والجلالة. فأصبحت نساؤهم عواقر لا تنجب الأطفال. واستمر هذا الحال عشر سنوات كاملة. فأتوا هود عليه السلام مكرهين. ولكنهم كانوا لا يزالون على غفلتهم. وعلى الرغم مما شهدوه من معجزة إلهية واضحة إلا أنهم قالوا: أرنا معجزة !.

ومن ثم وبحسب ما ترويه لنا سورة الأحقاف في الآية ٢٢ منها، تمادوا في غيهم وتأنيبهم واستهزائهم فقالوا:

﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ آلِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [٤٤٠]

وأمام ما كان منهم، أمر اللَّه تعالى الينابيع فجفت، فاصفرت الحدائق والكروم. وأصبحت «كروم إرم» تلك الكروم الجميلة وكأنها لم تكن. وأصبح الناس ضخام الجثث يبحثون عن اللقمة الواحدة.

وجمعهم هود عليه السلام مرة أخرى. وتوجه إليهم بالوعظ مرة أخرى:«استغفروا اللَّه!» ومن ثم توجه إليهم بالتحذير الشديد لما هم عليه من إصرار على الكفر والضلال، فقال:

﴿قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ. مِنْ دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنْظِرُونِ. إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [٤٤١]

٤٣٩. المؤمنون: ٣٣-٣٤.
٤٤٠. الأحقاف: ٢٢.
٤٤١. هود: ٥٤- ٥٦.

﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُ شَيْئًا إِنَّ رَبِّي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ﴾ [٤٤٢]

وكما تشاهدون في هذه الآيات الكريمة، توجه هود عليه السلام إلى قومه بتهديد واضح وشديد إلى المشركين من قومه، فهو يقول لهم:

«اجتمعوا جميعاً وحاولوا ما استطعتم وبكل ما أوتيتم من قوة للقضاء علي. بل ولا تنتظروا لتنفيذ ذلك أبداً أن تفتحوا عيونكم وتغلقوها. تأكدوا أنني لن آبه بكم، ولن أفكر فيما يمكن أن تفعلوه بي، ولا أنظر إليكم أبداً. لأنني أتوكل على اللَّه وحده. وأستند إليه وحده. ومن يتوكل عليه لا يضره أحد قط. لن أخشى أحداً سواه. فأنا لا أتوكل ولا أعبد إلا اللَّه وحده».

إن هذه الكلمات وحدها لهي خير دليل واضح على نبوة هود عليه السلام وعبوديته لله تعالى، وضلالة وجهل من أمامه. وأمام هذا القول، لم يتمكن أعداؤه من إلحاق الضرر به أبداً، ولم يتمكنوا من إبعاده عن دعوته. وهذا دليل آخر على صدق دعوته.

ولم تكن هذه التهديدات كافية لهداية قوم عاد. وعلى الرغم من كل ما تعرضوا له من شدة وأزمات، إلا أنهم لم يستغفروا اللَّه ﷻ، ولم يعودوا إلى اللَّه وعقيدة التوحيد. فكانوا بما رزقوا من غنى وثروة فاحشة في غفلة وضلال وشذوذ جعلهم يبتعدون عن العبادة لله. فاتباعهم للأنبياء في هذه الحالة سيكون سبباً في امتناعهم عن الكثير من المحرمات، وسيمتنعون عن التصرف بعيداً عن العدل، ولن يتمكنوا من أذية الضعيف. لأن دين التوحيد الذي هو دين الحق، هو دين يجلب معه عديداً من الموانع «الحدود».

ولكن من تعود من الناس على المعيشة بناءً لهوى نفسه، فإنه لن يرغب في الدخول ضمن نطاق هذه الحدود. بل سيرغب بالاستمرار في الحياة في غفلة وضمن حدود راحة نفسه.

---

٤٤٢. هود: ٥٧.

الريح التي قلبت عاليها سافلها

وبناءً عليه، منع اللَّه تعالى عنهم المطر ثلاث سنوات متتالية. فأرسلوا إلى مكة هيئة طلباً للمطر. وبعد ذلك بفترة قصيرة بدأت الغيوم بالظهور. وعندما رأى قوم عاد الغيوم تغطي السماء من أولها إلى آخرها فرحوا وقالوا: «ها قد أتى المطر!». ولكنها كانت غيوم العذاب. وخاطبهم هود للمرة الأخيرة قائلاً: «آمنوا!» وهو يدعوهم منذراً لهم ليتجنبوا ذلك العذاب. ولكنهم وفي غفلة تامة أصروا مرة أخرى على غيهم فقالوا: «كلا، بل هي الغيوم التي تسبق المطر!»

وهكذا، تصرفوا أمام آخر إنذار رباني بصمم وعميان. وأخيراً، أحاط الملائكة المكلفون هؤلاء القوم بهذا الوابل الكثيف من الغيوم. وبدأت العواصف تشتد مع صباح يوم الأربعاء. وكانت قوة هذه العواصف شديدة لدرجة تتمكن فيها من اقتلاع الشجر من جذورها.

ومازالت هذه العواصف تشتد ويزداد صفيرها وبرودتها. يروي القرآن الكريم فيقول:

﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَحِسَاتٍ لِنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَى وَهُمْ لَا يُنْصَرُونَ﴾ [٤٤٣]

﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ﴾ [٤٤٤]

﴿وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ. مَا تَذَرُ مِنْ شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ﴾ [٤٤٥]

وبدأ الناس مع شدة هذه العواصف بالتطاير في الهواء مثل العصافير. وحاولوا تثبيت أنفسهم عبر ربط ألبستهم ببعضها البعض، في محاولة لتشكيل حلقة من أجسادهم تقيهم التطاير من شدة الريح، ولكن ذلك لم يكن كافياً أيضاً. وعند رؤية بعضهم للإبل وضخام

٤٤٣. فصلت: ١٦.
٤٤٤. القمر: ١٩.
٤٤٥. الذاريات: ٤١-٤٢.

الناس يتطايرون في الهواء ركضوا إلى بيوتهم يتحامون فيها. ولكن نفس العاقبة كانت تلاحقهم. فكانت الريح تلتقطهم من البيوت وترمي بهم مثل القمامة إلى الخارج. ويصور القرآن الكريم هذه الحالة فيقول:

﴿تَنْزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ﴾ [٤٤٦]

ويأمر اللَّه تعالى الريح بأن تلقي قمم التراب عليهم. واستمرت هذه الحال سبعة ليال وثمانية أيام. فكانت العاقبة المؤلمة نصيب هذه الأمة الجائرة. يتحدث القرآن الكريم عن هلاك قوم عاد في الآيات الكريمة فيقول:

﴿سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ. فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ﴾ [٤٤٧]

﴿...وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [٤٤٨]

﴿وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ. وَأُتْبِعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِعَادٍ قَوْمِ هُودٍ﴾ [٤٤٩]

ومع حلول موعد هذه العواصف، نَجّى اللَّه ﷻ برحمته وعنايته هوداً عليه السلام ومن كان على عقيدة الإيمان من قومه. ونزل العذاب على العاصين منهم. تقول الآية الكريمة:

﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَنَجَّيْنَاهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ [٤٥٠]

ويتحدث علماء التفسير عن قوله تعالى «ونجيناهم برحمة منّا» فيقولون:

«لقد حفظ اللَّه تعالى ونَجّى هوداً عليه السلام ومن تبعه من المؤمنين بمقتضى رحمته. ونفهم من هذا الأمر أن ما يمن اللَّه به على عباده من النعم واللطف، لا يكون أبداً نتيجة ما يقومون به من أعمال، وإنما هو إحسان تسببه الرحمة الإلهية».

---

٤٤٦. القمر: ٢٠.
٤٤٧. الحاقة: ٧-٨.
٤٤٨. الأعراف: ٧٢.
٤٤٩. هود: ٥٩-٦٠.
٤٥٠. هود: ٥٨.

عن عائشة رضي الله عنها، زوج النبي ﷺ، أنها قالت: كان النبي ﷺ إذا عصفت الريح، قال:

«اللهم إني أسألك خيرها، وخير ما فيها، وخير ما أرسلت به، وأعوذ بك من شرها، وشر ما فيها، وشر ما أرسلت به»

قالت: وإذا تخيلت السماء، تغير لونه، وخرج ودخل، وأقبل وأدبر، فإذا مطرت، سري عنه، فعرفت ذلك في وجهه، قالت عائشة رضي الله عنها: فسألته، فقال:

«لعله، يا عائشة كما قال قوم عاد: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُمْطِرُنَا﴾ [٤٥١]**»** [٤٥٢]

كذلك الأمر، عن أم المؤمنين سيدتنا عائشة رضي الله عنها قالت:

كان رسول اللَّه ﷺ إذا رأى الريح اشتدت قال:

«اللهم إني أسألك خيرها، وخير ما فيها، وخير ما أرسلت به، وأعوذ بك من شرها، وشر ما فيها، وشر ما أرسلت به» [٤٥٣]

لقد كان رسول اللَّه ﷺ على هذا الشكل من التيقظ وأراد لأمته أيضاً أن تكون على هذه الحالة الروحية.

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال:

لما مر رسول الله ﷺ بوادي عسفان حين حج، قال: **«يا أبا بكر، أي واد هذا؟»** قال: وادي عسفان، قال:

«لقد مر به هود، وصالح على بكرات حمر خطمها الليف، أزرهم العباء، وأرديتهم النمار، يلبون يحجون البيت العتيق» [٤٥٤]

وبعد أن أهلك اللَّه تعالى قوم عاد، انتقل هود عليه السلام ومن تبعه من المؤمنين إلى مكة، وبقي فيها إلى أن توفي هناك.

---

٤٥١. الأحقاف: ٢٤ .

٤٥٢. البخاري، التفسير، ٤٦/ ٢؛ مسلم، الإستسقاء، ١٤-١٦.

٤٥٣. مسلم، الاستسقاء، ١٥/ ٨٩٩.

٤٥٤. أحمد، مسند، ٣، ٤٩٥/ ٢٠٦٧.

معجزات هود عليه السلام

١- كان يوجه الريح بإذن اللَّه إلى الاتجاه الذي يريد.

يتوجه هود عليه السلام إلى قومه عند طلبهم للمعجزة فيسأل:

«ما هي المعجزة التي تريدون؟»

فأجابوه بأن يوجه الريح إلى الإتجاه الذي يطلبونه. فوجه هود عليه السلام الريح إلى الإتجاه الذي طلب منه.

ولكم هي من حكمة إلهية أن يعذب اللَّه قوم عاد في نهاية الأمر مستخدماً الريح التي رأى هذا القوم معجزة اللَّه فيها ولم يؤمنوا به. ويصف القرآن الكريم هذه الريح بقوله تعالى «ريح صرصر» أي الإعصار الشديد المصحوب بشدة الضجيج.

٢- حول الصوف إلى حبال غليظة. وجعلها بحالة من اللمعان.

٣- أثناء المطر الشديد كان الناس لا يتمكنون من السفر. فدَعا هود عليه السلام ربه فتشكلت على الطرقات ستائر أو حواجز. فكان الناس ينتظرون في هذه الملاجئ إلى أن يهدأ المطر.

❁

إن ذكر القرآن الكريم لقصص الأنبياء والأقوام السابقين هي لكي يتمكن المؤمنون من أخذ العبر منها. فكل موقف من مواقف الأنبياء السابقين هو طريق يجب على المؤمنين سلوكها. وعند نظرنا إلى قصة هود عليه السلام من هذه الزاوية فإننا سنجد العديد من التصرفات النموذجية فيها:

فهود عليه السلام هو رجل وقور تمسك بكل صدق بالطريق الربانية. فكان يزن كلامه قبل أن ينطق به. فعندما كان يصفه قومه بأن لا عقل له، كان يكتفي بأن يثبت لهم أنه كامل العقل، وأنه أرسل سفيراً من اللَّه تعالى إليهم. فكان لا يرد الإساءة بمثلها، بل على العكس من ذلك كان رقيقاً معهم في التعامل. فكان يذكرهم بنعم اللَّه تعالى عليهم، وبأن من الواجب عليهم الشكر لله تعالى على كل ذلك بعبادته وإطاعة أوامره. وكان يؤكد أنه لا يبتغي من ذلك أي أجر أبداً.

عليه السلام!

سيدنا هود عليه السلام
المحيط الهندي
الخليج العربي
فرات
الجزيرة العربية
نجد
المدينة المنورة
مكة المكرمة
جدة
البحر الأحمر
أحقاف
قبر هود عليه السلام
حضرموت
خليج عدن
عدن
صنعاء
اليمن
البحر الميت
إيلات
مدين
حبان
البحر الأبيض
مصر

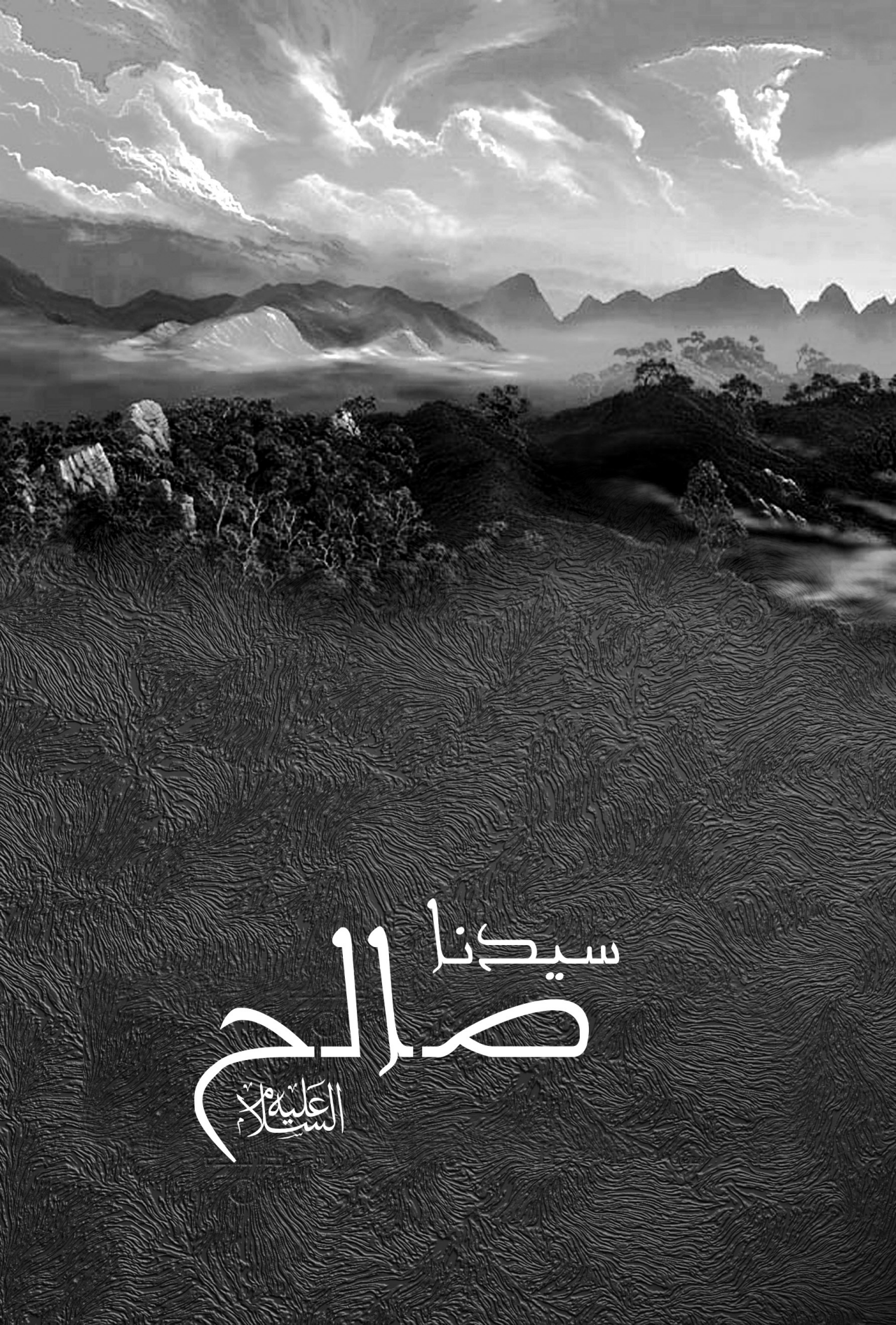
سيدنا
صالح
عليه السلام

سيدنا صالح عليه السلام
نبي قوم ثمود الذين زلزلوا من أصولهم
بسبب رغباتهم وشذوذهم

هو حفيد آدم عليه السلام من النسل التاسع عشر. وصالح عليه السلام هو نبي اللَّه الذي أرسل إلى قوم ثمود.

قال مُقاتل: «في المسجد الحرام بين زمزم والركن قبر سبعين نبيا، منهم هود، وصالح، وإسماعيل، وقبر آدم، وإبراهيم، وإسحاق، ويعقوب، ويوسف، في بيت المقدس»[٤٥٥]

قوم ثمود

إن قوم ثمود هم من خلال قصة هلاكهم قوم يذكرون على كل لسان. ويتحدث القرآن الكريم عن هذا القوم بعبرة في الكثير من المواقع والآيات والسور فيخبر بأنهم أهلكوا لما كانوا عليه من تلذذ لا حدود له وبعد عن الإيمان.

وهؤلاء القوم هم قوم ثمود الذي يصل بنسبه إلى سام ولد نوح عليه السلام. بعد وفاة سيدنا هود عليه السلام، توجه أحفاد ثمود إلى شمال شبه الجزيرة العربية، وتمركزوا في موقع الحجر في المنطقة ما بين الشام والحجاز. ومن ثم انتقلوا من ذلك المكان ليسكنوا في منطقة قوم عاد. وتكاثر نسل ثمود إلى أن أصبحوا أمة قائمة بذاتها. وكان يطلق عليهم اسم «**عاد الثانية**».

وحصل قوم ثمود مع مرور الزمن على نفس النعم التي حصل عليها قوم عاد في السابق. ولكنهم كما كان الحال في قوم عاد وقعوا في الغفلة والضلالة. وعللوا هلاك قوم عاد بسبب ما أصبحوا عليه من الجحود بأنه كان لأسباب أخرى غير العقاب الإلهي فقالوا:

«لقد هلك قوم عاد لأنهم لم يبنوا لأنفسهم البيوت المتينة. وكانت بيوتهم مبنية على الرمال. أما نحن فأنشأنا بيوتنا على الصخور. ولهذا لن تضر بنا الرياح القادمة...».

٤٥٥. الأزرقي، أخبار مكة، ١، ٧٣.

وأنشـأوا لأنفسهم القصور والفلل. ونحتوا الحجارة وأعطوها أشكالاً جديدة. وزينوا قصورهم وفللهم بأشكال مختلفة. فنسوا دين التوحيد وجعلوا من أنفسهم شركاء للّه، وجعلوا مما عملت أيديهم أصناماً يعبدونها من دون اللّه. وكان سيد القوم هو «جُنْدَعُ بْنُ عَمْرٍو». ولم يتعظ قوم ثمود لما أصاب قوم عاد من عاقبة، فكان منهم أن استشاروا بعضهم البعض وطلبوا من قائدهم جُنْدَعُ بأن يجعل لهم صنماً لم يكن معبوداً من قبل أي من الأقوام السابقة. وفرح جُنْدَعُ لهذا الأمر. فصعدوا إلى صخرة كبيرة فحفروها. وجعلوا لها عينين وصدر ثور ورجل حصان وزينوها بمختلف أنواع الذهب والفضة والمجوهرات المختلفة، ومن ثم وقفوا أمامها وسجدوا لها.

ومن بعد هذا الصنم الجديد صنع قوم ثمود لأنفسهم معبداً للأصنام. وجعلوا لأنفسهم أصنام هي ود وجد وهد وشمس ومناف ومنات ولات، وبَدَؤُا بعبادة هذه الأصنام. وفي هذه الأثناء كان صالح عليه السلام في قومه. وكان يعمل في التجارة ويـأكل مما كسبت يداه. وكان صالح بالفعل إنساناً يليق به التعظيم والإحترام. وكان قومه يحبونه جداً لما يجدون فيه من الصدق والقابلية والإحسان. وكانوا ينتظرون منه في المستقبل أشياء كثيرة. بل وكانوا على نية بأن يجعلوه حاكماً عليهم. ولكن اللّه تعالى أعطى صالحاً عليه السلام النبوة.

بداية التبليغ

عندما بلغ صالح عليه السلام سن الأربعين، جاءه جبريل عليه السلام يبلغه النبوة. وفي بداية الأمر تردد صالح عليه السلام. فقال له جبريل عليه السلام:

«يا صالح! هيا ادع قومك إلى التوحيد!»

ومن ثم قال:«يا صالح! أنت ستشاهد أحوالاً لم تكن في زمان نوح وهود!» ومن ثم صعد إلى السماء.

وأمام هذا الموقف، ذهب صالح عليه السلام في بداية الأمر إلى سيد القوم جُنْدَعُ يدعوه إلى التوحيد. وقابل جُنْدَعُ هذه الدعوة بشكل منصف ومعقول وقال:«لأبلغن قومي بذلك». ومن ثم جمع جُنْدَعُ قومه وأبلغهم بنبوة صالح عليه السلام ودعوته للتوحيد.

فقال له قومه: «يا جُنْدَع، فلْيأْت هو ويخبرنا!». وبناءً عليه، أتى صالح عليه السلام قومه وأبلغهم رسالة ربه. ويقص اللّه سبحانه وتعالى علينا إرشاد صالح لقومه فيقول:

﴿وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ﴾ [٤٥٦]

وتروي سورة الشورى الأحداث المتعلقة بهذا الشأن فتقول في الآية الكريمة:

﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ. إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ. إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ. فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ. وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [٤٥٧]

وهكذا، وبعد أن بدأ صالح عليه السلام بدعوته في العلانية، تغير موقف قومه منه في آن واحد. وبدأ قومه يتجمعون في جبهة واحدة ضده.

وكما كانت الحال مع الأنبياء السابقين، لم يؤمن بدعوة صالح وعقيدته للتوحيد إلا قليل. أما من بقي منهم استمر بالإنكار:

﴿قَالُوا يَا صَالِحُ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا أَتَنْهَانَا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾ [٤٥٨]

﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَآتَانِي مِنْهُ رَحْمَةً فَمَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ﴾ [٤٥٩]

﴿قَالَ يَا قَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [٤٦٠]

وعلى الرغم من هذه النصائح المليئة بالحكمة والحقيقة التي قالها صالح عليه السلام، إلا أن قومه اتهموه ببهتانهم بأنه كاذب مسحور:

﴿قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ﴾ [٤٦١]

٤٥٦. هود: ٦١ .
٤٥٧. الشعراء: ١٤١-١٤٥ .
٤٥٨. هود: ٦٢.
٤٥٩. هود: ٦٣.
٤٦٠. النمل: ٤٦ .
٤٦١. الشعراء: ١٥٣.

ثم قالوا فيما بينهم:

﴿فَقَالُوا أَبَشَرًا مِنَّا وَاحِدًا نَتَّبِعُهُ إِنَّا إِذًا لَفِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ﴾ [٤٦٢]

ويكملون بقولهم:

﴿أَأُلْقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ﴾ [٤٦٣]

ويرد اللَّه تعالى على هذا الإتهام المحفوف بالجهل لقوم ثمود فيقول لهم مهدداً بشكل كبير:

﴿سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَنِ الْكَذَّابُ الْأَشِرُ﴾ [٤٦٤]

﴿قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ﴾ [٤٦٥]

❁

وصبر نبيُّ اللَّهِ صالحٌ ولم يصب باليأس. وعلى الرغم من كل شيء، فإنه استمر يدعو قومه محاولاً إبعادهم عما كانوا يعبدون من الأصنام. واستمر بنصحهم ووعظهم وتبليغهم فيقول:

﴿أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمِنِينَ. فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ. وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ. وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ. فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ. وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ. الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾ [٤٦٦]

وعندما أدرك قوم ثمود أنهم لن يتمكنوا من منع صالح، اقلعوا عن التعرض له. وبَدؤُا يحاولون بإقناع من تبعه من المؤمنين. وأرادوا أن يتركوا نبي اللَّه منفرداً. فكانوا يقولون لمن آمن منهم:

---

٤٦٢. القمر: ٢٤ .
٤٦٣. القمر: ٢٥.
٤٦٤. القمر: ٢٦.
٤٦٥. المؤمنون: ٤٠ .
٤٦٦. الشعراء: ١٤٦-١٥٢.

﴿...أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُرْسَلٌ مِنْ رَبِّهِ...﴾ [٤٦٧]

فكان من وصل إلى السعادة ممن آمن به بحق يقول:

﴿...إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ﴾ [٤٦٨]

وأمام هذا التصميم الذي يخلوا من أي نوع من أنواع الشك بدون أي قيد أو شرط، تفاجأ المنكرون من قوم ثمود وقالوا بتعجب:

﴿...إِنَّا بِالَّذِي آمَنْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾ [٤٦٩]

فكانوا بذلك مصرون على عدم الخروج من مستنقع الضلالة. فكان هؤلاء المنكرون يتهمون صالح بالسوء ويضيقون على قومه لحملهم على الإنكار.

وإضافة إلى إنكارهم للإيمان، عمد قوم ثمود إلى تبيين أسباب ذلك الرفض إلى صالح عليه السلام فقالوا:

-أ ن تريد أن تستولي على أموالنا، وأن تغصبها من بين أيدينا. وأنت تطمع بأن تكون رئيساً علينا!.

ومن ثم واستنتاجاً منهم عبر منطق بدائي قالوا:

- نحن لدينا أصنامنا. فهل نترك ما نرى ونشاهد لنعبد إلهك الذي لا نرى؟!.

وأكملوا يقولون:

- وبأي طريقة كلفك اللَّه الذي لم تراه؟!.

فإن كنت تقول الحقيقة، فافعل أمامنا ما لم يفعله قبلك أحد قط!»

﴿مَا أَنْتَ إِلاَّ بَشَرٌ مِثْلُنَا فَأْتِ بِآيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [٤٧٠]

---

٤٦٧. الأعراف: ٧٥.
٤٦٨. الأعراف: ٧٥.
٤٦٩. الأعراف: ٧٦.
٤٧٠. الشعراء: ١٥٤.

معجزة الناقة

حزن صالح عليه السلام حزناً شديداً أمام جهل قومه وغفلتهم. وقام لفترة من الزمن بتركهم والإبتعاد عنهم. وعندما عاد إليهم مرة أخرى، أظهر اللَّه تعالى صالحاً عليه السلام أمام قومه بهيبة النبوة. ففزع قومه من هيبته هذه.

وذهب صالح إلى سيد القوم جُنْدَعُ مرة أخرى. فقال له جُنْدَعُ:

- سنمتحنك إن كنت صادقاً!» وكانت هناك صخرة تسمى في ذلك الزمن «الكاتبة. وقصد جُنْدَعُ في كلامه تلك الصخرة فقال:

- سنذهب معك إلى هناك. وليخرج لنا ربك من هذه الصخرة ناقة أنثى على وشك الولادة حمراء الوبر! وليكن لون مولودها بنفس لون أمه!.

وأكمل قومه مُسْتَهْزِئين:

- وليكن حليبها بارداً في الصيف، ساخناً في الشتاء! وليشفى كل من شرب من هذا الحليب، وليتخلص كل فقير شرب من هذا الحليب من فقره!.

وكانت الناقة الحمراء بالنسبة لهذا القوم هي أثمن شيء عندهم. ولهذا فهم أرادوا من صالح عليه السلام أن يخرج لهم من هذه الصخرة ناقة حمراء اللون.

واجتمع جميع قوم ثمود. ووقف صالح يصلي. والتجأ إلى اللَّه تعالى. وابتدأت الصخرة بالنمو. وبدأت أصوات المخاض تتعالى. ومن ثم خرجت منها ناقة حمراء اللون وهي تقول:

- لا إله اِلاَّ اللَّهُ صالِحٌ نَبِيُّ اللَّه.

وقبَّلَ جُنْدَعُ صالحاً عليه السلام من جبينه. وآمن مع مئة آخرين من الناس. وخاطب قومه فقال لهم:

- يا قومي! كفى هذا العمى! إنني آمنت باللَّه الذي لا مثيل له ولا معبود غيره، وآمنت بصالح نبياً له!.

فقال رئيس معبد الأصنام:

- ما بك تؤمن بهذه السرعة لشيء من السحر! سأريكم ما هو أكبر من ذلك!.

وهكذا، استطاع أن يغير ما في قلوب من أراد أن يؤمن من الناس –ومن بينهم شقيق جُنْدَعُ نفسه–. وأخذ التاج من رأس جُنْدَعُ ووضعه على رأس أخيه وقال:

– من الآن وصاعداً أنت رئيسنا!.

أما جُنْدَعُ، فذهب إلى بيته وحطم سائر الأصنام فيه. وأخذ ماله وقسمه بين المؤمنين ممن قبل بعقيدة التوحيد. ولبس لباساً خشناً متموجاً. وبدأ يدعو الناس إلى التوحيد. وأصبح من أكثر الناس مساندة لصالح عليه السلام.

وقال عبدة الأصنام لجُنْدَعُ:

– عار عليك! أتومن أنت أيضاً لسحر صالح!.

ولكن جُنْدَعُ لم يكن يكترث لقولهم وكان لا يفارق صالحاً عليه السلام. ويقول اللَّه تعالى لصالح عليه السلام:

﴿إِنَّا مُرْسِلُوا النَّاقَةِ فِتْنَةً لَهُمْ فَارْتَقِبْهُمْ وَاصْطَبِرْ﴾ [٤٧١]

وامتثالاً للوحي الإلهي، وضع صالح عليه السلام قانوناً يتعلق بهذه الناقة فقال:

﴿وَيَا قَوْمِ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ﴾ [٤٧٢]

﴿قَالَ هذِهِ نَاقَةٌ لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَعْلُومٍ. وَلاَ تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [٤٧٣]

وكانت الناقة تأكل الحشيش مع مولودها وتسبح اللَّه تعالى. وكانت بقية الحيوانات تهرب خوفاً من هيبتها. وكانت الناقة تقول بلغة الناس:

– من كان يريد الحليب فليأت وليأخذ!.

وكان أهل ثمود يأتون ويَملؤن أكوابهم ويذهبون. وكانت الناقة تستمر بالتسبيح كلما شربت الماء. وكان يشفى كل من شرب من حليبها من المؤمنين.

٤٧١. القمر: ٢٧.

٤٧٢. هود: ٦٤.

٤٧٣. الشعراء: ١٥٥–١٥٦.

الجحود

وعجز الكافرون أمام هذه المعجزة الخارقة واعتزموا لشدة قهرهم أن يقتلوها. ولكنهم كانوا يخافون أن يأتيهم العذاب الإلهي بعد هذا القتل. وعلى الرغم من هذا الخوف، كانت هناك امرأتان من قوم ثمود تحث الناس من غير المؤمنين على قتل هذه الناقة لما تسببه لهما من أضرار في قطيعهما. وكانت إحدى هذه النساء هي عنيزة بنت غانم. وكانت امرأة عجوزاً ولكن لها بنات جميلات. وكانت الأخرى هي امرأة غنية وصاحبة جمال تسمى محيى.

وكانت كلتا المرأتين تطلب من الكافرين قتل هذه الناقة. لأن لكلتا هاتين المرأتين قطيع كان لا يمكنه أن يشرب عندما تشرب ناقة صالح عليه السلام. إذ أن شرب الماء كان مناوبة بين الحيوانات، يوم للناقة ومولودها، ويوم لباقي الحيوانات.

وتنادي محيى ابن عمها مستا وتقول:

«إن قتلت هذه الناقة أتزوجك ويصبح كل ما أملكه لك!»

وقبل مستا هذا الطلب. وكان يلزمه من يقوم بمساعدته. فوجد له عابداً للأصنام يسمى قدار. وأغراه ببنات عنيزة. وكان أن اختار هذا الأخير واحدة من بين بناتها وقبل بهذا الطلب أيضاً.

وجمع هذان الرجلان إلى جانبهم بعض المشؤمين الآخرين وأصبح عددهم تسعة. وبدأ هؤلاء التسعة يبثون ادعاءات بين الكافرين من عبدة الأصنام وأقنعوهم بقتل الناقة. يقول اللّه تعالى:

﴿وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾ [٤٧٤]

ووقع هؤلاء التسعة في مستنقع الضلالة. فرمى مستا الناقة بسهم فجرحها. وهجم قدار ومن معه ووثبوا على الناقة. يقول تعالى:

﴿فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ...﴾ [٤٧٥]

٤٧٤. النمل: ٤٨.

٤٧٥. الأعراف: ٧٧.

وأمام هذا المشهد خاف وليد الناقة وهرب إلى الجبل. وبحسب إحدى الروايات فإنهم ذبحوه أيضاً وأكلوا لحمه. وعندما سمع صالح عليه السلام بهذه الحادثة حزن حزناً شديداً. وذهب إلى جوار الناقة وبكى. وعندما بادر بالدعاء بالهداية لقومه قابله قومه بقولهم:

﴿...يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [٤٧٦]

﴿فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِنْ لَا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ﴾ [٤٧٧]

﴿قَالُوا اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَنْ مَعَكَ قَالَ طَائِرُكُمْ عِنْدَ اللَّهِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ﴾ [٤٧٨]

❁

لقد أَنَّب صالحٌ عليه السلام قومه حين قال: «ولكن لا تحبون الناصحين».

وها هو رسول اللَّه ﷺ أيضاً يكلم أهل قريش بعد غزوة بدر فعن أنس بن مالك رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ، ترك قتلى بدر ثلاثا، ثم أتاهم فقام عليهم فناداهم، فقال:

«يا أبا جهل بن هشام يا أمية بن خلف يا عتبة بن ربيعة يا شيبة بن ربيعة أليس قد وجدتم ما وعد ربكم حقا؟ فإني قد وجدت ما وعدني ربي حقا»

فسمع عمر رضي الله عنه قول النبي ﷺ، فقال:

يا رسول الله كيف يسمعوا وأنى يجيبوا وقد جيفوا؟ قال:

«والذي نفسي بيده ما أنتم بأسمع لما أقول منهم، ولكنهم لا يقدرون أن يجيبوا»

ثم أمر بهم فسحبوا، فألقوا في قليب بدر. [٤٧٩]

كذلك الأمر، عندما مر رسول اللَّه ﷺ بالحجر، قال:

«لا تسألوا الآيات، وقد سألها قوم صالح، فكانت ترد من هذا الفج، وتصدر من هذا الفج، فعتوا عن أمر ربهم، فعقروها، وكانت تشرب ماءهم يوما، ويشربون لبنها يوما،

٤٧٦. الأعراف: ٧٧.
٤٧٧. الأعراف: ٧٩.
٤٧٨. النمل: ٤٧.
٤٧٩. مسلم، الجنة، ٧٧/ ٤٧٨٢.

فعقروها، فأخذتهم صيحة أهمد الله من تحت أديم السماء منهم، إلا رجلا واحدا كان في حرم الله»

قيل: من هو يا رسول الله؟ قال:

«هو أبو رغال، فلما خرج من الحرم أصابه ما أصاب قومه» [٤٨٠]

هلاك القوم الضالين بالصيحة المرعبة والزلزلة

لم يتمكن صالح عليه السلام مع كل ما قدمه من دعوة ونصيحة من أن يصلح قومه ويخرجهم من وضعهم المحزن الذي كانوا عليه. فاستمر العاصون من الناس بعنادهم وإنكارهم أمام نبيهم. وكانت النتيجة الطبيعية لهذا الأمر أن يستحقوا العذاب الإلهي. وفي الختام، أتاهم الأمر بأن ينتظروا ثلاثة أيام سيأتيهم في نهايتها العذاب الشديد:

﴿...فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ﴾ [٤٨١]

وبحسب الرواية فإن هذه الأيام الثلاثة هي يوم الأربعاء والخميس والجمعة. في اليوم الأول ستصفر وجوههم. وفي اليوم الثاني ستحمر؛ أما اليوم الثالث فإنها ستسود؛ واليوم الرابع هو يوم الهلاك. وفي صباح تلك الليلة ظهرت علامات غريبة. إذ بدأ الدم يتدفق من الأرض التي كانت تسير عليها الناقة. واحمرت أوراق الشجر. وتحول ماء النبع إلى لون الدم الأحمر. واصفرت وجوه سيئي الطالع من الناس. وقال التسعة الذين قتلوا الناقه:

- إن صالحاً يسحرنا! فلنقتله وعائلته!.

وتتحدث الآية الكريمة عن حيلتهم هذه فتقول:

﴿قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ [٤٨٢]

وينبه صالح عليه السلام بحيلة هؤلاء المنكرين. فيترك صالح وعائلته ومن تبعه من المؤمنين تلك المدينة. وبهذا تتحقق حادثة الهجرة.

---

٤٨٠. أحمد، مسند، ٣، ٢٩٦/ ١٤١٦٠؛ الواقدي، المغازي، ٣، ١٠٠٧-١٠٠٨.

٤٨١. هود: ٦٥.

٤٨٢. النمل: ٤٩.

أما هؤلاء التسعة من عصابة الجاحدين، فيحاصرون منزل صالح عليه السلام ليلاً لتنفيذ خطتهم. وعندما لم يجدوا أحداً داخل ذلك المنزل تعجبوا. ومن ثم أمر اللَّه تعالى جبريل عليه السلام فقتلهم رجماً بالحجارة. يقول الله تعالى:

﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾ [٤٨٣]

ولم يبق أحد من المنكرين أو الضالين إلا وقد هلك. وأصبحت المدينة مثل الخرابة في مشهدها. ويترك صالح عليه السلام ومن تبعه من المؤمنين تلك البلدة. تقول الآية الكريمة:

﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ﴾ [٤٨٤]

وبعد أن ترك المؤمنون البلدة، احمرت وجوه المنكرين في اليوم الثاني. أما في اليوم الثالث فلقد أصبحت شديدة السواد. وكانوا ينظرون في شتى الاتجاهات يترقبون من أين سيأتيهم العذاب في خوف ودهشة. ويأمر اللَّه تعالى جبريل عليه السلام بأن يقلب بيوتهم المنيعة التي اغتروا بها ووثقوا بها رأساً على عقب. فأصبحت بيوت القوم الظالمين في آن واحد متساوية مع الأرض. تقول الآية الكريمة:

﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [٤٨٥]

وتأتي قوم ثمود صَيحةٌ كانت بحسب ما كتب عنها فخر الدين الرازي شديدة لدرجة أنها فجرت أجسامهم لشدتها وأهلكتهم. وتتحدث العديد من الآيات عن هذه العاقبة فتقول:

﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ بِالْحَقِّ فَجَعَلْنَاهُمْ غُثَاءً فَبُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [٤٨٦]

﴿وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾ [٤٨٧]

---

٤٨٣. الأعراف: ٧٨.
٤٨٤. هود: ٦٦.
٤٨٥. النمل: ٥٢.
٤٨٦. المؤمنون: ٤١.
٤٨٧. هود: ٦٧.

اعتقد قوم ثمود مغترين بثروتهم وأملاكهم ومساكنهم المتينة التي بنوها أنهم ناجون من العذاب. ولكن أياً من هذه الأمور لم ينفعهم عندما حل عليهم القهر الإلهي:

﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ. فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [٤٨٨]

عندما رفض قوم ثمود أخذ العبرة من الأقوام الذين هلكوا من قبلهم، أصبحوا هم أيضاً نموذجاً للعبرة لمن سيأتي من بعدهم.

﴿فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ. وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ [٤٨٩]

وحسب ما تذكر كتب التفسير فإن هناك العديد من الأقوام الذين هلكوا بالصيحة وكان قوم صالح عليه السلام أي قوم ثمود منهم. فهم هلكوا بصيحة أتتهم من أسفل منهم فأصبحوا ظاهرين للقهر الإلهي. ومن هذه الأقوام أيضاً قوم شعيب عليه السلام. وهؤلاء الآخرون عاقبهم اللَّه فسحقهم بصيحة أتتهم من فوقهم. ومنهم أيضاً كما هو مذكور في سورة يس أصحاب القرية الذين لم يؤمنوا بأنبيائهم.

ويخبر القرآن الكريم متحدثاً عن يوم القيامة بأنه سيبدأ بـ«صيحة واحدة». ولهذا، فإن هلاك هؤلاء الأقوام إن هو إلا مشهد من مشاهد يوم القيامة ويذكر به.

❁

ويوصي صالح عليه السلام من آمن معه من الناس بعد هلاك قومه فيقول لهم:

« يا قوم! إن مما لا شك فيه أن هذا المكان هو مكان عذب اللَّه فيه شعبه. فهاجروا من هنا واذهبوا إلى حرم اللَّه وتمتعوا بالأمن»

وأمام هذا الأمر، أحرم المؤمنون الذين نجوا من عذاب اللَّه وركبوا النوق الحمراء وساروا في طريقهم. ووصلوا إلى مكة وهم مستمرون في التكبير طيلة ذلك الطريق.

وبعد مدة من الزمن، عاد المؤمنون إلى تلك المدينة التي أصبحت كالخربة. وشاهدوا بأم أعينهم نتيجة الجحود والإنكار الوخيمة. وشكروا اللَّه تعالى على ما رزقهم

٤٨٨. الحجر: ٨٣-٨٤.

٤٨٩. الشعراء: ١٥٨-١٥٩.

من الإيمان. ومن ثم عاد صالح عليه السلام وقومه إلى المدينة التي هاجروا إليها. وبقوا إلى آخر حياتهم فيها.

أسباب هلاك قوم ثمود

١. أصروا على الكفر واستهزؤا بنبيهم.

٢. تكبروا واتبعوا أهواءهم بضلالة.

٣. اتخذوا آراءهم فوق آراء الدين. وبهذا لم يعيروا أسماعهم إلى دعوة أنبيائهم.

٤. لم يستمعوا إلى النصيحة.

٥. اتخذوا لهم موقعاً مع التسعة المشؤومين الذين قتلوا الناقة.

٦. رضخوا لأقوال النساء الفاسدات. واتبعوا أمر قدار بن سالف وميستا وعنيزة ومحيى. فكان اغترارهم بهاتين المرأتين الفاسدتين سبباً في ضلالهم.

٧. كانوا يتهمون أهل الخير بهتاناً. فكانوا يقولون لصالح عليه السلام:«لم تأتنا مصائب مماثلة قبل أن تأتي نبياً علينا!»

٨. اغتروا بملك الدنيا.

٩. نقضوا عهدهم. لأنهم طلبوا معجزة الناقة وعاهدوا على الإيمان.

١٠. خانوا الأمانة. لأنهم قتلوا الناقة التي هي أمانة اللَّه المقدسة عندهم برغم ما أعطوه من عهد.

١١. أظهروا الرضى أمام ما قام به أهل المعصية. فقتل الناقة تسعة أشخاص، لكن الباقين لم يردعوهم عن ذلك ولم يزجروهم.

١٢. لم تكن الناقة ملكاً لأحد. فكانت وكأنها من الأوقاف. وكان حليبها كالسبيل. وكان صاحبها هو اللَّه تعالى. ولكنهم بقتلهم الناقة قدموا إهانة كبيرة.

١٣. كان فساد تسعة أشخاص، قد تجاوز حدوده كثيراً. فكانوا يأخذون أملاك الآخرين عنوة، وكانوا يغتصبون حقوق العباد. وأصبحوا وكأنهم مركز الشر.

سيدنا صالح عليه السلام
المدائن
ديار ثمود
تبوك
معان
إيلات
مدين
البحر الأحمر
مصر

هلاك الأقوام

أمام دنيا الإمتحان هذه التي تتطلب منا أن نكون في صحوة جدية، نجد مع الأسف أن معظم الناس هم في غفلة نائمون. ولكن هذه الجهالة والضلالة والغفلة تجرهم إلى عاقبة من الحزن والهجران. وأصبحت الدنيا بالنسبة إليهم مكاناً للخيانة.

إن أسباب الإبتعاد عن الإيمان في هذه الدنيا الفانية التي تنتهي دائماً بالسّوءِ سواءً كانت إيجابية أو سلبية في القبر هي: عدم التفكر، الجهل، الغفلة، الشهوة، الغرق في نعم الدنيا، تقليد الغافلين، الذهنية المادية البحتة، قلة الأخلاق، وبالنتيجة إرضاخ القلب لمآرب النفس.

والتاريخ الإنساني يشهد على آيات العذاب الإلهي الذي لطالما أصاب كل جاحد ابتعد عن طريق الإيمان والأخلاق. إن أقوام نوح وعاد وثمود كانوا أُناساً متكبرين؛ وفرعون الذي جادل الأنبياء وادعى الألوهية وغرق في النهاية في اليم؛ ونمرود الذي غلب من قبل الذبابة؛ وقوم لوط الذين كانوا بمعيشتهم أدنى أخلاقية من الحيوان؛ وأمثالهم على مر التاريخ ممن ظلم وعصى، فإنهم جميعاً قد هجروا هذه الدنيا وتركوها.

يقول اللَّه تعالى:

﴿أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾[٤٩٠]

إن تاريخ الظلم والعصيان والكفر والتمييز هو تاريخ مليء بأمثلة مدهشة من أنواع الإنتقام الإلهي. فكل من عصى وعارض الطريق الذي أشار إليه اللَّه ﷻ وأنبياؤُهُ لا بد وأن يلاقي عاجلاً أم آجلاً عذاب القدرة الإلهية الأليم وأن تتجلى أمامه العظمة الإلهية. فهذا هو القانون الإلهي الذي لا بد منه ولا يتغير أبداً.

٤٩٠. التوبة ٧٠.

واللَّه تعالى يرسل أنبياءه إكراماً للإنسانية وشفاءً لها مما يصيب المجتمع من جروح تحدثها الرغبات النفسانية. لكن من يغتر بزيف هذه الدنيا، ومن يبتعد عن النور الذي يفتحه الأنبياء، هم كل من أصبح كالدمار المرعب من سوء الطالع، ممن حول مجتمعه إلى سفينة محطمة، وهم من ناله الخسران معتقداً بالسعادة في سفالته، ومن قلد الحيوان في حياته غير مدرك لأسرار وحكم البعث، وبالتالي، هم من حق عليه الغضب الإلهي وهلك.

يقول القرآن الكريم:

﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا﴾ [٤٩١]

﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [٤٩٢]

تدعو الآية الكريمة إلى التفكر وأخذ العبر من النظر إلى آثار الأقوام السابقة مثل عاد وثمود الذين استخرجوا الماء والمعدن، وزرعوا الأرض وحرثوها، وأنشَؤا المدن وعمروها، ومن ثم تحولوا إلى منكرين لله فعاقبهم اللَّه بغضب وسخط من عنده.

❁

إن شعور «الجوع» عند الإنسان إنما هو شعور الجسد بحاجته للمواد الحياتية. وكذلك الأمر، إن توجه الناس إلى اللَّه في أوقات الشدة، إنما ينبع من حالة الروح. عندما ألقى نمرودُ إبراهيمَ عليه السلام في النارِ ووجد أنها لا تحرقه قال:

«إنني لا أتنازل عن ألوهيتي، ولكني سأذبح أربعةَ آلاف ثور لربك!». وكذلك الأمر، عندما أدرك فرعون بأنه هالك في اليم قال: «آمنت بما آمنَتْ به بنو إسرائيل!».

وفي هذين المثالين نجد أن كلا القولين لا أهمية له. لأن ساعة الخطر بالنسبة للغافلين، وحلول الموت لأولئك المنكرين، وعودة الكافرين إلى عالمهم الداخلي

٤٩١. مريم: ٩٨.
٤٩٢. الروم: ٩.

وأنفسهم في الأوقات الموحشة التي بقوا فيها دون حماية أو مواساة، هو أمر موجود في الفطرة الإنسانية يقتضيه واقعها. كم هو تخبط وانتهاء محزن نهاية من قضى حياته متمرغاً في الكفر والغفلة. وليس قول ملائكة الموت في تلك اللحظة: «أين كنت سابقاً؟» إلا علامات البداية لذلك الطريق الطويل من العذاب الأليم.

إن الموت هو إعلان لانتهاء كافة الملذات في الدنيا، ولكنه في الوقت نفسه انتهاء لكافة أنواع البيع والشراء الفانية.

لهذا، فإن الصالحين والعارفين يقتربون من الحقيقة عبر استنفاذ أنفاسهم في الحياة ذكراً وتسبيحاً. ويفلتون من الحياة الدنيا عبر إنارة أجسادهم بترويضها بشكل مستمر وداشم على الموت. وهم بذلك يسعون إلى أنواع مختلفة من التجلي في الوقت الذي يكون فيه الناس بين نائم أو في أماكن مختلفة أخرى.

وإن كان لا بد من الخوف أو الهرب من الموت، فإنه يجب علينا كلما اقترب الليل أن ترتجف أطرافنا جزعاً وخوفاً. علماً أن غوصنا في أسرار الليل لا يذهب ذلك الخوف. لأن ظهور الصباح ليس إلا جزء من القاعدة الكونية في النظام الإلهي. إذن، يجب علينا أيضاً أن نشاهد بشكل طبيعي ظهور صباح الحقيقة من أحضان الموت.

يقول اللَّه تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ﴾ [٤٩٣]

وللحصول على الدنيا التي لا آخرة فيها، يجب علينا أن لا ننغمس حتى آخر رمق في حياتنا بزينة الدنيا ولذائذها الفانية. وكم هو حزين نهاية من يتعب نفسه بهذه الطريقة! أما الإسلام، فإنه يدعو الناس للنظر إلى الكون بعين الحكمة، ويطالبهم بالحياة ضمن أطر الإستقامة والإحساس.

يقول اللَّه تعالى:

﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لاَ تُرْجَعُونَ. فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ﴾ [٤٩٤]

٤٩٣. فاطر: ٥.

٤٩٤. المؤمنون: ١١٥- ١١٦.

﴿أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لاَ يُفْتَنُونَ. وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ. أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَن يَسْبِقُونَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [٤٩٥]

إن دين الإسلام ينظم حياة الإنسان منذ ولادته وصولاً إلى القبر، ويحضره لاكتشاف أسرار دنيا الآخرة والحقيقة الغيبية. وكم هو خسران أن يعيش المرء حياته في غفلة بدون غاية أو هدف دون أن يدرك الصلة بين الولادة والموت، ودون أن يستشعر الحكمة والعبرة من موقعه في هذه الحياة ووظيفته فيها والطريق التي سيسلكها وصولاً إلى القبر!. أليست هذه الحالة هي الضياع في خنادق الموت مخلفين جبالاً من الذكريات المحزنة؟...

عند نفاد القوة البشرية لدى الأنبياء تصلهم النصرة الإلهية ويتحقق عندها انتقام اللَّه القهار على الكافرين. لقد نفد صبر نوح عليه السلام بعد ٩٥٠ سنة، فكان كما تقول الآية الكريمة:

﴿فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ﴾ [٤٩٦]

إن أكثر ما يخاف منه في الدنيا وتعتبر من الحوادث التي تشكل تهديداً إلهياً هي كل ما يعبر عن الغضب الإلهي كالطوفانات، والعواصف، والزلازل والشح وغيوم العذاب المليئة بالبرق، واحتلال الأعداء، والأمراض السارية. إن هذه الأحداث التي تعتبر بأنها من «الكوارث الطبيعية» لا يمكن لها أن تكون عادية المسار وإنما هي مرتبطة بالعديد من الأسباب والحكم. فهذا النوع من الحوادث المؤلمة لا يأتي إلا بسبب معاصي وسيئات الناس. وهو ما يؤدي إلى دخول كوارث النظام الإلهي إلى حيز التنفيذ.

إن اللَّه تعالى -وحاشا لله أن يكون- ليس بظالم. أما هذه الكوارث، فإن هي إلا نتيجة طبيعية يستحقها الإنسان عندما يعلن عصيانه، ويتحدى بأفعاله قدرة اللَّه ونظامه الإلهي، وأسسه المقدسة. فعندها لا بد له من التعرف على ممارسات الإنتقام الإلهي المؤلمة.

---

٤٩٥. العنكبوت: ٢- ٤.

٤٩٦. القمر: ١٠.

إن القرآن الكريم يبين لنا أنَّه ما من ورقة شجرةٍ في هذه الدنيا تسقط على الأرض إلا بإذن اللَّه تعالى. وبعكس ذلك لكان الكون في فوضى فيزيائية. علماً أن ما من حادثة فيزيائية إلا وتضم في أحشائها ألف نوع من الأسرار. وهذه الأسرار لا تتضح إلا للأنبياء وأهل القلوب الصافية.

ويحتوي القرآن الكريم العديد من الآيات الكريمة التي تتحدث عن هلاك الأمم الأولى وأسباب وحكمة هذا الهلاك. إن رب العالمين هو جَلَّ وعلا منزه عن الظلم، ولا يظلم عباده أبداً. إن الظلم هو صفة من صفات البشر وحدهم. يقول اللَّه تعالى في القرآن الكريم:

﴿إِنَّ اللَّهَ لاَ يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلـكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [٤٩٧]

إن اللَّه تعالى برحمته التي لا حدود لها، وحلمه وصبره، يقبض بقوة على الناس عندما تصل مظالمهم إلى الحد الأقصى ويجعل منهم عبرة للعالمين:

﴿...إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [٤٩٨]

بل إنه ليقبض عليهم ويهلكهم بطريقة لا يمكن فيها لمن يلقى هذا العذاب أن يصلح حاله أبداً. وتتحدث الآية القرآنية الكريمة عن هذه الحقيقة فتقول:

﴿وَحَرَامٌ عَلَى قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لاَ يَرْجِعُونَ﴾ [٤٩٩]

﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لاَ يَرْجِعُونَ﴾ [٥٠٠]

إن القرآن الكريم عندما يتحدث عن قصص هلاك الأقوام السابقة، فهو يقف أيضاً عند ذكر أسباب ذلك، ويدعو من تبعهم إلى أخذ العبرة من هذه القصص. ويأتي في مقدمة هذه الأسباب الجحود أمام نعم اللَّه سبحانه وتعالى، الفساد عند الحصول على النعم الوافرة عوضاً عن الشكر، والظلم وما شابهها من الخطايا. وفي هذا السياق تقول الآيات الكريمة:

---

٤٩٧. يونس: ٤٤ .
٤٩٨. هود: ١٠٢.
٤٩٩. الأنبياء: ٩٥.
٥٠٠. يس: ٣١.

﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلاَّ قَلِيلاً وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ﴾ [٥٠١]

﴿...وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ﴾ [٥٠٢]

﴿فَكَأَيِّنْ مِن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَشِيدٍ﴾ [٥٠٣]

ويخبر اللَّه تعالى أن كل المصائب التي يتعرض لها الناس دنيوية كانت أم أخروية، إن هي إلا نتيجة لما كسبت أيدي الناس أنفسهم، فيقول جَلَّ وعلا:

﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [٥٠٤]

وكما نفهم من هذه الآية الكريمة، إن كل ما يظهر في هذه الدنيا، سواء أكان من أمور الطبيعة أو من الأمور الإجتماعية، من فوضى وتبعثر وخراب، إن هو إلا بما كسبت أيدي الناس. فكل هذه الأمور لا تحصل إلا من خلال الفرط في الشرك، وسوء الأخلاق، والظلم، واتباع الأهواء النفسية. فيكون هذا الأمر كما لو أنه دعوة من اللَّه تعالى للعودة إلى الفطرة الدينية والطريق الصحيح والثابت، وفي نفس الوقت عقاباً له في هذه الحياة الدنيا على ما يقومون به من سيئات. وإن لم يتوبوا ويعودوا إلى الصِراط المستقيم، فإن كفاية ودوام هذا العذاب سيأتيهم يوم القيامة، حيث سينالون العذاب الحقيقي الأساسي. وتبين لنا آية قرآنية أخرى هذه المعاني فتقول:

﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ﴾ [٥٠٥]

علماً أن اللَّه تعالى يؤخر عقابه لعباده على ما يقترفونه من ذنوب في هذه الدنيا إلى الحياة الآخرة، حيث يقول اللَّه ﷻ في القرآن الكريم:

---

٥٠١. القصص: ٥٨.
٥٠٢. القصص: ٥٩.
٥٠٣. الحج: ٤٥.
٥٠٤. الروم: ٤١.
٥٠٥. الشورى: ٣٠.

﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ...﴾ [٥٠٦]

إن هذه المصائب التي تأتي نتيجة ما يقترفه العباد من سيئات، إن هي في كيفيتها إلا نوع من أنواع الإنذار الإلهي لهم.

إلا أن قانون اللَّه تعالى مع المؤمنين المخلصين هو مختلف قليلاً عن هذا. لأن ما يتعرض له المؤمن من مصيبة أو أزمات، إن هو إلا إظهار لنقص في عبادتهم، أو كفارة لأخطائهم وسيئاتهم. ولهذا، نجد رسول اللَّه ﷺ يقول:

«ما يصيب المسلم، من نصب ولا وصب، ولا هم ولا حزن ولا أذى ولا غم، حتى الشوكة يشاكها، إلا كفر الله بها من خطاياه» [٥٠٧]

إن ما يصيب العبد الذي يعمل ويسعى لمرضاة اللَّه تعالى من مِحَن، ليس مجرد كفارة لما ارتكبه من سيئات، بل هو أيضاً وسيلة يرفع اللَّه بها مقام هذا العبد عنده. ويخبرنا اللَّه سبحانه وتعالى عن أسباب تكراره لقصص الأقوام السابقة وهلاكم بأنه إيقاظ للناس وتحذير لهم وعبرة إلى يوم القيامة فيقول جَلَّ وعلا:

﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُمْ مِنَ الْقُرَى وَصَرَّفْنَا الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [٥٠٨]

﴿وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ﴾ [٥٠٩]

﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُمْ بَطْشًا فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ هَلْ مِنْ مَحِيصٍ. إِنَّ فِي ذلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [٥١٠]

﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لاَ تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [٥١١]

٥٠٦. النحل: ٦١ .
٥٠٧. البخاري، المرضى، ١،٣/ ٥٦٤١؛ مسلم، البر، ٤٩/ ٢٥٧٢ .
٥٠٨. الأحقاف: ٢٧.
٥٠٩. القمر: ١٥.
٥١٠. ق: ٣٦-٣٧.
٥١١. الحج: ٤٦.

ولكون القلب هو المكان المركزي التي تلتقي فيه الصفات الأخلاقية والذهنية مع مختلف أنواع الأحاسيس، فإن الآية القرآنية الكريمة تشير إلى القلوب التي هي عادة ما يسبب عنادهم وإصرارهم على الصد عن سماع الحقيقة وابتعادهم عن التصرف بعقلانية.

إن اللَّه تعالى هو صاحب القدرة القاهرة التي حولت نار نَمْرود إلى حديقة للورد أمام إيمان إبراهيم عليه السلام، وهي التي قلبت سلطنة فرعون أمام عصى موسى عليه السلام، وهي التي حولت ضفاف الكعبة مقبرة لجيش أبرهة من الفيلة والجند عبر جيش من طير أبابيل الصغيرة، وهي التي قلبت مصير غيرهم من الأقوام الظالمة الكثيرة، وهي أيضاً تلك القدرة الإلهية التي فتحت أفق النصر لسيدنا محمد ﷺ وأيدته بجند لا تراها الناس من «ملائكة، وريح، وخوف».

وتحمل الأماكن التي جرى أمر اللَّه فيها آثار تلك الكوارث إلى يوم القيامة. أسرع رسول اللَّه ﷺ في حجة الوداع في سيره عندما مر بوادي مُحَسِّر بين منى ومزدلفة لهلاك ابرهة في هذا الوادي.[٥١٢]

ولهذا، فإنه لا يجوز الوقوف في هذا المكان أثناء تأدية مناسك الحج.

كذلك الأمر، وأثناء غزوة تبوك، وعندما مر رسول اللَّه ﷺ مع صحابته الكرام من المكان الذي هلك فيه قوم ثمود، قال:

«لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم إلا أن تكونوا باكين، أن يصيبكم ما أصابهم» ثم تقنع بردائه وهو على الرحل.[٥١٣]

عن نافع، أن عبد الله بن عمر رضي الله عنه، أخبره أن الناس نزلوا مع رسول الله ﷺ أرض ثمود، الحجر، فاستقوا من بئرها، واعتجنوا به، فأمرهم رسول الله ﷺ:

«أن يهريقوا ما استقوا من بئرها، وأن يعلفوا الإبل العجين، وأمرهم أن يستقوا من البئر التي كانت تردها الناقة» [٥١٤]

٥١٢. انظر: مسلم، الحج، ١٤٧؛ النووي، شرح المسلم، ٨، ١٩٠؛ علي القاري، مرقاة المفاتيح، ٥، ٤٧٧١-٥٧٧١.
٥١٣. البخاري، الأنبياء، ١٧/ ٣٣٨٠.
٥١٤. البخاري، الأنبياء، ١٧/ ٣٣٧٩.

إن من الواجب علينا عدم التواجد في تلك الاماكن التي تجلى فيها الغضب الإلهي من الأماكن التي حملت بالعصيان والخطايا، ويستمر فيها ولو بشكل معنوي ذلك الغضب الإلهي، أو السير فيها بسرعة وذلك خوفاً من أن نتعرض لتأثير ذلك الغضب.

أما الكعبة وقبر سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام وقبور الأنبياء والمساجد والأماكن التي تواجد فيها الصالحون والصادقون فإنها أماكن تجلت فيها أنوار الفيض والرضى. ولهذا، فإن هذه الأماكن هي أماكن تتساقط فيها أمطار الرحمة المباركة والفوز إلى أفئدتنا وقلوبنا.

ولقد بدأ ذلك منذ عهد آدم، أرسل الأنبياء وأنزلت الكتب بين الفترة والأخرى، هداية للناس مما غرقوا فيه من ظلام الكفر وقلة الأخلاق. وهذا بحد ذاته رحمة كبيرة من اللَّه وإكرام منه لعباده.

وختاماً أتى نبينا المصطفى سيدنا محمد ﷺ خاتم النبيين ومرشداً أبدياً للإنسانية. وعبر هذه المرحلة، سلك النورُ الذي أُنْزل إلى البادية طريقه نحو الأبدية.

❁

إن الدين الإسلامي يدعو الإنسانية إلى الجدية، ويذكر الناس بأنهم سيقفون أمام حضرة اللَّه تعالى غداً بقدمون إليه الحساب عن حياتهم التي عاشوها. ولهذا السبب، يجب على المؤمن أن يبتعد عن الأعمال الفارغة، وعن النميمة والأسئلة الغير ضرورية وكل عمل يقلل من كرامته وشرفه الأخلاقي والديني. وأن يقف بعيداً عن الجاهلين فلا يجري نحو المغامرات التي لا داعي لها. وأن يبتعد عن التفاهة والخرافات والشهوانية والتيه. كما لا يجب عليه أن يمشي في أزقة الفلسفات المنحرفة المسدودة النهاية.

إن معيشة الحياة الدنيا التي تمضي بسرعة كما تمضي غيوم الصيف، بعيداً عن التفكر في الحياة الآخرة، هو أمر تافه كمن يعيش نهاره متناسياً حلول الليل. يقول مولانا قدسه اللَّه سره:

«لا تنظر إلى الإفراط في تنمية الجلد! فهو في النهاية قربان سيلقى في التراب. بل أنظر إلى فؤادك تملؤه بينابيع الفوز. فهو الذي سيسمو ويشرف.

أعط جسدك القليل من الدهن والعسل. لأن من يغذي جسده كثيراً ينهزم أمام رغباته النفسية ويذهب في النهاية سيء السمعة والخاتمة.

أعط روحك غذاءً معنوياً. وقدم إليها تفكيراً ناضجاً، وفهماً رقيقاً، وغذاءً روحياً، لتذهب إلى حيث ستذهب قوية شديدة!».

أسأل المولى لنا جميعاً، أن يحفظنا من الإنجرار نحو العواقب المحزنة، وأن يمن علينا دخول «جنات النعيم»!

آمين!...

سيدنا إبراهيم عليه السلام

سيدنا إبراهيم عليه السلام
من تحدى ظلم وتهديد نَمْرود،
ومن حَوَّلَ لهيب النّار إلى حدائق للورد

ولد سيدنا إبراهيم عليه السلام في شرق مدينة بابل في المنطقة ما بين نهري دجلة والفرات. وبحسب إحدى الروايات فإن والده هو رجل مؤمن نقي اسمه طروح. وعندما توفي طروح تزوجت والدة إبراهيم عليه السلام بآزر شقيق طروح. وبالتالي فإن آزر الوثني الذي كان يعبد الأصنام هو والد إبراهيم بالتبني «زوج أمه». وبحسب رواية أخرى، فإن طروح هو الاسم القديم لوالد إبراهيم عليه السلام. وعندما بدأ يعبد الأصنام غير اسمه فأصبح آزر. وبحسب الإمام السيوطي رحمه اللَّه، فإنه يروي بناءً لحديث ابن عباس رضي الله عنهما يقول بأن آزر ليس والد إبراهيم عليه السلام وإنما هو عمه.

أرسل إبراهيم عليه السلام إلى قوم الكلدانيين. ويعتبر بأنه أفضل «أو خير» البشر بعد رسول اللَّه ﷺ. وكرمه اللَّه تعالى بأن وصفه بقوله «خليلي» يعني صديقي الخاص. ولهذا فإنه يعرف أيضاً باسم «**خليل الرحمن**»[٥١٥].

وأنزلت إلى إبراهيم عليه السلام عشر صحف. وهي بحسب ما يروي إلينا الصحابي الجليل أبو ذر رضي الله عنه عن النبي ﷺ، فإن هذه الصحف التي أنزلت على إبراهيم عليه السلام تحتوي على النصائح والعبر التالية:

---

٥١٥. لكون إبراهيم عليه السلام هو من كبار الأنبياء وأشهرهم، ولكونه أصبح كالملحمة على الألسن بتوكله وتسليميته، وزيادة على كل ذلك ما وصفه اللهَّ تعالى به بأنه «خليل اللهَّ: أي صديق اللهَّ» فإنه كان دائماً من الأنبياء المحبوبين بشكل خاص في مجتمعنا الإسلامي بحيث أن الكثير الكثير من الناس من يسمي ابنه «الخليل إبراهيم» تكنياً به u وإظهاراً لحبه واحترامه.

«كانت أمثالا كلها: أيها الملك المسلط المبتلى المغرور، فإني لم أبعثك لتجمع الدنيا بعضها إلى بعض، ولكن بعثتك لترد عني دعوة المظلوم، فإني لا أردها ولو كانت من كافر، وكان فيها أمثال: على العاقل ما لم يكن مغلوبا على عقله أن تكون له ساعات: ساعة يناجي فيها ربه عز وجل، وساعة يحاسب فيها نفسه، وساعة يفكر فيها في صنع الله عز وجل، وساعة يخلو فيها بحاجته من المطعم والمشرب، وعلى العاقل أن لا يكون ظاعنا إلا لثلاث: تزود لمعاد، أو مرمة لمعاش، أو لذة في غير محرم، وعلى العاقل أن يكون بصيرا بزمانه مقبلا على شأنه، حافظا للسانه، ومن حسب كلامه من عمله قل كلامه إلا فيما يعنيه»[٥١٦]

ومن صفات إبراهيم عليه السلام أيضاً أنه «أبو الأنبياء». فأولاده إسماعيل وإسحاق عليهما السلام. وسيدنا محمد ﷺ هو من نسل إسماعيل؛ ومن نسل إسحاق أتى أنبياء بني إسرائيل.

وذكر اسم إبراهيم عليه السلام في القرآن الكريم في خمس وعشرين سورة تسعة وستون مرة مختلفة. ويصفه القرآن الكريم في هذه المواضع المختلفة بالعديد من الأسماء والصفات. ومن صفاته هذه:

- **أواه** : كثير الآهات، متضرعاً.
- **حليم**: صاحب الحلم، حلو المزاج.
- **منيب**: متجهاً بقلبه إلى اللَّه عز وجل .
- **حنيف**: المبتعد عن الشرك والضلالة المتمسك بشدة بدين التوحيد.
- **قانط**: العابد لله عز وجل.
- **شاكر**: الكثير الشكر.

وتأميناً لمعيشته، كان إبراهيم عليه السلام يتاجر بالقماش والألبسة قبل هجرته، ومن بعدها عمل في الزراعة أيضاً.

٥١٦. أبو نعيم، حلية الأولياء، ١، ١٦٧؛ ابن الأثير، الكامل، ١، ١٢٤.

نَمْرود

لقد كان نمرود حاكم قبيلة الكلدانيين وكان في أول عهده حاكماً عادلاً ومنصفاً. وكان قومه يعبدون النجوم والأصنام. ومن ثم، توسعت سلطنة نمرود فأصابه الكبر وصنع أصناماً على شكله وخاطب قومه فقال لهم: أنا أيضاً إله. فاعبدوني!.

يروى أن نمرود شاهد في منامه نوراً يسطع في السماء ويخمد بنوره نور الشمس والقمر. وتذكر رواية أخرى أنه شاهد في منامه رجلاً يأتي غليه ويسقطه عن العرش فيقع على الأرض. فاستيقظ نمرود مضطرباً. فنادى المنجمين إلى قصره وقص عليهم منامه فقالوا له:

«سيظهر دين جديد!. ومن سيأتي بهذا الدين سينسف ملكك ويسويه مع الأرض. فخذ حذرك منه!».

وبناءً عليه، وبحسب ما قام به من استشارات، أمر نمرود بقتل كل طفل يولد منعاً لحصول هذا التكهن. ولهذا قتل في تلك الفترة ما يزيد عن مئة ألف طفل حديث الولادة.

وفي تلك الفترة كانت أم إبراهيم عليه السلام حبلى به. فقالت لزوجها آزر عند اقتراب فترة وضعها:

«إذهب إلى المعبد وادْعُ لي هناك! فإذا ولدت صبياً أتيتك به. فتذهب به بنفسك إلى نمرود. ويقوم هو بقتله. وبهذا تزداد مرتبتك وقيمتك عنده».

وبعد أن ذهب آزر إلى معبد الأصنام ولد سيدنا إبراهيم عليه السلام. فقامت والدته على الفور بإخفائه في إحدى المغارات. وعندما عاد آزر إلى البيت أخبرته بأن الطفل ولد ضعيفاً جداً ومات على أثرها على الفور. وعند خروج آزر من البيت، ذهبت والدة سيدنا إبراهيم عليه السلام مسرعة إليه. وكانت تفعل ذلك كلما سنحت لها الفرصة. وكانت في بعض الأحيان تجد إبراهيم عليه السلام يمتص أصابعه. ذلك أن جبريل عليه السلام كان يضع بين أصابعه عصارة الزبد والعسل والحليب والتمر.

وقضى إبراهيم عليه السلام مرحلة الطفولة في المغارة، ويروى أنه عندما خرج منها بدأ بتبليغ رسالة التوحيد.

تقول الآية الكريمة:

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ﴾ [٥١٧]

إن الرُشْد هو أن يعرف المرء طريق الخير والصواب، وأن يميز بين الزيغ والصواب، وأن يصبر ويتمسك بطريق الحق، فيسير بشكل مباشر نحو الهدف الواضح المعلوم.

كان إبراهيم عليه السلام يقول: «ما من إله غير اللَّه، هو ربي ورب كل شيء». وكانت والدته وأبوه يبكيان خوفاً من نمرود ويحاولون تحذير إبراهيم عليه السلام. فكان إبراهيم عليه السلام يرد على اضطرابهم فيقول:

«لا تخافوا علي من نمرود أبداً. فاللَّه الذي حماني في طفولتي سيحميني في كبري أيضاً» [٥١٨]

ربي اللَّه

كان آزر ينحت الأصنام ويعتاش من بيعها. وكان بقية أبناء آزر أيضاً يمتدحون الأصنام طلباً لبيعها. أما إبراهيم عليه السلام فكان يأخذ ما يعطيه والده من الأصنام ليبيع، فيربطها بحبل من رقابها ويذهب إلى السوق فينادي مستهزئاً:

«هل منكم من أحد يشتري هذه الأصنام التي لا فائدة منها ولا ضرر؟»

وكان يعود دون أن يشتري أحد منه أي صنم.واحتقاراً منه لهذه الأصنام كان يقوم بجرها على الأرض. ومن ثم كان يضع رأس الصنم في الماء ويقول:

«هيا! أنت عطشت، اشرب أنت أيضاً!»

إن سيدناإبراهيم عليه السلام، ودون أن يتلقى أي تعليم أو تربية من أحد، استطاع برشده الذي وهبه اللَّه تعالى أن يكون دليلاً لنفسه إلى طريق التوحيد متآلفاً مع الحقائق الإلهية الكبرى.

وتتحدث الآية القرآنية الكريمة عن معرفته بربه منذ سِني الشباب الأولى وخصوصية دعوته لقومه إلى هذه الحقيقة فيقول تعالى:

---

٥١٧. الأنبياء: ٥١.

٥١٨. ابن إياس، بدائع الظهور، ص٨٤.

﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هـذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لاَ أُحِبُّ الآفِلِينَ. فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هـذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ. فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هـذَا رَبِّي هـذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ. إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّموَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [٥١٩]

إن الحقيقة الواضحة التي تظهرها هذه الآيات الكريمة هي أنها تظهر للمشركين الذين يسجدون لغير اللَّه، بأن الطريق الذي يسلكونه ليس إلا طريقاً خاطئاً وإيماناً باطلاً. عندما يشاهد إبراهيم عليه السلام نجماً في السماء يقول: «هل هذا هو الذي سيكون ربي!» لقد بدأ موعظته مبتدأً من النجم الذي رآه أبعد ما يكون عليه الإله، فحاول أن يلفت انتباه القوم من حوله موجهاً هذا التعجب. ولكن وقبل أن يمضي كثير من الوقت اختفى هذا النجم فقال إبراهيم عليه السلام: «إني لا أحب الآفلين» مشيراً إلى أن المحبة هي الأساس الأول الذي يجب أن يكون بين العبد وربه، ومؤكداً في الوقت نفسه على أن الذهاب والغياب ليس صفة من الصفات التي تشير إلى وجود اللَّه، بل على العكس إن هي إلا دليل على مخلوقية هذا النجم وبالتالي زواله بعد حين. ولهذا، فإن الإعتقاد بألوهية كائنات أو أشياء كهذه، ليس إلا انحراف لا ينتهي إلا بالخسران، وكأنه يؤكد بقوله هذا على ضرورة أن يكون الرب هو القدرة الخلاقة المبدعة منذ بداية الكون.

كما أن هذا المثال يضع أمام كل إنسان عاقل مفكر بأن طريق التفكر هي التي يمكنها أن ترسو به إلى بَرِّ الإيمان والمعرفة الضرورية لوجود ووحدانية اللَّه الخالق. ولهذا السبب، ذهب بعض علماء أهل السنة إلى القول بأن كل إنسان على هذه الأرض مكلف حتى لو لم يصل الإسلام إليه بأن يؤمن بوجود اللَّه ووحدانيته وصولاً إلى بر الأمان، ولكنه لا يمكن أن يكون مكلفاً بتأدية أعمال العبادة المذكورة في الإسلام لعدم وصولها إليه.

٥١٩. الأنعام: ٧٦-٧٩.

دعوة التوحيد

بعد إدراكه للحقائق الإلهية، وبعد أن مَنَّ اللَّه تعالى عليه بعلم عن الذات الإلهية لا تعطى لأي كان، بدأ إبراهيم عليه السلام دعوته للتوحيد متوجهاً في البداية إلى أبيه آزر. فقال له بنوع من اللطف واللين:

﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لاَ يَسْمَعُ وَلاَ يُبْصِرُ وَلاَ يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا. يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا. يَا أَبَتِ لاَ تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا. يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا﴾ [٥٢٠]

فغضب آزر منه وقال:

﴿قَالَ أَرَاغِبٌ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا﴾ [٥٢١]

لكن إبراهيم عليه السلام خاطب أباه مرة أخرى بأسلوب لين ورقيق فقال يرد عليه:

﴿قَالَ سَلاَمٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا﴾ [٥٢٢]

ودَعَا ربَّه يطلب الغفران لأبيه. لكن دعاءه لم يستجب. لأن أباه كان عدواً لله. وعندما أدرك إبراهيم عليه السلام هذا الأمر توقف مباشرة عن الدعاء لأبيه. ذلك أن الدعاء للكافر لا يمكن أن يكون بالغفران، وإنما يجب أن يكون دعاء بالهداية. يبين القرآن الكريم هذا الأمر فيقول:

﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَى مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ. وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ﴾ [٥٢٣]

٥٢٠. مريم: ٤٢- ٤٥.
٥٢١. مريم: ٤٦.
٥٢٢. مريم: ٤٦.
٥٢٣. التوبة: ١١٣- ١١٤.

ويتحدث القرآن الكريم مراراً وتكراراً عن مجادلة إبراهيم عليه السلام لقومه وأبيه، وقوله لهم بخطأ طريق الشرك الذي هم فيه ذاهبون، ودعوته لهم إلى إيمان التوحيد مستخدماً أدلة العقل والمنطق. ويروي القرآن الكريم إحدى هذه المحاورات بين إبراهيم عليه السلام ومن لم يؤمن من قومه وأبيه، فيقول:

﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ. قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ. قَالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ. قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللاَّعِبِينَ. قَالَ بَلْ رَبُّكُمْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَى ذَلِكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ [٥٢٤]

تحطيم إبراهيم عليه السلام للأصنام

كانت قبيلة الكلدانيين تجتمع يوماً في السنة وتحتفل فيه. فيقول آزر لإبراهيم عليه السلام: «تعال معنا أنت أيضاً اليوم لنحتفل بهذا العيد!».

ويتحجج إبراهيم عليه السلام في الطريق بالمرض ويعود. ومن ثم يذهب إلى معبد الأصنام. وكان فيه من الأصنام أنواع مختلفة من الفضة، والنحاس والخشب. وكان الناس يضعون أمام كل منها أنواعاً مختلفة من الطعام تبركاً بها. وكان كبير هذه الأصنام موضوعاً على عرش مصنوع من الذهب. أما ثيابه فكانت مطلية بالذهب، وعلى رأسه تاج.

حطم إبراهيم عليه السلام كل هذه الأصنام مستخدماً الفأس إلا ذلك الصنم الكبير. ومن ثم علق ذلك الفأس على رقبة ذلك الصنم الأكبر. وعندما حل المساء، عاد أهل قبيلة الكلدانيين إلى معبد الأصنام من موقع العيد، فصدموا كثيراً أمام ما رأوه من مشهد فيه. وتخميناً منهم قالوا:

- لا يفعل هذا الأمر أحد إلا إبراهيم!.

فما كان منهم إلا أن بحثوا عن إبراهيم وقالوا له:

- أأنت من فعل هذا؟.

---

٥٢٤. الأنبياء: ٥٢-٥٦.

فأجابهم إبراهيم عليه السلام بقوله:

- إن كبير الأصنام كان لا يريد أن يعبد أحد سواه. ولهذا غضب على الآخرين غضباً شديداً. فلعله في النهاية قرر تحطيمهم بالفأس ومن ثم علقها على رقبته. إن شئتم إسألوه هو أيضاً! وليخبركم هو بذلك الأمر!.

فأجابه القوم عبدة الأصنام:

- إن الأصنام لا تتكلم!.

وبناءً على جوابهم هذا، قال لهم إبراهيم عليه السلام:

- إذن، كيف لأشياء لا يمكنها أن تدافع حتى عن أنفسها أن تدافع عنكم؟ أفلا تعقلون؟.

يروي لنا القرآن الكريم تفاصيل هذه الحادثة فيقول:

﴿فَرَاغَ إِلَى آلِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلاَ تَأْكُلُونَ. مَا لَكُمْ لاَ تَنْطِقُونَ. فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ﴾ [٥٢٥]

﴿فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلاَّ كَبِيرًا لَهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ. قَالُوا مَنْ فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ. قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ. قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَى أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ. قَالُوا أَأَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ. قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ . فَرَجَعُوا إِلَى أَنْفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ. ثُمَّ نُكِسُوا عَلَى رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ. قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ. أُفٍّ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [٥٢٦]

ومن خلال هذه الأجوبة التي صرح بها إبراهيم عليه السلام، ازداد الناس قناعة بأنه هو من حطم هذه الأصنام. وعوضاً عن العودة إلى اللّه تعالى من خلال رؤيتهم لعجز تلك القطع من الحجارة، لم يتمكن عبدة الأصنام لسوء طالعهم من استيعاب هذا الأمر، وصبوا غضبهم على سيدنا إبراهيم عليه السلام، فقالوا:

﴿قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانْصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ﴾ [٥٢٧]

---

٥٢٥. الصافات: ٩١-٩٣ .

٥٢٦. الأنبياء: ٥٨-٦٧.

٥٢٧. الأنبياء: ٦٨.

إلقاء إبراهيم عليه السلام في النار

أخبر عبدة الأصنام نمرود بما جرى من أمر. فدعى نمرود إبراهيم عليه السلام إليه. وكان كل من يأتي لحضرة نمرود يسجد في بادئ الأمر أمامه. أما إبراهيم عليه السلام فإنه دخل ولم يسجد له. وعندما سأل نمرود فضولاً وغضباً عن سبب ذلك أجابه:

- لا أسجد لأحد إلا للذي خلقني وخلقك!.

فقال نمرود:

- من هو ربك؟.

فأجابه إبراهيم:

- إن ربي هو اللَّه الذي يحيي ويميت.

فقال نمرود:

- أنا أيضاً أحيي وأميت.

ومن ثم أمر بإحضار اثنين من السجن. فقتل أحدهما وعَفَا عن الآخر. ثم قال:

- أرأيت؟ أنا أيضاً أقوم بمثل هذا الأمر.

لكن نمرود بطيشه وقلة عقله لم يكن يدرك أن الإحياء هو نفخ الروح، وأن الإماتة هي سحب هذه الروح. قال له إبراهيم:

- إن ربي يأمر الشمس فتشرق من الشرق. فإن كانت قوتك كافية فأمرها تشرق من الغرب!.

يروي القرآن الكريم تفاصيل هذه الحادثة بقوله:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [٥٢٨]

إن هذه الآية الكريمة تتحدث عن حجد نمرود وشهوانيته وإعلانه للحرب على اللَّه جَلَّ وعلا. ويروي الإمام البيضاوي بأن نمرود كان أول أحمق على وجه الأرض

٥٢٨. البقرة: ٢٥٨ .

يَدَّعِي الألوهية. فكان منكراً لله، وجاحداً له عوضاً عن أن يشكره على ما من عليه من مال وملك.

وهناك روايتان مختلفتان تتحدثان عن قصة لقاء إبراهيم عليه السلام بنمرود:

١- عندما حطم إبراهيم عليه السلام الأصنام حبسوه. ومن ثم أحضروه إلى نمرود بهدف إحراقه.

٢- أصاب الناس في إحدى السنوات قحط. فكان نمرود يوزع الطعام على شعبه. وكان يسأل كل من يأخذ من هذا الطعام: من ربك؟. ولكنه عندما وصل إلى إبراهيم عليه السلام، أجابه: إن ربي هو الذي يبعث فيحيي ويميت!.

ويغضب نمرود لهذا القول. ويمنع عن إبراهيم الطعام. ومن ثم يجمع أعوانه يستشيرهم في العقاب الذي يجب أن يعطيه له. ثم قرروا أن يحرقوه في النار، قال عبد الله بن عمر رضي الله عنه:

«أشار بتحريقه رجل من أعراب فارس، كان اسمه هيزن فخسف به فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة»[٥٢٩]

وقبل هذا الإقتراح. وبدأت التحضيرات إعداداً لهذه النار. فحمل الحطب إليها شهراً كاملاً. وكان الناس جهلاً وحماقة يقولون:

- إن هذا الإنسان يخرج ويتحدى أصنامنا!.

فيخرجون متطوعين لجمع الحطب. وجمع الحطب فصار كالجبل. وكان لهيب هذه النار يصل إلى السماء. ولا تستطيع حتى الطيور أن تطير من حولها لشدة حرها.

وعندما انتهت كل هذه التحضيرات، تجمع الناس حول هذه النار. وأحضر سيدنا إبراهيم عليه السلام إلى هناك مربوط الأيدي ومكبل الأرجل. ولكن هذا النبي العظيم، وعلى الرغم من أنه كان في موقف شديد جداً، إلا أنه ولكونه «خليل اللَّه»، كان على قدر كبير من التسليم والتوكل. ولم يأت قلبه ذرة من الخوف أو القلق.

وفي تلك الأثناء، كان نمرود وجماعته يتشاورون حول كيفية إلقائه في النار. وأخيراً، قرروا إلقاءه فيها باستخدام المنجنيق.

٥٢٩. ابن الأثير، الكامل، ١، ٨٩.

وكان الملائكة في الأرض والسماء في حيرة كبيرة من أمرهم، فقالوا متضرعين:

- إلهي! إن إبراهيم أكثر الناس ذكراً لك يلقى في النار! إنه نبيك الذي لم يغفل عنك آناً واحدة! أتأذن لنا أن نتقدم لمساعدته يا اللَّه؟.

وعندما أذن اللَّه تعالى للملائكة بالذهاب لمساعدته قدم إليه أحد الملائكة فقال له:

- لقد أعطيت أمر الرياح. إن شئت فرقت جمع هذه النار!.

وقال له ملك آخر:

- أعطيت أمر الماء. فإن شئت أطفأت لك هذه النار في لحظة واحدة!.

وقال ملك آخر:

- أعطيت أمر التراب. فإن شئت ابتلعت الأرض هذه النار.

فأجابهم إبراهيم عليه السلام بقوله:

- لا تدخلوا بين الخليل وخليله! فإني راض بما يشاؤه ربي! فإن أنقذني فمن لطفه. وإن حرقني فمن خطئي. وأنا إن شاء اللَّه من الصابرين!.[٥٣٠]

عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال:

«كان آخر قول إبراهيم حين ألقي في النار: حسبي الله ونعم الوكيل»[٥٣١]

وعن ابن عباس رضي الله عنهما، قال:

«حسبنا الله ونعم الوكيل، «قالها إبراهيم عليه السلام حين ألقي في النار، وقالها محمد ﷺ، حين قالوا: ﴿**إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا، وَقَالُوا: حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الوَكِيلُ**﴾ [٥٣٢] »[٥٣٣]

وعندما كان إبراهيم عليه السلام على وشك الإلقاء في النار، أتاه جبريل عليه السلام وقال له: أ ألك حاجة يا إبراهيم؟ قال: أما إليك فلا.[٥٣٤]

---

٥٣٠. انظر: أحمد، الزهد، ص ٨٠؛ الطبري، التاريخ، ١، ٢٤٢؛ ابن الأثير، الكامل، ١، ٨٩-٩٠.
٥٣١. البخاري، التفسير، ٣، ١٣/ ٤٥٦٤.
٥٣٢. آل عمران: ١٧٣.
٥٣٣. البخاري، التفسير، ٣، ١٣/ ٤٥٦٣ .
٥٣٤. انظر: ابن الأثير، الكامل، ١، ٩٠.

ويرضى اللَّه سبحانه وتعالى عن استغناء إبراهيم عليه السلام حتى عن الملائكة وبجعله طلبه كاملاً من اللَّه وحده، فيقول في القرآن الكريم مثنياً عليه:

﴿وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى﴾ [٥٣٥]

كما يقول اللَّه سبحانه وتعالى عنه:

﴿إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [٥٣٦]

فيخبر بذلك عن روح التسليم التي تقدم وتلطف بها.

تحول النار إلى حديقة للورد

وأمام تسليم خليل اللَّه إبراهيم عليه السلام بهذه الرفعة والتوكل على الحق سبحانه وتعالى وحده، يأمر اللَّه تعالى النار قبل أن يصل إليها، فيقول:

﴿...يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ﴾ [٥٣٧]

وقيل: ناداها جبرائيل، فلو لم يتبع بردها سلام لمات إبراهيم من شدة بردها، فلم يبق يومئذ نار إلا طفئت ظنت أنها هي.[٥٣٨]

ومن خلال هذا الأمر، يتحول المكان الذي سقط فيه إبراهيم بلحظة إلى حديقة للورود. كما ينفجر هناك نبع للماء الحلو ويبدأ بالتدفق. وبحسب إحدى الروايات، يتنزل عليه من الجنة قميص، ويلبسه إبراهيم عليه السلام. ومن ثم ينتقل هذا القميص منه إلى إسحق عليه السلام، ومنه إلى يعقوب عليه السلام، ومن ثم أخيراً إلى يوسف عليه السلام. وهو القميص نفسه الذي أرسل به يوسف عليه السلام إلى أبيه يعقوب عندما عميت عيناه فكان وسيلة لإعادة بصره ورؤيته مرة أخرى.

أمام هذا الأمر، تعجب نمرود وتحمس، وقال:

- يا إبراهيم! أرى أن إلهك كبير جداً، وأن عزته وقدرته هي إلى درجة تحميك من الأذى. يا إبراهيم! ما أجمله ربك من رب! انى ذابح له أربعة آلاف بقرة!.

---

٥٣٥. النجم: ٣٧.
٥٣٦. البقرة: ١٣١ .
٥٣٧. الأنبياء: ٦٨.
٥٣٨. ابن الأثير، الكامل، ١، ٩٠.

فيقول له إبراهيم:

- لا قيمة لهذه القرابين ما لم تعد عن شذوذك وتؤمن بالوحدانية.

ولكن نمرود يقول:

- لا أستطيع فداء ملكي وسلطنتي! ولكني على الرغم من ذلك سأذبح هذه القرابين!.

وذبح بالفعل أربعة آلاف ثور. وأقلع عن محاربة إبراهيم عليه السلام. لكن حبه للرئاسة، وكبره، وغروره وعناده كانت أسباباً في عدم إيمانه، فكان من الخاسرين. وأمام ما كان من معجزة إلهية علنية، آمنت مجموعة من عبدة الأصنام فكانوا بذلك من الرابحين.[٥٣٩]

ويذكر إبراهيم عليه السلام بعد أن نجا من نار نمرود بمشيئة اللَّه تعالى من بقي على كفره من الناس بالعذاب الإلهي فيقول:

﴿وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُمْ بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾ [٥٤٠]

هجرة إبراهيم عليه السلام

بعد حادثة الرمي في النار، يأمر اللَّه عز وجل إبراهيم ومن آمن معه من الناس بالهجرة ليتمكنوا من العبادة براحة، وحماية لهم من العذاب الإلهي الذي سيرسله اللَّه على نمرود وشعبه من الكلدانيين. ولهذا يقرر إبراهيم ومن آمن معه من الناس الإبتعاد عن قومهم والهجرة. ويروي جناب الحق عز وجل حالتهم هذه ممتدحاً فيقول:

﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ ...﴾ [٥٤١]

وهكذا، أخرج اللَّه خليله والمؤمنين إلى السلامة والأمان:

٥٣٩. انظر: الدِّيار بَكْري، تاريخ الخميس، دار صادر-بيروت، ١، ٣٨.

٥٤٠. العنكبوت: ٢٥.

٥٤١. الممتحنة: ٤ .

﴿فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [٥٤٢]
﴿وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ﴾ [٥٤٣]

ونبي اللَّه لوط هو ابن أخ سيدنا إبراهيم عليه السلام. وبالنظر لكونه من الأنبياء، فإنه لا يمكننا أن نعتقد بأنه كان على الكفر ومن ثم آمن. ولهذا، فإن هذه الآية الكريمة التي تشير إلى إيمان لوط عليه السلام، إنما تشير إلى أن لوطاً عليه السلام هو أول من صدق برسالة إبراهيم عليه السلام.

وهاجر إبراهيم عليه السلام إلى بابل، ومن هناك أيضاً هاجر لوط عليه السلام مع سارة وجمع من المؤمنين إلى قرية في جنوب مدينة أورفه تسمى حران[٥٤٤]. وكان لوط ابن أخيه، وكانت سارة ابنة عمه.

واستجابة لأمر ربه، تزوج إبراهيم عليه السلام من سارة. وكانت سيدتنا سارة امرأة صالحة ذات أخلاق حميدة. وكانت مطيعة بشكل كامل لإبراهيم عليه السلام.

كذلك الأمر، واستجابة لأمره تعالى، يهاجر إبراهيم مرة أخرى مع زوجته سارة إلى الشام، ومنها إلى مصر. ويهاجر لوط عليه السلام إلى منطقة تسمى سدوم نبياً. «سدوم، هي المكان الذي يوجد فيه بحيرة لوط. ويقال عنها «المؤتفكة» في الآية القرآنية الكريمة لأن اللَّه تعالى قلبها رأساً على عقب».

وكانت مصر في تلك الفترة تحكم من قِبَل عائلة الفراعنة وكانت هذه العائلة متكبرة وظالمة. فكانوا كلما مرت امرأة جميلة من حدود مصر أبلغوا فرعون عنها مباشرة. فإن كانت متزوجة يقتل زوجها، وإن كان لها أخ تطلب هذه المرأة منه.

ولهذا، عندما مر إبراهيم عليه السلام مع زوجته سارة من حدود مصر، وصل هذا الخبر أيضاً إلى القصر. وأخبر أن امرأة ذات حسن وجمال دخلت إلى مصر. وعندما سُئِل إبراهيم عليه السلام عن علاقته بسيدتنا سارة قال بأنها «أختي» بمعنى «أختي في الدين».

ولهذا، لم يقترب أحد من إبراهيم عليه السلام. وأخذوا سارة واتجهوا بها إلى القصر. وبهذا الشأن يروي لنا البخاري حديثاً عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال النبي ﷺ:

---

٥٤٢. العنكبوت: ٢٦.
٥٤٣. الأنبياء: ٧١.
٥٤٤. تأخذ حرّان في تركيا اسمها نسبة إلى أخ إبراهيم عليه السلام حرّان الذي كان أول من أنشأها وعاش فيها.

«هاجر إبراهيم عليه السلام بسارة، فدخل بها قرية فيها ملك من الملوك، أو جبار من الجبابرة، فقيل: دخل إبراهيم بامرأة هي من أحسن النساء، فأرسل إليه: أن يا إبراهيم من هذه التي معك؟ قال: أختي، ثم رجع إليها فقال: لا تكذبي حديثي، فإني أخبرتهم أنك أختي، والله إن على الأرض مؤمن غيري وغيرك، فأرسل بها إليه فقام إليها، فقامت توضأ وتصلي، فقالت:

اللهم إن كنت آمنت بك وبرسولك، وأحصنت فرجي، إلا على زوجي فلا تسلط علي الكافر، فغط حتى ركض برجله.

قال الأعرج: قال أبو سلمة بن عبد الرحمن: إن أبا هريرة، قال:

قالت: اللهم إن يمت يقال هي قتلته، فأرسل ثم قام إليها، فقامت توضأ تصلي، وتقول: اللهم إن كنت آمنت بك وبرسولك وأحصنت فرجي إلا على زوجي، فلا تسلط علي هذا الكافر، فغط حتى ركض برجله.

قال عبد الرحمن، قال أبو سلمة: قال أبو هريرة:

فقالت: اللهم إن يمت فيقال هي قتلته، فأرسل في الثانية، أو في الثالثة، فقال: والله ما أرسلتم إلي إلا شيطانا، ارجعوها إلى إبراهيم، وأعطوها آجر [٥٤٥] فرجعت إلى إبراهيم عليه السلام، فقالت: أشعرت أن الله كبت الكافر وأخدم وليدة» [٥٤٦]

وفي رواية أخرى:

«...فلما دخلت عليه ذهب يتناولها بيده فأخذ، فقال: ادعي الله لي ولا أضرك، فدعت الله فأطلق، ثم تناولها الثانية فأخذ مثلها أو أشد، فقال: ادعي الله لي ولا أضرك، فدعت فأطلق، فدعا بعض حجبته، فقال: إنكم لم تأتوني بإنسان، إنما أتيتموني بشيطان، فأخدمها هاجر» [٥٤٧]

يأمرنا اللَّه عز وجل عباده بطلب العون منه صابرين ومتوسلين إليه بأعمالنا الصالحة فيقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [٥٤٨]

٥٤٥. آجر: هي هاجر أم إسماعيل عليه السلام.

٥٤٦. البخاري، البيوع، ١٠٠/ ٢٢١٧؛ أحمد، مسند، ٢، ٤٠٣.

٥٤٧. البخاري، الأنبياء، ٩/ ٣٣٥٨؛ مسلم، الفضائل، ١٥٤/ ٢٣٧١.

٥٤٨. البقرة: ١٥٣.

ولهذا، فإن سيدتنا سارة تمكنت من النجاة نتيجة لجوئها لله تعالى وذلك من خلال صلاتها وصبرها.

وأحبت ابنة فرعون حورية سيدتنا سارة جداً فأهدتها بعضاً من مجوهراتها. وعندما رأى إبراهيم عليه السلام هذه المجوهرات قال لها:

- خذي هذه وأعيديها، فهي لا تلزمنا.

فأخذتها سارة وأعادتها. وعندما أخبرت حورية والدها بذلك، تعجَّبَ فرعون وقال:

- لا بد أنهم قوم شرفاء ومتميزون. ويأتون من نسل نقي وأصيل.

ومن مصر يعود إبراهيم عليه السلام وزوجته سارة وهاجر إلى فلسطين. وسكنوا في مكان هاديء وساكن يسمى السَّبْعَ . وحفر فيه إبراهيم بئراً. فخرج منه ماء براق عذب وشفاف. وبعد مدة، لم يبق لديهم من الطعام شيء. فأخذ إبراهيم عليه السلام طريقه إلى المدينة. وبينما هو في الطريق فكر. وعاد لأنه لم يكن يمتلك المال. ولكي لا تقلق سارة وهاجر فجأة، أخذ كيسه وملأه بالتراب والحجارة.وترك الكيس ونام مباشرة.

فقالت سارة لهاجر:

- إفتحي الكيس!.

لقد تحول ما فيه إلى قمح. فطحنتاه وصنعتا منه طحيناً وخبزتا الخبز. وعندما استفاق إبراهيم تعجب لذلك جداً وشكر ربه.

ومع مرور الزمن، حلت البركة على بلدة السَّبْعَ ، وكثرت نعم اللَّه فيها. وأتى إليها الذاهب والقادم وسكن فيها واكتظ أهلها. ولكنهم في النهاية جحدوا وأنكروا إبراهيم عليه السلام وأرادوا منعه من الماء الذي حفر بئره بنفسه. فغضب خليل اللَّه غضباً شديداً. وأمام غضب نبي اللَّه بهذا الشكل جفَّ الماء. وبدأ عهد من قلة الماء.

وعندما رأى الغافلون هذا الأمر ندموا كثيراً. واعتذروا لإبراهيم عليه السلام على ما كان منهم من غفلة. وطلبوا منه الدعاء ليغفر لهم. وقبل منهم إبراهيم عليه السلام لما لديه من حلم كثير، والتجأ إلى الحق سبحانه وتعالى فعادت المياه وافرة كما كانت عليه. [٥٤٩]

٥٤٩. انظر: ابن الأثير، الكامل، ١، ٢٩.

هلاك نمرود وقبيلة الكلدانيين

بعد هجرة إبراهيم عليه السلام إلى بابل، سلط اللَّه سبحانه وتعالى على من لم يؤمن من قوم الكلدانيين تكبراً وغروراً، قُطْعاناً من الذباب بكثرة كحبات الرمل. فشربت دماء عبدة الأصنام. فهلك الناس الخاسرون بعد أن نشفت أجسادهم. ودخلت ذبابة من أنف نمرود وصولاً إلى دماغه. فظل نمرود المغرور يطرق رأسه بالمطرقة لشدة ألمه. وأخيراً، وبضربة أتت بسرعة تحطم رأسه.

تتحدث الآية في القرآن الكريم بقوله تعالى:

﴿وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ﴾ [٥٥٠]

وبالتالي، وفي عبرة للإنسانية جمعاء، تحول نمرود ومن معه من القوم الخاسرين بسبب ما تبعوه من كبر وغرور بسلطنة الدنيا، إلى «إنسان جاف» بسبب امتصاص الذباب الكثيف الذي امتص دماءهم.

إحياء الطير

قال إبراهيم عليه السلام:

«يا ربِّ، أريد أن أرى بعين الدنيا تجلي قدرتك في إحياء الموتى!»

ويروي القرآن الكريم هذه الحادثة بقوله:

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [٥٥١]

لقد أراد إبراهيم عليه السلام أن يشاهد كيف يمكن إحياء الميت مرة أخرى، فطلب من ربه أن يريه ذلك. فأجابه اللَّه تعالى، كما هو مذكور في الآية الكريمة، بمثال مادي دون أن يوضح له ماهية هذا البعث. لأن قدرة العلم الإنساني ليست كافية لاستيعاب حقيقة البعث

٥٥٠. الأنبياء: ٧٠.

٥٥١. البقرة: ٢٦٠.

من جديد بشكل كاف ولائق. ولهذا نجد في ما سبق هذه الآيات، أن هذه الأمور التي أعطيت للأنبياء لم تكن إلا معجزات لهم. وما يهم في هذا الأمر هو الإيمان تأكيداً بأن اللَّه تعالى سيبعث كل الخلق من جديد فيحاسب كل إنسان على أعماله.

ومما لا شك فيه أيضاً، أن اللَّه الذي هو قادر على كل شيء، وكما هو قادر على البعث والإحياء بنفسه بالطريقة التي يشاؤها، هو قادر أيضاً على فعل ذلك من خلال أيدي عباده. والحادثة التي نروي عن سيدنا إبراهيم عليه السلام هي مثال على تحقق قدرة اللَّه هذه من خلاله عليه السلام.

ومن المؤكد أيضاً أن إبراهيم عليه السلام الذي يقول:

﴿...رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ...﴾ [٥٥٢]

والذي قال بعدها لربه «يا ربي» «يا من بيده قدرة الإحياء والموت!»، هو عندما يخاطب ربه بقوله: «أرني كيف تحيي الموتى» هو وكأنما يقول له سبحانه جَلَّ وعلا:

«أعلم أنك تحيي الموتى، ولكن لأني لا أعلم كيف تقوم بذلك، فهل تمن علي برؤية هذه الحقيقة وهذا الإحياء أمامي؟ أرجو أن تريني ذلك».

وأمام هذا الطلب الذي تقدم به إبراهيم عليه السلام لربه، يخاطبه ربه محذراً: «أولم تؤمن لي؟»، فيرد عليه إبراهيم عليه السلام بقوله: «كلا يا ربي! بل آمنت بك، ولكن، وكما مننت علي بالحياة بمشيئتك، فأنت قادر أيضاً على أن تريني كيف تبعث الموتى، وما أريد ذلك إلا اطمئناناً لقلبي، ولكي أريح قلبي المتعطش بشوق الإيمان وحرارة الأمل، فأنتقل به من درجة الإيمان اليقيني «القاطع»، إلى درجة المشاهدة والرؤية». مؤكداً على أن ما يبتغيه من هذه الرؤيا هو تنقية قلبه من أي نوع من أنواع الشوائب أو النقص، لكي يتمكن عبر ذلك من الوصول إلى «مقام حلي» «مقام المحبة من عمق الفؤاد» ولكي يتمكن أن يكون بحق «خليل اللَّه».

إن وظيفة العقل الأولى هي الإيمان باللَّه. لكن العقل يبحث في كل أمر عن مصدر وعن نقطة انطلاق وعن دليل. يجب على المرء التسليم بعزة اللَّه تعالى، والإلتصاق به بقبضة متينة، والإمتثال لحكمته تعالى.

---

٥٥٢. البقرة: ٢٦٠.

وهناك روايات متعددة حول طلب إبراهيم عليه السلام من اللَّه ﷻ أن يريه كيف يحيي الموتى. فبحسب الرواية التي جاء بها سعيد بن جبير أن اللَّه تعالى عندما جعل من إبراهيم عليه السلام «خليلاً» له، جاءه جبريل عليه السلام يزف إليه هذه البشرى، فسأله إبراهيم عليه السلام:

- وما هي علامة ذلك؟.

فقال له جبريل عليه السلام:

- إن اللَّه تعالى يقبل دعاءك. ويمكنك من خلال دعائك أن تحيي الموتى.

فكان من إبراهيم عليه أن سأل ربه قائلاً مناجياً:

- يا ربي، أرني كيف تحيي الموتى!.

وفي تفسير حزين يوجد هذا الإيضاح:

يجد إبراهيم عليه السلام على ضفة النهر حيواناً ميتاً. فكانت الأسماك تأكل منه وهو في الماء، وعندما تأتي موجة تقذف به إلى ناحية اليابسة تأكله حيوانات البر.وأمام هذا الوضع الغريب، يجلس خليل اللَّه يفكر في كيفية جمع اللَّه تعالى لكل هذه الأشلاء التي تبعثرت في الماء وأجواف الحيوانات. وأثناء ذلك، يجري بينه وبين اللَّه تعالى ما كان من قصة.

أما أبو السعود أفندي، فيروي تلك القصة في تفسيره فيقول:

يقول نمرود لإبراهيم عليه السلام:هل رأيت بأم عينك إعادة البعث من خلال إعادة الروح، وأخذ الروح بقبضها؟فيسكت إبراهيم عليه السلام، وتتحقق بعد ذلك مباشرة ما كان من قصة معبرة. يأخذ إبراهيم عليه السلام دجاجة، وحمامة وديكاً وغراباً بناءً لما أمره اللَّه جل جلاله به. ويقطع هذه الطيور الأربعة إلى أجزاء متعددة. ويخلطها جميعها ببعضها البعض. ويقسمها إلى أربع أجزاء يضع كل جزء منها على تلة من التلال. ثم ينادي عليها. فتطير جميعها قادمة إليه. يقول الله تعالى:

﴿أَوَلَمْ يَرَ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ. وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِ الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ. قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ [٥٥٣]

٥٥٣. يس: ٧٧-٧٩.

ويبين المفسر البيضاوي حكمة اختيار هذه الطيور الأربعة فيقول:

«كان اختيار الدجاجة في إشارة إلى ضرورة كسر شوكة النفس وإضعاف حديثها عن اللذة وزينة الحياة الدنيا. واختيار الديك لما هو معروف عنه من صفة الغضب لديه إشارة إلى ضرورة كبح الغضب الذي هو عادة السبب الرئيسي في الثورة والهجوم بشدة والعدوانية. واختيار الغراب الذي هو مضرب المثل في الصفات الذميمة كالحسد وغياب الكرامة في إشارة إلى ضرورة الإبتعاد عن مثل هذه الصفات الذميمة. واختيار الحمام في إشارة لضرورة إزالة هوى النفس وهوسها. وبالتالي، فإن هذه القصة تؤكد لكل من أراد أن يبعث في الحياة الأبدية أن عليه أن يعمل على تربية رغبات نفسه وأن يوجهها نحو الخير مستخدماً طريق إرضاء الحق جَلَّ وعَلا».

زواج إبراهيم عليه السلام بأمِنا هاجر

لم يرزق إبراهيم عليه السلام أولاداً من سيدتنا سارة. وكانوا يتقدمون بالسن شيئاً فشيئاً. فقامت سيدتنا سارة بتحرير جاريتها هاجر وزوجتها لإبراهيم عليه السلام. وبنتيجة هذا الزواج ولد إسماعيل عليه السلام. وانتقل النور المحمدي إلى إسماعيل عليه السلام.

وكانت سيدتنا سارة تعتقد بأن هذا النور سينتقل إلى ولد من صلبها. فحزنت لذلك كثيراً. وطلبت من إبراهيم عليه السلام أن ينتقل بسيدتنا هاجر إلى بلدة أخرى. فقام سيدنا إبراهيم عليه السلام بناءً لأمر ربه تعالى بالانتقال بسيدتنا هاجر وولدها سيدنا إسماعيل عليه السلام إلى مكة التي كانت بلدة في الصحراء خاوية.

وكان جبريل عليه السلام دليله في هذه الرحلة. حتى أتى مكة. فقال جبريل: انزل يا إبراهيم.

قال: حيث لا ضرع ولا زرع؟ قال: نعم هاهنا يخرج النبي الذي من ذرية ابنك الذي تتم به الكلمة العليا. [٥٥٤]

ويروي ابن عباس رضي الله عنه هذه القصة كما وردت في صحيح البخاري فيقول:

«أول ما اتخذ النساء المنطق من قبل أم إسماعيل، اتخذت منطقا لتعفي أثرها على سارة، ثم جاء بها إبراهيم وبابنها إسماعيل وهي ترضعه، حتى وضعهما عند البيت عند

٥٥٤. ابن سعد، الطبقات، ١، ١٦٤.

دوحة، فوق زمزم في أعلى المسجد، وليس بمكة يومئذ أحد، وليس بها ماء، فوضعهما هنالك، ووضع عندهما جرابا فيه تمر، وسقاء فيه ماء، ثم قفى إبراهيم منطلقا، فتبعته أم إسماعيل فقالت: يا إبراهيم، أين تذهب وتتركنا بهذا الوادي، الذي ليس فيه إنس ولا شيء؟ فقالت له ذلك مرارا، وجعل لا يلتفت إليها، فقالت له: آلله الذي أمرك بهذا؟ قال نعم، قالت: إذن لا يضيعنا، ثم رجعت، فانطلق إبراهيم حتى إذا كان عند الثنية حيث لا يرونه، استقبل بوجهه البيت، ثم دعا بهؤلاء الكلمات، ورفع يديه فقال:

﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾ [٥٥٥]»[٥٥٦]

كما دعا إبراهيم عليه السلام ربه عز وجل، فقال:

﴿...رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ [٥٥٧]

إن اللَّه تعالى يرزق أيضاً الكافرين في هذه الدنيا، ويمكنهم من الإستفادة من نعم الدنيا كيفما شاءوا. ولهذا، فإن الحصول على نعم الدنيا، ليس مرتبطاً بالتدين. فالنعمة تعطى لكلا المؤمن والكافر. ونِعَمُ الدنيا هي نوع من أنواع الإمتحان. ولا يعرف خيرها أو شرها إلا عند نتيجتها. فإن كانت الثروة والملك هي وسيلة للعبادة، فإنها تكون إذاً سعادة في الدنيا والآخرة. وإن كانت سبباً في الضلال والشقاء، فإنها تكون حينها سبباً في خراب الحياة الآخرة، وبالتالي تكون كارثة لا سعادة.

قَبِل اللَّه عز وجل دعاء إبراهيم عليه السلام الذي دعاه به. وبخير هذا الدعاء، أصبحت هذه البلدة تمتليء بمحبة أفئدة المؤمنين الذين يحجون إليها ويعتمرون، وتمتليء فيها أرواحهم بالراحة والسكينة. كما تمتليء هذه البلدة الطيبة بالتمر ومختلف أنواع الفاكهة الأخرى بركة فيها ورحمة.

٥٥٥. إبراهيم: ٣٧.
٥٥٦. البخاري، الأنبياء، ٩/ ٣٣٦٤.
٥٥٧. البقرة: ١٢٦.

كما أن دعاء إبراهيم عليه السلام هذا، كان وسيلة بخروج ماء «زمزم» من هناك.

نفذت سقاء الماء التي أحضرها إبراهيم عليه السلام. فركضت سيدتنا هاجر بين الصفا والمروة سبع مرات متتالية. والمسافة بين هذين الجبلين تقدر بأربعمة متر. فكانت سيدتنا هاجر تركض من ناحية، وتنظر إلى إسماعيل عليه السلام من ناحية أخرى. ولكنها لم تجد هناك إنساً ولا طيراً حتى. فلم يكن هناك أي نوع من أنواع الحياة. وبينما كانت سيدتنا هاجر على جبل المروة سمعت صوتاً يقول لها:

- صه، واسمعي جيداً!.

وكان هذا صوت جبريل عليه السلام الذي أكمل بقوله:

- لا تخافوا الضيعة، فإن ها هنا بيت اللَّه، يبني هذا الغلام وأبوه، وإن اللّه لا يضيع أهله.

وأمام هذا الخطاب، عادت سيدتنا هاجر إلى جانب ولدها إسماعيل. ووجدت أن الماء يخرج من موضع قدم إسماعيل عليه السلام. فشكرت ربها بفرحة كبيرة. وجعلت تحفر في التراب مكونة بركة من الماء خوفاً من أن ينفذ. وهي تقول للماء «زم، زم!» أي «قف، قف!».

قال النبي ﷺ:

«يرحم الله أم إسماعيل، لو تركت زمزم - أو قال: لو لم تغرف من الماء -، لكانت زمزم عينا معينا» [٥٥٨]

إن الماء الذي كان ثمرة التوكل والتسليم، سيستمر في تدفقه إلى يوم القيامة يمد الأمة بالشفاء.

وهكذا، تمكن إبراهيم عليه السلام وسيدتنا هاجر من الحصول على بركة كبيرة نتيجة ما كان منهما من تسليم للّه عز وجل. ومن هذه البركة أيضاً، أن يستمر المؤمنون إلى يوم القيامة يرددون ما قامت به سيدتنا هاجر من السعي بين الصفا والمروة ركناً من أركان الحج والعمرة.

٥٥٨. البخاري، الأنبياء، ٩/ ٣٣٦٤.

وكانت الأم وولدها يتابعان حياتهما في هذه البلدة الهادئة المقفرة. وتمر قبيلة الجرهم على مقربة من ذلك المكان فيشاهدون طيراً يحلق فوق مكان محدد يطير وينزل إليه باستمرار.

فاستيقنوا بوجود ما يدل على الحياة في هذا الموقع فأرسلوا باثنين من رجالهم يستطلعون الخبر. وعندما رأوا ما كان من ماء زمزم قالوا لسيدتنا هاجر يستأذنونها: «أتأذنين لنا أن ننزل عندك؟»

فقالت لهم: «نعم، ولكن لا حق لكم في الماء».

وهكذا، أصبحت قبيلة الجرهم هي أول قبيلة سكنت في مكة.

إمتحان الذبح

بينما كان إبراهيم عليه السلام في طريقه من بابل إلى الشام قال:

﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيَهْدِينِ. رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [٥٥٩]

إن في هذه الآية إشارة إلى اتصال قلبي مباشر، أي في العالم الداخلي بين اللّه وخليله. وتتحدث الآيات الكريمة التي تلت هذه الآية فتبشر إبراهيم عليه السلام بولده إسماعيل عليه السلام، ومن ثم تسرد لنا قصة ذبحه وفدائه. يقول تعالى:

﴿فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ. فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ. فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ. وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ. قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ. إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ. وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ. وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ. سَلَامٌ عَلَى إِبْرَاهِيمَ. كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ. إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ﴾ [٥٦٠]

بعد أن ترك إبراهيم عليه السلام سيدتنا هاجر وإسماعيل عليه السلام في مكة، عاد إلى جوار سيدتنا سارة. وكان يذهب إليهم بين الحين والآخر ليطمئن عليهم. وفي إحدى المرات التي كان

٥٥٩. الصافات: ٩٩-١٠٠.

٥٦٠. الصافات: ١٠١-١١١.

فيها بمكة شاهد رؤيا في منامه. وكانت الرؤيا كما تتحدث الآية الكريمة بأنه كان يذبح ابنه إسماعيل تقرباً لله. وتردد إبراهيم عليه السلام بين أن تكون هذه الرؤيا هي من عند الشيطان أو أنها ربانية من عند اللَّه. ولكن نفس الرؤيا تكررت له ثلاث ليال متتالية. وهذه الأيام الثلاثة هي يوم التورية ويوم عرفة ويوم العيد الأول في موسم الحج.

وتقول إحدى الروايات أن إبراهيم عليه السلام كان يقول:

- إن رزقني اللَّه بولد فإني سأذبحه تقرباً لله تعالى!.

فكانت هذه الرؤيا امتحاناً له على هذا العهد.

وأمام ما كان من أمر إلهي شهده في الرؤيا، أمر إبراهيم عليه السلام سيدتنا هاجر بأن تغسل ولده إسماعيل عليه السلام وأن تطيبه بعطر حسن لأنه يريد أن يصطحبه إلى أحد أصدقائه. ونبه إسماعيل عليه السلام لأن يأخذ معه حبلاً وسكيناً وقال له: بني، سأذبح قرباناً لله إرضاءً له!.

وساروا معاً إلى المكان الذي يقف فيه حجاج بيت اللَّه في عرفات. وفي هذه الأثناء، تمثل الشيطان لسيدتنا هاجر على شكل إنسان وقال لها: أتعلمين إلى أين يأخذ إبراهيم ولدك؟

فقالت له: إلى صديق له.

فقال الشيطان: كلا، بل ليذبحه.

فتجيبه سيدتنا هاجر: إنه يحب ولده كثيراً.

فيتابع الشيطان وسوسته بقوله: سيذبحه امتثالاً لأمر اللَّه!.

فتجيبه سيدتنا هاجر عندها: إن كان اللَّه عز وجل قد أمر بذلك فهو شيء جميل. نتوكل عليه.

وعندما رأى الشيطان أنه لن يتمكن من خداع سيدتنا هاجر تركها وذهب إلى جوار سيدنا إسماعيل عليه السلام. وسأله هو الآخر: أتعلم إلى أين يأخذك والدك؟

فيجيبه إسماعيل عليه السلام: إلى صديقه.

فيقول الشيطان: كلا، بل إنه آخذك ليذبحك. فهو يعتقد بأن اللَّه أمره بذبحك!.

فيجيبه إسماعيل عليه السلام بقوله: إن كان اللَّه هو من أمر بذلك، فإننا سنستجيب له بكل حب وإقدام.

وهكذا، لم يتمكن الشيطان من خداع إسماعيل عليه السلام أيضاً. فتوجه هذه المرة إلى إبراهيم عليه السلام وقال له:

- أيها العجوز! إلى أين تأخذ طفلك؟ لقد خدعك الشيطان بالرؤيا! إنها رؤى شيطانية.

فيقول له إبراهيم عليه السلام:

- أنت شيطان! إبتعد من أمامنا!».وأخذ سبع حجارة بيده ورجم الشيطان فيها في ثلاثة مواقع مختلفة. وهكذا ابتدأت بهذا الشكل منذ ذلك اليوم إلى يوم القيامة ركن رجم الشيطان في الحج. فكان حالهم ذلك مثالاً إلى الأمة على التوكل والتسليم.

وبينما كان إبراهيم عليه السلام يسير مع ابنه من جبل منى إلى جبل عرفات، كانت الملائكة في السماء متحمسة جداً. وكانوا يقولون بحيرة لبعضهم البعض:

- سبحان اللَّه! نبي يأخذ نبياً ليضحي به!.

ويروي إبراهيم عليه السلام حقيقة هذه الرحلة لابنه سيدنا إسماعيل فيقول:

- يا بني! إني رأيت في المنام أني أذبحك.

فأجابه إسماعيل عليه السلام سائلاً: يا أبت، آلله أمرك بهذا؟

فيقول إبراهيم عليه السلام: نعم!.

عندها يتوجه إسماعيل إلى والده ويقول له:

- يا أبت افعل ما تؤمر! ستجدني إن شاء اللَّه من الصابرين!.

فأخبره بأنه على أكمل الإستعداد ليفدي نفسه. وبعد أن قال لوالده هذه العبارة التي أثلجت صدر أبيه قال:

- يا أبت! صبرتَ عندما رماك نمرود في النار. ورضي اللَّه عنك. وأنا أرضى بأن أذبح قرباناً لله. وإن شاء اللَّه ستجدني إن شاء اللَّه صابراً. عندما أفترق عنك إلى ربي؛ وعندما أبتعد عن نعم الدنيا سأصل إلى الجنة. إن كل حزني هو أن تعيش حياتك في لوعة الولد الذي ستقدمه قرباناً بيدك. يا أبت! ليتك أخبرتني قبل ذلك فأتمكن وأمي من الوداع!.

فيقول إبراهيم عليه السلام: يا بني، إني خفت أن تعترض أمك!.

ويروى أن إسماعيل عليه السلام كان في تلك الفترة في السابعة أو الثالثة عشر من عمره.[٥٦١]

عن سلمان الفارسي رضي الله عنه، قال:

لما أري إبراهيم ملكوت السماوات والأرض، رأى رجلا على فاحشة فدعا عليه فهلك، ثم رأى آخر على فاحشة فدعا عليه فهلك، ثم رأى آخر على فاحشة فدعا عليه فهلك، فأوحى الله إليه: يا إبراهيم، مهلا! فإنك رجل مستجاب لك، وإني من عبدي على ثلاث خصال: إما أن يتوب قبل الموت فأتوب عليه، وإما أن أخرج من صلبه ذرية يذكروني، وإما أن يتولى فجهنم من ورائه.[٥٦٢]

ويروى أن السبب الآخَر في امتحان اللَّه تعالى لإبراهيم عليه السلام بذبح ولده قرباناً هو لما ذكر في الحادثة أعلاه من شدة أظهرها إبراهيم عليه السلام لمن يعصي اللَّه من الناس، فكان قليل الرحمة بهم.

وتتحدث رواية أخرى فتقول:

﴿وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ﴾ [٥٦٣]

يفسر الراوي هذه الآية بأن إبراهيم عليه السلام كان يصعد في كل ليلة إلى السماء. وفي إحدى الليالي التي صعد فيها إلى السماء، وجد من الناس من يعصي اللَّه فقال:

«يا إلهي! إن هذا الرجل يأكل من رزقك، ويمشي بمشيئتك، وعلى الرغم من ذلك فإنه لا يأتمر بأمرك. فأهلكه!».

فيهلك اللَّه تعالى ذلك الإنسان. وعندما يرى إبراهيم عليه السلام عبداً عاصياً آخر، فإنه يدعو عليه بالهلاك أيضاً فينادى بقوله:

«يا إبراهيم! أقلع عن الدعاء بهلاك عبادي! وتعامل معهم رويداً رويداً لتمهلهم! لأنني أرى عصيانهم كل يوم ولكني برغم ذلك لا أهلكهم!»

٥٦١. انظر: الحاكم، المستدرك، ٢، ٦٠٥-٦٠٦؛ الطبري، التاريخ، ١، ٢٦٣-٢٧٨.

٥٦٢. التفسير من سنن سعيد بن منصور، دار الصميعي للنشر والتوزيع، ١٤١٧، ٥، ٢٩.

٥٦٣. الأنعام: ٧٥.

وعندما يعود إبراهيم عليه السلام إلى الأرض يشاهد تلك الرؤيا التي ذكرت في القرآن الكريم. وبعد أن قال له إبنه بكل تسليم: «يا أبت افعل ما تؤمر» تحضر خليل اللَّه لذبح ابنه وأخذ السكين في يده وناجى ربه فقال:

«يا إلهي! إن هذا ابني. وهو فاكهة قلبي وأحب الناس إلي».

فيسمع نداء اللَّه تعالى يقول له:

«أتذكر ليلة دعوتني أن أهلك عبدي؟ أتعلم أني رحمن ورحيم بعبادي كما أنت رحيم بولدك؟ أنت دعوتني لأهلك عبدي. والآن أطلب منك أن تذبح ولدك!»

ويكلم إسماعيل عليه السلام والده إبراهيم عليه السلام وهو يعلم أنه سيكون قرباناً لله طاعة لأمره فيقول له:

«يا أبت! إن لي بضعة مطالب:

١- إربط يدي ورجلي بشكل محكم فلا أتخبط من الألم فأقصر في حق ربي.

٢- أمسِك لباسك فلا يصلن دمي إليها.

٣- فلتكن سكينك حادة ليكون تقديم الروح سهلاً! ويسهل عليك أيضاً ما تقوم به.

٤- عندما تسحب سكينك فلا تنظر إلى وجهي! فيصيبك من رحمة الأب فتؤخر أمر اللَّه بما يحل بك من رحمة.

٥- خذ قميصي إلى أمي! علها تجد فيه عوضاً! وقل لها: «لقد ذهب ابنك شفيعاً إلى اللَّه».

وبينما كان إبراهيم عليه السلام يستمع إلى هذه الكلمات امتلأت عيناه بالدموع. وبكى بشدة وقال:

«لكم تساعدني يا بني بشكل رائع لأتمكن من تنفيذ أمر ربي». ومن ثم رفع يديه إلى السماء وقال:

« يا ربي، ألهمني الصبر على ما أنا عليه الآن من حال! وارحمني بكبر سني!».

وقال إسماعيل عليه السلام:

«- يا ربي، ألهمني الصبر والتحمل في هذا الأمر!».

«يا أبتي، فتحت أبواب السماء. والملائكة في حيرة من أمرهم يسجدون لله يقولون: «يا ربي، إن نبياً هو على وشك أن يذبح نبياً إرضاءً لك... فارحمهم»

ومن ثم قال مثبتاً أباه على الطاعة:

«يا أبت، إن شرط المحبة أن لا تؤخر الأمر! هيا افعل ما تؤمر!»

ويمدد إبراهيم عليه السلام، إسماعيل عليه السلام ويقول:

«يا بني! وداعاً إلى يوم القيامة! أراك مرة أخرى في يوم القيامة!». وأخذ سكينه بشدة إلى رقبة إسماعيل عليه السلام. وفي تلك اللحظة يأمر اللَّه تعالى جبريل فيقول:

«إلحق واقلب السكين».

فيتجه جبريل في آن من السدرة إلى السكين فيقلبه. فيشد إبراهيم عليه السلام السكين مرة أخرى بشدة أيضاً ولكنها لا تتمكن من القطع مرة أخرى.

ويقول اللَّه عز وجل:

﴿... **يَا إِبْرَاهِيمُ. قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ**﴾ [٥٦٤]

ومن ثم وامتثالاً منه لأمر اللَّه تعالى، يأخذ جبريل عليه السلام خروفاً من الجنة ويكبر بقوله:

اَللهُ أَكْبَرُ اللَّهُ أَكْبَرُ

وعندما سمع إبراهيم عليه السلام هذا التكبير قابله بقوله:

لاَ اِلهَ اِلاَّ اللَّهُ وَاللَّهُ أَكْبَرُ

وأكمل إسماعيل عليه السلام بقوله:

اَللهُ أَكْبَرُ وَللهِ الْحَمْدُ

وبهذا الشكل، اكتملت أجزاء «تكبيرات التشريق» التي تبدأ في يوم عرفة من صلاة الصبح انتهاءً بصلاة العصر من اليوم الرابع من عيد الأضحى المبارك.

وعاد الأب والإبن إلى منزلهم شاكرين حامدين. وضمت سيدتنا هاجر إسماعيل عليه السلام إلى صدرها. وعاد إبراهيم عليه السلام مرة أخرى إلى جوار سيدتنا سارة.

---

٥٦٤. الصافات: ١٠٤-١٠٥.

أُمْتُحِن إبراهيم عليه السلام يوم ألقي في النار في نفسه، وامتُحِنَ بأمر الذبح بولده، ولكنه كسب في كلا الإمتحانين بتسليمه وتوكله على اللَّه. ثم جاء دوره ليمتحن في ماله. حيث تقول إحدى الروايات أن إبراهيم عليه السلام كان يمتلك من الماشية ١٢,٠٠٠ رأساً. وكان لديه كلاب كثيرة تحمي هذا القطيع. وكان يضع على أعناق هذه الكلاب قلادات من الذهب تحقيراً لمن يتمسك بهذه الدنيا. وبحسب هذه الرواية، يأتي جبريل عليه السلام إلى سيدنا إبراهيم عليه السلام على شكل رجل ويقول له سائلاً: لمن هذه الماشية؟

فيجيبه إبراهيم عليه السلام بقوله: هي لله ربي. وأنا مستودع عليها!.

فيقول جبريل عليه السلام: هلا تبيعها لي؟

فيقول إبراهيم عليه السلام: أُذكر اللَّه مرة أعطيك ثلثها، واذكره ثلاثاً أعطيك جميعها!.

فيقول جبريل عليه السلام: سبّوح قدوس ربّ الملائكة والروح.

فيقول إبراهيم عليه السلام: خذها، وقُدْها، هي جميعها لك!.

فيقول جبريل عليه السلام: إني ملك، لا أستطيع أخذها!.

فيقول له إبراهيم عليه السلام إجابة على قوله: إن كنت ملكاً فأنا خليل اللَّه. ولا أرد ما أعطيت!.

وفي نهاية الأمر باع إبراهيم عليه السلام هذا القطيع واشترى به أرضاً كبيرة. وجعل منها وقفاً يستفيد منه المسلمون. وهكذا كان إبراهيم عليه السلام أول من ابتدأ عملية الوقف[٥٦٥] في سبيل اللَّه عز وجل.

وبهذا الإمتحان الذي تخلى فيه إبراهيم عليه السلام عن كل ثروته في سبيل اللَّه في آن واحد، أثبت مرة أخرى أنه بحق «القريب المحب لله» «خليل اللَّه». ويعرج اللَّه جل جلاله على ذكر هذه الحادثة المتميزة لإبراهيم عليه السلام هذه فيقول:

﴿وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ...﴾[٥٦٦]

---

٥٦٥. الوقف: هو الشكل المؤسسي للمحبة والرحمة والمساعدة من الخالق إلى مخلوقه. أي بكلمة أخرى، هو الملك الذي يتقرب به العبد إلى ربه فيجعله موقوفاً له لا يمكن بيعه أو شراؤه.

٥٦٦. البقرة: ١٢٤.

ولادة إسحاق عليه السلام

أمام ما تقدم به إبراهيم عليه السلام من وفاء لربه تعالى مقدماً ابنه قرباناً لله تعالى وطلباً لرضاه، جاءت مكافأة اللَّه تعالى إليه بأن أحسن إليه ورزقه، على الرغم من كونه شيخاً كبيراً، ابناً آخر. وتتحدث الآيات الكريمة عن هذا الإحسان الإلهي فتقول:

﴿وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ. وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَى إِسْحَاقَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِنَفْسِهِ مُبِينٌ﴾ [٥٦٧]

وكان إبراهيم عليه السلام في تلك الفترة قد ناهز ١٢٠ عاماً، وكانت سيدتنا سارة تبلغ ٩٠ أو ٩٩ عاماً.

يروي ابن عباس رضي الله عنهما بأن جبريل عليه السلام أتى إبراهيم عليه السلام مع وفد من الملائكة يبشره ويفرحه بإسحاق عليه السلام. ومن ثم يتوجه مع هذا الجمع من الملائكة ليهلك قوم لوط.

ولقد أتى الملائكة لِزيارة إبراهيم عليه السلام على هيئة البشر من الضيوف. ولهذا، لم يعرفهم إبراهيم في باديء الأمر فقام لما هو عليه من إكرام الضيف بإعداد لحم البقر لهم ووضعه أمامهم ليأكلوا. لكنهم، ولكونهم من الملائكة، لم يأكلوا منه شيئاً. ففهم إبراهيم عليه السلام أنهم من الملائكة. ولكنه خاف في باديء الأمر من مجيئهم على هذا الشكل لكونه لم يكن على علم بما أتوا به من البشارة بولادة إسحاق عليه السلام. فقال لهم:

- هل حدث شيء أغضب اللَّه؟ أو أنكم أتيتم لتهلكوا قومي؟.

معبراً عن قلقه وخوفه. وللتأكد من كونهم ملائكة قال لهم: «ألا تأكلون؟» فقالوا:

- نحن لا نأكل بلا أجر!.

فقال إبراهيم عليه السلام في البداية «بسم اللَّه» وفي النهاية «الحمد للّه». فقال الملائكة:

- نعم الخليل، ونعم المحب الصادق!.

ومن ثم قالوا له عليه السلام:

- لا تخف يا إبراهيم، إنا ذاهبون من هنا إلى قوم لوط لنهلكهم!.

ففهم بهذا القول بشكل واضح سبب تركهم للطعام وقدومهم إليه بهذا الشكل.

٥٦٧. الصافات: ١١٢-١١٣.

وعندما تبدد عنه الخوف، بشر الملائكة إبراهيم عليه السلام بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب.

وكانت سيدتنا سارة تستمع إلى هذا الحديث من وراء ستار، فغطت وجهها بكِلْتا يديها لما كانت عليه من شدة الحياء والخجل. وتعجبت من هذه البشرى لكونها وسيدها قد أصبحا كباراً في السن من العجائز. فقال لها الملائكة:

- أتعجبين من أمر اللَّه وتقديره؟

ولكن إبراهيم عليه السلام، ومع فرحته بما جاءه من البشرى، حزن كثيراً لما سمعه من إهلاك لقوم لوط لأنه لم يكن يعلم أن المؤمنين من قومه سيكونون مستثنين من هذا العذاب. وأراد أن يلتجيء إلى اللَّه طلباً برفع هذا العذاب. فأخبره الملائكة أن لا فائدة بعد الآن من طلب الدعاء، وأكدوا له بأن هذا العذاب لن يصيب من كان منهم من المؤمنين. فاستبشر إبراهيم عليه السلام.

يتحدث القرآن الكريم عن هذه الحقيقة بقوله تعالى:

﴿وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ. فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمِ لُوطٍ. وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ. قَالَتْ يَا وَيْلَتَى أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ. قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحْمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ. فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَى يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ﴾ [٥٦٨]

«بحسب رواية ابن عباس، كان الرسل هم جبريل عليه السلام ومعه اثنانِ من الملائكة. وهم بحسب ما يرويه ميكائيل وإسرافيل»

ذلك أن إبراهيم عليه السلام كان خائفاً لما كان يظنه من أن غضب اللَّه تعالى وعذابه الذي سيصيب الكافرين من قوم لوط سيصيب لوطاً عليه السلام ومن آمن معه من الناس، فكان شديد الإصرار على ربه طلباً لرفع هذا العذاب. يقول تعالى:

٥٦٨. هود: ٦٩-٧٤.

﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ﴾ [٥٦٩]

وتتحدث هذه الآية عن أوصاف ثلاثة مهمة لإبراهيم عليه السلام:

- **الحلم**: الصبر الشديد والصبر على عدم أخذ الثأر والإنتقام المباشر ممَّن يرتكب الخطأ والجريمة وتحمّلهم.
- **أواه**: التأسف الشديد على الأحوال السيئة والعاقبة المحزنة والمؤلمة للناس بكثرة الآهات.
- **منيب**: المتجه بقلبه إلى اللَّه، والراجع إليه. كان إبراهيم عليه السلام يرجع إلى اللَّه تعالى في كل أموره ويثق بحكمه ويعتمد عليه.

بعد أن توجه إبراهيم عليه السلام إلى السماء سابقاً فدعا ربه بإهلاك من رآه من العاصين، وما كان من التحذير الإلهي إليه عن الإبتعاد عن ذلك، أصبح قلب إبراهيم عليه السلام مليئاً بالرحمة تجاه غيره من العباد. ولهذا، كان يلتجيء إلى اللَّه تعالى راجياً وطالباً رفع العذاب عن قوم لوط.

لكن قوم لوط كانوا قد ابتعدوا كل البعد عن الرحمة الإلهية، وكانوا أكثر ما يكون عليه أحد من الإثارة والرذيلة، ولهذا، لم يكن هناك من ملجأ آخر يصيبهم غير ذلك العذاب. لأنهم أصروا على طلب العذاب، واستمروا على ما أتوا عليه من ملعنة وأفعال شنيعةٍ. بل وصلوا إلى درجة لا يتحملون فيها وجود الطاهرين بينهم؛ فكانوا يقولون: «أَخرجوهم من قريتكم، إنهم أناسٌ يتطهرون!». ولهذا، يقول رب العزة والجلال:

﴿يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ﴾ [٥٧٠]

ويكرر اللَّه تعالى هذه الحقيقة في سورة الذاريات في الآيات ٢٤ إلى ٣٠ ليؤكد على أهمية هذه الحقيقة بأسلوب مختلف آخر.

ومن أوصاف إبراهيم عليه السلام الفارقة أيضاً هي إكرامه للضيف. فكان يُطْعم ويَسقي كل من يمر عليه. عن عكرمة قال: كان إبراهيم خليل الرحمن عليه السلام يُكنّى أبا الأضياف»[٥٧١]

٥٦٩. هود: ٧٥.

٥٧٠. هود: ٧٦.

٥٧١. ابن سعد، الطبقات، ١، ٤٧.

كان نبياً كثير الحب لضيوفه، كثير الإكرام لهم، كريماً جداً ومشرفاً. بل كان في الأيام التي لا يأتيه ضيف فيها يبحث في الطرق عن ضيف يكرمه ويدعو كل من يعبر تلك الطرق إلى بيته ليستضيفه ويكرمه.

إن إكرام الضيف هي صفة من صفات الأنبياء. على الرغم من أن الإعتدال في الأكل والشرب هو أمر يستدعي منا الحذر والإنتباه، إلا أن أنه لا إسراف في إكرام الضيف وما يقدم إليه من طعام يؤكل. مع التأكيد على ضرورة أن يكون هذا الإكرام والضيافة هي أمر خالص لله تعالى، بعيداً عن أفكار المنافع الدنيوية والنفسية.

زيارة إبراهيم عليه السلام لسيدنا إسماعيل

يتزوج إسماعيل عليه السلام من فتاة من قبيلة جُرْهُمْ. فقد أحبه أهل هذه القبيلة كثيراً. وتعلم منهم اللغة العربية. وتوفيت والدته سيدتنا هاجر عندما بلغت تسعة وتسعين سنة. ودفنت في موقع «الحجر» على مقربة من الكعبة.

يروي الحديث النبوي الشريف قصة زيارة إبراهيم عليه السلام لولده إسماعيل عليه السلام بقوله:

«بعد أن تزوج سيدنا إسماعيل عليه السلام، ذهب سيدنا إبراهيم عليه السلام لرؤية ابنه. ولكنه لم يجد إسماعيل عليه السلام. فسأل امرأته عنه فقالت: خرج يبتغي لنا.

ثم سألها إبراهيم عليه السلام عن معيشتهم وهيئتهم فقالت: نحن بشر، نحن في ضيق وشدة» فشكت إليه!

فقال إبراهيم عليه السلام: فإذا جاء زوجك فاقرئي عليه السلام، وقولي له لِيُغَيِّرْ عتبة بابه!.

فلما جاء إسماعيل كأنه آنس شيئاً -أي فهم مما شعر فيه من ريح طيبة بقدوم والده وذهابه-، فقال: هل جاءكم من أحد؟»

قالت: نعم، جاءنا شيخ كذا وكذا، فَسَأَلنا عنك فأخبرته، وسألني كيف عيشنا، فأخبرته أنا في جهد وشدة.

قال إسماعيل عليه السلام: فهل أوصاك بشيء؟

قالت زوجته: نعم، أمرني أن أقرأ عليك السلام، ويقول: غير عتبة بابك.

قال إسماعيلُ لزوجته -بعد أن فهم لطيفة أبيه-: ذاك أبي، وقد أمرني أن أفارِقَكِ، إالحقِي بأهلك.

فطلقها، وتزوج منهم أخرى، فَلَبِثَ عنهم إبراهيم عليه السلام ما شاء اللَّه، ثم أتاهم بعد فلم يجده، فدخل على امرأته -الجديدة التي تزوجها إسماعيل عليه السلام- فسألها عنه، قالت: خرج يبتغي لنا

قال إبراهيم عليه السلام: كيف أنتم؟» وسألها عن عيشهم وهيئتهم.

قالت: نحن بخير وسعة»، وأثنت على اللَّه.

فقال إبراهيم عليه السلام: ما طعامكم؟

قالت: اللحم.

قال إبراهيم عليه السلام: فما شرابكم؟

قالت: الماء.

فقال إبراهيم عليه السلام -يدعو اللَّه لهم-: اللَّهم بارك في اللحم والماء!.

ثم قال لزوج إسماعيل عليه السلام: فإذا جاء زوجك فاقرئي عليه السلام، ومريه يثبت عتبة بابه.

فلما جاء إسماعيل -أحس مرة أخرى بقدوم والده من العطر الجميل الذي استشعره في البيت- قال: هل أتاكم من أحد؟

قالت: نعم، أتانا شيخ حسن الهيئة، وأثنت عليه، فسألني عنك فأخبرته. ثم تابعت حديثها فقالت: فسألني كيف عيشنا فأخبرته أنا بخير.

فقال إسماعيل عليه السلام: فهل أوصاك بشيء؟

فقالت زوجته: نعم، هو يقرأ عليك السلام، ويأمرك أن تثبت عتبة بابك!.

فقال إسماعيل عليه السلام: ذاك أبي وأنت العتبة، أمرني أن أمسكك»[٥٧٢]

ونستطيع أن نفهم من هذه القصة أن الشكر هو وسيلة لزيادة النعمة واستمرارها. وبأن استصغار هذه النعمة والشكوى هو نوع من أنواع الجحود. ونتيجته إذاً هي نقصان هذه النعمة والحرمان والخسارة.

٥٧٢. البخاري، الأنبياء، ٩/ ٣٣٦٤.

بناء الكعبة

«...ثم لبث عنهم ما شاء الله، ثم جاء بعد ذلك، وإسماعيل يبري نبلا له تحت دوحة قريبا من زمزم، فلما رآه قام إليه، فصنعا كما يصنع الوالد بالولد والولد بالوالد، ثم قال يا إسماعيل، إن الله أمرني بأمر، قال: فاصنع ما أمرك ربك، قال: وتعينني؟ قال: وأعينك، قال: فإن الله أمرني أن أبني ها هنا بيتا، وأشار إلى أكمة مرتفعة على ما حولها، قال: فعند ذلك رفعا القواعد من البيت، فجعل إسماعيل يأتي بالحجارة وإبراهيم يبني، حتى إذا ارتفع البناء، جاء بهذا الحجر فوضعه له فقام عليه، وهو يبني وإسماعيل يناوله الحجارة، وهما يقولان: ﴿**رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ العَلِيمُ**﴾ [٥٧٣]، قال: فجعلا يبنيان حتى يدورا حول البيت وهما يقولان: ﴿**رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ العَلِيمُ**﴾ [٥٧٤] »[٥٧٥]

قال:

«حتى ارتفع البناء، وضعف الشيخ عن نقل الحجارة، فقام على حجر المقام، فجعل يناوله الحجارة ويقولان: ﴿**رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ العَلِيمُ**﴾ [٥٧٦] »[٥٧٧]

بحسب الروايات التي تتحدث عن إنشاء الكعبة، يلتقي سيدنا آدم عليه السلام وحواء في الأرض بعد إخراجهما من الجنة في أرض عرفات، ويسيران سوية باتجاه الغرب إلى أن يصلا إلى موقع الكعبة هذا. وفي هذه الأثناء يفكر سيدنا آدم عليه السلام بوسيلة يشكر اللَّه تعالى فيها على التقائه بحواء. فيدعو اللَّه أن يعيد عليه عامود النور الذي كان يطوف حوله متعبداً في الجنة. فيتجلى عمود النور في تلك المنطقة ويبد سيدناأ آدم عليه السلام بالطواف من حوله متعبداً.

ولكن عمود النور هذا يغيب في زمن سيدنا شيث عليه السلام ويبقى في مكانه حجر أسود. فيقوم سيدنا شيت عليه السلام بإنشاء بناء مكانه يشبهه في شكله على أربع زوايا ويضع

٥٧٣. البقرة: ١٢٧.
٥٧٤. البقرة: ١٢٧.
٥٧٥. البخاري، الأنبياء، ٩/ ٣٣٦٤.
٥٧٦. البقرة: ١٢٧.
٥٧٧. البخاري، الأنبياء، ٩/ ٣٣٦٥.

هذا الحجر الأسود في ركن من أركان هذا المبنى. وبحسب الراوي فإن ذلك هو الحجر الأسود المعروف. وبعد طوفان نوح، يبقى هذا المبنى فترة كبيرة من الزمن مغموراً بالتراب.

فيأمر اللَّه تعالى إبراهيم عليه السلام بأن يذهب إلى المكان الذي توجد فيه الكعبة، ويترك إسماعيل عليه السلام وأمه هناك. ومن ثم وبأمر من اللَّه تعالى يقوم بحفر المكان الذي توجد فيه الكعبة. فيجد أساسات البناء الذي بناه سيدنا شيث. فيبني على هذه الأساسات الكعبة الموجودة حالياً. والعبارة الموجودة في الآية الكريمة: «وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت» تشير إلى هذا الأمر.

ويضع إبراهيم عليه السلام الحجر الأسود في إحدى أركان الكعبة في إشارة منه إلى الناس للبدء في طواف الكعبة. هذا الحجر الأسود كان عندما خرج من الجنة أبيض من الثلج ولكن ذنوب البشر كانت سبباً في اسوداده.[٥٧٨]

وكانت الحرائق التي حصلت في عصري الجاهلية والإسلام من الأمور التي كانت سبباً أكبر في اسوداده أيضاً.

وعندما انتهى بناء الكعبة، دعا إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام اللَّه سبحانه وتعالى فقالا:

﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ. رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ العَزِيزُ الحَكِيمُ﴾[٥٧٩]

ويقول رسول اللَّه ﷺ في حديث يتعلق بهذا الدعاء فيقول:

«إني عبد الله، وخاتم النبيين، وأبي منجدل في طينته وسأخبركم عن ذلك أنا دعوة أبي إبراهيم، وبشارة عيسى، ورؤيا أمي آمنة التي رأت»[٥٨٠]

٥٧٨. انظر: أحمد، مسند، ١، ٣٠٧.

٥٧٩. البقرة: ١٢٨-١٢٩.

٥٨٠. أحمد، مسند، ٥، ٢٦٢؛ الحاكم، المستدرك، ٢، ٤٥٣

وبالحديث عن نسب شمس الضياء وفخر الكائنات سيدنا ونبينا ورسولنا محمد ﷺ فهو كالتالي:

محمد بن عبد اللَّه بن عبد المطلب، -وكان يقال له شيبة الحمد- **بن هاشم بن عبد مناف** -واسمه الأصلي مغيرة- **بن قصي** -وكان يسمى أيضاً زيد- **بن حاكم**-كلاب-**بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر** -**قريش**- **بن مالك بن النَّضْرِ بن كنانة بن حزيمة بن مدركة بن إلياس بن مُضَر بن نزار بن معاد بن عدنان.**

يصل نسب سيدنا محمد ﷺ في أجداده إلى عدنان. ويعرف بأن عدنان هو من سلالة إسماعيل عليه السلام. لكن الفترة الزمنية بينهما هي فترة غير معروفة.

وكخلاصة، إن إرسال الأنبياء من نسل إبراهيم عليه السلام، وبخاصة تشريف البشرية بفخر الكائنات ونور الوجود محمد المصطفى عليه أفضل الصلاة والسلام، هو أمر يجعله عليه السلام ذو مكانة استثنائية وعناية خاصة في تاريخ الأنبياء. ومناسك الحج والعمرة مليئة بالأركان التي ستبقى ذكريات روحانية تستمر إلى يوم القيامة تذكرنا سيدنا بإبراهيم عليه السلام. كما أن ملايين المسلمين يذكرون سيدنا إبراهيم عليه السلام كل يوم في صلواتهم الخمسة حين يرددون في صلاة التحيات صلاتهم على سيدنا محمد عليه أفضل الصلاة والسلام وعلى سيدنا إبراهيم عليه السلام.

يحدثنا أبو محمد كعب بن عجرة رضي الله عنه فيقول:

إن النبي ﷺ خرج علينا، فقلنا: يا رسول الله، قد علمنا كيف نسلم عليك، فكيف نصلي عليك؟ قال:

«فقولوا: اللهم صل على محمد، وعلى آل محمد، كما صليت على آل إبراهيم، إنك حميد مجيد، اللهم بارك على محمد، وعلى آل محمد، كما باركت على آل إبراهيم، إنك حميد مجيد»[٥٨١]

٥٨١. البخاري، الدعوات، ٣٢/ ٦٣٥٧؛ مسلم، الصلاة، ٦٦/ ٤٠٦؛ الترمذي، الوتر، ٢٠؛ ابن ماجه، الإقامة، ٢٥.

حجة إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام الأولى

ودعوة الناس للحج

عندما اكتمل بناء الكعبة، أتى جبريل عليه السلام إلى سيدنا إبراهيم عليه السلام فقال له: «طف بالبيت!» فكان إبراهيم عليه السلام وابنه يطوفان الكعبة ابتداءً من الحجر الأسود «يُسَلِّمانِ عليه» في كل شوط[٥٨٢]. وصليا خلف مقام إبراهيم ركعتين. وأديا كامل أركان الحج التي كان جبريل عليه السلام يدلهم عليها الواحدة تلو الأخرى. ومن ثم أخبر جبريل عليه السلام إبراهيم عليه السلام بأن يدعو الناس للحج. وعندما سأل إبراهيم عن كيفية قيامه بذلك، قال له جبريل عليه السلام مكرراً ثلاث مرات:

- أَذِّنْ في الناس بقولك «يا أيها الناس، أجيبوا دعوة ربكم»

ثم سأل إبراهيم عليه السلام ربه تعالى فقال:

- يا ربي، كيف يصل صوتي إلى كل البشر؟

فيوحي اللَّه تعالى إليه بقوله:

- عليك النداء، وعلينا البلاغ إلى كل البشر.

تعرج الآية القرآنية الكريمة على هذه الحقيقة فتقول:

﴿وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾[٥٨٣]

وبعد تلك الحجة الأولى، كان إبراهيم عليه السلام يعود في كل سنة إلى مكة يحج فيها. وبعد إبراهيم عليه السلام، استمر أنبياء اللَّه ورسله ومن آمن معهم من الناس بالحج إلى مكة. وكان كل نبي أو رسول يتحقق بأمته أمر اللَّه وغضبه، يهاجرون إلى مكة ويسكنون فيها حتى آخر يوم من حياتهم يطوفون فيها ويتعبدون ويشتغلون بالعبادة. ولهذا، يروى أن أكثر من تسعة وتسعين نبياً دفنوا بعد وفاتهم في مكان يقع بين مقام إبراهيم وماء زمزم، وأن سبعين من الأنبياء صلوا في المسجد الموجود في منى.

---

٥٨٢. الشوط: هو الطواف لمرة واحدة حول الكعبة المشرفة ابتداءاً من الحجر الأسود وانتهاءً عنده أيضاً.

٥٨٣. الحج: ٢٧.

أدعية إبراهيم عليه السلام ومناجاته

إن من أكثر الأنبياء الذين نقلت أدعيتهم في القرآن الكريم هو نبي اللَّه ورسوله إبراهيم عليه السلام. إذ أننا نجد أنه كان لا يترك وسيلة إلا واتخذها سبباً لمناجاة ربه من القلب. وإضافة لما ذكرناه أعلاه، فإن القرآن الكريم ينقل إلينا عنه هذه الأدعية أيضاً:

﴿رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ. الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ. رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ. رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ﴾ [٥٨٤]

كما نجد في سورة الشعراء هذا الطوفان الرائع من المناجاة التي تنبع من فؤاد سيدنا إبراهيم عليه السلام، يقول تعالى:

﴿رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ. وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ. وَاجْعَلْنِي مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ. وَاغْفِرْ لِأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ. وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ. يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ. إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [٥٨٥]

والقصد من القلب السليم هو من يصرف أمواله بفعل الخير، ويعلم أولاده الحق والحقيقة، الذي يسلم قلبه من فساد المال والأولاد، والجهل في الدين، ومن الأخلاق الذميمة ومختلف أنواع الإساءة.

وبحسب أبي القاسم الحاكم فإن للقلب السليم ثلاث علامات أساسية:

١. أن لا يضر بأحد ولا يؤذيهم.

٢. أن لا يتأذى من فعل أحد.

٣. أن لا ينتظر إحساناً من أحد على خير فعله.

---

٥٨٤. إبراهيم: ٣٨ – ٤١.

٥٨٥. الشعراء: ٨٣ – ٨٩.

علماً أن من لا يؤذي أحداً من الناس يأتي ربه تعالى يوم القيامة ورعاً تقياً، ومن لا يتأذى لفعل أحد يأتيه وفياً، ومن لا ينتظر إحساناً على خير فعله يأتيه يوم القيامة مخلصاً.

نصائح إبراهيم عليه السلام

يتجه سيدنا إبراهيم عليه السلام لرجل طلب منه النصيحة فيقول:

« إذا اشتغل الناس بأمور الدنيا، فعليك أن تشتغل عنها بأمور الآخرة. وإن اشتغلوا بتزيين المظاهر عليك أن تشتغل بتزيين قلبك. وإذا اشتغلوا بإعمار الحدائق والكروم والقصور فاشتغل أنت بإعمار قبرك. وإذا اشتغل الناس بذم عيوب بعضهم البعض، فاشتغل أنت بعيوبك».

وكان إبراهيم عليه السلام ذا شأن كبير وفضيلة جعلت كل الأمم تعترف به ولا تنكره. فاعترف مشركوا العرب بفضله ورفعته باعترافهم بأنهم من سلالته ونسله. وإضافة للمشركين، عظم من شأنه كل من المسلمين والمسيحيين واليهود، واعترفوا جميعاً بقدره ومكانته. واعتراف أكثرية العالم بفضله ومرتبته الرفيعة، لم يكن لأحد قط كما هو بالنسبة لإبراهيم عليه السلام.ولهذا، تحدد الآيات القرآنية صفة إبراهيم عليه السلام وتقطع كل ادعاءات غير المسلمين بحقه فيقول اللّه عز وجل:

﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ. إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [٥٨٦]

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال:

جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: يا خير البرية فقال رسول الله ﷺ:

«ذاك إبراهيم عليه السلام» [٥٨٧]

٥٨٦. آل عمران: ٦٧-٦٨.

٥٨٧. مسلم، الفضائل، ١٥٠/ ٢٣٦٩.

سيدنا إبراهيم عليه السلام
الشمال
الغرب
الشرق
الجنوب
البحر الأبيض المتوسط
البحر الميت
نهر الأردن
نهر النيل
سيناء
فلسطين
الأردن
لبنان
سوريا
العراق
الكويت
السعودية
مصر
ليبيا

سيدنا
إسماعيل
عليه السلام

سيدنا إسماعيل عليه السلام
من أصبح رمزاً للإخلاص والولاء والتوكل والتسليم

هو من الأنبياء الذين أتى ذكرهم في القرآن الكريم. ويقال له «ذبيح اللَّه» بمعنى «قربان اللَّه». وكان إسماعيل عليه السلام نبياً لقبيلة جُرْهُم التي قدمت من اليمن. ويعني اسمه «المطيع لله». واسمه باللغة العبرية هو إسمويل. وحولها العرب فقالوا له إسماعيل.

نشأ إسماعيل عليه السلام مع أبناء جُرْهُم، وتعلم رمي السهام منهم. وعندما وصل إلى سن البسالة كان يرمي السهام بشكل جيد جداً ويصيب ما يرمي. بينما كان جماعة من قبيلة إسلم يتبارون على رمي السهام، اقترب منهم رسول اللَّه ﷺ وقال لهم:

«ارموا بني إسماعيل فإن أباكم كان راميا...»[٥٨٨]

استمر إسماعيل عليه السلام بعد وفاة والده بخدمة الكعبة والحج. فقام بصناعة غطاء للكعبة أولاً. وأعطاه اللَّه النبوة، وأرسله نبياً إلى قبيلة جرهوم التي تسكن مكة وجوارها، وشعب العمالقة، وإلى قبائل اليمن، مرعب وحضرموت. ودعاهم إسماعيل عليه السلام إلى الإسلام خمسين عاماً. فآمن بعضهم، وأصر بعضهم على الكفر. ولكن أعداد من آمن معه كانت قليلة. واستمر إسماعيل عليه السلام بتأدية واجبه بكل صبر وثبات. تقول الآية الكريمة:

﴿وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾[٥٨٩]

وكان إسماعيل عليه السلام نبياً صادقاً لوعده، آمراً بالصلاة والزكاة، وكان مرضياً عند ربه. تتحدث آية كريمة أخرى أيضاً عن أوصافه هذه فتقول:

﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا. وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا﴾[٥٩٠]

٥٨٨. البخاري، الأنبياء، ٩/ ٣٥٠٧.
٥٨٩. الأنبياء: ٨٥.
٥٩٠. مريم: ٥٤ – ٥٥.

معجزاته

١. تحويله لأرض شائكة إلى الخضرة،

٢. إعطاء الأغنام العقيمة الحليب بدعائه،

٣. أن تكون أصواف الأغنام كالحرير،

٤. تحول التراب بقربه إلى الطحين بدعائه،

٥. خروج ماء زمزم بسببه، واستمرار تدفقها إلى يوم القيامة...

أوصافه الفارقة: الصبر، الحلم والتسليم.

عليه السلام...

سيدنا
إسحاق
عليه السلام

سيدنا إسحاق عليه السلام

مَنْ وُلِدَ مِنْ نَسْله أنبياءُ بني إسرائيل

هو ابن إبراهيم عليه السلام من زوجته سارة. وأوصافه التي تذكر في كتب التاريخ، فعن كعب الأحبار، قال:

«ثم كان إسحاق بن إبراهيم الذي جعله الله نورا وضياء وقرة عين لوالديه، فكان من أحسن الناس وجها وأكثره جمالا وأحسنه منطقا، فكان أبيض جعد الرأس واللحية مشبها بإبراهيم خلقا وخلقا، وولد لإسحاق يعقوب وعيص...»[٥٩١]

يمتدح القرآن الكريم إسحاق عليه السلام بهذا الشكل فيقول:

﴿وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ. إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ. وَإِنَّهُمْ عِنْدَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ﴾ [٥٩٢]

بعد وفاة والده إبراهيم عليه السلام، كلف إسحاق عليه السلام نبياً من اللَّه إلى شعب الشام وفلسطين. وجعل منه اللَّه تعالى إنساناً متميزاً وخيراً. تقول الآية الكريمة:

﴿وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ. وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَى إِسْحَاقَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِنَفْسِهِ مُبِينٌ﴾ [٥٩٣]

وفي نهاية حياته عليه السلام، ضعفت عيناه بسبب كبر سنه وأصيب بالعمى. ورزق بابنيه يعقوب وعِيص توأماً إلى الدنيا.

وبقي إسحاق عليه السلام حتى آخر يوم من حياته يدعو لولديه هذين فرداً فرداً. فكان يدعو ملتجئاً إلى جناب الحق تعالى بأن يكون نسل يعقوب من الأنبياء؛ وأن يكون عِيص كثير الأبناء، وأن يكون في نسله الملوك والسلاطين.

---

٥٩١. الحاكم، المستدرك، ٢، ٦٠٦/ ٤٠٤٣.

٥٩٢. ص: ٤٥-٤٧.

٥٩٣. الصافات: ١١٢-١١٣ .

معجزاته بحسب الروايات المختلفة

قال له قومه:

- إن لم تشهد الحيوانات على أنك نبي فلن نؤمن لك!

فقال إسحاق عليه السلام للحيوانات:

- يا أيتها الحيوانات! أخبروهم من أكون!

فقال الثعلب: أنت نبي اللَّه!.

وقال الغزال: أنت ابن خليل اللَّه!.

وقال التيس: أنت نبي اللَّه! من لا يؤمن بك يذهب إلى النار!.

وأيضاً أثناء تبليغه للدين في القدس قيل لإسحاق عليه السلام:

« إن حركت هذا الجبل عن مكانه آمنا بك!

فاهتز الجبل بهيبة كبيرة وآمن به شعب القدس. وبينما كان يدعو قومه للإيمان جاءه مرة أحدهم بجلود للماشية وقال له:

-أحي هذه!.

فأخذها إسحاق عليه السلام وملأ جوفها بالتراب ودعا اللَّه. فعادت جميعها إلى الحياة.

ومن معجزاته أيضاً أن يمرر يده على الخراف فتحبل.

❁

وبحسب إحدى الروايات، فإن إسحاق عليه السلام مات بالشام، وعمره مائة وستون سنة ودفن عند أبيه إبراهيم عليه السلام.[٥٩٤]

عليه السلام!...

٥٩٤. ابن الأثير، الكامل، ١، ١١٤.

التوكل، التسليم والحج

عندما تُذْكَرُ كلمة التسليم أو التوكل أو الحج، فإن أول ما يبادر إلى ذهن المرء هو إبراهيم عليه السلام وإسماعيل عليه السلام. علماً أن الحج هو العمل الصالح الذي سيتكرر إلى يوم القيامة نتيجة لإخلاصهم.

والتوكل لغة هو «الإستناد، الثقة، أخذ الوكيل، والثقة بالوكيل». وفي علم التصوف هو القلب الممتليء بحب اللَّه الذي لا يلتجيء ولا يثق بأحد سواه.

يسأل اللَّه سبحانه وتعالى موسى عليه السلام عن العصا التي في يده ومن ثم يأمره بأن «ألقها يا موسى». لأن تلك العصا هي حاجب لتوكل موسى عليه السلام الكامل على اللَّه.

تقول الآيات الكريمة:

﴿...وَعلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [٥٩٥]

﴿...وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [٥٩٦]

﴿...وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ [٥٩٧]

وفي الحديث النبوي الشريف، يقول رسول اللَّه ﷺ:

«لو أنكم كنتم توكلون على الله حق توكله لرزقتم كما يرزق الطير تغدو خماصا وتروح بطانا» [٥٩٨]

والتوكل ليس نوعاً من أنواع ترك التعقل والعزم، بل على العكس، إنه الأخذ بالأسباب والإلتجاء بعد ذلك إلى تجلي قدرة اللَّه تعالى. يقول اللَّه تعالى:

﴿...وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [٥٩٩]

٥٩٥. إبراهيم: ١١ .
٥٩٦. المائدة: ٢٣ .
٥٩٧. الطلاق: ٣.
٥٩٨. الترمذي، الزهد، ٣٣/ ٢٣٤٤؛ ابن ماجه، الزهد، ١٤/ ٤١٦٤.
٥٩٩. آل عمران: ١٥٩ .

إن اللَّه تعالى هو مسبب الأسباب. وهو قادر عندما يشاء على تنفيذ حكمه بعكس ما تجري عليه قوانين الطبيعة أيضاً:

ولهذا، خلق اللَّه تعالى سيدنا آدم عليه السلام من التراب، وخلق زوجه حواء أيضاً من بدنه.

وخُلِقَ عيسى عليه السلام من بطن سيدتنا مريم عليها السلام بدون أب بشكل مخالف لقوانين التزاوج والتكاثر.

ونجا إبراهيم عليه السلام فمنع النار من إحراقه، وأمرها بشكل مباشر فقال:

﴿...يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ﴾ [٦٠٠]

وفلق البحر شطرين بضربة من عصى موسى عليه السلام فجعل بينهما طريقاً إلى الطرف الآخر من الساحل فنجا موسى وقومه بإعجاز من فرعون وظلمه.

وأمات سيدنا عزير مئة عام بوضعية النوم؛ وحفظ خلال هذه المدة جميعها طعامه الذي بجانبه دون أن يفسد، وبعث حماره الذي مات بأن جمع عظامه وكسى العظام لحماً.

وأحيى أصحاب الكهف في عالم النوم الذي طال أكثر من ثلاثمئة سنة دون أن أي غذاء أو ماء يمكنهم من الحياة.

هو الخالق تعالى الذي يسير من يشاء على الماء، ويطير من يشاء بدون جناح. ويعمي البصر إن شاء. ويجعل القلب عيناً فيري من يشاء ما يشاء مما لا يمكن لعين في الرأس أن تراه.

ولكن، يجب التنبه إلى هذا الأمر؛ أن يعتقد المرء بأن النار التي لم تحرق سيدنا إبراهيم عليه السلام يمكن له أن يصل إلى مرتبة يظهر فيها هذا التجلي الإلهي فيه، هو أن يتجاوز الإنسان معرفة حدود نفسه. وعاقبة ذلك هي الخسران المبين.

ويروي لنا مولانا جلال الدين الرومي -رحمه الله- رأيه في هذا الشأن فيقول:

«هناك إلقاء المرء لنفسه في سبيل اللَّه. ولكن، قبل أن تلقي بنفسك في هذه النار، عليك أن تجد في نفسك الأوصاف الإبراهيمية إن كنت تمتلكها أم لا! لأن النار لا تعرفك، وتعرف الإبراهيميين ولا تحرقهم!»

٦٠٠. الأنبياء: ٦٩.

أي بالنتيجة، أن يقارن المرء نفسه بالعظماء من أصحاب المقامات الرفيعة وأصحاب الكمال، هو جهل في غير محله، وعاقبة مهلكة. فما يجب علينا هو أن نأخذ بالأسباب عند طلبنا للحلول ونلتجيء بعد ذلك إلى اللَّه تعالى. ذلك أن التوكل دون الأخذ بالأسباب هو أمر قد حذرنا رسول اللَّه ﷺ منه:

عن أنس بن مالك رضي الله عنه، يقول:

قال رجل: يا رسول الله أعقلها وأتوكل، أو أطلقها وأتوكل؟ قال: «**اعقلها وتوكل**»[٦٠١]

عن عبد الله بن عباس رضي الله عنه:

أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه، خرج إلى الشأم، حتى إذا كان بسرغ لقيه أمراء الأجناد، أبوعبيدة بن الجراح وأصحابه، فأخبروه أن الوباء قد وقع بأرض الشأم. فقال عمر: ادع لي المهاجرين الأولين، فدعاهم فاستشارهم، وأخبرهم أن الوباء قد وقع بالشأم، فاختلفوا، فقال بعضهم: قد خرجت لأمر، ولا نرى أن ترجع عنه، وقال بعضهم: معك بقية الناس وأصحاب رسول الله ﷺ، ولا نرى أن تقدمهم على هذا الوباء، فقال: ارتفعوا عني، ثم قال: ادعوا لي الأنصار، فدعوتهم فاستشارهم، فسلكوا سبيل المهاجرين، واختلفوا كاختلافهم، فقال: ارتفعوا عني، ثم قال: ادع لي من كان ها هنا من مشيخة قريش من مهاجرة الفتح، فدعوتهم، فلم يختلف منهم عليه رجلان، فقالوا: نرى أن ترجع بالناس ولا تقدمهم على هذا الوباء، فنادى عمر في الناس: إني مصبح على ظهر فأصبحوا عليه. قال أبوعبيدة بن الجراح رضي الله عنه: أفرارا من قدر الله؟ فقال عمر رضي الله عنه: لو غيرك قالها يا أبا عبيدة؟ نعم نفر من قدر الله إلى قدر الله، أرأيت لو كان لك إبل هبطت واديا له عدوتان، إحداهما خصبة، والأخرى جدبة، أليس إن رعيت الخصبة رعيتها بقدر الله، وإن رعيت الجدبة رعيتها بقدر الله؟ فجاء عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه فقال: إن عندي في هذا علما، سمعت رسول الله ﷺ يقول:

«**إذا سمعتم به بأرض فلا تقدموا عليه، وإذا وقع بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا فرارا منه**»[٦٠٢]

٦٠١. الترمذي، القيامة، ٦٠/ ٢٥١٧.

٦٠٢. البخاري، الطب، ٣٠/ ٥٧٢٩.

لأن الحديث النبوي الشريف يأمرنا بحماية أنفسنا من الأمراض المعدية. عن أبي هريرة ﷺ، أن النبي ﷺ قال:

«لا توردوا الممرض على المصح» [٦٠٣]

إن اللَّه ﷻ هو ملتجأ المؤمن في كلا العالمين. فمن يتوكل على اللَّه فهو حسبه. ويعود إليه أمر كل راحة فردية أو إجتماعية أو سعادة، فعليه التوكل، وهو المستعان جَلَّ وعلا.

والتسليم لغة هو إحناء الرأس تقبلاً لما قد يصيب المرء من حوادث دون أن يعترض عليها أو يشتكي، وخروجه منها بكل أمن وسلامة. والتسليم هو فعل من أفعال القلب، يؤمن لنا السلامة والنجاة من مرض الإعتراض والشكوى على الشريعة الشريفة والتقدير الإلهي، والطلبات التي لا تتناسب مع الإخلاص، والرغبات النفسانية التي تتعارض مع الأوامر الإلهية، والشبهات حول الأخبار التي أخبرنا بها رب العالمين.

وحال التسليم لا يمكن تحققه إلا من خلال الوصول إلى إحساس بالإعتماد هو جزء في مرتبة الإطمئنان. ويجب على من يعتمد عليه المرء في هذه المرتبة أن يكون ذا وصف يمكن للمرء من خلاله الاعتماد عليه. وبالتالي، فإن التسليم هو إحساس لا يمكن به إلا مع اللَّه تعالى وذلك من خلال الإيمان والوصول به إلى درجة الإطمئنان بأن:

- القوة والقدرة هي لله وحده،
- ما من قوة يمكن لها أن تضر أحداً أو تنفعه إلا إذنه،
- كل شيء فانٍ إلا وجهه،
- كل شيء بحاجة إليه، وهو لا يحتاج لأي شيء أو أحد،
- ليس كمثله أحد.

ولهذا السبب، إن التسليم بقدر اللَّه لا يأتي إلا من خلال معرفته جَلَّ وعلا والإيمان به. إن التسليم هو أهم نوع من أنواع التجاء القلب إلى اللَّه في تكوين لخلاصة العبادة. وهذا التوجه يبتدأ بالإيمان، ويزداد كلما ازدادت المعرفة به جَلَّ وعلا.

ولقد أظهر لنا إبراهيم عليه السلام أجمل أنواع الأمثلة على التسليم لقدرة اللَّه وقدره. فهو الذي لا يشغل قلبه إلا اللَّه وحده. ولهذا تسأل الملائكة ربها فتقول:

٦٠٣. البخاري، الطب، ٥٣/ ٥٧٧٤ .

«يا ربي! كيف يمكن لإبراهيم أن يكون خليلاً لك ولديه روح وولد ومال!؟»

وبين اللَّه تعالى وأظهر للملائكة تسليم إبراهيم عليه السلام القاطع بقضاء اللَّه وقدره الذي لم يشبه أي نوع من الإعتراض لثلاث مرات متتالية. وستبقى هذه الأمثلة الثلاثة بكل ما تحتويه من امتحانات ونتائج، مثالاً للأمة إلى يوم القيامة.

عندما أريد لإبراهيم عليه السلام أن يلقى في النار، أتته الملائكة تعرض عليه العون والمساعدة. ولكنه قال حينها:

– لا حاجة لي بكم! فمن ذا الذي أعطى النار قدرة الإحراق؟ إن اللَّه هو نعم الوكيل!. ملتجئاً إلى اللَّه وحده.

وأمام هذا التسليم بقضاء اللَّه وقدره، أمر اللَّه تعالى النار فقال:

– يا نار كوني برداً وسلاماً على إبراهيم!

كذلك الأمر، وتسليماً منهما بقضاء اللَّه وقدره، سار الأب وابنه أحدهما مضحياً وآخر الأضحية دون أن يتمكن الشيطان من إفساد ذلك الرابط الذي يتعلقان به بربهما سبحانه. وهكذا، وفي اللحظة الحاسمة، يأتي اللطف الإلهي فيفتديه عليه السلام بكبش أنزله اللَّه من الجنة.

كما أصبحت ثروة إبراهيم عليه السلام بلا أهمية أمام ذكر جبريل عليه السلام لله جَلَّ وعلا حيث قال له: «خذها واذهب بها!».

يعرف رويم –رحمه اللَّه– التصوف بقوله:

«التصوف هو تسليم النفس للإرادة الإلهية...».

العبادة تسليم. لأن اللَّه لا يريد للعبد أن يكون عبداً لغيره. ويريد له التخلص من مقبض الهوس والهوى. تقول الآيات الكريمة:

﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ...﴾ [٦٠٤]

﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ﴾ [٦٠٥]

٦٠٤. الإسراء: ٢٣.

٦٠٥. الجاثية: ٢٣.

إن التسليم هو فعل الطاعة المعتمد على الحب. وبسبب بركة الطاعة والتسليم بقضاء اللَّه وقدره، لم تشكل نفس إبراهيم عليه السلام، ولا ماله ولا ولده عائقاً في طريقه لربه تجلى وعلا. وأصبحت فريضة الحج أجمل رمز يستمر إلى يوم القيامة تعبيراً على تسليمه وتوكله على اللَّه. لأن إبراهيم عليه السلام كان دائماً بذكر بلسانه مترجماً لحالة قلبه فيقول:

﴿...أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[٦٠٦]

إن فريضة الحج التي هي رمز لمشهد التوكل والتسليم عند سيدنا إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام، هي في نفس الوقت عبادة مليئة بالحب للحق تعالى. وهي مدخل إلى المغفرة الإلهية عبر أحاسيس التوكل والتسليم بعيداً عن رداء الصفات البشرية. ففي موسم الحج، ينخلع الحاج عن رتب الدنيا ومنازلها كافة فيلبس قطعتين من القماش تغطي جسده من الأعلى والأسفل، ويتكشف رأسه وقدميه، ويصبح بهذا الشكل في مشهد للتسليم التام الذي يعبر عن التجائه لربه تعالى من أعماق فؤاده وقلبه.

وفترة الإحرام فترة مميزة، لا يجب قطع أي عشب فيها، ولا إسقاط أي شعرة، ولا يحل فيها قتل أي من المخلوقات. فيحرم أثناء هذه العبادة كل من الرفث والفسوق والجدال[٦٠٧]. فلا مجال اليوم إلا لمحبة اللَّه تعالى ومرحمته ورعايته يمد بها عباده ومخلوقاته.

وهكذا، فإن عبادة الحج تظهر لنا بشكل واضح أن التخلص من الخطايا لا يمكن إلا من خلال بركة العبادة التي نتكل فيها على الحق جَلَّ وعلا بكل توكل وتسليم.

نسأل اللَّه تعالى أن يمن علينا بعمر نقضيه بالتوكل والتسليم لوجهه! وتكون الذات الإلهية فيها هي ملجؤنا واتكالنا الأعظم الوحيد! ونسأله تعالى أن يرزق أفئدتنا نصيبها من بركة الحج!

آمين...

---

٦٠٦. البقرة: ١٣١.

٦٠٧. انظر سورة البقرة، الآية ١٩٧. الرفث: هو القيام بالعملية الجنسية، أو التحدث في أي شأن من شؤونها. ويذهب البعض إلى أنها تعني أي كلمة تحمل أي معنى سيء أيضاً. الفسق: هو كل فعل من الأفعال المحرمة. الجدال: المناقشات التي لا لزوم لها، والمجادلة.

سیدنا لوط
علیہ السلام

سيدنا لوط عليه السلام

داعي الهداية لشعب السدوم

المنجرون إلى كل نوع من أنواع الرذيلة وقلة الأخلاق

هو ابن حران أخو إبراهيم عليه السلام الذي ذكر اسمه في القرآن الكريم سبعةً وعشرين مرة.

كان لوط عليه السلام هو أول من آمن لإبراهيم عليه السلام، وصاحب شرف الهجرة معه في سبيل اللَّه، متعبداً على شريعة سيدنا إبراهيم عليه السلام، وأهل للعبادة والكرم والصبر، والتقوى وحسن الضيافة. وكان يعمل في الزراعة معتمداً على معيشته من تعب يديه.

يقول اللَّه تعالى:

﴿وَلُوطًا آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ تَعْمَلُ الْخَبَائِثَ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَاسِقِينَ. وَأَدْخَلْنَاهُ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [٦٠٨]

﴿وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [٦٠٩]

بدأ نبي اللَّه لوط عليه السلام بإيفاء رسالته النبوية مع شعب السدوم. فبدأ يدعوهم إلى عبادة الحق جَلَّ وعلا.

شعب السدوم

وكان شعب السدوم شعباً رذيلاً خالياً من الأخلاق. فكان مجتمعاً يرتكب كل نوع من أنواع سوء الأخلاق التي لم يقم بها أي مجتمع قبلهم. فاعتادوا على ارتكاب الأفعال الذميمة والمقرفة بكل جرأة بل وذهبوا إلى ما هو أبعد من ذلك من الأفعال. فكانوا لا يستمعون لمن يحاول إصلاحهم وهدايتهم فيقولون:

﴿... أَخْرِجُوهُمْ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ [٦١٠]

---

٦٠٨. الأنبياء: ٧٤-٧٥.

٦٠٩. الأنعام: ٨٦.

٦١٠. الأعراف: ٨٦.

ونسي هذا المجتمع كل أنواع العِفّة والحياء والشرف، وجهروا بفعل أمر دنيء لا يمكن لأحد أن يجده حتى في مجتمع الحيوانات الذي قارنهم القرآن الكريم بهم بأن أكد بأنهم أدنى منهم مرتبة ورفعة فقال: «بل هم أضل»، أي أقل مرتبة من الحيوان نفسه.

وهكذا، كانت مهمة لوط عليه السلام دعوة هذا القوم السيء الطالع على هذا القدر من الدناءة. فكان يدعوهم ليل نهار بكل عزم ومجاهدة. ويروي لنا القرآن الكريم هذه القصة في الآيات الكريمة فيقول اللّه تعالى:

﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ. إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ. فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ. وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ. أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ. وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ﴾ [٦١١]

كذب قوم لوط عليه السلام نبيهم بشكل مباشر. ولم يؤمنوا لدعوته. فبدأ لوط عليه السلام يبين لهم شدة سوء ما يفعلون من الرذيلة فقال لهم:

﴿...قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ [٦١٢]

وبين لهم أن ما يقومون به من أعمال سيئة ستكون مصدراً يجر بهم إلى الهاوية. فما كان منهم إلا أن حاولوا إخراج لوط عليه السلام من مدينتهم. يقول تعالى:

﴿وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوهُمْ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ [٦١٣]

إن التطهر، والشرف والعفة، تعتبر لدى هذا القوم، الغارق في الرذيلة وانعدام الأخلاق، أمراً محرماً غير مرحب به. فكانوا يشعرون بالضيق من مشاهد الطهر لدى الناس لما هم عليه من تغذية روحية من الرواسب «القمامة». فعمدوا إلى التهديد بقولهم:

﴿...قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَا لُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ﴾ [٦١٤]

فذكرهم لوط عليه السلام بعذاب اللّه:

---

٦١١. الشعراء: ١٦١- ١٦٦.
٦١٢. الأعراف: ٨٠.
٦١٣. الأعراف: ٨٢.
٦١٤. الشعراء: ١٦٧.

﴿وَلَقَدْ أَنْذَرَهُم بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ﴾ [٦١٥]

ولكنهم لم يهتموا للتهديد الإلهي ولم يستوعبوا قدر العذاب الذي سيصيبهم من خلاله. فتجرؤا على تحدي لوط عليه السلام بكل جرأة وسفالة فقالوا:

﴿...ائْتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [٦١٦]

ولم يقتربوا بذلك من الإمتناع عن الشذوذ الذي هم عليه.

الصيحة «الصوت الرهيب» ومطر الحجارة الحامية

بحسب إحدى الروايات، استمر لوط عليه السلام بدعوة قومه أربعين سنة كاملة في ظروف صعبة جداً. ووصل حال قومه إلى درجة من الظلم والشذوذ لا يمكن تحمله أكثر من ذلك. فكان شعب السدوم مستحقاً للعذاب الإلهي بل وكانوا يطالبون به بكل شدة وجرأة. فما كان من لوط عليه السلام إلا أن التجأ إلى ربه، وطلب منه العون والمساعدة. فناجى ربه تعالى بقوله:

﴿رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ﴾ [٦١٧]

﴿قَالَ رَبِّ انصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ﴾ [٦١٨]

لقد عمل سنوات طويلة لسعادة وهداية قومه، ولم يؤمن معه برغم ذلك إلا ابنتيه مع نفر قليل منهم. وحتى زوجته كانت مع القوم الضالين. ولهذا، كان هذا الدعاء هو الملجأ الأخير للوط عليه السلام. ويرسل اللّه تعالى ملائكته ليهلك قوم لوط. وحتى هؤلاء الملائكة الذين أرسلهم اللّه جل جلاله إلى لوط عليه السلام على شكل فتيان، كانت سبباً في تفجر رغبات قومه الذين اتخذوا من اللواط شذوذاً لهم. ولهذا، عمدوا إلى المطالبة بهؤلاء الضيوف من الفتيان طلباً للرذيلة معهم. يتحدث القرآن الكريم عن هذا الأمر فيقول:

﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هـذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ﴾ [٦١٩]

٦١٥. القمر: ٣٦.
٦١٦. العنكبوت: ٢٩.
٦١٧. الشعراء: ١٦٩.
٦١٨. العنكبوت: ٢٩.
٦١٩. هود: ٧٧.

إذ أن لوطاً عليه السلام عندما رأى الملائكة على شكل شباب يافعين لم يعرفهم وظنهم من البشر فخاف عليهم من اغتصاب قومه لهم. إذ أن الآية ٨٠ والآية ٨١ من سورة الأعراف تتحدث عن هذا الأمر وما وصل إليه قوم لوط من شدة التعطش للرذيلة والفاحشة وكذلك الآية ٧٨ من سورة هود

﴿وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ قَالَ يَا قَوْمِ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ﴾ [٦٢٠]

وبحسب بعض التفاسير، فإن المقصود من دعوة لوط عليه السلام لقومه بالزواج من بناته لم تكن بمعناها بناته من صلبه، وإنما نساء قومه. لأنه لم يكن لديه إلا ابنتين اثنتين. وباعتبار أن كل نبي من أنبياء اللَّه هو سيد القوم ووالدهم المعنوي جاء قول لوط عليه السلام على شكل: «هؤلاء بناتي». ولكن شعب السدوم الذين غابت عن بصيرتهم الهداية قالوا:

﴿قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ. قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾ [٦٢١]

يوضح النبي ﷺ مقولة لوط عليه السلام إلى قومه بعد سرده لأحداث هذه الحادثة فيقول عليه الصلاة والسلام في حديث أخرجه ابن جرير عن قتادة:

«...رحمة الله على لوط، إن كان ليأوي إلى ركن شديد، إذ قال لقومه: لو أن لي بكم قوة، أو آوي إلى ركن شديد، وما بعث الله من بعده من نبي إلا في ثروة من قومه» [٦٢٢]

ويقول الله عز وجل:

﴿قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾ [٦٢٣]

٦٢٠. هود: ٧٨.

٦٢١. هود: ٧٩-٨٠.

٦٢٢. أحمد، مسند، ١٤، ٢٢/ ٨٣٩٢؛ ابن حبان، الصحيح، ١٤، ٨٦/ ٦٢٠٦.

٦٢٣. هود: ٨١.

ولهذا، على الرغم من تقدم القوم الشاذين الضالين إلى باب لوط عليه السلام للمرة الأخيرة، عميت أعينهم جميعاً فجأة في لحظة واحدة. تتحدث الآية الكريمة عن هذه الحقيقة بقوله تعالى:

﴿وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ﴾ [٦٢٤]

وبحسب رواية القاضي البيضاوي وفخر الدين الرازي، كان أحد هؤلاء الملائكة هو سيدنا جبريل عليه السلام. فعندما كسر الجمع الباب ودخلوا إلى الدار قام سيدنا جبريل عليه السلام بحركة أعمت عيونهم جميعاً. فلم يتمكنوا حتى من الوصول إلى مخرج الباب فيهربوا. بل إن سيدنا لوطاً عليه السلام كان يمسك بهم الواحد تلو الآخر ويدلهم على طريق الخروج من البيت.

﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ مَنْضُودٍ. مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾ [٦٢٥]

تروي الآيات ٥٨-٧٧ من سورة الحجر قصة حلول العذاب الإلهي وهلاك قوم لوط بأسلوب روائي مختلف. كما يصف القرآن الكريم حالة البلدة التي عاش فيها هذا القوم بكلمة «المؤتفكة» التي تعني المقلوبة رأساً على عقب.

عقاباً لهم على ارتكابهم فعلاً شنيعاً مقرفاً هو ممارسة اللواط، عذب اللَّه تعالى قوم لوط بأن أرسل عليهم في باديء الأمر صوتاً شديداً مرعباً، تبعه بعد ذلك قلب الملائكة لبلدتهم رأساً على عقب، ومن ثم أمر عليهم حجارة من سجيل منضود، في مشهد مرعب للعذاب يمحو هذه الأمة من مشهد التاريخ كاملة.

ويترك اللَّه سبحانه وتعالى آثار هذا العذاب عبرة لمن سيخلفهم من الناس فيقول جناب الحق عز وجل:

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْمُتَوَسِّمِينَ. وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُقِيمٍ. إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [٦٢٦]

٦٢٤. القمر: ٣٧.
٦٢٥. هود: ٨٢-٨٣.
٦٢٦. الحجر: ٧٥-٧٧.

وتتحدث سورة العنكبوت أيضاً في الآية ٣٥ عن عذاب قوم لوط مبينة لنا أن اللَّه تعالى قد ترك في تلك المدينة آثاراً وعلامات واضحة تبين للأمم القادمة هذا الغضب الإلهي وتدعوهم للعبرة منها. يقول اللَّه تعالى:

﴿وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [٦٢٧]

ويفسر البعض هذه الآيات بأنها ما يروى من قصص وحكايات عن هذا العذاب، وبقايا القرية المدمرة، والحجارة التي أمطرت من السماء، والأنهار الداكنة اللون التي تعبر في المكان.

ويفسر فخر الدين الرازي قوله تعالى: «وإنها لبسبيل مقيم» معتمداً في تفسيره على أن هذه الآيات الكريمة من قصة لوط عليه السلام إنما أنزلت إلى مشركي مكة بداية، وهم الذين كانوا يسلكون في طريقهم التجارية بين مكة والشام بوادي لوط الذي يقع على جنوب رحلتهم. ويوضح بأن آثار قوم لوط يجب البحث عليها في هذا الموقع إذن.

نساء سيدنا لوط وأولاده

عندما بدأ لوط عليه السلام دعوته وكلف بالنبوة، كان متزوجاً من امرأة اسمها فوات كانت مِمَّن آمن به. ولكن زوجته هذه توفيت بعد عشرين سنة. فتزوج لوط عليه السلام بامرأة من قوم السدوم اسمها واحلة. لكن هذه الزوجة كانت امرأة منافقة. فكانت تسكت عن شذوذ قومها وكفرهم. بل وكانت تدعم سراً قومها ضد لوط عليه السلام.

ففي إحدى أوقات المغرب، وعندما أتى الملائكة رضوان اللَّه عليهم إلى لوط عليه السلام على هيئة الشباب اليافعين، جميلي الوجه والمحيا، أسرعت واحلة إلى قومها تنبؤهم بخبر ذلك. فخانت بذلك لوطاً عليه السلام. وكان ذلك سبباً رئيسياً في هلاكها مع قومها.

وكان للوط عليه السلام ابنتان من المؤمنات. وخرجت كلاهما مع لوط عليه السلام ومن آمن معه من الناس قبيل إهلاك اللَّه لشعب السدوم فكانتا ممن نجا معه.

ثم ذهب من نجا منهم معه برفقة سيدنا لوط عليه السلام إلى جوار إبراهيم عليه السلام. فقام سيدنا إبراهيم عليه السلام بتزويج هاتين البنتين من رجلين مؤمنين من قومه. فكرم اللَّه تعالى بذلك لوطاً عليه السلام ونسله. فكان أهل مدين من نسل ابنتيه عليه السلام.

٦٢٧. العنكبوت: ٣٥.

الأفعال السيئة الموجودة في قوم لوط وأسباب الهلاك

١. عبادتهم للأصنام

٢. ممارستهم للواط «أي مجامعة الرجل للرجل».

يروي ابن عباس رضي الله عنه عن رسول اللَّه ﷺ يقول:

«ملعون من عمل عمل قوم لوط» [٦٢٨]

يقول مالك بن دينار:

«لم يرتكب أي من الأمم السابقة فاحشة اللواط. إلا قوم لوط الذين بدأ معهم هذا الفعل الشنيع. وكان الشيطان هو من علمهم هذا الفعل. وعندما بدأ الناس بممارسة هذا الفعل الذي يخالف الخلق، اتجهوا نحو الغضب والعذاب الإلهي. لقد وهب اللَّه تعالى الناس الشهوة زيادة في النسل. ولهذا، فإن استخدامها في غير غايتها وخارج نطاق حكمتها هو تحرك بغفلة وجهل من الإنسان وشهوانية. وهو ما ينزل بالإنسانية من مرتبة الشرف والكرامة إلى أسفل من موضع القدم بل إلى مرتبة أدنى من الحيوانات».

٣. القتل عبر اللواط:

عندما كان الأراذل من قوم لوط يريدون أن يقتلوا أحداً من الناس، كانوا يأمرون الناس بممارسة فعل اللواط معه أولاً إهانة له وتشديداً في الأذية والضرر، ويقتلونه بعد ذلك.

٤. كان قوم السدوم يمارسون فجورهم علانية. وكانوا يعيبون من تعفف منهم. بل وصل بهم الحال من الدنو أن يجعلوا من ضراطهم بشكل علني وسبباً في التسلية واللعب.

بل وذهب قوم لوط في فجورهم وعصيانهم لدرجة كانوا يرفضون وجود من تعفف بينهم فكانوا يقولون للوط عليه السلام:

«يا لوط! لئن لم تنته عن هذه الأقوال -النصائح-، فإنك بالتأكيد ستطرد من مدينتنا»

٥. كانوا يقطعون الطريق؛ فكانوا يرمون الحجارة الكبيرة على المارة من الطريق.

---

٦٢٨. الترمذي، الحدود، ٢٤/ ١٤٥٦؛ أحمد، مسند، ٥، ٨٣/ ٢٩١٤.

كانوا يجلسون على جنب الطريق، ويرمون من مر من الناس بالحجارة. وإذا مر غريب من هذه الطريق، رموه بالحجارة استهزاءاً وأذية.

٦. النميمة.

٧. البخل.

يروي الحسن البصري أن رسول اللَّه ﷺ عندما فرغ من سرده لأسباب عذاب قوم لوط أكمل في حديثه فقال:

«عشر خصال عملها قوم لوط بها أهلكوا وتزيدها أمتي بخلة: إتيان الرجال بعضهم بعضا ورميهم بالجلاهق والخذف ولعبهم بالحمام وضرب الدفوف وشرب الخمور وقص اللحية وطول الشارب والصفير والتصفيق ولباس الحرير وتزيدها أمتي بخلة: إتيان النساء بعضهن بعضا» [٦٢٩]

يأمر اللَّه سبحانه وتعالى بأخذ العبرة من هلاك قوم لوط، ويبين بأنه ترك آثار الأمم السابقة التي أهلكها عبرة لتاريخ الإنسانية.

وبالفعل، إن «الآيات الواضحة» التي يمكن للمرء رؤيتها في وادي لوط هي غريبة إلى أبعد درجة. فالأحداث التي تجري على أطراف وادي لوط، إضافة إلى الوضع الجيولوجي لهذه الأراضي هو ملفت جداً للنظر. فهذا الوادي مثلاً هو منخفض عن سطح البحر الأبيض المتوسط بأربعمئة متر. وأعمق نقطة في هذا الوادي هي على عمق أربعمئة متر أيضاً. أي أنها على عمق ثمانمئة متر عن سطح البحر الأبيض المتوسط. علماً أن أعمق نقطة عن سطح البحر لا تتجاوز مئة متر فقط إلا وادي لوط. وكأن اللَّه تعالى أراد بذلك أن يبين مدى سفالة ودناءة قوم لوط من خلال مستوى الأرض التي عاشوا فيها.

كما أن سورة الروم في الآية الثالثة منها تتحدث عن هذه الأرض والمنطقة فتصفها بقوله تعالى : «أدنى الأرض: أي أخفض منطقة على سطح الأرض».

وعلى الرغم من أن هذا القول يفسر أيضاً على أنه «أقرب مكان» إلى المنطقة التي يعيش فيها العرب، إلا أن المعنى الأصلي للكلمة هو «أسفل أو أخفض منطقة على سطح الأرض». علماً أنه مع تقنيات العلم الحديث، وعندما تم البحث من خلاله على أكثر

٦٢٩. السيوطي، الجامع الصغير، ١ / ٨١٥٠.

المناطق انخفاضاً على سطح الأرض، تبين أن هذا المكان هو وادي لوط الذي تمَّت الإشارة إليه في القرآن الكريم في هذه الآية.

ولكون القرآن الكريم تنزل في فترة لم يكن من الممكن التوصل بها علمياً إلى مثل هذه الحقيقة، فإن هذه الآية الكريمة أيضاً هي بمثابة الدليل القاطع أيضاً على تأكيد نزول القرآن الكريم بأنه كلام اللَّه تعالى، خصوصاً بعدما تم تأكيد هذا الأمر في هذا الزمن باستخدام الأدلة العلمية الواضحة.

ومن خصائص بُحَيْرة وادي لوط أيضاً، أن نسبة الملح فيه أيضاً هي بنسبة ثلاثين في المئة. ولهذا، فإنه لا يمكن في هذه البحيرة للسمك أو النبات أن يعيش. ولهذا، يقال عن هذه البحيرة أيضاً «البحر الميت». لتكون هذه الحقيقة أيضاً عبرة أخرى بأنه حتى الحيوانات لا يمكن لها العيش في هذا المكان الملعون. هذه البحيرة التي هي بلون الزفت، تنشر رائحة كريهة أيضاً. وكأن هذه البحيرة تحدث البشرية بِصفاتها هذه عن الخطايا التي ارتكبت في جوارها.

ويروى أن هذه القصة التي تحدث عنها القرآن الكريم محدثاً عن هذا القوم، قد حصلت في السنوات ١٨٠٠ قبل الميلاد تقريباً. وبسبب كثافة الملح الموجود فيها، يمكن مشاهدة الأشجار التي بقيت محنطة في منطقة السدوم المغمورة التي أتى فيها عذاب اللَّه تعالى. أما بقايا وآثار هذه المدينة فإنها بسبب تأثير عذاب اللَّه قد غرقت في بطن الأرض.

ومن الأحداث المشابهة لما حصل في مدن السدوم-المغمورة من عذاب إلهي، فإن «فاجعة البومباي» هي مشابهة لها جداً:

هلاك قوم البومباي

إن البومباي هي رمز لبقايا الإمبرطورية الرومانية الموجودة في إيطاليا. ومدينة البومباي أيضاً التي اشتهرت باللواط غرقت بنفس الأسلوب أيضاً الذي أهلك اللَّه تعالى به قوم لوط.

فبحسب المعلومات التاريخية المسجلة، كانت هذه المدينة قبل هلاكها هي مركزاً لقلة الأدب والشذوذ. ولهذا، وبعد عيسى عليه السلام بسبعين سنة، تتفجر حمم بركان فزوف بشكل مفاجيء وتمحو هذه المدينة عن الخارطة، ولا ينجو أحد من هذه المدينة من

عذاب اللَّه. فرجم أهل هذه المدينة الشاذون بما هم عليه من حماقة وتعاسة أثناء قيامهم بهذه الرذيلة فما نجا منهم أحد.

وحدثت هذه الواقعة في لحظة واحدة. وهو ما كان سبباً في وصول عذاب اللَّه إليهم بشكل مفاجيء. وتبقى آثارهم كما هي عليه حتى هذه اللحظة دون أن تتعرض لأي نوع من التلف في حكمة وموعظة وعبرة للبشرية.

يخبر القرآن الكريم عن مثل هذا الهلاك الآني بقوله:

﴿إِنْ كَانَتْ إِلاَّ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ﴾ [٦٣٠]

لقد هلك شعب البومباي بهذه الطريقة في آن واحدة. وبقيت مناظر ومشاهد هذا القوم أكثر من ألف وتسعمائة سنة وحتى الآن ترينا قبح وجوه هذا الشعب السيء الطالع، في لوحة تشكل عبرة لنا من التاريخ.

يقول اللَّه تعالى:

﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِن قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا﴾ [٦٣١]

إن صحف التاريخ المليئة بالعبر، هي وكأنها مقبرة للأمم. فكان الكفر، وقلة الأخلاق، والظلم هي دائماً الأسباب الرئيسية لهلاك وزوال هذه الأمم. وكانت سكرات الموت لدى هذه الأقوام الظالمة الكافرة هي أعظم تجلٍّ للإنتقام الإلهي. وعلى الرغم من مرور العصور الكثيرة، بقي قوم البومباي حتى يومنا هذا، وكأنما هو لوحة للعبرة لمن رجم من الناس المجرمين. فكأنها سهوات إنسان تحول معنوياً إلى الحيوان!...

إن الغافل عن رؤية هذه العبر المتجلية، وهذه الحقائق المرئية، والمحروم من إدراك عبرها فيشاهدها بنظرة نفسانية، هو كما لو أنه مجرد هيكل بسيط لا يدرك ولا يعقل.

وهكذا، غرقت مدينة موضع شعب السدوم – المغمورة الذين ظنوا بسوء طالعهم من الشذوذ وقلة الحياء وانعدام العفة في باطن الأرض، وبقيت الآثار المنحوتة بعظمة بين الصخور لقوم عاد وثمود الذين اتخذوا من الأصنام آلهة لهم آثاراً وبيوتاً خاوية لا يمر عليها إلا الطيور العابرة!.

---

٦٣٠. يس: ٢٩.

٦٣١. مريم: ٩٨.

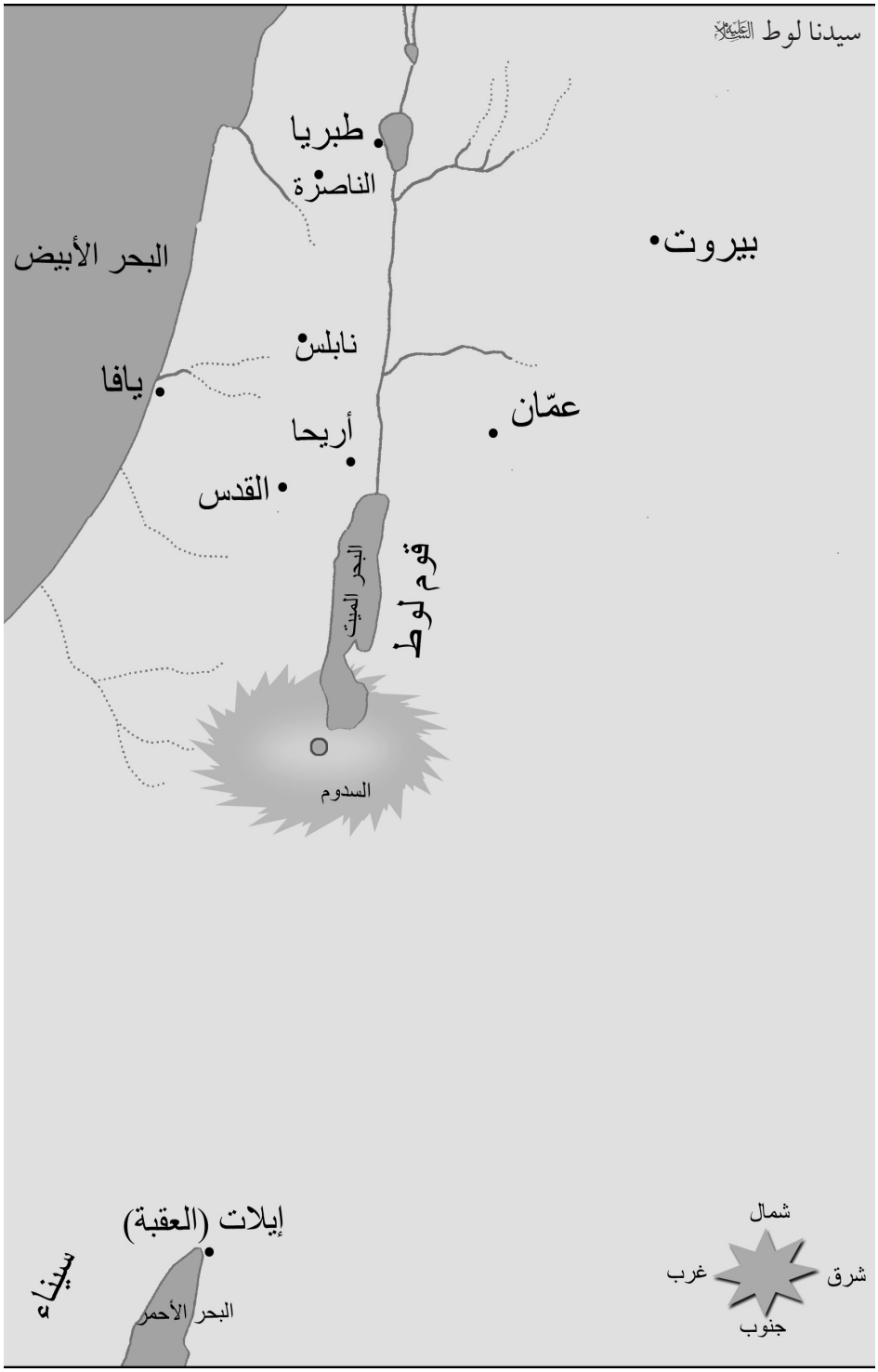
سيدنا لوط عليه السلام
طبريا
الناصرة
بيروت
البحر الأبيض
نابلس
يافا
عمّان
أريحا
القدس
البحر الميت
قوم لوط
السدوم
إيلات (العقبة)
سيناء
البحر الأحمر
شمال
شرق
غرب
جنوب

جمال الأخلاق

إن قيمة الإنسان الإساسية الذي خلق مثالاً للدقائق العليا، والبهجة اللا متناهية والعمق، هي أن ينال نصيبه من الإدراك لعظمة ربه وليعبد اللَّه تعالى.

إن هذا الكون وما يحتويه من كائنات، لم يكن أبداً عفوياً مصادفة بلا هدف ولا غاية. والإنسان فيه أيضاً ليس مجرد نتيجة للتصادف. ولم يخلق ليكون فارغ الرأس والتفكير. ففي خلق الإنسان قصد إلهي محدد. وهو أن يتمكن هذا الإنسان بما يمن عليه اللَّه من تجل لصفاته وكماله، أن يستخدمها بحق فيكون خليلاً لله تعالى. أما سائر المخلوقات الأخرى، فإنما خلقت إحياءً للإنسان نفسه. وأرسل الإنسان خليفة إلى هذه الأرض. والخلافة هي توكيل يعطى لمن يضحي من الناس. فيصبح اللَّه سبحانه وتعالى لمن يؤدي حق هذه الخلافة عينه التي يرى بها، وأذنه التي يسمع بها. وهو ما يمكن أن يتحقق من خلال التخلق بأخلاق القرآن الكريم.ويتحدث اللَّه سبحانه وتعالى عن نقطة الذروة في هذه الأخلاق فيقول:

﴿وَلاَ تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلاَ السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ. وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ [٦٣٢]

والقرآن هو الذي يؤمن للإنسان الوصول إلى أعلى درجات الفضيلة والأخلاق. علماً أن كافة العبادات والأذكار هي ما يمكن وصولها إلى الكمال عبر استخدام الأخلاق الحميدة. ولهذا، نجد حسن البصري رحمه اللَّه يرسل بالهدية شكراً لمن يقوم بغيبته من الناس.

إن الإنسان الذي أنزل إلى هذه الدنيا كمجموعة للبداشع والمحاسن الإلهية، أعطي حرية الاختيار بين الخير والشر بعد أن دخل في امتحان هذه الحياة. وترك ليجد في أعماق قلبه وروحه روحانية التقوى أو ينجر إلى الفسق والفجور المختبئين في نفسه.

٦٣٢. فصلت: ٣٤- ٣٥.

وخلقه تعالى للصفات السيئة، إن هو إلا بهدف تأمين هذا الامتحان. يذكر القرآن الكريم قوله تعالى:

﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا. فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا. قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا. وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾ [٦٣٣]

إذن، إن ما يجعل من الإنسان إنساناً، هو أن يتمثل بالخصال الحسنة. وما يخرجه من إنسانيته ابتداؤه للخصال السيئة.

وهو عندما يعيش في الحياة الدنيا متنعماً فيها بما خلقه اللَّه تعالى له، ويعمل على الخروج عن أوامر ونواهي ربه، فإنما يكون حينها في حماقة وعاقبتها وخيمة وشديدة الظلمة. فمن لا يدخل في نظام الأخلاق والإيمان من الكفرة والظالمين، هم أولئك الذين سيحل عليهم الإنتقام الإلهي. وأفضل الطرق للعيش بإنسانية هو التمسك بكل من الدين والأخلاق. وأفضل مثال لجمال هذه الأخلاق وكمالها، هو سيدنا وحبيبنا محمد ﷺ.

تقول الآية القرآنية الكريمة:

﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ [٦٣٤]

ويقول رسولنا محمد ﷺ:

«أدبني ربي فأحسن تأديبي» [٦٣٥]

مشيراً بذلك إلى رفعة الأخلاق المحمدية وعلوها.

ولهذا، فإن سر الإنسان هو في الحقيقة المحمدية. فبقدر ما تتعلق به، عليه الصلاة والسلام، كلما كنت مضطلعاً على الأسرار الإلهية، وقريباً منها.

أسأل اللَّه تعالى أن يجمعنا تحت لواء رسول اللَّه ﷺ للسعادة والأخلاق!

آمين!...

---

٦٣٣. الشمس: ٧-١٠.

٦٣٤. الأحزاب: ٢١.

٦٣٥. السيوطي، الجامع الصغير، ١/ ١٢٦٢.

حماية النسل

إن تأسيس الأسرة والشرف والعرض والنسل، هي نتيجة طبيعية لحق الحياة الذي أنعم اللَّه تعالى به علينا.

ومنذ عهد آدم عليه السلام، وجميع أنبياء اللَّه ورسله ينظرون إلى قانون الزواج بشكل مقدس وجدية كبيرة تمكنهم من أدائه بأمن وسلامة. لأن المحافظة على النسل، هي ممكنة عبر مؤسسة الزواج وحده. أما من ربي خارج تنظيم العائلة، ومن بقي من النسل خارج أطر الزواج، فإنهم يكونون سبباً لبعثرة هذه الحياة، وعنصراً هادماً للرفاهية الإجتماعية، وسبباً في الفوضى. وما من حمق وغباء أشد على المرء من أن يبدل سعادة الزواج بغياهب الفحش!..

وتربية نسل أصيل، هو أسمى الأحاسيس وأسمى درجات السعادة الإنسانية. ويذكر لنا الحديث النبوي الشريف عن تربية الأولاد فيقول ﷺ:

«ما نحل والد ولدًا من نحل أفضل من أدب حسن» [٦٣٦]

وما يتعرض له المرء من محنة ومشقة في تربية أبنائه، فإنها تكون سبباً في العفو عنه مما ارتكبه من الخطايا.

إن اللَّه تعالى الذي خلق هذا الكون معبداً، لتتجلى فيه أنواع العبادة، قد بين لنا عبر قصص القرآن الكريم الذي هو نور وشفاء وسعادة أبدية للناس، كيف أن اللَّه تعالى مسح دول ومدن الشعوب الظالمة عن خارطة هذه الدنيا، ماحياً كل ما كانوا عليه من فقدان للشرف والقيم الإنسانية، وذلك ليكون ما فيه عبرة ومنارة للبشرية وإرشاداً لها.

نسأل اللَّه تعالى أن يمن علينا باستخدام نعمه بما يرضيه جَلَّ وعلا!..

آمين!

٦٣٦. الترمذي، البر، ٣٣/ ١٩٥٢.

سیدنا
ذوالقرنین
علیہ السلام

سيدنا ذو القرنين عليه السلام
حامل راية التوحيد من المشرق إلى المغرب

أتي كلمة **ذو القرنين** لغة بمعنى «صاحب العصرين». ويُنقل عنه أن الله ﷻ وصفه بهذا اللقب لأنه تجول في الدنيا من الشرق إلى الغرب ينشر نور اللَّه وينفذ أمر ربه بالدعوة إليه وإظهار كلمة الحق فوق كل ظالم.

ويوجد اختلاف ما بين أن يكون **ذو القرنين** هو نبي أو من الأولياء الصالحين. وقد ذكر في القرآن الكريم حملاته التي قام بها إلى المشرق والمغرب. وهو من نسل يافث ابن نوح عليه السلام. واسمه الأصلي هو إسكندر. ولكن، لا يجب أن نخلط ما بين **ذو القرنين** عليه السلام، وبين ألكسندر المقدوني. فإسكندر المقدوني الكبير الذي يذكر في التاريخ ولد في مقدونيا في القرن الثالث قبل الميلاد، ووصل إلى الهند. وكان تلميذاً لأريسطو. أما إسكندر **ذو القرنين** عليه السلام، فكان يعيش في زمن إبراهيم عليه السلام. بل وذهب معه إلى الحج، ونال من دعاءَهُ.

ولا يمكننا أيضاً أن نقارن أسفار إسكندر المقدوني بأسفار **ذو القرنين** التي كانت فتوحات من الشرق إلى الغرب. علماً أن كتب التاريخ لم ترو لنا أن إسكندر المقدوني قد بنى أي سد من السدود في حياته. كما يمكننا القول بأنّ إسكندر المقدوني لم يكن رجلاً مؤمناً باللَّه أبدا. ولم يكن يتعامل مع الأقوام التي غلبها بالشفقة وبالرحمة. وبقارنة أخبار حياته المتفرقة، فإننا لا نجد أي نوع من التشابه بين حياة هذا الإسكندر وحياة **ذو القرنين** عليه السلام. أضف إلى ذلك أن إسكندر المقدوني لم يكن في حياته ما يمكن أن يستحق عليه لقب «**ذو القرنين**».

ويروى أن **ذو القرنين** كلف ابن خالته الخضر عليه السلام بقيادة جيشه. وحارب الكفار. كما أنشأ في وجه قومي يأجوج ومأجوج سداً بناه من الحديد والفضة. ونشر دين اللَّه وعقيدة التوحيد؛ فبلغ إلى الناس الحق والحقيقة.

وتوفي **ذو القرنين** عليه السلام في المكان الذي يعرف بين المدينة المنورة والشام باسم «دومة الجندل». ودفن بجوار مكة في جبال «تهامة».

❁

وحسب رواية تفسير القرطبي، فإن هناك أربعة من البشر فقط من تمكنوا من حكم العالم بأجمعه. ومن هؤلاء الأربعة اثنان مؤمنون واثنان من الكفار. وكان المؤمنون هم **ذو القرنين** وسليمان عليهما السلام؛ أما الكافران فكانا نمرود وبخت نصر. ويروى بأن الإنسان الخامس الذي سيحكم الدنيا بأسرها مرة أخرى سيكون من هذه الأمة. وهو ما ينسبه إلى المهدي المنتظر وذلك من خلال الآية القرآنية الكريمة:

﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ [٦٣٧]

وعندما سئل علي بن أبي طالب رضي الله عنه كيف تمكن **ذو القرنين** من الوصول بقوته إلى مشارق الأرض ومغاربها قال:

«سخر له السحاب ومد له في الأسباب وبسط له النور فكان الليل والنهار عليه سواء» [٦٣٨]

❁

عندما كان رسول اللّه ﷺ يروي قصص الأمم التي مرت على مكة في العهود السابقة لأخذ العبر منها، بدأ اليهود والفارسيون برواية هذه القصص بحسب ما يتناسب مع أهوائهم. وكان في المدينة نفر من اليهود يؤمنون بظهور نبي في آخر الزمان يخرج من بينهم. فكانوا يقولون لمشركي مكة:

«ظهر من بينكم نبي، فإن كان نبياً بحق فاسألوهُ عن أصحاب الكهف، و**ذو القرنين** وماهية الروح! فإن حدثكم عن أصحاب الكهف و**ذو القرنين** بشكل كامل؛ وشرح لكم بشكل جزئي ماهية الروح فهو نبي بحق؛ فاتبعوه! أما إن لم يخبركم عنها بشيء فهو كاذب!».

---

٦٣٧. التوبة: ٣٣. انظر: القرطبي، التفسير، ١١، ٤٧-٤٨.

٦٣٨. ابن اسحاق، السيرة، ١، ٢٠٥.

ويأتي مشركو مكة إلى سيدنا محمد ﷺ ويسألونه:

«من هم أصحاب الكهف و**ذو القرنين** الذي سار بجيوشه إلى المغرب؟ وما هي الروح؟»

وأمام هذا السؤال، أنزل اللَّه تعالى سورة الكهف. وتحدثت هذه السورةالكريمة عن **ذو القرنين** مبتدئة بقوله تعالى:

﴿وَيَسْئَلُونَكَ عَنْ ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُوا عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْراً. إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَآتَيْناهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَباً﴾ [٦٣٩]

الأوصاف المهمة لـ ذو القرنين

١. أعطى اللَّه تعالى **ذو القرنين** القوة. فقام بتنظيم الأسفار إلى المشرق والمغرب، وأنشأ **ذو القرنين** السد. وهذا السد مصنوع من الحديد والنحاس.

٢. كانت الغيوم وسائر الوسائط الأخرى تأتمر بأمره.

٣. كان عالماً ومقتدراً. ولهذا كان صاحب حاكمية وتصرف استثنائيين.

٤. أحسن إليه براية بيضاء وسوداء. فكان عندما يضع الراية السوداء خلف جيشه أثناء مسيره في النهار يصبح كل ما خلفه في ظلمة داكنة. فكان من يلحق به من الأعداء لا يتمكن من رؤيته ويضل الطريق ويضيع في الظلمة. أما في المساء، فكان يضع أمامه الراية البيضاء فيصبح ما أمامه وأمام جيشه مضيئاً كضوء النهار مما يساعده على الفوز بشكل ساحق أمام أعدائه.

٥. كان **ذو القرنين** عليه السلام حاكماً عادلاً ورحيماً مع أتباعه. فكان يقول للناس في الأماكن التي يفتحها:

«ما من مكان للقلق لمن لا ذنب له منكم، ومن أحسن فسيجد نتيجة إحسانه».

فكان يكسب أفئدة الناس بتفهمه ورحمته ومسامحته معهم. وكان يحب كل ما هو خير للإنسانية.

---

٦٣٩. الكهف: ٨٣ – ٨٤. انظر: الألوسي، التفسير، ١٦، ٢٤؛ الواحدي، ٣٠٦.

٦. لم يكن إنساناً يغلبه حرصه. فعندما سأله الناس بناء سد لهم وعرضوا عليه الأجر قال لهم: «لقد أغناني اللَّه بما يحسن به علي عنكم. ليس عليكم إلا أن تعملوا تحت إمرتي فتساندونني بقوة سواعدكم».

٧. كان رجلاً كريماً. فلم يكن كغيره من الملوك يسعى نحو امتلاك الثروة. كان حاكماً كثير الكرم، محباً للعفو، حليماً وعطوفاً.

٨. كان رجلاً متواضعاً، وقوراً وحكيماً. غايته الأولى خدمة الإنسانية وتأمين العدالة للمظلومين. فكان لا يسعى لرفاهية وثروة الحكام وإنما لخدمة الشعب.

أسفار دعوة التوحيد

كان **ذو القرنين** عليه السلام يتوسع في مملكته ويزيد من قوة دولته. كما بدأ بتبليغ أوامر اللَّه تعالى ونواهيه. واتجه بجيشه الذي جمعه من المؤمنين إلى الغرب أولاً. ودعا كل من كفر إلى عقيدة التوحيد. واستمر في تقدمه إلى أن وصل إلى آخر بقعة أرض باتجاه المغرب. فانتهت اليابسة ووجد البحر من أمامه. وكانت الشمس تغيب كما لو أنها تختفي في نبع من الوحل الأسود. والتقى هناك بقوم كافرين. فآمن بعضهم وحارب مع من امتنع منهم وغلبهم جميعاً. ومن ثم تاب هؤلاء أيضاً والتحقوا بعقيدة التوحيد. تقول الآيات القرآنية الكريمة:

﴿فَأَتْبَعَ سَبَبًا. حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِنْدَهَا قَوْمًا قُلْنَا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَنْ تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا﴾ [٦٤٠]

وعلى الرغم مما أعطي من صلاحيات واسعة، كان **ذو القرنين** عليه السلام يتبع بأعماله أوامر الوحي الإلهي:

﴿قَالَ أَمَّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَى رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُكْرًا. وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءً الْحُسْنَى وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا﴾ [٦٤١]

وهكذا، دعا **ذو القرنين** الناس دائماً إلى الإيمان. فنجا كل من تبعه منهم، وعاقب كل من رفض طريق الإيمان.

---

٦٤٠. الكهف: ٨٥ – ٨٦.

٦٤١. الكهف: ٨٧ – ٨٨.

ولما انتهى من تقدمه نحو الغرب، بدأ **ذو القرنين** أسفاره باتجاه الشرق. ووصل إلى حيث تشرق الشمس. تقول الآيات الكريمة:

﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا. حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَى قَوْمٍ لَمْ نَجْعَلْ لَهُمْ مِنْ دُونِهَا سِتْرًا. كَذلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا﴾ [٦٤٢]

واستمر **ذو القرنين** يفتح المدينة تلو الأخرى متقدماً باتجاه الشرق إلى أن وصل إلى مكان انتهت فيه المدنية ووجد الناس فيها يعيشون بشكل بدائي «عراة دون منازل تأويهم» في آخر قطعة يابسة وجدها باتجاه الشرق.

وكان هؤلاء الناس يهربون إلى المغارات أو إلى البحر عندما تطلع الشمس. ولا يخرجون إلا عندما تنكسر قوة الشمس فيخرجون من المغارات لقضاء حوائجهم وتأمين معيشتهم. كذلك الأمر، دعا **ذو القرنين** هذا الشعب لدين الحق.

ثم اتجه بأسفاره إلى الشمال. ووجد قوماً يتكلمون لغة غريبة. فكان يكلمهم من خلال مترجم. يقول اللَّه تعالى:

﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا. حَتَّى إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِنْ دُونِهِمَا قَوْمًا لاَ يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلاً﴾ [٦٤٣]

عندما التقى **ذو القرنين** عليه السلام بهذا القوم، اشتكوا إليه من أذى مخلوقات تدعى يأجوج ومأجوج. وطلبوا منه أن يحميهم من بأس هذا القوم بأن يبني لهم سداً يمنعهم من الوصول إليهم. وبناءً لهذا الطلب أنشأ «سد ذو القرنين». واختار هذا القوم أيضاً طريق الهداية ودخلوا في الإسلام. تقول الآيات القرآنية الكريمة:

﴿قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَى أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا. قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا. آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّى إِذَا سَاوَى بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انْفُخُوا حَتَّى إِذَا جَعَلَهُ

٦٤٢. الكهف: ٨٩ – ٩١.

٦٤٣. الكهف: ٩٢ – ٩٣.

نَارًا قَالَ آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا. فَمَا اسْطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا. قَالَ هذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا﴾ [٦٤٤]

وسقوط سد **ذو القرنين** هو علامة من علامات الساعة. وهذا السد ليس سور الصين العظيم الموجود في أيامنا. ويوجد اختلاف حول مكانه. فمع اقتراب يوم القيامة، سيتمكن يأجوج ومأجوج من هدم هذا السد وينتشرون في الأرض وينشرون فيها الفساد.

قومي يأجوج ومأجوج

بحسب ما يروى فإن يأجوج ومأجوج شعبين سيئين ومفسدين في الأرض. وجوههم عريضة، وعيونهم صغيرة، وآذانهم كبيرة جداً، بأجسام قصيرة وأعداد كثيرة. وهم قوم سينتشرون في الأرض عند اقتراب الساعة. وستكثر الولادات بينهم بشكل مفاجيء فتتكاثر أعدادهم بشكل كبير جداً. فكما يتكاثر الذباب على الترسبات المائية، سيتكاثر شعْبَا يأجوج ومأجوج كذلك أيضاً. ولا يعرف أحد مكانهم حتى اليوم إلا الحق سبحانه وتعالى.

فإذا جاء موعدهم هدم سد **ذو القرنين** وتمكن هذين القومين من الإنتشار في الأرض. ولكنهم لن يتمكنوا من دخول مكة المكرمة، أو المدينة المنورة ولا القدس الشريف. وسيعيثون في الأرض في كل ما عدا ذلك من المدن في الدنيا. فيأكلون ويشربون كل ما يجدونه في طريقهم ولا يتركون البلدة إلا وهي خاوية ليس فيها ما يؤكل أو يشرب. وسيفسدون في الأرض. فسيكونون كالجراد المنتشر، وسيظلمون. وأخيراً، سيهلكهم اللَّه تعالى.

عن أبي هريرة ﷺ، قال: قال رسول الله ﷺ:

«إن يأجوج، ومأجوج يحفرون كل يوم، حتى إذا كادوا يرون شعاع الشمس، قال الذي عليهم: ارجعوا فسنحفره غدا، فيعيده الله أشد ما كان، حتى إذا بلغت مدتهم، وأراد الله أن يبعثهم على الناس، حفروا، حتى إذا كادوا يرون شعاع الشمس، قال الذي عليهم: ارجعوا، فستحفرونه غدا، إن شاء الله تعالى، واستثنوا، فيعودون إليه، وهو كهيئته حين تركوه،

٦٤٤. الكهف: ٩٤ – ٩٨.

فيحفرونه ويخرجون على الناس فينشفون الماء، ويتحصن الناس منهم في حصونهم، فيرمون بسهامهم إلى السماء، فترجع عليها الدم الذي اجفظ، فيقولون: قهرنا أهل الأرض، وعلونا أهل السماء، فيبعث الله نغفا في أقفائهم، فيقتلهم بها»، قال رسول ﷺ: «**والذي نفسي بيده إن دواب الأرض لتسمن، وتشكر شكرا، من لحومهم**»[٦٤٥]

عن عبد اللَّه بن مسعود رضي الله عنه قال:

«لما كان ليلة أسري برسول الله ﷺ، لقي إبراهيم، وموسى، وعيسى فتذاكروا الساعة، فبدءوا بإبراهيم فسألوه عنها، فلم يكن عنده منها علم، ثم سألوا موسى، فلم يكن عنده منها علم، فرد الحديث إلى عيسى ابن مريم، فقال: قد عهد إلي فيما دون وجبتها، فأما وجبتها فلا يعلمها إلا الله، فذكر خروج الدجال، قال: فأنزل، فأقتله فيرجع الناس إلى بلادهم فيستقبلهم يأجوج، ومأجوج وهم ﴿من كل حدب ينسلون﴾[٦٤٦]، فلا يمرون بماء إلا شربوه، ولا بشيء إلا أفسدوه، فيجأرون إلى الله، فأدعو الله أن يميتهم، فتنتن الأرض من ريحهم، فيجأرون إلى الله، فأدعو الله، فيرسل السماء بالماء، فيحملهم فيلقيهم في البحر، ثم تنسف الجبال، وتمد الأرض مد الأديم، فعهد إلي متى كان ذلك، كانت الساعة من الناس، كالحامل التي لا يدري أهلها متى تفجؤهم بولادتها، قال العوام: ووجد تصديق ذلك في القرآن الكريم: حيث يقول جَلَّ وعَلا:

﴿حَتَّى إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ﴾[٦٤٧]»[٦٤٨]

ويخبرنا رسول اللَّه ﷺ بأن الناس ستجد طريق السلامة بعد هلاك يأجوج ومأجوج وستستمر من بعدهم فريضة الحج والعمرة فيقول عليه الصلاة والسلام:

«**ليحجن البيت وليعتمرن بعد خروج يأجوج ومأجوج**»[٦٤٩]

ويخبرنا رسول اللَّه ﷺ في حديث آخر عن مصير هذين القومين يوم القيامة فيخبر بأن مصيرهم النار وبئس المصير.

---

٦٤٥. ابن ماجه، الفتن، ٣٣/ ٤٠٨٠.
٦٤٦. الأنبياء: ٩٦.
٦٤٧. الأنبياء: ٩٦.
٦٤٨. ابن ماجه، الفتن، ٣٣/ ٤٠٨١.
٦٤٩. البخاري، الحج، ٤٧/ ١٥٩٣.

عن أبي سعيد الخدري ﷺ، قال: قال النبي ﷺ:

«يقول الله ﷻ يوم القيامة: يا آدم، يقول: لبيك ربنا وسعديك، فينادى بصوت: إن الله يأمرك أن تخرج من ذريتك بعثا إلى النار، قال: يا رب وما بعث النار؟ قال: من كل ألف - أراه قال - تسع مائة وتسعة وتسعين، فحينئذ تضع الحامل حملها، ويشيب الوليد، وترى الناس سكارى وما هم بسكارى، ولكن عذاب الله شديد»

فشق ذلك على الناس حتى تغيرت وجوههم، فقال النبي ﷺ:

«من يأجوج ومأجوج تسع مائة وتسعة وتسعين، ومنكم واحد، ثم أنتم في الناس كالشعرة السوداء في جنب الثور الأبيض - أو كالشعرة البيضاء في جنب الثور الأسود - وإني لأرجو أن تكونوا ربع أهل الجنة...»[٦٥٠]

لقد حذر رسول اللَّه ﷺ أمته من كافة أنواع الفتن، وحذر بشكل خاص من فتنة يأجوج ومأجوج.

عن زينب بنت جحش ﷺ أنها قالت:

«استيقظ النبي من النوم محمراً وجهه يقول:

«لا إله إلا الله، ويل للعرب من شر قد اقترب، فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذه»

وحلق بإصبعه الإبهام والتي تليها، فقلت يا رسول الله: أنهلك وفينا الصالحون؟ قال:

«نعم إذا كثر الخبث»[٦٥١]

وبالنظر إلى ذكره ﷺ لكلمة «العرب» في الحديث الشريف «ويل للعرب من شر قد اقترب!» فإن ذلك يرجع إلى حقيقة أن المسلمين في تلك الفترة كانوا تقريباً بمعظمهم من العرب فقط. ولهذا، فإن هذا القول لا يمكن نسبه للعرب فقط، وإنما إلى كل المجتمعات الأخرى. وبحسب بعض العلماء، فإن كلمة «الشر الذي اقترب» هو تلك الفتن التي ابتدأت بين أبناء الأمة بمقتل عثمان بن عفان ﷺ. وهي بالتالي سبب لزوال سد يأجوج ومأجوج مادياً ومعنوياً.

---

٦٥٠. انظر: البخاري، التفسير، ٢٢/ ٤٧٤١؛ الأنبياء ٧.

٦٥١. انظر: البخاري، الأنبياء، ٧/ ٣٣٤٦؛ مسلم، الفتن، ١/ ٢٨٨٠.

من قصص ذو القرنين المليئة بالحكمة والعبرة

في إحدى أسفاره، يصل **ذو القرنين** عليه السلام إلى قوم يخافون الموت ويسعون لتخطي عائق النفس. ولم يكن لدى هذا القوم أي شيء من زينة الحياة الدنيا كالذهب والفضة. وكانوا يؤمنون رزقهم من الخضار. فكانوا يهتمون كثيراً بالمحافظة على خضارهم. وكان كل منهم يحفر قبره وينظفه في كل يوم ويتعبد فيه. فدعا **ذو القرنين** حاكم هذا القوم. فأجاب حاكمهم:

– أنا لا أريد أحداً. من أرادني فليأت هو إلي!.

وأمام هذا الجواب، يذهب **ذو القرنين** إلى هذا الحاكم ويقول له:

– لقد دعوتك إلي، فلماذا لم تلب النداء؟

فقال له الحاكم:

– لا حاجة لي بك، ولو كان لي لأتيت إليك!.

فقال له **ذو القرنين**:

– ما حالكم هذا؟ لم أر حال أحد من قبل، كحالتكم هذه!.

فقال له حاكمهم:

– نعم، نحن لا قيمة عندنا للذهب والفضة. لأننا وجدنا أن من يمتلك منها مقداراً فإنه يحزن لرغبته في طلب المزيد... ولهذا لم نعد نسعى في طلب الدنيا.

فقال له **ذو القرنين**:

– وما هذه القبور؟ لماذا تحفرونها وتتعبدون فيها؟

فقال له حاكمهم:

– نفعل هذا كي لا نسعى وراء الدنيا. نرى قبورنا فتتذكر أننا سندخلها، فنزهد في كل شيء.

فسأله **ذو القرنين**:

– ولماذا لا تأكلون سوى الخضار؟ إن ربيتم الماشية تستفيدون من حليبها، وتأكلون من لحمها؟.

فقال الحاكم:

- لا نريد لأمعائنا أن تكون قبراً للحيوانات. ولهذا نعمل على المعيشة من خلال الخضار. وفي كلا الحالتين، فإننا لا نتذوق طعم أي شيء بعد أن يعبر حلقنا!.[٦٥٢]

❁

ويروى عن **ذو القرنين** في قصة معبرة أخرى: يقول أحدهم لذي القرنين:

- علمني شيئاً يقوي إيماني ويقيني!.[٦٥٣]

فيقول له:

- لا تغضب! فأكثر الأحوال التي يتملك فيها الشيطان العبد هي ساعة الغضب. لا تتعجل! فإنك عند العجلة تضيع نصيبك. كن ليناً مع القريب والبعيد! ولا تكن عنيداً، منكراً أو ظالماً!.

ويوصي **ذو القرنين** عليه السلام من حوله قبل وفاته فيقول:

«غسلوني، وكفنوني! ومن ثم ضعوني في التابوت! ولكن، لتَبْقَ يداي ممدودة إلى الخارج! ولا يأتين أحد من أتباعي من خلفي! وضعوا خزائني في القاطرات! ليتمكن الناس من رؤية أنني تركت الدنيا خالي اليدين على الرغم مما كنت عليه من سلطة وملك في الدنيا، فلم تلحق بي ثروتي ولا ملكي! فلا يغتر أحد بهذه الدنيا الفانية الكاذبة!...»

ويفعلون تماماً كما قال لهم. ويفسر العلماء هذه الوصية بقولهم:

«حكمت العالم بأسره من شرقه إلى غربه عبر جيوش جرارة. وفي أمرتي ما لا يعد ولا يحصى من الخدم والعسكر. ولم يخرج أحد منهم عن أمري.

وكانت الدنيا من أولها إلى آخرها تأتمر بأمري. وامتلكت من الخزائن ما لا يحصى. ولكن نعم الدنيا ليست باقية. وكما ترون أنا أذهب الآن إلى قبري صفر اليدين! فها هو مال الدنيا باق في الدنيا. فافعلوا في دنياكم ما تستفيدون منه في آخرتكم!...».

---

٦٥٢. واقعياً، ليس هناك من بأس ولا مانع من تناول لحوم الحيوانات التي أحل اللهُ تعالى. وما هو مذكور هنا كان شأناً خاصاً بذلك القوم أنفسهم.

٦٥٣. اليقين: هو العلم الذي تخلص من الشبهة، القوي والمتين والقاطع؛ أي القناعة التامة والإطمئنان التام.

علماً أن رسول اللَّه ﷺ يتحدث عن المعنى الذي أشار إليه **ذو القرنين** في وصيته فيقول عليه الصلاة والسلام:

«**يتبع الميت ثلاثة، فيرجع اثنان ويبقى معه واحد: يتبعه أهله وماله وعمله، فيرجع أهله وماله ويبقى عمله**»[٦٥٤]

وكان **ذو القرنين** عليه السلام يصنع الدروع ويبيعها، فيعيش مما كسبت يداه. وكان ينفق كل ما يزيد عن حاجته.

عليه السلام!...

٦٥٤. انظر: البخاري، الرقاق، ٤٢/ ٦٥١٤؛ مسلم، الزهد، ٥/ ٢٩٦٠.

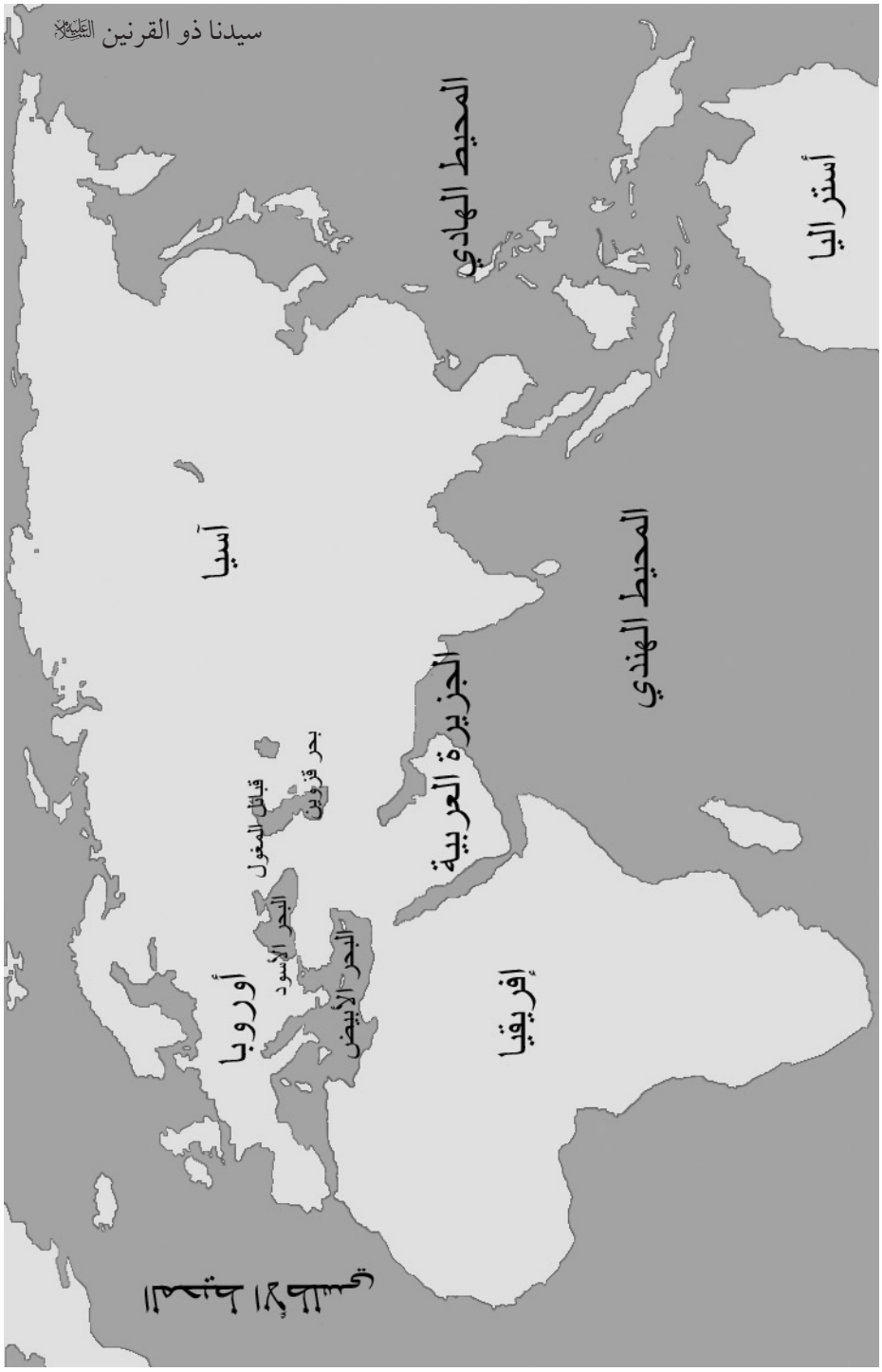
سيدنا ذو القرنين عليه السلام
المحيط الهادي
أستراليا
آسيا
المحيط الهندي
الجزيرة العربية
قبلاق المغول
بحر قزوين
البحر الأسود
البحر الأبيض
أوروبا
إفريقيا

الجهاد والأمر بالمعروف

إن من يريد الوصول إلى السعادة في الدنيا والآخرة من المؤمنين، هم مجبرون على استخدام أرواحهم وأموالهم وكل نعمة أنعم اللَّه ﷻ بها عليهم في سبيل الأهداف والآمال الجدية. والإنسان الذي يفكر بالموت وما بعده لا يمكن أن يكون له غاية أهم من الحصول على رضاء اللَّه ﷻ. يقول اللَّه تعالى:

﴿لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ...﴾ [٦٥٥]

ولهذا، فإن كل عمل نقوم به دون أي غاية أو هدف مآله الخسران. يقول الله ﷻ:

﴿يَوْمَ لاَ يَنْفَعُ مَالٌ وَلاَ بَنُونَ. إِلاَّ مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [٦٥٦]

إن النعم التي تعطى للعبد، إن استخدمت مع الغفلة والجهل فإنها تكون سبباً في التعاسة والخسران. وإن تحرك المرء بها بقلب سليم فإنه يجد من خلالها جنة الحياة الدنيا. ويمتليء المجتمع بالطمأنينة والسعادة.في رواية عن أبي سعيد الخضري رضي الله عنه يقول:

سئل رسول اللَّه ﷺ: قيل يا رسول اللَّه، أي الناس أفضل؟

فقال رسول اللَّه ﷺ

«مؤمن يجاهد في سبيل الله بنفسه وماله» [٦٥٧]

وفي حديث شريف آخر يقول رسول اللّه ﷺ:

«المجاهد من جاهد نفسه» [٦٥٨]

إن سعادة المؤمن بنجاحه هي في ميدان الإيمان وصالح الأعمال. والمؤمن الحق هو من تستفيد الأمة من يده ولسانه.

---

٦٥٥. آل عمران : ١٨٦ .

٦٥٦. الشعراء: ٨٨-٨٩ .

٦٥٧. البخاري، الجهاد، ٢/ ٢٧٨٦؛ مسلم، الإمارات، ١٢٢، ١٢٣.

٦٥٨. الترمذي، فضائل الجهاد، ٢/ ١٦٢١.

كم هو جميل حال الصحابي مصعب بن عمير ﷺ:

على الرغم من أن مصعب بن عمير ﷺ كان ذا إمكانات مادية كثيرة في مكة، إلا أنه آثر خسارة كل ذلك معلناً إسلامه وهو يافع في العمر.وعلى الرغم من تهديد أمه وأبيه بحرمانه من ميراثه، إلا أن ذلك لم يكن سبباً في عدوله عن الإسلام، وهاجر إلى المدينة المنورة غريباً فقيراً. ودخل فيها بكل عزم يشارك في أنشطة الدعوة وكان سبباً في هداية العديد من الناس. واستشهد مصعب ﷺ حينما كان يدافع عن رسول اللَّه ﷺ في غزوة أحد. فيأتي أحد الملائكة ويدخل في صورة مصعب ويأخذ الراية التي كان يحملها، ولكون رسول اللَّه ﷺ لم يكن على علم بعد باستشهاده، ينادي عليه قائلاً:

«تقدم يا مصعب! -أي سر إلى الأمام يا مصعب!-»

وعندها ينظر الملك ناحية رسول اللَّه ﷺ. فيفهم حينها رسول اللَّه ﷺ أنه ملك وأن مصعب ﷺ قد استشهد في سبيل اللَّه. وبعد ذلك، وجد المسلمون جثة مصعب بن عمير المباركة، ولكنهم لم يجدوا حتى كفناً يكفنونه فيه. وكان مصعب بن عمير من اللذين أثنى عليهم اللَّه في القرآن الكريم حين قال:

﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً﴾ [٦٥٩]

كما يقول اللَّه تعالى:

﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [٦٦٠]

وتتحدث كتب التفسير عن أسباب نزول هذه الآية الكريمة بقولهم: لما بايعت الأنصار رسول اللَّه ﷺ ليلة العقبة بمكة وهم سبعون شخصاً قال عبد اللَّه بن رواحة ﷺ:

«يا رسول اللَّه اشترط لربك ولنفسك ما شئت»

---

٦٥٩. الأحزاب: ٢٣ .

٦٦٠. التوبة: ١١١.

فقال عليه أفضل الصلاة والتسليم:

«أشترط لربي أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئا. وأشترط لنفسي أن تمنعوني مما تمنعون منه أنفسكم وأموالكم»

قالوا فما لنا إذا فعلنا ذلك؟

قال **«الجنة»** قالوا: ربح البيع لا نقيل ولا نستقيل.[٦٦١]

إن حياة الصحابة هي مثال كامل للمجاهدة. إنهم اكتسبوا شخصية متميزة عبر حبهم لرسول اللَّه في أعماق قلوبهم. وتأثروا بمشاعر الرسول ﷺ كل بحسب درجته. والملفت للنظر هو أن عدد الصحابة في حجة الوداع كان ١٢٠,٠٠٠ صحابياً. وأعداد الصحابة المدفونين في كل من مكة والمدينة لا يتجاوز ٢٠,٠٠٠ صحابياً. أما من بقي منهم فقد انتشروا في مختلف أرجاء الدنيا يبلغون دعوة الإسلام وكلمة اللَّه العليا. وكانت آخر نقطة وصلوا إليها هي قبورهم. إنهم لم يتهربوا أبداً من دفع أرواحهم وأموالهم في سبيل دين الحق والفضائل. فكانوا ينفقون ثرواتهم وإمكاناتهم بكل رضى وطمأنينة وكرم كلما توجه إليهم رسول اللَّه ﷺ بطلب المساعدة لأهداف وغايات دينية. وحتى النساء من الصحابة رضوان اللَّه عليهن، كن يتقدمن بحليهن وأساورهِن وقلائدهنّ بكل تضحية ومحبة. وكانت الصحابية سمية رضي الله عنها هي أول صحابية قدمت روحها في سبيل اللَّه فكانت أول شهيدة في الإسلام.

كما أنفق أهل عثمان بن عفان رضي الله عنه كل مجوهراتهم في سبيل اللَّه.

وعندما تولى عمر بن العزيز خلافة الدولة الأموية، تبرعت زوجته بكل ثروتها إلى بيت المال.

كذلك الأمر، وفي الفترة التي كانت تعرف باسم «ساعة العسرة» أثناء غزوة تبوك، أحضرت الصحابيات الكرام كل ما يملكن من حلي «المجوهرات وأدوات الزينة» ووضعنها أمام رسول اللَّه ﷺ. ولشدة حماستها، تقدمت بنت الثانية عشرة من رسول اللَّه ﷺ وأخرجت الحلقة التي وضعت لها في طفولتها في أذنها بصعوبة أدت إلى جرحها وناولته عليه الصلاة والسلام هذه الحلقة ودماءها ممزوجة بها...

٦٦١. ابن كثير، التفسير، ٤، ١٩١.

وكانت أسماء بنت أبي بكر ﷺ أخت أم المؤمنين سيدتنا عائشة ﷺ قد ضعف نظرها وعميت عن الرؤية بها. فلما أتاها ابنها عبد اللَّه بن الزبير مودعاً قاصداً الذهاب في إحدى الحملات في سبيل اللَّه تعالى، كان يلبس عليه درعاً للحماية. وعندما اقتربت أسماء ﷺ من ابنها ووضعت يديها عليه انتبهت إلى وجود الدرع عليه فقالت:

«يا بني، ألبست درعاً كما يفعل الخائفون؟ انزعه عنك!».

حضرت الخنساء بنت عَمْرو حرب القادسية ومعها بنوها أربعة رجال، فقالت لهم من أول الليل: يَا بني، إنكم أسلمتم طائعين، وهاجرتم مختارين، وو الله الّذي لا إله إلّا هو إنكم لبنو رجل واحد، كما أنكم بنو امرأة واحدة مَا خنت أباكم، ولا فضحت خالكم، ولا هجنت حسبكم، ولا غبرت نسبكم، وقد تعلمون مَا أعد اللَّه للمسلمين من الثواب الجزيل فِي حرب الكافرين. واعلموا أن الدار الباقية خير من الدار الفانية، يقول اللَّه تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [٦٦٢]

فإذا أصبحتم غدًا إن شاء اللَّه سالمين فاغدوا إِلَى قتال عدوكم مستبصرين، وباللَّه عَلَى أعدائه مستنصرين، فإذا رأيتم الحرب قد شمرت عَنْ ساقها، واضطرمت لظى عَلَى سياقها ، وجللت نارًا عَلَى أوراقها، فتيمموا وطيسها، وجالدوا رئيسها عند احتدام خميسها تظفروا بالغنم والكرامة فِي دار الخلد والمقامة.

فخرج بنوها قابلين لنصحها، عازمين عَلَى قولها فلما أضاء لهم الصبح باكروا مراكزهم ، ودخلوا ساحة الحرب يحاربون في سبيل اللَّه بكل جرأة وشجاعة فاستشهدوا جميعاً. وعندما سمعت الخنساء بشهادة أولادها الأربعة قالت شاكرة لله ﷻ ومناجية له:

«الحمد للَّه الَّذِي شرفني بقتلهم، وأرجو من ربي أن يجمعني بهم فِي مستقر رحمته» . [٦٦٣]

إن هذه المرأة الشاعرة التي كتبت في الجاهلية قبل أن تسلم أبياتها الشهيرة ترثي بها موت أخيها صخراً، قد شجعت أبناءها بقوة لسانها نفسه لتقديم أرواحهم في سبيل اللَّه بعد أن ذاقت حلاوة الإيمان به تعالى، وحمدت اللَّه تعالى من أعماقها عندما سمعت بشهادتهم جميعاً في سبيل اللَّه.

٦٦٢. آل عمران: ٢٠٠.

٦٦٣. انظر: ابن عبد البر، الإستيعاب، ٤، ١٩٢٨.

وهكذا، فإن هذه الأمثلة إن هي إلا نذر قليل من الأمثلة الكثيرة لأمهاتنا من المؤمنات ممن قدمت نفسها ومالها في سبيل اللَّه تعالى.

يجب علينا أن نفهم جيداً أن الجهاد في سبيل اللَّه ليس تقديم المال والروح في سبيل اللَّه محاربة بالسيف فقط. فالسيف هو لمنع الظلم، هو قطعة حديد تستخدم لضرورات معينة كمنع الظلم ونشر كلمة الحق. والفتح الأهم والأسمى هو فتح القلوب.

ولهذا، نجد أن القرآن الكريم يذكر العديد من العبارات التي تدعو الناس إلى «الجهاد في سبيل اللَّه» بهدف دعوة الناس إلى الهداية. بينما نجد أن الآيات التي تتحدث عن جهاد بمعنى القتال الفعلي هي آيات قليلة جداً ومحدودة. وهي دائماً في حالات الضرورة. فلا قتال في سبيل اللَّه خارج نطاق الدفاع عن الإسلام، وكلمة اللَّه العليا، أي أنه لا محاربة خارج غاية رفع كلمة اللَّه تعالى. فالحروب التي تشن بهدف احتلال الأراضي فقط، هي ظلم تَسْودُّ له وجوه البشر. أما الإسلام، فإنه قد حدد أسباب القتال بأمور محددة من الأمور النبيلة كنشر الحق، ووسيلة للهداية، ودَرءً للظلم. ولهذا نجد القرآن الكريم يقول:

﴿...مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا﴾ [٦٦٤]

ومن هذا المنطلق، يمكننا القول بأن كل غاية وكل عمل يقوم به الإنسان بهدف خلاص الإنسانية فهو قطعة من قطع الجهاد في سبيل اللَّه.يقول اللَّه تعالى:

﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [٦٦٥]

بعد نزول الآية الكريمة بقوله تعالى «**خذ من أموالهم صدقة..**» بدأ الصحابة الكرام حملة فيما بينهم. فتقدم كل منهم إلى رسول اللَّه ﷺ يقدم كل ما في يديه أمامه. ومن كان لا يمتلك شيئاً كان يذهب إلى الجبال يحتطب الحطب ويبيعه ويحملون الماء ويقدمون ما يجنونه من ذلك إلى رسول اللَّه ﷺ. فكانوا يهربون من فقر الآخرة بالإمتناع عن ملذات

---

٦٦٤. المائدة: ٣٢.

٦٦٥. التوبة: ١٠٣.

الحياة الدنيا الآنية والزائلة. فكانوا يعيشون ضمن المشاعر التي يعتبرون فيها أنفسهم أمناء في هذه الدنيا لفترة محددة على ما في هذه الدنيا من مال وملك هو في حقيقته لله وحده. فكانوا يسعون للعيش في هذه الدنيا بأعمارهم القصيرة بهدف الربح في الحياة الآخرة.

عن ابن عباس ﷺ:

أن رسول الله ﷺ خرج إلى الناس يوماً فنادى فيهم: «**أن أجمعوا صدقاتكم**». فجمع الناس صدقاتهم. ثم جاء رجل من آخرهم بِمَنٍ من تمر، فقال: يا رسول الله، هذا صاع من تمر، بت ليلتي أجر بالجرير الماء، حتى نلت صاعين من تمر، فأمسكت أحدهما، وأتيتك بالآخر. فأمره رسول الله ﷺ أن ينثره في الصدقات. فسخر منه رجال وقالوا: والله إن الله ورسوله لغنيان عن هذا! وما يصنعان بصاعك من شيء. ثم إن عبد الرحمن بن عوف، قال لرسول الله ﷺ: هل بقي من أحد من أهل هذه الصدقات؟، فقال رسول الله ﷺ: «**لا**»، فقال عبد الرحمن بن عوف ﷺ: إن عندي مئة أوقية من ذهب في الصدقات. فقال له عمر بن الخطاب: أمجنون أنت؟ فقال: ليس بي جنون! فقال: فعلمنا ما قلت؟ قال: نعم! مالي ثمانية آلاف، أما أربعة آلاف فأقرضها ربي، وأما أربعة آلاف فلي! فقال له رسول الله ﷺ: « **بارك الله لك فيما أمسكت وفيما أعطيت**» وكره المنافقون فقالوا: والله ما أعطى عبد الرحمن عطيته إلا رياء، وهم كاذبون، إنما كان به متطوعاً. فأنزل الله عذره وعذر صاحبه المسكين الذي جاء بالصاع من التمر، فقال اللهﷻ في كتابه:

﴿الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لاَ يَجِدُونَ إِلاَّ جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [٦٦٦] [٦٦٧]

وعن أبي مسعود ﷺ، قال:

«لما أمرنا بالصدقة كنا نتحامل، فجاء أبو عقيل بنصف صاع، وجاء إنسان بأكثر منه، فقال المنافقون: إن الله لغني عن صدقة هذا، وما فعل هذا الآخر إلا رئاء». فنزلت:

﴿الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ ...﴾ [٦٦٨]

٦٦٦. التوبة: ٧٩.

٦٦٧. انظر: الطبري، التفسير، ١٤، ٣٨٣/ ١٧٠٠٤.

٦٦٨. البخاري، الزكاة، ١٠/ ٤٦٦٨.

ويأتي هذا الحديث الشريف تحذيراً واضحاً لكل من ترك الجهاد في سبيل الله. حيث يقول رسول الله ﷺ:

«والذي نفسي بيده لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر أو ليوشكن الله أن يبعث عليكم عقابا منه ثم تدعونه فلا يستجاب لكم» [٦٦٩]

إذن، إن ترك وظيفة الدعوة إلى الخير والفضيلة، هي سبب في اقتراب الغضب الإلهي. إن على المؤمن أن يتحدث بما يليق بفمه بقول الحق والحقيقة. فالآيات الكريمة والأحاديث الشريفة تأمره بأن يقول كلمة الحق أمام ما يراه من خطأ ومنكر. يقول الله تعالى:

﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [٦٧٠]

يحذر رسول الله ﷺ أمته فيقول:

«من رأى منكم منكرا فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان» [٦٧١]

فإنّه ما من مكان أو ملتجأ يمكن للإنسان اللجوء إليه في هذه الدنيا غير الجنة أو النار. فمن يقدم ماله وروحه وما قدم إليه من نعم في هذه الدنيا بغفلة في سبيل هواه ونفسه، فإن الله تعالى سيسأله عن ذلك بنفسه: «- ألم تأتكم رسلي فتبلغكم الحقائق؟ ألم تكن نعمي تتدفق عليكم؟ فما أحضرتم اليوم لأنفسكم؟» فسينظر المرء حينها إلى يمينه ويساره فلا يجد أحداً... وسينظر أمامه فلا يجد إلا جهنم بعذابها وبئس المصير...

يقول رسول الله ﷺ:

«يؤتى بالعبد يوم القيامة فيقول الله له: ألم أجعل لك سمعا وبصرا ومالا وولدا، وسخرت لك الأنعام والحرث، وتركتك ترأس وتربع فكنت تظن أنك ملاقي يومك هذا؟ فيقول: لا، فيقول له: اليوم أنساك كما نسيتني» [٦٧٢]

---

٦٦٩. الترمذي، الفتن، ٩/ ٢١٦٩ .

٦٧٠. فصلت: ٣٣.

٦٧١. مسلم، الإيمان، ٧٨/ ٤٩ .

٦٧٢. الترمذي، القيامة، ٦/ ٢٤٢٨.

إن من يعيشون أيامهم في هذه الدنيا بغير حساب، سيتحرقون ندامة وحسرة على ما فرطوا به من أوقات. فمن لا يعمل لكسب رضى الله تعالى في هذا العالم، سينتظره عذاب أليم في جهنم يوم القيامة. وكل عين تغلق في هذه الدنيا على الغفلة والضلال، ستفتح غداً في ليالي وحشة القبر وعذابه. يحذر اللَّه ﷻ عباده في هذه الدنيا فيقول:

﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ اِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَاُولئِكُ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [٦٧٣]

فكان أمر اللَّه تعالى في هذه الآية واضحاً بضرورة وجود تجمع دائم في هذه الحياة الدنيا يدعو إلى الحق وإلى صراط مستقيم. ودين الإسلام، هو الدين الحنيف الذي انتشر في بدايته بنضال الصحابة الكرام رضوان اللَّه عليهم، واستمر بعد ذلك عبر العلماء المخلصين والمجاهدين والمرشدين الذين ثبتوا على الحق وساروا على نهجهم رضوان اللَّه عليهم. فكانوا من الذين وعدهم اللَّه ورسوله ﷺ بالمكافأة والأجر الكثير. ويحدثنا أنس ﷺ عن الدرجات العليا في الآخرة التي سينالها الداعون إلى الإسلام فيقول: قال رسول اللَّه ﷺ:

«ألا أخبركم بأقوام ليسوا بأنبياء ولا شهداء؟ يغبطهم يوم القيامة الأنبياء والشهداء بمنازلهم من الله، على منابر من نور، يعرفون»

قالوا: من هم يا رسول الله؟،

فقال رسول الله ﷺ:

«الذين يحببون عباد اللَّه إلى الله ويحببون اللَّه إلى عباده، ويمشون على الأرض نصحاء»

فقلت: هذا يحبب اللَّه إلى عباده، فكيف يحببون عباد اللَّه إلى اللَّه؟.

قال رسول الله ﷺ:

«يأمرونهم بما يحب اللَّه، وينهونهم عما يكره الله، فإذا أطاعوهم أحبهم اللَّه ﷻ» [٦٧٤]

---

٦٧٣. عمران: ١٠٤ .

٦٧٤. علي المتقي، كنز العمال، ٣، ٦٨٥-٦٨٦/ ٥٥٦٥؛ البيهقي، شعب الإيمان، ١، ٣٦٧/ ٤٠٥.

إن خير الزاد في رحلة الآخرة هو التقوى. وخير يوم للمؤمن في هذه الدنيا هو يومه الذي يمضيه خيراً من اليوم الذي سبقه. ولهذا، يجب علينا أن نعمل دائماً على زيادة البركة في أيامنا راجين مِلْء زاد الآخرة أكثر فأكثر من الأيام السابقة.

إن من كان قبلنا قد أتى وولى؛ ونحن سنسير بعد مدة في طريقهم أيضاً. فنموت كما لو نمنا، ونستيقظ ساعة البعث. ومن ثم سنحاسب كل بحسب عمله. وستكون المقامات الرفيعة والمتميزة في الآخرة نصيب من اتقى. فلا باق إلا وجهه سبحانه وتعالى.

نسأل اللَّه تعالى أن يديم في قلوبنا مرضاته وطريق الهداية! وأن يحمينا من أنفسنا، بأن يحيمنا من شر أنفسنا... آمين...

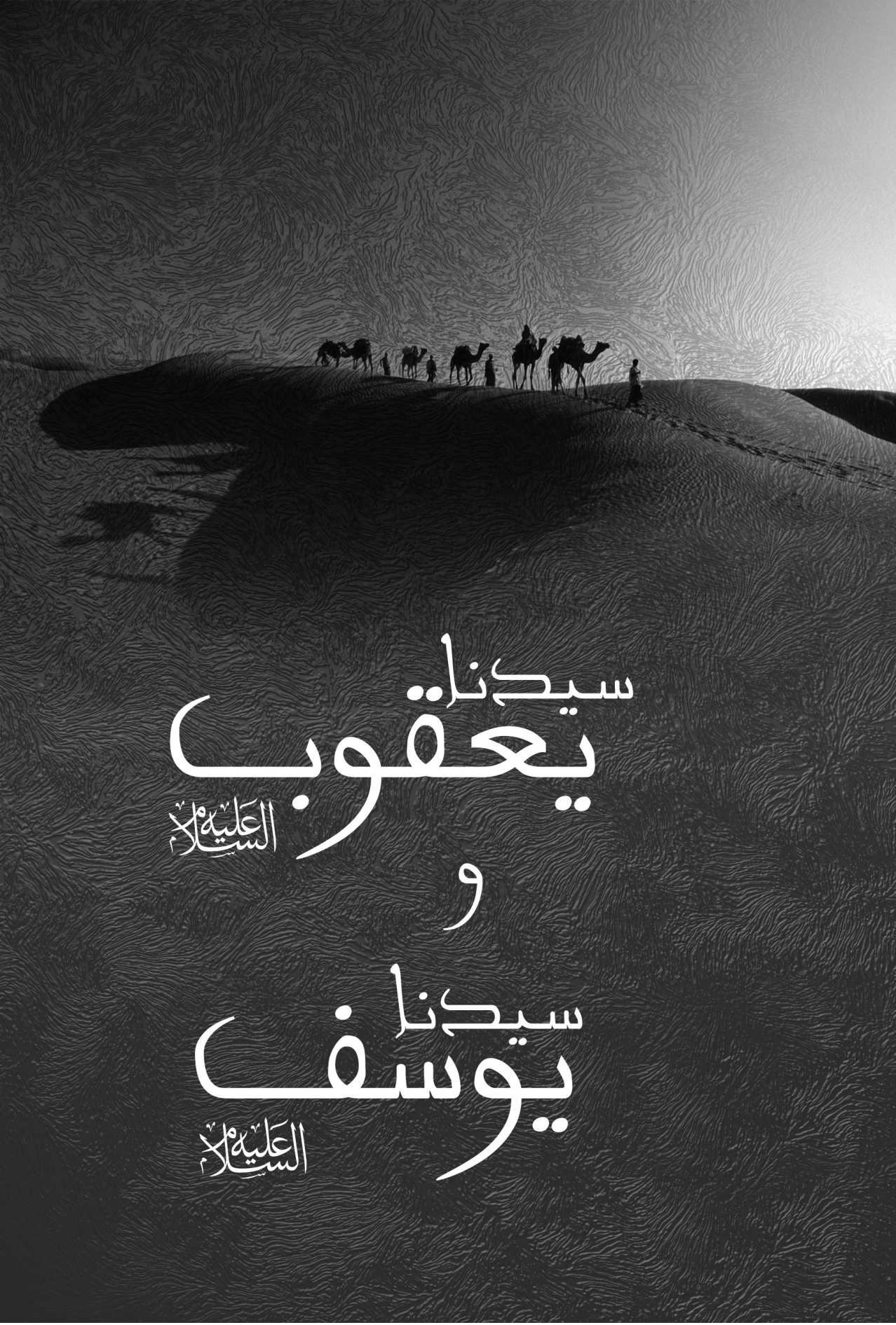
سيدنا
يعقوب
عليه السلام
و
سيدنا
يوسف
عليه السلام

سيدنا يعقوب عليه السلام
العابد بصبره لوعة وحباً
و
سيدنا يوسف عليه السلام [٦٧٥]
من استعبد وأدخل السجن
وأصبح بعد مشقات كثيرة ومعاناة سلطاناً لمصر وللقلوب

كان يعقوب عليه السلام الذي هو من أبناء إسحاق عليه السلام، نبياً مرسلاً من الله تعالى إلى الناس الذين عاشوا في ديار كنعان. ويروى أنه ولد في مدين أو الشام. وقد ولد مع أخ توأم يدعى إيس فكان من ولد بعده أثناء الولادة، وهو ما كان سبباً في تسميته يعقوب بما يعني لغة «الذي تلى».

ومن معاني اسم يعقوب أيضاً «صفي الله» -أي عبد الله النقي الصافي-. ويلقب يعقوب عليه السلام باسم إسرائيل. وهي كلمة تعني أيضاً عبد الله.

وقد ولد من نسل يعقوب عليه السلام الكثير من الأنبياء. ومنهم سيدنا موسى، وهارون، وداوود، وسليمان وزكريا، ويحيى، وعيسى عليهم السلام، فكانوا جميعاً من نسبه ونسله. ذلك أن أباه إسحاق عليه السلام قد دعا ربه فقال:

«رب هب لي من ذريتي أنبياء وملوك».

وكان لكل نبي دعوة مستجابة يدعو بها، وقد دعا سائر الأنبياء ربهم بما كتب لهم، إلا نبينا محمد ﷺ أخرها إلى يوم القيامة، فعن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال:

«لكل نبي دعوة مستجابة يدعو بها، وأريد أن أختبئ دعوتي شفاعة لأمتي في الآخرة» [٦٧٦]

---

٦٧٥. الروايات المتعلقة بهذه القصة هي بمعظمها مأخوذة من تفسير روح البيان للمفسر إسماعيل حقي بورسوي المنسوب إلى مدينة بورصة بتركيا.

٦٧٦. البخاري، الدعوات، ١/ ٤٠٣٦ .

أرسلت والدة يعقوبَ عليه السلام إلى خاله. وكان لديه ابنتين. كانت الكبرى تدعى ليا، والصغرى تدعى رحيل. وبعد أن خدم يعقوب خاله مدة سبع سنين زوجه في نهايتها من ابنته الكبرى ليا. ومن ثم قام بخدمته سبع سنين أخرى تزوج من بعدها بابنته الصغرى رحيل. علماً أنه في شريعة يعقوب كان يحق للرجل أن ينكح أختين في آن معاً.

وبعد أن زوج خال يعقوب بابنتيه له، أهدى كل واحدة منهن جارية تقوم بخدمتهما. فكانت الجارية الأولى تدعى زلفة، والثانية تدعى بلهة. كما أهدى يعقوب عليه السلام جاريتين أيضاً.

رزق يعقوب عليه السلام بستة أولاد من ليا، ومن جواريه أربعة، ورزق من رحيل بولدين اثنين. ذلك أنه لم يرزق من رحيل بأولاد لمدة طويلة. ومن ثم التجأت رحيل إلى ربها تدعوه فأكرمها بيوسف عليه السلام. ومن بعد يوسف رزقت ببنيامين. وتوفيت رحيل بعد ابنها الثاني بأربعين يوماً. وعندما ولد يوسف عليه السلام، كلف الله تعالى يعقوب عليه السلام بالنبوة. وبدأ يدعو الناس إلى عقيدة التوحيد. وآمن له من ديار كنعان الكثير من الأهالي. يقول الله عز وجل في الآيات الكريمة:

﴿...وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا. وَوَهَبْنَا لَهُمْ مِنْ رَحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا﴾ [٦٧٧]

﴿وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ. إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ. وَإِنَّهُمْ عِنْدَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ﴾ [٦٧٨]

ويتحدث النبي ﷺ عن فضيلة هؤلاءِ الأنبياء فيقول:

«الكريم، ابن الكريم، ابن الكريم، ابن الكريم يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام» [٦٧٩]

وكان سيدنا يوسف عليه السلام مختلفاً عن اخوته بكل أحواله. فلقي حباً خاصاً وكبيراً من والده منذ أن كان صغيراً. ذلك أن سيدنا يعقوب عليه السلام قد شاهد خصائص ابنه يوسف.

---

٦٧٧. مريم: ٤٩-٥٠.

٦٧٨. ص: ٤٥-٤٧.

٦٧٩. البخاري، الأنبياء، ١٩/ ٣٣٩٠؛ التفسير ١٢/ ٤٦٨٨.

ولهذا كان ميله إليه أشد من سائر إخوته بكثير.فكان كثير الحب له، ويعزه عن باقي إخوته ولا يبعده عنه.

إن ميول القلب لدى سائر المخلوقات هو أمر يظهر اختلافاً متبايناً بحسب التوجه الإيجابي أو السلبي. ولكن الأنانية، أي تفضيل الأمور للذات، هي أمر أصيل. ولهذا، فإن كل مخلوق يميل إلى الصفات التي يجدها قريبة منه بشخصه. وذلك هو نتيجة التماشي والتثبيت للنفس مع الغير. أي أن ما تشابه ائتلف. فما من مشهد للحب إلا وكان نتيجة للصفات المشتركة التي يجدها الحبيب في الطرف الآخر. ولهذا فإن الجذب والانجذاب أي التآلف والتواصل لا يمكن حصوله إلا من خلال التشابه والوحدة. فنجد أن الحياة النفسية تجذب الفاسق، بينما تجذب الحياة الروحانية الصادقين والصالحين؛ فيجذب الكفر للكافر، ويجذب الإرشاد طالبه من الناس. قانون الجاذبية هذا، ينفذ حكمه بشكل رائع على المادة والمعنى وفي أمور الخير والشر كافة.

أحسن القصص: قصة يوسف

يتحدث القرآن الكريم عن قصة يوسف عليه السلام فيصفها بقوله «أحسن القصص» [٦٨٠] ويروي تفاصيلها بسورة كاملة مستقلة. تقول الآية الكريمة:

﴿لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِلسَّائِلِينَ﴾ [٦٨١]

وقصة يوسف هي كما يوضح لنا هذا البيان الإلهي، هي قصة تمتليء بالحكم والعبر. ولم يكن هناك أي كتاب أو أثر تمكن من سرد قصة يوسف بشكل أجمل من ذلك الذي هو في القرآن الكريم من قصة. وكم يتضح بشكل واضح في ختام هذه السورة، فإن هذه الأحداث التي ذكرت في سورة يوسف إن هي إلا من أخبار الغيب[٦٨٢] ولا تحمل أية إضافة[٦٨٣] أو تأليف عقلي أو نقلي معين.

٦٨٠. أحسن القصص: أجمل سرد أو أجمل قصة أو حكاية أو ملحمة. وكلمة قصة هي في الأصل بمعنى اتباع الأثر وتتبع الحال. ولتأخذ إحدى الحوادث أو الأخبار اسم القصة، يجب عليها أن تحمل خاصية الإتباع أو قيمة معينة لكتابتها.

٦٨١. يوسف: ٧.

٦٨٢. انظر: سورة يوسف، ١٠٢ .

٦٨٣. انظر : سورة يوسف، ١١١.

وبالفعل، إن قصة يوسف عليه السلام بما تحمله من حكم وعبر، هي من أكثر قصص القرآن الكريم لفتاً للإنتباه والدقة. ويمكن تلخيص آراء المفسرين حول العبر المذكورة في هذه القصة على الشكل التالي:

١. لقد أظهر يوسف عليه السلام منذ نعومة أظفاره صبراً كبيراً على مختلف أنواع البلاء والمصائب.

٢. على الرغم من كل ما تقدم به إخوة يوسف من أذية وإساءة إليه، بل وحتى التفكير في قتله، فإن يوسف عليه السلام أظهر أجمل نموذج للعفو والمسامحة عندما التقى بهم.

٣. تتحدث هذه القصة عن أنواع متعددة من الحيل والأفخاخ التي تقوم بها النساء، والرجال، والجاهلون، والعالمون، والتجار، والدول، والحكام، والحيوانات، والجن، والناس، والشياطين، «والملائكة والصالحون والأنبياء».

٤. تتحدث هذه القصة عن الكثير من الأمور الضرورية لصلاح هذه الدنيا والدين بدءً من أمور التوحيد، والفقه، والسيرة، وتفسير الأحلام، والسياسة والمعاشرة.

٥. تروي القصة نموذجاً رائعاً للسعادة التي يحصل عليها الإنسان بعد حياة مليئة بالبلاء والأسى والإمتحانات.

ولهذا نجد أن يوسف عليه السلام أصبح ملكاً لمصر وهو في الثلاثين من عمره.

كما عادت زليخة بحرمة دعاء يوسف عليه السلام إلى سابق شبابها وجمالها وتزوجت به عليه السلام.

واستعاد يعقوب عليه السلام نعمة البصر بعدما فقدها وعمي لشدة البكاء حسرة على ولده يوسف عليه السلام.

اجتمع شمل يعقوب عليه السلام مع أحب أولاده إليه، كما اجتمع شمل يوسف بأخيه بنيامين الذي هو أخوه الوحيد من نفس الأب والأم.

عفى يوسف عليه السلام عن إخوته الذين أرادوا يوماً مقتله، وتاب إخوته عن فعلهم فأصبحوا من الصالحين.

هاجر يعقوب عليه السلام وعائلته من ديار كنعان إلى مصر.

تحققت رؤية يوسف عليه السلام التي شاهدها في صغره.

يترك ريان بن الوليد سائر أمور مملكته ليوسف عليه السلام ويؤمن به فيصبح من المسلمين.

٦. دعى يوسف عليه السلام بأجمل دعاء لم يدع به أحد قبله حتى ذلك اليوم. حيث قال:

﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ [٦٨٤] [٦٨٥]

❁

مما لا شك فيه أن أجمل القصص هي تلك التي تروى من واقع الحياة من الحوادث التي يعيشها الناس. أي أن القصة هي الحادثة الحقيقية التي تتجمل بطريقة سردها وتبليغها وتصويرها بشكل فني بديع يدل على جمالها الأدبي. ولهذا، فإن الجمال الحقيقي هو دائماً يتعدى الخيال، ولا يمكن الوصول إليه إلا عبر إحتوائه لأمثلة يغترفها من الجمال المطلق.

إن قصة يوسف قد أنزلت قصة غيبية كرمز بداية للمعنى الكامل للجمال المحمدي. ولهذا، ومن هذه الصفة التي تميزها، فإنها تكتسب وصف الله تعالى لها بأنها «أحسن القصص»، أي أجملها.

يروي عبيد بن كعب رضي الله عنه عن الرسول ﷺ قوله:

«علموا أرقاءكم سورة يوسف، فإنه أيما مسلم تلاها وعلمها أهله وما ملكت يمينه هؤن الله عليه سكرات الموت، وأعطاه القوّة أن لا يحسد مسلماً» [٦٨٦]

لقد تعرض يوسف عليه السلام للعديد من المصائب كحسد إخوانه، ورميه في البئر، وإلقاؤه في السجن. ونتيجة لتقواه، أرسل الله تعالى جبريل عليه السلام إلى يوسف عليه السلام يواسيه وينعم عليه. وأعطاه قوة التحمل على البلاء. ومن ثم أعطاه القوة والعزة والسلطنة. وهكذا، ولما تعرض له من أذى وجفاء، سخر يوسف عليه السلام فترة حكمه لمساعدة الضعفاء والفقراء والغرباء، فكان أكثر رحمة ومساعدة لهم.

ومما يجب معرفته، أن من قرأ سورة يوسف وتعمق في معانيها ناله من السرور الذي أصاب يوسف عليه السلام.

---

٦٨٤. يوسف: ١٠١.

٦٨٥. انظر القرطبي، الجامع، ٩، ١٢٠.

٦٨٦. الزمخشري، الكشاف، ٢، ٥٢٢.

وسورة يوسف مليئة بالعبر والحكم بما لا يمكن تعداده. ففيها من أسرار العبر والحكم الطيبة ما للنبوة، وتفسير الأحلام، ورئاسة الدنيا، وحفظ التوازن بمتانة عند البلوى، والصبر على أذى الأعداء، والفرقة، والحب، والعاشق والمعشوق، وحيل النساء ودسائسهن، والامتحان، والعبودية، والحبس، والخلاص، والعزة، والإقبال، والعفو عند الشر عند المقدرة دون الرد بالمثل، والنعمة، والجذب، والإشارة، والبشارة، والتعبير والتفسير.

كما تتحدث هذه السورة في طياتها وراثة الأنبياء، وأسرار خلافة الله، والقوى الروحية والجسدية مثل القلب والروح. فتمثل زليخة النفس الأمارة أمام يوسف عليه السلام. ومن ثم تسلم زليخة، فترتفع في مقامها برؤية التربية الروحية. ثم تجتمع روحها مع يوسف عليه السلام كالتوأم له. فتنضج نفسها بالبلاء والابتلاء والأزمات إلى أن تصل إلى الله.

وأسباب نزول هذه السورة هي:

يذهب علماء اليهود إلى رؤساء المشركين فيقولون لهم:

«إسألوا محمداً عن عائلة يعقوب، ولماذا هاجروا من الشام إلى مصر، وما هي قصة يوسف؟»

فيذهب رؤساء المشركين إلى سيدنا رسول الله ﷺ ويسألونه عن ذلك. فتتنزل عليه سورة يوسف.[٦٨٧]

كما أن فترة نزول هذه السورة كانت من الأيام الصعبة على المسلمين مليئة بالمحن والبلاء الذي كان يأتي الواحدة تلو الأخرى، وفي الفترة التي فقد فيها رسول الله ﷺ زوجته خديجة وعمه أبو طالب. وازداد الضغط فيها على المسلمين. فكان نزول هذه السورة في السنة التي عرفت بـ «**عام الحزن**» كنوع من المواساة لرسول الله ﷺ في هذه الفترة العصيبة. فهي بشرى للصابرين ومن يسير في سبيل الله بأن النصر والفوز قريبٌ بإذن الله تعالى.

يقول الله تعالى في بداية سورة يوسف:

﴿الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ. إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾[٦٨٨]

٦٨٧. الآلوسي، التفسير، ١٢، ١٧٠.

٦٨٨. يوسف: ١-٢.

إن قول الله تعالى «قرآناً عربياً» في الآية الجليلة هي خير دلالة على أن اللغة العربية هي أفضل اللغات. والقرآن الكريم هو تحفة فنية إلهية لكونه بما يحمله من معاني وألفاظٍ واختيار للكلمات من كلام الله تعالى نفسه. وهي المعجزة الإلهية الباقية إلى يوم القيامة دون أن يتمكن أي مخلوق في الدنيا من أن يكتب مثله أو شبهه.

ولقد كرم الله تعالى اللغة العربية بشرف خاص عندما أنزل قرآنه الكريم باللغة العربية. كما أن من حكمة تنزيل القرآن الكريم باللغة العربية هو إلغاؤه لكل أعذار المجتمع من حوله. فمما لا شك فيه أن الوحي الإلهي كان ليتنزل بلغة من اللغات التي يتكلم بها الناس. علماً أنه وبالرغم من نظرة الشمول الكوني، إلا أن كل حركة في هذه الدنيا لا بد لها من أن تنطلق نواتها الأولى من أحد المواقع، وأن تتشكل من بعد هذه الإنطلاقة.

يكمل الله تعالى في الآية الكريمة فيقول:

﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هـذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ﴾ [٦٨٩]

إن سورة يوسف هي السورة الأولى التي أنزلت على رسول الله ﷺ على شكل قصة. وهي وجيزة من الناحية اللفظية، عميقة وواسعة جداً من ناحية المعنى. ويوجد في هذه السورة الكثير من الحكم الجميلة والصفاء والمعاني التي تشكل عبرة لكل معتبر متفكر.

لقد كان يوسف عليه السلام أجمل أولاد يعقوب عليه السلام جميعاً. وكان على نفس الرفعة والنسب معهم جميعاً. فهو إضافة لعلو شرف نسله الذي يعود إلى أنبياء ثلاثة، كما أنه نالَ كرم وشرف بالنبوة والصورة الحسنة، وتفسير الأحلام، ورئاسة الدنيا، والتعامل الرائع بأجمل صوره مع الأهل والشعب في زمن البلاء والقحط. فما أجمله من علو وما أجمله من كرم. وكان دعاؤه عليه السلام من أجمل الأدعية؛ يقول فيه:

﴿...تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ [٦٩٠]

مناجياً الله تعالى بطلب الموت تقرباً به إليه جلَّ وعَلا، فكان أول نبي دعا الله وناجاه بمثل ذلك. كما أن في هذه السورة تمثيل لقلب يوسف عليه السلام، وروح يعقوب عليه السلام، وجسد

٦٨٩. يوسف: ٣.

٦٩٠. يوسف: ١٠١.

رحيل، والحس النفسي لإخوة يوسف الأحد عشر. ويوجد في أرجاء القرآن الكريم مثل ذلك الكثير من المعاني الواسعة التي لا مثيل لها. والبصيرة وحدها هي ما يمكن المرء من رؤية هذه المعاني بحق.

رؤيا يوسف عليه السلام

تقول الآية الكريمة:

﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾ [٦٩١]

إن الكواكب الأحد عشر التي رآها يوسف عليه السلام في منامه هم إخوته، والشمس هو والده يعقوب عليه السلام، والقمر هي خالته ليا. ذلك أن والدته رحيل كانت قد توفِّيَتْ.

والحكمة من رؤية يوسف لإخوته على صورة الكواكب هي أن الأخوة هي التأثير المهم الذي يعطي الحياة الإنسانية تدفقها. وذكر الشمس والقمر بعد ذلك هو بمعنى أن يوسف عليه السلام سيلتقي بإخوته قبل أن يلقى أباه وخالته.

وكان يوسف عليه السلام ابن سبع سنين عندما رأى تلك الرؤيا.

يأتي أحد اليهود إلى النبي ﷺ ويسأله: أخبرني يا محمد عن النجوم التي رآهن يوسف؟.

فيسكت الرسول عليه الصلاة والسلام لفترة. فيأتيه جبريل عليه السلام ويبلغه أسماء هذه الكواكب. فيلتفت الرسول ناحية اليهودي ويقول ﷺ:

«إذا أخبرتك بذلك هل تسلم؟"

فقال اليهودي: نعم. فيقول له رسول الله ﷺ:

«- جريان والطارق والذيال وقابس وعمودان والفليق والمصبح والضروح والفرغ ووثاب وذو الكتفين رآها يوسف والشمس والقمر نزلن من السماء وسجدن له"

فقال اليهودي: والله انها لأسماؤها!. [٦٩٢]

---

٦٩١. يوسف: ٤.

٦٩٢. البورسوي، روح البيان، ٤، ٢١٢.

أقسام الرؤيا الثلاثة

١. **حديث النفس**: يرى المرء في منامه عمله وصنعته؛ أو يرى العاشق معشوقه. وهي بالتالي نتيجة لخيال الإنسان.

٢. **تخويف الشيطان**: و هي الرؤيا التي يراها الإنسان بشكل فوضوي ومختلط فتوقع الإنسان بمحن نفسية.

٣. **البشرى الإلهية**: وهي أن يقوم ملك بنقل آثار من اللوح المحفوظ كنسخة من أم الكتاب إلى المرء. وهي رؤيا حقيقية، ورؤى صالحة. ويقال عنها «رؤيا صادقة». وكل ما عدا ذلك من الرؤى هي رؤى مختلطة.

والرؤيا الصادقة هي وميض لما هو في اللوح المحفوظ.

عن أبي هريرة ﷺ، قال رسول الله ﷺ:

«إذا اقترب الزمان لم تكد تكذب، رؤيا المؤمن ورؤيا المؤمن جزء من ستة وأربعين جزءا من النبوة..الرؤيا ثلاث: حديث النفس، وتخويف الشيطان، وبشرى من الله، فمن رأى شيئا يكرهه فلا يقصه على أحد وليقم فليصل» [٦٩٣]

تقول الآيات الكريمة:

﴿قَالَ يَا بُنَيَّ لاَ تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ. وَكَذلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَى آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَى أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [٦٩٤]

عندما استيقظ سيدنا يوسف عليه السلام وأخبر والده برؤياه، فهم سيدنا يعقوب عليه السلام ما سيؤل إليه ولده من مكان علي وشرف كبيرين في الدنيا والآخرة. ولهذا أمره وشدد عليه بأن لا يخبر أحداً من إخوته عن هذه الرؤيا. لأن إخوته قد يحسدوه على ذلك ويوقعونه في الفخ. إذن، كما يجب علينا أن نمتنع عن الحسد، فإن علينا أيضاً أن نسعى لتجنب التعرض له.

---

٦٩٣. البخاري، التعبير، ٢٦/ ٧٠١٧..

٦٩٤. يوسف: ٥-٦.

ولهذا، فإننا نجد رسول الله ﷺ يحدثنا عن هذا الشأن فيقول:

«استعينوا على قضاء الحوائج بكتمانها، فإن كل ذي نعمة محسود»[٦٩٥]

النار التي تقتل القلب: الحسد

لم يفهم أبناء يعقوب عليه السلام يهودا وربيل وشام تلك العلاقة الخاصة التي كان سيدنا يعقوب عليه السلام يظهرها ليوسف. فحسدوه وقالوا:

﴿إِذْ قَالُوا لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَى أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ. اُقْتُلُوا يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ﴾ [٦٩٦]

فهم يعقوب سيدنا عليه السلام أن ابنه يوسف سيرثه في النبوة، ولهذا ازدادت صلته به بشكل أكبر. ولكن حسد إخوته الذين كانوا يشعرون بهذه العلاقة الخاصة كان يزداد يوماً بعد يوم. فكان هذا الحسد سبباً في أن يكونوا فخاً لسيدنا يوسف عليه السلام. أي أن سيدنا يعقوب عليه السلام بالغ في حبه، فكان البلاء على مقدار هذا الحب. لأن الله تعالى هو «جامع الأضداد»، أي يجمع الصفات الأضداد في ذاته. فمن أسمائه مثلاً الرقيب أي دائم المراقبة والعلو. ولهذا، فإن الغلو في الحب يجلب الفراق. كما أن حب الله تعالى لا يقبل شريكاً.

لقد شاهد سيدنا يعقوب عليه السلام نور النبوة على جبين ولده سيدنا يوسف عليه السلام، ولهذا أظهر له زيادةً في الإهتمام. فكان هذا الميل والحب من أبيهم سبباً في حسد بقية إخوانه ليوسف. وأتى اليوم الذي طفحت فيه كأس هذا الحسد واتفق إخوة يوسف على تدبير خطة سيئة له.

إن أهم عبرة في هذه الآية هو أن تبقى المحبة في القلب لكي لا تكون سبباً في ظهور الحسد. وأن على الحب أن يكون بهدوء وعمق.

❁

٦٩٥. ابن كثير، تفسير، ٤، ٣١٨؛ السيوطي، الجامع الصغير، ١، ٣٤/ ٩٤٣.

٦٩٦. يوسف: ٨-٩.

إذا لم يَمِلْ القلب إلى طريق اللّه، ولم يتطهر بِالذِّكْر، فإنّه يَسْودُّ ويصبح قلباً أماراً بالإساءة.

تقول الآية الكريمة:

﴿...أَلاَ بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ [٦٩٧]

إن الذكر هو الشعور في القلب بإدراك الله تعالى. ولا يمكن للقلب أن يحفظ من المعصية إلا عبر هذا النوع الحقيقي من الذكر. فالقلب هو بيت الله والمكان الذي تتحققه فيه محبته. فإن لم يمتليء هذا القلب بالذكر، فإنه سيميل بعد مدة من الزمن إلى رغبات النفس ويموت بعد ذلك.

يقول رسول الله ﷺ:

«....**لا يجتمعان في جوف مؤمن الإيمان والحسد**»[٦٩٨]

وفي رواية أخرى يخبرنا رسول الله ﷺ أن الحاسد يكب على وجهه في النار دون أن يعرض على الحساب.

إن الكبر والحرص والحسد هي مصدر كل الخطايا. يحدثنا الحسن البصري رحمه الله تعالى فيقول:

– الشر في ثلاثة أمور : الكبر والحسد والحرص.

١. **الكبر**: فأما الكبر فقد منع إبليس من السجود لآدم

٢. **الحسد**: وأما الحسد فقد حمل ابن آدم على قتل أخيه.

٣. **الحرص**: وأما الحرص فقد أخرج آدم من الجنة» [٦٩٩]

بمجرد أن يحسد المرء فهو إذن يعترض على التقدير والمشيئة الإلهية. لأن الحسد هو الرغبة في زوال هذه النعمة التي وهبها الله ﷻ لغيره ولم تكن فيه ومعه. أما الغبطة فليست كذلك. لأن الأساس في الغبطة هو أن يتمنى المرء أن تكون تلك النعمة

٦٩٧. الرعد: ٢٨ .

٦٩٨. الطبراني، المعجم الصغير، ١، ٢٥١/ ٤١٠.

٦٩٩. انظر: السيوطي، الجامع الصغير، ١، ١٠١/ ٥٠١٦.

المعنوية أو المادية موجودة له ولغيره بنفس الوقت. لهذا، يمتدح الإسلام الغبطة ويمنع الحسد بشدة.

والحسد يضر بصاحبه أكثر مما يمكن أن يسبب من ضرر للمحسود نفسه. فهو كمن رمى غيره بحجر فعاد إليه هذا الحجر ليفقأ له عينه. ولا فائدة للحسد إلا الغضب. وبالنتيجة يفضح الإنسان فيخجل. إن ما تقدم به أخوة يوسف عليه السلام من حسد أدى إلى أفعالهم السيئة كان سبباً في عودته إليهم في النهاية.

يمنع الله سبحانه وتعالى المؤمنين عن الحسد فيقول عز وجل :

﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ...﴾ [٧٠٠]

ويقول الرسول الأكرم صلوات الله وسلامه عليه:

«إياكم والحسد، فإن الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب - أو قال: العشب -» [٧٠١]

❁

إن الحب الشديد الذي أحبه يعقوب عليه السلام ليوسف كان سبباً في امتحان الله سبحانه وتعالى له. ولهذا السبب، أراد الله تعالى أن يبتليه فيما أحب، فأبعد يوسف عليه السلام عنه.

علماً أن الولد هو في بعض الأحيان امتحان كبير للأب. فنوح عليه السلام مثلاً برغم دعوته على قومه، لم يتمالك نفسه عندما وجد ابنه المشرك على حافة الغرق فقال:

﴿...رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي...﴾ [٧٠٢]

فما كان من الله تعالى إلا أن نبهه بهذا الشكل فقال له:

﴿قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ...﴾ [٧٠٣]

---

٧٠٠. النساء: ٥٤.

٧٠١. أبو داود، الأدب، ٤٤/ ٤٩٠٣؛ ابن ماجه، الزهد، ٢٢.

٧٠٢. هود: ٤٥ .

٧٠٣. هود: ٤٦.

خطة الغدر

عندما توصل أخوة يوسف إلى قناعة بشأن يوسف عليه السلام:

﴿قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ﴾ [٧٠٤]

ويروى أن يهودا هو الذي جاء بهذه الفكرة وأقنع إخوته بها. كم هو عبرة حال هؤلاء الإخوة؛ فأكثرهم رحمة كان من أوصى بحسده أن يلقى يوسف عليه السلام في البئر. وبهذا، كم من عدو خفي يلبس لباس الصداقة بحسده. وهو ما يوجب التنبه إليهم والحذر بقدر المستطاع.

❁

إن أصحاب الإستقامة الحقيقية هم الذين قلوبهم حية فقط. أما ضد ذلك من القلوب البعيدة عن الذكر فإنها تقع تحت تأثير النفس؛ فتجف بنار الشهوة، وتتصلب وتصبح أعضاؤها غير قادرة على العبادة. واستمرار القلوب على هذا الشكل، يجعل منها بعد ذلك كقطعة الحطب لا تنفعُ إلا للإشتعال في النّار. نسأل الله أن يحمينا من الوقوع في هذا الأمر. يقول الله تعالى:

﴿...فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ [٧٠٥]

❁

وأخيراً، يأتي إخوة يوسف إلى أبيهم ومعهم ما اتفقوا عليه من خطة غادرة:

﴿قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ. أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [٧٠٦]

---

٧٠٤. يوسف: ١٠ .

٧٠٥. الزمر: ٢٢.

٧٠٦. يوسف: ١١-١٢.

البلاء مرتبط بما يخرج من اللسان

﴿قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ﴾ [٧٠٧]

تتحدث إحدى الروايات أن يعقوب عليه السلام رأى رؤيا. فكان فيها على سفح جبل وكان ابنه يوسف فيها في الصحراء. وتهجم عشرة ذئاب بشكل مفاجيء على يوسف. فيختفي يوسف من بعدها. ولهذا كان قول يعقوب عليه السلام لأولاده «وأخاف أن يأكله الذئب!» مشيراً إلى قلقه. ولكنه كان بذلك القوم وكأنما يؤمن لأبنائه حجة الغياب التي سيعتذرون بها بعد تنفيذ تلك الخطة.

لا يجب على الإنسان أن يمد خصمه بأمور قد يستخدمها ضده.

فحتى تلك اللحظة لم يكن لإخوة يوسف خطة مكتملة كهذه. وكان ما صرح به والدهم هو خيط الأساس الذي تمكنوا خلاله من إكمال خطتهم سراً.

يقول ابن السقيط الذي قتل بعد قطع لسانه:

«من الممكن أن تكون المصيبة التي تلحق بالإنسان جراء زلة لسانه، هي مصيبة أكبر من تلك التي تلحق به من زلة قدمه! فما يقع من مصيبة جراء زلة القدم هو جرح سيندمل مع الأيام. أما ما يخرج من الفم من قول فإنه قد يذهب بالرأس كله».

وعلى الرغم مما رأى من رؤية وخبر، بقي يعقوب عليه السلام في عجز عن ردع أبنائه من اصطحاب يوسف عليه السلام معهم. ولربما يكون هذا القول المأثور هو خير ما يعبر عن هذا الأمر:

«إذا جاء القدر، عَمِيَ البصيرُ!»

فالعبد الذي يقول «لا أفعل هذا الخطأ أبداً» يكون بقوله هذا قد ترك باباً مفتوحاً للشيطان يدخل منه، فيترك الشيطان كل أعماله ويسلط عليه إلى أن يتمكن منه فيقع في الخطأ الذي أصر بقوله على عدم فعله. [٧٠٨]

من هذا المنطلق لا يجب على المرء التكلم بشكل قاطع وأن يلتجيء دائماً إلى اللّٰه تعالى.

٧٠٧. يوسف: ١٣.

٧٠٨. انظر: السيوطي، الجامع الصغير، ١، ١١٠.

لقد كان إخوة يوسف أناساً قصروا في حرمة أبيهم وأخيهم. ولهذا، وعملاً على تحقيق ما بيتوا من خطة وحيلة، توجهوا إلى أبيهم بالقول والتنبيه فقالوا:

﴿قَالُوا لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذًا لَخَاسِرُونَ﴾ [٧٠٩]

خيانة الإخوة

﴿فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَأَجْمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [٧١٠]

وما أشار إليه القرآن الكريم بقوله تعالى «وأوحينا إليه» أي إلى يوسف، هو ما اعتمد عليه معظم علماء التفسير ليؤكدوا أن النبوة أعطيت ليوسف عليه السلام منذ أن كان في هذا العمر والمرحلة.[٧١١]

أمام إصرار أبنائه على أخذ يوسف عليه السلام إلى الصحراء معهم، ولما كان من رغبة ليوسف عليه السلام في الذهاب مع إخوته، قبل يعقوب عليه السلام بمطلب أبنائه على مضض. وحمل الأخوة يوسف عليه السلام على ظهورهم إلى أن تواروا عن أنظار أبيهم سعياً منهم لإراحة قلق أبيهم. وما إن توارى الأب عن الأنظار حتى ترك الأخوة ما كان منهم من عهد. فألقوا يوسف عليه السلام بغضب إلى الأرض وقالوا:

– يا صاحب الرؤية الكاذبة! أين الكواكب التي رأيتها تسجد لك؟ فليأتوا ليخلصوك منا الآن!.

وبدأوا بضرب يوسف عليه السلام وأذيته. وما التجأ يوسف إلى أخ من إخوته إلا ناله منه أذى أكبر، فقبح وضرب. فبدأ أمام هذا الوضع الذي لا حيلة له فيه بالبكاء وقال:

٧٠٩. يوسف: ١٤.

٧١٠. يوسف: ١٥.

٧١١. قد أرسل الله ﷻ الوحي إلى كل من يحيى وعيسى عليهما السلام في سن البلوغ. كما قام بمثل ذلك مع بعض عباده بانتظار تهيأتهم للنبوة عندما يشاء. كما فتح الله تعالى باب الولاية لبعض عباده وهم في سن الطفولة. ومن هؤلاء الأولياء الصلح عبد الله التستري. ولهذا، فإننا نفهم من ذلك أنه لا علاقة للعمر بتولي النبوة سواء أكان طفلاً أو قد بلغ الأربعين. ولكن معظم الأنبياء شرفوا بالنبوة في سن الأربعين الذي يعتبر سن الوصول إلى مرحلة الكمال. ولهذا نجد أن معظمهم بدأ برسالته النبوية بعد سن الأربعين.

– يا أبت! ما أسرع ما نسوا عهدهم إليك ونصيحتك لهم! لو ترى ما يفعلون؛ إن ما يقومون به من أذية ابنك لا يقوم بها أحد لعبده!.

وبحسب إحدى الروايات، فإن ربيل رفع يوسف وألقاه على الأرض. ومن ثم جلس بسرعة على صدره هادفاً قتله. كما أراد أخوه ليفي أن يدق عنقه. عندها توجه يوسف عليه السلام إلى أخيه يهودا أكثر إخوته رحمة بينهم، فقال له راجياً: يا يهودا! اتق الله وامنعهم عن قتلي!.

وعندها رق قلب يهودا وقال: لا تقتلوه! ألم نتعاهد على عدم قتله؟

فقالوا: – نعم!

عندها قال يهودا: ألا أقول لكم بشيء خير من قتله؟ ألقوه في البئر

إلقاء يوسف عليه السلام في البئر

وعندما أتت إجابة بقية الأخوة «جيد جداً!» على عرض يهودا، تعاونوا جميعاً على إلقائه في البئر.

ويقال أن هذا البئر هي في جوار الأردن، قام شداد أحد حكام قوم عاد الظالمين بأمر حفره أثناء بناء الأردن. فتحته ضيقة وقعره واسع.

وأخيراً، أتى الإخوة جميعهم إلى البئر. وكان يوسف عليه السلام يتمسك بألبستهم ويرجوهم، ولكنهم كانوا يبعدونه ويركلونه. وأمسكوا به في طرف البئر معلقاً من يديه بأيديهم لكي لا يتمكن من الإمساك بشيء ونزعوا عنه قميصه. فقد اتفقوا على نحر خروف يمرغون بدمه قميص يوسف لإقناع أبيهم. فقال يوسف لإخوته عند نزع قميصه:

« يا إخوتي! دعوا لي قميصي. فإن مت كان كفناً لي، وإن بقيت حياً كان لباساً لي!». ولكنهم لم يستمعوا له.

وبعد أن وصل يوسف إلى منتصف البئر قطع إخوته الحبل لكي يقع فيه. ولما كان البئر مليء بالماء، فقد تسلق يوسف إلى صخرة في طرفه. ووقف على قدميه ونادى إخوته عل الرحمة لعلَّها تنال من قلوبهم فيخرجونه. إلا أن إخوته أرادوا رميه بالحجارة لأنه «لم يمت!». لكن يهودا منعهم من ذلك.

وفي هذه الأثناء، نادى الله تعالى جبريل فقال له:«إلحق عبدي!»

فأسرع جبريل عليه السلام إلى يوسف وأمسك به ووضعه على تلك الصخرة. وكان يحضر له من الجنة طعامه وشرابه. ومن ثم ألبسه قميص إبراهيم عليه السلام. يقول حسن البصري:

«عندما أُلْقي في البئر، كان يوسف يبلغ الثانية عشرة. وقد التقى به أبوه يعقوب بعد أربعين سنة كاملة»

وكانت البئر موحشة جداً. فيها من الحيايا والعقارب وسائر الحشرات. ولكنها أمرت جميعاً ألا تخرج من جحورها.

وعندما ألقي يوسف عليه السلام في البئر، التجأ إلى ربه قائلاً:

«يا شاهداً لا يغيب! يا قريباً لا يبتعد! يا غالباً لا يغلب! أخرجني من الضيق الذي يلم بي إلى الرفاهية! وافتح لي باب النجاة!»

وبحسب إحدى الروايات فإن يوسف عليه السلام بقي في البئر ثلاث ليال. وتروي رواية أخرى بأنه لم يلبث فيه إلا ساعة واحدة.

وبينما كان يوسف عليه السلام في البئر، قام جبريل بتعليمه هذا الدعاء:

«يا رافع الغم! يا مجيب الدعاء! يا مضمم كل أنواع الكسور! ومسهل كل أنواع الصعوبات! يا صاحب من لا أهل له، ومؤنس كل وحيد يا الله! يا إلهي يا من لا إله غيره! أنزهك وأرجوك أن تنقلني من وحشتي هذه إلى الرفاهية ، وأن تفتح لي باباً للنجاة! قد تربع حبك في قلبي إلهي، فلا أذكر أحداً بعدك قط. إحفظني يا إلهي! يا أرحم الراحمين!».

عندما ألقي يوسف في البئر بدأ بذكر ربه. وعندما سمعت الملائكة مناجاته طلبت من الله تعالى أن تستمع إلى هذا الصوت الجميل. فقال تعالى للملائكة: « ألستم من قال قبل ذلك؛

﴿...أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ...﴾[٧١٢]

ومن ثم سمح الله تعالى لهم بالإستماع إليه بعد أن ذكرهم بما كان من قولهم.

❁

٧١٢. البقرة: ٣٠.

إن الروح والقلب يميلان إلى عالم الروحانيات. أما القوة والأحاسيس التي تعود للنفس فإنها تميل إلى عالم الحيوانيات. فإذا تُرِكَ الإنسان لحاله، تكون الغلبة فيه للنفس؛ فيتحكم البدن بالروح، وهو حال الفاسقين.

أما إن نال القلب أخلاقاً حميدة من خلال الصحبة والذكر، فإن الغلبة فيه تكون للروح والقلب. وعندها يتحكم القلب والروح بالجسد والنفس. وهو حال السعداء.

ويُظْهِر الأنبياء والأولياء الكرام صبراً وتحملاً على البلوى التي تصيبهم بما يمن الله به عليهم من الوحي والإلهام.وبهذا تكون هذه الإمتحانات وسيلة لهم تقرب قلوبهم من الله ﷻ.

لقد امتحن الله ﷻ يعقوب ويوسف عليهما السلام بقدر شديد وحزن كبير ليصبرا رغم كل ذلك فيزداد تعلقهم باللَّه ويتجها إليه وحده دائماً. فيزداد تعلقهما به، ويتجها دائماً إليه. فيكون تقربهما به وسيلة تنجيهم من كل ما يتعلق بالدنيا من الأمور الفانية فيصلا إلى الدرجات الرفيعة العالية!. فكم من درجة رفيعة لا يصل إليها المرء إلا من خلال المحن والمشقات.

ولهذا، لم يكن بقاؤه عليه السلام في السجن اثنتي عشرة سنة إلا لحكمة أراده اللَّه تعالى ليوسف عليه السلام فيمتلك من خلال المشقة والحلاوة والرياضة والمجادلة أنواع الكمال المعنوي. ولربما كان بقاؤه بقرب أبيه سبباً يمنعه من الوصول إلى ذلك. ولهذا، نجد أن معظم الأنبياء توجهوا في حياتهم إلى الهجرة بعيداً عن أرضهم وديارهم في فترة من الفترات وعاشوا حياة الغرباء.

❁

بعد أن ألقى إخوة يوسف أخاهم في البئر اتجهوا نحو طريق العودة إلى البيت، فأتوا أباهم وفي عيونهم دموع الكذب. تتحدث الآيات الكريمة عن هذا الأمر فتقول:

﴿وَجَاءُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ. قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ﴾ [٧١٣]

٧١٣. يوسف: ١٦-١٧.

بحسب إحدى الروايات، تأتي امرأة إلى القاضي شريح تبكي بعد شجار بينها وبين زوجها. فقال الشعبي للقاضي:

- يا أبا أمية! إني أظن هذه المرأة مظلومة. ألا ترى كيف تبكي!.

فقال له القاضي شريح:

- يا شعبي! لقد أتى إخوة يوسف أباهم يبكون على الرغم من ظلمهم. ليس من الصحة بوجه أن يحكم المرء بناء لمشاهد البكاء! بل يجب عليه أن يطلع على حقائق الأمور فيبني حكمه عليها.

❁

علماً أن إخوة يوسف لم يكتفوا بالبكاء كذباً وإنما أضافوا على ذلك:

﴿وَجَاءُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ﴾ [٧١٤]

ويروى أن يعقوب عليه السلام أمسك بقميص يوسف الذي أحضر إليه مضرجاً بالدماء ومرغه في وجهه وبكى قائلاً:

«لم أر في حياتي ذئباً رحيماً إلى هذه الدرجة! يأكل ولدي ولا يمزق قميصه!».

صبر جميل

لقد أصبح حزن يعقوب عليه السلام على ولده يوسف قصة تتناقلها الألسن. ويعبر الشاعر يونس أمره عن ذلك الأمر فيقول:

لقد كنت يعقوباً بحالي،

وكان اسم المولى على لساني،

فقدت يوسف في أرض كنعان،

يبكي ويبكي يعقوب قائلاً: يا يوسفي!

أخذوا يوسف وعادوا بدم،

---

٧١٤. يوسف: ١٨.

وقالوا ببهت أكلته الذئاب،

لا أدري ما فعلوا بقميص يوسف،

يبكي ويبكي يعقوب قائلاً: يا يوسفي!

وهكذا، لم يبق ليعقوب عليه السلام إلا البكاء ذرفاً للدموع صابراً على ألمه وحزنه. ولهذا، لم يشتكي لأحد عن حاله صابراً وقال:

﴿قَالَ إِنَّمَا أَشْكُوا بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّه...﴾ [٧١٥]

عن الحسن قال، قيل:

«ما بلغ وجد يعقوب على ابنه؟ قال: وجد سبعين ثكلى! . قال: فما كان له من الأجر؟ قال: أجر مئة شهيد. قال: وما ساء ظنه بالله ساعة من ليل ولا نهار» [٧١٦]

وهكذا، لقب هذا الصبر بقوله: «صبر جميل».

والصبر الجميل هو تلقي المصائب والبلاء بعيداً عن العويل، والشكوى، بمتانة وتوكل. فمن يشكو ربه لعباده يفقد خاصية الصبر.

إخراج يوسف عليه السلام من البئر وبيعه

وبينما كان يعقوب عليه السلام يصبر صبراً جميلاً، كان يوسف عليه السلام يعيش في بئره متوكلاً ومسلِّماً أمره لله عز وجل. وفي هذه الأثناء:

﴿وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَى دَلْوَهُ قَالَ يَا بُشْرَى هـذَا غُلاَمٌ وَأَسَرُّوهُ بِضَاعَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ. وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ﴾ [٧١٧]

وعلى الرغم من أنهم فتنوا بجمال يوسف عليه السلام، إلا أن من أخرجه من البئر باعه بثمن بخس من الدراهم. ذلك أنهم كانوا يخافون من أن يخرج أحد فيطالب به، فباعوه بسرعة بالرغم من جماله الباهر عملاً على التخلص منه قبل أن يطالب به أحد.

---

٧١٥. يوسف: ٨٦.

٧١٦. الطبري، التفسير، ١٦، ٢٢٧/ ١٩٧١٨.

٧١٧. يوسف: ١٩-٢٠.

يقول الشيخ الكبير محيي الدين ابن العربي -رحمه اللَّه -:

« يقول تعالى: ﴿...وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا﴾ [٧١٨]

إن سر هذا القول هو أن اللَّه إذا أراد أمراً فإن زلة بسيطة من عباده كفيلة بتحقيق ذلك».

علماً أن يوسف عليه السلام وقف يوماً أمام المرآة ينظر إلى نفسه ويشاهد جماله فيقول:

«لو أنني أباع عبداً لكنت لا أقدر بثمن؛ وكان سعري غالياً جداً!»

إن هذه الزلة البسيطة التي قام بها إعجاباً بنفسه، لربما كانت سبباً في أن بيع عبداً وبسعر بخس زهيد لا قيمة له.

يروى عن النبي ﷺ أنه كان عائداً من المسجد إلى داره فخرج له أولاد يقولون له:

«كن لنا جملاً كما تكون للحسن والحسين»

❁

إن المهم ليس الجمال الظاهري الفاني، وإنما جمال القلب والأخلاق. يحدثنا رسول اللَّه ﷺ عن هذا الأمر فيقول:

«إن الله لا ينظر إلى أجسادكم، ولا إلى صوركم، ولكن ينظر إلى قلوبكم» [٧١٩]

كما أن سيدتنا هاجر قدمت من فرعون هدية وجارية إلى سيدتنا سارة. فكان أن ولد لهذه الجارية إسماعيل عليه السلام وكان من نسلها الأنبياء وكان آخرهم سيدنا ورسولنا عليه الصلاة والسلام.

إن لا قيمة كبرى لشكل الجسد. فهو غشاء للروح. ويكتسب الإنسان عزته وشرفه ببنيته الروحية أو يذل من خلالها. فإن كان للمرء أعمال صالحة وقلب نقي صاف، فإنه يكون مقبولاً عند اللَّه تعالى. وإن لم يكن كذلك، فلا أهمية بعد ذلك لجمال وجهه أو كثرة ماله أو عدمه.

فإن استعبد بدن الإنسان، فكيف يباع بخساً زهيداً! فكيف بمن باع روحه وقلبه لشهوته ورغبات نفسه فكان عبداً لها، فكيف بها ستكون عاقبته؟

---

٧١٨. الأحزاب: ٣٨.

٧١٩. مسلم، البر، ٣٣/ ٢٥٦٤؛ ابن ماجه، الزهد، ٩.

لهذا، يجب على المؤمن أن يعرف قيمته وعزته، وأن لا يرضخ في أي يوم من الأيام لنفسه فتستعبده. علماً أن اللّه تعالى يقول:

﴿أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلاً﴾ [٧٢٠]

❁

تقول الآية الكريمة:

﴿وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [٧٢١]

بحسب كتب التفسير، كان الذي اشترى يوسف عليه السلام تاجر عبيد قام بعد ذلك ببيعه إلى وزير المال في مصر. لأن وزير المال تنبه إلى ذكاء وفطنة يوسف عليه السلام، فأراد بشرائه أن يستفيد منه بعد ذلك في أمور الدولة مستقبلاً. كما أنه أراد أن يجعله ولداً له لأنه كان عقيماً لا ولد له.

وشراء العزيز ليوسف عليه السلام يدل على أن يوسف عليه السلام بعد أن بيع بسعر زهيد بخس لتاجر العبيد، بيع مرة أخرى للعزيز بسعر مرتفع أيضاً. علماً أن من اشتراه أولاً زينه وألبسه وأخرجه للبيع بحيث بقيت مزايدته ثلاث أيام كاملة. ومن ثم قام عزيز مصر بشرائه لقاء وزنه من المسك، ووزنه من مواد الزينة، ووزنه ذهباً، ووزنه فضة، ووزنه من الحرير.

❁

لقد امتدح اللّه تعالى العلم في القرآن، وقبح الجهل والجهالة.

جاء رجل إلى النبي ﷺ وقال أي الأعمال أفضل؟ قال **"العلم باللّه"** ثم أتاه فسأله فقال مثل ذلك فقال يا رسول الله: إنما أسألك عن العمل فقال ﷺ:

«إن العلم ينفعك معه قليل العمل وكثيره» [٧٢٢]

٧٢٠. الفرقان: ٤٣.

٧٢١. يوسف: ٢١.

٧٢٢. المناوي، فيض القدير، ٢، ٢٧/ ١٢٤٠.

يقول المثل، الوصول إلى كمال العلم خير من الوصول إلى كمال العمل. ولكن الخطأ في العلم، أخطر من الخطأ في العمل. علماً أن شرط العمل الأول هو العقيدة النقية.

ولهذا، دعى الأنبياء جناب الحق ﷻ طلباً في زيادة العلم. فكان علم آدم عليه السلام بالأسماء كلها وسيلة لسجود الملائكة واكتساب احترامهم، وكان فهم سليمان عليه السلام وذكاؤه العبقري سبباً في حصوله على أكبر سلطنة في التاريخ، وكان علم يوسف بتفسير الرؤى سبباً في خلاصه من الأزمات والسجن والوصول إلى الحكم.

سيدنا يوسف عليه السلام وزليخة

يقول اللَّه تعالى في القرآن الكريم:

﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ [٧٢٣]

كَبُرَ يوسفُ عليه السلام، واشتدَّ بنيانه، وأصبح شاباً شديدَ الجمالِ. فكان حاله سبباً بأن تفكر فيه سيدة البيت الذي يعيش فيه بأسلوب مختلف عما يجب عليه. يروي لنا القرآن الكريم تفاصيل ذلك بقوله ﷻ:

﴿وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ. وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾ [٧٢٤]

كانت زليخةُ تمتلك أوصاف النفس الزبون الثلاثة؛ أي الثروة والشهرة والشهوة. وكانت صاحبة حسن وجمال، وكانت لا تجد في أحد ما يتناسب مع أوصافها، ما جعلها محط الأنظار للجميع. وكانت زليخةُ قد أغلقت باب الغرفة بإحكام شديد.

ولهذا فكانت جرأتها في طلب الخطيئة أشد قوة وعزماً. فقالت ليوسف عليه السلام برغبة شديدة:

«هيت لك!» أي «تعال إليَّ» تقصد في قولها الإصرار على الفعل السيء المشين.

٧٢٣. يوسف: ٢٢.

٧٢٤. يوسف: ٢٣-٢٤.

وأمام هذا المشهد الذي يذيب إرادة الكثيرين عن المقاومة، تمكن يوسف عليه السلام بما أعطاه اللَّه من قوة وثبات عظيمين بقوله تعالى:

«ولقد همت به وهم بها لولا أن رأى برهان ربه». علماً أن من أشد ما يمكن للرجل أن يتعرض إليه من امتحان في حياته هو: أن تدعوه امرأة ذات الأوصاف المتميزة من الجمال والشباب والثروة، وأن يضاف على ذلك الخلوة، فيقول لها «كلا».

وهكذا، وأمام كل ما كان أمامه من أمور قوية جاذبة، تمسك بدرع من اللَّه تعالى بقوله «معاذ اللَّه» فكان نعم العبد المخلص، وخير صاحب للتقوى بالتجائه إلى اللَّه تعالى. ولهذا جاءت الآية القرآنية الكريمة تتحدث عن برهان اللَّه الذي كان صوناً من اللَّه ومحافظة له عليه السلام.

ولهذا، إن من خير الأمور التي تمكن المرء من مقاومة أمور الدنيا ورغباتها المتمثلة مجازاً في قوله تعالى «هيت لك» أي «تعال إلي»، هو أن يقول المرء في قلبه «معاذ اللَّه» «ملتجئاً إلى اللَّه» تعالى في قدرته التي لا نهاية لها.

وتنقل بعض كتب التفسير عن كلمة «برهان» المذكورة في الآية الكريمة ما يلي:

عندما سمع يوسف عليه السلام صوتاً يقول له «إياك، إياك!» لم يهتم لذلك الصوت.

ولكن، بعد أن تكرر هذا الصوت ثلاث مرات متتالية، ظهر شكل يعقوب عليه السلام في ذلك المكان. فرجع يوسف عليه السلام إلى نفسه وأعرض بوجهه عن زليخة.

فكان يعقوب عليه السلام بشكله مساعدة معنوية ليوسف عليه السلام بإذن اللَّه، ومانعاً لميله نحو زليخة التي تمثل النفس الأمارة بالسوء.

فكانت هذه الحادثة التي ذكرت في الآية الكريمة نموذجاً للإستعانة والإستغاثة، والرابطة المعنوية.

يقول علي بن حسن في إحدى الروايات:

كان لزليخة صنم لها تضعه في غرفتها. فقامت بتغطيته بلباس قبل أن تدعو يوسف عليه السلام إليها. فسألها يوسف الذي رأى ذلك:

- لماذا قمت بذلك؟

فقالت له زليخة:

– استحييت أن يراني في ساعة المصيبة!

فقال لها يوسف عليه السلام:

– تستحيينَ من قطعة الحجر مما لا يسمع ولا يرى ولا يفهم شيئاً، ولا حق لي في أن أستحي من ربي الذي خلق كل شيء في أجمل وجه؟.

عندما رأى يوسف عليه السلام برهان ربه قام مسرعاً نحو الباب. فلحقت به زليخة:

﴿وَاسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَى الْبَابِ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلاَّ أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [٧٢٥]

فقال لها العزيز:

– من الذي أراد بأهلي سوءاً؟

فأضافت زليخة إلى ذنبها ذنباً آخر فقالت مفترية على يوسف:

– أراد هذا الشاب أن يراودني عن نفسي.

فالتفت العزيز إلى يوسف وقال:

– هل هذا هو نتيجة الإحسان الذي قدمته إليك؟ لم يكن عليك أن تحزنني!

فقام يوسف عليه السلام بسرد الوقائع الحقيقية للحادثة دفاعاً عن نفسه من ذلك الإفتراء:

﴿قَالَ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَنْ نَفْسِي وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ أَهْلِهَا إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الكَاذِبِينَ. وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [٧٢٦]

يروى أن يوسف عليه السلام قد دعا ربه أن يظهر له دليلاً يؤكد براءته وصدقه. فكان لخال زليخة طفل ذو ثلاثة أو أربعة أشهر فنطق بشكل معجز وشهد ببراءة يوسف عليه السلام.

﴿فَلَمَّا رَأَى قَمِيصَهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ .يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هـذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنْبِكِ إِنَّكِ كُنْتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ﴾ [٧٢٧]

٧٢٥. يوسف: ٢٥.

٧٢٦. يوسف: ٢٦-٢٧.

٧٢٧. يوسف: ٢٨-٢٩.

وبدأت هذه الحادثة تنتشر بين الناس.

﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ [٧٢٨]

النساء تقطِّعن أيديُهنَّ عند رؤية يوسف

عندما سمعت زليخة بما كان من قيل وقال، قررت أن تمتحن نساء المدينة:

﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ [٧٢٩]

وكلمة «متكأ» المذكورة في الآية الكريمة هي بمعنى المخدة التي يُسْتَنَدُ عليها، وتأتي بمعنى «مجلس الطعام». لأنهم كانوا وبناءً لعادات المغرورين من الناس في زمانها، كانوا يأكلون ويشربون ويتسامرون ساندين ظهورهم إلى الخلف. ولهذا، فقد منع رسول اللَّه ﷺ الأكل مستنداً على شيء. ولهذا يقول رسول اللَّه ﷺ:

«لا آكل وأنا متكئ» [٧٣٠]

مقارنة منها بجمال وجه سيدنا محمد ﷺ بجمال يوسف عليه السلام، تقول سيدتنا عائشة رضي الله عنها في وصف النبي ﷺ:

لو سمعوا في مصر اوصاف خده .....لما بذلوا في سوم يوسف من نقد

لوامي زليخة لو رأين جبينـــــه .....لأثرن بالقطع القلوب على اليـــد.

كان رسول اللَّه ﷺ يدعو ربه دائماً بأن يجعل سيرته كجمال خلقه. فكان إذا نظر إلى المرآة يعرج على جمال الأخلاق بقوله:

«اللهم كما حسنت خَلقي فحسن خُلقي» [٧٣١]

٧٢٨. يوسف: ٣٠.

٧٢٩. يوسف: ٣٠.

٧٣٠. البخاري، الأطعمة، ١٣/ ٥٣٩٩.

٧٣١. ابن حجر، فتح الباري، ١٠، ٤٥٦.

أمام ما كان من فعل لنساء مصر أمام ما رأوه من جمال يوسف عليه السلام قالت لهم زليخة:

﴿... فَذلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ وَلَئِنْ لَمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِنَ الصَّاغِرِينَ﴾ [٧٣٢]

وهكذا، وأمام ما كان من فتنة النساء أمام يوسف عليه السلام الذي كان وجهه يلمع كالشمس وأجمل من البدر مكتملاً في الرابع عشر من كل شهر، رفع يوسف عليه السلام يديه يطلب عون ربه وملتجئاً إليه يطلب حفظه من شر هذا الموقف.

إذ أن حيل هؤلاء النسوة الغافلات عن الحق عز وجل لهي أشد من مكائد الشياطين.

﴿قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلاَّ تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ [٧٣٣]

يقول بعض كبار الصالحين من العلماء:

«إن إعطاء النفس تنازلاً، أي أن يستجيب المرء لرغبات نفسه، هو أمر يباعد المرء عن المحافظة على نفسه من شرها. والنجاة من ذلك هو بالالتجاء إلى اللَّه، والتقيد بأوامره. ولهذا، نجد أن يوسف عليه السلام التجأ إلى ربه ووصل إلى الفلاح».

يقول الله عز وجل:

﴿فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [٧٣٤]

إن لم يتسلح الإنسان بحفظ اللَّه تعالى، فإنه ما من قلب حتى ولو كان قلب نبي حائز على العصمة، فإنه ونتيجة لبشريته، لا يمكنه أن يكون آمناً من مكائد الدنيا، والميل إلى بعض الرغبات، ووسوسة الشيطان وأحاديث النفس. فلا يمكن له أن يحمي نفسه بنفسه! ولهذا، كان «برهان اللَّه» إلى يوسف خير مثال يوضح هذه الحقيقة.

ولهذا، فإن من واجبنا كعباد لله؛ أن لا نأمن لحيل أنفسنا أبداً، وأن نبقى في حالة من التيقظ فنلجأ دوماً إلى اللَّه تعالى مدركين لعجزنا في هذا الشأن.

٧٣٢. يوسف: ٣٢.
٧٣٣. يوسف: ٣٣.
٧٣٤. يوسف: ٣٤.

السجن

وقبولاً من اللَّه تعالى لدعاء يوسف عليه السلام:

﴿ثُمَّ بَدَا لَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا الْآيَاتِ لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّى حِينٍ﴾ [٧٣٥]

نزع عن يوسف عليه السلام لباسه وألبس لباساً مصنوعاً من الريش، وربطت قدميه بسلسلة من الحديد. وعندما اقترب يوسف عليه السلام من باب السجن أحنى رأسه وقال «بسم اللَّه» ودخل. والتف حوله جميع من في السجن فبدأ بالبكاء. فأتاه جبريل عليه السلام يسأله عن سبب بكائه. فأخبره يوسف عليه السلام بأن لم يجد مكاناً يمكنه من الصلاة فيه، فقال له جبريل عليه السلام:

« صل حيث بدا لك! فلقد طهر اللَّه أربعين عرشاً داخل السجن وخارجه»[٧٣٦]

﴿وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانِ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ الْآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ. قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا ذَلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ﴾ [٧٣٧]

وحول اسباب إلقاء هذين الشابين في السجن يروى ما يلي:

حاول بعض زعماء مصر من الناس المتزعمين فيها قتل الملك ريان بن الوليد عبر وضع السم له ومن ثم اختيار أحدهم مكاناً له في منصبه. ولهذا فقد قام هؤلاء الزعماء بمحاولة إغراء شابين يعملان في بلاط القصر أحدهما ساق والآخر طباخ لدى الملك. وأقنعوا هذين الرجلين بوضع ذلك السم في طعامه وشرابه.

---

٧٣٥. يوسف: ٣٤.

٧٣٦. في عهد الأنبياء الأولين والأمم السابقة، لم يكن مسموحاً لهم العبادة حسب شريعتهم. فكانوا لا يستطيعون العبادة إلا في أماكن محددة. أما رسول اللهَّ ﷺ فقد منح لخصوصية مكانته وذاته المباركة تميزاً بأن جعل اللهَّ تعالى سائر أرجاء الأرض أماكن طاهرة يمكن لأمة محمد ﷺ العبادة فيها. ولهذا نجد أن رسول اللهَّ ﷺ قد قال: «... وجعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً...» (البخاري، التيمم، ١/ ٣٣٥)

٧٣٧. يوسف: ٣٦-٣٧.

ولكن ساقي القصر كان قد فهم سوء هذا العمل، فعدل عن وضع السم للملك. أما الطاهي فوقع في سوء عمله وارتكب هذا الذنب. وعندما أراد الملك أن يمد يده إلى طعامه صاح به الساقي وقال: أيها الملك! إياك أن تأكل، فإن هذا الطعام مسموم.

وقال له الطاهي: أيها الملك! إياك أن تشرب، فذلك الشراب مسموم.

وأمام ذلك الأمر، طلب الملك من الساقي أن يشرب من ذلك الشراب. فشرب الساقي دون اي تردد.

ثم أمر الملك الطاهي بأن يأكل من ذلك الطعام. لكن الطاهي أبى ورفض.فأطعم الملك من ذلك الطعام أحد الحيوانات فخر قتيلاً جراء ذلك مباشرة.

فأمر الملك بحبس كلا الرجلين. فرأى كل منهما ما كان من رؤيا وردت حول ذلك في القرآن الكريم. [٧٣٨]

وأراد يوسف عليه السلام أن يعلم عقيدة التوحيد لهذين الرجلين اللذين يشاركانه حياته في هذا السجن. فما كان منه قبل أن يفسر لهما معاني أحلامهما إلى أن بدأ بإخبارهما حول ما هو عليه من دين الحق، وأن ما لديه من علم ليس إلا تكرماً من اللّٰه تعالى إليه، وأن أهل مصر هم على ضلال من أمرهم. فكان يحضرهم بذلك ليدعوهم إلى دين الحق.

وما يجب أن يستخلص من عبرة في هذا المقام هو أن المرء مهما تعاظمت أمامه الظروف والشروط، فإنه لا يجب عليه أن يتخلى أبداً عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. ولهذا، كانت الآيات الثلاثة المتعاقبة تتحدث عن تبليغ يوسف عليه السلام لهما:

﴿وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ. يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ. مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [٧٣٩]

٧٣٨. انظر: القرطبي، الجامع، ٩، ١٨٩.

٧٣٩. يوسف: ٣٨-٤٠.

تأويل يوسف عليه السلام للأحلام

بعد أن دعا يوسف عليه السلام صاحبيه في السجن إلى عقيدة التوحيد، بدأ يفسر لهما تفاصيل رؤيا كل منهما على حدة فقال:

﴿يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا وَأَمَّا الْآخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ﴾ [٧٤٠]

﴿وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِنْهُمَا اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ فَأَنْسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ﴾ [٧٤١]

وكانت النتيجة تماماً كما أشار يوسف إليهما. فأخرج الساقي من السجن وعاد إلى وظيفته التي كان عليها. أما الطاهي فكان مصيره الإعدام.

ويتحدث بعض المفسرين على أن طلب يوسف العون من صاحبه في السجن متناسياً بذلك ذكر اللَّه تعالى وعونه، قد أدى إلى تأنيب اللَّه تعالى له بأن أبقاه في السجن بضع سنين أخرى. وهذا الحال الذي حصل هو لدى الأنبياء بما يسمى «الزلة».

وعقاباً له عليها، مكث يوسف عليه السلام سبع سنوات أخرى إضافة للسنوات الخمس الآولى التي كان قد قضاها قبل ذلك.

وهكذا، كان مجموع ما قضاه في السجن اثنتي عشرة سنة كاملة.

ويروى أنه خلال الفترة التي سجن فيها يوسف عليه السلام، كان كل من خرج من السجن يعود إليه بين الفينة والأخرى ليزوره ويتحدث إليه في جلسات طويلة.

وفي أحد الأيام، وبينما كان حارس السجن يتحدث إلى يوسف عليه السلام قال له:

– يا يوسف! إني أحبك لدرجة لا أحب أحداً مثلك قط.

فقال له يوسف عليه السلام: إني ألتجيء إلى اللَّه ليحميني من حبك لي!.

فقال له حارس السجن: لماذا؟

---

٧٤٠. يوسف: ٤١.

٧٤١. يوسف: ٤٢.

فأجابه يوسف عليه السلام:

– كان أبي شديد الولع بي، فألقاني إخوتي في البئر؛ وأحبتني زليخة فألقي بي في السجن؛ والآن، أمام حبك لي من يعلم المكان الذي سألقى به!؟.

❁

عن مالك بن دينار أنه قال:

«لما قال يوسف عليه السلام للساقي: أُذْكُرْنِي عند ربك! قيل له: -أي أوحى اللَّه عز وجل إليه بقوله-: يا يوسف! اتخذت من دوني وكيلا؟ لَأُطِيلنَّ حبسك! فبكى سيدنا يوسف عليه السلام وقال: يا ربي! يا رب أقسى قلبى كثرة الأحزان والبلوى فقلت كلمة ولا أعود».

يقول رسول اللَّه ﷺ:

«رحم الله أخي يوسف لو لم يقل اذكرني عند ربك لما لبث فى السجن سبعا بعد الخمس» [٧٤٢]

لكن ما يقدم اللَّه تعالى لأنبيائه وأوليائه من بلاء ومشقة وضيق، لا يعتبر جزاء وعقاباً من اللَّه لهم، بل هو هدية مهداة منه جلَّ وَعَلا.

يقول رسول اللَّه ﷺ:

«إذا أحب اللَّه عبداً ابتلاه!» [٧٤٣]

عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، قال:

دخلت على النبي ﷺ وهو يوعك، فوضعت يدي عليه فوجدت حره بين يدي فوق اللحاف، فقلت: يا رسول الله ما أشدها عليك قال:

«إنا كذلك يضعف لنا البلاء، ويضعف لنا الأجر»

قلت: يا رسول الله أي الناس أشد بلاء؟ قال: **«الأنبياء»**، قلت: يا رسول الله ثم من؟ قال:

«ثم الصالحون، إن كان أحدهم ليبتلى بالفقر، حتى ما يجد أحدهم إلا العباءة يحوبها، وإن كان أحدهم ليفرح بالبلاء، كما يفرح أحدكم بالرخاء» [٧٤٤]

٧٤٢. البرسوي، روح البيان، ٤، ٢٦٤-٢٦٥.

٧٤٣. علي المتقي، كنز الأعمال، ٣، ٣٣٤/ ٦٨١١.

٧٤٤. ابن ماجه، الفتن، ٢٣/ ٤٠٢٤.

رؤيا حاكم مصر

وتكمل الآية الكريمة هذه القصة بقوله تعالى:

﴿وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنْبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ إِنْ كُنْتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ. قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالِمِينَ. وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ. يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنْبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [٧٤٥]

يفسر يوسف عليه السلام رؤية الحاكم بما أعطاه اللَّه تعالى من العلم فيقول:

﴿قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ إِلاَّ قَلِيلاً مِمَّا تَأْكُلُونَ. ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلاَّ قَلِيلاً مِمَّا تُحْصِنُونَ. ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ﴾ [٧٤٦]

بعد تفسيره لما كان من رؤيا، يفرح الحاكم بما حصل عليه من نتيجة ويرغب بمكافأة يوسف عليه السلام:

﴿وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ الّتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ﴾ [٧٤٧]

لم يذكر سيدنا يوسف عليه السلام اسم زليخة تأدباً. كما أنه لم يرغب في أن تسعى لحيلة جديدة لما كان يظنه منها من عداوة وصلت إلى قمتها. فيجمع الحاكم تلك النساء جميعاً:

---

٧٤٥. يوسف: ٤٣-٤٦.

٧٤٦. يوسف: ٤٧-٤٩.

٧٤٧. يوسف: ٥٠.

﴿قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدْتُنَّ يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ قُلْنَ حَاشَ لِلهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ قَالَتِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [٧٤٨]

فيوضح يوسف عليه السلام سبب حركته هذه على بساطتها فيقول:

﴿ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لاَ يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ﴾ [٧٤٩]

يبين اللَّه ﷻ في هذه الآية الكريمة بأنه لا يحب الخائنين أصحاب الحيل والمحتالين بقوله جلَّ وَعَلا:

﴿...إِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ الخَائِنِينَ﴾ [٧٥٠]

وأكبر خيانة هي تلك التي يقوم بها المرء تجاه اللَّه ورسوله. لذلك، ينبهنا اللَّه تعالى لهذا الشأن فيقول جلَّ وَعَلا:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [٧٥١]

إن الخائن ممن يمنع حقوق العباد مخالفاً أوامر اللَّه تعالى ونواهيه، هو الذي سيعلم بعد ذلك أن الخيانة لا تعود في نهايتها بالضرر إلا على الخائنين أنفسهم كما كان الحال في المثل الذي ضربه القرآن الكريم عن «أصحاب ضروان» الذين خانوا الأمانة فانقلبت عليهم بشكل واضح مباشر.

قصة ضروان

يروى أن رجلاً كريماً من أهل اليمن كان يمتلك حديقة بقرب صنعاء للعنب والتمر والمحاصيل. وكان هذا الرجل الكريم يقتسم بكل كرم وزيادة حصص الفقراء والغرباء في فترة جمع هذا الحصاد. وعندما قارب على الموت، جمع أولاده وأوصاهم بأن يواظبوا على ما كان عليه من كرم وجود. ولكن، وبعد أن توفي هذا الرجل الكريم، دخل الحرص أعين أولاده فقالوا يتعاهدون فيما بينهم:

---

٧٤٨. يوسف: ٥١.
٧٤٩. يوسف: ٥٢.
٧٥٠. الأنفال: ٥٨.
٧٥١. الأنفال: ٢٧.

«إن عائلتنا كبيرة جداً، وأملاكنا قليلة. فلا نعطين فقيراً شيئاً بعد اليوم! ولنجمع محاصيلنا قبل أن يأتونا طالبين...».

فقام اللَّه ﷻ، وبناءً على ما كان من نية مبيتة منهم، بإحراق هذه الحديقة وجعلها خربة شديدة السواد. وأصبحت هذه الحديقة الكبيرة بمنظر لا يمكن التعرف عليها منها. وعندما رأى الإخوة ما آلت إليه حديقتهم قالوا يتعجبون فيما بينهم:

«هل أتينا إلى المكان الصحيح؟»

لقد كان والدهم يوزع نصيب الفقراء بكل كرم وجود فتزداد بركة حديقته من دعاء المحتاجين له بالخير. فكان كل الفقراء والمحتاجين يستفيدون من تلك الحديقة. لكن هذه الحصة التي كان والدهم ينفقها على الفقراء، كبرت في أعينهم ورغبوا بالامتناع عن إعطائها. فكانوا يجهلون بذلك تلك البركة التي كان اللَّه تعالى يرسلها إلى تلك الحديقة. ذلك أنهم كانوا في غفلة أعمت قلوبهم عن الحق.

لهذا، فإن اللَّه تعالى يقول:

﴿...ولا تكن من الغافلين﴾ [٧٥٢]

وهذه القصة التي تعرف باسم «أصحاب الضروان»، قد رويت في القرآن الكريم بقوله تعالى:

﴿إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ. وَلاَ يَسْتَثْنُونَ. فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِنْ رَبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ. فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ. فَتَنَادَوْا مُصْبِحِينَ. أَنِ اغْدُوا عَلَى حَرْثِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَارِمِينَ. فَانْطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَافَتُونَ. أَنْ لاَ يَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُمْ مِسْكِينٌ. وَغَدَوْا عَلَى حَرْدٍ قَادِرِينَ﴾ [٧٥٣]

عندما رأوا نتيجة بخلهم وحيلهم بعد أن وصلوا إلى الحديقة، احترقوا بنار الندامة. يخبرنا اللَّه تعالى عن مفاجأتهم وندامتهم فيقول:

---

٧٥٢. الأعراف: ٢٠٥.

٧٥٣. القلم: ١٧ – ٢٥.

﴿فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُّونَ. بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ. قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ لَوْلاَ تُسَبِّحُونَ. قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ. فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَلاَوَمُونَ. قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا طَاغِينَ. عَسَى رَبُّنَا أَنْ يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِنْهَا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا رَاغِبُونَ﴾ [٧٥٤]

يخبرنا اللَّه ﷻ في هذه الآيات الكريمة عن العاقبة المحزنة لأصحاب الحديقة الذين خلت قلوبهم من الرحمة باستخدام الحيلة ليمنعوا الفقراء والمساكين عن حقهم في الصدقة في قصة معبرة جميلة. فما من نية في القلب إلا ويعلمها اللَّه تعالى. فعظمته تعالى قد وسعت كل شيء. ولهذا، نجد اللَّه ﷻ يختم هذه القصة بهذا التحذير المهم في قوله:

﴿كَذلِكَ الْعَذَابُ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [٧٥٥]

فراسة سيدنا يوسف عليه السلام

لم يشأ يوسف عليه السلام الخروج من السجن قبل أن يفهم الملك الحقيقة كاملة، وقبل أن يقبل الجميع حقيقة المسألة كاملة وأسباب إلقائه في السجن لأسباب غير منصفة. فاستخدم عقله، وصبره ووقاره ليمنع كل من يحسده من الصيد في الماء العكر أكثر مما حصل له. ولم يقبل الخروج من السجن إلا من بعد أن أثبت براءته من التهمة الملقاة عليه افتراءً وكذباً بكافة الإسنادات والدلائل.

ولهذا، يجب على كل مسلم أن يأخذ عبرته من فراسة يوسف عليه السلام هذه، وأن يتصرف بدقة وصرامة تامة فيحترس من مواضع التهم والإتهام. وقد أكد علماء المسلمين على ضرورة الإحترازِ من توجيه التهم إلى المؤمنين[٧٥٦].

يقول سيدنا عمر رضي الله عنه:

«من ذهب في طريق الإتهام وقع فيه»

ويمكننا أن نشاهد في سيرة رسول اللَّه ﷺ دقة مشابهة بشأن التخلص من التهم كما كان عليه الحال مع يوسف عليه السلام.

٧٥٤. القلم: ٢٦ – ٣٢.

٧٥٥. القلم: ٣٣.

٧٥٦. التهمة: هي الإعتقاد بارتكاب جرم دون التأكد من فعله بالدليل القاطع، أو الوضع الذي يؤدي إلى الشك بهكذا أمر.

تحدثنا أم المؤمنين صفية بنت حيي ﷺ عن حادثة عاشتها مع رسول اللَّه ﷺ فتقول:

جئت إلى رسول اللَه ﷺ أزوره في اعتكافه في المسجد في العشر الأواخر من رمضان فتحدثت معه ساعة، ثم قمت أنصرف، فقام النبي معى يودعني، حتى إذا بلغت باب المسجد، عند باب أم سلمة مر رجلان من الأنصار، فسلما على رسول اللَّه، فقال لهما النبي ﷺ:

«على رسلكما، إنما هي صفية بنت حيي»

فقالا: سبحان اللَّه يا رسول اللَه! وكبر عليهما، فقال:

«إن الشيطان يبلغ من الإنسان مبلغ الدم، وإني خشيت أن يقذف في قلوبكما شيئا» [٧٥٧]

وكما يجب الحذر من الوقوع في قفص الاتهام، يجب التنبه أيضاً إلى ضرورة تجنب توجيه أصابع الإتهام للغير: يحذر اللَّه جلَّ وَعَلا عباده في القرآن الكريم فيقول:

﴿وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولـئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً﴾ [٧٥٨]

❁

وبعد أن برأ يوسف عليه السلام نفسه من التهم التي وجهها إليه الناس بشكل قاطع وحازم، توجه إلى ربه جلَّ وَعَلا ليحميه من أمارة نفسه فقال عليه السلام:

﴿وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلاَّ مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [٧٥٩]

ويقول اللَّه سبحانه وتعالى في آية أخرى:

---

٧٥٧. البخاري، الاعتكاف، ١١/ ٢٠٣٥؛ مسلم، السلام، ٢٣ – ٢٥.

٧٥٨. الإسراء: ٣٦.

٧٥٩. يوسف: ٥٣. يقال أن الآيات ٥٢ و ٥٣ هي من كلام زليخة أيضاً. وفي هذه الحالة يكون معنى هذه الآيات كالتالي: «إنني لست أحاول أن أبرئ نفسي. فبينما أنا أسعى ليعرف يوسف بالحقيقة بأنني لم أخنه، فأنا لست أسعى من خلال ذلك لأن أزكي نفسي وأبرّئها. فما فعلته فعلته أمام عينيه، ولم أخنه من خلفه، أي بغيابه» وهكذا، فإن زوجة العزيز اعترفت بذنبها واستغفرت، فأقرت بالحقيقة وأعلنت إيمانها بشكل واضح باللهَّ تعالى. وظهر من خلال ذلك براءة وعفة يوسف u بشكل واضح براق لسائر الشعب

﴿...وَلَوْلاَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَى مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [٧٦٠]

ولهذا، إن ما يجب على العبد هو أن يحفظ نفسه من شرها بالتمسك بالاستغفار والالتجاء إلى اللَّه والتضرع إليه وأن يدعو اللَّه ﷻ بالوصول إلى يوم القيامة أبيض الجبين.

ويجعل اللَّه من العبد سلطاناً

وفي نهاية الأمر، وبعد أن أدرك المَلِكُ سياسة وذكاء وروعة يوسف عليه السلام، أراد أن يأتي به إلى مقام رفيع. ويتحدث القرآن الكريم عن هذا الأمر بقوله تعالى:

﴿وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾ [٧٦١]

عندما خرج يوسف عليه السلام من السجن كتب على بابه:

«هنا دار البلاء، وقبر الأحياء، ومحل ضحك الأعداء على خصومهم، وامتحان الأصدقاء».

ومن ثم اغتسل ولبس ثوبه الجديد. ودعا اللَّه لمن في السجن فقال:

«اللَّهم أمل قلوبهم إلى الصالحين، ولا تخفِ عنهم أخبار الأصدقاء!»

وعندما أتى إلى حضرة الملك قال:

«إلهي، أرجو الخير منك وزيادته قبل أن يأتيني منه. وألتجيء لعزتك وقدرتك من شره».

وهذا الملك ليس العزيز الذي اشترى يوسف عليه السلام. فبحسب ما يروى، توفي العزيز زوج زليخة قبل أن يخرج يوسف عليه السلام من السجن. أما الملك الذي يتحدث عنه القرآن الكريم هنا، فهو رجل فاضل من سلالة يرجع أصلها إلى الخليج العربي أتت مصر وحكمت فيها أربعمئة سنة كاملة. وكان ملكاً يتقن العديد من اللغات. وعندما وجد أن يوسف عليه السلام يتقن لغات أكثر منه تعجب لذلك الأمر. ومن ثم أراد أن يستمع إلى تفسير

٧٦٠. النور: ٢١.

٧٦١. يوسف: ٥٤.

رؤيته من يوسف عليه السلام بشكل مباشر. فأعاد عليه يوسف عليه السلام ما كان من تفسير ذكره سابقاً. فسأله الملك عن كيفية أخذ احتياطاته أمام ما أخبره به من تفسير.

فأجابه يوسف عليه السلام بقوله:

«يجب عليكم في سنوات الوفرة أن تزرعوا الكثير. وبهذا تستطيعون أن تؤمنوا معيشتكم في سنوات القحط، كما يمكنكم أن تصدروا من هذا المحصول فتزيدوا من خزينة الدولة».

فقال له الملك:

«ومن سيقوم بهذا الأمر؟»

فأجاب يوسف عليه السلام:

﴿قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَآئِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ [٧٦٢]

وكما تدل هذه الآية، فإن من الجائز أن يطلب المرء وظيفة إدارية يعتقد بقدرته فيها على إقامة أحكام الدين والعدالة. ولكن، لا يجب على المسلمين أن يتنافسوا على هذا النوع من الطلبات.

يقول أبو موسى الأشعري:

دخلت على النبي ﷺ أنا ورجلان من قومي، فقال أحد الرجلين: «أمرنا يا رسول اللهِ». وقال الآخر مِثله. فقال رسول اللَّه ﷺ:

«إنا لا نولي هذا من سأله، ولا من حرص عليه» [٧٦٣]

كما يمكن الفهم من هذا الحديث، فإن أهل الأمر إذا أرادوا أن يعينوا أحداً في وظيفة أو موقع ما، فإنه يجب عليهم أن يبحثوا عن الرجل الذي تتواجد فيه الصفات المطلوبة، وليس لمن يطلبها من الناس بناءً للرغبة والطلب، وإنما يجب مراعاة من تليق به.

أما ما كان من طلب سيدنا يوسف عليه السلام للإمارة كما ورد في الآية القرآنية الكريمة، فهو تنفيذ لأمر اللَّه تعالى، ودليل أيضاً على واجب سحب السلطة من يد الكافر

٧٦٢. يوسف: ٥٥.

٧٦٣. البخاري، الأحكام، ٧/ ٧١٤٩؛ مسلم، الإمارة، ١٥.

والظالم عندما لا يبقى هناك أي إمكانية أخرى لإظهار الحق وقدرة اللَّه تعالى وردع الباطل. لكن هذه الوظيفة ثقيلة الحمل ومسؤوليتها كبيرة جداً. ولهذا فإنها لا تعطى إلا لمن يليق بها. وهكذا، ولأنه كان يحمل كل الصفات المطلوبة بدرجة عالية تمكنه من إصلاح العالم وتأدية وظيفته على أكمل وجه، هذا وقد تَسلَّم سيدنا يوسف عليه السلام وزارة المال في هذه الدولة.

يقول اللَّه تعالى:

﴿وَكَذٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ. وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ [٧٦٤]

بل إن الملك أعطى سيدنا يوسف عليه السلام صلاحياته الخاصة وسلمه زمام أمور الحكم والتصرف في مصر كاملة. وما كان من الملك من إظهار العزةِ ليوسف عليه السلام والإعتماد عليه وهو النبي المرسل، فإنه كان إيمانُ الملك بلطف من اللَّه أمام يوسف عليه السلام. وآمن معه كثير من الناس أيضاً. لأن سيدنا يوسف عليه السلام هو النبي الذي أرسل إليهم ليدعوهم إلى التوحيد.

إن مما يجب معرفته، هو أن اللطف والكرم وسيلتان أزليّتان للسعادة. حتى ولو جاءت إحداهما من الكافر، فإن على المؤمن أن لا يغفل في تلك الساعة عن الإستفادة من لينه وكرمه فيدعوه إلى الإيمان والتوحيد. ذلك أن تلك اللحظة قد تكون وسيلة لوصول ذلك الكافر إلى بَرِّ النجاة.

❁

ومنذ أن تسلم يوسف عليه السلام وظيفته في إدارة وحكم مصر، أولى اهتمامه مباشرة بالزراعة. فزاد من إنتاج الدولة. وخزن الفائض من هذا الانتاج. وما أن حَلَّت سنوات القحط حتى بدأ يوسف عليه السلام باستخدام هذا المخزون في أرجاء دولته، وتصديره إلى الأماكن الأخرى مؤمِّناً الربح لخزينة الدولة. وبدأ الناس يأتوه من كل مكان طلباً للزرق والحصاد.

---

٧٦٤. يوسف: ٥٦-٥٧.

زواجه من زليخة

في هذه الأثناء، كانت زليخة قد ضيعت كل ما تملك، ولم يبق لديها أي شيء. وجفت عيناها بحب يوسف وضعف جسدها. فكانت كالعجوز في ما آلت إليه من حال. وسكنت في النهاية في إحدى الأماكن الخربة على الطريق الذي يسلكه يوسف عليه السلام. وجلست تفكر في حالها وما مر بها من أحداث، ففهمت حقيقة الأمر وكلمت الصنم الذي كانت تعبده في السابق فقالت:

«عار عليك أنت ومن عبدك! لم ترحم عجزي وعميي وفقري! فها أنا اليوم أنكرك من الآن فصاعداً وأؤمن برب يوسف».

وهكذا، آمنت زليخةُ بربها واتجهت للذكر صباحَ مساء.

وفي أحد الأيام، كان يوسف عليه السلام يركب حصانه ويسير مع حاشيته بالقرب من مسكن زليخة. فخرجت زليخة مسرعة من بيتها ووقفت في منتصف طريقه ونادت بأعلى صوتها:

«أسبح بقدرة من جعل السلاطين عبيداً؛ وجعل من العبيد بعبادتهم الحق سلاطين!»[٧٦٥]

ويصل صوتها بإذن اللَّه تعالى إلى مسمع يوسف عليه السلام. ويبعث يوسف عليه السلام من يسأل عن أمر هذه المرأة التي لم يعرفها. فترفض زليخة الحديث إلى أحد إلا ليوسف عليه السلام. فتطلب منه أن يدعو اللَّه لها فيرد عليها جمالها ويمدها بنظره وأن يقبل بالزواج بها.

فيستجيب يوسف عليه السلام لطلبيها الأوليان فيدعو اللَّه تعالى لها فيرد عليها ما كان لها من جمال وعيون. أما عند الطلب الثالث، فأحنى يوسف عليه السلام رأسه وانتظر. فأتاه جبريل في تلك اللحظة وقال له: «- يا يوسف، يقرئك ربك السلام ويأمرك بأن لا ترفض طلب هذه المرأة! فتزوّجْ بها؛ فهي زوجتك في الدنيا والآخرة!»

وأمام هذا الأمر الإلهي، يتزوج يوسف عليه السلام من زليخة.

ومن ثم يرفع يوسف عليه السلام يديه إلى السماء ويدعو اللَّه بقوله:

«يا من أحسن إلي بكل هذه النعم يا أرحم الأرحمين يا اللَّه! أحمدك حمداً لا نهاية له!

---

٧٦٥. انظر: ظاهرة الملوك لكاتبه سيد علي الحمداني، حضره نجدت يلماز، إسطنبول، ٢٠٠٣، صفحة ١١٨ – ١١٩.

يا إلهي! أرجو أن تكمل نعمك علي فتريني وجه أبي يعقوب، وأن تريني له فتنير عينيه برؤيتي وأن تفتح لي أبواب اللقاء بإخوتي يا ربي! أنت قابل الدعاء وأنت القادر على كل شيء!».

الأخوة الآتون لطلب الرزق وخطة يوسف عليه السلام

في هذه الأثناء، يُبْقي يعقوب عليه السلام ابنه بنيامين الأخ ليوسف من أبيه وأمه، ويذهب يقية أبنائه إلى مصر طلباً للزرق بسبب ما كان من القحط. تتحدث الآيات الكريمة عن هذه الحادثة بقوله تعالى:

﴿وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ. وَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ قَالَ ائْتُونِي بِأَخٍ لَكُمْ مِنْ أَبِيكُمْ أَلاَ تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ. فَإِنْ لَمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلاَ كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي وَلاَ تَقْرَبُونِ﴾ [٧٦٦]

وسبب طلب يوسف إحضار أخيه الذي لم يأت معهم هو التالي:

بسبب ما كان من أيام قحط، كان الرزق يعطى على قدر الحاجة فقط. ولهذا كان يتوجب على الشخص أن يتواجد بنفسه لأخذ رزقه. ولهذا، عندما طلب إخوة يوسف الرزق لأبيهم وأخِيهم الذي لم يأت معهم، قبل يوسف عليه السلام عذر الأب العجوز وأرسل له الرزق استثناءً لمرة واحدة. ولكنه وضع عليهم شرط إحضار أخيهم الآخر في المرة القادمة. وكان يرجو عبر هذه الوسيلة أن يرى أخاه وأن يأخذ منه أخبار والده. فقال له إخوته:

﴿قَالُوا سَنُرَاوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ. وَقَالَ لِفِتْيَانِهِ اجْعَلُوا بِضَاعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا انْقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ. فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَى أَبِيهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَا أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ. قَالَ هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلاَّ كَمَا أَمِنْتُكُمْ عَلَى أَخِيهِ مِنْ قَبْلُ فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ [٧٦٧]

٧٦٦. يوسف: ٥٨-٦٠.

٧٦٧. يوسف: ٦١-٦٤.

وما نفهمه من قول يعقوب عليه السلام: «فاللَّه خير حافظاً وهو أرحم الراحمين»، أنه لا يجب على الإنسان التوكل على البشر الفانين وإنما أن يكون توكله الدائم لله رب العالمين. فكل شيء عدا اللَّه عز وجل هو بحاجة إلى الحفاظ على نفسه أولاً. أما اللَّه تعالى فليس بحاجة إلى شيء. ولكن، لا يجب التوكل على اللَّه بدون التمسك بالأسباب.

❁

ويحاول أبناء يعقوب بكل الوسائل إقناع أبيهم بأخذ البضاعة إلى مصر آخذين أخاهم بنيامين معهم، ويسعون لإقناعه بذلك:

﴿وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ وَجَدُوا بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي هـذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ﴾ [٧٦٨]

وفي النهاية، قبل يعقوب عليه السلام بإرسال بنيامين.

﴿قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّى تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلاَّ أَن يُحَاطَ بِكُمْ فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ. وَقَالَ يَا بَنِيَّ لاَ تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ وَمَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ [٧٦٩]

لقد كان طلب يعقوب عليه السلام لأولاده أن يدخلوا المدينة من أبواب مختلفة هو لأنهم كانوا جيدي المظهر والملبس، ولما نالوا من اهتمام الملك وإكرامه في المرة السابقة. فهو لم يشأ أن يصيبهم ضرر من أصحاب النوايا السيئة الذين قد يحيكوا لهم المكائد. كما أن أنظار الحيرة كانت قد تجمعت حولهم. ولهذا فإن من الممكن أن يتعرضوا لأضرار أخرى لو دخلوا جميعاً من مكان واحد.علماً أن رسول اللَّه صلى الله عليه وسلم يقول:

«العين حق» [٧٧٠] **«العين تدخل الرجل القبر وتدخل الجمل القدر»** [٧٧١]

٧٦٨. يوسف: ٦٥.

٧٦٩. يوسف: ٦٦-٦٧.

٧٧٠. البخاري، الطب، ٣٦/ ٥٧٤٠ .

٧٧١. السيوطي، الجامع الصغير، ١/ ٧٥٩٣.

ولهذا السبب، يجب على الإنسان أن يحرص على أن لا يصيب أحداً بالعين غفلة. ومن لا يلتجيء إلى اللَّه ﷻ دائماً لا يمكنه التخلص من العين. أما من يلتجيء إلى الحق تعالى فهو في حفظ من اللَّه. كان رسول اللَّه ﷺ يعوذ الحسن والحسين فيقول:

«إن أباكما كان يعوذ بها إسماعيل وإسحاق: أعوذ بكلمات الله التامة، من كل شيطان وهامة، ومن كل عين لامة» [٧٧٢]

وإن رأى أحدهم شيئاً فأعجبه وجب عليه منعاً للعين أن يقول:

ما شاء الله لا قوة إلا باللَّه

ولكي يكون هذا الأمر خيراً وبركة عليه فليقل:

بارك اللَّهُ فيك وعليْك

❁

وبعد أن استمع أبناء يعقوب عليه السلام لنصائح أبيهم، خرجوا مرة اخرى لطلب الرزق. تقول الآية الكريمة:

﴿وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُمْ مَا كَانَ يُغْنِي عَنْهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِلاَّ حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضيهَا وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِمَا عَلَّمْنَاهُ وَلـكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ [٧٧٣]

أنا أخوك يوسف!

﴿وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلاَ تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [٧٧٤]

يروى أن يوسف عليه السلام أكرم إخوته بمائدة من الطعام. وأجسلهم إلى المائدة اثنين اثنين. فبقي بنيامين وحده فبكى وقال:

«لو كان أخي يوسف حياً لكان يجلس الآن معي».

---

٧٧٢. البخاري، الأنبياء، ١٠/ ٣٣٧١.

٧٧٣. يوسف: ٦٨.

٧٧٤. يوسف: ٦٩.

فأخذه يوسف عليه السلام إلى جانبه على مائدته. وبعد مائدة الطعام، استضاف يوسف عليه السلام إخوته في غرف مزدوجة أيضاً. فبقي بنيامين مرة أخرى وحده. فقال عندها يوسف عليه السلام:

« لا شريك له! فليبق إذن معي!»

وهكذا بات بنيامين ليلته عنده. فقال له يوسف عليه السلام:

«أتقبلني أخاً لك عوضاً عن أخاك الذي مات؟»

فقال له بنيامين مجيباً:

«من يستطيع أن يجد أخاً مثلك؟ ولكنك لست ابن أبي يعقوب وأمي رحيل».

فعندها بكى يوسف عليه السلام ونهض إلى بنيامين وعانقه. ثم أخبره بالحقيقة فقال:

« إني أنا أخوك فلا تبتئس بما كانوا يعملون»

وقول يوسف عليه السلام لبنيامين «فلا تبتئس بما كانوا يعملون» يشير اللَّه تعالى إلى أن حيل الحاسدين لا تصل إلى التوفيق. ولهذا، فإن إخوة يوسف على الرغم مما كان منهم من الحسد والأفعال والأذية، إلا أن آمالهم لم تصل إلى نتيجتها. فجمع اللَّه تعالى الأخوين أولاً، ومن ثم جمع الأب بولديه.

احتجاز يوسف عليه السلام لبنيامين

بعد أن عرف يوسف عليه السلام أخاه بنيامين بنفسه قال له:

«يا أخي! سأحتجزك عندي. تعلم أن ألم أبي وكدره كبيرين جداً منذ فراقي. فإن احتجزتك ها هنا، فإن حزنه سيزداد. ولكنه يتوجب علينا فعل ذلك لنتمكن من الوصول إليه. وسأعمل على تحضير خطة لهذا الهدف».

وبعد أن أخبر بنيامين بهذا الأمر:

﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ السِّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ. قَالُوا وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِم مَاذَا تَفْقِدُونَ . قَالُوا نَفْقِدُ صُوَاعَ الْمَلِكِ وَلِمَنْ جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ. قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا

سَارِقِينَ .قَالُوا فَمَا جَزَآؤُهُ إِنْ كُنْتُمْ كَاذِبِينَ .قَالُوا جَزَآؤُهُ مَنْ وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ كَذلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾ [٧٧٥]

بحسب شريعة يعقوب عليه السلام، فإن السارق يقبض عليه ويخدم صاحب المال لقاء ما سرقه من البضاعة عبداً لسنة كاملة. أمّا في قانون مصرفكان السارق يضرب ويدفع ضعفي ما سرقه من البضاعة أو المال. ولما كان يوسف يريد أن يحتجز أخاه بنيامين عنده، فإنه أراد أن يكون العقاب بناءً لشريعة يعقوب عليه السلام، ولهذا سألهم عن جزاء من يكون سارقاً منهم. تقول الآية الكريمة:

﴿فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِنْ وِعَاءِ أَخِيهِ كَذلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلاَّ أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ [٧٧٦]

تمكّن يوسف عليه السلام بأمر اللّه سبحانه وتعالى وفراسته أن يضع خطة جيدة ليتمكن من احتجاز أخيه بنيامين عنده. وبحسب ما يروى فإنه قد أخبر أخاه بهذه الخطة وطلب منه تأييده.

ولم يكن هدف يوسف عليه السلام من ذلك الأمر أن يعاقب إخوته انتقاماً. لأنه كان قد عفا عنهم. ولكن فيما كان منهم من عمل هو أيضاً يحتوي على حق لله تعالى لا يمكن ليوسف التحكم به. ولهذا فإنه كان يريد أن يغفر اللّه سبحانه وتعالى لهم أيضاً. ولهذا، وقبل أن يعرفهم بنفسه، أراد أن ينبههم بتحذيره لهم «أنتم سارقون» لتكون هذه التهمة سبباً رئيسياً في إشعال نار الندامة لديهم. فأكبر جرم تحقق على أيديهم هو السرقة؛ سرقة يوسف من أبيه بما كان منهم من حيلة. وعملاً منه على توجيههم نحو باب التوبه من كل ما ارتكبوه من جرم فإنه احتجز أخاه بهذه الطريقة. وهي فعلاً الحقيقة التي يمكن مشاهدتها عبر الآيات التالية التي تخبر كيف لانت قلوب إخوته بعد ذلك وكيف ذهبوا وعادوا بقلوب صافية نقية.

---

٧٧٥. يوسف: ٧٠-٧٥.

٧٧٦. يوسف: ٧٦.

ولهذا، فإن هذه الحادثة التي كانت تحمل في أرجائها عدداً من الحكم والعبر، فإنها أيضاً كانت عقاباً ربانياً وتربية إلهية.

ومن جهة أخرى، لم يستخدم يوسف عليه السلام، الذي لم تسنح له الفرصة بعد بأن يعرف بنفسه، صلاحيات مقامه ومنصبه ليحتجز أخاه استبداداً وقوة، فلم يستخدم صلاحيات مقامه ووسائله، ولم يستثمرها. بل ابتعد عن كل فعل يعبر عن الأفعال الشائبة من الظلم والقوة، وتناول القضية من زاويتها القانونية العدلية وصولاً إلى الحل الموفق الذي نجح فيه.

وتمكن يوسف عليه السلام بنفس الوقت من تطبيق شريعة أبيه في مصر أيضاً وفتح الباب أمام تطبيقها دائماً.

إن اللّه تعالى إذا أراد أمراً يسر له أسبابه.فعلم يوسف عليه السلام من جهة هذا الحل، كما منع عن إخوته الفطنة إلى هذه الحيلة فاستخدمهم للحكم على أخيهم، فكانوا هم من حكم عليه وأجاب. وهكذا، ودون أن يدوس قوانين الدولة، ألزمهم بحكمهم بإرادتهم الحرة، كما فتح الباب في مصر لتطبيق هذا الحكم في مصر استناداً إلى نظرية العمل بالمثل.

ومن خلال هذه الخطة، تمكن يوسف عليه السلام من وضع إخوته في وضع يائس، أوقعهم فيه ضمن حدود الحالة التي أخبر عنها والدهم بقوله «إلا أن يحاط بكم»، فخلصهم بذلك من اليمين الذي حلفوا به لأبيهم ومسؤوليته. [٧٧٧]

وعندما أخرج صواعه من حمل أخيه بنيامين:

﴿قَالُوا إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ قَالَ أَنْتُمْ شَرٌّ مَكَانًا وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ﴾ [٧٧٨]

فعوضاً عن محاولتهم للدفاع عن أنفسهم وأخيهم بنيامين بقولهم «كلا، إن في هذا الأمر لشيء خطأ»، حملتهم ضغينتهم لأخيهم يوسف وأخيه إلى إفلات خطأ آخر من أفواههم باتهامه بما ليس فيه.

---

٧٧٧. يوسف: ٧٧.

٧٧٨. الملالي، ٤، ٢٨٩٤ – ٢٨٩٨.

وبالنسبة لتهمة السرقة التي اتهم فيها الأخوة يوسف عليه السلام فإن هناك عدة آراء منها:

أ- كان جده أبو أمه كافراً فأمرته أمه بأن يسرق تلك الأوثان ويكسرها فلعله يترك عبادة الأوثان ففعل ذلك، فهذا هو السرقة.

ب- أنه كان يسرق الطعام من مائدة أبيه ويدفعه إلى الفقراء، وقيل سرق عناقاً من أبيه ودفعه إلى المسكين وقيل دجاجة.

ج- أن عمته كانت تحبه حباً شديدا فأرادت أن تمسكه عند نفسها، وكان قد بقي عندها منطقة لإسحاق عليه السلام وكانوا يتبركون بها فشدتها على وسط يوسف ثم قالت بأنه سرقها وكان من حكمهم بأن من سرق يسترق، فتوسلت بهذه الحيلة إلى إمساكه عند نفسها.

د- أنهم كذبوا عليه وبهتوه وكانت قلوبهم مملوءة بالغضب على يوسف بعد تلك الوقائع، وبعد انقضاء تلك المدة الطويلة، وهذه الواقعة تدل على أن قلب الحاسد لا يطهر عن الغل البتة. [٧٧٩]

كما يمكن لهذا القول أن يكون بمعنى الإشارة، فكان منهم أمام قوله «أنكم سارقون!» أن يردوا بقول كهذا نفياً وقلقاً منهم أمام هذا الاتهام.

يقول إخوة يوسف:

﴿قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ. قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلاَّ مَنْ وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِنْدَهُ إِنَّـآ إِذًا لَظَالِمُونَ﴾ [٧٨٠]

إن الظلم أنواع متعددة: إن الحكم بعكس ما أمر اللَّه تعالى به هو بالإضافة لكونه من الظلم، فإن طلب الظلم والرضى به هو أيضاً ظلم بحد ذاته.

كما أن تخطي الحدود وتجاوزها، إضافة لكونه ظلم بحق الآخرين، فإن ارتكاب المعاصي التي تجلب العقاب يوم القيامة هو أيضاً ظلم يرتكبه الإنسان بحق نفسه.

ويجب على من ارتكب ظلماً أو بلية أن يستغفر اللَّه ويتوب إليه راجياً منه النجاة مما قام به وارتكبه.

---

٧٧٩. الرازي، مفاتح الغيب، ١٨، ٤٩٠.

٧٨٠. يوسف: ٧٨-٧٩.

يقول الصلح بن عبد اللَّه التستري:

«إن اللَّه إذا أحب عبداً أظهر له الخطايا كبيرة في عينه وفتح له باب التوبة. هذا الباب، هو مدخل بإذن اللَّه تعالى إلى جنات الأنس. وإذا غضب على عبد، جعل الذنوب في عينيه صغيرة وابتلاه بأنواع البلاء المختلفة. ذلك أن من صغرت الذنوب في عينيه هو عبد لا يقبل النصيحة والموعظة، فيكون بذلك من الخاسرين».

❁

بدأ إخوة يوسف يفكرون بما يمكنهم أن يقوموا به أمام ما وضعوا فيه من أمر وما الذي يمكنهم أن يخبروا أباهم به. تصف الآيات القرآنية الكريمة حالهم فيقول جلَّ وَعَلا:

﴿فَلَمَّا اسْتَيْأَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ وَمِنْ قَبْلُ مَا فَرَّطْتُمْ فِي يُوسُفَ فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّى يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ. ارْجِعُوا إِلَى أَبِيكُمْ فَقُولُوا يَا أَبَانَا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَا إِلاَّ بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ .وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ [٧٨١]

فذهبوا إلى أبيهم ونقلوا إلى أبيهم ما قاله إخوانهم بالضبط.

الأسى الذي يفتح باب المكافأة

يقول الله ﷻ:

﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ [٧٨٢]

لم يشأ يعقوب عليه السلام أن يصدق أقوال أبنائه هذه المرة على الرغم من صدقهم، لما قام به إخوة يوسف في السابق من كذب عليه. فقال لهم:

---

٧٨١. يوسف: ٨٠-٨٢.

٧٨٢. يوسف: ٨٣.

«كلا، بل لقد خدعتكم أنفسكم وجرتكم إلى أمر عظيم، وإلا فما علم العزيز بشريعتنا التي تمسك السارق أسيراً عنده؟»

يقول الله ﷻ:

﴿وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسَفَى عَلَى يُوسُفَ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ﴾ [٧٨٣]

وكان يعقوب عليه السلام مذ أن فقد ابنه يوسف لا يتمكن من النوم. وكان يعقوب عليه السلام أشرف الناس عند اللَّه تعالى في تلك الحقبة من الزمن على وجه الأرض.

وبنتيجة البكاء المستمر الذي أصابه، ابيضت عينا يعقوب عليه السلام. ويقال بأن حكمة ذلك هي أن لا يتمكن من رؤية بقية أبنائه فيزداد عليه حزنه وألمه وكدره.

يقول رسول اللَّه ﷺ:

«إن الله يقول ﷻ: إذا أخذت كريمتي عبدي في الدنيا لم يكن له جزاء عندي إلا الجنة» [٧٨٤]

وبحسب رواية البخاري فيقول:

«إن الله قال: إذا ابتليت عبدي بحبيبتيه فصبر، عوضته منهما الجنة» [٧٨٥]

بكى يعقوب عليه السلام أربعين سنة. ويروي بعض الأئمة عن العمى الذي أصيب فيه فيقولون: لقد اعطى اللَّه تعالى يعقوب عليه السلام عمى البصر، لا ليشاهد مظهر يوسف الخارجي، بل ليتمكن من رؤية الجمال المطلق الدائم المتجلي. لأن نور الجمال الإلهي قد تجلى في يوسف عليه السلام، وهو السبب الذي دفع يعقوب عليه السلام لمحبة يوسف بهذه الدرجة. ولوقوعه في خطأ لا إرادي أمام المولى ﷻ الذي هو «الحسن المطلق» أخذ اللَّه تعالى يوسف منه، وأخذ عينيه اللتين تنظران إلى ظاهر يوسف عليه السلام.

وهو ما يشير إلى أن العبد إذا ما نظر إلى الدنيا بظاهر ما فيها ولم يدرك فناء هذه المظاهر، فإنه لن يتمكن من رؤية «الحسن المطلق» أي الجمال الإلهي أو الجمال المطلق.

---

٧٨٣. يوسف: ٨٤.

٧٨٤. الترمذي، الزهد، ٥٨/ ٢٤٠٠.

٧٨٥. البخاري، المرضى، ٧/ ٥٦٥٣.

ولا تيأسوا من رحمة اللَّه

﴿قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتَؤُا تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ. قَالَ إِنَّمَا أَشْكُوا بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾ [٧٨٦]

ومن ثم قال يعقوب عليه السلام لأبنائه:

﴿يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلاَ تَيْأَسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لاَ يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾ [٧٨٧]

إن الرسالة التي تشير بها إلينا هذه الآية الكريمة مهمة جداً. فمهما كان حال العبد فإنه لا يجب عليه أن يتجه إلى اليأس، وأن يبقى أمله باللَّه سبحانه وتعالى قائماً. فكما توضح الآية الكريمة، فإن اليأس من رحمة اللَّه سبحانه وتعالى لا يقوم به إلا الكافرون.

ورد في الحديث النبوي الشريف قوله ﷺ:

«الفاجر الراجي لرحمة الله تعالى أقرب منها من العابد المقنط» [٧٨٨]

لأن قطع الأمل باللَّه تعالى، هو نزع لصفة «الرحمن والرحيم» منه جلَّ وَعَلا، وبالتالي جهل بالرحمة الإلهية. علماً أنه حتى فرعون مصر، كان ممن ذكر اللَّه تعالى في رمقه الأخير.

يقول اللَّه تعالى في آية أخرى:

﴿...لاَ تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ...﴾ [٧٨٩]

وبناءً على هذا الأمل الذي تحدثنا عنه، يرسل يعقوب عليه السلام برسالة مع أبنائه إلى عزيز مصر، أي إلى يوسف عليه السلام. وكان يعقوب عليه السلام يجهل حينها أن ابنه يوسف هو عزيز مصر نفسه. ويقول له في هذه الرسالة:

---

٧٨٦. يوسف: ٨٥-٨٦.

٧٨٧. يوسف: ٨٧.

٧٨٨. السيوطي، الجامع الصعير، ٢، ٦٨/ ٨٤٥٣.

٧٨٩. الزمر: ٥٣.

«بسم اللَّه الرحمن الرحيم، من إسرائيل يعقوب ابن إسحاق ابن خليل اللَّه إبراهيم، إلى عزيز مصر: نحن سلالة تعرضت للكثير من البلوى. فابتلي جدنا إبراهيم بنار نمرود فصبر. فأوصله اللَّه إلى بر السلامة. وابتلي أبي بمحن أخرى أيضاً فصبر. فكافأه اللَّه تعالى أيضاً. أما أنا، فقد ابتلاني اللَّه بفقد ابني يوسف. فأصبحت عيناي لشدة البكاء والحسرة عليه عمياء لا ترى، وانحنى ظهري. فكنت أسلي نفسي بولدي الذي أسرته عندك. لقد قلت عنه بأنه سرق. ومن كان من نسلنا لا يسرق. فنحن لا نلد من السارقين. فإما أن تعيده إلي، أو أن أدعو عليك دعاء يصيب به أولادك حتى البطن السابع بتأثيره!»

وعندما قرأ يوسف عليه السلام هذه الرسالة بكى وكتب له جواباً:

«بسم اللَّه الرحمن الرحيم،

من عزيز مصر إلى إسرائيل يعقوب؛ يا أيها العجوز، لقد أتتني رسالتك. قرأتها وفهمت فحواها. تتحدث عن الآباء الصالحين وصبر كل منهم على بلائه. فكما صبر كل منهم على ابتلائه فاصبر أنت أيضاً! والسلام!»

وعندما بلغ يعقوب عليه السلام جوابه قال:

– إقسم باللَّه العظيم، إن من يكتب مثل هذه الرسالة ليس بملك، إن هي إلا رسالة نبي. ومن كتب هذا لا بد وأنه يوسف». فأرسل أولاده مرة أخرى إلى مصر ليستعلموا عن الأمر مرة أخرى. فخرج أبناؤه مباشرة إلى هناك:

﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُزْجِيَةٍ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ. قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ﴾ [٧٩٠]

بحسب ما تروي التفاسير فإن إخوة يوسف عليه السلام الذين ألقوه في البئر، كانوا يؤذون أخاهم الأصغر بنيامين أيضاً ويحقرونه.

---

٧٩٠. يوسف: ٨٨-٨٩.

عفو رائع

﴿قَالُوا ءَإِنَّكَ لَأَنْتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهـذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ. قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِنْ كُنَّا لَخَاطِئِينَ. قَالَ لاَ تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ [٧٩١]

إن هذه الآيات الكريمة لهي تشير في الوقت نفسه إلى أسلوب من أجمل أساليب التربية، وهو الإجابة على الإساءة بالإحسان. علماً أن علو الشأن في مثل هذه الحالات يكون سبباً في انتهاء عداوة الأعداء، فينقلب المرء إن لم يكن صديقاً أو كان عدواً نحو الصداقة، ومن كان صديقاً فإن صداقته ومحبته تزداد.

تخبرنا الآية الكريمة بشكل جميل ذلك فتقول:

﴿وَلا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلاَ السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ [٧٩٢]

ونذكر لرسول اللَّه ﷺ مثالاً للعبرة في هذا الشأن:

كان أبو سفيان صديقاً للنبي ﷺ قبل نزول الوحي. ولكنه عاداه بعد النبوة وهجاه. وكان شاعر الرسول حسن بن ثابت ﷺ يجيب على هذا الهجاء، ثم أسلم فحسن إسلامه.

وكان إسلامه يوم الفتح قبل دخول رسول الله ﷺ مكة، لقيه هو وابنه جعفر بن أبي سفيان بالأبواء فأسلما. وقيل: بل لقيه هو وعبد الله بن أبي أمية بين السقيا والعرج. فأعرض رسول الله ﷺ عنهما، وقال علي بن أبي طالب ﷺ لأبي سفيان:

إيت رسول الله ﷺ من قبل وجهه، فقل له ما قال إخوة يوسف ليوسف عليه السلام:

«تاللَّه لقد آثرك اللَّه علينا، وإن كنا لخاطئين»

فيجيبه إمام الرحمة والشفقة رسول اللَّه ﷺ بالآية الكريمة من سورة يوسف:«**لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين**» عافياً بذلك عما كان منه من

٧٩١. يوسف: ٩٠-٩٢.

٧٩٢. فصلت: ٣٤.

أخطاء وأفعال سابقة. وكان أبو سفيان بعد أن اسلم لا يوفع رأسه لرؤية النبي ﷺ استحياءً منه لِفَخْرِ الكائنات سيدنا محمد ﷺ.[٧٩٣]

وعندما فتح رسول اللَّه ﷺ مكة المكرمة تجمع أهل قريش في حرم المسجد الحرام. وجلسوا في جوار الكعبة. وكانوا ينتظرون ماذا يفعل بهم رسول اللَّه ﷺ.

فيأتيهم رسول اللَّه ﷺ ويقول لهم سائلاً:

«يا أهل قريش! يا أهل مكة! ماترون أني فاعل بكم؟»

فيجيب أهل قريش: «خيرا ونظن خيرا، أخ كريم وابن أخ كريم، وقد قدرت»

فيقول لهم رسول اللَّه ﷺ بناءً على جوابهم هذا:

«أقول كما قال أخي يوسف لإخوته:

«لاتثريب عليكم اليوم، يغفر اللَّه لكم، وهو أرحم الراحمين. اذهبوا فأنتم الطلقاء»

لقد مكن اللَّه سبحانه وتعالى رسوله ﷺ من أهل قريش، وأرضخهم له، وعلى الرغم من أن فرصة أخذ الإنتقام لما بدر منهم سنوات طويلة من عذاب وأذية للمؤمنين، إلا أن رسول اللَّه ﷺ عفا عنهم بهذا الشكل وتركهم أحراراً. ولهذا أطلق على أهل مكة اسم: «الطلقاء: أي الأحرار».[٧٩٤]

وهذا الحال أيضاً هو بنفس الوقت تجلٍّ لكمال اللَّه تعالى بصفته ستار العيوب، أي الذي يستر العيب ويعفو عن الخطأ.

ويكتب الشاعر ضياء باشا كلمات من الشعر يصف فيها حال يوسف عليه السلام مع إخوته فيقول:

يجبر مولانا صاحب القدرة الظالمين على القول:

تاللَّه لقد آثرك اللَّه علينا[٧٩٥]

أَلْقُوا بِقَميصي على وجه أبي

٧٩٣. الواقدي، المعازي، ٢، ٨١٠ –٨١١؛ ابن هشام، السيرة، ٤، ٢٠ – ٢٤.

٧٩٤. ابن هشام، السيرة، ٤، ٣٢؛ الواقدي، المغازي، ٢، ٨٣٥؛ ابن سعد، الطبقات، ٢، ١٤٢ – ١٤٣.

٧٩٥. «تالله لقد آثرك الله علينا» (يوسف، ٩١)

كان يوسف عليه السلام يرسل الضيافة صباح مساء إلى إخوته. وكان إخوته يشعرون بالخجل الشديد من عزة كرمه معهم عندما يتذكرون ما كان منهم من أفعال سيئة بحقه. فيرسلون رجلاً إلى يوسف يقولون له:

«أنت تكرمنا صباح مساء! ولكننا نخجل منك لما فعلناه بك!»

فيجيبهم يوسف عليه السلام قائلاً:

«كان أهل مصر ينظرون إلي دائماً بنفس المشهد الذي رأوني فيه أول مرة. وكانوا يقولون «ننزه اللَّه تعالى الذي رفع عبداً بيع بعشرين درهماً إلى هذا المقام». أما اليوم، فلقد اكتسبت شرفاً من خلالكم. لأنهم عرفوا بأني أخ لكم وحفيد نبي عظيم مثل إبراهيم عليه السلام»

ولم ينطق يوسف عليه السلام بهذه الكلمات فخراً وتكبراً، وإنما سعياً منه للتخفيف عن إخوته، وتأمين الراحة لهم، وتخفيف حرجهم تجاهه.وهو ما يظهر مرة أخرى صفاته المتميزة المتمثلة في عفوه وكرمه. وبينما كان يوسف عليه السلام يظهر هذا النوع من العفو والمسامحة لإخوته، قال لهم بعد أن أعطاهم قميصه شفاءً لأبيه من العمى الذي أصابه:

﴿اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هـذَا فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ. وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلاَ أَنْ تُفَنِّدُونِ. قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلاَلِكَ الْقَدِيمِ﴾ [٧٩٦]

رؤية يعقوب عليه السلام «شفاء عينيه»

يقول اللَّه عز وجل:

﴿فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَيهُ عَلَى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾ [٧٩٧]

وكان يهودا هو من أحضر هذا الخبر المفرح لأبيه. فقال:

---

٧٩٦. يوسف: ٩٤-٩٥.

٧٩٧. يوسف: ٩٦.

«لقد كنت أنا من أحضر إليه القميص المضرج بالدم فكنت السبب في حزنه وكدره. والآن، سأحضر له أنا أيضاً هذا القميص لأكون سبباً في سعادته!»

فخرج مسرعاً من مصر إلى أرض كنعان بحماس شديد ورأس مرفوع وسرعة كالسهم كما روي عن ذلك.

ويقال بأن هذا القميص هو نفسه ذلك القميص الذي أحضره جبريل عليه السلام من الجنة لإبراهيم عليه السلام عندما ألقي في النار.

يقول مولانا جلال الدين الرومي، تعليقاً على الموضوع الذي تحدثنا عنه أعلاه بقوله:

«إن ما رآه يعقوب عليه السلام في وجه يوسف من تميز كان أمراً خاصاً به. فلم يحظ أحد آخر من إخوة يوسف بمثل هذا النور. لكن عالم القلب عند إخوة يوسف كان بعيداً عن رؤية وفهم «الوجه الحقيقي» ليوسف عليه السلام. عندما رأى يعقوب عليه السلام تلك الخصوصية فيه تعلق به قلبه.لقد كان ليوسف جاذبية خاصة عند يعقوب. ولهذا، عندما وصل إليه رائحة قميصه تمكن من معرفته حتى من مسافة بعيدة. أما أخاه الذي حمل هذا القميص فكان محروماً من الإحساس بهذه الرائحة. لأن قميص يوسف كان أمانة في يد أخيه. فكان أخو يوسف مكلفاً بحمل هذا القميص وتسليمه ليعقوب عليه السلام. أي أن هذا القميص كان في يد أخيه كالجارية المتميزة بين يدي بائع العبيد. وليست لشخص تاجر العبيد بنفسه. فكانت تعود لشخص آخر غير تاجر العبيد. كم من عالم أتى، لم يكن له نصيب من العلم الذي اقتنى. فكان حافظاً للعلم، ولكنه لم يكن حبيباً لله ﷻ».

ويعتبر تأثير قميص يوسف عليه السلام على عيني يعقوب عليه السلام نموذجاً ومثالاً للتبرك والإستعانة بالأشياء...

تقول الآية الكريمة:

﴿...قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ. قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [٧٩٨]

وعندما قال يعقوب عليه السلام «سوف أستغفر لكم ربي» أي بعد حين، هو إشارة

٧٩٨. يوسف: ٩٧-٩٨.

لضرورة استحقاق العفو من الطرف المظلوم أولاً قبل أن يستغفر لهم. أي أنه أجل استغفاره لهم إلى أن يلتقي بيوسف عليه السلام ويتأكد من غفرانه لهم. ويوضح البعض بأن تصرف يعقوب عليه السلام هذا، إن هو إلا تأجيل للدعاء والإستغفار إلى وقت أكثر قبولاً مما هم عليه الآن. ولهذا، وبحسب رواية محارب بن دسار، يقول:

عندما أتى عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى المسجد وقت السحر في إحدى الأيام، وجد أحدهم يناجي ربه ويقول:

«اللهم دعوتني فأجبت وأمرتني فأطعت، وهذا سحر، فاغفر لي».

قال: فاستمع الصوت فإذا هو من دار عبد الله بن مسعود رضي الله عنه. فسأل عبد الله عن ذلك، فقال: إن يعقوب عليه السلام أخر بنيه إلى السحر بقوله:

«سوف أستغفر لكم ربي».

كان يقصد تأجيل ذلك الإستغفار إلى وقت السحر. لأن اللّه تعالى يمتدح هذا الوقت فيقول: **﴿والمستغفرين بالأسحار﴾**[٧٩٩]» [٨٠٠]

عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ، قال:

«ينزل ربنا تبارك وتعالى كل ليلة إلى السماء الدنيا، حين يبقى ثلث الليل الآخر، فيقول: من يدعوني فأستجيب له، ومن يسألني فأعطيه، ومن يستغفرني فأغفر له»[٨٠١]

وفي حديث آخر يقول ﷺ:

«...وقد قال أخي يعقوب لبنيه ﴿سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي...﴾ [٨٠٢] **يقول: حتى تأتي ليلة الجمعة...»**[٨٠٣]

الوصول وتحقق الرؤيا

---

٧٩٩. آل عمران: ١٧.
٨٠٠. انظر: الطبري، التفسير، جـ٨، ص٨٥، جـ١٦، ص٢٦١.
٨٠١. مسلم، المستغفرين، ١٦٨/ ٧٥٨.
٨٠٢. يوسف: ٩٧-٩٨.
٨٠٣. الترمذي، الدعوات، ١١٤/ ٣٥٧٠.

وقف يوسف عليه السلام والحاكم وجميع الخلق صفاً لاستقبال يعقوب عليه السلام وعائلته. وعندما وصل يعقوب أمام يوسف عليه السلام نزل الجميع عن أحصنتهم وتعانق النبيان بشوق ومحبة. يقول اللَّه عز وجل:

﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ﴾ [٨٠٤]

إن المكافآت الكبرى تأتي دائماً بعد كثير من الصبر والمصائب والابتلاءات الكبيرة. ويرفع يعقوب عليه السلام يديه إلى السماء بعد هذا اللقاء مباشرة ليشكر اللَّه تعالى ويقول: «إلهي! اغفر لي بكائي على يوسف، وقلة صبري على فراقه، وما فعل أبنائي بإخوتهم!»

وكان يوسف عليه السلام أيضاً في حالة كبيرة من الشكر والحمد:

﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ [٨٠٥]

لقد أدرك سيدنا يوسف عليه السلام بعد تحقق نعم اللَّه عز وجل عليه كاملة بأن هذه الحياة الدنيا ليست مكان استقرار، وأن كل ما فيها من أشياء إن هي إلا أشياء زائلة، وبأنه بعد أن وصل إلى القمة فإن الزوال قادم. فذكر نعم اللَّه تعالى التي تلطف بها عليه شاكراً له ومناجياً فقال عليه السلام:

﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ [٨٠٦]

وإذا ما لفت المرء انتباهه إلى هذه الآيات الكريمة، فإننا نجد أن يوسف عليه السلام هو نموذج لسائر المؤمنين على حسن المعاملة. فنضجه ومسامحته ومجاملته لإخوته الذين ألقوه في البئر تخلصاً منه، على الرغم من قوته وقدرته على الانتقام منهم، إن هو إلا إشارة

٨٠٤. يوسف: ٩٩.
٨٠٥. يوسف: ١٠٠.
٨٠٦. يوسف: ١٠١.

للمؤمنين إلى قمة الكمال الأخلاقي. إنه وعلى الرغم من وصوله من العبودية إلى الحكم، لم يخرج لنفسه أي حصة من هذا الأمر وربطه جميعه بلطف اللَّه عليه.

كما حاول تأويل أكبر خطأ ارتكبه إخوته في حقه وعزا ذلك إلى الشيطان فلم يرم بهذا الأمر في وجوههم. وأخيراً، إن لجوءه إلى اللَّه تعالى هذا، إن هو إلا دليل على مدى تبعيته وتسليمه لله تعالى وقلقه الدائم إلى أن «يلفظ أنفاسه الأخيرة». كما أن دستور المتصوفين الأساسي الذي يعتمد على «مصاحبة الصالحين» هو واضح بشكل كبير في مثال يوسف عليه السلام ودعائه.

وبحسب ما يروى، فإن يعقوب عليه السلام يعيش مع ابنه يوسف عليه السلام في مصر أربعة وعشرين سنة إلى أن يتوفاه اللَّه تعالى هناك. وينقل جثمانه الطاهر عليه السلام إلى الشام بناءً لوصيته ويدفن فيها بجوار والده إسحاق.

كما عاش يوسف عليه السلام ثلاثة وعشرين سنة أخرى بعد وفاة والده. ومن ثم، قام أهل مصر بوضع جثمانه في تابوت من الرخام ودفن في قلب النيل. فأراد أهل مصر أن يبقى يوسف عليه السلام في مدينتهم لما كانوا يكنون له من الحب. ومن ثم، قام موسى عليه السلام باستخراج نعشه من مكانه وقام بدفنه إلى جوار والده يعقوب. عليه السلام!...

❁

يقول الحديث الشريف:

«**الموت تحفة المؤمن ...**» [٨٠٧]

إن أول ما يتخلص منه المرء عنه الموت هو نفسه. لأن أكبر عدو للإنسان هو نفسه الأمارة بالسوء.

الآيات الأخيرة من سورة يوسف

يسأل المشركون رسول اللَّه ﷺ بعض الأسئلة امتحاناً له بناءً لتوجيه اليهود لهم. فنزل اللَّه ﷻ هذه القصة وكثيراً غيرها من أخبار الغيب إلى رسول اللَّه ﷺ لتروى إلى الناس تأكيداً على نبوته ﷺ وصحة الكتاب الذي أنزل إليه. إلا أن الكافرين، وعلى الرغم من كل هذه الدلائل، لم يؤمنوا لرسول اللَّه ودعوته التي نشرها دون طلب لأي أجر دنيوي.

٨٠٧. الديلمي، الفردوس، ٤، ٢٣٨/ ٦٧١٥.

ولهذا، يقول اللَّه ﷻ تخفيفاً عن الرسول ﷺ ومواسياً:

﴿ذلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ. وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ. وَمَا تَسْئَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾ [٨٠٨]

ويؤكد اللَّه تعالى عبر هذه الآيات على أن كفر هؤلاء ليس مخصوصاً بالنبي ﷺ أو عن الآيات المنزلة إليه فحسب:

﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمواتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ. وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلاَّ وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾ [٨٠٩]

أي أنهم وإن لم ينكروا وجود اللَّه بشكل كامل، ولكنهم لا يؤمنون به إلا إشراكاً واضحاً أو خفياً.

﴿أَفَأَمِنُوا أَنْ تَأْتِيَهُمْ غَاشِيَةٌ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ. قُلْ هـذِهِ سَبِيلِي أَدْعُوا إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [٨١٠]

تبين هذه الآية أيضاً أن الدعوة لا يمكن لها أن تتحقق إلا ضمن شروط معينة تجيزها وتؤمن منها الفائدة. أي أن الدعوة لا يمكن لها أن تكون بشكل أعمى وبهدف مقاصد باطلة؛ وإنما يجب عليها أن تكون على بصيرة، يعرف فيها المرء ما يقول، بكل إخلاص وإيمان، وأدب وحكمة، يكون هدفها نيل الرضى والقبول من اللَّه ﷻ. وإلا فلا يكون الدين والتدين إلا مجرد تسمية أو ادعاء فارغ لاقيمة له.

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلاَّ رِجَالاً نُوحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا أَفَلاَ تَعْقِلُونَ﴾ [٨١١]

---

٨٠٨. يوسف: ١٠٢-١٠٤.
٨٠٩. يوسف: ١٠٥-١٠٦.
٨١٠. يوسف: ١٠٧-١٠٨.
٨١١. يوسف: ١٠٩.

أما بالنسبة لهذه الآية الكريمة، فكان تنزيلها جواباً من اللَّه تعالى على الكفار لقولهم: «لو أنزل اللَّه إلينا ملائكة أنبياء!».

﴿حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَنْ نَشَاءُ وَلاَ يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ﴾ [٨١٢]

وينهي اللَّه تعالى هذه السورة بتأكيده على أهمية القرآن الكريم وقصصه للبشرية فيقول جلَّ وَعَلا:

﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَـكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [٨١٣]

مما لا شك فيه هو أن اللَّه تعالى بعظمته، قد قدم إلينا كل شيء على أفضل وأكمل وجه!...

٨١٢. يوسف: ١١٠.

٨١٣. يوسف: ١١١.

سيدنا يعقوب عليه السلام

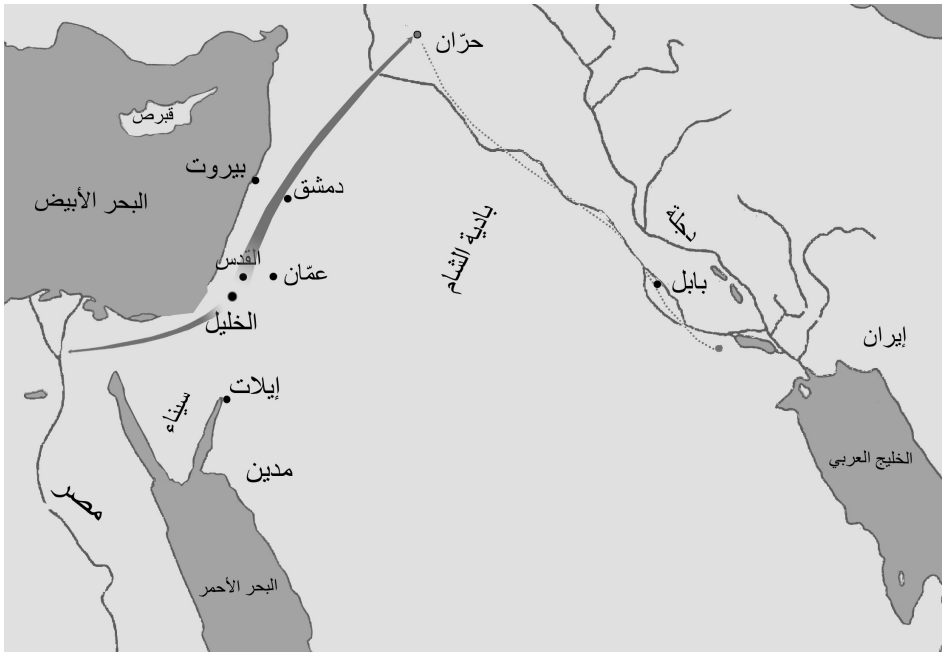

سيدنا يوسف عليه السلام

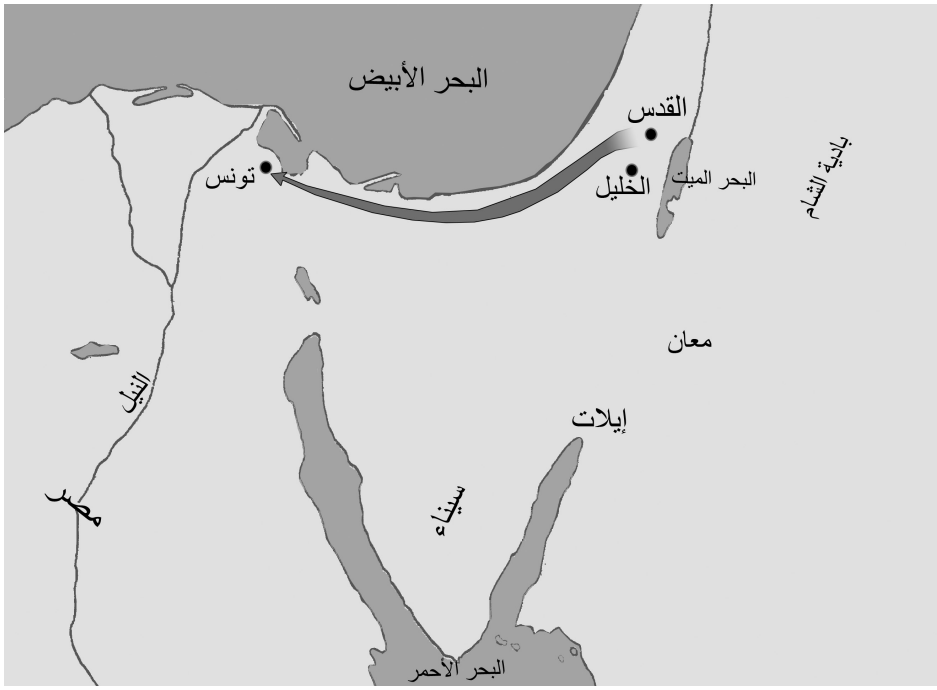

الارتباط والاستعانة والاستغاثة

إن السالك في لغة التصوف هو المرء الذي يعمل على اتمام سير سلوكه باتباعه لتربية القلب وإرشاد المرشد الكامل. وطالب هذه التربية القلبية يحافظ على التوجه الذي أعطاه مرشده أي شيخه دون أي خلل، ويعمل بذلك على حماية قلبه من الكسوف. ويعمل على متابعة حالة التسليم هذه بكل نجاح. أما المرشد فهو الإنسان الذي يدل على تربية القلوب.

❁

والرابطة لغة هي الصلة والعلاقة والاتصال. وبنظرة واقعية، ما من مخلوق في هذا الكون بلا رابطة معينة. والرابطة تتكون من خلال الإستعانة المادية والمعنوية ومن خلال الإستغاثة «أي طلب العون».

وبتعريف آخر، فإن الرابطة تأتي من المحبة. وهي بالتالي المحافظة دائماً للياقة والمحبة القلبية.

والرابطة هي بأنواع ثلاثة:

١. **رابطة طبيعية:**

وهي المحبة التي يظهرها المرء لأقاربه. كمحبة الأم لأولادها.

٢. **الرابطة المتدنية «السفلية»:**

وهي الارتباط بالأمور الممنوعة الشيطانية والنفسية والميل إليها. كالمقامر الذي ينشغل بقماره بشكل دائم بشكل ينسى فيه عائلته وأولاده.

٣. **الرابطة العلوية «رابطة التصوف»:**

هي الإرتباط بالوسائل والوسائط التي توجه الإنسان إلى اللَّه تعالى بمشاعر علوية ومفاهيم مقدسة. وتكون هذه الرابطة هبر التواجد جسدياً أو روحياً مع الأشخاص

الواصلين إلى مراتب المشاهدة والتجلية[٨١٤] للإستفادة من روحانيتهم عبر تنمية مشاعر المحبة إليهم.

يقول اللّه تعالى في القرآن الكريم:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾[٨١٥]

والملفت في هذه الآية الكريمة هو أن اللّه تعالى لم يقل فيها «كونوا صادقين!» وإنما أمرنا بأن «كونوا مع الصادقين!» محافظة على التقوى. وهو ما يشير إلى ضرورة أن يعمل الإنسان على تأدية عبوديته لله تعالى في جماعة من الناس الصادقين.

إن من يؤسس للرابطة مراعياً لشروط المحبة والمعية «الوحدة»، فإنه يرتفع بمقداره ومزاياه وأخلاقه. فأحوال الأقوياء من الناس قوية سارية. أي أن الشخصية القوية بصفاتها ومزاياها هي شخصية تتميز بتأثيرها. فصاحب الشخصية القوية هو مصدر إلهام للشخصيات الضعيفة. كما أن الأشخاص الذين يتميزون بالرحمة والتضحية والتفرغ، هم أشخاص مؤثرون على الجمع من الناس من حولهم.

وهذا التأثير الذي يمتلكونه هو في السلب كما هو في الإيجاب تماماً، كما هو كان عليه مثال فرعون وهامان وأمثالهما من الناس الذين تميزوا بقوتهم عن الآخرين وما كان من التفاف للناس حولهم امتثالاً لهم من الفراعنة.

والرابطة بمعناها التصوفي تكون وسيلة للسمع المعنوي. فتذهب المشاعر النفسية والأنانية من القلب، وتنتقل إليه أحوال الكمال المأخوذة من المرشد الذي يشكل المثل الأعلى له. وتصبح أملاك الدنيا تتخذ وسيلة في هذه الدنيا خارج القلب لا غاية يعيش لأجلها المرء.

وقلب المرشد هو كالمكبر تماماً. ولهذا، فإن المشاعر المنفية في القلب احترقت لديه بمظاهر التجلي الإلهي. ولذائذ الدنيا الفانية انتهت حياتها لديه. وتنتقل هذه الأحوال

٨١٤. التجلية: معنى الكلمة هو «التلميع» وهو المصطلح الصوفي الذي يعني تلميع القلب من الأدران السلبية، أي تنقيته من الأفكار والمطالب المادية التي تبعده عن اللهَّ تعالى. وهو ما يؤدي إلى زيادة عشق اللهَّ وزيادة ذكره وطلب لطفه، فيصبح القلب فيها صافياً براقاً لامعاً.

٨١٥. التوبة: ١١٩.

من المرشد إلى قلب مريده مع الزمن وتزداد بازدياد المحبة بينهما. ويصبح المرشد والمريد كالمرآة يعكس أحدهما حال الآخر. مع العلم أن رسول الله ﷺ يقول:

«المرء مع من أحب» [٨١٦] **«من تشبه بقوم فهو منهم»** [٨١٧]

وبعد أن بين الإمام الغزالي أن حضور القلب شرط من شروط الصلاة قائلاً:

«يجب تخيل الرسول ﷺ بعيون القلب بين الجلوس الأول والأخير...» مشيراً إلى الرابطة التي يجب أن تكون مع النبي ﷺ.

انعكاس الأحوال

الأحوال التي ذكرنا أعلاه سارية. وأشكال تحقق هذه الأحوال كل منها بشكل مفصل هي على الشكل التالي:

١. **النظر**: «الرؤية المعنوية»:

وهي رؤية النبي ﷺ وأولياء اللَّه. يقول رسول اللَّه ﷺ:

«اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله» [٨١٨]

إن رؤية المرء صاحب القلب السليم تكون وسيلة لنقل الحال إليه. فالفيض الذي في قلبه ينعكس على قلب من رآى.

ولقد كان الصحابة الكرام ﷺ يشاهدون رسول اللَّه ﷺ عندما تغشاه الرؤى فكانوا متميزون في هذه الأمة بما جعلهم يرتقون إلى رتبة الصحابة. ولهذا، فإنه لا يمكن لأحد من المؤمنين أن يصل إلى مرتبة الصحابة لأنه لا يمكن له أن يرى ما كان من رؤى للنبي ﷺ.

٢. **القول**: إن من تمكن من تزكية نفسه وقلبه، هو إنسان متميز بقول يعبر عن حالته التي يعيش فيها. فيكون قوله قولاً مؤثراً فيمن يخاطب من الناس لما يحتوي عليه من هذا الكم من الأحاسيس والمشاعر.

٨١٦. البخاري، الأدب، ٩٦/ ٦١٦٨.
٨١٧. أبو داود، اللباس، ٤/ ٤٠٣١.
٨١٨. الترمذي، التفسير، ١٥/ ٣١٢٧.

٣. الصحبة: إن مجالس الدروشة تحمل في طياتها أيضاً عملاً جماعياً ظاهراً. فتنتقل بالتالي تجليات القلب الخاصة بين أفراد المجلس ويعكس بعضها الآخر. فتكون الشخصيات القوية مصادر إلهام لضعافها الذين يستفيدون من هذه المجالس بتعبئة الطاقة المعنوية منهم.

٤. التبرك ببقية الطعام: كان الصحابة رضوان اللَّه عليهم يتسابقون إلى أخذ البركة من بقايا أطعمة رسول اللَّه ﷺ في مختلف الأوقات والأماكن.

وتروي أحاديث السيرة النبوية الشريفة أن رسول اللَّه ﷺ كان يكرم أصحابه من الحليب الذي يشربه، فكانت البركة تحل على ذلك الحليب فلا يقل حجمه، ويستفيد منه الشارب بفيض من بركته في الوقت نفسه. يحدثنا سهل بن سعد الساعدي ﷺ:

أن النبي ﷺ أتي بشراب، فشرب منه وعن يمينه غلام وعن يساره الأشياخ، فقال للغلام: «**أتأذن لي أن أعطي هؤلاء؟**»،

فقال الغلام: لا والله يا رسول الله، لا أوثر بنصيبي منك أحدا، قال: فتله النبي ﷺ في يده.[٨١٩]

وعن أبي أيوب الأنصاري ﷺ أنه كان يصنع للنبي ﷺ طعاماً فإذا جيء به إليه «بعد أن يأكل الرسول ﷺ» سأل عن موضع أصابعه «أصابع سيد العالم عليه السلام» فيتتبع موضع أصابعه.[٨٢٠]

وفي غزوة تبوك، وعندما افتقد المسلمون للماء، قام رسول الله ﷺ بسكب قليل من الماء على يده، وأخرج بمعجزة من الله تعالى الماء كالنبع الفائض من سبابة يده فامتلأت القرب بالماء وشرب جميع من في الجيش. وكان هذا الماء الذي خرج من سبابة النبي ﷺ أكثر شفاء وفضلاً من ماء زمزم. لأنه خرج من يده المنورة وجسمه الشريف عليه الصلاة والسلام.

٥. نقل الحال عبر الأشياء: بحسب أحد الأحاديث المتواترة عن رسول الله ﷺ المستند للعديد من الروايات، واحدى هذه الرويات عن جابر ﷺ يقول:

---

٨١٩. البخاري، الأشربة، ١٩/ ٢٤٥١ .

٨٢٠. انظر: مسلم، الأشربة، ١٧٠ – ١٧١/ ٢٠٥٣.

«كان المسجد مسقوفاً على جذوع من نخل، فكان النبي ﷺ إذا خطب يقوم إلى جذع منها، فلما صنع له المنبر وكان عليه، فسمعنا لذلك الجذع صوتاً كصوت العشار، حتى جاء النبي ﷺ فوضع يده عليها فسكنت»[٨٢١]

كذلك الأمر، بالنسبة لإرسال النبيّ ﷺ بردته الشريفة لأويس القرني طالباً منه الدعاء لأمته حيث قال:

«...**فمروه فليستغفر لكم!**»[٨٢٢]

وعندما أرسل يوسف عليه السلام قميصه من مصر، بدأ يعقوب عليه السلام يحس برائحة هذا القميص من أرض كنعان، وبرأت عيناه مما أصابها من العمى عندما ألقي على وجهه عليه السلام. كما أن هناك أموراً أخرى قد يستفاد منها معنوياً إضافة إلى التبرك بالأشياء. فمن هذه الأشياء مثلاً قراءة السلسلة الشريفة. في الرابِطة والمراقبة لتكون وسيلة للفيض المعنوي.

علماً أن سفيان بن أمية رضي الله عنه يقول:

«ألستم ترون أن عند ذكر الصالحين تنزل الرحمة؟»[٨٢٣]

وقصة أصحاب الكهف التي أتى ذكرها في القرآن الكريم أيضاً، هي أيضاً قصة تجذب الإنتباه بشكل كبير. إن قطمير على الرغم من أنه كلب، إلا أنه نال حصة له من حالتهم الجميلة التي كانوا عليها لما قام به من حماية الصالحين والصادقين من أهل الكهف. ولهذا، فهو أيضاً سيدخل الجنة مع الصادقين.[٨٢٤]

فالكلب الذي لم يفترق عن الصالحين من عباد الله تعالى والذي بقي ليؤمن لهم الحماية أمام الكهف، إن تمكن من الوصول إلى هذه الدرجة الرفيعة، فمن المؤكد إذن أن حال المؤمن الحقيقي الذي يرتبط بكل إخلاص مع أصحاب الله تعالى، ستكون على درجة كبيرة من الرفعة.

---

٨٢١. البخاري، المناقب، ٢٥/ ٣٥٨٥.
٨٢٢. مسلم، فضائل الصحابة، ٢٢٣ -٢٢٥/ ٢٥٤٢.
٨٢٣. العجلوني، كشف الخفاء، ٢، ٨٢/ ١٧٧٢.
٨٢٤. إسماعيل حقي بورسوي، روح البيان، ٥، ٢٢٦.

كان الصحابة الأكارم ﷺ بمعظمهم يعيشون حياة تتضارب مع فطرة الخلق قبل ظهور الإسلام. ولكنهم، ومع إدراكهم للهداية، انعكست عليهم مشاعر رسول الله ﷺ ليصبحوا أكثر الناس فضلاً في هذه الدنيا. كما أن هذه المشاعر تنتقل بالتسلسل من رسول الله ﷺ إلى مرشدي الكمال والصالحين عبر رابطة السالكين والصحبة. وبالنتيجة، إن شخصية رسول الله ﷺ المثالية، تسري إلى المريد كل بحسب نسبة استعداده.

يقول الله تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ..﴾ [٨٢٥]

بحسب بعض المفسرين، فإن الدخول في تربية الإرشاد الكامل هذه هي من خلال التخلق بأخلاق النبي ﷺ.

يقول الإمام مالك رحمة الله عليه: «توسلوا برسول الله ﷺ في دعواتكم...»

ويقول الإمام الشافعي رحمة الله عليه:

«إذا ما اعترضني أي موضوع ما، فإني أصلي صلاة الحاجة ركعتين، ومن ثم أذهب إلى قبر الإمام أبي حنيفة، فأزوره. فتتيسر لي حاجتي...»

ويقول الإمام الجزري: «توسلوا بالنبي والرجال الصالحين طلباً لقبول دعواتكم!»

وإليكم بعض الأمثلة عن التوسل برسول الله ﷺ:

يروي لنا ابن عباس قوله:

«كانت يهود خيبر تقاتل غطفان فلما التقوا هزمت يهود، فعادت يهود بهذا الدعاء وقالوا: إنا نسألك بحق النبي الأمي الذي وعدتنا أن تخرجه لنا في آخر الزمان إلا تنصرنا عليهم. قال: فكانوا إذا التقوا دعوا بهذا الدعاء فهزموا غطفان، فلما بعث النبي ﷺ كفروا، فأنزل الله تعالى هذه الآية الكريمة:

﴿وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ » [٨٢٦]

٨٢٥. المائدة: ٣٥.

٨٢٦. البقرة: ٨٩ . القرطبي، ٢، ٢٧؛ الواحدي، أسباب النزول، ص ٣١.

بعد وفاة النبي ﷺ أصيبت المدينة بقحط شديد. فيشتكي الناس إلى عائشة ﵂ هذه الشدة. فتوصيهم أم المؤمنين عائشة ﵂ بقولها:

« انظروا قبر النبي ﷺ فاجعلوا منه كوى إلى السماء حتى لا يكون بينه وبين السماء سقف»

ففعلوا، فأمطرت السماء مطراً حتى نبت العشب، وسمنت الإبل حتى تفتقت من الشحم، فسمي عام الفتق: أي عام الوفرة».[٨٢٧]

وهذا بعض مما يروى من قصص عن التوسل بالرجال الصالحين:

كان عمر بن الخطاب ﷺ إذا قحطوا -أصيبوا بالجفاف- يأخذ العباس بن عبد المطلب ﷺ ويستسقي به طلباً للمطر.[٨٢٨]

وكان هناك رجل يكثر من الذهاب إلى عثمان بن عفان ﷺ طلباً لحاجة له؛ وكان عثمان ﷺ لا يلتفت إليه، ولا ينظر في حاجته. يلتقي هذا الرجل بعثمان بن حنيف ويشتكي إليه هذا الأمر. فيقول له عثمان بن حنيف:

- إذهب إلى مكان الوضوء وتوضأ، ثم اذهب إلى المسجد وصل ركعتين. ثم قل: إلهي! بحرمة نبي الرحمة نبينا محمد ﷺ أطلب منك وأتوجه إليك. يا محمد! أتوجه إلى ربك معك، فاستجب لي دعائي!. ومن ثم اطلب ما تشاء.

فذهب هذا الرجل وفعل ما قيل له وأتى باب عثمان بن عفان ﷺ. فأمسك به الحارس من يده وأخذ به إلى جوار عثمان ﷺ. فأجلسه عثمان على حصيرة بجواره. وقال له:

- ما حاجتك؟

فأخبره بها. فقام عثمان ﷺ بحل مشكلته على الفور وقال له:

- لماذا لم تخبرني إلى الآن بحاجتك. من الآن فصاعداً إن كانت له حاجة فأت إلينا!.

فيذهب الرجل على فوره إلى عثمان بن حنيف ويقول له:

---

٨٢٧. الدارمي، المقدمة، ١٥، ١، ٢٢٧/ ٩٣

٨٢٨. انظر: البخاري، الاستسقاء، ٣

– كافأك الله خيراً، لم يكن يلبي حاجتي أو يلتفت إلي حتى كلمتك.

فيقول له عثمان بن حنيف ﷺ:

والله ما قلت ذلك من نفسي. فإني قد شهدت على حادثة:

يأتي رجل ضرير البصر إلى رسول الله ﷺ ويقول له:

– يا رسول الله! أدع الله أن يعافي لي بصري! فإني أستصعب بشدة عمى عيني!.

فيقول له رسول الله ﷺ:

«إن شئت دعوت، وإن شئت صبرت فهو خير لك»

فيقول له الأعمى: فَادْعُهْ

فأمره رسول الله ﷺ أن يتوضأ فيحسن وضوءه ويدعو بهذا الدعاء:

«اللهم إني أسألك وأتوجه إليك بنبيك محمد نبي الرحمة، إني توجهت بك إلى ربي في حاجتي هذه لتقضى لي، اللهم فشفعه فِيَّ»[٨٢٩]

ويضيف الحاكم في روايته بأن الضرير يقف على رجليه وعينه ترى.[٨٣٠]

يحدثنا عتبة بن غزوان ﷺ عن الرسول ﷺ أنه قال:

«إذَاإذا أضل أحدكم شيئا، أو أراد عونا، وهو بأرض ليس بها أنيس فليقل: يا عباد الله، أغيثوني؛ فإن لله عبادا لا نراهم»[٨٣١]

ويروي لنا الإمام النووي ناقل هذا الحديث الشريف قصة حصلت معه لنفسه فيقول:

«إن من قام بنقل هذا الحديث إلي يحدثني أنه عاش حادثة مشابهة فنفذ ما أمر به رسول الله ﷺ، وكانت النتيجة تحقق هذا الأمر كما ذكر الرسول تماماً. فعجبت لما قال. ومن ثم في أحد الأيام، شردت ناقة أحد الناس الذين كنت معهم. فذكرت له هذا الحديث الشريف. فإذا بنا نرى الناقة توقفت عن الهرب دون أي سبب وتمكن صاحبها من الإمساك بها بكل سهولة».

٨٢٩. انظر: الترمذي، الدعوات، ١١٨/ ٣٥٧٨؛ الهيثمي، مجمع الزوائد، ٢، ٢٧٩.

٨٣٠. انظر: الحاكم، المستدرك، ١، ٧٠٧-٧٠٨

٨٣١. الهيثمي، مجمع الزوائد، ١٠، ١٣٢/ ١٧١٠٣؛ الإمام النووي، الأذكار، ٢٠١.

ويروي لنا منصور بن عبد الله حال أبي عبد الله بن جلا بهذا الشكل فيقول: يقول ابن جلا:

«ذهبت إلى المدينة المنورة. وكنت في حال من الفقر الشديد. ووصلت إلى قبر الرسول ﷺ الشريف. فسلمت عليه وقلت: يا رسول الله! إني في فقر شديد! وأتيت إليك ضيفاً. وبعد مدة من الزمن أصابني النعاس فغفوت. فأشاهد رسول الله ﷺ يقدم إلي فطيرة. فأكلت نصفها وأفقت؛ فوجدت النصف الثاني بقربي».

❁

يقول الحاج عبيد الله أحرار:

«إن كلمة «كونوا» التي ذكرت في القرآن الكريم في الآية الكريمة «يا أيها اللذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين»، هي كلمة تفيد الاجتماع الدائم مع الصادقين. فالـ «الكينونة= كونوا» إذا ذكرت بشكلها المطلق تكون شاملة لطرفي الحقيقة والحكم. فالكينونة الحقيقية هي أن تكون في مجلس الصادقين بسلام قلبي؛ والكينونة الحكمية أيضاً هي أن تكون في تخيل لهم في غيابهم»

وبهذا الشكل، فإن الحنان والأدب الذي يتم إظهاره عندما يكون المرء في حضرة المرشد، يتم إظهاره أيضاً في غيابه ويتخلق المرء بأخلاقهم فيكون ذلك الحال «فناءً في الشيخ».

يجب فهم هذا الأمر بشكل جيد، إن الشخص المرتبط، أي أن المرشد الكامل، ليس فرداً ثالثاً بين العبد وربه. لأنه لا رهبانية في الإسلام. فالمرشد ليس إلا شخصية نموذجية متمثلة للمرء لتكون مثالاً يحتذي به المريد.

فكما أننا خلال سفرنا نتخذ من السيارة وسيلة لا غاية، فإن المرشد الكامل أيضاً هو حبيب لله تعالى يعلم قلب المريد ويزين له حياته الداخلية بأخلاق رسول الله ﷺ. فالقدسية هي لله وحده.

وما وراء مقام الفناء في الشيخ يوجد أيضاً مقام الفناء في الرسول. وهذه المرتبة هي أن يتكامل المرء في كل آن من حياته بأخلاق الرسول ﷺ وكأنه في حضرته. وخير من عايش هذه الحال بأفضل طريقة هو أبو بكر الصديق رضي الله عنه.

فبحسب ما يروى:

«كان أبو بكر الصديق ﷺ وبما هو عليه من توجه روحاني مع رسول الله وكأن رسول الله ﷺ لا يفارق عينيه حتى أثناء تجديده لوضوئه. أي أن أبا بكر الصديق كان لا يفارق حالة التجسم المعنوي بوجه رسول الله المبارك حتى أثناء وجوده في أماكن الغسل والطهارة».

وحالة «الفناء في الرسول» هذه المتجلية في أبي بكر ﷺ يقابلها من رسول الله ﷺ قوله أثناء وفاته عليه الصلاة والسلام:

«...لا يبقين في المسجد باب إلا سد إلا باب أبي بكر»[٨٣٢]

إن هذا الحديث الشريف ليظهر بشكل رائع التدفق القلبي المتبادل. وبنتيجة هذا التدفق المعنوي في قوله تعالى:

﴿...وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ...﴾ [٨٣٣]

﴿...وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ [٨٣٤]

ينال الإنسان للسر الموجود في هاتين الآيتين في تجل ظاهر لمقام الفناء في الله.

وكدليل آخر في القرآن الكريم على الرابطة، تقول الآية الكريمة:

﴿وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ. وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾ [٨٣٥]

ويعلق المفسرون على كلمة «برهان» الموجودة في الآية السابقة:

«إن القصد من البرهان هو تجلي وجه يعقوب عليه السلام فجأة أمام يوسف عليه السلام في مواجهة الميل إلى المرأة، ويضع إصبعه في فمه ويخاطبه بقوله:- إياك، تحكم بنفسك،

٨٣٢. البخاري، المناقب، ٥، ٤/ ٣٦٥٤.

٨٣٣. الحديد: ٤.

٨٣٤. ق: ١٦.

٨٣٥. يوسف: ٢٣ – ٢٤.

وأعرض بوجهك عنها!-. وبهذا التنبيه الذي رآه يوسف عليه السلام متمثلاً بأبيه الذي تصور له حياً أمامه، يستجمع يوسف عليه السلام نفسه ويمتنع عن هذا الفعل المشين».

وكما تم تفسير هذه الآية الكريمة بتمثل هيئة يعقوب عليه السلام أمام يوسف عليه السلام ورؤيته له، فإن تخيل المريد لشيخه ورؤيته لحالاته أمامه وحمله في فؤاده هو أمر مماثل. وتأدية الصلاة والسلام على رسول الله ﷺ واستحضار رابطة محبته في القلب هي أيضاً نوع من أنواع الرابطة.

إن رؤية الإدراك البشري المجرد أو الشعور به، هو أمر لا يمكن تحققه دون نِسبته إلى شيء معين أو شكل معين. فيعرض العلم في العالم، والعشق في العاشق والفن في الفنان.

فالتقديم المجرد من العرض هو أمر مستحيل. فالمعلم وصبيه، والأستاذ وتلميذه وغيرها من أمثلة العلاقات، كلها أمور ذات علاقة بالرابطة. فالرابطة والمرشد هي أمور مقابلة لخصوصية القلب المعنوية.

فكما يتواجد المرء بالأحاسيس العلوية أدباً في جوار المرشد الكامل بشكل فيزيائي، فإن نفس الأمر يستمر في غيابه في تلك الحالة المعنوية، وهو ما يؤدي إلى الوصول لحقيقة الرابطة. لأن العلاقة الفيزيائية مع أحباب الله هي أمر لا يمكن حصوله بشكل دائم.

وتؤمن الرابطة تسلسل الفيض من النبي عليه الصلاة والسلام إلى أحباء الله تعالى. فمن يتعرض من الناس للكهرباء فإن تيارها يصل بنفس القوة إلى آخر إنسان متصل بهذه السلسلة من الناس. وبنتيجة الرابطة يتحقق الدعم المعنوي. ويقال عن ذلك الأمر إستعانة و إستغاثة.

رابطة الموت

إن تأسيس رابطة مع الموت في عالم التصوف يدعى «تفكر الموت». ذلك أن لتفكر الموت تأثير كبير على حال وأفعال الإنسان. يقول رسول الله ﷺ في الحديث الشريف:

«أكثروا ذكر هاذم اللذات»[٨٣٦]

«كفى بالموت واعظا...»[٨٣٧]

عن ابن عمر ﷺ أنه قال:

«كنت مع رسول الله ﷺ. فجاءه رجل من الأنصار فسلم على النبي ﷺ، ثم قال: يا رسول الله! أي المؤمنين أفضل؟. فقال له رسول الله ﷺ:

«أحسنهم خلقا».

فقال ذلك الرجل سائلاً: فأي المؤمنين أكيس؟. فقال رسول الله ﷺ:

«أكثرهم للموت ذكرا، وأحسنهم لما بعده استعدادا، أولئك الأكياس»[٨٣٨]

بالفعل، إن التفكر بالموت هو أمر يخفف من حب الدنيا النفسي الذي يؤرق الإنسان. ذلك أن المحبة القصوى للثروات المؤقتة في الدنيا، والمراتب، والمواقع والجمال النفسي والتعلق بها قلبياً، هي رأس الأمراض المعنوية كالغفلة. وحماية لقلوبنا من الارتباطات المماثلة تكمن في تذكر القبر، والتفكر في أحوال الموت الذي سيصيبنا في المستقبل؛ فإنه سيحمينا من الهوى والحماس الفارغ، والحرص الدنيوي عبر تحويلنا إلى الخشوع في العبادة والتوبة بحق. إن ما نداوم عليه من الذكر والروابط ستكون إن شاء الله وسيلة لسعادتنا ونجاتنا في الآخرة إن شاء الله ﷻ.[٨٣٩]

نسأل الله تعالى أن يجعل قلوبنا منبعاً للذكر والمحبة...آمين...

٨٣٦. الترمذي، الزهد، ٤/ ٢٣٠٧.

٨٣٧. السيوطي، الجامع الصغير، ٢، ٧٧/ ٩٦٧٠.

٨٣٨. ابن ماجه، الزهد، ٣١/ ٤٢٥٩.

٨٣٩. للتفاصيل المتعلقة بالموضوع يمكنك قراءة كتاب التصوف من الإيمان إلى الإحسان، لمؤلفه عثمان نوري طوبّاش، ص ٢٥٥ – ٢٥٧.

سيدنا
شعيب
عليه السلام

سيدنا شعيب عليه السلام
من أعاد القلوب إلى وجدانها بخطابته
الملقب بخطيب الأنبياء

هو من نسل إبراهيم عليه السلام أو صالح عليه السلام. ويروى أنه يصل بنسبه إلى ابنة لوط عليه السلام من ناحية أمه، وأنه ابن خالة أيوب عليه السلام. وهو في نفس الوقت عم موسى عليه السلام لزوجته «أي والد زوجة موسى عليه السلام».

وقد أرسل إلى شعبي مدين والأيكة فكانت الأيكة اللتين هما بلدين متجاورين أحداهما في الجبل والأخرى في الغابات.[٨٤٠]

كان شعيب عليه السلام الذي ولد في مدين ابناً لعائلة من أشراف هذا القوم. وعاش شبابه بين أفراد قوم مدين. وكان أهل هذه المنطقة يعيشون في الضلال والشبق. أما شعيب عليه السلام فكان يعيش حياة بعيدة عن شرورهم، نزيهاً ونقياً. فكانت حياته ونصائحه نموذجاً لهؤلاء.

أهل مدين

ومدين هي المنطقة الممتدة من خليج العقبة وصولاً إلى وادي حمص. وتأخذ هذه المنطقة اسمها من قبيلة تسمى بهذا الاسم عاشت في هذه المنطقة.

ترك أهل مدين عبادة اللَّه تعالى وطاعته ووقعوا في طرق العصيان والضلالة. وعبدوا الأصنام والنحوت. وكان أهل مدين يعملون في التجارة لما كانت عليه مدينتهم من موقع يتوسط خطوط القوافل. ولكن، اشتهر هذا الشعب بالحيل التي أصبحت لديهم كالصنعة والبراعة. فكان الشعب عند سعيه للتجارة يتلاعب في أوزان البضاعة فيزيد حجم ما سيأخذ وينقص حجم ما سيعطي. وعند رغبتهم في بيع شيء ما، فإنهم يزيدون من سعر ما يبيعون وينقصون حجم ما يعطون، مستخدمين الحيلة بإظهار القليل كثيراً. بل وكانوا يستخدمون موازين مختلفة، ميزان للشراء وآخر للبيع.

---

٨٤٠. انظر: الحاكم، المستدرك، ٢، ٦٢١/ ٤٠٧٥.

كما كان أهل هذه المدينة يغيرون على الناس في سفرهم فيغتصبون جزءاً من بضاعتهم. وكانوا يقومون بذلك بشكل خاص مع الغرباء والمساكين فيستولون على بضاعتهم بشتى الطرق المختلفة. فكانت علاقاتهم البشرية تتمحور تماماً حول الحيلة والأذية والظلم. فكانوا لا يشكرون اللَّه تعالى على ما يمن به عليهم من نعم، بل ويجحدون إلى أبعد الحدود فيعصون اللَّه ويعبدون الأصنام. وباختصار؛ كان إيمان أهل مدين وثنياً بعبادة الأصنام، وتعاملهم التجاري ينطلق من الحيلة، ووظيفتهم الأمثل هي المراوغة. فكانت مدين هي بكل معنى الكلمة مكاناً هدمت فيه الأسس العلوية كاملة، ليحل محلها ردم أخلاقي واقتصادي وسياسي وعقائدي.

وبينما كان أهل مدين يعيشون في هذا الشكل السفيه من حياة الغفلة، أرسل اللَّه سبحانه وتعالى إليهم شعيب عليه السلام. فتوجه إليهم شعيباً عليه السلام بنصائح جميلة. وشرح لهم أوامر اللَّه تعالى وما نهى عنه. ودعاهم للإيمان باللَّه وحده وترك ما هم عليه من الشرك؛ وأن يتركوا ما هم عليه من التلاعب بالموازين والقياس في عمليات الشراء والبيع؛ وأن يؤمنوا بيوم القيامة وأن لا يتجهوا نحو الانهزامية في هذه الحياة. وأخبرهم بأن عذاب اللَّه شديد وأن نعمه لا تعد ولا تحصى.

يقول اللَّه تعالى في القرآن الكريم:

﴿وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ وَلَا تَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أَرَاكُمْ بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُحِيطٍ﴾ [٨٤١]

﴿...قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [٨٤٢]

﴿...يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ...﴾ [٨٤٣]

٨٤١. هود: ٨٤.

٨٤٢. الأعراف: ٨٥.

٨٤٣. العنكبوت: ٣٦.

بهذا الشكل، أبلغ شعيب عليه السلام أهل مدين بالحقائق. وبدأ يدعوهم إلى التصديق بيوم القيامة والحساب الإلهي، ويحثهم على العمل لما سيؤمن لهم الفائدة والربح هناك.

وكان شعيب عليه السلام يسعى بشكل خاص لتحذير قومه بالابتعاد عن الغش في القياس والبيع. وكان يؤكد لهم محذراً بأن عدم امتناعهم عن هذه الأعمال سيؤدي إلى زوال ما هم عليه من النعم كافة. فاللَّه تعالى أنعم على أهل مدين بالعديد من الأملاك والنعم الوافرة. ولكنهم عوضاً عن التوبة والشكر، استمروا في تخطي الحدود والحيل والغش. ويكمل شعيب نصائحه إلى قومه فيقول:

﴿وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلاَ تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلاَ تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ [٨٤٤]

ثم بين شعيب عليه السلام لهم أسس التجارة. وهو أن يصلح التاجر قياسه وميزانه وأن يرضى بالربح العادي. فبالربح العادي أمن في التجارة والعمل، ورعاية من اللَّه تعالى للعبد وبياض لوجهه. ولهذا، نجد شعيباً عليه السلام يكمل في نصائحه لهم فيقول:

﴿بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ﴾ [٨٤٥]

«أي أنني لا أستطيع أن أعاقبكم على ما تفعلون من أعمال سيئة، كما أنني لا أملك لكم أن أمنع زوال هذه النعم التي تعيشون فيها! وإنما أنا أبلغكم بما أوحِي إلي!»

عبر ما ذكرنا من الآيات القرآنية الكريمة، نفهم أن شعيباً عليه السلام دعا قومه إلى هذه الأمور الخمسة:

١. التوحيد وعبادة اللَّه وحده.
٢. التصديق به نبياً.
٣. إيفاء الكيل والميزان، وترك الحيلة والغش.
٤. رعاية حقوق الناس جميعاً. وترك سائر أعمال الغصب، والسرقة والرشوة وقطع الطريق وغيرها من الأعمال المشينة سراً وعلانية.
٥. الإبتعاد عن الفساد في الدين والدنيا.

---

٨٤٤. هود: ٨٥.
٨٤٥. هود: ٨٦.

ويمكن تلخيص هذه الأسس الخمسة التي دعا إليها شعيب عليه السلام قومه بأنها: «**تعظيم الخالق، والرحمة والشفقة بالمخلوقات**». علماً أن هذا التعريف يجمع في طياته كافة الأمور المتعلقة بالتوحيد وتصديق النبوة وحقوق العبد وترك الفساد في الأرض.

وكانت دعوة شعيب ذات تأثير كبير. فأثرت في الأوساط من حوله بشكل كبير. وبدأ الناس يزورونه جماعات جماعات فيؤمنون به ويمتثلون بما أمر به. فكانوا يعبدون اللَّه ولا يحيدون عن الحق في تجارتهم. ولكن، كان هناك أعداد كبيرة من الناس أيضاً ممن لم يؤمنوا.

وعضب من كفر من قومه لهذا الأمر، فكانوا يجدون الربح الحلال قليلاً. وكانوا يتناجون فيما بينهم فيقولون: «لا يمكن لأحد أن يغنى من الربح الحلال!»، فيدعون الناس للباطل والظلم.

ويقول كفرة القوم لنبيهم:

﴿قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ﴾ [٨٤٦]

والقصد من الصلاة هنا هي الدين. لأن الصلاة هي أكبر العبادات وأشملها وبالتالي فهي وكأنها تمثل الدين بكامله. وبهذا، فإن الصلاة هي عبادة مهمة جداً.

﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [٨٤٧]

إن قول شعيب عليه السلام في هذه الآية الكريمة:

«وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه» هي بمعنى: «أنني لا آمركم إلا بما أقوم به. وإن كنت أمنعكم عن شيء فسأكون بينكم أول من يمتنع عنه».

---

٨٤٦. هود: ٨٧.

٨٤٧. هود: ٨٨.

أن يكون المرء في دعوته على هذا النحو من الشفافية هو فضيلة مهمة امتدحها اللَّه تعالى. وأي تصرف بأسلوب آخر هو أمر مذموم وممنوع عنه بشدة. ولهذا، وعندما اتجه علماء بني إسرائيل في آخر عهدهم إلى هذه الخصال السيئة قال اللَّه تعالى في حقهم مخاطباً:

﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ﴾ [٨٤٨]

ويقول رسول اللَّه ﷺ في هذا الشأن أيضاً:

«يؤتى بالرجل يوم القيامة، فيلقى في النار، فتندلق أقتاب بطنه، فيدور بها كما يدور الحمار بالرحى، فيجتمع إليه أهل النار، فيقولون: يا فلان ما لك؟ ألم تكن تأمر بالمعروف، وتنهى عن المنكر؟ فيقول: بلى، قد كنت آمر بالمعروف ولا آتيه، وأنهى عن المنكر وآتيه» [٨٤٩]

استمر سيدنا شعيب عليه السلام بدعوة قومه ضمن هذه الأطر دون أن يكل أو يتعب. واستمر قومه بصدهم وإعراضهم عن السماع إلى نصائحه ووصاياه. وكان شبقهم يتزايد يوماً بعد يوم.

وعلى الرغم من عدم قدرتهم على أصابة شعيب عليه السلام بأي أذى لما كان ينتسب إليه من قبيلة قوية، إلا أنهم كانوا يقومون بتهديد من آمن معه من الناس. فينبههم شعيب عليه السلام بهذا الشأن فيقول:

﴿وَلاَ تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا وَاذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلاً فَكَثَّرَكُمْ وَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ [٨٥٠]

وعلى الرغم من كل ما كان يواجهه من صعوبات، تابع شعيب عليه السلام دعوته لقومه. وكان يتبع في عمله ودعوته أحكام الدين الحنيف الذي أنزل إلى إبراهيم عليه السلام. وانتشرت نبوته إلى الشام. فكانت القلوب المؤمنة المتعطشة لرؤيته تسافر باتجاه مدين للقاء به. فكان أهل مدين يقفون على الطرقات يحاولون صد المؤمنين ممن يسعى للتشرف بزيارة

٨٤٨. البقرة: ٤٤.
٨٤٩. مسلم، الزهد، ٥١/ ٢٩٨٩.
٨٥٠. الأعراف: ٨٦.

شعيب عليه السلام. وهو ما يدل على تبعيتهم الظاهرة للشيطان. ذلك أن الشيطان عندما طرد من الرحمة الإلهية خاطب اللَّه تعالى فقال:

﴿قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ. ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَآئِلِهِمْ وَلاَ تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾ [٨٥١]

ولهذا، كان شعيب عليه السلام يعمل لمنع قومه من؛

١. الوقوف على الطرقات تهديداً للناس وأذى لهم،

٢. صد الناس عن الإيمان باللَّه عز وجل،

٣. صرف المؤمنين وحديثي العهد بالإيمان إلى طريق الضلال بإيقاعهم في الشبهات المختلفة والتردد.

التحذيرات الأخيرة

يحزن شعيب عليه السلام لتصرفات قومه السيئة وعصيانهم المستمر، ويريد بكل عزم وصبر كبيرين أن يوقظهم من ثباتهم على الجهل. فيحذرهم بكلامه الأخير إليه فيقول:

﴿وَيَا قَوْمِ لاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ﴾ [٨٥٢]

أي أنهم هلكوا في زمان قريب من زمانكم. ولهذا فإنهم أقرب من هلك من الأقوام من الناحية الزمنية إليكم. وهم ليسوا ببعيدين عنكم بكفرهم وسيئاتهم والأمور التي أوجبت هلاكهم. ولهذا الأمر هلكوا. ولهذا وجب عليكم أن تتعظوا لحالهم!..

﴿وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ﴾ [٨٥٣]

ولم يرض المتنفذون من قومه من الكفار بعرض سيدنا شعيب عليه السلام إليهم هذا وقالوا:

---

٨٥١. الأعراف: ١٦-١٧.

٨٥٢. هود: ٨٩.

٨٥٣. هود: ٩٠.

﴿... يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ. قَالَ يَا قَوْمِ أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظِهْرِيًّا إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ [٨٥٤]

وعندما يئس شعيب عليه السلام من إيمان هذا القوم الضالين، توجه إلى ربه يفوضه بحال قومه. فلم يبق أمامه ما يمكن له أن يقوم به لأجلهم. ولكنه توجه إليه في محاولة أخيرة علهم يتعظون بتذكيرهم بالعذاب الإلهي فقال:

﴿وَإِنْ كَانَ طَائِفَةٌ مِنْكُمْ آمَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَائِفَةٌ لَمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾ [٨٥٥]

لكن أهل مدين اتهموا شعيباً عليه السلام بالكذب مرة أخرى. وهددوه ومن آمن معه بطردهم من مدين. لأنهم وجدوا بمعيشة المؤمنين بينهم تهديداً لهم ولأعمالهم:

﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ﴾ [٨٥٦]

ثم أضاف قائلاً:

﴿قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ﴾ [٨٥٧]

يرفض شعيب عليه السلام في هذه الآية الكريمة أن يعود إلى دين قومه، مستثنياً في ذلك إرادة اللّه عز وجل في هذا الأمر. وكان موقفه هذا تعبيراً عن تسليم إرادته لله رب العالمين. فالأنبياء والأولياء هم دائماً في خوف دائم من تغير أحوالهم ومن غضب اللّه عز وجل.

٨٥٤. هود: ٩١-٩٢.
٨٥٥. الأعراف: ٨٧.
٨٥٦. الأعراف: ٨٨.
٨٥٧. الأعراف: ٨٩.

ولهذا السبب نجد أن شعيباً عليه السلام يقول:

« إن تركنا لدين اللَّه والعودة إلى دينكم هو أمر لا يمكن القبول به. أما إن أراد اللَّه إهلاكنا، فلا يمكننا أن نفعل شيئاً آخر. لأن كل أعمالنا ملك يده سبحانه. فيعز من يشاء بما كان منه من طاعة؛ ويعذب من يشاء بما كان منه من معاصي».

وكان رسول اللَّه اللَّه ﷺ يدعو ربه دائماً بقوله:

«اللهم مصرف القلوب صرف قلوبنا على طاعتك»[٨٥٨]

وعلى الرغم من نصائح شعيب عليه السلام، لم يتغير حال قومه من العصيان أبداً. وكانوا إضافة لما هم عليه من الكفر، لم يستطع قوم شعيب عليه السلام من تحمل المؤمنين من القوم فيما بينهم. فكانوا يشجبونهم، ويهددونهم بشكل دائم مستمر.

وكانوا يقطعون الطريق أمام من يأتي مؤمناً بشعيب عليه السلام لتقبيح صورته في أعينهم، في محاولة منهم لردع هؤلاء الناس عن الإيمان به. ويصف القرآن هذه الحالة بقوله تعالى:

﴿وَقَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْباً إِنَّكُمْ إِذاً لَخَاسِرُونَ﴾ [٨٥٩]

الصيحة المرعبة تأتي من الأعلى

لم يبق لشعيب عليه السلام ما يمكن تقديمه لهؤلاء الناس الضالين عن السبيل. ولهذا، نجده يقول لهم في آخر الأمر:

﴿وَيَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ وَارْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ﴾ [٨٦٠]

وبقول الله تعالى:

﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾ [٨٦١]

٨٥٨. مسلم، القدر، ١٧/ ٢٦٥٤.
٨٥٩. الأعراف: ٩٠.
٨٦٠. هود: ٩٣.
٨٦١. هود: ٩٤.

ويفسر هذا الأمر في آية قرآنية أخرى بقوله تعالى:

﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ. الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ﴾ [٨٦٢]

وهكذا وجد أهل مدين عاقبة أعمالهم القبيحة ونتيجة عصيانهم لله ورسوله وضلالتهم وحيلهم وأخطائهم. فهذا الجزاء هو النهاية الحتمية لكل ظالم لا يجب حتى الحزن عليه:

﴿فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالاَتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ آسَى عَلَى قَوْمٍ كَافِرِينَ﴾ [٨٦٣]

﴿كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلاَ بُعْدًا لِمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ﴾ [٨٦٤]

إن مهلك قوم شعيب عليه السلام كان كما هو الحال في قوم ثمود عذاب من اللَّه تعالى بالصيحة والضجيج إهلاكاً لهم لما كان منهم من صد عن النصيحة. وهلاكهم بشكل متشابه هو دلالة على تقارب ما كانوا عليه من سوء الأخلاق. مع العلم أن كلاً من القومين لعنوا بنفس الشكل لابتعادهم عن رحمة اللَّه تعالى، فشابه قوم مدين في هذا الأمر قوم ثمود.

فهلك قوم ثمود بصيحة من أسفل منهم، وهلك قوم مدين بصيحة أتتهم من فوقهم. وهكذا، كانت نتيجة كل من القومين عذاب وخسارة بابتعادهم عن رحمة اللَّه تعالى.

أصحاب الأيكة[٨٦٥]

الأيكة لغة هي الغابات الكثيفة المتكررة. وهذا المكان من الناحية الجغرافية هو الموقع الممتد من البحر الأحمر وصولاً إلى مدين. ويقال عن الذين عاشوا في هذه المنطقة بأنهم من الأيكيين.

كلف شعيب عليه السلام بدعوة أصحاب الأيكة إلى الطريق القويم لما كانوا عليه كما هو حال أهل مدين من الغنى والوفرة والنعم بعيداً عن التوحيد والهداية.

---

٨٦٢. الأعراف: ٩١-٩٢.

٨٦٣. الأعراف: ٩٣.

٨٦٤. هود: ٩٥.

٨٦٥. الأيكة قريبة من مدين ومن منطقة قوم لوط

وكذب أصحاب الأيكة نبي اللَّه شعيباً كما كذب به أهل مدين.

يقول اللَّه تعالى في الآيات الكريمة:

﴿كَذَّبَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ﴾ [٨٦٦]

﴿وَإِنْ كَانَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ لَظَالِمِينَ﴾ [٨٦٧]

﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ. إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ. فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ. وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [٨٦٨]

يخرج أنبياء اللَّه تعالى إلى الناس بصفتين اثنتين:

١. رفضهم لأي منفعة أو أجر دنيوي، وأن الأجر والثواب هو من عند اللَّه ﷻ.

٢. كونهم أسوة حسنة للجميع، لمعرفتهم بأن الأجر والثواب هو من عند اللَّه تعالى.

ويشار إلى أهمية كلتا هاتين الصفتين في سورة يس. فيقول فيها حبيب النجار إلى «أصحاب القرية» يحدثهم عن الدعوة ويدعوهم إلى العقل السليم بقوله:

﴿... يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ. اتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ [٨٦٩]

يكمل شعيب عليه السلام نصيحته إلى أهل الأيكة بقوله:

﴿أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ. وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ. وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ. وَاتَّقُوا الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِبِلَّةَ الْأَوَّلِينَ﴾ [٨٧٠]

﴿قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ. وَمَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَإِنْ نَظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ. فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِنَ السَّمَاءِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [٨٧١]

٨٦٦. الشعراء: ١٧٦.

٨٦٧. الحجر: ٧٩.

٨٦٨. الشعراء: ١٧٧-١٨٠.

٨٦٩. يس: ٢٠-٢١.

٨٧٠. الشعراء: ١٨١-١٨٤.

٨٧١. الشعراء: ١٨٥-١٨٧.

عذاب من السماء: نار حامية

وأمام جرأة القوم على طلب العذاب من اللَّه تعالى:

﴿قَالَ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [٨٧٢]

فدعا اللَّه سبحانه وتعالى. وناجاه ليحل العذاب الذي طالب به القوم. فبدأت الرياح الساخنة تهب فجأة. وظهر ذباب أزرق اللون وسلط عليهم. فأصبح الكفار لا حيلة لهم. وازدادت حرارة الجو شيئاً فشيئاً. فبدأ الناس يهربون إلى الأماكن القريبة من المياه الجارية، والأشجار، والظل. ولكن حرارة الجو كانت تزداد يوماً بعد يوم. وفي هذه الأثناء، قام جبريل عليه السلام بإمساك غيمة خارج المدينة. فلما رأى الكفار هذا الغيم ظنوا أنه مكان رطب الجو فخرجوا جميعاً إلى هناك. وعندما اجتمعوا جميعاً سمعوا صوت نداء يقول لهم:

«يا أيها الأيكيون! ظننتم بتكذيبكم نبيكم أن العذاب لا يأتينكم أبداً! فلتكلموا أصنامكم التي تسجدون لها أيضاً، إن كان لها قوة، فلتأت لتخلصكم!».

وبدأت الحجارة والنار تنهمر على الكافرين من الغيم الذي تجمعوا تحته. فاحترق كل ما يعود إليهم من ملك. بل وحتى الشجر والحجر...

تروي الآيات القرآنية:

﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ. إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ. وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ [٨٧٣]

إذن، من الأقوام الذين أرسل إليهم نبي اللَّه شعيب عليه السلام، هلك قوم مدين بصيحة جبريل والزلزلة؛ وهلك أصحاب الأيكة بالنار والحجارة التي انهمرت عليهم من الغيم الذي ظنوا بأنه ظل لهم.

---

٨٧٢. الشعراء: ١٨٨.

٨٧٣. الشعراء: ١٨٩-١٩١.

بعد الهلاك

بعد هلاك من عصى من الشعبين، سكن شعيب عليه السلام في مدين. وتزوج وأصبح والداً لابنتين.

ويلقب شعيب عليه السلام بين الأنبياء بلقب: «خطيب الأنبياء». لأنه كان يحدث قومه بأجمل الكلام، ويجيب على أسئلتهم بشكل كامل ومقنع.

وكان شعيب عليه السلام كثير الصلاة، ويولي الكثير من اهتمامه لحقوق العباد. وكان يفعل كل ما في وسعه ليعدل باستخدامه أدوات الكيل والميزان، ويظهر دقة كبيرة في تتبع الحق وتعليمه للناس.

ومن خصائصه أيضاً أنه كان نبياً كثير البكاء. فضعفت عيناه عند هرمه بشكل كبير، وخارت قوى جسده.

ويروى أنه بكى مرات عديدة لدرجة كاد يفقد بها بصره كما يقال. فكان اللَّه تعالى يشفي بصره ويقول له من خلال الوحي:

«يا شعيب! ما سبب بكائك؟ هل هو شوق للجنة، أم مخافة من النار؟»

فيجيبه شعيب عليه السلام:

« يا ربي! إنك لتعلم أن بكائي هذا ليس شوقاً إلى الجنة ولا خوفاً من النار. محبتك عمرت في قلبي. ويشتد قلقي لفكرة: «أن أتمكن من رؤية جمالك!..» فإن تمكنت من رؤيتك فلا شيء بعد ذلك عندي...».

فيوحي إليه اللَّه بقوله:

« ما دمت صادقاً في قولك فرؤية جمالي مباركة لك يا شعيب! ولهذا السبب أقدم إليك كليمي موسى بن عمران ليعمل على خدمتك!».

هذه هي حال القريب من اللَّه. فهم بعكس أهل الغفلة يفكرون قبل كل شيء في رضى اللَّه سبحانه وتعالى فيجعلونها في مقدمة اهتماماتهم ويؤخرون مرضاة الناس لتكون من آخر اهتماماتهم. وتعمر قلوبهم محبة اللَّه تعالى فلا يهتمون بما في الدنيا ولا يبالون بما فيها.

يرسل اللَّه سبحانه وتعالى أنبياءه لتوعية فلوب الناس بعيداً عن الغفلة، وتعليمهم الأخلاق الحميدة، وحثهم على العبادة بإخلاص وصولاً إلى محبة اللَّه تعالى، ودعوة لهم إلى «دار السلام».

ومن كان قلبه مهيأً للصحوة، فإنه يتجه بكل تصميم نحو التربية والإرشاد، ويعمل كل ما في وسعه للتقدم في سبيل الحق. أما من كان بعيداً عن هذه الرغبة، فإنه يتكبر ويعاند، ولا يستمع إلى إرشادات الأنبياء والرسل، فيكونون ممن لا يصل إلى مرتبة اليقين، فيفسقون ويظلمون وتقسى قلوبهم. ويكونون كمن لا يهتدي طريقه في حالة محزنة من العجز والضياع.

ولهذا، عمل شعيب عليه السلام طيلة حياته، بما أعطاه اللَّه من قوة ورحمة، بكل غيرة وإرادة وتصميم على إنقاذ الناس مما هم عليه من حال تألم له القلوب. وضحى في سبيل ذلك بكل ما أوتي من قوة.

❁

وبعد ما أصاب قوم مدين والأيكة ما أصابهم من الهلاك، توجه شعيب عليه السلام ومن آمن معه من الناس إلى مكة ليمضي فيها ما تبقى من عمره وحياته. وتوفي فيها ودفن في الكعبة المعظمة أسفل الأخدود الذهبي، أي دفن في الختيم.

عليه السلام!..

سيدنا شعيب عليه السلام
الجزيرة العربية
ديار ثمود
تيمه
كليبه
تبوك
معان
مدين
البحر الأحمر
مصر

سيدنا
موسى
عليه السلام
و
سيدنا
هارون
عليه السلام

سيدنا موسى عليه السلام
الذي أغرق بمعجزته فرعون الأحمق
في أعماق البحر الأحمر، صاحب العصى
و
سيدنا هارون عليه السلام
ومساعده الصالح أخوه

يعتبر موسى عليه السلام النبي الثالث من الأنبياء أولي العزم. وهو من نسل يعقوب عليه السلام. ونبي بني إسرائيل. وهو أكثر الأنبياء ذكراً في القرآن الكريم. فلقد ذكر اسمه في مختلف الآيات الكريمة في أماكن مختلفة أكثر من ١٣٦ مرة.

وموسى عليه السلام هو أخ لهارون عليه السلام.

كان ريّان بن مالك فرعون مصر في زمن يوسف عليه السلام عندما كان وزيراً لخزينة الدولة رجلاً مؤمناً. ولكن، بعد وفاته خلفه فرعون قابوس. ولكن هذا الرجل لم يكن مؤمناً بيوسف عليه السلام. إلا أن يوسف لم ينزع عنه وظيفته. ومن ثم توالى الفراعنة على عرشِ مصر، ولم يهتموا بحال بني إسرائيل.

بعد يوسف عليه السلام، بقي بنو إسرائيل في مصر. وكانوا مرتبطين ديانة بكل من يوسف ويعقوب وإسحاق وإبراهيم عليهم السلام. أما الأقباط سكان مصر الأقدمين فكانوا من الوثنيين. وكانوا يعبدون الأصنام والنجوم. وكانوا ينظرون إلى بني إسرائيل باحتقار ودونية. وكان فراعنتهم غدارين ظلمة. كما كانوا يقلقون من تكاثر بني إسرائيل. ذلك أن تكاثر بني إسرائيل الذين كان يقال عنهم الأسباط، سيكون سبباً في انتقال الحكم إليهم.

وعندما لم يطق الأقباط تحمل هذا الأمر أكثر من ذلك، قاموا وعلى رأسهم فراعنتهم بتعذيب الأسباط وظلمهم وأذيتهم. فبدأ الصبطيون يتململون من هذا الظلم الواقع بهم،

وتعبوا من هذا الحال. فهم خسروا هنا كل ما كان لديهم من حقوق إجتماعية وسياسية. فقرروا العودة إلى ديار كنعان موطن يعقوب عليه السلام. ولكنهم لم يوفقوا إلى ذلك أبداً. ذلك أن فرعون كان يجبرهم على العمل في أمور شاقة كبناء الأهرامات، ولهذا كان يرفض ذهابهم.

وكانت قبائل بني إسرائيل الإحدى عشرة كل منها تنتسب إلى أحد أبناء يعقوب عليه السلام. وكان فرعون يشغلهم في ظروف صعبة جداً ويبقيهم تحت وطأة الضغط المستمر. وكان يفرض على غير القادرين على العمل منهم ضرائب كبيرة، بحيث يربط أيدي من لا يحضر ضريبته قبل غياب الشمس، ويبقيه على هذه الحالة شهراً كاملاً. تتحدث الآيات الكريمة عن ظلم فرعون بهذا الشكل فتقول:

﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلاَ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ [٨٧٤]

﴿...إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ﴾ [٨٧٥]

أمام هذا الظلم وعصر الإنحطاط، أرسل اللّه عزّ وجلّ موسى عليه السلام:

﴿وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ. وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ﴾ [٨٧٦]

الرؤيا التي افزعت فرعون

يرى فرعون في إحدى الليالي في منامه ناراً تخرج من بيت المقدس تحرق بيوت الأقباط، ولا تضر أحداً من بني إسرائيل. ففسرت له رؤيته بقولهم:

- سيخرج طفل من بني إسرائيل ويهدم لك سلطنتك!.

ولهذا، يأمر فرعون بقتل كل طفل ذكر يولد لبني إسرائيل.

---

٨٧٤. القصص: ٤.

٨٧٥. القصص: ٨.

٨٧٦. القصص: ٥-٦.

فتصنع آلات من القصب؛ ويدخلونها إلى بطون الحوامل من نساء بني إسرائيل لتعجيل ولادتهن بكل أذى وتعذيب. فإن كان المولود ذكراً قتل من فوره.

ويقال أن السبب الآخر الذي دفع فرعون لارتكاب مثل هذا العمل السيء والقبيح هو:

كان بنو إسرائيل يتحدثون فيما بينهم عن ولد من نسل إبراهيم عليه السلام سيولد ويكون سبباً في هلاك ملك مصر «فرعون». وَعَزوا سبب هذا الأمر إلى الحادثة التي حصلت بين سيدتنا سارة زوجة إبراهيم عليه السلام وفرعون. لأن فرعون أراد أن يسيء إليها ولكنها نجت بحماية اللَّه تعالى. ولهذا أراد اللَّه تعالى أن يأتي من بني إبراهيم عليه السلام ونسله من ينقذ بني إسرائيل من ظلم هؤلاء الفراعنة.

وأصبحت هذه البشرى منتشرة بين أبناء بني إسرائيل. بل وبدأ الأقباط أنفسهم يتناقلون هذه الرواية. وعندما وصل هذا الخبر إلى فرعون، جمع رجاله واتفقوا على قتل كل ولد ذكر يلد لبني إسرائيل. وكان قصده منع أي ولد من أبناء إسرائيل من النمو ليهلكه. ولكن هذه الخطة لم تكن لتقف أمام مشيئة اللَّه سبحانه.

وفي هذه الأثناء، يلد لعمران أحد الرجال من نسل يعقوب عليه السلام سيدنا موسى عليه السلام. وكانت إحدى القابلات من أقارب موسى عليه السلام. ورأت نوراً مشعاً على جبينه عند ولادته. فدهشت واستغربت الأمر.

وبعد أن خرجت القابلات بعد انتهاء الولادة، دخل رجال فرعون إلى الدار. فتقوم أمه على عجلة وقلق بوضع موسى عليه السلام في الموقد. وعند خروج العساكر تقوم مسرعة بفتح الموقد فتجد موسى عليه السلام آمناً كما كان إبراهيم عليه عليه السلام آمناً داخل النار. فتأخذه إلى صدرها وتفرح فرحاً كبيراً وتشكر اللَّه تعالى على ذلك. ومن ثم يلهمها اللَّه تعالى أن ترضعه إلى أن تحس بالخطر فتلقيه في نهر النيل، وبأن لا تحزن لأنه سيرجع إليها ويكون نبياً كبيراً. تروي الآية القرآنية هذه البشرى بقوله تعالى:

﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلاَ تَخَافِي وَلاَ تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [٨٧٧]

٨٧٧. القصص: ٧.

فتذهب أم موسى مسرعة إلى أحد النجارين وتصنع لولدها صندوقاً، فتضع سيدنا موسى عليه السلام فيه وتلقيه بعد ذلك في نهر النيل.

ويتنبه النجار لهذا الأمر فيسرع إلى فرعون ساعياً إلى إفشاء هذا السر. ولكن لسانه يعجز عن النطق فلم يستطع الحديث إليه بشيء. فطرده رجال فرعون في نهاية الأمر.

ويدخل هذا الصندوق عبر نهر النيل إلى حديقة القصر. فتأخذه الجواري وتسلمه لسيدتنا آسيا.

سيدنا موسى عليه السلام في قصر فرعون

وتكون آسيا بنت مزاحم زوجة فرعون هي امرأة من نسل ملك مصر زمن يوسف عليه السلام الريان بن الوليد. وعندما أحضر إليها موسى عليه السلام داخل هذا الصندوق، دخل حبه إلى قلبها بشكل كبير. فكان الطفل جميلاً جداً. فأخذته إلى صدرها تضمه إليها. ومن ثم أحضرته إلى جانب فرعون وقالت:

- فليكن ولدنا، فيكون في المستقبل عوناً لنا، ويحمينا! فلا تزهق روحه! فهو يعتبر ولداً جميلاً لكلينا!.

وحاولت أن تقنعه بمثل هذا الكلام الجميل إلى أن وفقت إلى ذلك.

﴿وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ لاَ تَقْتُلُوهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ﴾ [٨٧٨]

وبدأ من في القصر يبحث عن مرضعة لموسى عليه السلام. ولكن هذا الطفل أبى أن ترضعه أي أم كانت. وتخبر اخت موسى عليه السلام مريم من في القصر أن والدتها قد تتمكن من إرضاع هذا الطفل. وذلك لأن امها قالت لها:

﴿وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِ عَنْ جُنُبٍ وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ. وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ﴾ [٨٧٩]

٨٧٨. القصص: ٩.

٨٧٩. القصص: ١١-١٢.

فيقبل العرض الذي أتتهم به أخته:

﴿فَرَدَدْنَاهُ إِلَى أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلاَ تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ [٨٨٠]

ولكن والدة موسى عليه السلام لم تقبل مباشرة عرض آسيا لها بأن ترضع موسى عليه السلام، وذلك لكي لا يشتبه أحد بها أن تكون والدته. ولأنها كانت تعلم أن الوعد الذي ذكر في الآية الكريمة لا بد له وأن يتحقق:

«لدي ولد آخر يدعى هارون! [٨٨١] فإن قبلتم بذلك أرضعته؛ وإلا فلا أرضعه لكم!».

وهكذا لم يفطن أحد إلى أنها والدته عليه السلام. وأرضعت موسى عليه السلام حليبها لقاء أجر من المال.

وكان فرعون وامرأته يعتقدان أنهما بتربية موسى عليه السلام بين أحضانهما سيكون سبباً كافياً لأن يربى على الطريقة التي يشاؤون. ولكن حياة الإنسان مرتبطة عادة بأمرين اثنين: الوراثة والتربية... فيكون الإنسان عادة إما تحت تأثير الوراثة وأحياناً أخرى تحت تأثير التربية أو يكون تحت تأثيرهما معاً. ولهذا يتحدث القرآن الكريم عن هذه الحقيقة فيقول بأسولب دقيق «وهم لا يشعرون».

ويروى أن فرعون كان قد قتل قرابة ٩٨٠,٠٠٠ طفلاً برئياً بهدف إيجاد موسى عليه السلام. فكانت حكمة اللَّه تعالى أن جعل موسى عليه السلام في قصر فرعون نفسه يتربى تحت حمايته، ليأتي اليوم الذي سيقض فيه عرشه وسلطنته بكلمة الحق. لأن الأنبياء هم دائماً في رعاية اللَّه ﷻ يتربون تربية خاصة بعنايته. علماً أن رسول اللَّه ﷺ يحدثنا فيقول:

«أدبني ربي فأحسن تأديبي» [٨٨٢]

وبدأت والدة موسى عليه السلام ترضع ابنها موسى في قصر فرعون. ولكن الوزير هامان اشتبه بهذه الحالة فقال سائلاً:

---

٨٨٠. القصص: ١٣.

٨٨١. كان فرعون يستخدم بني إسرائيل كالعبيد له يستفيد منهم في الأعمالالشاقة، ولهذا، كان يقوم بقتل أطفالهم عاماً ويدعهم عاماً. وهارون u ولد في ذلك العام الذي لا يقتل فيه الأطفال.

٨٨٢. السيوطي، الجامع الصغير، ١، ١٢٦٢.

«هل هذا ابنك؟! فهو لم يرض أن ترضعه أي أم أخرى، ولم يرض إلا بحليبك أنت!»

فأجابته أم موسى عليه السلام مقنعة له بقولها:

«لا أدري ما السبب، لكن كل الأطفال تحبني، وأنا احبهم جميعاً»

وبالنتيجة، خصص لها معاشها، وبقيت تحت رعايتهم. وهو لطف من اللَّه سبحانه وتعالى بها.

يقول اللَّه تعالى في القرآن الكريم:

﴿...إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلاَ أَنْ رَبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [٨٨٣]

وكانت سيدتنا آسيا كلما اشتاقت لموسى عليه السلام تدعوه ووالدته إلى القصر وتغدق عليه بالهدايا. وفي يوم من الأيام، يؤتى بموسى عليه السلام إلى غرفة فرعون. فيحتضنه فرعون. فيقوم موسى عليه السلام بشد لحيته بقوة؛ يقتطع بها شعراً منها، ويلكمه على وجهه ويلتقط السوط من يد فرعون ويضربه بها. فيغضب فرعون ويقول:

«هذا هو عدوي الذي كنت أنشد» ويقرر قتل موسى عليه السلام.

فتسرع سيدتنا آسيا لتقول:

«إنه طفل! لا إدراك له... فإن شئت امتحناه. فلنضع في طبق ياقوتاً وفي الآخر جمرة. فإن أخذ موسى الياقوتة فهو ذكي؛ وإن أخذ الجمرة فهو طفل!».

يرضى فرعون بهذا الرأي. ويؤتى بطبقين أحدهما جمر والآخر ياقوت، ويوضع كلا الطبقين في متناول يد موسى عليه السلام. وبينما يحاول موسى مد يده نحو طبق الياقوت، يأتي جبريل عليه السلام بأمر من اللَّه تعالى فيحول يد موسى عن ذلك الطبق. فيأخذ موسى جمرة من الطبق الآخر ويضعها في فمه. فيحترق لسانه ويصبح صاحب لثغة في كلامه. وتستمر هذه اللثغة إلى يوم جبل الطور في اليوم الذي دعا ربه فيه.

وعندما يرى فرعون هذا الأمر يقول:

« نعم، فعل ذلك ببراءة الطفولة!»

وعفا عن موسى. وأعاده إلى حماية القصر.

---

٨٨٣. القصص: ١٠.

يروي محيي الدين ابن العربي -رحمه اللَّه- في كتابه فصوص الحكم فيقول:

«يقتل فرعون ٩٨٠,٠٠٠ في محاولة لمنع ظهور موسى عليه السلام. يقتل جميع هؤلاء الأطفال ليكونوا مدداً في حياة موسى عليه السلام وتقوية لروحانيته. ذلك أن فرعون وعائلته لم يكونوا يعرفون موسى عليه السلام ولكن اللَّه يعرفه. ولهذا كانت حياة كل من هؤلاء الأطفال هي حياة لموسى عليه السلام. وهذه هي الغاية من ذلك».

❁

ويحبب اللَّه سبحانه وتعالى الناس جميعاً بموسى عليه السلام:

﴿...وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي﴾ [٨٨٤]

وبسبب هذا اللطف الإلهي، كانت المودة تتولد في أفئدة كل من يرى موسى عليه السلام من الناس فيحبونه. وأخيراً، أعطاه اللَّه سبحانه وتعالى النبوة:

﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ [٨٨٥]

وكلمة »اَشُدَّهُ «المذكورة في الآية الكريمة تأتي بمعنى كمال موسى عليه السلام من الناحية الجسدية والروحانية معاً، وهو ما يعرف عند رأي الأكثرية بأنه سن الأربعين. فأعطاه اللَّه سبحانه وتعالى «الحكم» و«العلم» عندما وصل إلى هذه السن. وكلمة «الحكم» المذكورة في الآية تأتي بمعنى «الحكمة»، وتفسر في معظم التفاسير بأنها «النبوة».

ومن ثم يبدأ موسى عليه السلام بتبليغ دعوته ويبين بطلان وسوء دين فرعون.

مقتل القبطي

كان لفرعون خبازٌ ماهرٌ ظالمٌ من الأقباط يدعى فاطون. وكان هذا الخباز يوماً يضرب رجلاً من الأسباط يدعى سامري. فطلب السامري المعونة من موسى عليه السلام. فدخل موسى بينهما محاولاً أن يفصل بينهما؛ فوكز فاطون ودفعه. وأمام هذا التدخل البسيط وقع فاطون على الأرض وخر ميتاً.

فحزن موسى عليه السلام كثيراً لهذا الأمر. فلم يكن عنده أدنى نية في قتل فاطون. وما أراد إلا أن يحمي السامري. فالتجأ إلى اللَّه تعالى بكل حزن طالباً منه المغفرة.

٨٨٤. طهك ٣٩.

٨٨٥. القصص: ١٤.

يخبر اللَّه تعالى عن هذه الحادثة في الآية الكريمة فيقول:

﴿وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينِ غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَذَا مِنْ شِيعَتِهِ وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ﴾ [٨٨٦]

ولكون موسى عليه السلام كان قد بدأ عملية التبليغ والدعوة للناس إلى حقيقة التوحيد في كل مكان، كان أقباط فرعون قد اتخذوا جبهة وصفاً ضده. ولهذا دخل عليه السلام إلى المدينة في وقت متأخر بعد أن دخل الناس إلى منازلهم. وقوله «هذا من عمل الشيطان!» هو إنما لكونه عمل لم يشأ له موسى عليه السلام الحصول، وإنما وكأنه إشارة إلى استحقاق المقتول لعقوبة الموت إشارة إلى ذنوبه. وإضافة إلى ذلك، ولكونه لم يؤمر بقتل هذا الرجل، فإن قول موسى عليه السلام هذا هو ربما إشارة أيضاً إلى الفعل الذي ارتكبه. ولكنه لم يكن يخطط لهذه النتيجة. ولهذا، وعندما تعرض لهذا الموقف والنتيجة التي لم يكن يفكر فيها قال:

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ. قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِلْمُجْرِمِينَ﴾ [٨٨٧]

في هذه الأثناء، توجه الأقباط إلى فرعون يشكون مقتل هذا القبطي ويطالبونه بإيجاد قاتله. فطلب فرعون شاهداً يشهد بمن قتله. ولكنهم لم يتمكنوا من إحضار أي شاهد. ولهذا، خرج فرعون إلى خارج المدينة ليبحث عن هذا القاتل.

في اليوم التالي، يشاهد موسى عليه السلام نفس السبطي يتشاجر مع قبطي آخر مرة أخرى. فيطلب السبطي المعونة من موسى للمرة الثانية. فيقول له موسى:

«لقد ظلمت نفسي بسببك!»

فما كان القبطي الذي كان في هذا الموقف يستمع إلى قول موسى إلا أن أسرع إلى فرعون ليشتكي موسى ويقول:

---

٨٨٦. القصص: ١٥.

٨٨٧. القصص: ١٦-١٧.

«إن موسى هو من قتل فاطون خبازكم!»

فيأخذ فرعون قراراً بالقصاص[٨٨٨]. فيسرع ابن عم فرعون إلى موسى سراً ليخبره بما كان. لأنه كان من الذين آمنوا له عليه السلام.

ويحدثنا رب العزة والجلالة عن حال موسى عليه السلام بعد أن قتل ذلك القبطي وطلب الغفران منه تعالى بهذا الشكل فيقول في الآيات الكريمة:

﴿فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا الَّذِي اسْتَنْصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ قَالَ لَهُ مُوسَى إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُبِينٌ. فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَنْ يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَهُمَا قَالَ يَا مُوسَى أَتُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ إِنْ تُرِيدُ إِلاَّ أَنْ تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ﴾ [٨٨٩]

وفي هذه الأثناء جاء رجل ينبه موسى عليه السلام من المؤامرة عليه:

﴿وَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَى قَالَ يَا مُوسَى إِنَّ الْمَلأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ. فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [٨٩٠]

وبتصرفه بهذا الشكل، يظهر لنا موسى عليه السلام بنفس الوقت كيفية وجوب التوكل بشكل حقيقي.

فهي أولاً الاستشارة، ومن ثم العزم «أي القرار»، ومن ثم التدبير «أي التنفيذ» وأخيراً ترك النتيجة لله سبحانه وتعالى «بالدعاء والرضى». هذا هو التوكل!..

---

٨٨٨. بحسب ما يبينه فخر الدين الرازي، فإن موسى عليه السلام لم يقصد قتل هذا القبطي. ومن ناحية أخرى كان القبطي مشركاً. ولهذا لم يكن واجباً عليه القصاص. ومن ناحية أخرى، لكون هذه الحادثة هي حادثة قد تمت بشكل غير مقصود فإنها لا توجب القصاص أيضاً.

٨٨٩. القصص: ١٨-١٩.

٨٩٠. القصص: ٢٠-٢١.

من مصر إلى مدين

ودون أي إضاعة للوقت، ينطلق موسى عليه السلام باتجاه مدين. وفي واقع الأمر، كانت تلك هي المرة الأولى التي يخرج فيها موسى خارج المدينة وهو بالتالي لا يعرف إلى أين سيتجه. بل إنه لم يحمل معه ما يقتات به في هذه الطريق. فأرسل اللَّه تعالى إليه جبريل عليه السلام يدله إلى طريق مدين. وكانت مدين في ذلك الزمن تبعد مسافة ثمانية أيام عن مصر.

﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَى رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ [٨٩١]

يروى أنه كانت هناك صلة من القرابة بين أهل مدين وموسى عليه السلام. علماً أن كلاً من موسى عليه السلام وأهل مدين هم جميعاً من نسل إبراهيم عليه السلام. بل إن مدين هو اسم لأحد أبناء إبراهيم عليه السلام وهي مكان لم يكن يخضع لسلطة الفراعنة.

وأخيراً، يصل موسى عليه السلام إلى مدين. وكان أهل المدينة يخرجون قطعانهم إلى خارج قلعة مدين. وكان على مقربة من المكان الذي وقف فيه موسى عليه السلام بئرٌ للماء. وكانت القطعان التي تخرج من القلعة تتجه إلى ذلك البئر. ولم تمض مدة بسيطة إلا والتف الجميع حول أطراف البئر كل يسقي لقطيعه. وتنبه موسى عليه السلام إلى امرأتين تنتظران بقطيعهما بعيداً وتحاولان أن لا يختلط قطيعهما بهذا الجمع. فذهب إليهما يسأل:

– ما الذي تنتظرانه؟ ولماذا لا تسقيان قطيعكما؟

فتجيبه السيدتان:

– لا نستطيع سقاية قطيعنا قبل أن يذهب الرعاة!.

فيسأل موسى مجدداً:

– أليس لكما من أحد؟

فيجيبانه:

– إن أبانا شيخ كبير لا حيلة له. ولهذا نحن من يقوم برعاية وسقاية هذا القطيع. ولأننا لا نريد أن نختلط بالرجال فإننا ننتظر بعيداً على هذا الشكل إلى أن يذهبوا فنسقي قطيعنا. ولكن، ولأنهم هم أول من يسقي فإنه في بعض الأحيان ينتهي الماء قبل أن يصل الدور إلينا ويبقى قطيعنا بغير سقاية!.

٨٩١. القصص: ٢٢.

يقول تعالى في الآية الكريمة:

﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لاَ نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ﴾ [٨٩٢]

هاتان الفتاتان هما ابنتا شعيب عليه السلام وهما سفورة وسفيرة.

وعلى الرغم من الأيام الثمانية التي قضاها موسى عليه السلام جائعاً عطشاً، سحب الماء من هذه البئر وسقى قطيع سفورة وسفيرة. فشكرته السيدتان وذهبتا.

﴿فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ [٨٩٣]

وكان موسى عليه السلام جائعاً منذ أيام عدة لم يتناول شيئاً من الطعام. فكان يدعو اللَّه في هذه الكلمات يرجوه أن يحسن إليه.

وقوله في الآية الثانية «إني لما أنزلت إلي من خير فقير!» هو أيضاً تفسير لمعنى الآية. فهو يشير بذلك إلى الوظائف الكثيرة التي أودعت إليه وإشارة إلى فقره الذي آل إليه في هذه الدنيا. فهو الذي كان في جوار فرعون ينعم بالخير الكثير. ولكن هذه الأقوال لم تكن شكوى، وإنما هي شكر لله تعالى على ما من عليه من سلامة ومناجاة له سبحانه ليذهب ما به من الجوع.

وعندما يرى شعيب عليه السلام عودة بنتيه بشكل مبكر من سقاية القطيع يتعجب لذلك الأمر، ويسألهما عن سبب ذلك. فتخبره ابنتاهُ بأن رجلاً صالحاً لم يشاهدانه في البلدة من قبل أتى إليهما وقدم لهما المساعدة.

شعيب عليه السلام يدعو موسى عليه السلام إلى جواره

يدعو شعيب عليه السلام موسى عليه السلام إلى جواره ويسأله عمن يكون. فيجيبه موسى عليه السلام بقوله:

– أنا موسى بن عمران من نسل يعقوب عليه السلام». وأخبره بما حدث معه من أمور.

فيقول له شعيب عليه السلام:

– لا تخف! فهنا لا تنفذ أحكام فرعون!.

٨٩٢. القصص: ٢٣.

٨٩٣. القصص: ٢٤.

تقول الآية الكريمة:

﴿فَجَاءَتْهُ إِحْدىٰهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لاَ تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [٨٩٤]

ويقدم شعيب عليه السلام الطعام إليه. وعلى الرغم مما كان عليه من الجوع إلا أن سيدنا موسى عليه السلام كان متردداً من تناول هذا الطعام. فيسأله شعيب عليه السلام عن سبب ذلك. فيقول له موسى عليه السلام:

– نحن عائلة لو أعطيت لنا الدنيا بما فيها لا نغيرها بعمل واحد من أعمال الآخرة! فأنا لم أقدم مساعدتي طلباً لهذا الطعام، بل طلباً لمرضاة اللَّه سبحانه.

فَيُسَر شعيب عليه السلام لهذا الرد ويقول:

– طعامنا هذا ليس جواباً منا على مساعدتك بل؛ هو لأنك من ضيوفنا؛ هيا فكل!.

وهكذا، تناول موسى عليه السلام طعامه بعد كل هذا التعب والجوع، ومن ثم اعتكف للإستراحة.

وتوصي سفورة أباها باستئجار هذا الرجل فتقول:

﴿قَالَتْ إِحْدىٰهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ﴾ [٨٩٥]

وتضيف:

– إن هذه الصفات موجودة في هذا الرجل. لأنه لم ينظر حتى إلى وجهينا. وكان يسير في طريقه بعيداً عنا. وهو ما يدل على أنه رجل أمين جداً!.

وهنا نجد أن هذا الحديث قد أوضح بشكل مختصر وجميل جداً ما يجب علينا أن نطلبه من الخصائص فيمن نرغب بتوظيفه:

١. **اللياقة:** أن يكون على دراية بالعمل، ويملك القوة لتنفيذه.

٢. **الأمانة:** أن يكون موثوقاً وصحيحاً.

❁

٨٩٤. القصص: ٢٥.

٨٩٥. القصص: ٢٦.

بحسب الرواية المذكورة في كتاب عرائس المجالس:

«المتميزات في فراستهن من النساء اثنتان. فكلاهما أصابتا في تشخيصهما حول موسى عليه السلام بفراستهما:

الأولى كانت آسيا زوجة فرعون؛ فهي التي مال قلبها إلى موسى عليه السلام عندما أتى إلى القصر في الصندوق فحملته إلى فرعون وقالت: فليكن قرة عين لي ولك، فلا تقتله!.

والثانية كانت ابنة شعيب عليه السلام: فهي التي قالت يا أبت، استأجره ليرعى لنا أغنامنا. فهو خير من استأجرت، قوي وأمين!».

الفراسة؛ هي الاستنتاج الناجح الذي يأتي لدى الصالحين من المؤمنين، وحالة الكشف لديهم. أي، أن الفراسة التي تعني الذكاء والتفكير والاستنتاج هي قابلية الادراك المعنوي لما يحدث في القلب.

يرى عثمان بن عفان رضي الله عنه رجلاً مالت عينه إلى الحرام فيقول له:

– غض بصرك عن الحرام!

فيقول له الرجل:

– يا أمير المؤمنين، وما أدراك أنني أنظر إلى الحرام؟.

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، قال: قال رسول اللَّه صلى الله عليه وسلم:

«اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله...!» [٨٩٦]

وأيضاً، يرى أبو حنيفة شاباً يتوضأ فيقول له:

– لا تقم بهذا الخطأ وهذا!

فيلتفت الشاب إلى الإمام أبي حنيفة ويقول:

– يا إمام! كيف عرفت أنني أقوم بهذه الأخطاء؟

فأجابه الإمام أبو حنيفة:

– من قطرات ماء الوضوء المتساقطة!.

٨٩٦. الترمذي، التفسير، ١٥/ ٣١٢٧.

وكانت كل من سيدتنا خديجة وعائشة وفاطمة رضي اللَّه عنهن جميعاً من أمهاتنا ذات الفراسة دائماً.

فكانت سيدتنا خديجة من فدت مالها وروحها في سبيل رسول اللَّه ﷺ وأول من حظي بشرف الإيمان به في الدنيا. وكانت سيدتنا عائشة ﵂ تمتلك قوة فهم رسول اللَّه، وقابلية حفظ ما يقوله ﷺ، وصاحبة مشاعر وحس عميق يمثل أخلاق النبوة. أما سيدتنا فاطمة فكانت تعكس رحمة أبيها، وصاحبة حال من التقوى والشفقة. وهكذا، وعلى الرغم من الصفات المشتركة لهن جميعاً، فقد كانت لكل واحدة منهن أحوال متميزة ومختلفة تميز كلّاً منهن عن الأخرى.

ومن شروط الفراسة أن يكون الرزق حلالاً وأن يكون القلب منكشفاً على الحياة.

يقول الواسطي -رحمه اللَّه-:

«الفراسة هي انعاس لشعاع النور في القلب. وهي المعرفة التي تسكن القلب، -أي معرفة اللَّه تعالى قلباً، وإدراكه قلباً والتقرب إليه-. وعبر هذه المعرفة تصبح أسرار الغيب مكشوفة عياناً...».

ويعبر مولانا جلال الدين الرومي -رحمه اللَّه- في كتابه المثنويُّ عن سر المعرفة بقوله:

«على الرغم من نجاحه في تسيير الأمور الدنيوية، إلا أن القلب بضرورة ماهيته، يبقى عاجزاً عن الوصول إلى الحقيقة، والأسرار الإلهية، أي عاجزاً عن الوصول إلى معرفة اللَّه. وللتوصل إلى هذه الرحلة العلوية فإنه يحتاج إلى وسيلة. وهي الوجدان، العشق والوجد والاستدراك. قليكن العقل فداءً للمصطفى!».

ويسأل أحد الشباب عبد الخالق كجدواني، أحد أولياء اللّه الصالحين، بقوله:

- ما هو سر الحديث: «**اتقوا فراسة المؤمن! فإنه ينظر بنور اللَّه...!**»

فيجيبه عبد الخالق الغجدواني بقوله:

- أخرِجْ الحزامَالذي في وسطِك! «أي إنزع عنك علامة الكفر التي يعلقها المسيحيون!» وأسلم!...

وأمام هذه الكرامة المليئة بالفراسة، يقف هذا الشاب أمامه ناطقاً بالشهادة ويسلم.

وهنا، يلتفت الإمام إلكجدواني إلى إخوانه ويقول:

« ولنخرج نحن أيضاً الحزام الذي نضعه على قلوبنا!»

وحزام القلب هو الكبر والغرور والحسد والبخل والغيرة وغيرها من الأمور التي تدخل القلب من الأخلاق السيئة.

زواج سيدنا موسى عليه السلام بسفورة

يعجب شعيب عليه السلام بموسى عليه السلام كثيراً. ويرغب بأن يبقيه إلى جواره. ففكر بحل. وأخيراً عرض عليه أن يزوجه ابنته سفورة. وعندما سأل موسى عليه السلام عن كيفية حصول ذلك، أخبره شعيب عليه السلام بأن عليه أن يعمل لديه ثماني سنوات متتالية يهتم فيها بغنمه وعندها سيزوجه ابنته. وأخبره بأن من الأفضل أن يمد بهذه السنوات لتصبح عشراً. وهدفه من ذلك هو إبقاء موسى عليه السلام بجواره أكبر فترة ممكنة. ويروي القرآن الكريم تفاصيل هذا الحوار بقوله تعالى:

﴿قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنْكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ. قَالَ ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾ [٨٩٧]

تتحدث هذه الآيات الكريمة وتلفت الإنتباه إلى شأن إجتماعي نتعرض له كثيراً في حياتنا الاجتماعية. فعلى الرغم من أن هذا الحوار هو بين أكثر الخلق ثقة بين الناس لكونهما نبيين من أنبياء اللَّه، إلا أنهما وعند اتفاقهما على شأن ما، تداورا بينهما ما يمكن أن يتعرضا له من أمور محتملة في بداية الأمر بشكل مفصل ومن ثم توصلا معاً إلى القرار.

وفي نهاية الأمر توكلا على اللَّه تعالى وأشهداه على ما كان بينهما من اتفاق.

وبالفعل، بدأ موسى عليه السلام بوظيفته فكان يرعى قطيع شعيب عليه السلام كما كان بينهما من اتفاق.

---

٨٩٧. القصص: ٢٧-٢٨.

ويروى أن موسى عليه السلام عند رعايته للغنم لم يكن يضرب أي منها بعصا ولم يؤذ أحداً منها ولم يترك أحداً منها على جوع. وأرسله اللَّه تعالى نبياً إلى بني إسرائيل، وتكلم إليه. ومن بعد النبوة أيضاً أكمل موسى عليه السلام رعايته للغنم، وحفظ أمته من الكثير من الأذى.

إن من لا يتعامل بشفقة ولا رحمةٍ مع خلق اللَّه عز وجل، لا يمكن له أن يكون قريباً من اللَّه. ومن أعز خلق اللَّه وعاملهم بشفقة ورحمة، نال الرفعة والدرجات العليا التي لا ينالها إلا أهل الحق.

ورعاية الغنم هي من الأعمال الأكثر شهرة بين أنبياء اللَّه الذين عمل معظمهم بها في فترة من فترات حياتهم.

وقد يكون هذا الأمر لمشيئة من اللَّه تعالى بأن يعلمهم حس المسؤولية الضرورية في الإدارة، والشعور بضرورة تأدية حق هذه الوظيفة، وبعض الخصائص المهمة مثل الشفقة والرحمة.

ويلهم اللَّه تعالى موسى عليه السلام بأن يضرب بعصاه الأرض كلما أراد أن يسقي الغنم فيخرج الماء من الأرض إلى أن يشرب كل هذا القطيع. ولهذا، وأمام هذا اللطف الإلهي، لم يكن موسى عليه السلام يواجه صعوبة في سقاية الغنم.

وأخيراً، يكمل موسى عليه السلام سنواته الثمانية من العمل في رعاية الغنم. فيقوم سيدنا شعيب عليه السلام بهدية القطيع إلى موسى وابنته.

ولكن موسى عليه السلام يكمل خدمته إلى أن يتمها بالسنة العاشرة. وكانت الغنم تلد كل سنة عدداً قليلاً من الغنم المبرقع الأكثر قبولاً. أما في هذه السنة العاشرة ولدت جميع هذه الأغنام توائم وكانت جميعها مبرقعة. فيقول شعيب عليه السلام:

«هذا إكرام من اللَّه تعالى إلى عائلة موسى!».

عصا موسى عليه السلام

كان لموسى عليه السلام عصا في يده يستخدمها لحماية قطيعه من الحيوانات المفترسة. وكان أحد أطرافها مالساً ليمسك به والطرف الأخر محدب مسنون.

وهناك روايات مختلفة عن المكان الذي أتت منه هذه العصا.

فبحسب إحدى الروايات، فإنه قد تم تناقلها من آدم عليه السلام وصولاً إلى شعيب عليه السلام. ومن ثم قدمها شعيب عليه السلام لموسى ليهش بها على غنمه.

وكان المكان الذي يقيمون فيه متوسطاً الجبل من ناحية اليمين، والسهل من ناحية الشمال. وكانت المنطقة الجبلية مسكناً للحيوانات المفترسة وكان بإمكانها تقطيع الغنم. ولهذا، لم يكن موسى عليه السلام يدع عصاه من يده أبداً. ولقد كانت هذه العصا وسيلة للعديد من المعجزات الخاصة بموسى عليه السلام. وكأن هذه المعجزات الصغيرة كانت تحضيراً لما سيكون معها من معجزة كبرى.

العودة من مدين إلى مصر ووادي طوى

بعد أن قضى موسى عليه السلام سنواته العشر في خدمة شعيب عليه السلام، استأذنه بالعودة مع زوجته سفورة إلى مصر. فأخذ قطيعه معه وانطلق مع أهله في موسم الشتاء عائداً إلى مصر. وكان هدف موسى هو أن يذهب للقاء أخيه هارون فيخرجه من مصر المكان الذي كان مرتعاً يظلم فيه بنو إسرائيل.

وبينما هم في الطريق، هبت عاصفة ممطرة شديدة. وكان ذلك يوماً من ايام الشتاء. وكان كل شيء معتماً كسواد الزفت. فالتجؤا إلى وادي الطور المبارك لقضاء الليل فيه.

ودخلوا إحدى المغارات فيه. وكانت امرأة موسى عليه السلام حاملاً وعلى وشك الولادة. ولهذا، كانوا بأشد الحاجة إلى الضوء والنار في هذه الليلة المظلمة، الباردة والممطرة. وكان موسى يحاول إشعال النار فلا تشتعل.

وبينما هو على هذه الحال، إذ به يرى ضوءاً يشع من بعيد. فيخبر أهله بأنه ذاهب إلى مكان هذا الضوء عله يأتيهم منها بنار تساعدهم، وشدد عليهم التنبيه بأن لا يغادروا هذا المكان. ولكنه لم يكن يعلم أن هذا الضوء الذي رأى إن هو إلا إشارة لتحضيره للنبوة. يقول اللَّه ﷻ في القرآن الكريم:

﴿فَلَمَّا قَضَى مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ [٨٩٨]

٨٩٨. القصص: ٢٩.

﴿وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى. إِذْ رَأَى نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى﴾ [٨٩٩]

وذهب موسى عليه السلام باتجاه هذا الضوء. وعندما وصل إلى هناك، وجد شجرة خضراء عليها سلسلة من الضوء الذي يلمع.

﴿فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِي الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [٩٠٠]

﴿فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَا مُوسَى. إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى. وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى. إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي. إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى. فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَى﴾ [٩٠١]

وقد حاول المفسرون تفسير معنى قوله تعالى «إخلع نعليك!» بالعديد من الأمور بإعطائها معان إشارية[٩٠٢]. ومن هؤلاء المفسرين كان للقُشيري في كتابه لطائف الإشارات، وللبرسوي في كتابه روح البيان هذا التفسير:

«إن النعلين يمثلان الدنيا والآخرة..أي أفرغ قلبك من المشاغل المتعلقة بالدنيا والآخرة! وتجرد من كل شيء في سبيل الحق، وانظر إلى معرفة اللّه ومشاهدته!..».

إن حدود إدراك البشر محدودة. ولا يمكن بهذا الإدراك المحدود فهم العظمة الإلهية التي لا نهاية لها وأسراره بشكل كامل ولائق. ولهذا، فإن وظيفة العقل النهائية هي التسليم.

٨٩٩. طه: ٩-١٠.

٩٠٠. القصص: ٣٠.

٩٠١. طه: ١١-١٦.

٩٠٢. يقصد بالتفسير الإشاري هو أن يتخطى المفسر المعنى الظاهري للآية الكريمة ويخوض في دقائق المعاني التي يمكن أن يستخلصها منها. وللتفسير الإشاري أوصاف ثلاثة تشترط فيه: الحفاظ على المعنى الظاهري.أن تكون هناك من الأمور الضمنية (إشارات معينة) التي يمكن أن تشكل دليلاً على هذا المعنى الإشاري.أن يكون هذا التفسير غير مخالفاً لما هو واضح في القرآن والسنة.

ويصور مولانا جلال الدين الرومي -رحمه اللَّه- حدود العقل بهذا المثال فيقول:

«إن الرجل المريض لا يمكنه بعقله إلا أن يذهب إلى الطبيب. وتنتهي وظيفة عقله عند وصوله عند باب الطبيب ومن ثم يبدأ معه حال التسليم لتوصيات هذا الطبيب. وبنفس الطريقة، إن طريقة نيل معرفة اللَّه تعالى هي بكبر نسبة هذا التسليم».

وبكلمة أخرى، إن أمر اللَّه تعالى لموسى عليه السلام بأن «اخلع نعليك» هو بهذا المعنى:

«تجرد من النفس والطبيعة! واترك التفكير بكل شيء يربطك بنفسك؛ وتعال!»

«أقلع عن تفكر المجنون! لأنه لا فائدة من ذلك بعد الرؤية والعيان، أي المشاهدة بالعين!».

ولهذا السبب، بعد أن توصل الإمام الشبلي إلى معرفة اللَّه تعالى، تخلص من ألفاظ الكتب، وبدأ يعيش نشوة الوصول إلى المعاني المبهرة التي يصل إليها بمعرفة اللَّه والمشاهدة.

❁

أمر اللَّه تعالى موسى عليه السلام بأن «إخلع نعليك» في الوادي المقدس طوى. لأنه كان هناك في حضرة اللَّه تعالى وأمام شعاعه، وهو الأمر الذي يستدعي عدم دعسه بقدمه هناك وهو يلبس حذاءه. كما أن سيره هناك حافياً هو أنسب أنواع التواضع والأدب.

يقول مولانا جلال الدين الرومي -رحمه اللَّه-:

« سألت عقلي «ما الإيمان؟». فمال عقلي تجاه أذني وهمس لها: «الإيمان عبارة عن الأدب!».

ولهذه الأسباب، مشى خيرة أمة محمد من أمثال البشر حافي وأمثاله من الكرام حفاة على أقدامهم. كما كان السلف الصالح يطوفون حول الكعبة حفاة على أقدامهم أيضاً.

كما أن أمر خلع النعل في الأماكن المقدسة هو لإفادة موسى عليه السلام من بركة هذا المكان المقدس وتشريفاً له فيه.

النبوة المعطاة بمعجزتين كبيرتين

بعد أن خاطب اللَّه تعالى موسى وأمره بأن يخلع نعليه، عاد وأمره بأن يلقي عصاه. فتتحول هذه العصا إلى حية كبيرة. يخاف موسى عليه السلام. فيقال له بأن لا يُخفْ وأنَّك في أمن وحفظ من اللَّه تعالى.

يقول تعالى في الآية الكريمة:

﴿وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسَى أَقْبِلْ وَلاَ تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ﴾ [٩٠٣]

قبل ذلك الوقت، كانت عصا موسى عليه السلام حكمة، ولكنها انقلبت الآن إلى قدرة. فكانت قدرة تسنده عندما كان لا يستطيع حملها!.. وعندما كان موسى عليه السلام يعجز عن المسير ويتعب كان يعتمد عليها في سيره. وكانت تحميه من الأذى والضرر حينما يجلس أو ينام. وكانت تعطيه من مختلف أنواع الفاكهة. وتظله عند الحر فتكون له ظلاً. فكانت قدرة اللَّه تعالى تتجلى لموسى عليه السلام من خلال هذا العصا. وكان موسى عليه السلام يأنس بقدرة اللَّه تعالى بواسطة هذه العصا. [٩٠٤]

وعندما كلم اللَّه تعالى موسى عليه السلام وأخبره بنبوته، وكلفه بما كلفه من أمور، قال له يخاطبه بقوله تعالى:

﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى﴾ [٩٠٥]

فيجيبه موسى عليه السلام بقوله:

﴿قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى﴾ [٩٠٦]

فيأمره اللَّه تعالى بإلقائها بقوله:

﴿قَالَ أَلْقِهَا يَا مُوسَى﴾ [٩٠٧]

---

٩٠٣. القصص: ٣١.
٩٠٤. انظر: عبد القادر الجيلاني، الفتح الرباني، ص١٩٢.
٩٠٥. طه: ١٧.
٩٠٦. طه: ١٨.
٩٠٧. طه: ١٩.

ويستجيب موسى عليه السلام مباشرة لأمره تعالى:

﴿فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى﴾ [٩٠٨]

وعندما رأى موسى عليه السلام هذا المشهد بدأ بالهرب. ولكن:

﴿قَالَ خُذْهَا وَلاَ تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَى﴾ [٩٠٩]

ويفسر عبد القادر الجيلاني هذه الآيات الكريمة بقوله:

«القصد من الأمور التي تم بيانها في هذه الآيات الكريمة، هو أن يتعرف موسى عليه السلام على قدرة اللَّه تعالى. وهو الأمر الذي سيخفف قيمة وقدرة سلطنة فرعون فلا تراها عيناه كبيرة أو قادرة!...وفي غاية إلهية أخرى، يهدف اللَّه تعالى بهذا الأمر إلى تحضير سيدنا موسى عليه السلام لمحاربة فرعون وقومه. فحضَّر اللَّه تعالى موسى عليه السلام بهذا الشكل ليحارب فرعون وأهله، وسلحه عليه السلام بأمور خارقة للعادة. علماً أن موسى عليه السلام كان قبل ذلك خجولاً. ومن ثم وسع اللَّه تعالى في صدره. وأعطاه النبوة والعلم».

وبحسب بعض المفسرين، فإن ما تم بيانه من آيات كريمة تتحدث عن إلقاء سيدنا موسى عليه السلام لعصاه إن هي إلا أمور وحوادث كانت على شكل إرشاد لموسى عليه السلام في دنياه الداخلية.

إن ما ذكره موسى عليه السلام من إضاحات تتعلق بأمور دنيوية يقوم بها من خلال عصاه إجابة لسؤاله تعالى: «وما تلك بيمينك؟» هي أمور أمره اللَّه تعالى بإلقائها بإلقائه لهذه العصا. فالنفس وما يتعلق بها من أمور، هي أمور تمثلت له على شكل حية كبيرة. وبهذا شاهد موسى عليه السلام حقيقة النفس. فخاف وارتجف وهرب منها. ومع كل هذه الأمور، كان هذا الأمر وكأنما قيل له:

«يا موسى! هذه الحية إن هي إلا وصف للأمور التي يتعلق بها الإنسان من غير اللَّه تعالى. وهذا الوصف النفسي هو عندما يصور لصاحبه بشكل حسي ملموس، يصبح أمراً يخاف منه المرء ويهرب».

---

٩٠٨. طه: ٢٠.

٩٠٩. طه: ٢١.

ومن المعاني الإشارية الأخرى المتمثلة بأمره تعالى: «ألق عصاك!» هو:

«لقد أصبحت الآن موصوفاً بصفة التوحيد. فكيف يمكن أن يكون مقبولاً أن تعتمد على أمر فانٍ في هذه الحياة فتطلب منه العون وتعتمد عليه في أمورك فتعتمد على هذه العصا وتثق بها؟ فكيف يمكن أن تقول بأنني أفعل بهذه العصا كذا وكذا، وأستفيد منها، وأن لي فيها من المآرب الأخرى؟ إن الخطوة الأولى في طريق التوحيد هي ترك الأسباب والتوكل المطلق والتسليم. وأن اترك كل أنواع الطلبات والرغبات!».

لقد تمكن إبراهيم عليه السلام من النجاة من الإضافات في هذه الدنيا عندما استغنى عن كافة المساعدات الفانية بما فيها الملائكة. فسلم ونجا برداً وسلاماً من النار سابحاً في محيط التسليم والتوكل للحق وحده.

يتحدث كتاب التأويلات النجمية عن هذه الأمور بقوله:

«إن من يسمع نداء الحق ويرى نور جماله، ليترك كل شيء يعتمد عليه غير اللَّه وحده. فلا يعتمد على أي شيء غير فضل كرم اللَّه. ويتخلص من رغبات نفسه».

❁

وفي معجزة ثانية إلى موسى عليه السلام، يأمره اللَّه تعالى بوضع يده في حضنه يعني جنبه. فينفذ موسى عليه السلام هذا الأمر الإلهي فإذا بيده تخرج خالية من العلل والأمراض؛ سليمة مضيئة كضياء الشمس في بياض ناصع. فكأنها أصبحت مثل شعاع الضوء. فتعجب موسى كثيراً. فقيل له:

« إن أتى إليك أو إلى أحد آخر خوف من رؤية يدك على هذا الشكل فأرجعها إلى جضنك مرة أخرى تخرج كما كانت عليه في السابق!»

ويروي القرآن الكريم تسلم موسى عليه السلام معجزة «اليد البيضاء» «ناصعة البياض، تلمع» التي أعطيت إلى موسى عليه السلام بقوله تعالى:

﴿وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ آيَةً أُخْرَى. لِنُرِيَكَ مِنْ آيَاتِنَا الْكُبْرَى﴾ [٩١٠]

٩١٠. طه: ٢٢-٢٣.

﴿اُسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِنْ رَبِّكَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَائِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ [٩١١]

وهكذا، كلف اللَّه تعالى موسى بالنبوة بإعطائه كلاً من هاتين المعجزتين الكبيرتين. وطلب منه الدعوة إلى الدين. وبداية لهذه الدعوة كان على موسى عليه السلام أن يذهب إلى فرعون أولاً:

﴿اِذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى﴾ [٩١٢]

وأمام هذا الأمر:

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ﴾ [٩١٣]

ومن ثم طلب من اللَّه تعالى أن يكون أخوه هارون له سنداً وعوناً:

﴿وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ. قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِآيَاتِنَا أَنْتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ﴾ [٩١٤]

ويأتي موسى عليه السلام إلى مصر. وكان يعتقد بأن لفرعون جيش كبير. فيوحي إليه تعالى بأنه وأخاه: «أنتما جيشان كبيران من جيوشي! فلا تضعفون ولا تهزمون!».

وأمام هذه الوظيفة الكبرى توجه موسى عليه السلام إلى اللَّه تعالى ليخفف عنه وطأة هذا الأمر بالتضرع والدعاء فقال:

﴿قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي . وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي . وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي. يَفْقَهُوا قَوْلِي. وَاجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي. هَارُونَ أَخِي. اُشْدُدْ بِهِ أَزْرِي. وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي. كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا. وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا. إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيرًا. قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى﴾ [٩١٥]

٩١١. القصص: ٣٢.
٩١٢. طه: ٢٤.
٩١٣. القصص: ٣٣.
٩١٤. القصص: ٣٤-٣٥.
٩١٥. طه: ٢٥-٣٦.

ومن ثم، يذكر اللّه ﷻ موسى عليه السلام بما من عليه من النعم والحفظ الإلهي بقوله تعالى:

﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَى. إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّكَ مَا يُوحَى. أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِي وَعَدُوٌّ لَهُ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي. إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى مَنْ يَكْفُلُهُ فَرَجَعْنَاكَ إِلَى أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَى قَدَرٍ يَا مُوسَى. وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي. اذْهَبْ أَنْتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي. اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى. فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾ [٩١٦]

❁

وعلى الرغم من كون موسى وهارون أنبياء لله تعالى، فإن أمر اللّه تعالى لهما بذكره لهو إشارة كبيرة إلى أهمية هذا الأمر الكبير لنا أيضاً. فتربية القلب هي أمر ضروري لكل مؤمن. فكما أن القلب هو مركز لجوهر الإيمان، فإن القلب أيضاً هو مركز جوهر الذكر. فإن احتل الذكر مكانه في القلب، فإنه يكون مكاناً للوصول إلى السعادة الحقيقية.

يقول اللّه تعالى في القرآن الكريم:

﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ [٩١٧]

كما تبين الآية ٢٨ من سورة النساء، فإن الإنسان خلق على الضعف. فإذا ما ازدادت المشاعر الدينية في القلب، ابتعدت الرغبات النفسية عنه. فالدين لا يريد أن يرى الإنسان بشكل ظاهري بحت فقط. فالإنسان هو مخلوق مكرم.

ولهذا يجب عليه أن يرتقي في مراتبه. ودون نفخ الحياة في القلب، فلا إمكانية للحصول على إنسان مسلم رقيق حساس ومرهف. ولهذا، فإن اللّه تعالى لا يرضى للعبادة أن تكون شكلاً ظاهرياً فقط. فهو يريد الصلاة مثلاً أن تكون صلاة يؤديها العبد بتيقظ قلبي وخشوع.

---

٩١٦. طه: ٣٧-٤٤.

٩١٧. الرعد: ٢٨.

تقول الآية الكريمة:

﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ. الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾ [٩١٨]

أما الصلاة التي يؤديها العبد بعيداً عن الخشوع «أي بعيداً عن الميول القلبية» فإنها صلاة لا يقبل بها اللَّه تعالى. تقول الآية الكريمة:

﴿فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ. الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾ [٩١٩]

كذلك الأمر، يتحدث اللَّه سبحانه وتعالى عن الذين لم تترفع أرواحهم بذكره فيقول عنهم:

﴿فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ [٩٢٠]

علماً أن القلب الممتليء بأحمال الأمور الدنيوية والذنوب من الأمور التي تدعى بالكثافة الثقيلة، فإنه قلب لا يمكن له التقرب من اللَّه تعالى ولطفه. ولهذا، فإن الذكر هو ضرورة تحمي القلب من الآفات النفسية.

❁

يلتقي موسى عليه السلام بأخيه هارون عليه السلام على ضفاف نهر النيل ويتعانقانِ. فيقول موسى لأخيه هارون:

«هيا فلنذهب إلى فرعون! فاللَّه تعالى قد كلف كلاً منا بذلك...».

ومن ثم يتوجهان معاً بالقول:

﴿قَالاَ رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَنْ يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَى. قَالَ لاَ تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى﴾ [٩٢١]

﴿فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولاَ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ. أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ [٩٢٢]

٩١٨. المؤمنون: ١- ٢.
٩١٩. الماعون: ٤- ٥.
٩٢٠. الزمر: ٩.
٩٢١. طه: ٤٥-٤٦.
٩٢٢. الشعراء: ١٦-١٧.

ولكن اللَّه تعالى يوضح أيضاً كيفية الدعوة إلى هذا الأمر وما هي الأمور التي يجب مراعاتها بيقول تعالى:

﴿فَقُولاَ لَهُ قَوْلاً لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾ [٩٢٣]

وعندما قرأ أحد أصحاب الحق ﷻ المدعو يزيد الرقاشي هذه الآية قال:

«يا من أمر بالمعاملة بالرحمة حتى لمن عاداك يا إلهي! من يدري بماذا تعامل به من كان قريباً منك يدعو الناس إليك!».

وعلى الرغم من معرفة اللَّه تعالى الإلهية المسبقة بصد فرعون عن الإيمان وعقيدة التوحيد، إلا أنه أمر موسى عليه السلام بأن يكون معه ليناً في خطابه وحديثه.

وهذا الأمر هو أمر إلى كل المؤمنين الذين يعملون في مجال الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وذلك بصيغة الخطاب إلى موسى عليه السلام. وفي هذا الشأن أيضاً، يتحدث القرآن الكريم إلى النبي محمد ﷺ واصفاً لين دعوته وأسلوبه في التبليغ إلى اللَّه برحمة ولين وشفقة ومسامحة فيخبر اللّه ﷻ في الآية الكريمة بقوله:

﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [٩٢٤]

فرعون الأحمق

يذهب موسى وهارون عليهما السلام تلبية لأمر اللَّه تعالى إلى فرعون. فيسأل فرعون موسى بقوله:

- من أنت؟

فيقول:

- أنا رسول رب العالمين!.

فيتعجب فرعون في باديء الأمر. ولكنه بعد ذلك يبدأ بتعداد ما قدمه إلى موسى من أمور جيدة في السابق بكل غضبٍ ويقول متهماً موسى عليه السلام السلام:

---

٩٢٣. طه: ٤٤.

٩٢٤. آل عمران: ١٥٩.

– لقد كبرت في قصري. وقتلت خباز قصري. فكيف بك الآن تأتي إليّ بهذا الشكل؟.

يروي القرآن الكريم هذا الحوار بقوله تعالى:

﴿قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ. وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ [٩٢٥]

فيجيبه موسى عليه السلام بقوله:

﴿قَالَ فَعَلْتُهَا إِذًا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ . فَفَرَرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ. وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدْتَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ [٩٢٦]

ويكمل موسى عليه السلام فيقول:

– بهذه الطريقة ظلمت؛ فباعدت بيني وبين أهلي! ولكن اللَّه منحني العلم والحكمة. وجعلني نبياً.

فيسأله فرعون:

﴿... فَمَنْ رَبُّكُمَا يَا مُوسَى﴾ [٩٢٧]

﴿... وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [٩٢٨]

فيكون جواب موسى عليه السلام أن:

﴿.. رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾ [٩٢٩]

﴿... رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ﴾ [٩٣٠]

٩٢٥. الشعراء: ١٨-١٩.
٩٢٦. الشعراء: ٢٠-٢١.
٩٢٧. طه: ٤٩.
٩٢٨. الشعراء: ٢٣.
٩٢٩. طه: ٥٠.
٩٣٠. الشعراء: ٢٢.

فيسأله فرعون:

﴿...فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى﴾ [٩٣١]

فيجيبه موسى عليه السلام:

﴿... عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنْسَى. الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلاً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْ نَبَاتٍ شَتَّى﴾ [٩٣٢]

ويستمر الحوار :

﴿قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلاَ تَسْتَمِعُونَ. قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ . قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ. قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [٩٣٣]

وفي نتيجة هذا الحوار، يحاول فرعون تهديد موسى وأخيه هارون عليهما السلام بالتعذيب والسجن الذي هو نوع من أنواع الموت فيقول مهدداً:

﴿قَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ. قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُبِينٍ. قَالَ فَأْتِ بِهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ. فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ﴾ [٩٣٤]

أمام ما رآه من معجزة، يتعجب فرعون ويخاف، وهو الذي كان يدعي الألوهية ويقول:

- أرجوك أمسكها؛ لأتركن لك جميع بني إسرائيل!.

فيأخذ موسى عليه السلام عصاه في يده. فتعود كما كانت في السابق.

فيسأله فرعون:

- وهل من أمر آخر؟

فيكون جواب موسى عليه السلام أن:

---

٩٣١. طه: ٥١.

٩٣٢. طه: ٥٢-٥٣.

٩٣٣. الشعراء: ٢٥-٢٨.

٩٣٤. الشعراء: ٢٩-٣٢.

﴿وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ﴾ [٩٣٥]

فيخاف فرعون مرة أخرى. وكاد أن يؤمن بنبوة موسى عليه السلام بعد ما رآه من هاتين المعجزتين. ولكنَّ وزيره هامان كان سبباً بمنعه عن ذلك. وحرضه بقوله: «- أنت إله! فلا يليق بك أن تعبد أياً كان غيرك! أضف إلى أن الجميع يعرف بأنك إله؛ فلا تنزلن من الألوهية إلى العبودية؛ ولنرَ حلاً لهذا الأمر!».

وفي سرعة البرق، جمعت هيئة من ٥٠٠ رجل وعقد اجتماع للتشاور:

﴿قَالَ لِلْمَلإِ حَوْلَهُ إِنَّ هذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ. يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾ [٩٣٦]

مبارزة بين المعجزة والسحر

إن المعجزات التي تقدم بها موسى عليه السلام قد مزقت مشاعر الكبر لدى فرعون؛ فاضطر إلى ترك ما يدعيه من ألوهية ويتنزل إلى الأشراف من حوله في محاولة لأخذ المشورة منهم.

﴿قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَابْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ. يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ﴾ [٩٣٧]

وفي تلك الفترة، كان السحر أمراً شديد الإنتشار. ولهذا قبل فرعون مباشرة بهذا الرأي.يقول اللّه تعالى:

﴿وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ آيَاتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَى. قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا مُوسَى. فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِثْلِهِ فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنْتَ مَكَانًا سُوًى﴾ [٩٣٨]

فيجيبه موسى عليه السلام بقوله:

﴿... مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ وَأَنْ يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى﴾ [٩٣٩]

٩٣٥. الشعراء: ٣٣.
٩٣٦. الشعراء: ٣٤-٣٥.
٩٣٧. الشعراء: ٣٦-٣٧.
٩٣٨. طه: ٥٦-٥٨.
٩٣٩. طه: ٥٩.

﴿فَجُمِعَ السَّحَرَةُ لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ. وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنْتُمْ مُجْتَمِعُونَ﴾ [٩٤٠]

ويجتمع الناس جميعاً في يوم المبارزة هذه. وكان الناس يترقبون بكل شوق لما سيؤول إليه هذا التحدي.

﴿لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ إِنْ كَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ. فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالُوا لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ. قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾ [٩٤١]

ويسأل فرعون:

- هل يمكنكم أن تغلبوا موسى؟

فيجيبه السحرة بقولهم:

- نحن آخر ما توصل إليه السحر! فلا يوجد أحد في هذا العالم هو أعلم منا بأمور السحر! أي أننا نحن في أعلى القمة! فلا يمكن لأحد أن يغلبنا إن لم يكن لديه ما يسانده من قوة من السماء. فلا شك في أننا نحن أشد قوة وشدة!.

ويحذر موسى عليه السلام السحرة بقوله:

﴿... وَيْلَكُمْ لاَ تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُمْ بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَى﴾ [٩٤٢]

وكان هذا التحذير سبباً في تفكير السحرة:

﴿فَتَنَازَعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَى. قَالُوا إِنْ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَنْ يُخْرِجَاكُمْ مِنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَى﴾ [٩٤٣]

وأمام هذا الأمر، يتجه موسى عليه السلام إليهم فيقول:

﴿فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ ائْتُوا صَفًّا وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَى﴾ [٩٤٤]

---

٩٤٠. الشعراء: ٣٨-٣٩.
٩٤١. الشعراء: ٤٠-٤٢.
٩٤٢. طه: ٦١.
٩٤٣. طه: ٦٢-٦٣.
٩٤٤. طه: ٦٤.

وبرغم من كل شيء، يظهر السحرة احتراماً وحرمة لموسى عليه السلام فيقولون:

﴿... إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى﴾ [٩٤٥]

فيقول لهم موسى عليه السلام:

﴿... أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ﴾ [٩٤٦]

﴿فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ﴾ [٩٤٧]

﴿فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى. فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى. قُلْنَا لاَ تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى. وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلاَ يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى﴾ [٩٤٨]

فيستجمع موسى عليه السلام قوته. ويزول ما به من خوف:

﴿فَلَمَّا أَلْقَواْ قَالَ مُوسَى مَا جِئْتُمْ بِهِ السِّحْرُ إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ اللَّهَ لاَ يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ﴾ [٩٤٩]

وكما توضح الآية القرآنية الكريمة، فإن السحر ليس إلا عملية خداع وفساد وحيلة.

﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ﴾ [٩٥٠]

﴿فَأَلْقَى مُوسَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ﴾ [٩٥١]

---

٩٤٥. طه: ٦٥.
٩٤٦. الشعراء: ٤٣.
٩٤٧. الشعراء: ٤٤.
٩٤٨. طه: ٦٦-٦٩.
٩٤٩. يونس: ٨١.
٩٥٠. الأعراف: ١١٧.
٩٥١. الشعراء: ٤٥.

سجود السحرة

ألقى السحرة أمام أعين فرعون وشعب مصر بضعة من الحبال والعصا. فبدأت تتحرك كما تتحرك الحية في حركاتها. ولكن، وعندما ألقى موسى عليه السلام عصاه بناءً للأمر الإلهي، كانت كالثعبان الضخم الذي تقدم وابتلع كل ما ألقوا من آلات السحر في وسط هذا الميدان. ففهم السحرة بأن هذا الأمر لا يمكن له أن يكون عملاً من الفن أو المعرفة البشرية، وإنما هو معجزة إلهية حقيقية. ذلك أنه لو كان سحراً لكانت تلك الحبال والعصي ستعود إلى مكانها بعد أن ينتهي مفعول هذا السحر. ولكن، إضافة إلى انتهاء مفعول ما قاموا به من سحر، اختفت جميع هذه الحبال والعصي.

﴿فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [٩٥٢]

تلقف عصا موسى كل ما ألقى به السحرة من آلات للسحر دون أن يظهر عليها أي فرق في الحجم. ذلك أن اللَّه تعالى أراد أن يظهر للسحرة أن هذا الأمر ليس عملاً من أعمال البشر وإنما هو من أمور القدرة الإلهية. علماً أن ما قام به السحرة من أمر لم يكن إلا عملاً من الأعمال التي تعتمد على الحيلة والسحر التي ليست إلا من أعمال البشر.

ولهذا، لم يكن ما أظهرته عصا موسى من حادثة إلا تجل واضح لقدرة اللَّه تعالى وليس أي أمر آخر. ولهذا فإنها كانت تزيل كل حيل السحرة عادة. ولهذا، ولكي يفهم رئيس السحرة إن كان ما قامت به عصا موسى من أمر هو حيلة بشرية تعتمد على براعته البشرية، أم أنها قدرة سماوية خالصة، توجه إلى رفاقه منبهاً لهم بقوله:

– بينما تتم هذه الأمور فلننظر بدقة إلى موسى لنرى كيف يكون عليه من حال؟

ففعل أصحابه بما أشار لهم به. وتابعوا حالة موسى عليه السلام بكل دقة وحذر. وأخبروا بعد ذلك رئيسهم بحاله فقالوا:

– بينما كانت تلك الأمور تجري، كان لون موسى عليه السلام يتغير. فهو من ناحية في حال من خشية اللَّه ومشاهداً لظهور التجلي الإلهي، وكانت العصا من ناحية أخرى تقوم بما قامت به من وظيفة.

وعندما سمع رئيس السحرة هذا الأمر قال:

---

٩٥٢. الأعراف: ١١٨.

– إذن هو تَجلّ من اللَّه، وليس من عمل موسى. ذلك أن الساحر لا يخاف من سحره. فهل يجاف الصانع من صنعته، بل إنه يقوم به بكل سهولة وراحة.

وبعد أن قال رئيس السحرة قوله هذا، آمن رئيس السحرة بنبوة موسى عليه السلام. وتبعه رفاقه من السحرة الآخرين فتشرفوا جميعاً بالإيمان. [٩٥٣]

يقول اللَّه تعالى في القرآن الكريم:

﴿فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ. قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ. رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ. قَالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلاَفٍ وَلأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [٩٥٤]

ويوصف هذا الحال في آية قرآنية أخرى بقوله تعالى:

﴿قَالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلاَفٍ وَلأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى﴾ [٩٥٥]

إن الإتحاد والتعاون التي يُبْنَى على المنفعة ينتهي بانتهاء هذه المنفعة. فلو أن السحرة لم يؤمنوا واستمروا على دعمهم لفرعون، لكانوا بقوا على ما هم عليه من القبول لديه، بل وربما كانوا ليسبحوا في بحر من النعم التي ستغدق عليهم. ولكن، وما إن رزقت قلوبهم نعمة الإنفتاح على الإيمان، لم يبق لديهم إلا النعمة الأبدية الباقية؛ تلك التي رجح السحرة قيمتها على النعم والراحة الفانية، أي المؤقتة، ولهذا، وأمام تهديد فرعون لهم:

﴿قَالُوا لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ [٩٥٦]

﴿قَالُوا لاَ ضَيْرَ إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ﴾ [٩٥٧]

---

٩٥٣. عبد القادر الجيلاني، الفتح الرباني، ص ٣٨.
٩٥٤. الشعراء: ٤٦-٤٩.
٩٥٥. طه: ٧١.
٩٥٦. طه: ٧٢.
٩٥٧. الشعراء: ٥٠.

ذلك أن تقطيع الأيدي والأرجل من خلاف إن هو إلا عذاب ينتمي إلى هذه الدنيا الفانية. وما الجسد إلا ضحية ستلقى في التراب. ففي الجسد فناء، وفي الروح أبدية «أي لا نهاية». ولا يمكن ترجيح الفاني على الباقي. ولهذا السبب، وعندما رأى السحرة تلك المعجزات الواضحة، أظهروا لفرعون كما تروي لنا الآية الكريمة تصرفاً لم يكن فرعون ليتوقعه منهم:

– إن ظلمك لا يصيبنا بالضرر، فظلم هو من فعل هذه الدنيا، أما السعادة في الآخرة فهي أبدية!.

ويكملون بقولهم:

﴿إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ [٩٥٨]

﴿إِنَّا نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا أَنْ كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [٩٥٩]

ومن ثم يلتجئون إلى اللَّه تعالى فيقولون:

﴿...رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾ [٩٦٠]

وهكذا، وبعد أن خرج السحرة صباح ذلك اليوم بهوية الكفر إلى تلك المبارزة، تحولوا بعد فترة وجيزة جداً إلى أفراد مؤمنين فقطعت أيديهم وأرجلهم من خلاف ونالوا رفعة الشهادة والولاء لله رب العالمين.

وهذه الحادثة التي كانت بين موسى عليه السلام والسحرة، قد تم ذكرها في القرآن الكريم بعبارات مختلفة متعددة من ناحية السياق والسباق في أربع سور مختلفة.[٩٦١]

ومما لا شك فيه أن هذه الحادثة التي حدثت لمرة واحدة، وذكرت في أربع مواضع مختلفة في القرآن الكريم، هي حادثة تحتوي في طياتها للعديد من الأسرار والحكم وهي من الأهمية بكثير.

ولكم هي عبرة كبيرة أن لا يدعو السحرة ربهم أمام ما تعرضوا له من الشدة بقولهم:

---

٩٥٨. طه: ٧٣.

٩٥٩. الشعراء: ٥٢.

٩٦٠. الأعراف: ١٢٦.

٩٦١. انظر: الأعراف، ١٠٩ – ١٢٦؛ يونس، ٧٦ – ٨٢؛ طه، ٥٦ – ٧٣؛ الشعراء، ٣٤ – ٥١

«- يا ربي! انقذنا من ظلم هذا الظالم!». بل صبروا أمام الجفاء والأذى الفاني وقدموا الروح لربهم مسلمين. علماً أنهم كانوا حتى اللحظة الآخرة من أنفاسهم في هذه الحياة قلقين من الوقوع في الضعف والتمكن من تسليم روحهم لله مسلمين ومؤمنين.

ويحدثنا القرآن الكريم عن الأنفاس الأخيرة فيقول:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [٩٦٢]

وسبيل الإمتثال لهذا التحذير الإلهي هو المعيشة حتى آخر نفس في هذه الحياة ضمن ما أشار إليه اللَّه تعالى ورسوله الأكرم عليه الصلاة والسلام واللجوء إلى لطف اللَّه تعالى دائماً. ويبين اللَّه تعالى طريق المعيشة على الصراط المستقيم والوصول بين يدي اللَّه تعال على هذه الحالة فيقول لنا في الآية الكريمة:

﴿يَآ أَيُّهَا الَّذِينُ امَنُوا اِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ اَقْدامَكُمْ﴾ [٩٦٣]

يروي مولانا جلال الدين الرومي تفسيره حول هذه القصة بتوضيح إشاري فيقول:

«إن السحرة بما أظهروه من رعاية واحترام ولياقة في بداية هذه المبارزة لنبي من أنبياء أولي العزم، وعبد عظيم مقرب من اللَّه، لهو أمر يدل على ميلهم نحو عقيدة التوحيد، ولكن خروجهم إلى مبارزة هذا النبي العظيم كان سبباً في عقابهم الذي آلوا إليه».

وبالفعل، إن هذا التعظيم المتواضع الذي أظهره السحرة لسيدنا موسى عليه السلام هو وسيلة واضحة أدت إلى اقترابهم من نافذة الإيمان والهداية. علماً أن الحب لمن يليق به والخصومة لمن يستحقها هي أمور مؤثرة استثنائية تزيد من الرفعة في هذه الحياة.

ويحلل مولانا جلال الدين الرومي هذه الحادثة بوجهها العميق فيقول:

«يهدد فرعون الظالم والملعون السحرة بالموت لإيمانهم فيقول: لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف. ولأصلبنكم أجمعين.

وكان فرعون يعتقد أن السحرة عند ذلك سيخافون ويقلقون وترتجف أوصالهم ويخضعون لما يأمرهم به.

---

٩٦٢. آل عمران: ١٠٢.

٩٦٣. محمد: ٦.

ولكنَّ فرعون لم يكن يعلم أن هؤلاء السحرة قد تخلصوا من الخوف والقلق، ووفقوا إلى الشعور بالحقائق والأسرار الإلهية.

فهم ولو ضربوا في فلك السماء مئة مرة وأصبحوا كحبات الطحين فهم أصبحوا على بصيرة من الأمر وأدركوا أهمية انفصال ظلهم عنهم.

أي أنهم أدركوا أن الروح أصل والبدن هو مجرد ظل لا قيمة له، وبالتالي فهم باتوا تواقين للفداء بظلهم وصولاً إلى الأصل، أي الوصول إلى مرتبة «الفناء في اللَّه.

أيها الإنسان! إن هذه الدنيا هي عبارة عن نوم ورؤية. فلا يغرنك فيها الدبدبة ولا المسير! فإن قطعت فيها يدك أو قطع جسدك أجزاءً وأجزاء فلا تخف! فقد قيل فيها: «وما الحياة إلا عبارة عن حلم!».

ماشطة فرعون

وكانت خادمة لابنة فرعون.

في إحدى الأيام، وبينما كانت تستعد لمشط شعر ابنة فرعون تلفظت بالبسملة. فسمعت الفتاة هذا الأمر فأسرعت لتخبر أباها بهذا الأمر.

فنادى فرعون الماشطة فوراً وسألها عما بدر منها من أمر. فأجابته بحماسة الإيمان الذي يعمر في داخلها بقولها:

– أنت كما نحن فانٍ! فكيف لك أن تكون علينا إلهاً؟

فيغضب فرعون كثيراً ويقول:

– إذن، لقد آمنت أنت أيضاً لموسى، وأصبحت تابعة له، أليس كذلك؟

ومن ثم بدأ بتعذيب هذه الماشطة رويداً رويداً. ولكنها برغم كل ما أصابها من تعذيب لم ترجع عما آمنت به من عقيدة. وأمام هذا الإصرار، أحضرت ابنة هذه الماشطة ذات الخمس سنين أمامها وقيل لها تهديداً:

– إن لم تقبلي بألوهية فرعون لنقطعن رأس ابنتك!

ولكن الماشطة لم ترجع أيضاً عما آمنت به. وأخيراً، قتلت ابنتها أمام أعينها ومسح وجهها بدم ابنتها. ولكنها بقيت في حالة من العشق والوجد لله تعالى وقالت:

– اللَّه واحد! اللَّه واحد! وموسى هو رسوله!

ويصل فرعون وأعوانه في غضبهم إلى أشده. فيأتون هذه المرة بطفلها ذو الثلاثة أشهر. ويمدون به إلى أمه. فيبدأ الطفل يبحث في صدرها عن الحليب ليشربه. فيبعدونه عنها ويقولون:

– إن لم تتركي هذه الدعوة فإننا سنلقي بولدك هذا في الفرن!

فتصبر الماشطة على هذا الألم أيضاً ولا تحيد بذرة عن إيمانها. فيلقى في نهاية الأمر طفلها ذو الأشهر الثلاثة في الفرن. ويروى أن هذا الطفل ينطق من بين النيران ويقول:

– أمي، إياك وأن تحيدي عن الإيمان واصبري! فإني أرى بأنه لم يبق بينك وبين الجنة إلا خطوة واحدة!.

ويؤمن كل من سمع هذا القول بسيدنا موسى عليه السلام.

وأخيراً، تستشهد الماشطة وتذهب إلى جوار أولادها في الجنة.

وتروي لنا أحاديث السيرة النبوية الشريفة عن قصة ماشطة فرعون، فيروي لنا عبيد بن كعب رضي الله عنه عن الرسول ﷺ أنه ليلة أسري به وجد ريحاً طيبة فقال:

«يا جبريل ما هذه الريح الطيبة؟"

فقال جبريل عليه السلام:

هذه ريح قبر الماشطة وابنيها وزوجها. [٩٦٤]

استشهاد سيدتنا آسيا

بعد ما قام به فرعون من ظلم وقع بحق ماشطته، غضبت سيدتنا آسيا غضباً شديداً، بل وحقرت فرعون على ذلك. ففهم عندها فرعون أن سيدتنا آسيا قد آمنت هي الأخرى بموسى عليه السلام. فلم تشأ سيدتنا آسيا أن تخفي هذه الحقيقة بعد ذلك وقالت مقرة:

– نعم، وأنا أيضاً آمنت برب موسى!.

يروى في هذا الشأن أن فرعون أمر بربط آسيا على أربعة أعمدة. وجعلها تستلقي على ظهرها. ومن ثم أمر فوضع عليها صخرة كبيرة. وأنالها الشهادة بعد أن ظلمها وعذبها بشتى الوسائل.

٩٦٤. ابن ماجه، الفتن، ٢٣/ ٤٠٣٠.

بينما كان موسى عليه السلام يمر بقرب إحدى أماكن التعذيب شاهد أنواعاً شديدة من العذاب الذي تلقاه سيدتنا آسيا. فالتفتت إليه سيدتنا آسيا لتشير إليه بدرجة الألم الذي تشعر به. فيدعو اللَّه لها. وبهذا لم تعد تشعر منذ تلك اللحظة بأي نوع من أنواع الألم.

وفي رواية أخرى، تترك سيدتنا آسيا في وسط صحراء ملتهبة. فتأتي الملائكة لتكون لها ظلاً إلى أن تفارق الروح شهيدة بهذا الشكل. ويتحدث القرآن الكريم عنها بكل امتداح فيقول تعالى:

﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَةَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [٩٦٥]

وبحسب إحدى الروايات، فإن دعاء سيدتنا آسيا الذي ذكر في القرآن هو دعاء ناجت به اللَّه تعالى خلال فترة التعذيب. فيأتيها الإلهام في تلك اللحظة يقول لها:

- إرفعي رأسك!.

فترفع رأسها إلى السماء لترفع عن عينيها الغشاءة فترى قصراً من المجوهرات البيض يبنى لأجلها. فكانت تنظر إلى ذلك القصر بابتسامة لا تشعر فيها بأي نوع من أنواع العذاب.

القلعة

بينما كان موسى عليه السلام يدعو الناس إلى عقيدة التوحيد، كانت أعداد المؤمنين في تزايد، وغضب فرعون وظلمه يتصاعد. فقام ببناء قلعة كبيرة. وكان يتم الصعود إلى هذه القلعة ركوباً على الحيوانات. وانتهى بناؤها في سبعة سنين.

وكانت غاية فرعون بحماقته أن يصعد إلى قمة هذه القلعة ليرى إله موسى! فهو لما كان عليه من بعد عن الإدراك بالتوحيد، كان يعتقد بأن الصورة الإلهية هي كما هو الحال بالنسبة للأشكال البشرية في هذا العالم، أي كما هي عقيدة الأنتروبومورفيك. وهو ما يعرف بإعطاء الأشكال للصفة الإلهية. كما كان الحال في العقيدة اليونانية التي جعلت للآلهة تصورات مختلفة؛ كإله الأرض وإله السماء وإله الحب وهكذا...

وكان يهدف من هذه القلعة أن يخرج إليها فيقول محاولاً بث الفتنة في القلوب:

---

٩٦٥. التحريم: ١١.

– نحن بما نمتلكه من قدرة وقوة وإمكانات وحضارة لم نتمكن من إيجاد إله موسى، فكيف صعد موسى إليه وأحضر إلينا أخباره!.

تقول الآية الكريمة:

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ. أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِبًا وَكَذَلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ﴾ [٩٦٦]

يروى أن اللَّه تعالى يأمر جبريل عليه السلام، فيضرب بجناحه هذه القلعة. فينقسم البناء إلى أجزاء ثلاثة. ويقتل خلال ذلك آلاف الجند. ويحترق كل من كان يحمي الطوب والقرميد.

وعندما لم يوفق فرعون في هذا الأمر أيضاً، ازداد حنقه وغضبه. ووصل ظلم الأقباط للأسباط إلى أقصى حد ممكن أن يصل إليه:

﴿وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَونَ أَتَذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ﴾ [٩٦٧]

ويشتكي بنو إسرائيل هذا الأمر لموسى عليه السلام. فيوصيهم بالصبر:

﴿قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [٩٦٨]

ولكن قومه يبدأون رويداً رويداً باتخاذ موقف من موسى عليه السلام. وكانوا دائماً ما يظهرون قلة الصبر ويسببون الأزمات لأنبيائهم. وذلك لكونهم من أصحاب التفكير المادي:

﴿قَالُوا أُوذِينَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِينَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ [٩٦٩]

٩٦٦. غافر: ٣٦-٣٧.
٩٦٧. الأعراف: ١٢٧.
٩٦٨. الأعراف: ١٢٨.
٩٦٩. الأعراف: ١٢٩.

وهكذا، يبين اللَّه وتعالى ويشير إلى أن العاقبة والمستقبل هو من نصيب المؤمنين. وبينما كان الأقباط مستمرين في ظلمهم، يدعو موسى عليه السلام ربه طلباً لانتهاء هذا الظلم. فتبدأ العلامات بالظهور الواحدة تلو الأخرى تصيب قوم الأقباط بشكل متسلسل ومتتالٍ:

﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَونَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ. فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هـذِهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَلاَ إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ وَلكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ [٩٧٠]

معجزات متفرقة

يقول الله تعالى:

﴿وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ. فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُفَصَّلاَتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ﴾ [٩٧١]

وكان الأقباط عند إصابتهم بالعذاب يقولون لموسى عليه السلام «العالم الكبير!». وإذا ما زال عنهم عادوا لعصيانهم فقالوا «لقد كان أمراً عابراً».

وكان البلاء يصيبهم كلما وصل بهم الظلم إلى أقصى درجاته. فكان كما أخبرت الآية القرآنية بأن يأتي البلاء إلى مجتمع الأقباط كلما اشتد بهم الظلم فحلت عليهم العديد من المصائب والابتلاءات:

١. الطوفان:

كان اللَّه تعالى يمطر السماء بغزارة. فتمتليء بيوت الأقباط بالماء. ويغرقون في الماء حتى رقابهم. وكان يغرق من يجلس منهم. ووصلوا إلى حال من الهلاك. ولم يكن يصيب الأسباط شيءٌ من ذلك.

فيسرعوا إلى موسى عليه السلام بقولهم:

– يا موسى! ادع لنا ربك؛ فإن أبعد عنا هذا البلاء آمنا وسمحنا لك ولقومك بالرحيل.

---

٩٧٠. الأعراف: ١٣٠-١٣١.

٩٧١. الأعراف: ١٣٢-١٣٣.

فيدعو موسى عليه السلام ربه. فينحسر الماء. وتبدأ مرحلة من الوفرة. فيعود الأقباط إلى عصيانهم ويقولون:

– لم يكن هذا الماء عذاباً لنا، بل كان نعمة! وكان لا بد له وأن يزول! ولم يحصل أي من ذلك بدعاء موسى!.

٢. الجراد:

بعد فترة من الزمن، يرسل اللَّه تعالى عليهم أسراب الجراد. فتأكل كل ما أنعم اللَّه به عليهم. ويتلف كل شيء. ولكنها لا تصيب من الأسباط شيئاً من الأذى.

فيأتي الأقباط إلى موسى عليه السلام مرة أخرى:

– أيها العالم! أُدْعُ ربك؛ فإن أبعد عنا هذا البلاء آمنا بك وقبلنا بك!.

فيدعو موسى ربه ويذهب عنهم البلاء.

ولكن الأقباط يحنثون في عهدهم مرة أخرى عندما يصلون إلى راحة انقضاء هذا البلاء. فيعودون إلى ما كانوا عليه من الظلم والعصيان.

٣. القمل والبرغوث:

فيسلط اللَّه تعالى عليهم هذه المرة القمل والبرغوث. فتمتليء أطباقهم بالبرغوث والقمل كلما أرادوا الطعام. وكان هذا الإبتلاءُ كبيراً. فأسرعوا مرة أخرى إلى موسى عليه السلام. فدعا ربه ونجوا مرة أخرى من ذلك. ولكنهم مالوا إلى العذاب مرة أخرى.

٤. الضفادع:

في هذه المرة، ذهب موسى عليه السلام إلى نهر النيل. فضربه بعصاه فخرجت جميع الضفادع منه إلى قلب مصر. فامتلأ كل شيء حتى أطباق الطعام بهذه الضفادع. فأتى الأقباط مرة أخرى إلى موسى عليه السلام وقالوا:

– أيها العالم! إننا فعلاً نادمون هذه المرة؛ سنترككم إلى الأرض الموعودة «القدس»!.

ولكن، وعندما رفع البلاء بدعاء موسى عليه السلام، عادوا إلى سابق عهدهم من الأفعال مرة أخرى.

٥. الدم:

ولما لم يرجع الأقباط مما هم فيه، حول اللَّه في هذه المرة نهر النيل إلى نهر من الدم. فلم يجد الأقباط ما يشربون. أما بالنسبة للأسباط، فبقي نهر النيل على ما هو عليه من الصفاء فاستمروا بشربه واستخدامه. أما بالنسبة للأقباط فكان يتحول دماً. فعادوا مرة أخرى يهرعون إلى موسى عليه السلام فحجب عنهم هذا البلاء أيضاً.

ولكن الأقباط عادوا إلى ما هم عليه من العصيان مرة أخرى.

❁

يوضح مولانا جلال الدين الرومي في كتابه المثنوي بأسلوب أهل التصوف حالة نهر النيل والدم بشكل جميل فيقول:

«يأتي قبطي يتلوى من الحرارة إلى منزل أحد الأسباط يرجوه بشدة: «- أنا صديقك وقريبك. وأنا اليوم في أشد الحالة إليك. إملأ لنفسك كأساً من النيل ليشرب اليوم صديقك القديم الماء من يديك! لأنك إن ملأتها لنفسك لا يخرج فيها الدم. وتكون صافية محمية من السحر».

ويسعى السبطي لحمل القبطي على فهم هذه المعجزة فيملأ كأساً من الماء من نهر النيل ويقربها من فمه ويشرب نصف ما فيها من ماء. ومن ثم يحول هذا الكأس إلى القبطي ويقول له: - هيا، إشرب!.

فيمد القبطي فمه بسرور إليه. ولكن الماء يتحول إلى الدم. فيعيد السبطي الكأس إلى ناحيته فيعود ماءً كما كان عليه.

فيغضب القبطي. ويجلس إلى أن يذهب غضبه.

ثم يقول للسبطي:

- أيها الأخ! كيف لهذه العقدة أن تحل؟ وما هو سر ذلك؟

فيجيبه السبطي قائلاً:

- لا يمكن لأحد من الناس أن يشرب من ماء النيل الصافي والعذب إلا من آمن بيوسف عليه السلام. فإن تركت طريق فرعون ودخلت مع موسى عليه السلام في طريقه، فإنك عندها ستتمكن من الحصول على صفاء ولذة هذا الماء!.

ويكمل السبطي نصيحته إلى القبطي فيقول:

- كن في صلح مع القمر ترى العجب!.

«والقصد هنا من القمر هو موسى عليه السلام؛ أما العجب فهو معجزة هذا النبي»

- إن حقدك على عباد اللَّه المخلصين، قد جعل منك أعمى وأصم فأغلق أطرافك بآلاف الستائر! فأصبحت تسير في وادي الكفر والضلال بشكل أعمى عن الحقيقة! فأذب كفرك الذي يشبه الجبال بالمغفرة ترى الهداية! فتأخذ أنت أيضاً نصيبك من كأس من حصل على المعرفة!

فكيف لك أن تتمكن من شرب ماء النيل حيلة واللَّه تعالى حرم شرب هذا النهر على الكافرين؟ أيها القبطي! أهو من جرأة النيل أن يترك الأمر الإلهي ويكون ماءً للكافرين!....

❁

وأمام كل هذا التجلي قال فرعون:

﴿... ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ﴾ [٩٧٢]

وتشير هذه الآية الكريمة إلى أن فرعون أراد قتل موسى عليه السلام ولكن الجمع من حوله كان يمنعه عن ذلك.

لأن من حوله كان يقول لفرعون:

«إنه ليس ذا شأن لتخاف منه. فأنت إله! علماً أنك إن قتله أدخلت الشبهة في قلوب الشعب! فيظن الجميع بأنك عاجز أمام معجزات موسى...»

كما أن قول فرعون هذا يظهر في الوقت نفسه درجة الخوف التي وصل إليها فرعون من قدرة موسى عليه السلام. وفي الواقع، كان فرعون يقبل ضمنياً في وجدانه بنبوة موسى عليه السلام. ولكن غروره وتكبره وعناده الأعمى كان يمنعه من الإيمان به.

وأمام أفعال فرعون هذه قال موسى عليه السلام:

﴿... إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لاَ يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ﴾ [٩٧٣]

٩٧٢. غافر: ٢٦.

٩٧٣. غافر: ٢٦.

ولهذا يعبر بعض المفسرين عن حكمة ترك فرعون للإيمان بعد كل هذا القدر من المعجزات من خلال هذا الدعاء الذي تكلم به موسى عليه السلام. وما يتحدثون عنه من أمور هي:

أ- ترك الإيمان بالآخِرةِ.

ب- التكبر الشديد.

علماً أن المتكبر هو فرد يرغب دائماً في رؤية جميع من حوله في مرتبة هي أدنى منه. ولهذا فإن الأحاديث النبوية الشريفة تتحدث عن الكبر وتصفه بأنه من كبائر الذنوب، فيقول ﷺ:

«لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر» [٩٧٤]

إن الإيمان هو أمر ذو درجة عظيمة جداً تؤمن للمرء من خلال إيمانه هذا الحصول على العفو الإلهي وبالتالي أن يصل إلى نعم الجنة بعد أن يدفع كفارة ما ارتكبه من الذنوب. ولكن الكبر الذي هو صفة إبليس، هو صفة بشعة إلى درجة تمنع وجود الإيمان وبالتالي الدخول إلى الجنة.

وفي حديث نبوي شريف آخر يقول رسول اللّه ﷺ:

«بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم...» [٩٧٥]

وكم هي جميلة نصيحة لقمان عليه السلام لابنه حينما قال له محذراً من الكبر والغرور:

﴿وَلاَ تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلاَ تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ [٩٧٦]

ويقول الله تعالى أيضاً:

﴿وَلاَ تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولاً﴾ [٩٧٧]

٩٧٤. مسلم، الإيمان، ١٤٧/ ٩١.

٩٧٥. مسلم، البر، ٣٢/ ٢٥٦٤؛ أبو داود، الأدب، ٣٥؛ الترمذي، البر، ١٨.

٩٧٦. لقمان: ١٨.

٩٧٧. الإسراء: ٣٧.

ويخبرنا اللَّه تعالى عن حكمته في عقاب فرعون وأعوانه الذين غرقوا في مستنقع الغرور والكبر فيقول في الآية الكريمة:

﴿وَمَا نُرِيهِمْ مِنْ آيَةٍ إِلاَّ هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا وَأَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [٩٧٨]

إن هذه الأمة التي ربيت بالإبتلاء كانت أمة تنقلب كالغنم في أوقات العذاب والضيق، وتكون كالوحوش عند رفع العذاب عنها. ويخبر اللَّه تعالى عن حالهم المتقلبة وامتناعهم عن الإمتثال لعهودهم فيقول جَلَّ وعَلا في القرآن الكريم:

﴿وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ لَئِنْ كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَآئِيلَ﴾ [٩٧٩]

﴿وَقَالُوا يَا أَيُّهَا السَّاحِرُ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ. فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ﴾ [٩٨٠]

﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الرِّجْزَ إِلَى أَجَلٍ هُمْ بَالِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ﴾ [٩٨١]

دعاية فرعون البائسة

أمام ما وقع به فرعون من العجز تجاه معجزات موسى عليه السلام وخوفه من دخول الناس في دين التوحيد، امر ببناء سرادق على ضفاف نهر النيل. وبقي لمدة سنتين يدعو القادمين من الناس من خلال هذه السرادق بقوله:

- لا تؤمنوا لموسى!. ويقول:

- مع ما أنتم عليه من عبادة لآلهتكم فأنا أيضاً ربكم!.

﴿وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلاَ تُبْصِرُونَ. أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلاَ يَكَادُ يُبِينُ﴾ [٩٨٢]

٩٧٨. الزخرف: ٤٨.
٩٧٩. الأعراف: ١٣٤.
٩٨٠. الزخرف: ٤٩-٥٠.
٩٨١. الأعراف: ١٣٠.
٩٨٢. الزخرف: ٥١-٥٢.

وكان فرعون يحاول أن يضع مجده وثروته وقدرته وسلطنته من جهة، ويضع قبالتها موسى عليه السلام بلسانه المتعثر في النطق، وفقره وضعفه، فكان يقول:

﴿فَلَوْلاَ أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِنْ ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ﴾ [٩٨٣]

مدعياً بأن رجلاً كهذا لا يمكن له أن يكون نبياً.

وهكذا:

﴿فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ [٩٨٤]

الخروج من مصر

كان فرعون وأتباعه يستخدمون تفوقهم الدنيوي في تعذيب من آمن باللَّه تعالى. فكانوا لا يريدون الإيمان ولا يرتدعون على الرغم من كل ما يلاقونه من تجل للعذاب الإلهي الذي يحيط بهم ورغم كل ما يرونه من المعجزات.وفي نهاية الأمر، يضطر موسى عليه السلام للدعاء عليهم:

﴿وَقَالَ مُوسَى رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ. قَالَ قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَلاَ تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ الَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ [٩٨٥]

بعد دعوة موسى عليه السلام بذلك، أصيب الأقباط بالأمراض الجلدية. وعم الجفاف لأيام ثلاثة. وكانت كل عائلة من الأقباط تصاب بابتلاء مختلف عن غيرها. فيجبر فرعون على السماح لبني إسرائيل بالخروج من مصر. ولكنه كما هو الحال في كل مرة، يعود عن عهده بعد زوال ما يحيط به من ابتلاء.

ولهذا، واستجابة منه للأمر الإلهي، يتجه موسى وبنو إسرائيل معاً إلى منطقة تدعى سويش في عتمة الليل. وتصاب جميع بنات فرعون في تلك الليلة بمرض الطاعون ويمُتْنَ جميعهن.

---

٩٨٣. الزخرف: ٥٣.

٩٨٤. الزخرف: ٥٤.

٩٨٥. البينة، ٨.

فما يكون من فرعون الذي كان غاضباً إلا أن ازداد غضباً على وفاة بناته، فيقول:

- هذا من فعل موسى!.

وبسبب انشغاله في دفن بناته، يستفيد موسى عليه السلام بكثير من الوقت. فما إن يصل إلى فرعون هذا الخبر حتى يكون الأمر قد وقع وانتهى...

يقول اللَّه تعالى:

﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي إِنَّكُمْ مُتَّبَعُونَ﴾ [٩٨٦]

﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لاَ تَخَافُ دَرَكًا وَلاَ تَخْشَى﴾ [٩٨٧]

ولما وصل الخبر إلى فرعون كان في فورة من أمره:

﴿فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ. إِنَّ هَؤُلاَءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ. وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ. وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ﴾ [٩٨٨]

وأخيراً، يجمع فرعون جيشه ويحاول اللحاق بموسى عليه السلام:

﴿فَأَتْبَعُوهُمْ مُشْرِقِينَ. فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ. قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ [٩٨٩]

وهكذا، كان البحر الأحمر من أمام موسى عليه السلام وفرعون وجيشه من خلفه.

---

٩٨٦. الشعراء: ٥٢.

٩٨٧. طه: ٧٧.

٩٨٨. الشعراء: ٥٣-٥٦.

٩٨٩. الشعراء: ٦٠-٦٢

البحر الأحمر: بحر السلامة والكارثة

يقول الله تعالى:

﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ﴾ [٩٩٠]

وبدأ بنو إسرائيل يعبرون البحر عبر الطرق التي تشكلت بين جبال من الماء من كلا الجهتين، بل إن بني إسرائيل قالوا لموسى:

- يا موسى! افتح بيننا نوافذ لنتمكن من رؤية بعضنا البعض!

فدعا موسى عليه السلام ربه. فظهرت بين الأمواج نوافذ تمكنوا من خلالها رؤية بعضهم البعض أثناء هذا العبور.

وكان فرعون صاحِبَ استدراك للأمور. فالتفت إلى جيشه وقال:

- اُنظروا إلى البحر! ألا ترون كيف انفلق شطرين من هيبتي فتشكلت الطرقات من خلاله لأتمكن من اللحاق بمن هرب مني وسار أمامي!؟

أي أن فرعون لم يكن يرى فلق البحر معجزة من معجزات موسى عليه السلام وإنما كان من خلال فهمه هذا غارقاً في الضلالة والحماقة والغفلة.

ومن ثم أمر جنده فقال لهم:

- سأقتلهم جميعاً! سيروا إلى البحر!.

ولكنه تردد للحظة وخاف. وفكر في العدول عن الأمر. ولكنه وبحسب إحدى الروايات فإن جبريل عليه السلام تمثل أمامهم على شكل رجل يركب حصاناً أبيض قائلاً لهم:

- هيا، تقدموا!.

ووقف ميكائيل عليه السلام من خلف جيش فرعون وقال لمن في المؤخرة:

- هيا، لا تبقوا في المؤخرة، وتقدموا!.

وأخيراً مشى جميع الجيش وتقدم.

يقول اللَّه تعالى: ﴿وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الْآخَرِينَ﴾ [٩٩١]

---

٩٩٠. الشعراء: ٦٣.

٩٩١. الشعراء: ٦٤.

وهكذا، سار موسى وقومه في وسط البحر وسار فرعون وجيشه من خلفهم. ولكنهم وبتجلٍّ للقهر الإلهي غرقوا في هذا البحر الواسع وهلكوا وولوا.

﴿وَأَنْجَيْنَا مُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ. ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ﴾ [٩٩٢]

﴿فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ﴾ [٩٩٣]

﴿فَلَمَّا آسَفُونَا انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ. فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلاً لِلآخِرِينَ﴾ [٩٩٤]

﴿إِنَّ فِي ذلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [٩٩٥]

ونجا جميع بني إسرائيل بلطف اللَّه. وكان ذلك اليوم **هو اليوم العاشر من شهر محرم**. فصام الجميع شكراً لله على نجاتهم. يقص الحق تعالى علينا هذا الإحسان في الآية الكريمة فيقول:

﴿وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذلِكُم بَلاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ. وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنْجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ﴾ [٩٩٦]

إيمان لم يقبل: إيمان فرعون

يقول الله تعالى:

﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدْوًا حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لاَ إِلـهَ إِلاَّ الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [٩٩٧]

بينما كان فرعون على مقربة من الغرق بين أمواج البحر الأحمر، حاول التمسك بحلقة الإيمان مجبراً على ذلك لما هو عليه من حال فيقول اللَّه تعالى عنه:

---

٩٩٢. الشعراء: ٦٥-٦٦.
٩٩٣. الأعراف: ١٣٦.
٩٩٤. الزخرف: ٥٥-٥٦.
٩٩٥. الشعراء: ٨.
٩٩٦. البقرة: ٤٩-٥٠.
٩٩٧. يونس: ٩٠.

﴿آلآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ. فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ﴾ [٩٩٨]

يفسر الإمام الزمخشري هذه الآية الكريمة بقوله:

«سنرميك على زاوية من أطراف هذا البحر. بجسدك الذي سنحميه كاملاً دون أي نقصان أو تلف، عارياً بدون أي لباس، وذلك لتكون عبرة لمن يأتي من بعدك على مدى العصور الطويلة».

وبحسب الأبحاث التي تم القيام بها في السنوات الأخيرة، تبين أن جسد فرعون قد وجد على شاطيء البحر بوضعية السجود على وجهه. وهذا الجسد هو الآن في المتحف البريطاني، يعرض للناس في مشهد للعبرة والموعظة. وهذه الحقيقة هي معجزة إلهية أعلن عنها اللَّه تعالى في القرآن الكريم لتبقى إلى يوم القيامة.

فعلى الرغم من بقاء جسد فرعون في البحر وبقائه كل هذه المدة من العصور، إلا أنه بقي دون تلف أو عفن. فكان كما أخبر القرآن الكريم في هذه الآية بأن حُفِظَ هذا الجسد ورُمِيَ على الشاطيء. ليتم إيجاده بعد أكثر من ثلاثة ألافِ سنة ليعرض في إنكلترا في المتحف ليكون علامة للعبرة والموعظة.

جسد فرعون المعروض في المتحف البريطاني في إنكلترا

بعد عبور البحر الأحمر

ذهب موسى عليه السلام ببني إسرائيل إلى أرض كنعان. وبينما هم في طريقهم مروا بقوم يعبدون الأصنام والثور. فقال بعضهم:

- يا موسى! اجعل لنا آلهة كما لهم آلهة نعبدها!.

فنصحهم موسى عليه السلام وقال:

- لقد أنجاكم اللَّه من الظلم. كان الأقباط يقتلون أبناءكم ويستعبدون بناتكم لخدمتهم. فهل ستعصون اللَّه بعد كل ذلك وتغوصون في بحار الشرك؟.

٩٩٨. يونس: ٩١-٩٢.

يقول اللَّه تعالى:

﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَآئِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ. إِنَّ هَؤُلَاءِ مُتَبَّرٌ مَا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ. قَالَ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ. وَإِذْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَونَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُقَتِّلُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذلِكُم بَلاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ [٩٩٩]

ويؤسس سيدنا موسى عليه السلام جيشين من ١٢,٠٠٠ رجلاً. وأرسلهما إلى مصر. فلم يبق معه غير الأطفال والعجزة. وكان على رأس أحد الجيشين يوشع بن نون عليه السلام، وعلى رأس الجيش الثاني كاتب بن يوحنا. فعادوا بالغنائم. وباعوا ما لم يتمكنوا من حمله. فأصبح الأقباط في حالة يرثى لها. يخبر اللَّه سبحانه وتعالى عن هذا الأمر فيقول في القرآن الكريم:

﴿فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ. وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ﴾ [١٠٠٠]

﴿وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ﴾ [١٠٠١]

﴿كَذلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ [١٠٠٢]

﴿كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ. وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ. وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ. كَذلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ. فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنْظَرِينَ﴾ [١٠٠٣]

---

٩٩٩. الأعراف: ١٣٨-١٤١.

١٠٠٠. الشعراء: ٥٧-٥٨.

١٠٠١. الأعراف: ١٣٧.

١٠٠٢. الشعراء: ٥٩.

١٠٠٣. الدخان: ٢٥-٢٩.

فكم هو جميل ما أوحى به اللَّه تعالى من وصف للعاقبة الحزينة ووالزوال في التاريخ كالقمامة للمجتمعات التي أصيبت بالقهر الإلهي. يقول تعالى:

﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا﴾ [١٠٠٤]

امتحانهم بمحاربة العمالقة في بلدة أريحا وصحراء التيه

يقول اللَّه تعالى:

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا وَآتَاكُمْ مَا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ [١٠٠٥]

إن هذه الآيات هي آيات متعلقة ببني إسرائيل زمن موسى عليه السلام. ولهذا السبب، فإن ما يقولون به «نحن حائزون على النعم مما لم يعط أحدٌ من العالمين» أو قولهم «إن الأرض المقدسة كتبت لهم وطناً» هي جمل تصح لتلك الحقبة الزمنة فقط. فكم هي الأحاديث النبوية الشريفة ومئات الآيات القرآنية التي تتحدث عن أن النبي محمداً ﷺ هو خير نعمة أتت أو ستأتي وبأنه لطف لا مثيل له من اللَّه تعالى ونعمة منه إلى الإنسانية جمعاء. أما وراثة الأرض المقدسة، فقد حدد القرآن الكريم ورثتها بقوله جَلَّ وعّلا:

﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ [١٠٠٦]

تشير هذه الآية الكريمة إلى أن أهل الظلم وظلمهم لن يستمر دائماً؛ وبأن الخير أصل، والشر عرض زائل؛ وبالتالي فإن الحاكمية، عاجلاً أم آجلاً، ستؤول إلى أيدي الصالحين. وهو ما يبين كمال الشمول في الحياة الإسلامية في هذه الدنيا.

خرج موسى عليه السلام في رحلته ليأتي بقومه إلى أرض كنعان. وكانوا سيستقرون في المكان الذي يسمى بـ«الأرض الموعودة». واختار موسى عليه السلام ممثلاً من كل فرع منهم. وأرسلهم بقيادة يوشع بن نون وكليب بن يوحنا لتحري القوم هناك. فوجد هؤلاء أن العمالقة قوم ذو بأس وقوة شديدة. ولكنهم اتفقوا على أن لا يخبروا قومهم بذلك لكي

١٠٠٤. مريم: ٩٨.
١٠٠٥. المائدة: ٢٠.
١٠٠٦. الأنبياء: ١٠٥.

لا يصيبهم الخوف وتتأثر حالتهم الروحية. علماً أن موسى عليه السلام قد نبههم إلى ذلك الأمر وأوصاهم به. ولكن هذا الجمع أخبروا قومهم بما رأوه من أمور ولم يبق على عهده إلا يوشع بن نون وكليب بن يوحنا. فتقاعس بنو إسرائيل عن الشروع في هذه الحرب:

﴿يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلاَ تَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ. قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ﴾ [١٠٠٧]

﴿قَالَ رَجُلاَنِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [١٠٠٨]

﴿قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾ [١٠٠٩]

فبنو إسرائيل بعد أن تخلصوا من ظلم فرعون وبأسه، تعرفوا على نعم الدنيا وتعودوا على الراحة. فازدادت رغباتهم ومطالبهم الدنيوية، فطالبوا موسى عليه السلام بحلوى القوة، ولحم السمان. فكانت هذه النعم تغدق عليهم كل يوم. وكان موسى عليه السلام إضافة إلى ذلك يضرب الحجر بعصاه فتخرج منه اثنتا عشرة عيناً للماء المتدفق. يقول اللّه تعالى:

﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [١٠١٠]

﴿وَإِذِ اسْتَسْقَى مُوسَى لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْناً قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ كُلُوا وَاشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللَّهِ وَلاَ تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ [١٠١١]

١٠٠٧. المائدة: ٢١-٢٢.
١٠٠٨. المائدة: ٢٣.
١٠٠٩. المائدة: ٢٤.
١٠١٠. البقرة: ٥٧.
١٠١١. البقرة: ٦٠.

﴿وَقَطَّعْنَاهُمُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَامَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [١٠١٢]

﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ قَدْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ عَدُوِّكُمْ وَوَاعَدْنَاكُمْ جَانِبَ الطُّورِ الْأَيْمَنَ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى. كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَلاَ تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي وَمَنْ يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَى. وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى﴾ [١٠١٣]

ولكون بني إسرائيل هم قوم لا تنتهي طلباتهم لا يمتلكون صبراً ولا شكراً، عادوا مرة أخرى إلى نكران الجميل وزيادة العبئ على نبيهم. ولهذا، فإن الآيات الكريمة أدناه هي خير وصف على نكران هذا القوم للمعروف والجميل. يقول تعالى:

﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نَصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مَا سَأَلْتُمْ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ [١٠١٤]

❁

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي لاَ أَمْلِكُ إِلاَّ نَفْسِي وَأَخِي فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ. قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ فَلاَ تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ [١٠١٥]

١٠١٢. الأعراف: ١٦٠.
١٠١٣. طه: ٨٠-٨٢.
١٠١٤. البقرة: ٦٠.
١٠١٥. المائدة: ٢٥-٢٦.

﴿وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ فَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ [١٠١٦]

ولكن بني إسرائيل كانوا يجحدون النعم التي أنعم اللَّه تعالى بها عليهم، ويمتنعون عن الإستجابة لموسى عليه السلام ثالث أنبياء أولي العزم. بل تخطوا ذلك الأمر فقالوا بكل غطرسة:

– إذهب أنت وربك إلى الحرب؛ فقاتلا واربح! وسنأتي بعد ذلك من خلفك!.

ولهذا السبب، حكم اللَّه تعالى عليهم بأن يتيهوا في مكان ضيق هو صحراء التيه مدة أربعين عاماً كاملاً.

فكلما أرادوا أن يخرجوا من هذا المكان عادوا والتفوا مرة أخرى وساروا إلى نفس الدائرة. وذلك إلى أن نشأ منهم نسل وجيلٌ آخر جديد...

وأخيراً، تمكن هذا الجيل الجديد المؤمن الموحد من الإنتصار على تذمّر هذا القوم فتمكنوا من دخول الأرض الموعودة. فكانت الأماكن شرق النهر أماكن محررة فسكنوا في هذه الأرض الموعودة. وهكذا تحقق وعد موسى عليه السلام.

نزول التوراة

عندما خرج موسى عليه السلام وقومه من بني إسرائيل معاً خارج مصر ونجوا جميعاً من أعدائهم، أخبرهم بأن اللَّه تعالى سيُنْزِلُ عليه كتاباً من السماء.

فترك هارون عليه السلام نيابة عنه مع القوم وقال:

– إعمل على إصلاح ما تراه من سوء أعمالهم! وأنا ذاهب إلى جبل الطور تنفيذاً لأمر اللَّه. فأصوم هناك مدة ثلاثين يوماً. وأعود ومعي كتاب سينزله اللَّه تعالى من السماء!.

ولكن قومه الجاحدين قالوا:

١٠١٦. المائدة: ١٢.

– يا موسى! إنا نريد أن يكون معك شهود منا.

فاختاروا من بينهم سبعين رجلاً. وخرجوا جميعاً إلى جبل الطور.

وتسلم موسى عليه السلام كتابه الذي وُعِدَ به من الحق تعالى. وأمره اللَّه أن يصوم مدة ثلاثين يوماً. وكانت تلك أيام شهر ذي القعدة الثلاثين. ومن ثم أكمل هذا الصيام بالأيام العشر الأولى من ذي الحجة فصام أربعين يوماً كاملاً. وأعطي الكتاب لموسى عليه السلام، وأودع وظيفة تعليمه لقومه مباشرة.

يقول اللَّه تعالى:

﴿وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلاَثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾ [١٠١٧]

لقد دُعِيَ موسى عليه السلام إلى طور سيناء مدة أربعين يوماً يتفكر فيها وينقّي فيها داخله ويراقب فيها أعماله، ويدعُو اللَّه ويتعبده ويزهد في الدنيا ويصوم طالباً الربح وصولاً إلى الكمال الذي تقتضيه هذه المهمة. فكانت هذه الأيام الأربعون عبارة عن مرحلةٍ إعداديةٍ ليتمكن موسى عليه السلام من لقاء ربه. ولهذا، عاش موسى عليه السلام حياة أخرى بعيدة عن سائر الناس، في طور سيناء، ليسبح في بحر المعاني التي توصل أخيراً إلى سعة الخالق تعالى، مبتعداً عن مشاغل الأرض وسابحاً في هدوء السماء. لأنه كان بحاجة إلى هذا الصفاء الذي ينقي روحه ويكسبها اللطف.

وكما يفهم، فإن الأيام الثلاثين الأولى كانت أياماً مخصصة للصوم والعبادة تعذيباً وتذكية للنفس ورياضة لها؛ ومن ثم، كانت الأيام العشرة الأخيرة هي أيام نزول التوراة عليه ولقاء «التحدث إلى» اللَّه تعالى. أي أن موسى عليه السلام تمكن عبر هذه الفترة بأيامها الأربعين من أن يصل إلى مرتبة معنوية عالية تخوله من التحدث إلى اللَّه ﷻ.

كما أن تحدث الآية القرآنية الكريمة عن أربعين ليلة وليس يوماً، هو إشارة إلى أن الأشهر تبدأ بالليل وليس بالنهار. ولهذا، فلا تحسب الأيام مع هذه الليالي. كما أن الليل هو وقت متميز بخصوصية خاصة. حيث أن الليل هو شاهد على العديد من التجليات الإلهية. ويتحدث القرآن الكريم عن تنزيل اللوح المحفوظ ليلاً إلى السماء الدنيا، كما كان معراج النبي محمد ﷺ...

١٠١٧. الأعراف: ١٤٢.

ومن الإشارات التي يمكن استخلاصها من بقاء موسى عليه السلام أربعين ليلة في طور سيناء هو ما يلي:

لكي يتمكن أهل الإيمان من الوصول إلى صباح التجلي، يجب عليهم في ساعات كرب الليل أن يملؤوها بالعمل. فبالفوز الإلهي والبركة تتجلى في وقت الليل وجميع أوقات الصباح الموفقة، لا تأتي إلا بعد ليالي الكرب.

لقد كانت الليالي الأربعين التي قضاها موسى عليه السلام في العمل وكأنها بأيامها الثلاثين، ليلة واحدة؛ وكان ما تلاها من أيام عشرة كسحر هذا الليل. علماً أن موسى عليه السلام كلم ربه تعالى في ساعة السحر في الفجر الصادق وتجلت أمامه فيها العديد من أمور العظمة الإلهية.

لقد صام موسى عليه السلام في جبل الطور أيامه الثلاثين بشكل متصل دون أن يترك بين هذه الأيام أيام إفطار، صيام وصل كامل؛ ولم يجع فيها أويعطش!.. أما عندما أمر أن يتبع الخضر عليه السلام بعد ذلك شق عليه الصبر نصف يوم واحد وجاع. فقال لصاحبه حينها:

– أحضر لنا طعامنا، فلنأكل!.

ذلك أن ذهابه للقاء الخضر كان امتحاناً من اللَّه تعالى. وازداد هذا الامتحان قوة بابتلاء اللَّه تعالى له. فجاع في رحلته طالباً لقاء المخلوق. أما في جبل الطور، وسفره للقاء ربه، فإنها كانت رحلة لقاء تحمل معنى الحديث مع اللَّه تعالى، وتحمل في أرجائها هيبة المكان، الذي أنساه المأكل والمشرب، وتركز فيها فكره كاملاً نحو فكرة اللقاء باللَّه تعالى.

وسمي موسى عليه السلام «كليم اللَّه» لتحدثه مع اللَّه تعالى. ولم يكن حديث موسى عليه السلام مع ربه حديثاً من خلال عضو أو آلة كاللسان وإنما كانت صفة «الكلام» بلا زمان أو جهة محددة. فلا توجد صفة من صفات اللَّه تعالى يمكن لها أن تشابه صفة البشر. فهو العالم، أي الذي يعلم كل شيء؛ ولكن علمه ليس أبداً كعلمنا. وهو القادر؛ لكن قدرته لا تكون أبداً كقدرتنا. وهو المتكلم؛ لكن كلامه ليس أبداً ككلامنا!...

إننا نتحدث من خلال عضو خلقه اللَّه لنا هو اللسان لننطق به الأحرف. أما رب العزة سبحانه وتعالى فهو منزه عن هذا الأمر. فالحروف مخلوقة. أما كلام اللَّه تعالى فليس

بمخلوق؛ فهو بلا حرف ولا آلة. ولهذا، فإن كلام اللَّه تعالى مع موسى عليه السلام، وعلى الرغم من وجود جبريل عليه السلام و ٧٠ من البشر برفقته عليه السلام، إلا أن أحداً منهم لم يدرك أو يسمع هذا الحديث.

لقد شاهد كليم اللَّه موسى بن عمران عليه السلام مشاهِدَ متعددة من العالم المعنوي. وهذه لم تكن من الأمور التي رغب بها عليه السلام. فبحسب ما يروى، لقد قدمت إليه بشكل نجهله أربعة آلاف ومئة وعشرون كلمة وأيضاً أربعة عشر كلمة، بشكل مباشر دون أي وسيط. فكانت كل كلمة تتسبب برعشة كبيرة لدى موسى عليه السلام. وتغير جسده وطبيعته بشكل كبير بسبب وصول هذه الكلمات إليه.

تتحدث الآية الكريمة عن هذه المحادثة بقوله تعالى:

﴿...وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا﴾ [١٠١٨]

لقد أرسل اللَّه تعالى إلى موسى عليه السلام آلاف المخاطبة مواساة له وتهدئة لوجدانه، ليجد من خلال هذه النعم شيئاً من الراحة والطمأنينة!... لأن موسى عليه السلام عاش حياة مليئة بالعواصف والزوابع البشرية، وكان نبياً أرسل إلى بني إسرائيل لإقامة شريعة اللَّه تعالى فيهم وهم قوم المادة والشهوة...

حكمة الرقم أربعين

إن الرقم أربعين هو رقم مهم جداً من ناحية النضوج الروحي:

أ- استمر تكوين آدم عليه السلام من الطين مدة أربعين يوماً. وبحسب ما يروى:

« إن الله عز وجل خمر طينة آدم أربعين ليلة - أو قال: أربعين يوماً» [١٠١٩]

كل يوم من هذه الأيام هو في كيفيته فترة من الزمن لا علم لنا بها.

ب- يتكون كل إنسان في بطن أمه أربعين يوماً كنطفة، وأربعين يوماً كعلقة، وأربعين يوماً كمضغة؛ ومن ثم تنفخ فيه الروح. ويروى في الصحيحين عن هذا الأمر في الحديث النبوي الشريف: فعن ابن مسعود رضي الله عنه قال:

١٠١٨. النساء: ١٦٤.

١٠١٩. الطبري، التفسير، ٦، ٣٠٧/ ٦٨٢٠.

«حدثنا رسول اللَّه ﷺ وهو الصادق المصدوق «المؤكد على صدقه» فقال:

«إن أحدكم يجمع في بطن أمه أربعين يوما، ثم علقة مثل ذلك، ثم يكون مضغة مثل ذلك، ثم يبعث الله ملكا فيؤمر بأربع: برزقه وأجله، وشقي أو سعيد...» [١٠٢٠]

ج- كما أن مدة أربعين يوماً هي مهمة جداً للأنبياء لسماع كلام الحق تعالى، فإن لهذه المدة أهمية أيضاً لأولياء اللَّه تعالى لتدفق ينابيع الحكمة من قلوبهم.

يروي لنا الحديث الشريف:

«من أخلص لله أربعين يوما ظهرت ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه» [١٠٢١]

ولهذا، فإن أسباب «العمل» أو «الأربعين» التي يتحدث عنها عند المتصوفين وتحدد بمدة أربعين يوماً للوصول إلى الرقي المعنوي، هي ما ورد في هذا الحديث الشريف وما كان من حياة عاشها موسى عليه السلام في جبل الطور كما أخبرت الآيات الكريمة.

فكما أن مدة أربعين يوماً هي ضرورية لاتصال الروح بالجسد، فإنها تحتاج أيضاً لمدة أربعين يوماً للإفتراق عنه. هكذا هي آية اللَّه في خلقه.

لقد أكد أهل العرفان على أهمية الرقم أربعة ومكعباته. فعلى سبيل المثال؛

يتكون الكون من أربعة عناصر رئيسية: الماء، الهواء، التراب والنار.

والعرش الأعظم هو من أربع زوايا؛ يحمله ثمانية ملائكة.

وأمر موسى عليه السلام بالصوم الرياضة أربعين يوماً «ليلة»؛ ومن ثم شرف بلقاء ربه جَلَّ وعّلا...

موسى عليه السلام يطلب رؤية اللَّه عزوجل

بينما كان موسى عليه السلام يكلم ربه، رُفعَ عن عينيه الستار. فكان يرى عرش الرحمن بلا زمان أو جهة بكل وضوح. وكان يسمع صوت القلم يكتب على اللوح المحفوظ. وعلى الرغم من وجود جبريل عليه السلام و٧٠ من البشر حوله، لم يتمكن أحد منهم من سماع أي شيء. ولهذا فإن موسى عليه السلام قد رفع إلى مرتبةٍ ومقامٍ رفيعيْنِ جداً.

١٠٢٠. البخاري، القدر، ١/ ٦٥٩٤؛ بدء الخلق، ٦/ ٣٣٣٢؛ مسلم، القدر، ١/ ٢٦٤٣.

١٠٢١. السيوطي، الجامع الصغير، ٢، ١٣٧/ ١٢١٤٨.

وفي نهاية الأمر، ولشدة ما أعجب سيدنا موسى عليه السلام بهذا الحديث واستلذ له، زاد شوقه بشدة. وتجلّى في نفسه حال مختلف تماماً. وأراد أن يرى اللَّه تعالى. وأصر في طلبه ذلك وألح.

فقال له جَلَّ وعّلا:

﴿...لَنْ تَرَانِي...﴾

وعندما عاد موسى عليه السلام إلى إصراره على طلبه مرة أخرى قال له جناب الحق جَلَّ وعّلا:

﴿...وَلَكِنِ انْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي﴾

ويقال أن هذا الجبل هو جبل كبير في مدين يقال له زبير.

وبحسب إحدى الروايات، فإن اللَّه تعالى أظهر لموسى عليه السلام نوراً صغيراً كحجم الدرهم من خلال سبعين حجاب.فعندما تجلى هذا النور للجبل انفلق هذا الجبل ودك دكاً. فلم يتمالك موسى عليه السلام نفسه أمام هذه القدرة وهذه العظمة فخاف وأغمي عليه.

يخبرنا اللَّه تعالى عن هذه الواقعة في القرآن الكريم بقوله:

﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ تَرَانِي وَلَكِنِ انْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [١٠٢٢]

يشير أحد أرباب التصوف إلى هذا الشأن فيقول:

أراد سيدنا موسى عليه السلام من خلال إدراكه البشري أن يشاهد طوفان الحقيقة بمعناها الأبدي. ولكن الجواب الذي حصل عليه لم يكن كما كانت رغبته. لأن إدراكه هو إدراك متصل بعين فؤاده. ولهذا، وظناً منه بأن فؤاده ارتقى إلى أعلى الدرجات، طلب رؤية ربه.

ولكن موسى عليه السلام وقع مغشياً عليه لحظة التجلي. فقيل له عندها بلسان الحال:

١٠٢٢. الأعراف: ١٤٣.

– يا موسى! هذا الظهور ليس لأجلك أنت! بل هو لليتيم الذي سيأتي من بعدك.

فقال يبتغي تأكيد هذا الخطاب:

– يا ربي! أسبحك وأنزهك. فلا يمكن لأحد أن يصل إليك إلا محمد المصطفى ﷺ من غمرته بأعلى الدرجات العلى وقربته إلى ذاتك محبة. أتوب إليك من أمر أردته ليس لي. وأنا أول من يؤمن بأن هذه المشاهدة هي لصاحب المقام الأعلى محمد ﷺ.

❁

وأيضاً بحسب ما يروى، فإن موسى عليه السلام عندما عاد من جبل الطور، كان نور اللَّه تعالى ما زال ينعكس على وجهه. ولهذا، فإنه حجب وجهه مدة ثلاثةِ أيام بحجاب.

ويخبرنا عروة بن رويم فيقول:

«كان موسى لم يأت النساء منذ كلمه ربه وكان قد ألبس على وجهه برقع فكان لا ينظر إليه أحد إلا مات فكشف لها عن وجهه فأخذتها من غشيته مثل شعاع الشمس فوضعت يدها على وجهها وخرت لله ساجدة»[١٠٢٣]

ويقول وهب بن مُنَبّه:

«كلم الله موسى من ألف مقام فكان كلما كلمه رأى النور على وجهه ثلاثة أيام» [١٠٢٤]

أغمي على سيدنا موسى عليه السلام ووقع أمام هذا التجلي الإلهي على جبل الطور، ووجب عليه تغطية وجهه مدة ثلاثة أيام لشدة انعكاس النور الإلهي على وجهه. علماً أن النبي ﷺ، وببيان واضح في القرآن الكريم كان «قاب قوسين أو أدنى»[١٠٢٥] من سدرة المنتهى، بل وإلى ما هو بعدها في ليلة المعراج، في لقائه مع ربه، وحصل على نعمة اللقاء والمشاهدة. ولهذا، يوضح أهل النظرات السبب في عدم بقاء تأثير هذا اللقاء على وجه النبي ﷺ كما حصل مع موسى عليه السلام بقولهم: كان موسى عليه السلام أثناء معايشته هذه الأحوال صاحب «تلوين»[١٠٢٦]

١٠٢٣. السيوطي، الدر المنثور في التفسير بالمأثور، ٣، ١١٦.

١٠٢٤. السيوطي، الدر المنثور في التفسير بالمأثور، ٣، ١١٦.

١٠٢٥. انظر: النجم، ٩.

١٠٢٦. تلوين: الحالات المتعقبة التي يسلكها المرء وصولًا إلى التمكين، انتقال من حالة إلى حالة أخرى.

أما النبي ﷺ فكان صاحب «تمكين»[١٠٢٧]. بهذا المعنى؛ كان الرسول الأكرم ﷺ في حالة دائمة من «راحة المشاهدة». ولم يكن المعراج إلا انتقالاً من حالة راحة إلى حالة راحة أخرى، ومن لذة «مشاهدة» إلى لذة «مشاهدة» أخرى.

ولهذا نجد أن الحديث النبوي الشريف يقول:

«إني لست كأحد منكم إني أطعم وأسقى»[١٠٢٨]

«لي مع الله وقت لا يسعني فيه ملك مقرب ولا نبي مرسل»[١٠٢٩]

❁

يقول أهل اللَّه أيضاً، في تفسير قوله تعالى لموسى عليه السلام: «إنك لن تراني!» بأنه تحتوي على الإشارة التالية:

«يا موسى! ما دمت موجوداً، أي أنك ما دمت لم تفنَ عندي بعد، فأنا محجوب عنك. أما عندما تفنى عندي، فعندها سأكون بيناً -سأظهر- عليك».

أي كما أن النجوم لا تظهر في السماء عند وجود الشمس؛ وكما تختلط مياه النهر عند وصولها إلى البحر؛ وكما يغيب الحجر عن مستوى العين بعد أن يرمى بعيداً؛ وكيف يفقد الطحين شكله بعد أن يدخل غذاءً إلى الجسد؛ كذلك الأمر، فإن اللَّه تعالى لا يظهر للعبد الفاني بجسده المصنوع من التراب، فيكون عند اللَّه تعالى فانياً وبعيداً.

ولهذا، نجد أن جلال الدين الرومي كان ينتظر لحظة الموت بكل شوق تخلصاً من أسر النفس. وكان يسمي هذه اللحظة بأنها «تشبه العروس، ليلة زواجها».

ويقول حَلاّج المنصور أيضاً في حالة من السكر المعنوي:

«أصدقائي! اقتلوني! فنجاتي هي موتي!».

ويقال عن هذه الحالة في علم التصوف بأنها «وحدة الوجود» أو «وحدة الشهود». ولكنه حال مؤقت. ولا يعلم ماهية هذا الحال بحق إلا من عاشه وحده.

❁

١٠٢٧. تمكين: التعمق في الاتجاه، والثبات؛ وتحوله إلى مقام الاقرار باللهَّ تعالى من الأعماق.

١٠٢٨. علي المتقي، كنز العمال، ٣، ٣٢-٤٢/ ٥٣٢٢.

١٠٢٩. العجلوني، كشف الخفاء، جـ٢، ص ١٧٣/ ٢١٥٩.

عندما كلم اللَّه تعالى موسى عليه السلام بصفة الكلام الأزلية، غمر بحالة لذيذة وتذوق رائع. وبينما هو في هذه الحال يطلب من اللَّه « يا ربي! أرني أنظر إليك!» وألح في طلبه. فانفلق الجبل بنتيجة هذا الطلب وفقد موسى وعيه مغشياً عليه. وعندما أفاق عليه السلام اسغفر ربه. لقد كان موسى عليه السلام عندما سمع كلام اللَّه كمن نسي حاله في هذه الحياة الدنيا، ظاناً نفسه في الآخرة؛ في الجنة واصلاً إلى جمال اللَّه ﷻ.

ويروى أن الجبل لما انفلق من الشعاع الصغير المتجلي من النور الإلهي أصبح قطعاً صغيرة انتشرت كل واحدة منها في مكان. فأصبح الجبل كحبات الطحين المنثور على السهل. وأصبح الماء الذي نثر فيه هذا الجبل ماءً عذباً يشفي كل من شرب منه.

يحدثنا اللَّه تعالى عن القرآن الكريم الذي هو تجلٍ كبير للكلام الإلهي، فيقول في الآية الكريمة:

﴿لَوْ أَنْزَلْنَا هذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [١٠٣٠]

ولهذا السبب، فإن الجبال على ضخامتها، والسماوات ووسعتها والأرض وثباتها، تثاقلن من حمل الأمانة الإلهية وأشفقن منها. يحدثنا الحق سبحانه وتعالى عن هذه الحقيقة بقوله:

﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمواتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً﴾ [١٠٣١]

❁

بعد محادثة موسى عليه السلام مع ربه، بدأت التوراة بالنزول. فنزلت على شكل سبعة ألواح أو عشراً. وكانت ٤٠ جزءً. وبينما كانت التوراة تتنزل، وقف جبريل عليه السلام مُكلِّفاً كل ملك من الملائكة بحمل حرف من هذه الأحرف. فوقفت هذه الملائكة على طرف جبل الطور تقدم التوراة إلى موسى عليه السلام.

١٠٣٠. الحشر: ٢١.
١٠٣١. الأحزاب: ٧٢.

مقابلة عند جبل الطور

يحدثنا رسول اللَّه ﷺ عن ملاقاة موسى عليه السلام بربه عند جبل الطور بقوله عليه الصلاة والسلام:

«سأل موسى ربه عن ست خصال كان يظن أنها له خاصة، والسابعة لم يكن موسى يحبها، قال: يا رب أي عبادك أتقى؟ قال: الذي يذكر الله ولا ينسى، قال: فأي عبادك أهدى؟ قال: الذي يتبع الهدى، قال: فأي عبادك أحكم؟ قال: الذي يحكم للناس كما يحكم لنفسه، قال: فأي عبادك أعلم؟ قال: عالم لا يشبع من العلم، يجمع علم الناس إلى علمه؛ قال: فأي عبادك أعز؟ قال: الذي إذا قدر عفا، قال: فأي عبادك أغنى؟ قال: الذي يرضى بما أوتي، قال: فأي عبادك أفقر؟ قال: صاحب سفر...»[١٠٣٢]

عجل من الذهب

بعد أن عبر بنو إسرائيل مع موسى عليه السلام البحر الأحمر، وجدوا قوماً يعبدون أصناماً على شكل الثور. فقالوا لموسى عليه السلام:

- إجعل لنا إله كما لهم آلهة، نعبده!.

فنصحهم موسى عليه السلام وأخبرهم بأن هذا الأمر هو شرك عظيم. فندموا وتابوا.

ولكن، عندما أوكل موسى عليه السلام أخاه هارون وكيلاً على قومه وذهب إلى جبل الطور، قام السامري الذي كان يهودياً منهم يخفي كفره عن القوم بجمع القوم وصنع لهم عجلاً مستفيداً من غياب موسى عليه السلام. ومن ثم قال لهم:

- هذا هو إله موسى! ولكن موسى نسي ربه!. وأراد من القوم أن يعبدوا هذا الصنم.

وكان السامري فناناً. فصنع عجله بفن متقن جعل الرياح عندما تدخل من طرفه وتخرج من الطرف الآخر تصدر صوتاً وكأنه صوت خوار العجل الحي. وتمكن من صنع ذلك من خلال الثقوب التي فتحها في جوفه بطريقة تتغير فيها حدة الخوار تبعاً لشدة الريح. ومن ثم قال لهم السامري:

- أنظروا، ها هو إلهكم يتحدث إليكم.

١٠٣٢. علي المتقي، كنز العمال، ١٥، ٨٩٩-٩٠٠/ ٤٣٥٤٩.

وهكذا، لقن السامري لبني إسرائيل ألوهية هذا العجل فاتبعه جزء منهم مبتعدين عن دين الحق. وعمل هارون عليه السلام على تنبيههم بشدة وإصرار ولكنهم لم يستمعوا إليه. ويحدثنا القرآن الكريم عن هذا الحال فيقول تعالى في الآيات الكريمة:

﴿وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِن قَبْلُ يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُمْ بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي﴾ [١٠٣٣]

﴿قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى﴾ [١٠٣٤]

﴿قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ﴾ [١٠٣٥]

﴿وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِن بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلاً جَسَدًا لَهُ خُوَارٌ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لاَ يُكَلِّمُهُمْ وَلاَ يَهْدِيهِمْ سَبِيلاً اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ﴾ [١٠٣٦]

﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِنْ بَعْدِي أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ وَأَلْقَى الْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [١٠٣٧]

﴿قَالَ يَا هَارُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا. أَلاَّ تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي. قَالَ يَا ابْنَ أُمَّ لاَ تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلاَ بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي﴾ [١٠٣٨]

كان موسى وهارون أخوين لنفس الأب والأم. ولهذا، فإن قول هارون عليه السلام لموسى «يا ابن أم» إن هو إلا وسيلة لجلب رحمة موسى عليه السلام. ذلك أن الأم هي أشد رحمة من الأب، إضافة إلى أن أمهم كانت امرأة مؤمنة تحب أولادها وأماً صالحة اكتسبت احترامهم.

١٠٣٣. طه: ٩٠.
١٠٣٤. طه: ٩١.
١٠٣٥. طه: ٨٥.
١٠٣٦. الأعراف: ١٤٨.
١٠٣٧. الأعراف: ١٥٠.
١٠٣٨. طه: ٩٢-٩٣.

﴿قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ [١٠٣٩]

﴿فَرَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ يَا قَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُمْ مَوْعِدِي﴾ [١٠٤٠]

﴿قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَلَكِنَّا حُمِّلْنَا أَوْزَارًا مِنْ زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ. فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلاً جَسَدًا لَهُ خُوَارٌ فَقَالُوا هذَا إِلهُكُمْ وَإِلهُ مُوسَى فَنَسِيَ﴾ [١٠٤١]

فيطلب موسى عليه السلام منهم أن يتوبوا عن هذه الأفعال القبيحة. وكان شرط هذه التوبة هو الندم الشديد وقتلهم أنفسهم. فقالوا:- نصبر!. وانتظروا حكم اللَّه عليهم.

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [١٠٤٢]

وكان المكلفون بالقتل يضعون السيف على رقبة كل ممن وجب عليهم القتل وينتظرون. وكان خلف كل رجلٍ عَبَدَ هذا الصنمَ رجلٌ ينتظر الحكمَ ليضربَ له رأسَه. بل وكان مَنهم أقارب أيضاً:

﴿وَلَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِنْ لَمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [١٠٤٣]

وأمام هذا الأمر، ولشدة ما كانا عليه من الرحمة، بكى موسى وهارون عليهما السلام ودعوا اللَّه. فنزلت الآية وقبلت توبة التائبين:

﴿وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِهَا وَآمَنُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [١٠٤٤]

ومن ثم قال اللَّه تعالى:

١٠٣٩. الأعراف: ١٥١.
١٠٤٠. طه: ٨٦.
١٠٤١. طه: ٨٨.
١٠٤٢. البقرة: ٥٤.
١٠٤٣. الأعراف: ١٤٩.
١٠٤٤. الأعراف: ١٥٣.

﴿ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ مِنْ بَعْدِ ذلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [١٠٤٥]

ثم التفت موسى عليه السلام إلى السامري فقال له:

﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَا سَامِرِيُّ. قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي﴾ [١٠٤٦]

بحسب رواية المفسرين، فإن السامري ما رآه السامري ولم يره بقية القوم وأخذ منه حفنة من التراب هو جبريل عليه السلام عندما ظهر لموسى عليه السلام. فكان السامري يتنبه إلى اخضرار الأرض عند موضع قدم حصان جبريل عليه السلام، فأخذ حفنة من هذا التراب ونثرها على الذهب الموقد في النار.

﴿قَالَ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَنْ تَقُولَ لَا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَنْ تُخْلَفَهُ وَانْظُرْ إِلَى إِلَهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا﴾ [١٠٤٧]

وبحسب ما يروى، فإن السامري بعد دعاء موسى عليه السلام عليه أصيب فعلاً بمرض شديد ومعدي جعل منه يضطر إلى البقاء بقية حياته بعيداً عن الناس.

﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَكَذلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ﴾ [١٠٤٨]

❁

﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الْأَلْوَاحَ وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ﴾ [١٠٤٩]

ويطلب اللَّه تعالى من موسى عليه السلام إحضار سبعين رجلاً من قوم بني إسرائيل نيابة عن الذين عبدوا العجل وتابوا إلى اللَّه بعد ذلك وأن يقفوا جميعاً بين يديه يرجون التوبة والمغفرة.

١٠٤٥. البقرة: ٥٢.
١٠٤٦. طه: ٩٥-٩٦.
١٠٤٧. طه: ٩٧.
١٠٤٨. الأعراف: ١٥٢.
١٠٤٩. الأعراف: ١٥٤.

فيختار موسى عليه السلام سبعين رجلاً من القوم ويذهب بهم جميعاً إلى جبل الطور. ولكن القوم الجاحدين يطلبون رؤية اللّه تعالى. فتهتز الأرض في زلزلة شديدة ويخرون مغشياً عليهم. فيدعو موسى عليه السلام ربه فيذهب عنهم هذه الكارثة.

يقول تعالى في الآيات القرآنية الكريمة:

﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ. ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [١٠٥٠]

﴿وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلاً لِمِيقَاتِنَا فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِيَّايَ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا إِنْ هِيَ إِلاَّ فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَنْ تَشَاءُ وَتَهْدِي مَنْ تَشَاءُ أَنْتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ﴾ [١٠٥١]

ويكمل موسى عليه السلام دعاءه فيقول:

﴿وَاكْتُبْ لَنَا فِي هـذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَـا إِلَيْكَ ...﴾ [١٠٥٢]

﴿...قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ. الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [١٠٥٣]

١٠٥٠. البقرة: ٥٥-٥٦.

١٠٥١. الأعراف: ١٥٥.

١٠٥٢. الأعراف: ١٥٦.

١٠٥٣. الأعراف: ١٥٦-١٥٧.

يروي الصحابي قتادة بن نعمان ﷺ بأن موسى عليه السلام قال:

– رب، إني أجد في الألواح أمة خير أمة أخرجت للناس، يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، فاجعلهم أمتي!

فيقول اللّه تعالى: تلك أمة أحمد.

فيقول موسى عليه السلام: رب، إني أجد في الألواح أمة هم الآخرون –أي آخرون في الخلق –السابقون في دخول الجنة، رب اجعلهم أمتي.

فيقول اللّه تعالى: تلك أمة أحمد.

فيقول موسى عليه السلام: رب، إني أجد في الألواح أمة أناجيلهم في صدورهم يقرءونها –كتابهم – رب، اجعلهم أمتي.

فيقول اللّه تعالى: تلك أمة أحمد.

فيقول موسى عليه السلام: رب، إني أجد في الألواح أمة يؤمنون بالكتاب الأول، وبالكتاب الآخر، ويقاتلون فصول الضلالة، حتى يقاتلوا الأعور الكذاب، فاجعلهم أمتي.

فيقول اللّه تعالى: تلك أمة أحمد.

فيقول موسى عليه السلام: رب، إني أجد في الألواح أمة صدقاتهم يأكلونها في بطونهم، ويؤجرون عليها، رب، اجعلهم أمتي.

فيقول اللّه تعالى: تلك أمة أحمد.

فيقول موسى عليه السلام: رب، إني أجد في الألواح أمة إذا هم أحدهم بحسنة ثم لم يعملها، كتبت له حسنة، فإن عملها، كتبت له عشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف، رب اجعلهم أمتي.

فيقول اللّه تعالى: تلك أمة أحمد.

قال: قتادة فذكر لنا أن نبي الله موسى نبذ الألواح، وقال: اللهم اجعلني من أمة أحمد.[١٠٥٤]

نحن والحمد لله، أتينا إلى هذه الدنيا من أمة محمد مجاناً يعني أنّ اللّه تعالى جعلنا مِن أمة محمد ﷺ بدون أن نبذل أية جُهدٍ أو نقدم أية مشقة، أو ندفع لذلك أي ثمن. ولهذا، مهما شكرنا اللَّه على ذلك فهو أمر قليل. ولكن، وكما أن لكل شيء ثمن فإن لهذا الأمر

١٠٥٤. انظر: ابن كثير، التفسير، ٢، ٤٧٨–٤٧٩.

أيضاً ثمن. ولهذا فإن علينا أن ندرك حق المسؤولية في أن نكون من هذه الأمة، وأن نعيش حياة خيرة تليق بهذه الأمة، لنأخذ نصيبنا يوم القيامة إلى جوار الحبيب المصطفى ونكون أهلاً لشفاعته.

❁

عاش بنو إسرائيل بعد ذلك مدة من الزمن بهدوء. ومن ثم عادوا إلى جحودهم. فقالوا لنبيهم موسى عليه السلام بأنهم يستصعبون تطبيق أحكام التوراة وبأنها أحكام قاسية. نسوا ما عاهدوا اللَّه عليه حين تابوا إليه. فرفع اللَّه تعالى طور سيناء فوقهم في معجزة إلهية. فجزعوا جزعاً شديداً. وسجدوا جميعاً. وظنوا أن الجبل سيهبط عليهم. قال تعالى:

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ. ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ مِنْ بَعْدِ ذلِكَ فَلَوْلاَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [١٠٥٥]

ولكن بني إسرائيل استمروا على ما كانوا عليه من حال. فأصيب من تخطى حدوده منهم بغضب اللَّه تعالى الإلهي:

﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ. فَجَعَلْنَاهَا نَكَالاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ﴾ [١٠٥٦]

لقد مسخ اللَّه تعالى من أصر على الإعتداء والعمل الباطل من بني إسرائيل قردة، ثم أهلكهم بعد ذلك. ولا علاقة لهذا الأمر بالادعاء الباطل حول أصل البشر الذي يعود إلى القردة. كما أن من مسخ منهم قردة لم يتناسلوا ولم يلدوا نسلاً بعد ذلك.

يقول اللَّه تعالى:

﴿فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [١٠٥٧]

١٠٥٥. البقرة: ٦٣-٦٤.

١٠٥٦. البقرة: ٦٥-٦٦.

١٠٥٧. المائدة: ١٣.

وكان التوراة نسخة واحدة. ولم يكن محفوظاً بشكل كامل عند أحد من الناس. وعندما وقع بنو إسرائيل في الأسر عند أهل بابل، ضاعت النسخة الوحيدة للتوراة. وبعد سنوات طويلة من الأسر، وعندما تحرر بنو إسرائيل مما هم فيه من الأسر، قاموا بكتابة بعض الأجزاء التي عملوا على تذكرها مما كان في التوراة. أما ما هو موجود اليوم من نسخ التوراة فهو هذه الأجزاء الناقصة المحرفة وجزء من حياة موسى عليه السلام.

ذبح البقرة قرباناً

وجد رجل غني جداً من بني إسرائيل يدعى عامل مقتولاً. وكان قاتله هو ابن عمه. ويروى عن أسباب هذا القتل ما يلي:

١. قتله ابن عمه حسداً على ثروته لكونه فقيراً وابن عمه بخيل جداً.

٢. تزوج عامل من امرأة، فقتله ابن عمه لأنه أراد أن يتزوج هذه المرأة.

ومن ثم ترك القاتل هذا القتيل في مكان بين قريتين. عملاً منه لتكون هتين القريتين خصمين لبعضهما البعض.

يتجه الشعب إلى موسى عليه السلام يريدون أن يجد لهم القاتل، وينفذون فيه حكم القصاص. ولكن موسى عليه السلام تردد في قضية معرفة القاتل ولم يصل بها إلى نتيجة. فدعا اللَّه تعالى. فأمره اللَّه أن يطلب من القوم أن يذبحوا بقرة قرباناً.

فقال بنو إسرائيل لموسى عليه السلام:- وما هي العلاقة بين ذبح بقرة ومعرفة القاتل؟! أتسخر منا؟» مع أنهم باعتراضهم هذا، ودون أن يشعروا، كانوا يعترضون على فكرة التسليم بأمر اللَّه بدخولهم في هذا الإمتحان.

فقال لهم موسى عليه السلام: إنما أبلغكم أمر ربي!. تقول الأية الكريمة:

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُواً قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ. قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لاَ فَارِضٌ وَلاَ بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذلِكَ فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرونَ. قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا لَوْنُهَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ﴾ [١٠٥٨]

١٠٥٨. البقرة: ٦٧-٦٩.

ويجد اليهود هذه البقرة بما عليها من أوصاف عند امرأة لديها طفل يتيم. ولكن المرأة لم تكن تريد أن تبيع هذه البقرة لأنها مصدر رزقها الوحيد. فطلبت منهم ١٠٠٠ حجز.

فيقول لهم موسى عليه السلام:

- أعطوا المرأة ما أرادت وخذوا البقرة!» فيقبل بنو إسرائيل بألف حجز. ولكن المرأة هذه المرة ترفع سعر البقرة إلى ٢٠٠٠ حجز.

فلم يرغب القوم في شراء هذه البقرة لأنهم وجدوا أن سعرها اصبح مرتفعاً جداً، فتوجهوا مرة أخرى إلى موسى عليه السلام:

﴿قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّآ إِنْ شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ. قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لاَ ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلاَ تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لاَ شِيَةَ فِيهَا قَالُوا الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ﴾ [١٠٥٩]

كاد القوم أن يعدلوا عن ذبح هذه البقرة، لأن هذا الوصف كان يشير مرة أخرى إلى نفس البقرة التي تمتلكها هذه المرأة. إضافة إلى أن المرأة زادت سعرها بشكل كبير جداً وصل إلى ١٠٠٠٠ حجز. ثم قالت لهم: «- ستشترون هذه البقرة، وستذبحونها، وتأخذون جلدها وتصنعون منه كيساً تملأونه بالذهب وتعطونه إلي! فلا أبيعها لكم إلا بهذا الشكل».

فيعود بنو إسرائيل إلى موسى عليه السلام يسألونه. فقال لهم:

- اشتروا هذه البقرة مهما كان الثمن!.

فقال القوم عندها:

- إذن، فلنأخذها الآن، وليحل الأمر محله؛ وإلا فلن نتمكن بعدها من دفع ثمنها». واشتروا البقرة أخيراً.

يقول اللّه تعالى:

﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْساً فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ [١٠٦٠]

١٠٥٩. البقرة: ٧٠-٧١.

١٠٦٠. البقرة: ٧٢.

لكن بني اسرائيل لم يردوا هذه المرة أن يدفعوا ثمن البقرة. فقال لهم موسى:

- إذا لم تدفعوا ثمنها، فلن يبعث الميت!.

فما كان منهم إلا أن صنعوا من جلد البقرة كيساً رغماً عنهم وملؤُه ذهباً وأعطوه للمرأة.

﴿فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [١٠٦١]

وقوله تعالى «فقلنا اضربوه ببعضها!» هي لتحويل انتباههم بشكل أكبر إلى هذه الحادثة. ولهذا، حضرت المراسيم وتحققت المعجزة في العقبة. فاللَّه سبحانه وتعالى قادر على أن يحيي الموتى بقدرته دون أن يكون هناك أي سبب آخر.

وأخيراً، يضرِبُ القوم القتيل بِلسانِ البقرة فَيُبعثُ الميت وهو في دمه ويروي حقيقة هذا الأمر:

«- قتلني أولاد عمي. فلان وفلان...». وأخبر بأسمائهم ومن ثم مات مرة أخرى.

فنفذ حكم القصاص مباشرة في حق هذين الشابين اللذين ارتكبا هذه الجريمة.

❁

العبر في هذه القصة

- إن كل اعتراض قام به بنو إسرائيل كان سبباً في زيادة أزماتهم. فهم مثلاً لو نفذوا الأمر الإلهي فور بلوغه إليهم لكان بإمكانهم أن يذبحوا أية بقرة كانت، ولكان الأمر الإلهي قد وفي خير وفاء. ولكنهم عبر أسئلتهم المتكررة، كانوا كمن لا يرغب في ذلك الأمر فصعبوا على أنفسهم الأمر بفعل أيديهم. فكانت اعتراضاتهم الشديدة وعدم معرفتهم قدر أنفسهم هما سببان في حصولهم على نتيجة قاسية ومؤلمة.

- لا يجوز توجيه الأسئلة التي لا ضرورة لها. كما هو الحال في حوادث القضاء والقدر والحوادث العامة، فإنه لا يجوز التعمق في الأسباب... أي أن على المرء أن يقبل ويسلم بقضاء اللَّه تعالى فيما أوضحه من خصوص. وزيادة الأسئلة والإعتراضات هي أمور لا تؤدي إلا إلى زيادة البلاء والتهديدات، الأمر الذي يثقل حمل هذه المسؤولية.

١٠٦١. البقرة: ٧٣.

لهذا، نجد أن رسول اللَّه ﷺ يقول:

«... ذروني ما تركتكم، فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم، فإذا أمرتكم بشيء فأتوا منه ما استطعتم، وإذا نهيتكم عن شيء فدعوه» [١٠٦٢]

- أُمِرَ بنو إسرائيل بذبح بقرة لما كان منهم قبل ذلك من عبادة لها. وذلك ليروا بأم أعينهم أن لا ألوهية في البقرة. فبنو آدم قد يخطؤن في بعض الأحيان لما في نفوسهم من مشاعر العبودية، فيحاولون أن يختاروا آلهتهم ضمن الأطر والمعايير التي يعرفونها في عالمهم، ومن خلال صلاحية الإدراك المحدود الذي هم عليه فيقعون عبر ذلك في الشرك والضلال.

- مع تثاقل بني إسرائيل في اتباع أمر اللَّه، فإنهم لا يتمكنون من إيجاد القاتل وهو ما أدى إلى زيادة التوتر والمشاجرات فيما بينهم. ومع ذبح البقرة ومعرفة القتلة، حصل الجميع على السكينة.

- كان العديد من بني إسرائيل مترددون في الإيمان بقضية «**البعث بعد الموت**». ومع هذه الحادثة البينة ذهب عنهم هذا الضعف.

لقاء سيدنا محمد ﷺ مع موسى عليه السلام ليلة المعراج

التقى سيدنا محمد ﷺ بموسى عليه السلام ليلة المعراج مرات عدة.

قال رسول الله ﷺ:

« ...ففرض الله عز وجل على أمتي خمسين صلاة، فرجعت بذلك، حتى مررت على موسى، فقال: ما فرض الله لك على أمتك؟ قلت: فرض خمسين صلاة، قال: فارجع إلى ربك، فإن أمتك لا تطيق ذلك، فراجعت، فوضع شطرها، فرجعت إلى موسى، قلت: وضع شطرها، فقال: راجع ربك، فإن أمتك لا تطيق، فراجعت فوضع شطرها، فرجعت إليه، فقال: ارجع إلى ربك، فإن أمتك لا تطيق ذلك، فراجعته، فقال: هي خمس...» [١٠٦٣]

وأهم ما في هذه الحادثة من موعظة هو ضرورة الإستفادة من التجارب السابقة.

١٠٦٢. مسلم، الحج، ٤١٢/ ١٣٣٧..

١٠٦٣. البخاري، الصلاة، ١/ ٣٤٩؛ مسلم، الإيمان، ٢٦٣/ ١٦٣

قارون

كان عمُّ موسى عليه السلام أو ابنُ عمهِ. وكان أفضل الناس قراءة للتوراة بعد نزولها على موسى عليه السلام. وكان شديد الفقر، يعتاش من مساعدة الآخرين له. وبدعاء موسى عليه السلام له، أعطي علم صناعة الذهب من المواد القيمة.

وقبل أن يؤمن لموسى عليه السلام، كان قارون ممثل بني إسرائيل لدى فروعون. وكان يؤذي كل من خدم تحت إمرته. وبعد أن آمن مع موسى، أعطي العلم والحكمة والعبادة.

ولكن الشيطان الملعون أتى إليه على صورة بشر وأصبح صديقاً له. ومن ثم وجد فرصته المؤاتية فقال له:

– يا قارون! عوضاً عن المعيشة بما يقتسمه الناس لنا، فلنذهبن للعمل يوماً ونتعبد بقية الأيام الستة!.

أعجب قارون بهذه النصيحة. فنزلا إلى المدينة وعملا يوماً. وتعبد اللَّه تعالى بقية الأيام الستة يقتات مما اكتسبه من عمله في هذا اليوم الواحد.

بعد أن حصل الشيطان على خطوته الأولى، قال له هذه المرة:

– يا قارون! أرأيت؛ لم نكن بحاجة لأحد! تعال؛ لنعملن نصف أيام الأسبوع نكتسب فيها المال، ولنتعبد في الأيام الباقية! ونستطيع بذلك أن ننفق ما فاض من المال في سبيل اللَّه على الفقراء والمحتاجين فتكون لنا فرصة الإنفاق أيضاً.

بعد ما قام به من تنازل في المرة الأولى، أعجب قارون مرة أخرى بهذا الرأي بشكل أكثر مما سبق وقبل به أيضاً.

وبهذا وفق الشيطان فيما فكر به من حيلة. وازدادت فترة العمل أكثر فأكثر:

– لنعمل أكثر من هذا ونربح مالاً أكثر! فنتعبد اللَّه بهذا المال ونفرح عدداً أكبر من الفقراء!.

وهكذا، مالت نفس قارون شيئاً فشيئاً إلى الحياة الدنيا، ودخل في نفق حبها. وأصبح عبر ما رزقه اللَّه من علم صناعة الذهب بدعاء موسى عليه السلام له رجلاً من الأغنياء جداً. وامتلأ قلبه بالحرص على الدنيا. وخسر في هذه الأثناء كل ما كان يمتلكه من صفات حسنة ونزاهة. علماً أن غناه لم يكن إلا عبر ما علمه موسى من علم.

تقول الآية القرآنية الكريمة:

﴿إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لاَ تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ الْفَرِحِينَ﴾ [١٠٦٤]

ويبدأ قارون الذي امتلأ قلبه بحب الدنيا يتذمر من نصائح موسى عليه السلام له؛ وأصبح لا يحتمل وصاياه ونصائحه. ومع إعطاء وظيفة ذبح القرابين «الحبر»إلى الليفيين الذين هم من قومه وهارون عليه السلام، بدأت الصفات القبيحة التي امتلأت في قلبه بالظهور إلى وضح النهار بشكل كبير و واضح. فغضب غضباً شديداً ولم يحتمل نفسه فذهب إلى موسى عليه السلام وقال له:

– يا موسى! لقد أعطيت الحبرية «وظيفة ذبح القرابين» إلى أخيك هارون. وليس لي شيء مماثل لذلك! مع أني أقرأ التوراة بشكل جيد جداً. ولهذا، فأنا أعلى مرتبة من هارون! فكيف لي أن أصبر على هذا الظلم؟!.

فقال له موسى عليه السلام مجيباً:

– لست أنا من أعطى هارون هذه الوظيفة وهذا المقام، بل هو اللَّه تعالى!.

لكن قارون امتنع وقال:

– إن لم تظهر لي علامة فلَن أقبل بذلك أبداً!.

فجمع موسى عليه السلام رؤساء بني إسرائيل وقال:

– أحضروا عصيكم! وضعوها جميعاً في مكان محدد. فمن اخضرت عصاه فهو من يستحق أن يكون حبراً.

فأحضرت العصي؛ ووضعت في المكان الذي يتعبدون فيه. فلم تخضر إلا عصا هارون عليه السلام وأخرجت الأوراق الخضراء منها.

وأمام تجلي هذه المعجزة الإلهية، التفت موسى عليه السلام إلى قارون وقال له:

– يا قارون! أأنا من فعل ذلك؟.

١٠٦٤. القصص: ٧٦.

وكان قارون متفاجئاً. ولكنه على الرغم مما رآه من حقيقة الأمر إلا أنه بقي متبعاً لهوى نفسه وقال:

– ليس هذا إلا عمل من أعمال السحر!». ومن ثم ترك ذلك المجلس غاضباً.

ويأمر اللَّه تعالى قوم بني إسرائيل أن يضعوا شريطاً أزرق على ألبستهم. فيمتنع قارون عن ذلك أيضاً ويقول:

– ليس هذا إلا لفصل الأسياد عن العبيد!». ولم يضع هذا الشريط.

وهكذا ازداد حنق قارون على موسى عليه السلام كثيراً. وكان الحسد في نفسه يحرق أوصاله ويذيبها. وكان يجتذب الناس إليه بتقديم الضيافة ويعمل على تفضيل نفسه عبر أحاديث معينة يقولها.

وفي يوم من الأيام، وبناءً لأمر من اللَّه تعالى، يقوم موسى عليه السلام بحساب مقدار الزكاة المستوجبة على قارون من ماله ويطلبها منه. فيقول قارون:

– والآن سلطت عينيك على مالي؟ إنني أنا من اكتسب هذا المال!.

يقول اللَّه تعالى في خطاب قارون بقوله:

﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلاَ تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلاَ تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ [١٠٦٥]

﴿قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِندِي أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلاَ يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ. فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ. وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ﴾ [١٠٦٦]

١٠٦٥. القصص: ٧٧.

١٠٦٦. القصص: ٧٨-٨٠.

افتراء بشع

وفي أحد الأيام، يجمع قارون قوم بني إسرائيل. وينادي موسى عليه السلام أيضاً ويقول:

– الآن يا موسى! أخبرنا بأوامر اللّه في هذه الأمور: ما هو عقاب من يسرق، وما هو عقاب من يزني، وإن كنت أنت من فعل ذلك فما هو عقابك؟!.

فيجيبه موسى عليه السلام:

– تقطع يد من يسرق، ويرجم من يزني!.

فيكرر قارون سؤاله:

– وإن كنت أنت الفاعل!؟

فيقول موسى عليه السلام:

– العقاب نفسه.

وأمام هذا الجواب، ينادي قارون امرأة من بين الجمع كان قد اتفق معها في خطة سافلة محضرة مسبقة، فقال:

– يا أيَّتها المرأة، تعالي! تعالي وأخبري بما كان بينك وبين موسى من فعل قبيح وقلة عفة!.

فاحتد موسى عليه السلام بشدة أمام هذا الافتراء العظيم وغضب غضباً شديداً.

وفي هذه الأثناء، تقترب المرأة منهم. وتحاول أن تنطق بشيء إلا أن لسانها يعقد عن الحديث، فلم تستطع قول أي شيء.

فيسألها موسى عليه السلام بحدة:

– يا أيَّتها المرأة! بحق اللّه تعالى فالق البحر ومنزل التوراة أجيبي بالحقيقة: هل أعرفك؟ وهل لي أي علاقة بك؟

فتقول المرأة بندم كبير:

– يا موسى! لقد أعطاني قارون مالاً كثيراً واحتال علي لكي ألفق إليك هذا الإفتراء.

فسجد موسى عليه السلام وقال:

– يا ربي! أعطهم عقابهم!.

وأمام هذا الدعاء، انشقت الأرض. ووقع في جوفها قارون بخطته السافلة وكل من تبعه بكل ما امتلكوه من خزائن. يقول اللَّه تعالى:

﴿فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنْتَصِرِينَ﴾ [١٠٦٧]

لقد أهلك قارون بميله إلى الدنيا وحسده للآخرين. ولهذا، تحدثنا الآية الكريمة عن ضرورة اللجوء إلى اللَّه تعالى من شر الحاسدين بقوله تعالى في سورة الفلق:

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ. مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ. وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ. وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ. وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾ [١٠٦٨]

إن عاقبة الحاسدين ليست إلاّ الخسارة.

ولهذا، نجد أن الناس بعد رؤيتهم لما آل إليه قارون وأعوانه تندموا على ما ظنوا به من أمر وقالوا بكل ندامة:

﴿وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلاَ أَنْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيْكَأَنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ. تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لاَ يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلاَ فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [١٠٦٩]

وفي عبرة إلى الأمة من خلال قصة قارون هي أن عاقبة وخيمة هي تلك التي تنتظر المتكبرين وأهل الحسد ومن نسي الآخرة وخاض في هذه الدنيا.

وبتعليق منه على حادثة الإفتراء في هذه القصة أيضاً يقول أحد أرباب التصوف:

«بعد ما قام به موسى عليه السلام من حركة دون أن يصبر وينتظر الوحي الإلهي، أي ما كان منه من قتل لفاطون بدفعه قليلاً، كان سبباً كافياً له لتردي موضع وجدانه. بل إن اللَّه تعالى خاطبه وقال له بشكل مباشر:

١٠٦٧. القصص: ٨١.

١٠٦٨. الفلق: ١-٥.

١٠٦٩. القصص: ٨٢-٨٣.

- ﴿...**وَقَتَلْتَ نَفْسًا**...﴾ [١٠٧٠] أي أن اللَّه تعالى قال له:

- لقد قتلت ذلك القبطي دون أن تحصل على موافقتنا أو أوامرنا أو وَحْينا!.

في مؤاخذة من اللَّه تعالى له على ذلك.

وهكذا، أتت هذه الشوكة؛ وغرست في وجدان موسى عليه السلام تكراراً وتكراراً. علماً أن قصده لم يكن كذلك حينها. ولكن ما قام به من فعل من نفسه جعلت له سبباً أن يكون عرضة للعديد من الأمور والإفتراءات التي لم يقم بها».

ولهذا يقول مشايخنا:

«إذا لم تقم بإلقاء محبة فعل الأمور من رأسك دون الاعتماد على الأوامر الإلهية، ينظفون سيفك وتقتل بسيفك أنت، وليس بغيره!».

والهدف من هذا هو تحسين النيّة قبل كل شيءٍ وعدم الإعتماد على النفس والتفاؤل بالخير

موسى عليه السلام والخضر [١٠٧١] عليه السلام

بعد أن غرق فرعون في البحر الأحمر، بدأ موسى عليه السلام بإلقاء المواعظ على قومه بشكل فصيح جداً وبليغ ومؤثر. فأعجب القوم بعمق المعرفة والعلم الذي رأوه من سيدنا موسى عليه السلام؛ وقال أحد هم:

- يا نبي اللَّه! هل هناك من أحد هو أكثر منك علماً على وجه الأرض؟

فقال له موسى عليه السلام:

- لا أعلم أحداً كذلك!

فينزل عليه الوحي ليخبره:

- هناك عبد من عبادي تجده عند ملتقى البحرين، أعطيته علماً خاصاً من عندي «علماً من لدنا». فاذهب إليه مع رجل متميز تختاره من أمتك!.

وكان من أشير به إليه هو الخضِر عليه السلام.

١٠٧٠. طه: ٤٠.

١٠٧١. الخضر عليه السلام: اسمه بليان بن ملكان وكنيته أبو العباس

– وهل سأجد هذا الشخص يا ربي؟

فيأمره اللَّه تعالى أن يضع سمكة ميتة في زنبيله، فإذا ما عادت هذه السمكة إلى الحياة ونزلت الماء عند ملتقى البحرين فإنه سيجد الخضر هناك.

ويروى أن موسى عليه السلام يخرج للقاء الخضر ومعه ابن أخته يوشع بن نون مباشرة.

تتحدث الآية الكريمة عن هذه القصة بقوله تعالى:

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ لاَ أَبْرَحُ حَتَّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا﴾ [١٠٧٢]

ويفسر مولانا –رحمه الله– هذه الحادثة المليئة بالعبر والحكم بهذا الشكل فيقول:

«يا صاحب الكرم! شاهد هذا الاشتياق المعنوي عبر «كليم اللَّه» موسى عليه السلام! أنظر ماذا يقول كليم اللَّه موسى عليه السلام: «– على الرغم من هذا المقام الرفيع الذي أنا عليه إلا أنني لا أشعر وجوداً عندي. فأذهب إلى الخضر لينير ضوءاً في روحي إلى ما هو أبعد».

وعندما يذهب موسى عليه السلام للقاء الخضر يقول له قومه:

– يا موسى، لقد تركت قومك، وذهبت تبحث عمن هو أقل مرتبة منك! مع أنك نبي تخلص من «الخوف» و«الرجاء». فإلى متى ستدور، وإلى أي وقت ستبحث؟ ما تبحث عنه موجود فيك... وأنت تعلم ذلك. يا نبياً كبيراً كالسماء! إلى متى ستدور على الأرض؟.

فيقول موسى عليه السلام لقومه:

– رجاءً، لا تقطعوا الطريق بين الشمس والقمر! فأنا هلال النبوة، والخضر شمس الولاية. أي أن هناك أنبياء أعلى رفعة مني. أما الخضر فهو خير الأولياء.

ويكمل موسى عليه السلام بقوله:

– أنا ذاهب لصحبة ولي هو سلطان زمانه لألتقيه عند مجمع البحرين. وسأعمل للوصول إلى الحقيقة والمعرفة بصحبة الخضر. ولهذا سأسافر لمدة طويلة. إلى أن ألتقي به. سأطير سنوات طويلة بأجنحة العزيمة والهمة. فما معنى السنوات، فلو ذهبت سنوات طوال، سأبحث عنه وأجده. ألا تستحق هذه الرحلة أن أجد هذه الجوهرة؟

❁

١٠٧٢. الكهف: ٦٠.

﴿فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا﴾ [١٠٧٣]

والحديث هنا هو عن موسى عليه السلام ويوشع بن نون.

بحسب إحدى الروايات، يأخذ موسى عليه السلام ويوشع بن نون استراحة ينامون فيها. وفي هذه الأثناء تدب الحياة بالسمكة وتقفز إلى الماء. ولكن يوشع ينسى إخبار موسى عليه السلام بذلك. وعندما استفاق موسى قال له:

- هيا لنكمل مسيرنا؛ لربما ما زال ينتظرنا طريق طويل!.

وأكملا طريقها. وبعد المسير مدة من الزمن جلسا قرب جذع شجرة يستظلان بها.

﴿فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَاهُ آتِنَا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا﴾ [١٠٧٤]

فيتذكر يوشع بن نون فجأة ويقول:

- لقد نسيته في المكان الذي قفزت فيه السمكة إلى البحر!.

﴿قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنْسَانِيهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا. قَالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَارْتَدَّا عَلَى آثَارِهِمَا قَصَصًا. فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا﴾ [١٠٧٥]

إن تسمية «علم لدن» الموجود في الطرق الصوفية هو مأخوذ من هذه الآية الكريمة. إن علم التصوف هو مخصص لجزء من أهل الذوات وخلاصته هي الزهد؛ والوصول إلى مشاعر الإحسان. أي أن هذا العلم متعلق بحياة القلب. إضافة إلى ذلك، إن على المرء مسؤولية في هذا الشأن تماماً كقابليته وسداده. فالعبد مكلف باكتشاف هذا السداد حرصاً على سلامته. وهذا الأمر ممكن من خلال تزكية النفس وتصفيتها. أما العلم اللدني فهو علم يهبه اللَّه تعالى للمرء بعد الحصول على التعليم المعنوي في عالم التصوف. ولهذا يقول اللَّه تعالى متحدثاً عن الخضر عليه السلام بقوله:

١٠٧٣. الكهف: ٦١.

١٠٧٤. الكهف: ٦٢.

١٠٧٥. الكهف: ٦٣-٦٥.

﴿...وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا﴾ [١٠٧٦]

كما يقول اللّه تعالى في سورة البقرة أيضاً:

﴿...وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ﴾ [١٠٧٧]

يروي علي بن أبي طالب ﷺ فيقول:

«إن العلم الباطن هو حكم تتألف من عدد من الحكم وسر من أسرار اللّه ﷻ، بحيث يعطى هذا العلم إلى قلب من يطلبه من عباده» [١٠٧٨]

❁

يجد سيدنا موسى عليه السلام هذه الشخصية التي حدثه الوحي عنها جالساً على خرقة له على ظهر صخرة هناك فيسلم عليه ويقول: أنا موسى! فيسأله سيدنا الخضر عليه السلام: موسى بني إسرائيل؟!. فيقول سيدنا موسى عليه السلام: نعم، أتيتك لتعلمني مما علمت رشدا؛ أأنت من أخبرني اللّه بأنه أعلم الناس؟ فيجيبه سيدنا الخضر عليه السلام: يا موسى إني على علم من علم اللّه علمنيه لا تعلمه أنت، وأنت على علم من علم اللّه علم اللّه لا أعلمه.[١٠٧٩]

ويخبر موسى عليه السلام الخضر عليه السلام عن رغبته في تلقي هذا العلم منه. فكان يريد أن يتعلم من الخضر حكمة حقيقة بعض الأمور التي تظهر لديه عجيبة وغريبة ولا يمكن فهمها بالعقل الظاهري.

﴿قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا﴾ [١٠٨٠]

فيجيبه الخضر عليه السلام:

﴿... إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا. وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا﴾ [١٠٨١]

١٠٧٦. الكهف: ٦٥.

١٠٧٧. البقرة: ٢٨٢.

١٠٧٨. السيوطي، الجامع الصغير،٢، ٥٢.

١٠٧٩. انظر: البخاري، التفسير، ١٨/ ٢، ٣،٤/ ٤٧٢٥؛ الأنبياء، ٢٧؛ مسلم، الفضائل ١٧٠/ ٢٣٨٠.

١٠٨٠. الكهف: ٦٦.

١٠٨١. الكهف: ٦٧-٦٨.

من خلال هذه الكلمات الأولى، أراد الخضر عليه السلام أن يختبر الوضع النفسي لموسى عليه السلام، فكان أن أخبره عن نفسه من خلال هذه الكلمات القصيرة. فحصة موسى عليه السلام من هذا الأمر أن يأخذ درسه في معرفة موقعه وأن يعمل على التحمل والصبر. أي أنه كان كمن يقول لموسى عليه السلام بلسان حاله:

- صبرك وأنت برقفتي هو أمر لا يمكنك التحكم به. وأنت معذور في هذا الشأن. لأنه كمال هذا العلم لم يعطى بعد إليك.

فيقول له موسى عليه السلام:

﴿قَالَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلاَ أَعْصِي لَكَ أَمْرًا﴾ [١٠٨٢]

فيقول له الخضر عليه السلام: إن كنت ستتبعني، فلا تسأل عن شيء ما لم أخبرك بسره! أي أن يقف نقاشنا عند هذا الحد؛ لا تسأل حتى لمجرد الفهم!.

﴿قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلاَ تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا﴾ [١٠٨٣]

وخرجوا في تلك الرحلة المشهورة. يروي لنا القرآن الكريم تفاصيل هذه الرحلة المليئة بالحكم والعبر بقوله تعالى:

﴿فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا. قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا. قَالَ لاَ تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلاَ تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا﴾ [١٠٨٤]

يقول رسول اللَّه ﷺ:

«وكانت الأولى من موسى نسيانا، قال: وجاء عصفور فوقع على حرف السفينة فنقر في البحر نقرة، فقال له الخضر: ما علمي وعلمك من علم الله إلا مثل ما نقص هذا العصفور من هذا البحر...» [١٠٨٥]

١٠٨٢. الكهف: ٦٩.

١٠٨٣. الكهف: ٧٠.

١٠٨٤. الكهف: ٧١-٧٣.

١٠٨٥. البخاري، التفسير، ١٨/ ٢-٤/ ٤٧٢٥.

﴿فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا. قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِي صَبْرًا. قَالَ إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْرًا﴾ [١٠٨٦]

وقول موسى عليه السلام هذا هو اعتذار منه لنفاد كل ما كان لديه من أعذار وسعيه لتوضيح ذلك.

﴿فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَّ فَأَقَامَهُ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا. قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا﴾ [١٠٨٧]

وبعد ذلك كله يوضح الخِضر لسيدنا موسى لماذا قام بهذه الافعال:

﴿أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا. وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَنْ يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا. فَأَرَدْنَا أَنْ يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِنْهُ زَكَوةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا. وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا﴾ [١٠٨٨]

عن أبي ذر رضي الله عنه أن رسول اللَّه ﷺ أخبر عن ذلك الكنز المخفي تحت الحائط بقوله:

«إن الكنز الذي ذكر الله في كتابه: لوح من ذهب مصمت مكتوب فيه: عجبت لمن أيقن بالقدر لم نصب؟ وعجبت لمن ذكر النار لم ضحك ؟ وعجبت لمن ذكر الموت لم غفل؟ لا إله إلا الله، محمد رسول الله» [١٠٨٩]

❁

١٠٨٦. الكهف: ٧٤-٧٦.

١٠٨٧. الكهف: ٧٧-٧٨.

١٠٨٨. الكهف: ٧٩-٨٢.

١٠٨٩. ابن كثير، تفسير، ٥، ١٨٦.

إذن، إن السؤال الذي هو نصف المعرفة في العلوم الأخرى هو ممنوع في العلم اللدنّي. فنفس الطالب هنا ستتحضر بالقابلية أكثر بكثير منها في الفعالية.

فعلى سبيل المثال، إن فن المعمار سنان الذي استخدمه في بناء مسجد السليمانية بما لديه من قدرة علمية وقابلية، هي أعلى مرتبة من مختلف الفنانين. وعدم معرفة المعمار سنان بحرفة الرخام الموجودة لدي العامل الذي عمل في بناء هذا المسجد هو أمر لا ينتقص من علمه. لأن مختلف هؤلاء الفنانين الحرفيين هم عمال يعملون بإمرته. وهم سيتعرفون على تفاصيل حرفية الرخام منه.

بالفعل، إن إرسال موسى عليه السلام الذي هو من الأنبياء أولي العزم إلى الخضر عليه السلام لتلقي العلم اللدني هو أمر ملفت جداً للإنتباه. وأن يسعى موسى عليه السلام لتلقي العلم اللدني من رجل على معرفة به هو أمر لا ينتقص منه عليه السلام.

وهو في الوقت نفسه تبليغ من اللَّه تعالى بأن موسى عليه السلام هو نبي لا يعرف كل شيء، وأنه لا يعرف أكثر مما علمه اللَّه له وأعطاه. كما أن إعطاء هذا العلم إلى الخضر لمن هو أقل مرتبة منه وشأناً هو إشارة أيضاً إلى أنه حتى الأنبياء هم بشر عاجزون أمام العلم والمعرفة الإلهية.

والحكمة الأخرى أيضاً هي أن كلاً من الخضر وموسى عليهما السلام يمتلكان علماً مشتركاً وهو معرفتهم بـ «ذو الجناحين»، أي من يمتلك معرفة من الدنيا والآخرة نبينا محمداً المصطفى ﷺ وعلو قدره ومقامه الذي هو أفضل المقامات.

إن قصة الخضر عليه السلام تضع بشكل مباشر حقيقة أن العقل لا يمكنه إدراك حقيقة الأحداث والوقائع إلا بعد الجلوس والتفكر بأسبابها. فعند زوال الأسباب والأعذار، يبقى العقل في عجزه فلا يدرك الحكمة.

من جهة أخرى، إن موسى عليه السلام هو نبي صاحب شريعة وهو مكلف بتطبيقها. والخضر عليه السلام هو صاحب علم أعطاه اللَّه له من لدنه يتصرف من خلاله.

وما اعتراض موسى عليه السلام على أفعال الخضر إلا بسبب الدقة في تطبيق حدود شريعته. لأن موسى عليه السلام هو مكلف بظاهر الأمور والحال، أي أنه وقف على علم الزمان الذي هو موجود فيه، وهو يحكم على الأمور والأحداث من خلال هذا العلم.

أما العلم الذي يمتلكه الخضر، فهو علم يعتمد على المستقبل، ولهذا فإنه كان يظهر لموسى عليه السلام تجلي القدر. ولهذا، فإن تصرفات الخضر عليه السلام، وتصرفات موسى عليه السلام من اعتراضات على الأول، لم تكن كل منها تعارض الآخر من منظور العلم الإلهي. فالخضر كان يتحرك ضمن حدود تتجاوز شروط الحكم العقلية بناءً للعلم الذي يمتلكه.

إذن، إن هناك من الحقائق ما يمكن التصرف من خلالها بما لا يمكن للعقل أن يقبل به. وبالتالي، فإن الاستناد إلى العقل وحده في البحث عن الحقيقة هو أمر غير صحيح. فكما أن العين لا ترى إلا لمسافة محددة، وكما أن الأذن لا تسمع إلا من مسافة محددة، فالعقل أيضاً هو محدود في فهمه للأحداث والحقائق. وعندما يتم تخطي حدود هذا العقل، فإن الإدراك يقع في العجز المطلق. وفي هذه الحالة، فإن من الواجب تسليم الفؤاد إلى الحق سبحانه وتعالى.

كذلك الأمر، يتوصل الإمام الغزالي أيضاً إلى قناعة بأنه لا يمكن لأحد الوصول إلى الأسرار الإلهية بالعقل، ووجد ضرورة العبور إلى الحياة القلبية بما وراء العقل، وأنه بهذه الطريقة وحدها يمكن الوصول إلى الحقيقة المطلقة.

كذلك الأمر، تمكن الإمام الغزالي رحمه اللَّه في كتابه المشهور «تهافت الفلاسفة» أن يقض ويُبطل فلسفة الفلاسفة ويثبت عجز العقل. ويخبر عن حالته المعنوية بهذا الشكل فيقول:

«حصرت عقلي؛ فوصل إلى درجة الإنفلاق وتعرفت بعد نقطة معينة بالعجز المطلق. فأدركت أن لا حيلة لنا إلا الحصول على الفضائل الروحانية من النبي ﷺ لنتمكن من فهم الأسرار الإلهية!

فدعوت اللَّه تعالى والتجأت إليه. وتمكنت بنتيجة التربية المعنوية كالذكر والرياضة والتفكر من الإلتقاء بروحانية رسول اللَّه ﷺ ونجوت».

ولهذا، فإننا عند تحليل الأحداث في قصة الخضر عقلانياً فإننا سنجد التالي:

إن ثقب السفينة هي من وجهة النظر الظاهرية ظلم وبعيدٌ عن الإنصاف. أما في الحقيقة فإنها منع لغصب هذه السفينة التي هي مصدر رزق هؤلاء الفقراء من الاستيلاء عليها من الظالمين.

كذلك الأمر، إن ظاهر الأمر في قتل الولد هو جريمة. أما حقيقة هذا الأمر فهو حماية للأب والأم الصالحين بل وحماية للطفل نفسه يوم القيامة.

كذلك الأمر، إن إصلاح الحائط الذي كان على وشك الانقضاض في القرية التي طردوا منها، هو في ظاهر الأمر لا يتوافق مع المنطق. أما في حقيقة الأمر فهو المحافظة على الأمانة ليتيمين مظلومين.

إن أسرار هذه الأحوال هو أمر لا يمكن ظهوره إلا من خلال العلم من لدنه ﷻ «القلب». ولهذا السبب، فإن سر القدر لا يمكن إدراكه من خلال العقل وحده. لأن إدراك القدر بشكل كامل هو كيفية تفوق إدراك البشر.

يروي البخاري في سياق المعاني التي تحملها هذه القصة حديثاً شريفاً عن النبي ﷺ يقول فيه:

«يرحم الله موسى لو كان صبر لقص علينا من أمرهما» [١٠٩٠]

ويخبر مولانا قدس اللّٰه سره بمثال جميل أن العلم من لدنه هو قسمة ونصيب، وأنه تلطف من اللّٰه تعالى إلى من يمتلكون السداد القلبي فقط. يقول مولانا جلال الدين الرومي:

«إن النور الإستثنائي الذي رآه يعقوب في وجه يوسف، كان أمراً خاصاً به. فلم يحظ إخوة يوسف برؤية نوره. لأن عالم أفئدة إخوته كان بعيداً عن رؤية وفهم حقيقة يوسف»

«إن العشق غذاء الروح. وغذاء الحياة الجوع»

«كان في يعقوب جاذبية نحو يوسف. ولهذا، فإن رائحة قميص يوسف قد وصلت إليه على الرغم مِن أنه كان ما زال بعيداً جداً. أما أخو يوسف الذي كان يحمل القميص كان محروماً من الإحساس بهذه الرائحة»

«هناك علماء كثيرون لا نصيب لهم في العرفان. فهو حافظ للعلم ولكنه ليس حبيباً لله..». [١٠٩١]

١٠٩٠. البخاري، الأنبياء، ٢٧/ ٣٤٠١؛ أحمد، مسند، ٥، ١١٨.

١٠٩١. للإضطلاع على التفاصيل بشأن هذا الموضوع يمكنكم قراءة كتاب التصوف من الإيمان إلى الإحسان لمؤلفه عثمان نوري طوبّاش ص ٣٤١ – ٣٦٨

ثلاثة رجال صالحون

كان بين بني إسرائيل رجال صالحون أيضاً. فيحدثنا رسول اللَّه ﷺ عن ثلاثة منهم فيقول:

«خرج ثلاثة نفر يمشون فأصابهم المطر، فدخلوا في غار في جبل، فانحطت عليهم صخرة، قال: فقال بعضهم لبعض: ادعوا الله بأفضل عمل عملتموه، فقال أحدهم: اللهم إني كان لي أبوان شيخان كبيران، فكنت أخرج فأرعى، ثم أجيء فأحلب فأجيء بالحلاب، فآتي به أبوي فيشربان، ثم أسقي الصبية وأهلي وامرأتي، فاحتبست ليلة، فجئت فإذا هما نائمان، قال: فكرهت أن أوقظهما، والصبية يتضاغون عند رجلي، فلم يزل ذلك دأبي ودأبهما، حتى طلع الفجر، اللهم إن كنت تعلم أني فعلت ذلك ابتغاء وجهك، فافرج عنا فرجة نرى منها السماء، قال: ففرج عنهم، وقال الآخر: اللهم إن كنت تعلم أني كنت أحب امرأة من بنات عمي كأشد ما يحب الرجل النساء، فقالت: لا تنال ذلك منها حتى تعطيها مائة دينار، فسعيت فيها حتى جمعتها، فلما قعدت بين رجليها قالت: اتق الله ولا تفض الخاتم إلا بحقه، فقمت وتركتها، فإن كنت تعلم أني فعلت ذلك ابتغاء وجهك، فافرج عنا فرجة، قال: ففرج عنهم الثلثين، وقال الآخر: اللهم إن كنت تعلم أني استأجرت أجيرا بفرق من ذرة فأعطيته، وأبى ذاك أن يأخذ، فعمدت إلى ذلك الفرق فزرعته، حتى اشتريت منه بقرا وراعيها، ثم جاء فقال: يا عبد الله أعطني حقي، فقلت: انطلق إلى تلك البقر وراعيها فإنها لك، فقال: أتستهزئ بي؟ قال: فقلت: ما أستهزئ بك ولكنها لك، اللهم إن كنت تعلم أني فعلت ذلك ابتغاء وجهك، فافرج عنا فكشف عنهم» [١٠٩٢]

❁

إن هذا الحديث الشريف هو دليل على التوسل بالأعمال في التصوف. ومن جهة أيضاً، إنه أوضح مثال على ظهور اللطف الإلهي بشكل مؤكد إلى من يجعل حياته بالدرجة الأولى هي مرضاة اللَّه تعالى. ولهذا، يجب على العبد أن لا يتبع رغباته ومطالبه الشخصية مبتعداً عن أوامر اللَّه ونواهيه، بل يجب عليه أن يكون تابعاً لمرضاة خالقه،

١٠٩٢. البخاري، البيوع، ٩٨/ ٢٢١٥.

ومسلماً إليه. لأن الرضى والتسليم هي الفاكهة الأخيرة التي تعبر عن محبة العبد لربه. علماً أن خير مرتبة يمكن للمرء الوصول إليها في طريق الحق هي أن يحصل العبد على مرضاة اللَّه تعالى وهو ما يكون مكافأة للعبد على مرضاته عن اللَّه ﷻ

يمكن وصف هذه الحالة التي يتميز بها الصالحون عبر الآية الكريمة:

﴿...رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ...﴾ [١٠٩٣]

جار موسى عليه السلام في الجنة

بحسب ما يروى، فإن موسى عليه السلام جلس في يوم من الأيام يناجي ربه فقال:

- يا ربي! من هو جاري في الجنة؟

فيجيبه اللَّه تعالى بقوله:

- إن عندي عبداً أحبه يعمل قصاباً في المكان الفلاني. ولكن لديه عملٌ آخر أهم بكثير من عمله كقصاب، إن دعوته إليك لا يتمكن من القدوم! هو جارك في الجنة، يا موسى!.

فيذهب موسى على فوره لرؤية هذا القصاب. ويحدثه دون أن يخبره بأنه كليم اللَّه موسى فيقول:

- لقد أتيت إليك ضيفاً.

فيتبسم القصاب في وجه هذا الرجل الذي يرى فيه وجهاً منيراً مختلفاً عن بقية الناس من مختلف النواحي ويدعوه إلى منزله. ويجلسه في صدر المنزل ويعزه ويقدم له الضيافة. ويصنع له اللحم بيديه ويضعها أمامه.

ومن ثم يخبر موسى عليه السلام بأن لديه أمراً مهماً يجب عليه إنجازه لأنه لا يحتمل التأخير والإنتظار فلا ينتظرنه وليبدأ بطعامه. ومن ثم يقوم بتحضير ما بقي من اللحم الذي أعده على شكل لقم صغيرة. ثم يقوم بإنزال سلة كبيرة بعناية معلقة على السقف ويبدأ بإطعام هذه اللقم الصغيرة لامرأة عجوز فيها أصبحت لشدة عجزها صغيرة الحجم. وبعد ذلك يغسل فمها جيداً. وقام بتنظيفها. وأظهر لها من المحبة والعطف،

١٠٩٣. البينة: ٨.

ومن ثم أعادها إلى المكان الذي كانت فيه بكل عناية. وبينما كان يقوم بذلك، كانت تلك المرأة العجوز تدعو بشكل مستمر لهذا الرجل.

وكان موسى عليه السلام قد شاهد هذه السلة في دكان اللحام ولكنه لم يسأل بأي شيء عنها. وانتظر بكل حيرة.

بعد أن انتهى هذا اللحام من عمله عاد إلى جوار موسى عليه السلام ورأى أنه لم يبدأ بعد بطعامه. فقال له سائلاً:

– يا ضيفي ذو الوجه المشرق! لماذا لم تبدأ بالطعام؟

فقال له موسى عليه السلام:

– لا آكل حتى تخبرني سر هذه السلة!

فيقول اللحام عند ذلك:

– يا ضيفي! إن المرأة العجوز التي في داخل هذه السلة هي أمي. ولشدة عجزها خرت قواها. وليس لها أحد يرعاها. ولهذا فأنا أضعها في هذه السلة وأرفعها عالياً خوفاً من أن يزعجها أي حيوان عندما أضطر لتركها وحدها. إن الراحة التي في قلبي هي عندما أقوم بخدمتها. أقدم لها وجبتي طعام في اليوم، وأقوم بكل وظائفي تجاه أمي الحبيبة بكل محبة ورضى!.

فيسأله موسى عليه السلام:

– إذن، بينما تقوم بخدمتها تهمس إليك بشيء ما، فماذا تقول لك؟

فيقول اللحام:

– تدعو لي أمي بينما أقوم بخدمتها: «جعلك اللَّه في الجنة جاراً لموسى عليه السلام!. وأجيبها على هذا الدعاء بقولي: «آمين». ولكن، أنى لي من العمل أن أكون جاراً لهذا النبي العظيم، وأين أنا؟!.

عندها يبتسم موسى عليه السلام، وكان لم يفصح له عن نفسه بعد، وقال له:

– أيها الرجل الصالح، مبارك لك من الأخبار! ها أنا ذا موسى. أرسلني اللَّه تعالى إليك. وقال لي: «لقد جعلت هذا العبد الصالح جاراً لك في الجنة لقاء ما يقوم به من نجاح في اكتساب دعاء أمه له بما لم يقصر في حقها من الخدمة». فمبارك لك اللطف الإلهي بالشكر.

فيقبل اللحام يد موسى عليه السلام وعيناه مغرورقتان بالدمع فرحاً. وتناولا طعامهما بكل سرور وشكر وراحة.

فضائل موسى عليه السلام وشمائله وصفاته

يقول اللَّه سبحانه وتعالى في وصفه:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَى فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِندَ اللَّهِ وَجِيهًا﴾ [١٠٩٤]

إن موسى عليه السلام هو عند اللَّه نبي قيم وشريف جداً. ومن مظاهر هذا الأمر قيمة موسى وأثاره هو أنّه قد تشفع لأخيه أمام اللَّه تعالى وأراده أن يكون وزيراً له. فأجاب اللَّه تعالى دعاءه وأعطاه مراده وجعل أخاه هارون نبياً. لهذا تقول الآية القرآنية الكريمة:

﴿وَوَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا﴾ [١٠٩٥]

ويخبرنا رسول اللَّه ﷺ فيقول:

«إن موسى كان رجلا حييا ستيرا، لا يرى من جلده شيء استحياء منه...» [١٠٩٦]

عن عبد الله رضي الله عنه، قال: لما كان يوم حنين آثر النبي ﷺ ناسا، أعطى الأقرع مائة من الإبل، وأعطى عيينة مثل ذلك، وأعطى ناسا، فقال رجل: ما أريد بهذه القسمة وجه الله، فقلت: لأخبرن النبي ﷺ، قال:

«يرحم اللَّه موسى قد أوذي بأكثر من هذا فصبر» [١٠٩٧]

لقد جعل اللَّه تعالى لموسى عليه السلام ولقصَّته مكاناً واسعاً في القرآن الكريم، وذكره مع النبي عليه الصلاة والسلام جنباً إلى جنب في مواضع كثيرة، كما ذكر القرآن الكريم والتوراة بمثل ذلك من المقاربة.

❁

١٠٩٤. الأحزاب: ٦٩.

١٠٩٥. مريم: ٥٣.

١٠٩٦. البخاري، الأنبياء، ٢٨/ ٣٤٠٤.

١٠٩٧. البخاري، المغازي، ٨٦/ ٤٣٣٦.

وبالنسبة لشمائل موسى عليه السلام، يروي لنا ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ أنه قال:

«رأيت عيسى ابن مريم، وموسى، وإبراهيم، فأما عيسى، فأحمر جعد عريض الصدر، وأما موسى فآدم جسيم»

فسأل الصحابة الكرام عن إبراهيم عليه السلام

فقال رسول اللَّه ﷺ مشيراً إلى نفسه:

«انظروا إلى صاحبكم» [١٠٩٨]

وبالنسبة لوفاة موسى عليه السلام، فهناك العديد من الروايات المختلفة. ولكن أشهر هذه الروايات هي أنه توفي عن عمر مئة وعشرين سنة ودفن في جوار القدس.

عليه السلام!...

١٠٩٨. أحمد، مسند، ١، ٢٩٦/ ٢٦٩٧.

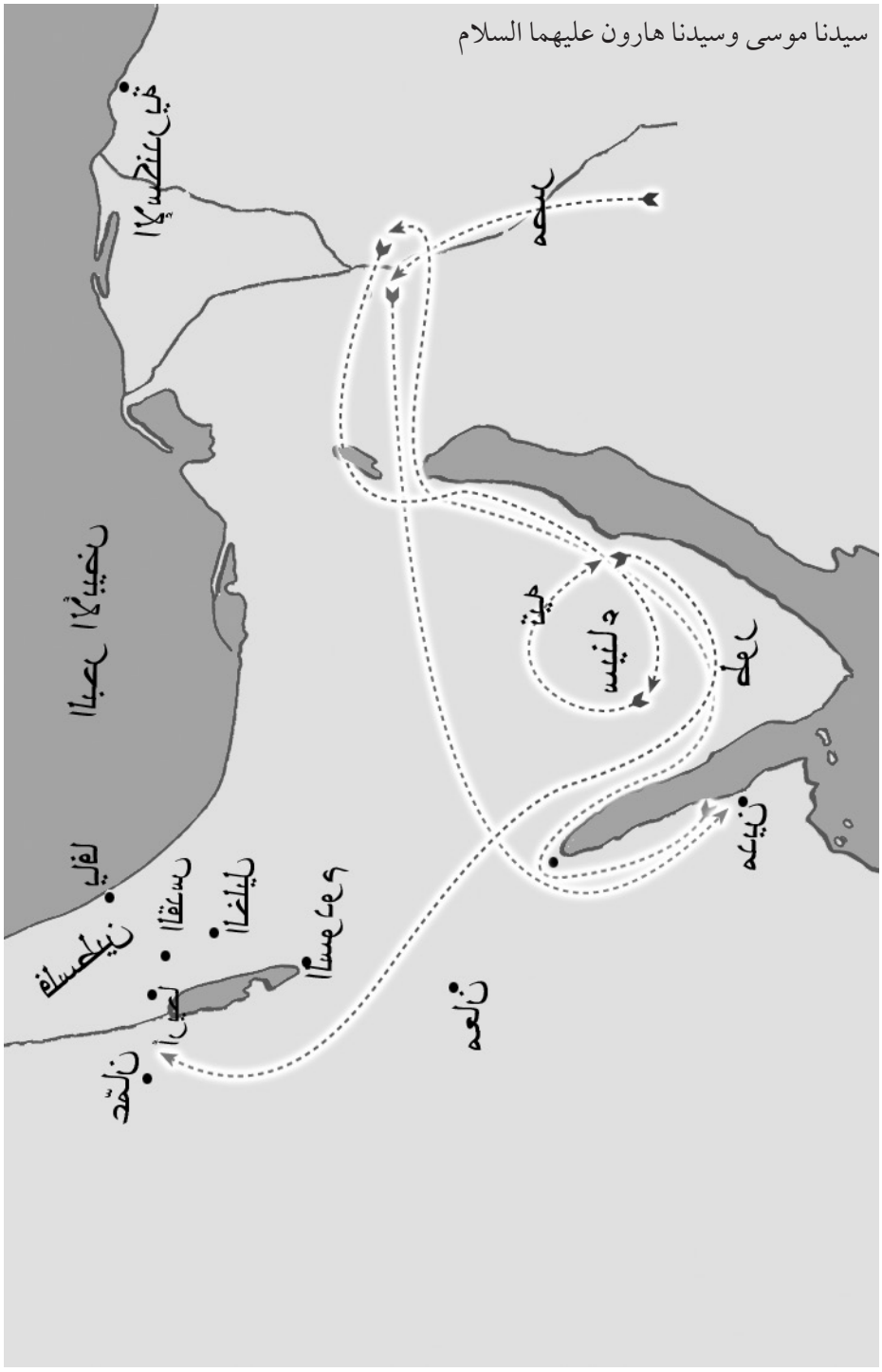
سيدنا موسى وسيدنا هارون عليهما السلام

اليهودية اليوم

مفهوم الرب في اليهودية

يتحدث اليهود عن إيمانهم باللَّه الواحد. ولكن، وبالنظر إلى التوراة اليوم في بعض أجزائها، فإننا نجد العديد من الخصائص الأنتروبومورفية. والأنتروبومورفيزم: هي الإيمان الذي يصف الآلهة بالبشر أو تُشَبِّهما ببعض المخلوقات. وهذا الإيمان هو بعيد عن الخيال وعن ما وراء الإدراك، أي بعيد عن اللَّه المنزه المتعال.

ويتلفظ اسم الجلالة في الديانة اليهودية بقولهم يهوا «ياهوفا» وكلمة إلوهيم بأشكال مختلفة. ويتحدث العلماء اليوم عن التوراة التي يذكر فيها اسم اللَّه «يهوا» في بعض مقاطعه فيقال عن هذه المقاطع اسم «نصوص يهوا».

هذه الفقرات التي يعتقد أنها كتبت في القرن العاشر قبل الميلاد هي مقاطع فيها الكثير من الحس البشري، ويمكن رؤية الفهم الأنتروبومورفية فيها بشكل واضح جداً. أما المقاطع التي يذكر فيها اسم «إلوهيم» فهي مقاطع تسمى «النصوص الإلوهيمية». هذه النصوص التي يعتقد بأنها كتبت في القرن السابع قبل الميلاد جمعت فيما بعد مع باقي النصوص وتم الحصول على التوراة المعروفة الآن.

ويهوا هو بالنسبة لليهود الإله القومي في نفس الوقت. لقد اختار الرب الأمة اليهودية وحصر اهتمامه ومديحه بهم فقط. وخلق أيضاً باقي المخلوقات والبشر؛ ولكنه لم يعطها نفس القيمة التي يعطيها لليهود. فالقوم السيد هو الشعب اليهودي. وبسبب هذه العقيدة فإن اليهودية اليوم هي بعيدة كل البعد عن إقامة نظام كوني شامل للعالم يشمل جميع البشرية.

إن تقديمهم الرب بالصفات الأنتروبومورفية «البشرية» قد فسر بعد ذلك من قبل علماء اليهود بأنها جميعاً صفات وأمور مجازية. فبحسب عقيدتهم، لقد تحدث الرب إلى الناس بلغة يفهمونها. ولهذا فإن من الطبيعي وجود مثل هذه الصفات الأنتروبومورفية «البشرية» المماثلة.

ولكنه لا يوجد في التوراة اليوم ما يقوم بتكذيب هذا التأويل حول الصفات البشرية التي يتم تقديم الرب بها. ويمكن أن نشرح ادعاءاتهم من خلال بضعة من الأمثلة التالية:

عندما رأى الرب ما يقوم به الناس من سيئات كثيرة ندم على خلقهم وأهلكهم بالطوفان. وهذه المرة، يحزن حزناً شديداً على إهلاكهم ويقول بأنه لن يهلك الدنيا بهذا الشكل مرة أخرى.[١٠٩٩]

وهكذا، فإننا نجد بشكل واضح إقحام الرب بالصفات البشرية كالخطأ والشعور بالندم.

وبنفس الشكل، عندما يعصي بنو إسرائيل ربهم، يقرر الرب أن يهلكهم جميعاً. ولكن، يتدخل الأنبياء لدى الرب يحاولون إقناعه بالعدول عن هذا القرار بقولهم: «لا تفعل!». فيعدل الرب عن القرار الذي قام باتخاذه. وهكذا، يشعر الرب بعد ذلك بندم عميق لما اتخذه بحقهم من قرار بإهلاكهم.[١١٠٠]

بل إن الرب وأمام عصيان بني إسرائيل الذي لا يعرف له نهاية يذكر في كتاب يارا ميا قوله: «لقد تعبت من كثرة الندم!»[١١٠١]

كذلك الأمر يذكر في التوراة قوله:

«خلق الرب الكون في ستة أيام. وارتاح في اليوم السابع» «التكوين، ٢/ ٣» في مثال لنص ينسب العجز إلى اللَّه.

في حين أن الراحة والندم والتعب هي صفات للبشر والمخلوقات وهي تفيد العجز والضعف.

والأغرب من ذلك، هو وجود عبارات في التوراة لا يمكن لها أن توجد في كتاب أنزل بالوحي كالعبارات التالية:

«يقوم أبناء اللَّه بعد أن رأوا جمال بنات آدم بالزواج من كل من اختاروه منهن» [١١٠٢]

١٠٩٩. التكوين، ٦، ٥-٧؛ ٨، ٢١-٢٢.

١١٠٠. المخرج، ٣٧، ٩-١٢؛ أموس، ٧، ٢-٦.

١١٠١. إن كلمة الندامة هذه حولت في التراجم الأخيرة إلى كلمة الرحمة. يارا ميا، ١٥، ٦.

١١٠٢. التكوين، ٦، ٢.

كما يتحدث التوراة في الجزء المسمى التكوين، أن الرب ينزل إلى إبراهيم عليه السلام مع اثنين من الملائكة على هيئة البشر وينزل ضيفاً عنده يأكل ويشرب معهم ومن ثم يغسل رجليه ويستريح. ومن ثم يرسل الرب ملائكته إلى **سدوم وغمورة** ليهلكوا قوم لوط.

ولكنه يتردد في إخبار إبراهيم بذلك، ولكنه يخبره في النهاية. وأمام هذا الأمر، يقوم إبراهيم بمساومة تستمر مدة طويلة بينه وبين الرب محاولاً إقناعه بالعدول عن إهلاك قوم لوط لما فيهم من الناس الصالحين.[١١٠٣]

وفي التوراة أيضاً، يعرض للنقاش بين يعقوب عليه السلام مع الرب يهوا، في حادثة ملفتة للإنتباه بشدة. وبحسب ما يروى فيه، فإن يعقوب عليه السلام يتجه مع أفراد عائلته إلى جوار خاله في أرض كنعان، فيلتقي في الصحراء برجل يتصارع معه حتى تؤلمه جميع أطرافه.

وبرغم من قول يعقوب عليه السلام:

– دعني أذهب!

إلا أن الرجل الذي كان يصارعه لا يفلته، ومن ثم يقول ليعقوب عليه السلام:

– من الآن فصاعداً لن يقال لك يعقوب وإنما إسرائيل «حسب اليهود: الذي صارع الرب». لأنك ربحت بمصارعتك مع الناس والرب!.[١١٠٤]

وبحسب ما يروى في التوراة أيضاً فإن يعقوب عليه السلام وأثناء مصارعته للرب كُسِرَتْ عظمة فخده.

ولهذا، فإن اليهود حتى اليوم لا يأكلون الأعصاب الموجودة على عظام الفخذ.

إن النص في التوراة الذي يقول: «إن الرب تقريباً قد تجسد ليعقوب عليه السلام على شكل إنسان وصارعه»، هي بشكل واضح عبارات تظهر عقيدة الأنتروبومورفية.

وهذا الأمر هو بكل ما فيه بعيداً كل البعد عن عقيدة التوحيد، وهي لا تعبر إلا عن عقيدة الإيمان بإله يمتلك صفات منتقصة ومحرومة من صفات الكمال.

وتمتلك العقيدة الهندوسية أفكاراً مماثلة لهذه الأفكار. فهناك أيضاً ينزل الرب إلى الأرض متجسداً في جسد إنسان أو حيوان. ويسمى هذا الإيمان في العقيدة الهندوسية «التجسد الرب».

١١٠٣. التكوين، ١٨، ١-٥.

١١٠٤. التكوين، ٣٢، ٢٢-٣٢.

ويذهب علماء الدين اليهود إلى تأويل وتفسير القصص المماثلة في العهد القديم بمختلف الأشكال.

فتفسر هذه الحادثة مثلاً في تفاسير التوراة بقولهم:

«إن الرجل الذي يصارع يعقوب ليس الرب، وإنما ملك تمثل بشكل الرب».

وحتى لو أن الأمر كذلك، فإنه في هذه المرة يمكن للمخلوق أن يتمثل بشكل الرب، وهو أمر لا يمكن تأويله.

علماً أنه بعد ذكر حادثة المصارعة، يكمل النص في التوراة بقوله «موسى»: «رأيت الرب وجهاً لوجه وبقيت روحي على قيد الحياة!»،[١١٠٥] وهو ما لا يمكن أبداً تأويله. فالمعنى واضح جداً وبيّن. ومن ثم فإن موقع هذه الحادثة في التوراة غير معروف السبب، ويجهل تماماً ضرورتها وحكمتها. فبالرغم من أن كل حادثة تتطلب أسباباً مجيبة لها، فإنه لا يوجد أي سبب يتم إيضاحه حول هذه الحادثة.

وكما أشرنا أعلاه، فإن اللَّه «سبحانه» الذي هو مُنَزّهٌ وبعيد عن كل الصفات البشرية، وبشكل معاكس لحقيقته المتثلة بصفات الكمال، فإن التوراة تسند إليه العجز البشري. ويمكن ذكر بعض هذه النصوص المماثلة من التوراة المحرف كقولهم:

«ويستمع موسى إلى قومه كلاً في عشيرته وعلى باب خيمته يجلس ويجهش بالبكاء؛ ويلتهب الغضب الإلهي؛ ويصبح الرب في نظر موسى سيئاً. فيقول موسى للرب:

لماذا تتصرف بالسوء مع عبادك؟ ولماذا لم أجد اللطف في عينك فقمت بتحميلي حمل هذا القوم كاملاً؟ فهل أنا من حمل بكل هذا القوم؟ وهل أنا من ولد بهم، فتقول لي: «لالا، كما يحمل الطفل الرضيع، إحملهم إلى صدرك إلى ديار أجدادهم التي وعدت لهم؟» من أين أجد اللحم لأطعم كل هذا القوم؟ لأنهم يبكون قائلين لي: «أعطنا لحماً نأكله». أنا لا يمكنني أن أحمل كل هذا القوم وحدي، فهذا حمل ثقيل علي. وإن كنت تتصرف معي هكذا، فإنني أتضرع إليك، فإن كان في عينك لطف، فاقتلني الآن؛ فلا أرى سفالتي!»[١١٠٦]

١١٠٥. التكوين، ٣٢، ٣٠.

١١٠٦. التكوين، ١١، ٤-٦؛ ١٠-١٥.

إن هذه العبارات التي تنسب الظلم إلى اللَّه تعالى، تظهر موسى عليه السلام في المكان الذي يجب عليه التضرع إلى اللَّه والدعاء إليه، رجلاً يظهر العصيان والتحدي، فكيف لهذا الحال أن يكون أمراً قابلاً للتأليف في كتاب مقدس؟

كذلك الأمر، تذكر هذه العبارات في التوراة بشكل لا يتفق مع الإيمان باللَّه:

«بينما يكون الرب متنزهاً في حدائق الجنة في برودة النهار، يبحث عن آدم وحواء. وكانا قد اختبآ خلف إحدى الأشجار. وعندما لم يجدهم الرب نادى: «أين أنت؟» مخاطباً سيدنا آدم. فيقول آدم «عندما سمعت صوتك في الجنة خفت. فقد كنت عارياً، ولهذا اختبأت»[١١٠٧]

إن كل هذه المواضيع، ومهما أولت معانيها، فإنه يفهم بأن التحريف لم يذهب التأويل منها.

واليوم، إن كثيراً من العلماء، يضعون هذه القصص الموجودة في التوراة في مرتبة متأخرة، ويتحدثون عن تأثر من كَتَبَ هذا التوراة بتأثيرات الإيمان بالآلهة الخيالية والوثنية التي وجدت في مصر القديمة وبابل، وبأن هذا الإيمان كان ذا تأثير على كل من اليهود وكتبة التوراة.

التوراة

إن التوراة الموجودة في أيامنا هذه هي القسم المؤلف من الأجزاء الخمسة الأولى من الكتاب المقدس الموجود. وهي الجزء الأهم في الكتاب المقدس اليهودي. وهو مكون من الكتب التكوين، الخروج، الليفيين، الأعداد والتثنية.

وتذكر هذه الكتب الفترة بَدْءً من البعث إلى حين وفاة موسى عليه السلام. كما تحتوي هذه الكتب على الأحكام الدينية.

ولكن الباب الأخير من كتاب التثنية، يتحدث عن وفاة موسى عليه السلام، ودفنه، ومراسم الحزن لقومه. مع أن التوراة الصحيحة أنزلت في حياة موسى عليه السلام. فكيف لها أن تنقل حادثة كهذه قبل أن تحدث هناك؟ ويعمد اليهود على تأويل هذا الأمر أيضاً. فيقول بعضهم

١١٠٧. التكوين، ٣، ٨-١٠.

«إن الرب أخبر موسى بذلك. فقام بكتابة ذلك في التوراة قبل أن يموت».

ويقول قسم آخر منهم

«أن يشوع هو الذي قام بكتابة ما حدث لبني إسرائيل بعد وفاة سيدنا موسى».

ولكن التحدث عن مراسم تجهيز ودفن موسى عليه السلام هي دليل واضح على التدخل البشري في التوراة.

والجزء الثاني من الكتاب المقدس عند اليهود يتحدث عن «الأنبياء» «نفييم». ويوجد هنا خمسةٌ وعشرون كتاباً. والجزء الثالث «كاتوفيم» «الكتابات، الكتب» هو الجزء الذي يتألف من ثلاثة عشر قسماً.

أي أن الكتاب المقدس اليهودي يتألف من التوراة ٥ + الأنبياء ٢١ + الكتب ١٣ ما مجموعه ٣٩ جزء. ومجموع هذه الأجزاء يقال عنها عند اليهود «تاناك» «ت= التوراة، ن= نيفييم، ك= كاتوفيم» بينما يقول عنها المسيحيون «العهد القديم».

ولكن اليهود يقولون بأن هذه المجموعة تتألف من أربعة وعشرين، بل وأن الأحرف العبرية هي مؤلفة من عشرين حرفاً، بينما يقول المسيحيون بأنها تسعة وثلاثون.

ومع أن المحتوى هو نفسه، فإن هذا الفرق هو لكون المسيحيين يقبلون كل كتاب منها على أنه كتاب مستقل، بينما يعتبر اليهود بعض الكتب على أنها كتب متصلة يجمعونها في كتاب واحد.

والأجزاء التي تلي التوراة هي الأجزاء التي تم إضافتها بعد وفاة موسى عليه السلام من قبل الأنبياء من بعده.

فعلى سبيل المثال، أتى النبي يوشع «يشو» بعد موسى عليه السلام وأضيف معه «كتاب يشو»؛ ثم أضيفت «كتب صامويل» وهكذا. واستمر هذا الأمر على هذا الشكل إلى أن وصل الرقم إلى العدد ٣٩ الحالي.

وقد تم الإعلان والقبول بأجزاء التوراة التي نسبت إلى موسى عليه السلام من العهد القديم بشكل رسمي في السنوات ٩٠ و١٠٠ قبل الميلاد «أي بعد وفاة موسى عليه السلام بحوالي ١٣٠٠ عام». وتم تحديد العهد القديم بشكل محدد في هذا التاريخ في اجتماع المجلس اليهودي «جامنيا سينودون» وذلك باختياره من بين عدة نسخ كانت موجودة.

التلمود

ويتحدث اليهود إضافة إلى التوراة أيضاً عن الوحي الذي أنزل على موسى عليه السلام من اللَّه تعالى قولاً بما يسمى لديهم بالتلمود. ويضع اليهود التلمود بقيمة مماثلة للتوراة، ويعتبرون من لا يقبل به خارجاً عن اليهودية.

والتلمود هو عبارة عن توضيحات يتحدث بها موسى عليه السلام تفسيراً للتوراة. وكانت هذه التفسيرات في البداية هي تفسيرات شفهية. ثم نقلت بعد ذلك كتابة. وقيل عن ذلك «ميشنا».

وكانت الميشنا تحتوي على توضيحات حول تطبيق الأوامر الدينية. وقد نظم يهود فلسطين وبابل في مدارسهم أبحاثاً حول هذه الميشنا. وتشكَّل التلمود في نهاية الأمر.

واليوم، يوجد نسختان مختلفتان للتلمود هما تلمود بابل وتلمود القدس. وهما قد دونا في كل من القرن الرابع والخامس قبل الميلاد.

وتعني ميشنا التكرار، أما كلمة التلمود فتعني التعليم «إعطاء المعلومات». وفي هذه النقطة يعتبر التلمود هو التفسير الذي يحتوي على التوضيحات حول أحكام التوراة ومجموعة الإجتهادات. لأن الأحكام التي في التوراة هي أحكام عامة. فعلى سبيل المثال يقول:

«لن تزرع أرضك في السنة السابعة!»

«لن تجعل من السبت يوم عمل!»

ولكنه لا يعطي تفاصيل هذه الأمور. فهي موجودة في التلمود.

ولكن، عند الأخذ بعين الإعتبار كيفية ظهور التلمود، فإنه يمكن مشاهدة التمايل البشري بشكل أوضح من النصوص الإلهية بشكل واضح جداً.

إن الفكر الحاكم في التلمود هو الادعاء بأن اليهود هم عرق متميز. و«الأوامر العشرة» هي أمور تعني اليهود فقط، ولا تحمل أي معنى أو تكليف لغير اليهود.

وخلاصة الأمر، إن العنصر الحاكم في الكتب المقدسة اليهودية يأخذ أساساً له بكون بني إسرائيل هم شعب اللَّه المختار. ولهذا، فإن الرواية التاريخية في العهد القديم هي في مقدمة الرسالة المفترضة تقديمها.

وتعتبر الأحداث الفرعية وسجلات النسب الطويلة والمملة أبرز أمثلة على ذلك. إن الكتاب المقدس اليهودي هو إن أردنا وصفه بجملة واحدة: تاريخ بني إسرائيل وقصة علاقاتهم مع الرب. وبهذا التوجه، فإن اليهودية هي دين قومي محروم من إيصال الإنسانية إلى السعادة وهي بالتالي بعيدة عن أن تكون ديناً كونياً شاملاً وعاماً.

مفهوم النبوة

في الديانة اليهودية يوجد ثمانية وأربعون نبياً بدءً من إبراهيم عليه السلام. ويعتبرون أنه لم يأت نبي قبل ذلك.

ومن هؤلاء الأنبياء الثمانية والأربعين يوجد ستة عشر نبياً كنسياً، أي نسب إليهم كتابات في الكتاب المقدس. ومن بينهم أيضاً ستة أنبياء من الإناث.

وبحسب التوراة، يوجد نوعان من الأنبياء، نبي حقيقي وآخر مزيف. فمن كان من الأنبياء خارج هؤلاء الأنبياء الثمانية والأربعين فهم أنبياء مزيفون بنظرهم. وبالتالي فهم لا يعترفون بنبوتهم.

الأنبياء الحقيقيون؛

١. يجب عليهم أن يدعوا الناس إلى عبادة اللَّه وأن لا يتبعوا إلهاً غير اللَّه.[١١٠٨]

٢. يجب عليهم أن يذكروا أخباراً عن المستقبل وأن تتحقق أقوالهم في ذلك.[١١٠٩]

إضافة إلى هذين الشرطين، فإنهم لا يتحدثون عن الشروط الخمسة الواجبة وجودها عند الأنبياء كما يبين الدين الإسلامي. وبحسب الديانة اليهودية يمكن للنبي أن يلجأ إلى الحيلة والمكر، وأن يكون زانياً أو ظالماً؛ ويمكنه أيضاً أن يكذب؛ كما يمكنه أن يتخذ طبعاً أنانياً لا يفكر إلا في نفسه ...إلخ

بل إن اليهود أثناء حديثهم عن أنبيائهم يتناقصون مع هذين الشرطين اللذين تم وضعهما من قبلهم. فعلى سبيل المثال، فإنهم يتهمون هارون عليه السلام بأنه صنع عجل الذهب وأمر الناس بعبادته.[١١١٠] ويعتبر اليهود هارون عليه السلام مساعداً لموسى عليه السلام أكثر مما يعتبرونه

١١٠٨. يارميا، ١٤/ ١٤، ٢٣/ ٣٢،٢١.

١١٠٩. التسنية، ١٨، ٢٠-٢٢.

١١١٠. المخرج، ٣٢، ١-٥، ٢٤، ٣٥.

نبياً فهو كاهن بالنسبة إليهم. ويذكرون الحادثة بقولهم: «إن هارون صنع الصنم رضوخاً لضغوط قومه»، وهو مهما تم تأويله لا يمكن له أن يتفق مع وظيفة النبوة وحقيقتها. لأن الأنبياء معصومون بالتأييد الإلهي.

ويرفض القرآن الكريم بشدة هذا الافتراء مبيناً أصل هذه الحادثة. وهو بكون هارون عليه السلام، ليس صانع الصنم، وإنما هو من حاول أن يمنع صناعة هذا العجل الصنم، بل كان نبياً وجهاً لوجه أمام محاولات الأذية والقتل من قبل بعض بني إسرائيل ممن اتجه إلى الوثنية.[١١١١]

أي أن مفهوم النبوة أيضاً، كما هو مفهوم الألوهية لديهم، هو بكيفية خاصة بهم. فمفهوم النبوة لديهم يحتوي أيضاً على الكثير من التضارب في نظراته.

علماً أن آدم وإدريس ونوح عليهم السلام وغيرهم لا يعترف بهم أنبياء بالنسبة إليهم. ولكن لهؤلاء الأنبياء وظيفة نبوية ولكن بدرجات أدنى. ولكن، وكما يذكر العهد القديم، فإن اللّه تعالى قد أوحى إلى كل من هؤلاء الأنبياء بين الفينة والآخرى. كذلك الأمر.

وعلى الرغم من قبولهم بسيدنا داود وسيدنا سليمان ملوكاً، إلا أنهم أيضاً كانوا بحسب كتبهم ممن كان على صلة بالرب من خلال الوحي.

ويصف اليهود بعض الأنبياء بصفات غريبة لا يمكن أبداً قبولها أو أن تتناسب مع مقاماتهم. فبحسب مزاعمهم:

أ- كان نوح عليه السلام بعد الطوفان يرعى سهول العنب ويعصرها صانعاً منها الخمر يشربه ويسكر. وفي إحدى المرات، يشرب الخمر لدرجة كبيرة يفقد فيها وعيه ويخر بلا حراك في خيمته. وفي هذه الأثناء، يدخل عليه ابنه حام. فيرى والده عارياً... ومن ثم يخبر بقية إخوته سام ويافث. فيأتيان ويستران جسد أبيهما. وعندما يفيق نوح من سكرته، يشعر ويفهم ما قام به ابنه الصغير من إساءة إليه...

وأمام هذا الأمر، يلعن نوح ابن ابنه، أي حفيده كنعان وليس ابنه الذي ارتكب به ذلك الفعل. ولهذا، يقبل اسم كنعان عند اليهود بأنه من أسوأ الأسماء.[١١١٢]

١١١١. انظر: الأعراف، ١٥٠؛ طه، ٩٠ -٩٤

١١١٢. التكوين، ٩، ٢٠ - ٢٩.

ب- بحسب ما ورد في التوراة، فإن لوطاً عليه السلام زنى ببناته. فبحسب أقوالهم: بعد أن هلك قوم **سدوم وغمورة**، ينجو لوط وابنتاه الإثنتان. فيلتجئُ وابنتاه إلى إحدى المغاور. وعندما يغفو لوط تقول ابنتيه:

«لم يبق في الوطن فرد واحد نصل إليه ليستمر النسل. فلنشرب يا أبانا الخمر!..» ويفعلون الزنا بعد ذلك معه.[١١١٣]

ج- عملاً منه بالحصول على درع أبيه، يقوم يعقوب عليه السلام بالإحتيال على أخيه التوأم إيس.[١١١٤] كذلك الأمر، يقول اليهود بأن سيدنا يعقوب عليه السلام يحتال على والد زوجته ضمن الإتفاقية التي تمت بينهما فيفصل أفضل الغنم إلى حصته.[١١١٥]

د- كان داود عليه السلام ملكاً كثير الزوجات. وعلى الرغم من ذلك، عندما رأى زوجة قائد جيشه آريا مال إليها قلبه وزنى بها. ومن ثم يقتل آريا بحيلة من حيل الحرب. فيعاقب بموت مولوده الأول. وكان ابنه الثاني هو سليمان عليه السلام. يذكر في الكتاب المقدس اليهودي هذا الفعل ويقولون عن داود عليه السلام: «فعل القبيح بنظر ربه» فقط. .[١١١٦]

هـ- كان لسليمان عليه السلام زوجة واحدة. ولكنه هو الآخر يجري خلف النساء الوثنيات في آخر عمره ويعبد الأصنام. وهكذا ينقل عن سليمان عليه السلام بأنه «يفعل القبيح بنظر ربه».[١١١٧]

إضافة إلى هذه الافتراءات، ينسب لبعض أقارب الأنبياء أيضاً أمورٌ لا تليق بهم. فعلى سبيل المثال فإن يهودا ابن يعقوب عليه السلام يزني مع عروسه.[١١١٨]

كذلك الأمر فإن ابن يعقوب الآخر روبين يجامع جارية أبيه.[١١١٩]

كما أن أحد أبناء داود يزني مع اخته بالتبني ،[١١٢٠] ويزني ابن آخر له مع جارية أبيه .[١١٢١]

١١١٣. التكوين، ١٩، ٣٠ – ٣٦.
١١١٤. التكوين، ٢٧.
١١١٥. التكوين، ٣٠، ٣٢ – ٤٢؛ ٣١، ٧-١٦.
١١١٦. صامويل الثاني، ١١، ٢ – ١٢، ٢٢.
١١١٧. الملك الأول، ١١، ١ – ٧.
١١١٨. التكوين، ٣٨، ١٢-٢٦.
١١١٩. التكوين، ٣٥، ٢٢.
١١٢٠. صامويل الثاني، الباب ١٣..
١١٢١. صامويل الثاني، ١٦/ ١٥، ٢٠/ ٢٣..

بالطبع إن كل هذه الأقاويل هي افتراءات قبيحة أطلقها اليهود. وهم لم يقفوا عند حد الافتراء فحسب، بل هم من قتل العديد من الأنبياء. فمن المعروف أن سيدنا زكريا وابنه سيدنا يحيى عليهما السلام هما نبيان مظلومان قتلا على يد اليهود.

يخبر اللّه ﷻ عن حال اليهود هذه في القرآن الكريم بقوله:

﴿فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِآيَاتِ اللَّهِ وَقَتْلِهِمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلاَ يُؤْمِنُونَ إِلاَّ قَلِيلاً﴾ [١١٢٢]

ويخبر اللّه ﷻ عن اليهود في سورة الفاتحة فيقول فيهم:

﴿...الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ...﴾ [١١٢٣]

أي الذين نالوا الغضب الإلهي!.

مفهوم الحياة الآخرة

لا يوجد في التوراة معلومات واضحة صريحة حول الآخرة. أما في النسخ التالية، فإنها تحتوي على عقيدة الإيمان بدخول العاصين النار، ودخول من يراعي أوامر الدين إلى الجنة. ولكن، بنظرنا إلى التاريخ اليهودي، فإن من غير الممكن أن نجد في المراحل الأولى ما كان يحتوي على مفهوم الآخرة. فما يذكر في التوراة من عبارات حول من يموت هي: «شبع من أيامه ونام إلى جوار أجداده». [١١٢٤]

ومن ثم عندما بدأ النقاش بين بني إسرائيل حول «ماذا يحل بمن يموت؟» تثبت لديهم عقيدة ذهاب الأموات إلى دار الموت «الشيول».

إن المرة الأولى التي تم فيها الحديث بشكل واضح وصريح حول البعث بعد الموت ومفهوم المكافأة والعقاب في الديانة اليهودية كان في كتاب دانيال ١٢/ ٢.

وكان دانيال يعيش في مدينة بابل في الفترة المعروفة بفترة الأسر ببابل «٥٨٦ – ٥٣٨ قبل الميلاد».

١١٢٢. النساء: ١٥٥.

١١٢٣. الفاتحة: ٧.

١١٢٤. التكوين، ٤٧/ ٣٠؛ التسنية، ٣١/ ١٦.

إن العقائد التي تتعلق بالآخرة في الديانة اليهودية هي بشكل أكبر موجودة في التلمود. فبحسب ما فيه؛ سيبقى بنو إسرائيل بشكل دائم في الجنة.

أما المذنب من بني إسرائيل فإنه سيدخل النار مدة اثني عَشَرَ شهراً فقط، ومن ثم سيدخل الجنة هو الآخر.

أما من ليس بيهودي، فإنهم جميعاً سيدخلون النار، وسينالون عذابها بشكل أبدي. لأنه بالنظر إلى اليهودية من نظرة خاصة فإننا نرى أنهم يعتبرون غير اليهود وثنيين. «روش ها-شانا، ١٧أ»

سیدنا
نوح
علیہ السلام

سيدنا داوود عليه السلام
الذي تخشع بذكره
الجبال، والحجارة، والحيوانات المتوحشة

وُلد سيدنا داوود عليه السلام في القدس، وتوفي حسب التقديرات عن عمرٍ يناهز المائة عام، ويعود نسبه إلى يهودا بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم. وقد بعث داوود عليه السلام نبياً في قومه وعُين حاكماً عليهم في الوقت نفسه. وتعود فترة حكمه حسب تقديرات المؤرخين إلى الفترة ما بين عامي ٩٧٥-١٠١٥ قبل الميلاد.

ورد ذكر اسم سيدنا داوود عليه السلام في القرآن الكريم في ستة عشر موضعاً، وقد أنزل عليه الكتاب السماوي «الزبور» باللغة العبرية.

طالوت وجالوت، والتابوت

لقد كان الأنبياء الذين أرسلوا إلى بني إسرائيل من بعد موسى عليه السلام يتبعون أحكام التوراة الذي أُنزل على موسى عليه السلام إلا أن اليهود كانوا يقومون بتحريف التوراة مستغلين الفرصة القصيرة التي تخلو من الأنبياء، ويأولوه بما يتماشى مع أهوائهم وشهواتهم، فتفسد بذلك عقيدتهم وأخلاقهم، إلى أن يُبعث فيهم نبيٌ جديد فيصلح ما أفسدوه، إلا أنهم ما إن يتوفى ذلك النبي حتى يعودوا إلى الفساد واتباع الأهواء من جديد.

وفي تلك الفترة كان هناك قوم من العمالقة يقطنون ما بين بلاد الشام ومصر، ويحكم هؤلاء القوم قائد بالغ القوة والشدة يُدعى «جالوت»، وقد سلط الله سبحانه وتعالى جالوت على بني إسرائيل، فهاجم جالوت بني إسرائيل وهزمهم، فأخذ أولادهم ونساءهم أسرى لديه.

ولقد كان لدى بني إسرائيل صندوقٌ ذو قيمة عظيمة احتفظوا به منذ عهد سيدنا موسى عليه السلام، ويوجد بداخله أمانات مقدسة بالنسبة إليهم، ووقع ذلك الصندوق بين

يدي جالوت فرماه به في أماكن الأوساخ زيادة في تحقير بني إسرائيل والحطّ من شأنهم، وقد ورد ذكر هذا الصندوق في القرآن الكريم باسم «التابوت».

فأصيب بنوا إسرائيل بهمٍّ عظيم جراء ابتعادهم عن وطنهم، وخسارتهم لبيوتهم، وأملاكهم، وأموالهم، وحزنوا بشدة لفقدانهم التابوت، فأصبح جُلُّ أملهم هو استرجاع التابوت والاحتفاظ به مرة أخرى.

وحسب الروايات فإن نبي بني إسرائيل في تلك الفترة كان صموئيل . فطلب منه اليهود سلطاناً ينقذهم مما هم فيه من الذل والهزيمة، ودعا النبي صموئيل عليه السلام ربه، وتضرع إليه لاستجابة طلب بني إسرائيل، فأوحى الله عز وجل بأن يعينوا شخصاً يُدعى بـ «طالوت» سلطاناً وملكاً عليهم إلا أن قسماً من اليهود اعترضوا على الأمر الإلهي، ولم يرضوا بتعيين طالوت سلطاناً عليهم، وقالوا:

- إن طالوت ليس من نسل الملوك!

وذلك لأن الأنبياء الذين بُعثوا لبني إسرائيل إلى تلك الفترة كانوا من نسل «لاوي» بن يعقوب، وأما الحكام فكانوا من نسل يهودا بن يعقوب، وأما طالوت فلم يكن من نسل الاثنين. وقد تم بيان هذا الأمر في القرآن الكريم:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَإِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ [١١٢٥]

﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَنْ يَشَاءُ وَاللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [١١٢٦]

١١٢٥. البقرة، ٢٤٦.

١١٢٦. البقرة، ٢٤٦.

فحسب رأي وجهاء بني إسرائيل ينبغي أن يكون الملك لأصحاب رأس المال والثروة الكبيرة، إلا أن هذا التفكير يشكل خطأً فادحاً بحق مصلحة الجماعة ومبادئ العدالة، لأن الملك أو السلطة لا ينبغي أن يكون بيد الأغنياء، وإنما يجب أن يكون بيد من هم أهل للأمر، وهذه الأهلية مرتبطة بقوة الشخص المعنوية، وخبرته وعلمه، إلى جانب شجاعته وقوته البدنية.

وحسب ما أورده فخر الدين الرازي، فإن صموئيل عليه السلام رد طلب بني إسرائيل لأربعة أسباب، وهي:

١. إن من اختار طالوت ملكاً هو الله عز وجل.

٢. ينبغي أن يتوفر في الحاكم صفتان رئيسيتان:

أ. معرفة علم «إدارة» السياسة. ب. التمتع بالقوة البدنية والمعنوية «الروحية».

٣. إن الملك لله تعالى، ويهبه لمن يشاء.

٤. إن الله تعالى يُغني الفقير بكرمه وإحسانه. ويعلم بحق من الأجدر بالسلطة والملك.[١١٢٧]

ولما رد صموئيل عليه السلام اعتراض زعماء بني إسرائيل، قالوا:

- إن كان طالوت صاحب الملك علينا بحق، فليأتنا بدليل على ذلك.

فأورد القرآن الكريم جواب نبيهم بشأن هذا الدليل:

﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَى وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾[١١٢٨]

لقد وردت روايات كثيرة حول التابوت، وحسب هذه الروايات فإن التابوت في البداية نزل على آدم عليه السلام، وانتقل منه إلى شيث عليه السلام، ومن بعد شيث انتقل إلى إبراهيم عليه السلام، ومن ثم إلى يعقوب ومن بعده إلى موسى عليهما السلام، وقد وضع موسى عليه السلام في هذا الصندوق الذي سُمي بالتابوت، وضع فيه ألواح التوراة، وبعض الأشياء المهمة الأخرى، وقد كان هذا التابوت يوضع في مقدمة الجيش خلال المعارك، ليرفع من معنويات الجند والإقدام على القتال بكل قوة وشجاعة.

١١٢٧. فخر الدين الرازي، التفسير، ٦، ٧٤١.

١١٢٨. البقرة: ٢٤٨.

وفي نهاية الأمر، وضع الله ﷻ التابوت أمام بيت طالوت عن طريق الملائكة، فهدأ بنوا إسرائيل الذين رأوا التابوت أمامهم، وقبلوا بطالوت ملكاً عليهم.

وهكذا فإن الله ﷻ تفضل بإظهار علامة ملك طالوت التي طلبها بنو إسرائيل، ولكن مع ذلك فإن الله ﷻ تعلقت إرادته بامتحان بني إسرائيل لإظهار مدى صدقهم وإيمانهم.

الامتحان:

بعد تنصيب طالوت ملكاً على بني إسرائيل بدأ بتجهيز جيشه والسير إلى الملك جالوت.

وقد كانت حاجة الجنود إلى الماء شديدة بسبب حرارة فصل الصيف اللاهبة، وجاءت إلى النبي صموئيل عليه السلام أوامر من الله ﷻ فأخبر بها طالوت، ولما سمعها طالوت خرج إلى جنوده قائلاً:

- إن الله سبحانه سوف يمتحنكم بالماء، فمن شرب من الماء حتى الارتواء فليس من جنودي!...

وأذِن لهم بالشرب من النهر الذي سيواجههم اغترافاً فقط، وهذا النهر حسبما رُوي عن ابن عباس الذي كان يسمى بنهر الشريعة هو نهر الأردن اليوم.[١١٢٩]

ولما بلغ طالوت وجنوده إلى ضفة النهر الذي حذرهم طالوت الشرب منه، وكان تعداد جنوده يصل إلى ثمانين ألف جندي، فشرب من ماء ذلك النهر حتى الارتواء ٧٦ ألف جندي ضاربين تحذير ملكهم طالوت بعرض الحائط، ولم يبق منهم إلا أربعة آلاف جندي أطاعوا أمر ملكهم، وبعد مسافة قصيرة لاذَ أغلب هؤلاء بالفرار أيضاً، ولم يبق منهم سوى ثلاثمائة وثلاثة عشر جندياً فقط، وهذا العدد هو نفس عدد جنود المؤمنين الذين اشتركوا في غزوة بدر.

حيث روي عن البراء رضي الله عنه:

«أن عدة أصحاب بدر على عدة أصحاب طالوت الذين جاوزوا معه النهر، ولم يجاوز معه إلا مؤمن، بضعة عشر وثلاثمائة»[١١٣٠]

١١٢٩. ابن كثير، قصص الأنبياء، ص. ٥١١.
١١٣٠. البخاري، المغازي، ٦/ ٣٩٥٨.

لقد ازداد عطش الذين شربوا من النهر أكثر، فجُفت شفاههم، وأصابهم التعب والإنهاك، وفي نهاية الأمر تفرقوا وهاموا على وجوههم، وأما الذين التزموا تحذير طالوت واغترفوا من النهر بأيديهم فكفتهم الغرفة، وأروت ظمأهم، وازداد إيمانهم، وارتفعت هممهم وشجاعتهم، وتضاعفت قوتهم.

ويصور لنا البيان الإلهي حال جيش طالوت فيقول:

﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُو اللَّهِ كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [١١٣١]

تشير الآية الكريمة إلى مبدأ عسكري مهم، وهو أن نصر أي جيش مرتبط أولاً بمدى إطاعة الجنود لأوامر قائدهم والالتزام بكل توجيهاته لهم. فالانتصار في المعركة لا يتوقف على العدد، وإنما يتوقف على الالتزام بالحق والاستقامة والتحلي بالمشاعر والمبادئ الإيمانية. ويُوضع تاج النصر على رأس الجيش الكيفي وليس الكمي. وخير شاهد بارز على هذه الحقيقة هو مجاهدو العصر الإسلامي الأول، ومجاهدو معركة "جاناك كاله" في تاريخنا القريب واحد من الأمثلة الجلية أيضاً على هذه الحقيقة.

سيدنا داوود عليه السلام والنصر:

لقد كان في جيش طالوت شاب يبلغ الثامنة عشرة من عمره، اسمه "داوود". وقد انضم داوود عليه السلام إلى جيش طالوت مع أبيه وإخوته الثلاثة عشرة حسب ما رواه البيضاوي.

وقد كان عليه السلام راعياً للأغنام، يتمتع بشجاعة نادرة بالإضافة إلى كونه رامياً ماهراً في قذف الحجارة بالمقاليع وقد قال لأبيه ذات يوم:

- إني أسمع الجبال، والحجارة تسبّح معي!

فردّ والده على ذلك بقوله:

١١٣١. البقرة: ٢٤٩.

- يا داوود، لتكن هذه بشارات لك!

ولِتمتع داوود عليه السلام بصوت جميل وشجي فقد أُحضر إلى طالوت، فاتخذه طالوت نديماً له، وانضمّ خلال ذلك إلى جيش طالوت الذي كان يتحضّر لمواجهة قوم العمالقة.

لقد أطلع الله عز وجل نبيه صموئيل عليه السلام على أن جالوت سوف يقتل على يدي داوود، ولذلك فقد اصطحب داوود معه، وأبقاه إلى جانبه. وفي الطريق نطقت ثلاث أحجار وكلمت داوود عليه السلام قائلة:

- خذنا معك، فإنك ستقتل جالوت بنا! فأخذ داوود عليه السلام تلك الأحجار الثلاثة، ومن ثم تجمعت هذه الحجارة فيما بينها وتحولت حجرة واحدة.

ومن جهة أخرى فقد قال طالوت قاطعاً على نفسه وعداً:

- من يقتل جالوت، فإني سأزوجه ابنتي!

وفي نهاية الأمر تقابل جيش طالوت المؤلف من ثلاثمائة وثلاثة عشر من الجنود المؤمنين، تقابل مع جيش العدو وجهاً لوجه.

وتصور لنا الآية الكريمة ذلك:

﴿وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ [١١٣٢]

وحسبما تشير إليه الآية الكريمة فإن الجندي الذي يخرج لمواجهة الأعداء ينبغي عليه الاتصاف بثلاث صفات:

١. الصبر عند الشدائد.

٢. الشجاعة والثبات في المعركة.

٣. العون الإلهي، أي التضرع إلى الله تعالى بالدعاء مع اليقين والإيمان بحصول التأييد الإلهي له.

وعندما تقابل الجيشان برز جالوت أمام جيشه وطلب المبارزة من جيش طالوت، بأن يخرج إليه مقاتل شديد لمنازلته، فخرج داوود عليه السلام لمواجهته، وأُصيب الجميع

١١٣٢. البقرة: ٢٥٠.

بالحيرة والدهشة، لأن جالوت كان فارساً ضخماً يتمتع بقوة هائلة، ولما رأى جالوت داوود عليه السلام استصغره واستهزأ به مغتراً بقوته وجبروته، وقال:

- أيها الصغير الحقير، أتخرج أنت لمنازلتي؟ هيا تكلم لما جئت إليَ؟

فقال داوود عليه السلام:

- جئت لمحاربتك ومبارزتك! عندها سخر منه جالوت.

فأخرج داوود عليه السلام مقلاعه، ووضع تلك الحجارة في مكانها، ومن ثم صوبها نحو جالوت، أصاب الحجر منتصف جبهة جالوت فتهاوى عن ظهر حصانه، وسقط على الأرض ميتاً.

لقد غُلب جالوتُ هذا الملك والفارس العظيم المغتر بقوته، لقد غُلب على الرغم من تفوقه الظاهري الواضح من حيث العدة والعتاد. وبذلك فإن الله ﷻ يبين لعباده أن النصر غير مرتبط بالشروط الظاهرية من عدة وعتاد لوحدها، وإنما النصر يرتبط في الحقيقة بإرادة الله تعالى. وفي هذه الحادثة، يعلمنا الله ﷻ بأن ما يبدو للناس قوة هي في الحقيقة ضعف، وأن ما يراه الناس ضعفاً في الظاهر يمكن تحوله إلى قوة بإرادة الله تعالى. فمهما بلغت قوة المنكرين والظالمين وتجلت مظاهرها أمام الأعين فإنها سوف تتحول إلى ضعف شديد بأصغر الأسباب عندما تتحقق إرادة الله ﷻ. وما حصل لأبرهة الحبشي خير مثال على ذلك...

وفي هذه الحادثة حِكم أخرى تعلقت إرادة الله ﷻ بتحقيقها وهي:

لقد أراد الله سبحانه وتعالى نقل الملك والسلطة من بعد طالوت إلى داوود عليه السلام، ومن بعده أراد توريث الحكم لولده سليمان عليه السلام. حيث أن داوود عليه السلام أثبت للناس قوته وشجاعته بقتله لجالوت، وبذلك تم تهيئة المناخ المناسب والملائم والمناسبة لتوليه الملك والحكم.

حيث يقول الله تعالى في هذا الشأن:

﴿فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [١١٣٣]

١١٣٣. البقرة: ٢٥١.

وفي هذه الآية الكريمة بيان لسنة من سنن الله تعالى الكونية التي تسير وفقها حياة الناس في هذه الحياة الدنيا. إذ لو أن الله ﷻ لم يجعل في الدنيا سلاطين يحكمون بين الناس بالعدل لضاعت الحقوق، وأباد الأقوياء الضعفاء وقضوا عليهم، وقد ورد حديث بهذا الخصوص، حيث يقول النبي ﷺ:

«السلطان ظل الله في الأرض يأوي إليه كل مظلوم من عباده...»[١١٣٤]

وقال سيدنا عثمان رضي الله عنه:

«إن الله ليزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن» [١١٣٥]

ومن جانب آخر فإن الله ﷻ ربط تأسيس الاستقرار الاجتماعي بين البشر بعدة أسباب وعوامل، ولذلك فقد جعل الناس أصنافاً مختلفة ومتباينة، فمنهم الأغنياء ومنهم الفقراء، ومنهم من يتمتع بالقوة وآخر ضعيف، وصنف من الناس يتمتع بالصحة والعافية، وصنف يعاني من الأمراض؛ وهناك المؤمنون وغيرهم منكرون، فجعل الخلاف بينهم لإقامة العلاقات وإجراء المعاملات، ولكي يتمكن الناس من تأمين نوع من الحالة الاجتماعية والعيش المشترك، والحالة هذه تشبه إلى حد كبير الطاقة الكهربائية، حيث تتولد الطاقة من الشرارة الناتجة عن التقاء قطبي الموجب والسالب، وكذلك فإن الصراع الذي يجري بين البشر السلبيين والإيجابين، والمعارك التي تنشب بينهم تنتج كثيراً من العِبر، والحكم. وهكذا نستنتج من الآية التي مرت آنفاً بعض السنن المتعلقة بالنظام الإلهي في الكون، حيث أن الله تعالى يُتبع تلك الآية الكريمة بالآية الآتية:

﴿تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [١١٣٦]

ثم إنه بعد تحقيق النصر أحرق طالوت كل الأموال والأشياء التي غنمها من جيش جالوت، لأن الغنائم حسب شريعة موسى عليه السلام محرمة ولا يجوز لأحد أخذها، وإنما تُحرق.

ولدى عودة طالوت إلى القدس، قال له النبي صموئيل عليه السلام:

– لقد حقق الله ﷻ البشارة التي بشرك بها، وجعل النصر من نصيبك، والآن عليك تنفيذ الوعد الذي قطعته على نفسك!

١١٣٤. الهيثمي، مجمع الزوائد، ٥، ١٩٦/ ٨٩٩٨؛ الديلمي، الفردوس بمأثور الخطاب، ٢، ٣٤٣.
١١٣٥. ابن كثير، تفسير، ٥، ١٠٢.
١١٣٦. البقرة: ٢٥٢.

وهكذا زوّج طالوت ابنته لداوود عليه السلام.

وبعد وفاة طالوت استلم الحكم من بعده داوود عليه السلام، وبعدها بمدةٍ من الزمن كُلف بمهمة الرسالة والنبوة، وبذلك أصبح أول نبي يُكرم بالنبوة والملك في الوقت نفسهن وتمتع بدرجة عالية من ناحية الامتياز المعنوي والفضيلة الروحية، وعلى ضوء ما جاءت به الآية الكريمة، فقد أُنزل على داوود عليه السلام الزبور وهو أحد الكتب السماوية الأربعة المعروفة:

﴿وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا﴾ [١١٣٧]

وقد حكم داوود عليه السلام بالعدل طيلة حياته، وكان عليه السلام يتنكر بتغيير زيّه ويختلط بعامة الناس، ويسأل عن أحوال الشعب وما إن كانوا راضين عن الإجراءات التي يطبقها والطرق التي يتبعها في الحكم، ويستفسر منهم عن الاقتراحات والأفكار التي يحملونها حول حكمه، فلم يكن يصادف أحداً يشتكي من إدارته أو يتذمّر من حكمه، وجميع الناس يطيعونه ويتبعونه.[١١٣٨]

يقول الله تعالى بحقه:

﴿اصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ [١١٣٩]

وحسب الروايات التي جاءت عن داوود عليه السلام فإنه كان صاحب همة عالية، وحالة اشتياق كبيرة نحو العبادات، إذ كان يصوم يوماً، ويفطر يوماً، وقد عُرف فيما بعد هذا النوع من الصيام «بصوم داوود» عليه السلام لشدة حرصه عليه والتزامه به، حتى اشتُهر بالصيام.

وقد كان داوود عليه السلام شديد الحرص على تحرّي أفضل الأوقات لكي يتعبد الله تعالى فيها. حيث أنه سأل جبريل عليه السلام يوماً:

- يا جبريل! أي الليل أفضل؟ فقال جبريل عليه السلام:
- يا داود ما أدري، إلا أن العرش يهتز من السحر .[١١٤٠]

١١٣٧. الإسراء: ٥٥.

١١٣٨. القرطبي، التفسير، ١٤، ٢٦٦.

١١٣٩. ص: ١٧.

١١٤٠. أحمد بن حنبل، الزهد، ١، ٦٠/ ٣٦٥؛ ابن أبي شيبة، المصنف، ٧، ٦٨/ ٣٤٢٥١.

وقد قسم سيدنا داوود عليه السلام ليله إلى ثلاثة أقسام، فينام في قسم، ويقضي بقية الليل في العبادة والتضرع إلى الله تعالى.

ويقول الله سبحانه وتعالى في الآية الكريمة:

﴿إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ. وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ﴾ [١١٤١]

﴿...وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ﴾ [١١٤٢]

لقد وهب الله ﷻ داوود عليه السلام صوتاً شجياً وجميلاً، فعندما يرتل الزبور بصوته الجميل تجتمع الحيوانات البرية إليه لتستمع إلى صوته الذي يملأ الآذان طرباً، وعلاوة على ذلك فقد علَم الله تعالى داوود عليه السلام صناعة الدروع، وأمدّه بقدرة استثنائية في هذا المجال، حيث يقول الله تعالى في هذا الشأن:

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلًا يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ . أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [١١٤٣]

﴿وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ لِتُحْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ﴾ [١١٤٤]

فعمل سيدنا داوود عليه السلام في صناعة الدروع، وبذلك كان يحمي جيشه من الأعداء، ويكسب رزقه ولقمة عيشه من كده وعرق جبينه. فعلى الرغم من أنه كان متمتعاً بقوة سياسية، وذا سلطة راسخة، وحائزاً على إمكانات اقتصادية ومالية هائلة، فإنه بالرغم من ذلك كله فضّل سبيل العمل والإنتاج لكسب متطلبات معيشته بيديه، يقول نبينا الكريم عليه الصلاة والسلام:

«ما أكل أحد طعاماً قط، خيراً من أن يأكل من عمل يده، وإن نبي الله داوود عليه السلام كان يأكل من عمل يده» [١١٤٥]

١١٤١. ص: ١٨-١٩.

١١٤٢. الأنبياء: ٧٩.

١١٤٣. سبأ: ١٠-١١.

١١٤٤. الأنبياء: ٨٠.

١١٤٥. البخاري، البيوع، ١٥/ ٢٠٧٢،الأنبياء، ٣٧.

وقد نال داوود العون والمدد من الله ﷻ فأصبح نبياً قوياً ومبجلاً مرهوب الجانب، إذ أُحيط بحراس أشداء، إضافة إلى وجود جيش جرار يُرعب الأعداء تحت إمرته وقيادته. ومن جهة أخرى فقد أصبح صاحب نبوة، ورأي سديد، وكتاب سماوي، وشريعة، ووهبه الله تعالى علماً غزيراً، ومتعه بالهمة في العمل، وبلسان طليق وحكمة نادرة.

وقد قال الله تعالى في ذلك:

﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ﴾ [١١٤٦]

و**فصل الخطاب** معناه حسب ما عرفه المفسر السدي هو: علم القضاء بالإصابة في الحكم، وإفهام الحديث عند الكلام. وأما مجاهد فقد عرفه بأنه إصابة القضاء وفهمه.

وقد خاطب الله تعالى داوود عليه السلام كما جاء في القرآن الكريم:

﴿يَادَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ﴾ [١١٤٧]

وقد قسّم سيدنا داوود عليه السلام الذي كان نبياً وحاكماً في آن معاً، قسم وقته إلى أربعة أوقات:

أما الوقت الأول فقد خصصه للانشغال بالعبادة.

وأما الوقت الثاني فقد جعله للفصل في النزاعات القانونية.

وأما الوقت الثالث فقد فرّغ نفسه فيه لوعظ الناس وإرشادهم.

فأما الوقت الرابع فقد خصصه لقضاء أموره الشخصية.

امتحان داوود عليه السلام:

لقد تعرض داوود عليه السلام في مسيرة حياته لبعض الامتحانات الإلهية، وقد تنبّه نتيجة تلك الامتحانات إلى جوانب الضعف في طبيعته البشرية، واحتمال وقوعه في الأخطاء. وإن الله ﷻ قد لفت نظره إلى الأخطار التي تحيط بطريقه السائر نحو الحياة الأبدية، من خلال الأخطاء والهفوات التي كان يقع بها، وقبول توبته عنها، إذ كان داوود عليه السلام سريع التوبة والالتجاء إلى ربه ﷻ كلما زلّت به القدم ووقع في محظور، فيتوب الله تعالى عليه.

١١٤٦. ص: ٢٠.

١١٤٧. ص: ٢٦.

ذات يوم جاء رجلان إلى داوود عليه السلام بينما كان مشغولاً بالعبادة، حيث أنه لم يكن يدخل أحد على داوود عليه السلام خلال خلوته في المعبد وانشغاله بالذكر والعبادة لله تعالى، اضطرب داوود عليه السلام لهذه الحالة التي جرت في وقت غير مناسب، لأنه لا أحد يجرؤ على الاقتراب أو الدخول بهذا الشكل إلى المعبد المقفل الأبواب في مثل هذه الأوقات، وكلما حاول إعلامهم بأنه في وقته المخصص للعبادة زاد إصرارهما على الدخول غير آبهين لكلامه، وقالا له:

- ليس هناك يوم للعبادة! ومن ثم عرضا عليه حاجتهما قائلين:

- لا تخف! نحن خصمان تجاوز أحدنا حق الآخر، وجئنا إليك لتحكم بيننا، فاقض بيننا بالعدل!

فقال داوود عليه السلام:

- إن كان كذلك، فتفضلا بعرض خصومتكما!

قال أحد المتخاصمين:

- إن لأخي تسع وتسعون نعجة ولي نعجة واحدة، وبالرغم من ذلك فقد أراد ضم نعجتي إلى نعاجه، وغلبني في الجدال.

فثارت ثورة داوود عليه السلام للظلم الذي بدا له في الخصومة، و دون توجيه أي سؤال إلى الخصم الآخر،

أعطى حكمه في الخصومة على الشكل التالي:

- لقد ظلمك أخوك الذي أراد ضم نعجتك الوحيدة إلى نعاجه، وإن الذين لا يؤمنون بالله تعالى هم الذين يظلمون، وقليلون هم الناس الصالحون.

فتبسم الرجلان وانصرفا عنه.

لقد استعجل داوود عليه السلام في إصدار الحكم، إذ أعطى قراره دون الاستماع إلى حجج وأقوال الطرف الآخر في الخصومة، حيث أن الأمر قد يتغير كلياً أو جزئياً في حال الاطلاع على المسألة بجميع وجوهها وسماع أقوال الطرف الآخر، وقد يظهر بتقليب الخصومة على جميع وجوهها أن الذي حُكم له بالحق هو المعتدي، والذي حُكم عليه هو صاحب الحق، ولذلك فقد أدرك داوود عليه السلام الخطأ الذي وقع فيه بعد انصراف المتخاصمين عنه مباشرة، وعلم أن الأمر امتحانٌ إلهي له فخرّ ساجداً لله تعالى، والتجأ إليه بالتوبة والاستغفار، فعفا الله عز وجل عنه وتاب عليه.

وإن الحكمة من مثل هذه الحوادث هي إظهار عجز البشر حتى الأنبياء منهم أمام قدرة الله تعالى، وفيها إشارة إلى ضرورة تطبيق الأصول والحكم المستخلصة من هذه الوقائع من قبل أتباع هؤلاء الأنبياء عليهم السلام. وإن هذه الحالة لا تخلّ أبداً بصفة العصمة والنبوة الثابتة بحق الرسل، ومن وجهة نظر المفسرين فإن هذه الامتحانات الإلهية بحق الأنبياء والرسل تدخل في حكم «حسنات الأبرار سيئات المقربين».[١١٤٨]

فالحوادث التي تجري للأنبياء والرسل والتي تبدو لنا بشكل أخطاء، هي في الحقيقة إرشاد لنا إلى كيفية التصرف في حال وقوعنا في نفس تلك الأخطاء.

ويوضح لنا القرآن الكريم الحادثة بشكل جلي:

﴿وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ. إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُودَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لَا تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ فَاحْكُمْ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ﴾ [١١٤٩]

فقال أحد الخصمين:

﴿إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ﴾ [١١٥٠]

فكان جواب داوود عليه السلام:

﴿قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَى نِعَاجِهِ وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَا هُمْ وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ﴾ [١١٥١]

﴿فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَآبٍ﴾ [١١٥٢]

١١٤٨. إن بعض الحالات والأعمال التي تشكل حسنات ومثوبة للأبرار «وهم أصحاب التقوى والخير والإحسان»، تُعتبر هذه الحسنات في حق من هم أعلى مرتبة منهم – المقربون «العباد القريبون بدرجاتهم من الله تعالى» بمثابة السيئات.

١١٤٩. ص: ٢١-٢٢.

١١٥٠. ص: ٢٣.

١١٥١. ص: ٢٤.

١١٥٢. ص: ٢٥.

إن داوود عليه السلام سوف يكون من المقربين إلى الله تعالى يوم القيامة، حيث يقول النبي ﷺ في الحديث الشريف:

«المقسطون عند الله يوم القيامة على منابر من نور، عن يمين الرحمن ﷻ، وكلتا يديه يمين، الذين يعدلون في حكمهم، وأهليهم وما وَلُوا» [١١٥٣]

ويقول النبي ﷺ في حديث آخر:

«إن أحب الناس إلى الله يوم القيامة وأدناهم منه مجلسا إمام عادل، وأبغض الناس إلى الله وأبعدهم منه مجلسا إمام جائر» [١١٥٤]

لقد وردت بعض الأحداث والوقائع المسيئة والافتراءات المجحفة والمخالفة للحقيقة في التوراة والإنجيل المحرفين بحق داوود عليه السلام، على عكس ما هو ثابت في القرآن الكريم والذي بينته الآيات السابقة التي ذكرناها.

ومما لا شك فيه أن لداوود عليه السلام مقام عال عند الله سبحانه وتعالى، وله مرتبة رفيعة في جنة الخلد التي سوف يدخلها بإذن الله تعالى.

قصة أصحاب السبت:

لقد كان أصحاب السبت يسكنون في مدينة مَديَن على سواحل البحر الأحمر الذي يفصل بين مصر والمدينة المنورة، ويبلغ تعدادهم حوالي سبعين ألف نسمة، ولم يكن هؤلاء يفعلون شيئاً في أيام السبت سوى العبادة، لأن الأعمال الأخرى غير العبادة كانت محرمة يوم السبت، بالإضافة إلى ذلك فإنهم قد وعدوا داوود عليه السلام بالامتناع عن الصيد في ذلك اليوم.

وبمرور الأيام وسوس لهم الشيطان بالقول:

- إنكم لم تُمنعوا من الصيد، ولكن مُنعتم من الأكل في هذا اليوم!

ولحكمة إلهية كانت الأسماك تتجمّع وتكثر في ذلك اليوم بشكل كبير، وتقِلّ في الأيام الأخرى، وبسبب ذلك فإن وساوس الشيطان جاذبة لبعض أولئك القوم، وقد انقسم أهل مدين بشأن هذا الأمر إلى ثلاثة أقسام:

١١٥٣. أحمد بن حنبل، مسند، ٢، ١٦٠/ ٦٤٩٢ .

١١٥٤. الترمذي، الأحكام، ٤/ ١٣٢٩؛ النسائي، الزكاة، ٧٧.

- **القسم الأول**، خالف أوامر الله تعالى واصطاد السمك، فأكلوا منها وباعوها، حيث كان هؤلاء يرمون بشباكهم في البحر يوم السبت ويستخرجونها يوم الأحد وقد امتلأت بالسمك.
- **القسم الثاني**، فلم ينغمسوا في خطيئة صيد الأسماك، إلا أنهم لم يعارضوا أولئك الذين خالفوا الأوامر الإلهية، أي أنهم بقوا صامتين تجاه انتهاك الأوامر الإلهية ولم يقوموا بواجب الإرشاد والنصيحة.
- **القسم الثالث**، فقد التزموا بالنواهي الإلهية، وفي نفس الوقت قاموا بمهمة النصح والوعظ لأولئك المنتهكين للأوامر الإلهية، وقد بيّنوا لمن التزم الصمت خطأ موقفهم، وبذلك فإنهم قاموا بواجبهم في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على أكمل وجه.

وقد ردّ الملتزمون بالصمت على واعظيهم بالقول:

– لماذا تعظون هؤلاء القوم الهالكين وتتعبون أنفسكم معهم؟ نأسف لجهودكم وتعبكم!

فأجاب عليهم القائمون بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:

– إننا نفعل ذلك حتى نكون معذورين أمام مولانا سبحانه وتعالى، ولا نكون مسؤولين عن تقصيرنا!

وبعد ذلك، أشاد هؤلاء حائطاً يفصل بينهم وبين القوم الظالمين الذين خالفوا الأوامر الإلهية حتى لا تصلهم المصيبة التي سوف تحلّ بالمخالفين. وبعد فترة عندما انقطعت الأصوات التي كانوا يسمعونها خلف الحائط، تسلقوا الحائط ليروا ما الذي حلّ بالقوم، فوجدوهم قد تحولوا جميعاً إلى قردة!...وقد ظل هؤلاء الذين تعرضوا لغضب الله تعالى ومُسخوا إلى قردة نتيجة عصيانهم ومخالفتهم أوامره، ظلوا يجولون لفترة من الزمن بجانب أقربائهم الذين نجاهم الله من العذاب وقد خيّم عليهم الحزن والهمّ. وبعد مضي ثلاثة أيام مات جميع العصاة الذين تحولوا إلى قردة.

وقد ورد في كتاب معالم التنزيل للإمام البغوي:

«أن الذين لم يصطادوا يوم السبت، ولكنهم التزموا الصمت تجاه العصاة، ولم يبادروا إلى وعظهم ونهيهم عما هم فيه من العصيان ومخالفة الأوامر الإلهية، قد مُسخوا معهم إلى قردة».

ويبين لنا القرآن الكريم أمر العصاة وحالهم في الآيات الآتية:

﴿وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبْلُوهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ. وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَى رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ. فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ. فَلَمَّا عَتَوْا عَنْ مَا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾ [١١٥٥]

وقد ذكَر الله تعالى الأجيال التي جاءت بعد هؤلاء بالعقاب الذي حلّ بهم، ليتخذوا منه عبرة وموعظة لهم، إذ قال تعالى:

﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ. فَجَعَلْنَاهَا نَكَالًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ﴾ [١١٥٦]

لقد لعن داوود عليه السلام أهل أيلة عندما خرجوا على أوامر عزّ وجلّ بشأن يوم السبت وظلموا أنفسهم فتحولوا إلى قردة خاسئين. [١١٥٧]

وتشير الآية الكريمة الآتية إلى وقوع هذه الحادثة في فترة نبوة وحكم داوود عليه السلام:

﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرائِيلَ عَلى لِسانِ داوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذلِكَ بِما عَصَوْا وَكانُوا يَعْتَدُونَ﴾ [١١٥٨]

ولأن المؤمنين يعتقدون ويؤمنون بالأنبياء والرسل جميعاً، ولا يفرقون بين أحد منهم، ويؤمنون بنبوة سيدنا عيسى عليه السلام، فقد كان اليهود يقولون: لا نعلم ديناً أسوأ من دينكم!

وقد نزلت الآية الجليلة بسبب ذلك، حيث يقول الله عزّ وجلّ:

١١٥٥. الأعراف: ١٦٣.

١١٥٦. البقرة: ٦٥-٦٦.

١١٥٧. الماليلي يازر، دين الحق لغة القرآن، 3 ، ٦٨٧١.

١١٥٨. المائدة : ٧٨.

﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللهِ مَنْ لَعَنَهُ اللهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ أُولَئِكَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضَلُّ عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾ [١١٥٩]

كما تبين الآية الكريمة فإن الله تعالى قبل أن يبيد بني إسرائيل الذين أصروا على خطاياهم وعنادهم وعصيانهم مَسَخهم إلى قردة، ومن ثم أهلكهم أجمعين. ولا علاقة لهذه الحادثة التي جرت لبني إسرائيل بالنظريات الشائعة في عصرنا التي لا أصل لها من الصحة والتي تدعي بأن القرد هو أصل الإنسان.

الذكرى الباقية من سيدنا داوود عليه السلام: صوم داوود عليه السلام:

إن «صوم داوود» عليه السلام، أي الصوم يوماً والإفطار يوماً هو ذكرى عزيزة وباقية من داوود عليه السلام إلى أمة محمد ﷺ وواحدة من العبادات التي يلتزم بها المسلمون، وقد بين النبي عليه الصلاة والسلام أن من أفضل الصيام هو "صوم داوود" عليه السلام.

وقد روي عن عبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه أنه قال:

أُخبر رسول الله ﷺ أنه يقول: لأقومن الليل ولأصومن النهار، ما عشت، فقال رسول الله ﷺ: «**آنت الذي تقول ذلك؟**» فقلت له: قد قلته، يا رسول الله، فقال رسول الله ﷺ:

«**فإنك لا تستطيع ذلك، فصم وأفطر، ونم وقم، وصم من الشهر ثلاثة أيام، فإن الحسنة بعشر أمثالها، وذلك مثل صيام الدهر**»

قال قلت: فإني أطيق أفضل من ذلك، قال:

«**صم يوما وأفطر يومين**»

قال قلت: فإني أطيق أفضل من ذلك، يا رسول الله، قال:

«**صم يوما وأفطر يوما، وذلك صيام داود عليه السلام، وهو أعدل الصيام**»

قال قلت: فإني أطيق أفضل من ذلك، قال رسول الله ﷺ:

«**لا أفضل من ذلك**»

قال عبد الله بن عمرو رضي الله عنه:

«لأن أكون قبلت الثلاثة الأيام التي قال رسول الله ﷺ، أحب إلي من أهلي ومالي» [١١٦٠]

١١٥٩. المائدة: ٦٠. الواحدي، أسباب النزول، ص. ٢٠٣.

١١٦٠. البخاري، الصوم، ٥٥– ٧٥، التهجد، ٧؛ مسلم، الصيام، ١٨١/ ١١٥٩.

فضل سيدنا داوود عليه السلام:

- كان داوود عليه السلام يتوجه في كل شؤونه إلى الله تعالى.
- قال الله عز وجل بحقه "عبدنا داوود" وهو صفة تشريفية رفيعة.
- أُنزل عليه الزبور أحد الكتب السماوية الأربعة.
- كانت الجبال والطيور تشترك معه في ذكر الله تعالى.
- كان يعلم منطق "لغة" الطير.
- كان صاحب صوت شجي جميل ورائع، إذ أن الجبال والطيور كانت تستمع إليه عندما يتلو الزبور.
- لان الحديد بين يديه مثل شمع العسل، فكسب لقمة عيشه من عمل يده بصناعة الحديد، وقد مدح نبينا الكريم ﷺ هذه الصفة في داوود عليه السلام.
- أوتي داوود عليه السلام فصل الخطاب «القدرة الفائقة على التمييز بين الحق والباطل» وأوتي الحكمة.
- كانت مملكته في تلك العصور من أقوى الممالك وأعظمها هيبة.
- كان داوود عليه السلام عبداً شكوراً لله تعالى، وقد قال ذات مرة:

«إلهي، كيف لي أن أشكرك، وأنا لا أصل إلى شكرك إلا بنعمتك؟»

فأوحى الله إليه: «يا داوود، ألست تعلم أن الذي بك من النعم مني؟»

قال: «بلى، أي رب»

قال: «فإني أرضى بذلك منك شكرا». [١١٦١]

- وفوق كل ذلك فإن الله تعالى اعتبر داوود عليه السلام واحداً من الأنبياء المقربين، وأصحاب المقام العالي عنده.

حيث جاء في الآية الكريمة:

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلًا...﴾ [١١٦٢]

١١٦١. أحمد بن حنبل، الزهد، ١، ٦٢/ ٣٧٥؛ ابن كثير، قصص الأنبياء، ص. ٤٢٥.

١١٦٢. سبأ: ١٠.

وفاة سيدنا داوود عليه السلام:

يقول النبي ﷺ:

«كان داوود النبي فيه غيرة شديدة وكان إذا خرج أغلقت الأبواب فلم يدخل على أهله أحد حتى يرجع، قال فخرج ذات يوم وغلقت الدار فأقبلت امرأته تطلع إلى الدار فإذا رجل قائم وسط الدار فقالت لمن في البيت من أين دخل هذا الرجل الدار والدار مغلقة والله لتفتضحن بداوود. فجاء داوود فإذا الرجل قائم وسط الدار. فقال له داوود: من أنت؟ قال:أنا الذي لا أهاب الملوك ولا يمتنع مني شيء.فقال داوود: أنت والله ملك الموت فمرحبا بأمر الله. فرمل داوود مكانه حيث قبضت روحه...» [١١٦٣]

لقد كانت فترة حكم داوود عليه السلام التي استمرت أربعين عاماً، من أكثر عصور بني إسرائيل ازدهاراً وتألقاً، وقد فتح داوود عليه السلام القدس، وجعلها عاصمة لدولته، فكان داوود نبياً وحاكماً في آنٍ معاً، حيث امتاز بهاتين الخاصيتين من قبل مولاه الحق سبحانه وتعالى، وانتقلت من بعده إلى ولده سليمان عليه السلام، وبُعث هو الآخر نبياً لقومه.

الزبور ومحتواه:

لقد ورد ذكر الزبور في القرآن الكريم بكلمة مفردة «الزبور» إلى جانب ذكر صيغة الجمع لتلك الكلمة أيضاً بعبارة «الزبر». وتعني كلمة الزبور: الكتاب، أما الزبر فإنها تعني: الكتب. ومرت كلمة الزبور في القرآن الكريم في ثلاثة مواضع، وفي كل مرة مرتبطة بذكر النبي داوود عليه السلام.حيث يقول الله عز وجل في الآية الكريمة:

﴿...وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا﴾ [١١٦٤]

وأما كلمة الزبر فإنها ليست متعلقة بالنبي داوود عليه السلام دائماً، وإنما تُذكر في القرآن الكريم للإشارة بشكل عام إلى كل الكتب السماوية التي أُنزلت على الأنبياء والرسل عليهم السلام.

حيث ورد ذكرها في القرآن بالعبارة الآتية:

﴿وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ﴾

١١٦٣. أحمد، سند، ٢، ٤١٩/ ٩٤٣٢.

١١٦٤. النساء: ١٦٣.

وإن في هذه الآية الكريمة تلميح بورود ذكر نبينا محمد ﷺ في الكتب السماوية السابقة، والبشارة ببعثته.

وهناك معلومات في القرآن الكريم تتعلق بنزول الزبور على داوود عليه السلام، وذلك في الآية الآتية:

﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ [١١٦٥]

والمقصود بالذكر هنا «التوراة».

وهناك المزيد من المعلومات في القرآن الكريم والتي تتعلق بالزبور. فقد ذُكر في المصادر الإسلامية أن إنزال الزبور على داوود عليه السلام هو واحد من خصائصه المتميزة.

وقد قال العلماء المسلمون أن الزبور جاء خالياً من المسائل المتعلقة بالأحكام والمعاملات، وإنما اقتصر مضمونه على احتواء الأدعية والنصوص التي يناجي بها العبد ربه سبحانه وتعالى.

وقد كان داوود عليه السلام الذي بُعث بعد موسى عليه السلام يطبق تعاليم التوراة في المسائل المتعلقة بالأحكام، وكان الزبور عبارة عن مجموعة من النصوص والأدعية الإلهية التي يعبر بها العباد عن شوقهم ومحبتهم السامية لله تعالى، والالتجاء والتضرع بصورة مثالية إلى مولاهم عزّ وجلّ.

فالزبور هو كتاب القصائد. حيث أن اشتمال هذا الكتاب على قسم تحت مسمى «المزامير» يفيد بأن هذه المقاطع القصائدية يتم ترتيلها وفق أداء موسيقي منتظم. وإن عدد المقاطع في الزبور مائة وخمسون منها سبعون مقطعاً منسوبة إلى داوود عليه السلام، وأما بقية المقاطع فيقال أنها عائدة إلى غيره.

وبالمناسبة، فإن الزبور الموجود اليوم ليس ذلك الزبور الذي نصّ القرآن الكريم على أنه الكتاب المُنزل على سيدنا داوود عليه السلام. وذلك لأن الكتاب المقدس بكل أقسامه لم يجر تحريره والمحافظة عليه بالشكل الذي أُنزل عليه، وإنما تعرّض لتدخلات وتحريفات بشرية كثيرة إلى يومنا هذا. وعلى ضوء هذه الحقيقة التاريخية، فإن احتمال وجود الزبور هذا اليوم بشكله ومضمونه الأصلي غير وارد ومجاف للحقيقة.

١١٦٥. الأنبياء: ١٠٥.

حيث أن الزبور الموجود في أيامنا هذه جرى تدوينه وكتابته بعد مرور خمسمائة عام على وفاة داوود عليه السلام. ومن جانب آخر فقد رُوي أنه تمت إضافة حياة داوود عليه السلام وتبليغاته وإرشاداته إلى الزبور، وعلاوة على ذلك فقد جرى تضمين التوراة بأشعار نحو مائة من الشعراء المجهولين.

ولم يثبت إلى اليوم بقلم من جرت كتابة الزبور الموجود حالياً، ولم يُعرف إن كان تم تدوينه بوحي إلهي أم بإلهام الكتاب. ويقول المستشرق هورن:

«إن الادعاءات بأن الزبور قد تدوينه من قبل داوود عليه السلام، عبارة عن قناعات ضعيفة لا أصل لها من الصحة، وإن بطلان هذه الأفكار وخطؤها ظاهر للعيان».

وإن فكرة التلاقي مع الإله الواردة في الزبور تشبه دعوى التجسيم للإله التي ذكرت في التوراة، فهي شكل من أشكال إضافة التصوير على الذات الإلهية وتشبيهه بالبشر، تنزه الله تعالى عن كل ذلك، وكذلك مثل نسبة الابن إلى الله تعالى التي جاءت في أقسام أخرى من الكتاب المقدس، فمثل هذه التصورات مخالفة للحقيقة وتتعارض مع التوحيد. وتنقل لنا إحدى الروايات الموجودة في الزبور المتداول في أيامنا هذه مناجاة سيدنا داوود عليه السلام على الشكل التالي:

- قال الرب لي: «إنك ابني! واليوم تبنيتك ولداً لي!» [١١٦٦]

والنتيجة، إن الزبور الموجود في يومنا هذا هو عبارة عن كتاب شعر فقط لا غير، ولا يوجد فيه شيء سوى بعض نصوص المناجاة المنسوبة إلى داوود عليه السلام وغيره، ولا يُعلم مدى صحتها أو مطابقتها لما ورد في الزبور الحقيقي.

١١٦٦. المزامير، ٢/ ٧.

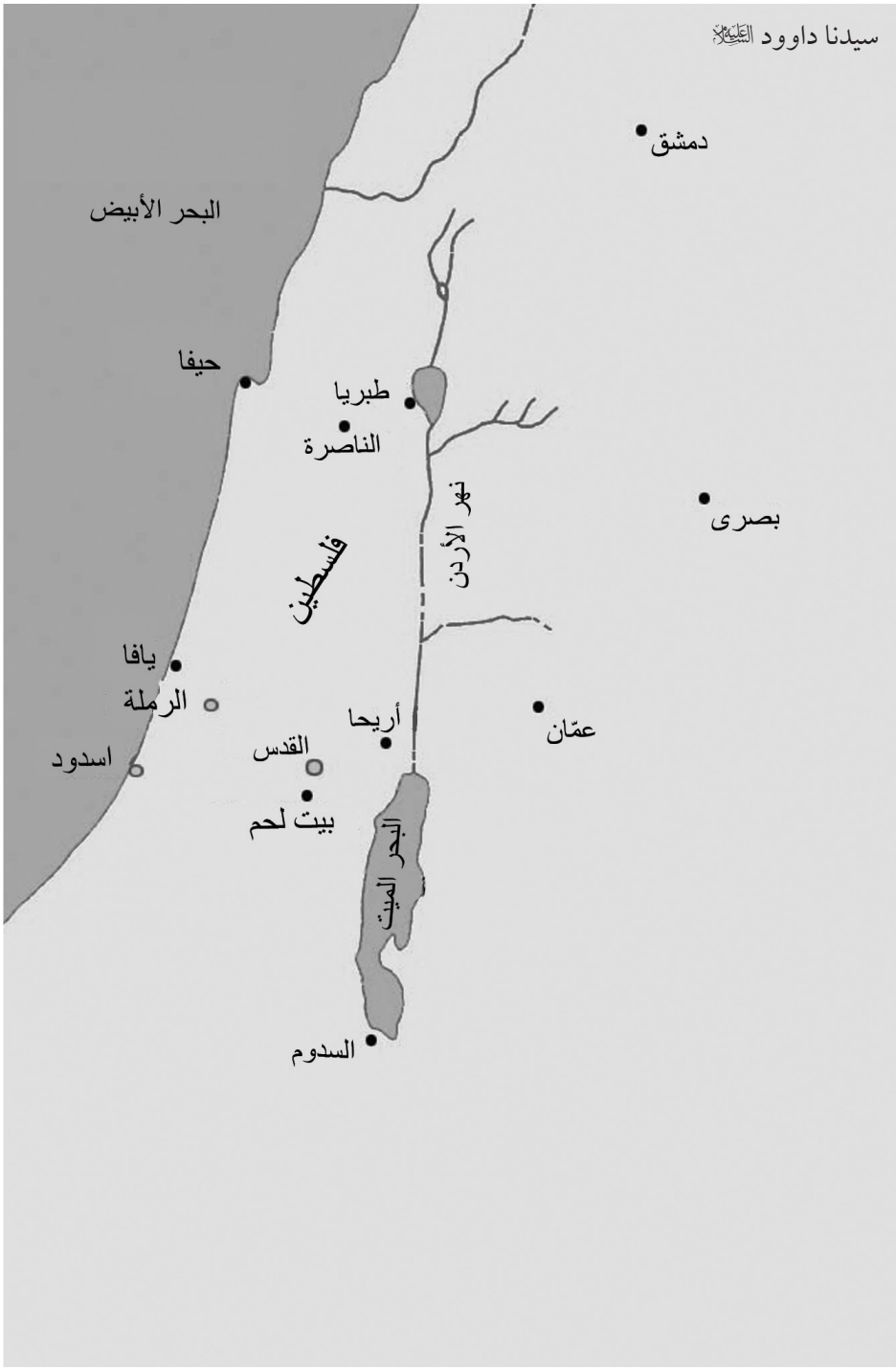
سيدنا داوود عليه السلام
دمشق
البحر الأبيض
حيفا
طبريا
الناصرة
نهر الأردن
بصرى
فلسطين
يافا
الرملة
أريحا
عمّان
القدس
اسدود
بيت لحم
البحر الميت
السدوم

القراءة الجميلة لأجل كلام:

إن الصوت الجميل لقارئ كلام الله تعالى، والقراءة الصحيحة الخالية من اللحن والأخطاء تلعب دوراً مهماً وبارزاً في إحداث التأثير البالغ على المستمعين المخاطبين بهذا الكلام من الجن والإنس. وحتى الكلام البشري تختلف معانيه وتأثيراته باختلاف أساليب تلفظه وطرق إلقائه، ففي بعض الأحوال يزداد تأثيره، وفي أحوال أخرى ينخفض تأثيره. فالتوسلات التي يتلفظ بها الشحاذ لا يبرز تأثيرها بالكلمات التي ينتقيها فقط، وإنما يكون التأثير أيضاً بالأسلوب والطريقة التي يلفظ بها كلمات التوسل تلك، ولا يمكن إنكار الأثر الإيجابي والقوة التي تنبعث في نفوس الجنود نتيجة الجهود التي يبذلها قائدهم في طريقة وأسلوب إلقاء الخطب الحماسية والتشجيعية قبل المعارك التي تحمل في طياتها النار والموت. يعني أنه لا يمكن إنكار ما للموسيقا في الكلمة من التأثير والقوة العجيبة والمختلفة على مسامع الجنود، حيث أن قوة هذا التأثير هي العامل الذي أخرج للوجود«الماهتار» أنشودة التعبئة العامة التي تحوز على مكانة مهمة في تاريخنا وحضارتنا.

فإذا كانت كيفية النطق تحدث تأثيراً بالنسبة للكلام البشري البسيط، فمن باب أولى أن تحمل أهمية أكبر بالنسبة للكلام الإلهي الذي هو القرآن الكريم. ومن يعلم! ربما يكون وجوب الاستماع إلى القرآن الذي تعتبر قراءته سنة بناء على هذه الحكمة، وبناء على هذه الحقيقة فقد شكل علم قراءة القرآن «تلاوة القرآن» فرعاً مستقلاً وقائماً بذاته بين العلوم الإسلامية الأخرى. وقد خرج أئمة "لعلم القراءات" مثل أئمة المذاهب الفقهية.وإن من صفات داوود عليه السلام الذي كان واحداً من الأنبياء المُنزل عليه كتاب سماوي، إن من صفاته صوته الجميل الذي أصبح عَلَماً في التاريخ البشري باسم «الداوودي».

ومن الثابت في القرآن الكريم أن داوود عليه السلام عندما كان يقرأ كلام الله تعالى بصوته الشجي كانت الطيور، والجبال المسبحة تنحني بأعناقها نحوه. [١١٦٧]

وكانت الحيوانات البرية، وحتى الجمادات تشترك معه في التسبيح على صوته الجميل. [١١٦٨]

١١٦٧. انظر: الأنبياء، ٧٩.

١١٦٨. انظر: سبأ، ١٠.

فالصوت واحد من النعم الكبيرة التي أنعم الله ﷻ بها على مخلوقاته.

فلولا الصوت لعانت الكائنات من فراغ كبير، لأن الصوت ظرف مهم لوجود القوة المحركة الإيجابية أو السلبية.

والصوت نعمة مثل النعم الأخرى فكما يمكن استخدامها في الخير، يمكن أن تكون وسيلة للشر أيضاً. ومن جهة أخرى فكما أن لكل حالة أو ظرف في العالم وجهان خير وشر، حسن وقبح، أو له قطبان، فكذلك يوجد للصوت جمال وقبح، فكم يبعث صوت البلبل الجميل النشوة في الروح، ويملأ القلوب بالسرور، وعلى عكس صوت البلبل فإن صوت الغراب يحدث أثراً سيئاً وموحشاً في النفس.

كما أن للصوت آثار بين البشر، كذلك فإنه يُحدث آثاراً بين الحيوانات أيضاً سواء بالتأثيرات الإيجابية أو السلبية. ففي حين أن زئير الأسد في الغابة يصيب قلوب الحيوانات الضعيفة بالهلع؛ فإن الثعبان الذي يُعد أبرد الحيوانات أعصاباً يخرج على صوت الناي الجميل من سلّة الفقير الهندي ويبدأ باستعراض الرقص، وكذلك فإن الجِمال في الصحاري يتم حثها على الإسراع في جريها عن طريق التغني، وإن العرب يطلقون على هذا اللحن الموسيقي اسم «الحدو».

وإن الصيادون بحسب الروايات، يصطادون الغزلان المسكينة ذوات المظاهر الجميلة على منابع المياه بجذبها عن طريق صوت الناي الشجي، إذ تخرج الغزلان من مخابئها بين الأشجار على سماع صوت الناي الجميل، وتتجه نحو رأس النبع، لتتمدد هناك بدون حراك، فتستمع إلى الموسيقى والدموع الساخنة تنهمر من عينيها، وفي تلك الأثناء يخرج أولئك الصيادون من أماكنهم التي تواروا فيها عن الأنظار، مستغلين هدوء هذه الحيوانات السريعة وسكونها على صوت الناي، فيصطادوها بكل سهولة ويسر.

إن كان تأثير الأصوات يبلغ إلى هذه الدرجة بشأن الحيوانات، فلم لن يُحدث ذلك التأثير على أحاسيس الإنسان الذي يُعتبر بدون شك أكثر تكاملاً وشاعرية من تلك الحيوانات العجماء! حيث أن صوت النقود يؤثر على الماديين، وصوت المياه والبلابل تلهم الرومانسيين وأصحاب الأحاسيس الشعرية؛ أما الصدى العلوي لصوت قراءة القرآن الكريم والأذان فإنه منبع طمأنينة الباحثين عن الحق، الذين تحررت أرواحهم من عوالق المادة والأهواء.

كان النبي ﷺ عندما يشعر بضيق صدره من المسائل الدنيوية، ومن أجل استعادة طمأنينة قلبه وسكينته، كان يقول لبلال رضي الله عنه:

«يا بلال أقم الصلاة أرحنا بها" [١١٦٩]

عندما تغني البلابل فإن الجبال تصمت لغنائها، وعندما يتردد صدى الآذان مخترقاً فراغ السماء فلا يصدر من وجه الأرض صوت غيره، فكلما كانت أحاسيسنا ومشاعرنا مرهفة كلما ازدادت تأثيرات هذه الأصوات الجميلة واتقادها في نفوسنا.

ويقوم مولانا الرومي بتكليم النادي، ليفرغ ما يختلج في داخله من هموم ونجوى فيقول في بكاء ونحيب للذين لا يفهمون لسانه:

«لقد تحول صدى الناي إلى لهب من النار، فلا تظننه نغمة بلا معنى، فمن ليس فيه هذا اللهب، فالويل كل الويل له».

يقول أحد عازفي الناي:

«إن صدى وأنين نايي يكون مختلفاً في أوقات السحر! ومحاولاً التعبير عن حكمة رقيقة وحساسة في صدى الناي».

ويقول محي الدين بن عربي قدس الله سره:

«إن كل الموجودات تلهج بذكر الله تعالى بطريقتها الخاصة بها وتختلف أحوال هذه الموجودات عن بعضها البعض. تأتي الجمادات في المرتبة الأولى. أي العالم الذي لا روح فيه من الحجارة، والتراب، والماء، والمعادن «فهي من أكثر الموجودات ذكراً لله تعالى» وذلك لأنها بعيدة عن أهواء النفس، ومستغنية عن حاجات الطعام والشراب، والتنفس وبالتالي فهي أبعد ما تكون عن الغفلة».

وقد ذكر الله عز وجل يقظة الجمادات هذه في الآية الكريمة:

﴿لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [١١٧٠]

١١٦٩. أبو داوود، الأدب، ٧٨/ ٤٩٨٥ .

١١٧٠. الحشر: ٢١.

ويقول الله تعالى في آية أخرى:

﴿... وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ﴾ [١١٧١]

وحسبما بينه ابن العربي رحمه الله فإن النباتات تأتي في المرتبة الثانية بشأن ذكر الله ﷻ بعد الجمادات، إذ أن للنباتات مجموعة من الحاجات مثل الماء، والهواء، والشمس، فهي متكاملة أكثر من الجمادات، حيث أنها تمتص من الأرض بعض المواد الكيميائية، وتركّبها في جسمها بقدرة إلهية فتُظهر إلى الوجود أزهاراً مختلفة الألوان والروائح، وأوراقاً نضرة، وفاكهة متعددة الأصناف. ولهذا السبب فإن النباتات تذكر الله تعالى بشكل أقل بالمقارنة مع الجمادات.وبعدها تأتي الحيوانات، فالحيوانات أكثر تكاملية من النباتات من حيث الوظائف الحياتية، ولذلك فإن احتياجاتها كثيرة، ونفسيتها مرتفعة.

وأما الإنسان الذي يأتي في المرتبة الأخيرة فإن أُفقه واسع سواء في الاتجاه الإيجابي أو السلبي، وهذه نتيجة طبيعية لكونه مخاطباً بالتكليف الإيماني. لكن الأنانية والتخيلات، والخواطر، والرغبات والشهوات الدنيوية تقود الإنسان وتوقعه في الغفلة بشكل مستمر.

حيث يقول الله تعالى في كتابه العزيز:

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَنْ يُهِنِ اللهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ إِنَّ اللهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾ [١١٧٢]

إن هذه الآية تصوير رائع وجميل لحالة الأصناف الأربعة التي مرّ ذكرها في الأعلى، وكل حسب خصائصها وطبيعتها، وإنها تُظهر بشكل جلي عدم وجود كائنات لا تسبح الله سبحانه وتعالى.[١١٧٣]

١١٧١. الأنبياء: ٧٩.

١١٧٢. الحج: ١٨.

١١٧٣. الذكر والتسبيح نوعان:

أ- **الذكر التسخيري**: هو الذكر والتسبيح الذي تقوم به المخلوقات من تلقاء ذاتها بشكل لا إرادي. وإن حياة النباتات والحيوانات وتصرفاتها مرتبطة بهذا الذكر. وهذا الذكر يعتبر بالنسبة لها بمثابة نفس الحياة. فبانتهاء الذكر تنتهي حياتها.

ب- **الذكر الإرادي**: هو الذكر والتسبيح الذي يقوم به البشر بمحض إرادتهم.

وإن الكائنات الأكثر غفلة، والأقل ذكراً لله تعالى، والأبعد عن الحق هم قسم من البشر. وفي آية أخرى يبين الله ﷻ المخلوقات التي تستغرق في ذكره على الدوام، إذ يقول:

﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [١١٧٤]

أما الناس الذين توهجت أحاسيس قلوبهم، فإنهم يشعرون بالتسبيح في كل حركة أو صوت يبلغ آذانهم، إنهم تماماً مثل الولي الصالح الذي إذا ما مرّ من أمام دكان لصائغ الذهب فإنه يصاب بالوجد من الذكر الذي في نغمات صوت مطارق الذهب متسامياً في الخشوع مثل المنشغل بكل قلبه في ذكر الله، ويعيشون حياتهم في تناغم وانسجام مع ذكر عامة الكائنات.

إن طريقة الذكر لعامة الكائنات متحررة من قيود الصوت أو الأحرف، أو الحركات، وهو ذكر لا يمكن وصول صداه إلى كل الآذان، وإن سماع هذا الذكر السري خاصية محصورة بمن هو من أهل الذكر، وإن حديث "يونس أمره" المليء بالوجد والنشوة الروحية مع الوردة الصفراء هو من قبيل هذه الخاصية.

ثم إن الذين تنشغل قلوبهم بالذكر في كل أحوالهم، ويتجاوزون بالاتحاد مع الذكر أهواءهم ورغباتهم النفسية ليعودوا بأنفسهم إلى حالة الصفاء الطبيعي الأصلي، بإمكان هؤلاء بعد تجاوز هذه المرحلة من تربية النفس، بإمكانهم إدراك جانب الذكر في كل صوتٍ يتناهى إلى مسامعهم.

وباختصارٍ، فإن الذكر هو جمال كل الأصوات، سواء ذوات الأحرف أو الخالية من الحروف. فإلى جانب المعنى الخاص لكلمة الذكر، فإنها أصبحت اسماً للكتب الإلهية وتحولت إلى كلمة غنيّة بالمعاني والمحتويات، وقد تم تناول كلمة "الذكر" في آيات التوراة الشريف والقرآن الكريم بشكل كثير.

وبهذا الاعتبار وبناءً على الأمر الإلهي الأول من جناب الحق سبحانه وتعالى في القرآن الكريم وبموجب قوله «اقرأ باسم ربك الذي خلق» فإن الأصوات والأنفاس قد اكتسبت خصوصية شرف وعزة الذكر النابع من صدى القرآن الكريم.

١١٧٤. الإسراء: ٤٤.

ويقول النبي ﷺ:

«زينوا القرآن بأصواتكم» [١١٧٥]

«حسنوا القرآن بأصواتكم، فإن الصوت الحسن يزيد القرآن حسناً»[١١٧٦]

«ليس منَّا من لم يتغنَّ بالقرآن» [١١٧٧]

وقال العلماء المسلمون أن المقصود بالتغني في هذا الحديث الشريف هو تحسين الصوت عند قراءة القرآن، وأما الأشخاص الذين لا يتمتعون بصوت حسن، قالوا: عليه بذل غاية الجهد لتحسين صوته عند تلاوة القرآن الكريم.

لأن القرآن الكريم هو أفضل الكلام على الإطلاق، ولذلك فإن الصوت البشري يخرج في غاية الاحتشام والحسن والجمال بصدى القرآن الكريم.

فالإنسان يعتاد على كل صوت جميل ويشبع منه بعد مدة من الزمن، إلا القرآن فإن صداه لا يُمل أبداً!.. لأن نغماته العلوية تُطرب أصحاب القلوب الرقيقة وكأنها نسمات من رياحين الجنة قد وُهبت لهم.

يقول النبي ﷺ:

«لم يأذن الله لشيء ما أذن للنبي أن يتغنى بالقرآن»[١١٧٨]

إن هذه الأحاديث الشريف تبين لنا مدى أهمية قراءة القرآن الكريم بالترتيل، ومراعاة أحكام التجويد فيها.

وإن طمأنينة وسكينة قلوب المتكدرين والتائبين مخبوءة في نغمات القرآن حيث تحوي العلاج الذي تنتشي به الأرواح، والباحثون عن سبيل النجاة الأبدي يحتاجون إلى إرشاد وهدى لسان أهل الجنة الذي وهب الحياة لأرواحهم.

أما الغافلون الذين أغلقوا قلوبهم عن صوت القرآن وصداه، حتى لو أدركوا ظاهر الحياة، فإنهم يبقون محرومين من حقائق وحكم العالم الباطني. إنهم يتيهون مدى

١١٧٥. ابن ماجه، الإقامة، ١٧٦/ ١٣٤٢ .

١١٧٦. الدارمي، فضائل القرآن، ٣٤/ ٣٥٤٤.

١١٧٧. البخاري، التوحيد، ٤٤/ ٧٥٢٧ ؛ أبو داوود، الوتر، ٢٠/ ١٤٦٩ .

١١٧٨. البخاري، فضائل القرآن، ١٩، التوحيد ٢٣/ ٥٠٢٣ .

عمرهم في السير خلف شهوات وملذات الدنيا، ولكنهم غافلون عن الحكمة الكامنة وراء وجود العالم.

إنهم يستغلون هذه الحياة لأقصى درجة، وينهلون من مائدة الدنيا حتى التخمة، ولكنهم يجهلون صاحب المائدة «الرزاق» الحقيقي.

حتى وإن دفنوا أقرباءهم في المقابر، إلا أنهم يتابعون حياتهم في غفلة وجهالة عن المغامرة العظيمة التي تنتظرهم تحت التراب، أولئك لا يفهمون شيئاً من شواهد الجنائز الصاكة التي لا تتكلم.

بالرغم من المصائب الكثيرة التي تصفع وجوههم من الزلازل، والعواصف وغيرها، إلا أنهم يصرون على إدارة ظهورهم للحقائق، ويعزّون أنفسهم باللجوء إلى ادعاءاتٍ مزيفة وتسمية تلك التحذيرات بـ "الكوارث الطبيعية"، باحثين عن مخرجٍ يفرون منه.

ما أغرب أمرهم، إذ أنهم يعيشون في ملك الإله، ويناصبون صاحب الملك الحقيقي العداء!

أما المؤمنون الذين أضيئت قلوبهم بنور القرآن الكريم، فإنهم في حالة تفكر عميق بالحقائق السامية.

وإن الكلام الإلهي الذي يقرؤونه يلهمهم القول بلسان حال قلوبهم:

«إنك عبد لله تعالى، وتعيش في ملكه! وإن أرزاقك هي بعطاء ومنحة من الله تعالى. فانشغل بأسرار القرآن الكريم والتزم بحكمته، وسر إلى ربك بقلب سليم!"

وإن الذين يلقون السمع ويسلمون القلب للإلهام الإلهي في القرآن الكريم، يحيون حياتهم دائماً ضمن مشاعر من العبودية التامة لله تعالى. فيشكرون ربهم ﷻ على النعم التي أسبغها عليهم، ويبذلون غاية جهدهم لجعل دنياهم الفانية رأسمالهم من أجل الفوز بالحياة الأبدية الخالدية يوم القيامة.

ولهذا، فإن القرآن الكريم يعتبر بالنسبة للذين يتمكنون من الحصول على إحساس من الروحانية المحمدية، يُعتبر لغة الأرض والسماء، وخزينة من الفيوضات والبركات.

ويُعتبر النبي ﷺ والقرآن الكريم مصدرين كبيرين للنور الذي تفضل الله تعالى بهما على عباده.

وهناك ثلاثة موجودات تتجلى فيه كل صفات الله ﷻ وهي:

«الكائنات، والقرآن، والإنسان»

فالكائنات هي تجلٍ فعلي لصفات الله تعالى؛ أما القرآن فهو تجلٍ كلامي، وأما الإنسان فهو الزبدة في الموجودات ويعتبر مجموع كل التجليات. فكما أن الدنيا تكون موحشة ومملة بغير الإنسان، كذلك يكون الإنسان بدون القرآن. حيث يقول النبي ﷺ:

«إن الذي ليس في جوفه شيء من القرآن كالبيت الخرب» [١١٧٩]

إن الكائنات قرآن صامت، وفي القرآن كائنات ناطقة، أما الإنسان الذي هو أثر لتجلي الأسرار الإلهية، فيعتبر بمثابة الخلاصة أو الزبدة لكل الموجودات، فالقرآن الكريم معجزة بيانية وخطاب الحق، والقلب البعيد عن حقائق القرآن يكون مظلماً كالمكان الذي مُلِئ بالقطران ولا نور فيه، وسيء الحظ في العالَمين الدنيا والآخرة.

❁

وأذكر فيما يلي بعضاً من بركات وحكم القرآن الكريم التي لا حصر لها:

إن القرآن الكريم يلفت نظر الإنسان إلى التأمل في مظاهر القدرة الإلهية وروعة الخلق في العلم الخارجي، ليوقظ فيه عالمه الداخلي، فيصرف العبد عن الكائنات الجميلة في الكون بقلب مرهف حساس، ويأخذ بقلبه إلى مناخ مفعم بمحبة الله تعالى ورسوله الكريم ﷺ.

والقرآن الكريم الذي يُعد سبيل السعادة في العالَمين ينظم حياة الملتجئين إليه بمعايير سامية، ويجول بهم في بساتين السعادة لحياة مطمئنة ومتوازنة.

بينما الكائنات جميعاً وكل ذرة بداخلها خاضعة بشكل طبيعي إلى قانون متوازن لدرجة فائقة في الدقة والعظمة، فإن الإنسان الذي لا يرتمي في أحضان القرآن ويفقد توازنه وطبيعته الأصلية، يكون قد حط من شأنه وإنسانيته وألقى بها في غياهب الخسران والشقاء، لأن التوازن الذي في بدن الإنسان وروحه هو أثر من آثار فيوضات القرآن الكريم.

فالقرآن الكريم يُعتبر محيطاً لا قرار له لإنسان القلب والوجدان للتفكر، وإذا كان تفكر كل إنسان صاحب إدراك في مظاهر العظمة الإلهية التي تحيط بكل زمان ومكان، وأخذ

١١٧٩. الترمذي، فضائل القرآن، ١٨/ ٢٩١٣؛ الدارمي، فضائل القرآن، ١.

العبر من القصص المليئة بالحكمة شرطٌ ليصل إلى الكمال، فإن كل ذلك واحد من تجليات الرحمة للقرآن الكريم.

وإن بسط خريطة الآفاق من أسرار العالم الخفية المجهولة والعصية على الرؤية، بسطها أمام الأعينن وتقديم ومضات الحقيقة من آفاق عالم الغيب بين يدي الإنسان، يُعتبر ذلك أيضاً واحداً من تجليات أسرار القرآن الخاصة.

والقرآن الكريم مجموعة من المواعظ والنصائح التي تدعو الإنسان إلى الاستقامة، والأخلاق الحسنة، والعبادة، والعلم، وتدعوه إلى السعادة الأخروية، وإن إدراك هذه الأمور بشكل قيم يمكن من خلال الفراسة التي أنعم الله بها على الإنسان.

يدعو القرآن الكريم البشرية قاطبة إلى الهداية والرشد. وإن مرشد الهداية هو نبينا محمد ﷺ الذي كان بماهية التفسير الحيّ للقرآن الكريم خلال مسيرة حياته. أي أن القرآن الكريم والنبي ﷺ يعتبران بحكم صيدلية علوية تحتوي على الشفاء الوحيد لأمراض غفلة الإنكار التي تعاني منها البشرية، ولهذا السبب فإن كل البشرية حتى آخر فر من أفرادها إلى قيام الساعة تعتبر من الأمة المحمدية، وقسم من هؤلاء يطلق عليها أمة الإجابة لأنها قبلت الدعوة السامية التي دعا لها، وهم الذين يعتبرون بحق أمة محمد الحقيقين، وأما الآخرون فإنهم يسمون بالأمة غير المجيبة «أمة الدعوة».

وإن مصدر سعادة وطمأنينة كل البشر مرتبطٌ بالإحساس عن طريق القرآن الكريم، والدخول في مناخ فيوضاته، والعمل بأحكامه، والتحلي بأخلاقه، ولهذا فإن الحياة البعيدة عن القرآن تعتبر انتحاراً أبدياً؟

وإن كثيراً من الأسرار والألغاز المحيرة التي تصيب إدراك البشر بالشلل والعجز والمتعلقة بالروح، والحياة، والموت، والبعث، والخلود، لا يمكن الوصول إلى كنهها والحصول على إجابات مطمئنة ومؤثرة بشأنها إلا عن طريق القرآن الكريم.

ويوجد في القرآن الكريم الذي يعتبر واحداً من تجليات كلام الله ﷻ وعلمه اللامحدود، يوجد فيه اطمئنان فريد لا نظير له يعجز الإنسان عن تعريفه، وهدوء وجداني وانسجام باهر معجز، ومرة أخرى فإن التاريخ شاهد على أن كل واحد من الأنبياء الذين يُعتبرون شموع الدعوة الإلهية في حالة من التأييد والتصديق لمن سبقه من الأنبياء، وأما الفلاسفة

فإنهم غارقون في مسالك مآزقهم العقلية، ومتاهات فلسفاتهم المنحرفة والضالة ومع ذلك فإنهم يكذّبون أسلافهم ويتهمونهم بالضلالة، وحتى العلوم البشرية التي استخرجت على مرّ التاريخ بواسطة الإمكانات العقلية المحدودة لاحتواء معاني الحياة والكائنات التي لا حصر لها ضمن أسماء ومفاهيم معينة، لا زالت تغوص في اختلافات وتناقضات عميقة ومتضاربة.

ولهذه الأسباب، فإن المؤمنون الذين تشبعوا بالتربية القرآنية أصبحت قلوبهم من منابع الحقائق الإلهية، بينما الفلاسفة الذين يتبعون نظرياتهم البشرية التي وضعوها بمدارهم المتصفة بالعجز والمحدودية، ومحاولين بواسطتها إيجاد طريقهم بالتلمس في الظلمات، قد أصبحوا في حالةٍ من الفقر والإفلاس الأبدي.

❁

وعلى ذلك فإن الحياة الحقيقية، هي عبارة عن العيش في جنة الحقائق القرآنية. حيث أن النبي ﷺ قال ذات مرة:

«إن القلوب تصدأ كما يصدأ الحديد».

قيل: فما جلاؤها يا رسول الله؟

قال: «تلاوة القرآن، وذكر الله» [١١٨٠]

وقال النبي ﷺ أيضاً:

«أعطوا أعينكم حظها من العبادة».

فقالوا: وما حظ العيون يا رسول الله؟.

قال النبي ﷺ:

«النظر في المصحف، والتفكر فيه، والاعتبار عند عجائبه»[١١٨١]

وقد جعل الله تعالى القارئين لكتابه الكريم بكثرةٍ على رأس عباده السعداء بنيل الفوز الأبدي يوم القيامة. فيقول الله ﷻ في الآية الكريمة:

١١٨٠. علي المتقي، كنز العمال،٢، ٢٤١/ ٣٩٢٤.

١١٨١. السيوطي، الجامع الصغير، ١، ٣٩/ ٢٨٦٧.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَنْ تَبُورَ. لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾ [١١٨٢]

ويقول أيضاً:

﴿... يَتْلُونَ آيَاتِ اللهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾ [١١٨٣]

وذلك لأن الإيمان يزداد بتلاوة آيات الله الكريمة. حيث يقول الله تعالى في آية أخرى:

﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [١١٨٤]

ومما لا ريب فيه أن تلاوة كتاب الله تعالى من أفضل العبادات التي يؤديها المرء، ولذلك فإن تلاوته بالشكل الحسن وبالترتيل تُعتبر إحدى التكاليف المهمة التي أنيطت برقابنا. فيقول الله ﷻ:

﴿... وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلا﴾ [١١٨٥]

ومن جهة أخرى، فمن الأهمية بمكان الاستماع إلى تلاوة القرآن والالتزام بالصمت خلالها. إذ أن قراءة القرآن تُعتبر من السنة، أما الاستماع فيُعتبر فرضاً. حيث يقول الله تعالى:

﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [١١٨٦]

وعلى ذلك، ينبغي الالتزام بالصمت التام والانتباه بكل دقة إلى تلاوة القرآن الكريم سواء أكانت في الصلاة أو خارجها، وذلك من أجل فهم وإدراك معانيه بشكل صحيح، والاستفادة من مواعظه والالتزام بإرشاداته في سلوكنا.

لأن الصمت يهيّئ للاستماع بتيقظ، والاستماع الجيد وسيلة للتبصر، والبصيرة تؤدي إلى الإيمان والعمل، والإيمان والعمل وسيلة للوصول إلى الرحمة والنعم الإلهية.

١١٨٢. فاطر: ٢٩-٣٠.
١١٨٣. آل عمران: ١١٣.
١١٨٤. الأنفال: ٢.
١١٨٥. المزمل: ٤.
١١٨٦. الأعراف: ٢٠٤.

والنبي ﷺ يحب الاستماع إلى القرآن الكريمة إلى جانب حبه لقراءته، وفي بعض الأحيان كان يأمر ابن مسعود ﷺ بقراءة القرآن الكريم ويستمع إليه بنشوة بالغة. وذات مرة كان يستمع النبي ﷺ إلى قراءة عبد الله بن مسعود ﷺ للقرآن الكريم فأدمعت عيناه المباركتين.

وينقل لنا عبد الله بن مسعود ﷺ هذه الحادثة، حيث يقول:

قال لي النبي عليه الصلاة والسلام ذات يوم:

«اقرأ علي القرآن».

فقلت:يا رسول الله أقرأ عليك؟ وعليك أنزل؟

قال النبي عليه الصلاة والسلام:

«إني أشتهي أن أسمعه من غيري»

فقرأت عليه من أول سورة النساء حتى إذا بلغت إلى قوله:

﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ [١١٨٧]

رفعت رأسي، أو غمزني رجل إلى جنبي، فرفعت رأسي فرأيت دموعه تسيل عليه الصلاة والسلام. [١١٨٨]

وفي حديث آخر عن أُسيد بن خضير:

بينما هو يقرأ من الليل سورة البقرة، وفرسه مربوطة عنده، إذ جالت الفرس، فسكت فسكتت، فقرأ فجالت الفرس، فسكت وسكتت الفرس، ثم قرأ فجالت الفرس، فانصرف، وكان ابنه يحيى قريباً منها، فأشفق أن تصيبه، فلما اجتره رفع رأسه إلى السماء حتى ما يراها، فلما أصبح حدّث النبي ﷺ.

فقال النبي عليه الصلاة والسلام:

«اقرأ يا ابن حضير، اقرأ يا ابن حضير»

قال أسيد ﷺ: فأشفقت يا رسول الله أن تطأ يحيى، وكان منها قريباً، فرفعت رأسي فانصرفت إليه، فرفعت رأسي إلى السماء، فإذا مثل الظلة فيها أمثال المصابيح، فخرجت حتى

١١٨٧. النساء: ٤١.

١١٨٨. البخاري، التفسير، ٤، ٩/ ٥٠٥٥؛ مسلم، المسافرين، ٢٤٧/ ٨٠٠.

لا أراها، قال النبي عليه الصلاة والسلام: «**وتدري ما ذاك؟**» قال أسيد ﷺ: لا، يا رسول الله. قال النبي عليه الصلاة والسلام:

«**تلك الملائكة دنت لصوتك، ولو قرأت لأصبحت ينظر الناس إليها، لا تتوارى منهم**»[١١٨٩]

يدل الحديث الشريف على أن الملائكة وحتى الحيوانات تشعر وتحسّ بصدى القرآن الكريم. فإذا كان الأمر كذلك، فمن يعلم كيف يُفشي القرآن الكريم أسراره وخفاياه لقلب متحرر من كثافة المادة ومحاطٌ بالنورانية؟

وإن حالة سيدنا عمر بن الخطاب ﷺ مثال رائع يدعو إلى التدبر والتفكير، حيث يقول:

«لقد ختمت سورة البقرة في اثنتي عشرة سنة، وذبحت جملاً شكراً لله على ذلك» [١١٩٠]

لأن قراءته للقرآن الكريم لم تكن عبارة عن قراءة لفظية فقط، وإنما كانت قراءة تدبر للوقوف على أسرار وحكم القرآن وفهم الحكم الإلهية الكامنة فيه ومن ثم الالتزام بكل ذلك في سلوكه الحياتي. وإن قراءة القرآن بالمعنى الحقيقي والاستفادة المناسبة منه لا بد أن يكون بالشكل الذي طبقه عمر بن الخطاب ﷺ.

وإن المثال الآتي حول قراءة القرآن بالكيفية المثالية، يحوي الكثير من العبرة:

كان لأبي بكر الوراق ولد صغير، فأرسله إلى شيخ من أجل تعلم القرآن الكريم، وذات يوم عاد الولد من المدرسة في وقت مبكر شاحب الوجه، ويرتجف جسمه، فاحتار أبو بكر الوراق رحمه الله بحال ولده وسأله:

- خيراً يا ولدي، ما هذه الحالة، ولم عدت من المدرسة باكراً؟

فأجاب الولد الذي سيطرت خشية الله تعالى على قلبه الصغير وتحوّل وجهه إلى ورقة خريفية ذابلة:

- يا أبت! اليوم علمني شيخي آية من القرآن الكريم، وعندما أدركت معناها أصابتني هذه الحالة من شدة خوفي!

١١٨٩. البخاري، فضائل القرآن، ١٥/ ٥٠١٨؛ مسلم، المسافرين، ٢٤٢- ٣٤٢.

١١٩٠. القرطبي، التفسير، ١، ٤٠.

فقال أبوه هذه المرة:

- وما هي تلك الآية الكريمة؟

بدأ الولد الصغير بالقراءة:

﴿فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِنْ كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا﴾ [١١٩١]

وبعد مدة وقع الولد الصغير فريسة المرض وأصبح طريح فراش الموت من شدة دهشة وهيبة تلك الآية الكريمة، ولم يمض وقت طويل حتى سلّم روحه الزكية إلى بارئها.

لقد تأثر والد الصغير أبو بكر الوراق بهذه الحادثة كثيراً، وقد كان يزور قبر ولده باستمرار فيبكي هناك ويقول لنفسه:

- يا أبا بكر! إن ولدك تعلم آية واحدة من القرآن الكريم ومن شدة خشيته لله سلم روحه وفارق الحياة. وأما أنت يا أبا بكر فقد مضى زمن طويل وأنت تقرأ القرآن، ولكنك لم تخف من الإله الحق حتى بقدر هذا الولد الصغير!.

فهذا هو القرآن الكريم، إنه مصدر للحكم والأسرار التي ترتجف لها القلوب الرقيقة وتضطرب لسماعه.

وكم تعكس الآية الآتية حجم القرآن المعنوي الكبير، وعلم وحاكمية وعظمة الخالق اللامتناهية، حيث يقول الله تعالى:

﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [١١٩٢]

وإن الإنسان ينهل نصيبه من هذا المحيط بقدر استعداده القلبي، ولكن مهما بلغ الإنسان في نهله فإنه لن يبلغ إلى مقدارٍ أكبر مما تأخذه نملة من هذا المحيط اللامتناهي.

وخلاصة القول، فإن خلاص البشر الوحيد من عجزهم هو الالتجاء إلى لطف الله تعالى ورحمته.

وكم مثيرٌ للدهشة سر الحديث الشريف:

١١٩١. المزمل: ١٧.

١١٩٢. لقمان: ٢٧.

«**من عرف نفسه فقد عرف الله**» [١١٩٣]

ويقول مولانا بديع الزمان النورسي رحمه الله:

«من الممكن كتابة ظاهر القرآن بمقدارٍ من الحبر، ولا يكفي لأسراره ملئ محيطات لا قرار لها، وبحارٍ لا شواطئ لها من الحبر».

ولذلك. فإن أهل القرآن الحقيقيين تتلذذ أرواحهم بتلاوة القرآن، وتسير حياتهم وفق أحكامه، وتتطابق أخلاقهم مع أخلاقه، ويتكاملون بحكمه. ولأجل هذه الصفات التي يتميز بها أهل القرآن يُؤمر التراب بأن لا يُبلي أجسادهم.

وهكذا فإن واحداً من أهل الله الحافظ محمود سامي ابن رمضان قدس الله سره الذي تمتع بصفة أهل القرآن وتوفي في أضنة، بعد ثلاثين عاماً عندما فُتح قبره لأسباب ضرورية من أجل نقل رفاته إلى مكان آخر، وُجد جسده كما هو لم يمسسه أي سوء وحتى كفنه كان يلمع وكأنه لُف به اليوم، وقد روى هذه الحادثة واحدٌ ممن رآها بنفسه.

❁

وإن رسولنا الكريم ﷺ الذي أدى مهمته بقراءة كلام الله تعالى وتبليغه للناس مثل كل الأنبياء عليهم السلام، قال في الحديث الشريف:

«**خيركم من تعلم القرآن وعلمه**» [١١٩٤]

لأن القرآن الكريم ذلك الكلام العلوي، يُعد أكبر هدية مُرسلة إلى البشرية من عند الله تعالى. ويقول النبي ﷺ بهذا الخصوص:

«**فضل كلام الله على كلام خلقه كفضل الله على خلقه**» [١١٩٥]

أي أن القرآن الكريم لا يمكن وضعه قيد المقارنة مع كلام البشر، فهو كلام لا مثيل له، ولا حدود ولا نهاية له. ويلزم قراءة الكلام الإلهي بقلب متيقظ لأن القرآن الكريم يكشف أسراره بحسب حالة قلب القارئ.

ويقول النبي عليه الصلاة والسلام:

١١٩٣. العجلوني، كشف الخفاء، ٢، ٣٦١.

١١٩٤. البخاري، فضائل القرآن، ٢١/ ٥٠٢٧.

١١٩٥. الدارمي، فضائل القرآن، ٦/ ٣٤٠٠.

«مثل المؤمن الذي يقرأ القرآن كمثل الأترجة، ريحها طيب وطعمها طيب، ومثل المؤمن الذي لا يقرأ القرآن كمثل التمرة، لا ريح لها وطعمها حلو، ومثل المنافق الذي يقرأ القرآن مثل الريحانة، ريحها طيب وطعمها مر، ومثل المنافق الذي لا يقرأ القرآن كمثل الحنظلة، ليس لها ريح وطعمها مر» [١١٩٦]

ويقول النبي ﷺ في حديث شريف آخر بشأن الذين يقرؤون القرآن بغفلة عن تدبره:

«...يقرؤون القرآن لا يجاوز حلوقهم، أو حناجرهم...» [١١٩٧]

إذاً، فإن قارئ القرآن بدون التدبر والتفكر فيه لا يحصل على شيءٍ من بركة القرآن الكريم.

وإن مثل هذه القراءات تودي بأصحابها إلى نار جهنم يوم القيامة. حيث يقول الله تعالى بحق الذين يتلون القرآن بهذه الشاكلة:

﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ [١١٩٨]

فإن العباد المتمتعين بالقلوب السامية وأصحاب الفكر الحساس والعميق يأخذون من هذا التحذير عبراً كثيرة. كيف لا يجب التفكير بالقرآن والنبي ﷺ عندما نزلت الآية الكريمة:

﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ [١١٩٩]

بقي يبكي إلى الصباح والدموع تنهمر من عينيه مثل نجمة متلألئة تحسدها نجوم السماء.

ويروي لنا التابعي عطاء بن رباح رحمة الله عليه، حيث يقول:

«دخلت مع ابن عمر ﷺ على عائشة ﷺ، فقال ابن عمر ﷺ لأم المؤمنين عائشة ﷺ: حدثينا بأعجب ما رأيت من رسول الله ﷺ. فقالت أم المؤمنين ﷺ: كل أمره عجيب، غير أنه أتاني في ليلتي، فدخل معي في فراشي حتى ألصق جلده بجلدي، فقال: **«أتأذنين لي أن أتعبد لربي»؟**

١١٩٦. البخاري، فضائل القرآن، ١٧، ٣٦/ ٥٤٢٧؛ مسلم، المسافرين، ٢٤٣.

١١٩٧. البخاري، فضائل القرآن، ٣٦/ ٦٩٣١ .

١١٩٨. محمد، ٢٤.

١١٩٩. آل عمران: ١٩١.

فقلت: والله إني لأحب قربك، ولأحب هواك، فقام إلى قربة فتوضأ منها، ثم قام فبكى وهو قائم حتى بلغت الدموع حِجره، ثم اتّكأ على شقه الأيمن، ووضع يده اليمنى تحت خده الأيمن، فبكى حتى رأيت الدموع بلغت الأرض، ثم أتاه بلال بعدما أذن الفجر، رآه يبكي. قال بلال: لم تبك يا رسول الله وقد غُفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟

قال رسول الله ﷺ:

«يا بلال، أفلا أكون عبداً شكوراً؟ وما لي لا أبكي وقد نزلت علي الليلة:

﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ. رَبَّنَا إِنَّكَ مَنْ تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾»[١٢٠٠]

وبهذا الاعتبار، فإن دموع المؤمنين التي تنهمر من خشية الله تعالى تُعتبر زينة لياليهم الفانية، ونجوماً متلألئة في ظلمات قبرهم، وقطرات الندى لبساتين الجنة.

أدعو الله سبحانه وتعالى أن لا يجعلنا ممن لا تتأثر وتخشع قلوبهم بأسرار القرآن وحِكَمه، ولا تمتلئ أعينهم بالدموع عند تلاوته!

❁

وخلاصة القول، ينبغي عدم الاكتفاء بالتلاوة اللفظية للقرآن الكريم فقط، وإنما يجب بذل أقصى جهد ممكن للتخلق بأخلاقه، وتطبيق أحكامه في الحياة، لأن هذه الأمور هي الفائدة الحقيقية لبركة القرآن، وإن تعاليم رسول الله ﷺ لأصحابه الكرام وبالتالي لنا نحن أمته كانت بهذا الاتجاه.

يقول أبو عبد الرحمن السُلمي:

«حدثنا من كان يقرئنا من أصحاب النبي ﷺ: إنهم كانوا يقترئون من رسول الله ﷺ عشر آيات فلا يأخذون في العشر الأخرى حتى يعلموا ما في هذه من العلم والعمل، قالوا فعلَمنا العلم والعمل»[١٢٠١]

١٢٠٠. آل عمران، ١٩١- ٢٩١. ابن حبان، ٢، ٣٨٦/ ٦٢٠.

١٢٠١. أحمد، مسند، ٥، ٤١٠/ ٢٣٤٨٢؛ الهيثمي، مجمع الزوائد، ١، ١٦٥.

ويقول مولانا بديع الزمان -رحمه الله-:

«القرآن الكريم هو أوصاف وأحوال الأنبياء، فاقرأ القرآن الكريم بخشوع، وطبق أحكامه وكأنك في حضرة الأنبياء والأولياء! وعندما تقرأ قصص الأنبياء يبدأ قفص الجسد بالتضييق على طيور الروح!».

«وإننا تخلصنا من هذا القفص الجسدي بهذه الوسيلة، ولا يوجد سبيلٌ للخلاص من ذلك القفص سوى طريق التوحيد!».

يا رب! لا تحرم قلوبنا من نور القرآن ومن محبة الحبيب المصطفى ﷺ!

آمين!

سيدنا سليمان عليه السلام

سيدنا سليمان عليه السلام

الذي حفظ قلبه من ثروة الدنيا الهائلة وسلطة التصرف فيها

وُلد سليمان عليه السلام في غزة، وكان عندما توفي والده داوود عليه السلام في الثانية أو الثالثة عشر عاماً من عمره، ومثل أبيه تولى الحكم في أمره، ثم بُعث نبياً في قومه، وقد بنى سليمان عليه السلام بيت المقدس «المسجد الأقصى» في سبع سنوات. تزوج من بلقيس ملكة سبأ، وتوفي عليه السلام في القدس.

❁

كان سليمان عليه السلام صاحب رأي سديد منذ نعومة أظافره، يتمتع بذكاء خارق. ويبين رسول الله ﷺ هذه الخاصية لدى سليمان عليه السلام من خلال الحديث الآتي:

«كانت امرأتان معهما ابناهما، جاء الذئب فذهب بابن إحداهما، فقالت صاحبتها: إنما ذهب بابنك، وقالت الأخرى: إنما ذهب بابنك، فتحاكمتا إلى داوود عليه السلام، فقضى به للكبرى، فخرجتا على سليمان بن داوود عليهما السلام فأخبرتاه، فقال: ائتوني بالسكين أشقه بينهما، فقالت الصغرى: لا تفعل يرحمك الله، هو ابنها،فقضى به للصغرى»[١٢٠٢]

لأن شفقة الأمومة لم تكن لترضى بموت ابنها.

وهناك رواية أخرى تتعلق بفراسة ونباهة سليمان عليه السلام:

ذات ليلة اقتحم قطيعٌ من الغنم حقل أحد الناس وعاث فيه فساداً ودماراً، فجاء صاحب الحقل إلى داوود عليه السلام يشكو إليه صاحب الغنم. وكانت قيمة مزروعات الحقل التي أُتلفت مساوية لقيمة قطيع الغنم، ولذلك فقد حكم داوود عليه السلام بإعطاء الأغنام إلى صاحب الحقل، وفي تلك الأثناء وعلى الرغم من صغر سن سليمان عليه السلام، فقد قال:

– يا أبتي إن للمسألة طريقة أخرى للحكم! لنعطِ الأغنام إلى صاحب الحقل كدينٍ في ذمته مدة من الزمن؛ وليستفد من حليبها وصوفها، وخلال هذه المدة يتم إصلاح الحقل

١٢٠٢. البخاري، الأنبياء، ٠٤/ ٣٤٢٧.

وزراعته من جديد، وتبقى الأغنام لدى صاحب الحقل حتى يعود حقله إلى حالته السابقة. وعندما تنصلح أموره وتعود إلى طبيعتها، يسلم القطيع إلى صاحبه!.

أُعجب داوود عليه السلام بهذا الاقتراح وحكم بموجبه، وقد ورد ذكر هذه الحادثة في القرآن الكريم، حيث يقول الله تعالى:

﴿وَدَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ﴾[١٢٠٣]

ويقول تعالى في الآية الأخرى:

﴿فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا...﴾[١٢٠٤]

وقد اختار داوود عليه السلام ولده سليمان لخلافته في الحكم من بين أبنائه التسعة عشر وذلك بسبب فراسته ونباهته الفائقة، وتعلق قلبه بالحق سبحانه وتعالى، إلا أن بني إسرائيل اعترضوا على هذا التعيين بالقول:

- إن سليمان يُعدّ صغير السن؛ وإن بيننا من هو أعلى وأكبر منه!

ولتفادي الاختلاف فقد أجرى داوود عليه السلام امتحاناً بحضور العلماء وذلك بموجب الأمر الإلهي الذي جاءه من السماء، وقال لولده سليمان سائلاً:

- ما الشيء الذي إذا صلُح صلُح كل شيء من الإنسان، وإذا فسد فسد كل شيءٍ من الإنسان؟

فقال سليمان عليه السلام: هو القلب.

فأعجب الحاضرون لهذا الجواب.

وبعد ذلك قال لهم داوود عليه السلام أحضروا عصيّكم فأي عصاة أثمرت فإن صاحبها ولي الأمر بعدي، فرضوا بذلك، وجاؤوا بعصيهم، فقال لهم داوود عليه السلام:

- ليكتب كل واحد منكم اسمه على عصاه فكتبوا، ثم جاء سليمان بعصاه وكتب عليها اسمه، ثم أُدخلت جميع العصي إلى بيت وأُغلق عليها الباب وسُد بالأقفال، ووضع تحت الحراسة، و في اليوم التالي فتح داوود الباب وأخرج العصي فكانت عصيهم جميعاً كما

١٢٠٣. الأنبياء: ٧٨.

١٢٠٤. الأنبياء: ٧٩.

هي، إلا عصى سليمان فقد أورقت واخضّرت، ولما رأى داوود عليه السلام هذا الأمر حمد الله تعالى وشكره، وأما بنو إسرائيل فقد قبلوا الأمر ورضوا بسليمان عليه السلام خليفة لملكهم داوود عليه السلام.

وبعد حلّ مسألة الخلافة بلطف الله تعالى وفضله، توجه سيدنا داوود عليه السلام إلى ولده سيدنا سليمان عليه السلام بالنصائح الآتية:

- يا بني! إياك والهول، فإن نفعه قليل وهو يهيج العداوة بين الإخوان، وإياك والغضب، فإن الغضب يستخف بصاحبه. وعليك بتقوى الله وطاعته، فإنهما يغلبان كل شيء، وإياك وكثرة الغيرة على أهلك من غير شيء فإن ذلك يورث سوء الظن بالناس وإن كانوا برآء، واقطع طمعك عن الناس فإن ذلك هو الغنى، وإياك والطمع فإنه الفقر الحاضر.

وإياك وما يُعتذر منه من القول والفعل، وعوّد نفسك ولسانك الصدق، والْزم الإحسان فإن استطعت أن يكون يومك خير من أمسك فافعل، وصل صلاة مودع، ولا تجالس السفهاء، ولا ترد على عالم، ولا تماره في الدين، وإذا غضبت فالصق نفسك بالأرض وتحول من مكانك، وارجُ رحمة الله فإنها وسعت كل شيءٍ.[١٢٠٥]

وأصبح سيدنا سليمان عليه السلام ملكاً بعد وفاة والده داوود عليه السلام، حيث يقول الله تعالى:

﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُودَ سُلَيْمَانَ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾[١٢٠٦]

وأوتي نعماً وملكاً عظيماً، إذ يقول الله تعالى:

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ﴾[١٢٠٧]

وقد كان سيدنا سليمان عليه السلام يفهم تسبيح الطيور، ويعلم منطقها ولسانها، وفي ذلك يقول الله سبحانه وتعالى:

﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ﴾[١٢٠٨]

١٢٠٥. الثعلبي، عرائس المجالس، ص. ٣٢٣.

١٢٠٦. ص: ٣٠.

١٢٠٧. النمل: ١٥.

١٢٠٨. النمل: ١٦.

وقد وضع الإنس والجن تحت أمره، وسُخر له الريح والحيوانات يتصرف فيها كيف يشاء، وقد ورد ذلك في القرآن الكريم:

﴿وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ﴾ [١٢٠٩]

﴿وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ وَمِنَ الْجِنِّ مَنْ يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَمَنْ يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ. يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَاسِيَاتٍ اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾ [١٢١٠]

وقد فُسرت كلمة "التماثيل" التي مرت في الآية الكريمة بالتصاوير، والرسوم، والهياكل التي تصنع من النحاس، والطين، والزجاج للكائنات التي فيها روح، والتي لا روح فيها.

ويمكن أن يستنتج من أحد المعاني العامة لكلمة "التماثيل" بأن صناعة الهياكل والرسوم والصور لكل الكائنات الحية وغير الحية، كانت جائزة في شريعة سليمان عليه السلام، وقد اختلف المفسرون في هذه المسألة، ويمكن أن نجمع هذه الآراء في اتجاهين:

١- يرى قسم من المفسرين عدم جواز صناعة الهياكل، والرسوم للكائنات التي لها روح في شريعة سليمان عليه السلام، وذلك لأن سيدنا سليمان يتبع شريعة موسى عليه السلام، وقالوا إن صناعة الرسوم محظورة بشكل جلي حسب شريعة موسى عليه السلام، وحسب هذا الرأي، فإن كلمة "التماثيل" تشمل رسم الكائنات التي ليس لها روح فقط دون غيرها، ولذلك فإن هذا الحكم يتطابق مع التحريم الذي جاء به الإسلام لرسم الكائنات الحية، ومع ذلك، فلو أنه كان من الجائز صناعة الهياكل والصور للكائنات الحية في شريعة سليمان عليه السلام، فيمكن تفسير ذلك بأن الجواز كان نابع من عدم وجود الخشية أو القلق من تعبد تلك التماثيل في تلك الفترة.

١٢٠٩. الأنبياء: ٨١.

١٢١٠. سبأ: ١٢-١٣.

٢- أما البعض الآخر من المفسرين، فقد رأوا جواز صناعة الرسوم والهياكل والتصاوير لكل الكائنات التي لها روح، والتي لا روح لها في شريعة سليمان عليه السلام. وبناء على ذلك يطرح السؤال التالي نفسه:

- هل يمكن التوصل إلى حكم بجواز صناعة الهياكل، والرسوم، والتصاوير للكائنات التي لها روح والتي ليس لها روح في الإسلام أيضاً، وذلك حسب المعنى المستنبط من القرآن الكريم؟.

وقد أجاب الفقهاء والمفسرون المسلمون على هذا السؤال بالحكم الآتي:

«إن رسم الكائنات التي لا روح لها فقط جائز في الإسلام، وذلك مثل المناظر الطبيعية، والأشجار والنباتات وغيرها».

لأن النبي ﷺ قد حظر رسم الكائنات التي لها روح في أحاديث شريفة كثيرة، وإن الأحاديث المتعلقة بالرسوم توضح الأمر في هذا الشأن.

حيث إن ابن عباس رضي الله عنه يبين في روايته، أن النبي ﷺ يقول:

«من صور صورة في الدنيا كلف أن ينفخ فيها الروح يوم القيامة. وليس بنافخ» [١٢١١]

وفي رواية لابن عباس رضي الله عنه يبين أن النبي ﷺ يوم فتح لم يدخل البيت الحرام عندما رأى فيه التماثيل والأصنام، وأمر أصحابه بتحطيمها وإتلافها، وقد رأى من بين مجموعة تلك التماثيل رسوماً لسيدنا إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام وفي أيديهما سهام القمار «الأزلام»، فقال النبي ﷺ:

«قاتلهم الله، والله إن استقسما بالأزلام قط» [١٢١٢]

وفي النهاية، حتى لو سُلم بجواز صناعة الهياكل، والرسوم للكائنات التي لها روح في شريعة سيدنا سليمان عليه السلام، فإن هذا العمل قد تم تحريمه بشكل قطعي وواضح.

وحسبما رواه ابن مسعود رضي الله عنه أن النبي عليه الصلاة والسلام قال:

«إن أشد الناس عذاباً عند الله يوم القيامة المصورون» [١٢١٣]

١٢١١. البخاري، اللباس، ٩٧/ ٧٠٤٢؛ مسلم، اللباس، ١٠٠/ ٢١١٠.

١٢١٢. البخاري، الأنبياء، ٨/ ٣٣٥٢، الحج، ٥٤، المغازي، ٤٨ .

١٢١٣. البخاري، اللباس، ٩٨/ ٥٩٥٠؛ مسلم، اللباس، ٩٦.

لأن الاهتمام المفرط الذي يتم إبداؤه تجاه الرسوم والهياكل تقود الإنسان في النتيجة إلى عبادة الأوثان.

وتقول أم المؤمنين السيدة عائشة ﵂ فيما ترويه:

واعد رسول الله ﷺ جبريل عليه السلام في ساعة يأتيه فيها، فجاءت تلك الساعة ولم يأته، وفي يده عصا، فألقاها من يده، وقال:

«ما يخلف الله وعده ولا رسله»،

ثم التفت، فإذا جرو كلب تحت سريره، فقال:

«يا عائشة، متى دخل هذا الكلب هاهنا؟»

فقالت: والله، ما دريت، فأمر به فأخرج، فجاء جبريل، فقال رسول الله ﷺ:

«واعدتني فجلست لك فلم تأت»

فقال جبريل عليه السلام:

«منعني الكلب الذي كان في بيتك، إنا لا ندخل بيتا فيه كلب ولا صورة»[١٢١٤]

ولا ينبغي فهم كلمة "الصورة" التي وردت في هذا الحديث إلى جانب ذكر "الكلب" لا ينبغي فهمها على أنها تعبير عن الرسم بشكل دائم. وإنما تتضمن الكلمة أيضاً معنىً يدل على تصوير الكائنات التي لها روح على شكل هياكل أو نحت ونقش أشكاله على الحجارة أو الأخشاب، فالرسم يمثل ظلّ الأشياء، ولا يتضمن حجمها وامتداداتها، وعلى هذا، فحتى لو أن الصورة تشمل بمدلولها رسم كل نوع من الكائنات التي لها روح، فيمكن اعتبار أن سبب تحريمها يعود إلى احتمال اتخاذها أوثاناً تُعبد بمرور الزمن.

ومن جهة أخرى، فمن المعلوم في أيامنا هذه توسع ساحة استخدام الصور الفوتوغرافية والرسوم في الحياة اليومية، حتى أنها أصبحت في بعض الحالات من الاحتياجات الضرورية للإنسان، ولأن الإسلام دين يتسم بالملائمة لكل الظروف، فقد أذن باستخدام مثل هذه الأمور التي أصبحت بحكم الحاجات الضرورية في حياة الناس، وذلك ضمن الحدود الشرعية المعروفة.

❁

١٢١٤. مسلم، اللباس، ٨١- ٨٢/ ٢١٠٤؛ البخاري، بدء الخلق،٧، اللباس، ٤٩.

وعلينا التذكير هنا، بأنه ثمة إشارة في الحديث الآنف ذكره إلى حقيقة مهمة وهي أن وجود الكلب في بيت ما سبب لعدم دخول الملائكة إلى ذلك البيت، فلقد حرم ديننا الإسلامي الجليل تربية الكلاب داخل البيوت، لأن نفس الكلب ولعابه من الأشياء النجسة، حيث أثبتت الحقيقة العلمية التي لا تدع مجالاً للشك في عصرنا هذا أن لعاب الكلب، وفروها، وحتى نفسها مصدر لمختلف الأمراض المعدية، وعلاوة على هذا فإن هذه من الحقائق التي توصّل إليها وأثبتها العلم في هذا العصر بما يتعلق بهذا الأمر، فمن يعلم كم من الحكم المجهولة للإسلام التي لم يطلع عليها أحد والتي تقف وراء تحريم مثل هذه الأمور.

وكما بين الحديث الشريف فإن جبريل عليه السلام امتنع عن المجيء إلى النبي ﷺ بسبب دخول جرو كلب صغير صدفة إلى البيت، فإن كان الأمر كذلك، أفلا يجب التفكير بحالة البيوت التي تُربى فيها الكلاب بمحض إرادة أصحابها، ودونما سبب أو حاجة تدعو إلى ذلك؟! وذلك لأن سؤال النبي ﷺ لأم المؤمنين عائشة رضي الله عنها:

«**يا عائشة! متى دخل هذا الكلب ههنا؟**» وجوابها بقولها:

والله! ما دريت. الذي تضمن القسم بالله يظهر بأن اتخاذ الكلب داخل بيت المسلم لا يمكن أن يكون حتى مجالاً للبحث والنقاش، وإن هذه الحادثة لم تجر بدون سبب، وإنما جرت بناء على حكمة بليغة وهي بيان الحكم وإظهاره للمؤمنين.

أما القط، فإنه حيوان أليف منزلي، ولا يوجد حظرٌ على تواجده في البيوت، وإنما تربية الكلاب داخل البيوت غير جائزة، ولكن رخص بتربية الكلاب ـ بشرط خارج البيوت ـ من أجل الصيد، أو حماية البساتين والمواشي أي كلاب الرعي، وذلك لما فيه من تلبية لحاجة ضرورية للإنسان.

وفي الحقيقة، فإن الله عز وجل قد جعل الكلب طوع أمر الإنسان، وميّزه عن كثير من الحيوانات بصفات خاصة به، فزوّده بصفة الوفاء النادر والصداقة تجاه صاحبه، وعلاوة على ذلك، فقد جهّزه بمواهب استثنائية لا يمكن لأدقّ الآلات الفنية التمتع بها، حيث أن الكلاب في أيامنا هذه تقوم بخدمات في غاية الأهمية للإنسان، إذ أنها تستخدم في إجراءات الكشف عن المخدرات، وعمليات البحث عن الناس وتثبيت أماكنهم تحت الأنقاض في حالات الكوارث، وتُستخدم في حراسة المنازل والبساتين، إضافة إلى تكليفها بمهمات الحراسة على صحة الإنسان.

واليوم وبشكل خاص في المجتمع الغربي حيث تمزقت العائلات وبدأ الإنسان يعيش حياة فردية منعزلة، لجأ الناس وخاصة الذين يعيشون وحيدين، لجأوا إلى تربية الكلاب في بيوتهم بشكل كبير وذلك لمواجهة خطر اللصوص، والمتشردين، الإضافة إلى ذلك فقد أُجبر الناس في كثير من الدول الغربية على القيام بالتأمين والضمانات الصحية والحياتية للكلاب التي يتخذوها في بيوتهم. ولا يرى الكثير من الناس هناك بأساً في دفع رسوم التأمين والضمان على الكلاب إضافة إلى مصاريف تربيتها، ويُبدون كرماً سخياً في هذا المجال، في حين أنهم جميعهم أو أغلبهم لا يتسمون بهذا الكرم والسخاء تجاه فقراء المجتمع، وإن أكثر المصاريف وتكاليف المعيشة التي تُبذل هناك هي في سبيل رعاية الكلاب التي يربونها في بيوتهم، وبمرور الزمن تفسد الفطرة السليمة لتلك الكلاب وأصحابها، لأن مشاعر الولع المفرط بالكلب تقود الشخص عملياً مع مرور الزمن إلى النظر للكلب على أنه فرد من العائلة، وبهذا الإفراط، يصل الشخص إلى مرحلة ينظر فيها إلى أولاده على أنهم أفراد من الدرجة الثانية في العائلة، وانتقال الكلب إلى الدرجة الأولى، وإن النتيجة الكارثية والمرعبة لهذا الوضع هو تفشي الأنانية في نفوس الناس، وبدل المحبة للأولاد يتم توجيهها نحو الكلب وبهذه الصورة يبدأ الميل نحو الاهتمام بالأولاد والإنجاب بالضمور والاضمحلال في المجتمع. ولهذا فإن عدد السكان يتجه إلى التناقص بدل الازدياد.

ومع هذا كله، فإن تربية الكلاب في البيوت لا تعتبر شكلاً من الحماية بالنسبة لها، وإنما على العكس من ذلك فإن في هذه الطريقة إجبار لهذه المخلوقات على العيش في ظل ظروف وشروط مناقضة لطبيعة خلقتها.

وبالموازنة مع الإسلام الذي يتصدر العصور بتقدمه، والذي أجاز ضمن حالات الضرورة تربية الكلاب خارج البيوت، فإن المجتمعات الأخرى وخاصة الغربية منها بأطوارها وسلوكياتها المنحرفة تتجه إلى تدمير مرعب للعدالة والعائلة، ولكن مع الأسف فإننا بتنا نشاهد في الفترات الأخيرة عادة تربية الكلاب في المنازل بدأت تتفشى في مجتمعاتنا، وإن هذه ظاهرة من مظاهر التقليد الأعمى وفي المجالات السلبية فقط.

وإن المنع الذي فرضه الإسلام على تربية الكلاب في البيت، لا ينبغي استخدامه بشكل سلبيي تجاه تلك الكلاب. أي لا ينبغي اللجوء إلى إساءة معاملة الكلاب أو عدم تربيتها،

وإنما على العكس من ذلك، فلأن رحمة الإسلام تشمل جميع المخلوقات، فقد أمر بحماية كل المخلوقات ومنها الكلاب ومعاملتها بعين الرحمة والشفقة.

حيث أنه ورد في حديث شريف أن امرأة دخلت الجنة لأنها أنقذت كلباً كان على مشارف الموت بسبب العطش بسقايتها له.

وإن في تاريخنا شواهد عظيمة على مشاعر الرحمة تجاه المخلوقات، وحتى على الصعيد المؤسساتي، فقد أنشئت أوقاف مختلفة لأجلها، وقد مدت هذه الأوقاف أيادي الرحمة والشفقة إلى الحيوانات المحتاجة للحماية، وإن مثل هذه الأمور معلومة ومشهورة لدرجة كبيرة.

ولذلك فإن الأمر المهم، بشأن تربية الكلاب هو مراعاة الحدود الشرعية التي وضعها الإسلام.

محبة سيدنا سليمان عليه السلام للخيل

يقول الله تعالى في الآية الكريمة:

﴿إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ. فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ. رُدُّوهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ﴾ [١٢١٥]

وحسب بعض المفسرين، فإن سيدنا سليمان عليه السلام قال:

- إني أحببت الخيل لذكر ربي.

أي أنه لم يعقّ صلاته أو ورده. وفي النهاية أخفيت تلك الخيول خلف الستار، تسللت إلى الحظائر، أو اختفت عن الأنظار في مضمار السباق، وفي هذا الأثناء كان قائماً يصلي ولما أنهى صلاته، قال: - ردوها عليّ.

وبدأ يربت على أعناقها، وأفخاذها ويداعبها، وأبدى العناية بقطعانها.

وحسب رأي فخر الدين الرازي، فإن تربية الخيل والاهتمام بتكاثرها من أجل الحرب كانت مستحبة في شريعة سليمان عليه السلام، كما هو الحال في الإسلام. وذات يوم فتش سيدنا سليمان عليه السلام خيوله، وعندما رآها تقف بمجموعها على ثلاثة قوائم وتلمس الأرض بأظفر قدمها الرابعة وهي تنتظم في سلسلة، قال:

١٢١٥. ص: ٣١-٣٣.

- لقد أحببت أموال الدنيا من أجل ذكر اسم ربي، أي من أجل الفوز برضا ربي ونشر اسمه بين العباد؛ ولم أردها من أجل نفسي.!.

ومن ثم أمر سائس الخيل بإخراجها للجري، وبقي متسمّراً في مكانه يشاهد الخيول وهي تجري حتى غابت عن الأنظار، وبعدها قال لمربي الخيل آمراً: «ردوا إليّ الخيل» وبدأ يداعب الخيل ويقبلها، وهكذا فإنه كان يشاهد أحد التجليات الحسنة لقدرة ربه وبديع صنعه.

وقد كانت الخيل على مرّ التاريخ بشارة لبطولات وانتصارات الفرسان البواسل، وأصالتهم وفتوحاتهم.

وإن الخيل من المخلوقات الاستثنائية التي أقسم الله ﷻ بها في القرآن الكريم، حيث يقول الله تعالى:

﴿وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا. فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا. فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا. فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعًا. فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا﴾ [١٢١٦]

وقال النبي ﷺ بحق الخيل:

«الخيل معقود في نواصيها الخير إلى يوم القيامة، الأجر والمغنم» [١٢١٧]

وقال أيضاً ﷺ:

«من احتبس فرسا في سبيل الله إيمانا بالله وتصديقا بوعده، فإن شبعه وريه وروثه وبوله في ميزانه يوم القيامة» [١٢١٨]

ومن الناحية الروحية فإن الخيل من أقرب المخلوقات الإنسان، وإن الفارس الذي يتأهب لخوض المعارك يختار الفرس الأقرب إلى أحاسيسه ومشاعره، لأن الخيل تشعر في مواجهة الأعداء بنفس مستوى الحماس الذي يعيشه الفارس الممتطي لسرجها، وفي الوقت نفسه فإن الخيل واحدة من تجليات القدرة الإلهية، وجسمها يتمتع بتناسقٍ لا يُضاهى، وروعةٍ في جمال المظهر.

١٢١٦. العاديات: ١-٥.

١٢١٧. البخاري، الجهاد، ، ٣٤/ ٢٨٥٢؛ مسلم، الإمارة، ٩٨/ ١٨٧٣.

١٢١٨. البخاري، الجهاد، ٤٥/ ٢٨٥٣؛ النسائي، الخيل، ١١.

امتحان سيدنا سليمان عليه السلام:

ذات يوم أخضع الله سبحانه وتعالى سليمانَ عليه السلام لامتحان إلهي، فسلبه كل قدراته وإمكاناته دفعة واحدة، حيث يقول الله تعالى:

﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ﴾ [١٢١٩]

وهناك روايات متعددة بشأن «الفتنة» أي الامتحان المذكور في الآية السابقة:

- أن سليمان عليه السلام فقدَ نفوذه وسلطته بسبب التمرد الذي قامت به مجموعة من الشياطين خلال بناء المسجد الأقصى والذين كانوا من ضمن الحرفيين العارفين بفنون وحيل المهنة من الذين استقدمهم سليمان عليه السلام، وإما أنه ابتعد عن عرشه وأصبح في حالة من الضعف الجسدي أفقدته القدرة على الحكم، أو أن عرشه تعرّض للاحتلال وأجلس مكانه واحدٌ مثل هيكلٍ لمدة أربعين يوماً. وفي رواية أخرى عن رسول الله ﷺ أنه قال:

«قال سليمان بن داوود نبي الله: لأطوفن الليلة على سبعين امرأة، كلهن تأتي بغلام يقاتل في سبيل الله، فقال له صاحبه - أو الملك -: قل: إن شاء الله، فلم يقل ونسي، فلم تأت واحدة من نسائه إلا واحدة جاءت بشق غلام» [١٢٢٠]

وعندما سئل نبينا محمد ﷺ عن الروح، وأهل الكهف، وذو القرنين أجاب السائلين:

«عودوا غداً لأخبركم»

إلا أنه نسي قول "إن شاء الله" ولهذا السبب انقطع الوحي عن النبي ﷺ مدة من الزمن.

ويقول الله تعالى:

﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا. إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللهُ وَاذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَى أَنْ يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَدًا﴾ [١٢٢١]

- وبحسب رأي آخر، فإن سيدنا سليمان عليه السلام امتُحن بإصابته بمرض شديد، وبقي على عرشه مثل جسد لا روح فيه.

١٢١٩. ص: ٣٤.

١٢٢٠. البخاري، الأنبياء، ٤٠، الأيمان، ٣؛ مسلم، الأيمان، ٢٣/ ١٦٥٤.

١٢٢١. الكهف: ٢٣- ٢٤.

- وحسب رواية أخرى، أن الله سبحانه وتعالى أدخل إلى قلبه رعباً وخوفاً شديداً، وأصبح في حالة الجسد الذي لا روح فيه نتيجة هواجسه وقلقه من حلول المصائب والبلاء.

وبعد هذا الابتلاء والامتحان تلطف الله تعالى به وكرمه بعودته إلى حالته السابقة، واستغفر سليمان عليه السلام ربه، حيث يقول الله تعالى:

﴿قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾ [١٢٢٢]

وإنَّ طلب سيدنا سليمان عليه السلام إيتاءه ملكاً وقوة لا ينبغي لأحد غيره لم يكن من أجل التفاخر والتباهي بنفسه، وإنما كان ذلك من أجل إذلال الملوك والسلاطين الظالمين والطغاة الذين كانوا في عصره، لأن الملوك الذين في عهده كانوا يظلمون الناس ويسومونهم أشد أنواع العذاب بكل غرور واستكبار، وتجبر.

وقد أورد فخر الدين الرازي دعاء سيدنا سليمان عليه السلام بهذا المعنى:

«يا رب! هب لي ملكاً عظيماً لكي يقال بعد نيلي له ووفاتي «لو أن لملك الدنيا إخلاص لأحداً، لأخلص لسليمان»، ولا يبقى بعد ذلك لأحد الطمع والرغبة في أبهة الدنيا !».

وحسبما يُفهم من هذا الكلام، فإن القصد الأساسي لسيدنا سليمان عليه السلام لم يكن طلب ملك الدنيا، وإنما إرادة ملك الآخرة.

وقد جاء في الآية الكريمة:

﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ﴾ [١٢٢٣]

وفي آية أخرى يشير الله عز وجل إلى قبوله لدعاء سليمان عليه السلام:

﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ. وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ. وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ﴾ [١٢٢٤]

١٢٢٢. ص: ٣٥.
١٢٢٣. الشورى: ٢٠.
١٢٢٤. ص: ٣٦-٣٨.

وحسبما يُفهم من هذه الآيات الكريمة، فإن الله سبحانه وتعالى قد سخر الشياطين «الجن» لسيدنا سليمان عليه السلام وجعلها طوع أمره من أجل استخدامها في البناء والغوص في البحار، وقد كان قسمٌ من هذه الشياطين يقوم بإشادة الأبنية الضخمة، والمساجد، والقصور، والرسوم، وتصنع قدوراً كبيرة كالأحواض، ومراجل ثابتة عظيمة، مما يعجز البشر عن القيام بمثلها، ويقوم قسمٌ آخر من هذه الشياطين باستخراج مختلف النعم من البحار، وكذلك الجواهر والكثير من الأشياء الجميلة والرائعة التي لا يمكن الحصول عليها إلا من البحار.

وأما قوله تعالى في الآية الكريمة:

﴿وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ﴾

فقد تم تفسيره على رأيين:

- **الرأي الأول**: فقد رأى بعض المفسرين أن المقصود بالآية هم الأسرى والعبيد الذين كانوا بين يدي سليمان عليه السلام، وحسب هذا التفسير، فإن سليمان عليه السلام قد قيد هؤلاء الأسرى والعبيد من أجل القيام بأعمال السخرة، ومنعهم من الهرب.
- **الرأي الثاني**: وأما البعض الآخر من المفسرين فقد قالوا: بأن الآية الكريمة تعني أن بعض الشياطين عصت سليمان عليه السلام وخرجت عن أوامره وبسبب ذلك تم تقييدها بالسلاسل عقاباً لها على عصيانها ولتقوم بالأعمال التي كُلفت، وقد قبل أكثر المفسرين هذا الرأي وأخذوا به.

وقد تبنى ابن كثير رحمه الله هذا الرأي الثاني، وقال:

أنه تم تقييد قسم من الشياطين بالسلاسل من الذين أعلنوا العصيان والعناد، وامتنعوا عن القيام بالأعمال التي كُلفوا بها، فقاوموا الأوامر أو أدوا أعمالهم بشكل سيء.

إن الله عز وجل الذي أعطى سليمان عليه السلام مثل هذه القدرة والعظمة، قد منحه أيضاً صلاحية واسعة من التصرف في الكون، وفي ذلك يقول الله تعالى:

﴿هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ. وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَآبٍ﴾ [١٢٢٥]

١٢٢٥. ص: ٣٩-٤٠.

وحسب الرواية التي نقلها لنا أبو هريرة ﷺ، يقول النبي ﷺ:

«إن عفريتا من الجن تفلت البارحة ليقطع علي صلاتي، فأمكنني الله منه فأخذته، فأردت أن أربطه على سارية من سواري المسجد حتى تنظروا إليه كلكم، فذكرت دعوة أخي سليمان -رب هب لي ملكا لا ينبغي لأحد من بعدي-[١٢٢٦] فرددته خاسئا» [١٢٢٧]

وعلى الرغم من الغنى والسلطة والأبّهة التي تفضل الله تعالى بها على سليمان عليه السلام، فإنه عاش حياة عبودية مطلقة لربه سبحانه وتعالى ملؤها الخشوع، والتواضع، والوجد، وأبقى قلبه طاهراً متحرراً من الدنيا ومستغنياً عن مفاتنها.

وقد ورد في بيان فضل سليمان عليه السلام وخشوعه:

«أرأيتم سليمان وما أوتي في ملكه فإنه لم يرفع رأسه إلى السماء حتى قبضه الله تخشعا لله» [١٢٢٨]

بناء بيت المقدس:

لقد بدأ داوود عليه السلام بناء البيت المقدس بأمر الله ﷻ إلا أن البقية الباقية من العمر لم تكفه لإتمام بنائه، ومن أجل ذلك جمع سليمان عليه السلام الجن، وتابع بهم إتمام بناء البيت المقدس، وأنشأ حوله مدينة تتألف من اثنا عشر حياً، وكان ذلك في العام «٩٦٧- ٩٥٣ قبل الميلاد»

وقد عُرف هذا المعبد في البداية باسم «البيت المقدس» ثم أصبح اسمه "المسجد الأقصى". ومن ناحية الفضل والأهمية فإنه يُعتبر من أحد أفضل ثلاثة مساجد، وأول هذه المساجد الثلاثة هو المسجد الحرام "الكعبة الشريفة"، وثانيها هو المسجد النبوي الشريف، وأما ثالثها فهو المسجد الأقصى.

وقد كان في هذا المسجد التابوت الذي يحتوي بداخله على الأمانات المقدسة وألواح التوراة.

وقد تعرّض البيت المقدس بعد وفاة سيدنا سليمان عليه السلام إلى التخريب عدة مرات في عصور مختلفة، حيث أنه في العام / ٥٨٦ ق. م/ ، اقتحم بختنصر «نبوخذ نصر» القدس

١٢٢٦. انظر:ص، ٣٥.

١٢٢٧. البخاري، الصلاة، ٧٥، الأنبياء، ٤٠/ ٣٤٢٣؛ مسلم، المساجد، ٣٩/ ٥٤١.

١٢٢٨. ابن أبي شيبة، المصنف، ٨، ١١٨/ ٣٤٢٧٠.

وأحرق المدينة، وأخذ معه المجوهرات الموجودة في المسجد الأقصى إلى بابل، وقد بقي البيت المقدس في حالة حرب لسنوات طويلة، وعندما هَزمَ الفرسُ البابليين وأذنوا لليهود بالعودة إلى عهودهم وأرضهم القديمة وبناء المعبد من جديد، تمت إشادة المعبد للمرة الثانية في عام / ٥١٥ ق. م/ . إلا أن الرومانيين أحرقوا المعبد ودمروه في العام / ٧٠م / ، وبقي مكان المعبد فارغاً لمدة طويلة من الزمن، ولكن مع كل ذلك فإن هذا المكان المبارك ظلّ يُعرف كمعبد مقدس وتُنفض عنه الغبار من جديد، ويروى أن سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه أقام مسجداً في هذا المكان وذلك العام / ٦٣٧ ميلادي / ، وفي عام / ٦٩١ ميلادي/ أقام الخليفة الأموي عبد الملك بجانب المكان الذي وضع عليه النبي ﷺ قدمه في المعراج "قبة الصخرة" أقام بجانبها «المسجد الأقصى»، واكتملت عمليات البناء في عهد ولده وليد الأول، وقد جرت عدة إصلاحات وتعديلات على المسجد الأقصى إلى يومنا هذا.

❁

للمسجد الأقصى مكانة سامية، وفضيلة عُليا في ديننا الحنيف، لأنه أولى القبلتين للإسلام، حيث بقي المسلمون يتجهون إلى المسجد الأقصى ويصلون إليه حتى الشهر السادس عشر للهجرة، ومن جهة أخرى فقد كان المسجد الأقصى نقطة نهاية حادثة الإسراء، ونقطة بداية معراج الرسول الكريم عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم.

يقول النبي ﷺ في الحديث الشريف:

«لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد: المسجد الحرام، ومسجد الرسول ﷺ، ومسجد الأقصى» [١٢٢٩]

وفي حديث شريف آخر يقول عليه الصلاة والسلام:

«لما فرغ سليمان بن داود من بناء بيت المقدس، سأل الله ثلاثا: حكما يصادف حكمه، وملكا لا ينبغي لأحد من بعده، وألا يأتي هذا المسجد أحد لا يريد إلا الصلاة فيه، إلا خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه " فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «أما اثنتان فقد أعطيهما، وأرجو أن يكون قد أعطي الثالثة» [١٢٣٠]

١٢٢٩. البخاري، فضائل الصلاة، ٦/ ١١٨٩ ؛ مسلم، الحج، ٢٨٨/ ٨٢٧.

١٢٣٠. ابن ماجه، إقامة الصلاة، ١٩٦/ ١٤٠٨؛ النسائي، المساجد، ٦.

سيدنا سليمان عليه السلام والنمل:

يقول الله تعالى:

﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ. حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [١٢٣١]

قالت النملة لصاحباتها:

- إن سلطة سليمان عظيمة، وسوف تُداسون وتُسحقون تحت أقدامهم! فأسرعوا في الدخول إلى مأواكم.

وعندما بلغت هذه الكلمات مسامع سليمان عليه السلام قال:

- لا، إن سلطتي وعظمة ملكي فانية! وحياتي الدنيوية محدودة. وإن السعادة التي تأتي بها كلمة التوحيد لا حدود لها!.

يقول الله عز وجل:

﴿فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِنْ قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ﴾ [١٢٣٢]

وكما يتبين من الآية الكريمة، فإن سليمان عليه السلام على الرغم من عظمة ملكه وواسع سلطته لجأ بخشوع وتواضع كبيرين وضمن مشاعر من العبودية المتذللة إلى رحمة الحق سبحانه وتعالى طالباً العفو والرحمة له ولوالديه.

ويخبرنا النبي ﷺ النصيحة التي قدمتها أم سليمان لولده، فيقول:

«قالت أم سليمان بن داود لسليمان: يا بني لا تكثر النوم بالليل فإن كثرة النوم بالليل تترك الرجل فقيرا يوم القيامة» [١٢٣٣]

١٢٣١. النمل: ١٧-١٨.

١٢٣٢. النمل: ١٩.

١٢٣٣. ابن ماجه، إقامة الصلاة، ١٧٤/ ١٣٣٢.

وعلى ذلك، فمن أجل تجنب الوقوع في فقر يوم القيامة، يتطلب الأمر منا بذل غاية الجهد والطاقة في سبيل التحلي بالعبودية والخضوع التام للحق سبحانه وتعالى، وعدم الانخداع ببريق الدنيا وسلطتها وراحتها.

سيدنا سليمان عليه السلام، وطائر الهدهد وبلقيس:

مع انتهاء أعمال بناء المسجد الأقصى واكتماله جمع سيدنا سليمان عليه السلام جيشه المؤلف من الريح، والجن، والإنس، والطير، والحيوانات الوحشية الأخرى ليتجه معهم في رحلة إلى مكة المكرمة، وقد بشر سليمان عليه السلام بأن مكة المكرمة سوف تتشرف ببعثة نبينا محمد عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم، ومن مكة اتجه سليمان عليه السلام في رحلته إلى صنعاء، وخلال مسير الجيش أراد الصلاة في واد جميل صادف طريقهم. وفي هذه الأثناء فارق الهدهد الجيش بقصد البحث والتجوال في تلك الأنحاء التي يمر بها لأول مرة، وانضمّ إلى أعدادٍ من طيور الهدهد التي صادفها في تجواله، وخلال تجواله رأى مناظر ومشاهد في الأماكن التي وصل إليها أصابته بالحيرة والدهشة الشديدة، وأخذته طيور الهدهد الأخرى في نزهة بين بساتين وحدائق قصر بلقيس.

وخلال ذلك، التفت سيدنا سليمان عليه السلام حوله باحثاً عن الهدهد من أجل إيجاد ماء للوضوء، لأن وظيفة الهدهد كانت إعلام سليمان عليه السلام عن أماكن المياه من أجل الوضوء.[١٢٣٤]

بحث سيدنا سليمان عليه السلام عن الهدهد طويلاً لكنه لم يعثر عليه، ويخبرنا الله تعالى عن ذلك في الآية الكريمة:

﴿وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ﴾[١٢٣٥]

في البداية بحث سليمان عليه السلام عن الهدهد بعين الشفقة والخوف عليه قائلاً:

١٢٣٤. حسبما يقوله ابن عباس رضي الله عنه، أن الهدهد يعلم بأماكن المياه، وبالتالي يجد لسليمان عليه السلام الماء، وحتى أنه يعرف مدى قرب المياه أو بعدها. فحيثما تصادف أماكن المياه تبدأ بالنداء، فتأتي الجن لتحفر المكان وتستخرج الماء. وقد قيل لابن عباس: إذا كان الهدهد يتمتع بهذه الخصلة، فكيف عندما ينصب طفل صغير فخاً، ويغطيه بقليل من التراب، فيأتي الهدهد ودون أن يرى الفخ الذي تحت التراب، ويدوس على المكان فيعلق في الفخ. بينما يُفترض أنه يرى الماء تحت الأرض. فأجاب ابن عباس: إذا جاء القدر عمي البصر، وذهب العقل من الرأس.

١٢٣٥. النمل، ٢٠.

«مَا لِيَ لَا أَرَى الْهُدْهُدَ»، وعندما علم أنه فارق الجيش بدون إذنه، هذه المرة قال حسب ما تقتضيه قواعد الانضباط التي تحكم وتنظم الجيش:

﴿لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ﴾ [١٢٣٦]

ولم يمض وقت طويل حتى عاد الهدهد، حيث يقول الله تعالى:

﴿فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ﴾ [١٢٣٧]

سبأ: اسم لقبيلة في اليمن يقترن ذكره باسم الأسلاف والأجداد، ومدينة سبأ؛ هي عاصمة المملكة التي حكمتها الملكة بلقيس. ويقول الله تعالى بشأن سبأ:

﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ﴾ [١٢٣٨]

وتابع الهدهد كلامه يروي لسليمان عليه السلام ما شاهده من الأمور:

﴿إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ. وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ. أَلَّا يَسْجُدُوا لِلهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَما تُعْلِنُونَ. اللهُ لَا إِلهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ [١٢٣٩]

فكان جواب سليمان عليه السلام الذي ينقله لنا الله تعالى:

﴿قَالَ سَنَنْظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ [١٢٤٠]

لقد كان لسليمان عليه السلام ختمٌ يحمل شكل حجر خاتم اليد، وعندما يضع هذا الختم في أصبعه تخضع له المخلوقات جميعاً بالطاعة، وحسب الروايات الواردة في هذا المجال فإن الخاتم كان مكتوب عليه عبارة «لا إله إلا الله محمد رسول الله»

١٢٣٦. النمل: ٢١.

١٢٣٧. النمل: ٢٢.

١٢٣٨. سبأ: ١٥.

١٢٣٩. النمل: ٢٣-٢٦.

١٢٤٠. النمل: ٢٧.

كتب سليمان عليه السلام كتاباً بدأه بـ "بسم الله الرحمن الرحيم"، وطبع عليه ختمه ثم سلمه إلى الهدهد، وأردف منبهاً له:

﴿اذْهَبْ بِكِتَابِي هَذَا فَأَلْقِهِ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانْظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ﴾ [١٢٤١]

أخذ الهدهد الكتاب من سليمان وذهب به إلى مملكة سبأ، فألقاه على عرش بلقيس. ومن ثم انسحب إلى ناحية في القصر وبدأ يراقب الأحداث التي ستجري فيه.

وفي الصباح عندما استيقظت بلقيس من نومها، وجدت الكتاب الملقى على عرشها، فذهلت من الأمر وأصابها فضول شديد لمعرفة محضر هذا الكتاب، لأن الأبواب كانت مغلقة بإحكام، فسألت حراس القصر: من جلب هذا الكتاب إلى قصري؟

أجاب الحراس: كنا نحرس أمام الباب، ولم يدخل أحد إلى الداخل!

وفي حالة من الحيرة والدهشة لهذا الأمر فضّت بلقيس الكتاب، قرأت الكتاب وازدادت حيرتها أكثر من ذي قبل، فاستدعت وجهاء القوم ووزراءها إلى اجتماع عاجل، وقالت لهم:

﴿قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ. إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ [١٢٤٢]

قال بعض المفسرين إن هذا الاحترام الذي أظهرته بلقيس تجاه الكتاب ومضمونه يشير إلى النتيجة التي انتهت بتشرفها بنور الهداية. ومثله ما قاله سحرة فرعون لسيدنا موسى عليه السلام:

- يا موسى! إما أن تلقي أنت أولاً، أو نكون نحن الملقون؟ مظهرين احتراماً ورقّة في كلامهم وسلوكهم وكانت النهاية أن تشرفوا بنور الإيمان.

وعلى العكس من هذا، فإن كسرى فارس عندما تلقى كتاب النبي محمد ﷺ الذي يدعوه إلى الهداية والإيمان قام بتمزيقه وألقاه مظهراً الاستحقار والسخرية به، فكانت النتيجة أن انهارت امبراطوريته وزال ملكه، وانتهت حياته على الكفر ليلقى عاقبته بالخسران المبين.

١٢٤١. النمل: ٢٨.

١٢٤٢. النمل: ٢٩-٣٠.

كان أحد أولياء الله تعالى وهو «بشر الحافي» قد رأى ذات يوم ورقة ملقاة على الأرض مكتوب عليها اسم «الله» تعالى فأخذها ونظفها ثم عطرها بريح طيبة وعلقها في مكان جميل من بيته، وبسبب هذا الاحترام المليء بالإجلال والتعظيم جازاه الله تعالى بمكافأة عظيمة، وألحقه بقافلة أوليائه الصالحين.

تابعت بلقيس قراءة الكتاب:

﴿أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾ [١٢٤٣]

لقد بين سليمان عليه السلام لبلقيس في كتابه الذي بدأه بالبسملة ضرورة التوجه بالعبادة إلى الله تعالى وحده، وبعد بيان الاعتقاد الصحيح، دعاهم إلى ضرورة الوقوف مع أنفسهم ومحاسبتها مع الالتزام بعدم التكبر على سليمان، وبالتالي المجيء إليه مسلمين، وبهذا فقد أوضح لهم أن السعادة الحقيقية تكمن في الإسلام.

وبعد ذلك قالت الملكة بلقيس لمجلسها:

﴿يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّى تَشْهَدُونِ﴾ [١٢٤٤]

فأجابها الوزراء، وقالوا:

﴿نَحْنُ أُولُو قُوَّةٍ وَأُولُو بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانْظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ﴾ [١٢٤٥]

قالت الملكة:

﴿إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ. وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ﴾ [١٢٤٦]

إن بلقيس التي تلقت كتاب سليمان عليه السلام المرسل عن طريق الهدهد والذي تضمّن ﴿أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾، عرضت حالتها وأمرها على وجهاء القوم ووزرائها، أي أنها تقابلت مع مجلس شورتها، ونتيجة ذلك اتخذت قرارها بإرسال سفير محمّلاً

١٢٤٣. النمل: ٣١.
١٢٤٤. النمل: ٣٢.
١٢٤٥. النمل: ٣٣.
١٢٤٦. النمل: ٣٤-٣٥.

بالهدايا القيّمة لتقديمها إلى سيدنا سليمان عليه السلام، وذلك من أجل أن تبقى محميةً من خطر سليمان وتهديده.

وأما سليمان عليه السلام فقد أدرك الأهداف والآمال التي يعقدونها على الهدايا المرسلة إليه، ورأى أن الهدايا ما هي إلا عبارةً عن رشوة لإسكاته، فردها إليهم بشكل يصل إلى درجة التهديد؛ وعندما وصل سفير الملكة مع الهدايا إلى سليمان عليه السلام، قال لهم:

﴿أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَا آتَانِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِمَّا آتَاكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ﴾ [١٢٤٧]

﴿ارْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ لَا قِبَلَ لَهُمْ بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُمْ مِنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ [١٢٤٨]

ولما وصل الرسل إلى الملكة وأخبروها بكلام سليمان عليه السلام، قالت:

- لا بد أنه علم بنيتنا ومقصدنا! أقسم إنه ليس بملك فقط، ولا يمكن أن نقف مكتوفي الأيدي تجاه هذا الأمر! وأرسلت من جديد رسولاً إلى سليمان عليه السلام، ليخبره:

«إنني ووجهاء القوم آتون إليكم، وأود أن أطلع على مقالك ودعوتك!.

أودعت بلقيس عرشها الشهير في أكثر غرف القصر أماناً وحراسة وحماية، وأغلقت عليه الأبواب بالأقفال، ومن ثم توجهت إلى سليمان عليه السلام على رأس وفد كبير.

وفي هذه الأثناء، طلب سليمان عليه السلام من مجلسه الذي يضمن الإنس والجان، طلب منهم إحضار عرش بلقيس الذي في سبأ إليه، وإن القصد من وراء طلب سليمان عليه السلام حسب رأي المفسرين هو:

- إظهار المعجزة الدالة على قدرة الله تعالى ونبوة سليمان أمام بلقيس، وإضافة دليل جديد إلى الأدلة السابقة التي تثبت هذا الأمر.
- إن جلب العرش وتغييره، ومن ثم النظر فيما إذا كانت ستتعرف عليه أم لا، فيه اختبار لعقل ومدارك بلقيس.
- العرش يُعتبر دليلاً أو مؤشراً على الملك، وبالتالي فإن جلب العرش قبل مجيء بلقيس فيه اطلاع على مدى عظمة أو قوة ذلك الملك.

١٢٤٧. النمل: ٣٦.

١٢٤٨. النمل: ٣٧.

فقال سليمان عليه السلام لمستشاريه:

﴿يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ. قَالَ عِفْرِيتٌ مِنَ الْجِنِّ[١٢٤٩] أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ﴾[١٢٥٠]

إن سليمان عليه السلام كان في الصباح يجلس على عرشه، وينهمك بتصريف الأعمال وإدارة الشؤون الدنيوية حتى وقت الظهيرة فينصرف عن عرشه، وحسب هذا الواقع فإن عرض عفريت الجن لسيدنا سليمان عليه كان إمكانية إحضار عرش بلقيس بين يدي سليمان خلال الفترة الممتدة من الصباح حتى الظهيرة، أي بمقدار المدة التي يجلس فيها سليمان على عرشه خلال اليوم.

وبعد عرض عفريت الجن جاء عرض آخر:

﴿قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ﴾[١٢٥١]

وحسب أقوى آراء المفسرين فإن صاحب العلم الذي أحضر العرش خلال طرفة عين، هو وزير سليمان عليه السلام آصف بن برخيا.

الكرامات:

إن الكرامات التي تظهر على أيدي الأولياء، أي الحوادث الخارقة للظواهر الطبيعية «الفيزيائية» تنقسم إلى قسمين:

١- المعلومات أو الإخبارات العائدة إلى ذات الله تعالى وصفاته، وأفعاله، ويقال لها «الكشف»، ولا يمكن اكتساب هذه الأمور أو الحصول عليها عن طريق العقل أو الفكر، وإنما يهبها الله تعالى لمن يختاره من عباده.

١٢٤٩. العفريت: هو القوي الداهية الذي يتغلب على خصمه، ولا يمكن السيطرة عليه. ومن جهة أخرى فإنه يحمل دلالة على الغارق في السيئات والمنكرات والذي بلغ مرحلة الشبه بالشيطان. وهذه الكلمة كما أنها تستخدم بحق الإنسان، فقد وردت في الآية الكريمة للدلالة على الجن «عفريت من الجن»..

١٢٥٠. النمل: ٣٨-٣٩.

١٢٥١. النمل: ٤٠.

٢- الحوادث الخارقة للعادة التي تقع في العالم المادي، وهذه أيضاً يتفضل الله ﷻ بها على من يختاره من عباده.

يعتمد الناس على القسم الثاني، والأول هو المقبول.

يقول الإمام الغزالي:

«من يستمد منه في حياته يستمد منه بعد مماته»

ومن الأولياء الصالحين الذين وهبهم الله تعالى كرامات كثيرة بعد وفاتهم، معروف الكرخي، وعبد القادر الجيلاني المشهورين.

ثم إن الكرامات كانت تحصل بين الفترة والأخرى على أيدي الصحابة الكرام رضوان الله تعالى عليهم:

ففي العام الثالث والعشرين للهجرة وخلال المعركة التي جرت بين المسلمين والفرس، كان سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه يخطب من على منبره في المدينة المنورة، وفجأة نادى جيش المسلمين يحذرهم من العدو وهم في العراق، قائلاً:

- يا سارية الجبل، الجبل! وقد وصل نداؤه إلى مسامع المسلمين آنذاك. [١٢٥٢]

ويقول أنس رضي الله عنه:

«إن رجلين من أصحاب النبي ﷺ «هما عباد بن بشر وأسيد بن حضير رضي الله عنهما»، خرجا من عند النبي ﷺ في ليلة مظلمة، ومعهما مثل المصباحين، يضيئان بين أيديهما، فلما افترقا، صار مع كل واحد منهما واحد، حتى أتى أهله» [١٢٥٣]

بينما كان الإمام علي رضا رحمة الله عليه جالساً بجانب حائط، جاء طائر وبدأ يغرد، فقال الإمام علي رضا رحمة الله عليه:

- إن هذا الطائر يخبرنا بأن ثعباناً يقترب من عشه، ويقول مسغيثاً بنا «أنقذوا صغاري».

فقام الرجال الذين كانوا حول الإمام واتجهوا نحو مكان الطائر فرأوا بالفعل ثعباناً قد سُلِّط على عش الطائر، فأسرعوا إلى قتل الثعبان من أجل إنقاذ صغار الطائر.

١٢٥٢. ابن هاجر،الإصابة، ٢، ٣.

١٢٥٣. البخاري: الصلاة، ٧٩، مناقب الأنصار، ١٣.

إن العبرة من إحضار عرش بلقيس بكرامة آصف بن برخيا وليس بمعجزة من سيدنا سليمان عليه السلام هي من أجل إدراك مدى أهمية والعظمة المعنوية لسليمان عليه السلام، وذلك لأن آصف بن برخيا كان وزيراً لسيدنا سليمان عليه السلام.

وتابع سليمان عليه السلام كلامه:

﴿قَالَ نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا نَنْظُرْ أَتَهْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ﴾ [١٢٥٤]

لقد أحضر العرش خلال مدة وجيزة جداً، هذه المدة كانت بمقدار طرفة عين، بينما المسافة التي قُطعت لإحضار العرش حسب أحد الآراء هي مسيرة ثلاثة أيام «بين سبأ وصنعاء»، وفي رواية أخرى، هي مسيرة شهرين «بين سبأ والشام»، وحسب رأي آخر، فإن المسافة كانت بين سبأ والقدس، على كل الأحوال، فإن إحضار العرش من هذه المسافة الطويلة وخلال هذه المدة الوجيزة جداً ليس حادثاً عادياً، وإنما هي كرامة بحق.

﴿فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكِ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ. وَصَدَّهَا مَا كَانَتْ تَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ كَافِرِينَ. قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَنْ سَاقَيْهَا قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُمَرَّدٌ مِنْ قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [١٢٥٥]

وحسب الرواية التي وردت في هذا الخصوص، فإن سيدنا سليمان عليه السلام أمر بإشادة قصر قبل مجيء بلقيس ملكة سبأ، وقد تمت تغطية ساحة هذا القصر بالمرمر البلوري الشفاف، وأجريت تحتها المياه حيث وضعت فيها الأسماك، ولأن بلقيس لم تلحظ المرمر الشفاف فوق المياه فظنت أنها ستلج القصر من الخوض في هذه المياه ورفعت من ثيابها، لقد زعزعت كل هذه التدابير والترتيبات إيمانها وثقتها بعلمها وعقلها، وحضّرت قلبها للقبول بالهداية والرشد الإلهي، وهكذا أدركت بلقيس بأن هذه الوقائع لا يمكن أن تكون من عمل البشر، وإنما شاهدت فيها العظمة والقدرة الإلهية فأسلمت لله عز وجل وآمنت به.

١٢٥٤. النمل: ٤١.

١٢٥٥. النمل: ٤٢-٤٤.

وفاة سيدنا سليمان عليه السلام:

كان سليمان عليه السلام يتكئ على عصاه عندما وافته المني، ولأنه بقي واقفاً على قدميه لم يلحظ أحدٌ من الذين حوله وفاته ولم يعلموا بها، إلى أن جاءت دودة الشجر وبدأت تقرض العصا فوقع سليمان عليه السلام أرضاً، حينها أدرك من حوله وفاته، وفي ذلك يقول الله تعالى:

﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَى مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنْسَأَتَهُ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَنْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ﴾ [١٢٥٦]

إذاً، يتبين من الآية الكريمة أن جسد سليمان عليه السلام بقي منتصباً واقفاً على العصا مدة طويلة بعد أن ارتحل بروحه عن الدنيا، وإن التعبير الوارد في الآية الكريمة "**الْعَذَابِ الْمُهِينِ**" جاء بناءاً على استخدام الجن في الأعمال الشاقة، فلأنهم لم يدركوا وفاة سليمان عليه السلام، فقد استمروا في القيام بالأعمال الشاقة والمجهدة كما لو أنه ما زال على قيد الحياة، ويُفهم من هذا أن الجن لا يعلمون بالغيب.

لقد كان سليمان عليه السلام مثالاً للدفاع عن التوحيد بوفاته، كما كان في حياته، إذ أنه تبين من خلال وفاته أن لا علم لأحد بالغيب إلا الله تعالى، وأدرك الناس بأن علم الغيب وقفٌ على الله عز وجل وهو يُطلع عليه من يشاء من مخلوقاته، لقد أظهر الله تعالى وفاة سليمان عليه السلام بواسطة دودة الشجر ذلك الكائن الغاية في العجز والضعف، وقد تبيّن بشكلٍ جلي من خلال هذه الحادثة عدم صحة ادعاء الجن العلم بالغيب، ولا يمكن العلم به خارج إرادة الله سبحانه وتعالى.

ومن جهة أخرى، فإن في وفاة سيدنا سليمان عليه السلام صاحب السلطة والملك العظيم واقفاً على قدميه، تجليات تدعو إلى التفكير العميق، والاعتبار، ومن البديهي أن أقوال الأنبياء جميعاً، ومجريات حياتهم، والأحداث التي تقع لهم واحدة من وسائل العبرة والدروس لكل الأمم التي تأتي من بعدهم.

وإن فناء الدنيا، وحتى زوال السلطة والملك العظيم لسليمان عليه السلام قد أصبح مضرب المثل ومن الوصايا التي تقدم للأجيال.

١٢٥٦. سبأ: ١٤.

السلطة والتواضع:

كان سليمان عليه السلام غايةً في التواضع، يستيقظ في الصباح الباكر ويتجه نحو المساكين والغرباء، فيجلس معهم، وكان يقول:

- المسكين ينسجم مع المساكين!.

وقد نُقلت حادثة تدعو للاعتبار حصلت مع سليمان عليه السلام، حيث كان يتجول، ويمر بين العصافير:

ذات يوم وبّخ سليمان عليه السلام طائر الهدهد. فهدد العصفور سليمان عليه السلام، قائلاً:

- سوف أدمّر قصرك ومملكتك!

فقال له سليمان عليه السلام:

- وما ثقلك وحجمك حتى تدمّر قصري!

فأجاب ذلك العصفور الصغير:

- سوف أبلل جناحي بالماء وأغمسهما في تراب الوقف، ثم أنقل ذلك التراب الذي علق بجناحي إلى سقف قصرك، وهكذا فإن المقدار الذي نقلته من تراب الوقف يكفي لتهديم قصرك وانهياره!

ومن العبرة التي نستخلصها من هذه القصة، ينبغي أن ندرك مدى أهمية أموال الوقف، ووجوب التحلي بغاية الدقة ومراعاة الحق في حال التصرف أو الاقتراب من أموال الوقف، فقد قال أكابرنا: احذروا من الواو، أي احذروا من قول «والله" والحلف بدون سبب يدعو له، ومن تولي منصب «الولي» مع عدم الشعور بالمسؤولية وتحمّل أعباء الولاية على الوجه الأكمل، ومن تولي «وصاية» لا يمكن الإيفاء بواجبها وأدائها بالشكل الصحيح، ومن الإهانة والإساءة إلى مال الوقف.

وإن القصد من التحذير الوارد هنا، ضرورة تحلي العاملين في مثل هذه المؤسسات بالدقة وزيادة الحرص على الحقوق. لأن مال الوقف هو كل الأموال المنقولة، وغير المنقولة التي يُمنع تملكها أو تمليكها، فالملكية فيها لله تعالى، وتعود منافعها إلى عموم الأمة.

وقد ورد في بعض المصادر، أن سليمان عليه السلام سوف يدخل الجنة بعد الأنبياء الآخرين بمدة خمسمائة سنة، وذلك لأن سليمان عليه السلام قد أُعطي ملكاً وغنى كبيراً، ولذلك فإنه سوف يستغرق وقتاً طويلاً للمحاسبة عن كل هذه الأموال والأملاك، وبالتالي سوف يتأخر عن بقية الأنبياء في دخول الجنة.[١٢٥٧]

لقد بينت الآية الكريمة أن الأنبياء يحاسبون أيضاً يوم القيامة، حيث يقول الله تعالى:

﴿فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ﴾ [١٢٥٨]

فترة ما بعد سيدنا سليمان عليه السلام:

انقسم بنو إسرائيل الذي يتألفون من اثنتي عشرة قبيلة من بعد سليمان عليه السلام إلى قسمين، وتأسست من عشر قبائل دولة إسرائيل، وأنشئت دولة يهودا من القبيلتين الباقيتين.

قضى الآشوريون على دولة إسرائيل التي أنشئت من عشر قبائل في العام/ ٧٢١ ق.م / . وأما دولة يهودا التي أُسست من القبيلتين فقد تم القضاء عليها في العام / ٥٨٦ ق. م / من قِبل بختنصر ملك مملكة بابل، وقد أحرق بختنصر القدس، وقتل معظم سكانها، وساق ما تبقى منهم إلى بابل. ويعتبر هذا الظالم الملك الملحد الثاني الذي يحكم سيطرته على العالم من بعد نمرود، فقام بإعمار مدينة بابل وجعلها مركز مملكته، ولم يدع أحداً ينافسه أو يقف في وجهه لا في الشرق ولا في الغرب. وهكذا أطبق عليه الكبر والغرور فأعلن نفسه إلهاً، وفي النهاية فقدَ عقله وأصابه الخرف فبدأ يظن نفسه عِجلاً، وبقي لمدة سبع سنين متشرّداً يتجوّل في الغابات، وخلال هذه الفترة استملت امرأته أمر إدارة الملك، ويُروى أنه استعاد عقله قبل سنة من موته، ومات على هذه الحال.

لقد غزا ونهب بختنصر مدينة القدس مرات عدة، وقد أحرق التوراة والزبور وأزالها من الوجود، وبمرور الزمن تم نسيان أجزاء كثيرة تابعة للتوراة، وعندما تم البدء بكتابة التوراة اعتماداً على ما تبقى في ذاكرة الناس، فقَدَ التوراة هويته الأصلية

١٢٥٧. القرطبي: التفسير، ٥١، ٤٠٢.
١٢٥٨. الأعراف: ٦.

تماماً، وقد أُخرجت إلى الوجود عدة رسائل متناقضة لا تتماسك ولا تتناسق مع بعضها البعض، وقد جمع عزير الذي عاش في العام / ٥٥٠ ق. م / تقريباً، جمع هذا التوراة الذي تم تدوينه، وقد تم العثور عليه أثناء بناء المعبد للمرة الثانية، وحسب مفهوم اليهود اليوم، فإن يهودا الرب قد أوحى إلى عزير التوراة الذي كان مفقوداً إلى ذلك الوقت من جديد واستكتبه.

وعندما هزم كسرى فارس نوشك «كورش أو كايروس» البابليين، أذن لبني إسرائيل بالعودة إلى القدس من جديد، وقد قام بنو إسرائيل في العام / ٥١٥ ق. م / ببناء المسجد الأقصى، وعاشوا في البداية تحت حكم الفرس ومن بعدهم عاشوا في ظل حكم المقدونيين، وفي العام / ٦٣ م / احتل الرومانيون القدس وشردوا اليهود مرة أخرى، وتم تخريب المسجد الأقصى من جديد.

إن وقوع بني إسرائيل في هذه المصائب والبلايا كان بسبب انحرافاتهم، وبهذه الانحرافات، لجأوا إلى تغيير وتحريف كل ما لا يتفق مع أهوائهم النفسية في التوراة والزبور، وأفسدوا بذلك الدين الحق، وعندما أراد بعض الأنبياء مثل زكريا ويحيى عليهما السلام منع هذه التصرفات المنحرفة أقدموا على قتلهم بدم بارد ودون أن يرف لهم جفن.

قصة هاروت وماروت:

انتشر السحر بين اليهود بشكلٍ ملفت، فأصبحوا يعتقدون ويقولون بأن سليمان عليه السلام ساحر كبير، وبالسحر حصل على الملك والحكم وأخضع لسيطرته الحيوانات والجان، وعندما أوضح القرآن الكريم بأن سليمان عليه السلام إنما هو نبي الله ورسوله:

قال اليهود:

«إن محمداً يعتقد أن سليمان نبي، بينما في الحقيقة هو ساحر كبير!».

وقد نزلت الآية الكريمة الآتية بشأن ذلك:

﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُمْ

بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [١٢٥٩]

ويوضح المفسر فخر الدين الرازي سبب نزول الملكين "هاروت وماروت" إلى الأرض بالشكل الآتي:

أ. كان السحرة متكاثرين ومنتشرين بشكل واسع عند نزول هذين الملكين إلى الأرض، إذ أظهروا للناس الذين لم يعهدوا ولم يعرفوا عن موضوع السحر شيئاً من قبل، أموراً وأحداثاً غريبة، وبلغ بالسحرة أن ادعوا النبوة، وهكذا فقد تحدّوا الناس واستبدوا بهم. ولهذا السبب فقد أنزل الله سبحانه وتعالى هذين الملكين ليكتشف الناس أكاذيب هؤلاء السحرة المدعين للنبوة، ويعلمانهم السحر من أجل أن يتمكنوا من مواجهة هؤلاء السحرة بسلاحهم.

ب. إن إدراك تميز وفرق المعجزة عن السحر مرتبط بمعرفة السحر عن طريق المعجزة، لكن الناس في ذلك الوقت لم يكونوا يعرفون ماهية السحر، ولذلك من المستحيل إذ ذاك أيضاً إدراكهم حقيقة المعجزة، وبناء على ذلك، فإن الله سبحانه وتعالى أرسل هذين الملكين ليفهم الناس حقيقة السحر، ويعرفوا أيضاً حقيقة المعجزة وماهيتها.

ج. وحسب وجهة نظر أخرى، فإن الله ﷻ قد أباح أو ندب السحر الذي يفرق بين أعداءه، ويؤلف بين قلوب المؤمنين وينشر المحبة بينهم. ولهذا فقد أرسل الله تعالى هذين الملكين ليعلما الناس السحر الذي يحقق هذه الغاية، ولكن مع الأسف فإن الناس في ذلك الوقت استخدموا السحر الإيجابي الذي تعلموه من هذين الملكين، استخدموه بشكلٍ سلبي، أي أنهم استعملوا السحر على عكس الغايات التي تعلموه من أجلها، فأوقعوا العداوة بين أحباب الله تعالى وأسسوا المحبة بين قلوب أعداء الله تعالى.

د. كان لا بد من أجل تحريم السحرعلى البشر الذين لم يعرفوه، من تصويره لهم وإطلاعهم عليه، لأنه لا يُعقل النهي أو تحريم شيءٍ غير متصور.

١٢٥٩. البقرة، ٢٠١.

ه. وربما أيضاً أن الجن كانوا يعلمون ألواناً من السحر مما يعجز الإنسان عن القيام بمثله، فأرسل الله هذين الملكين ليعلمان الناس أشياءاً تحفظهم وتحميهم في مواجهة الجن.

و. ويمكن أيضاً التفكير بأن هذا الأمر نوع من الامتحان الذي يصعّب تكاليف ومسؤوليات العبودية، لأن إبعاد الإنسان لنفسه عن شيءٍ يوصله إلى الملذات والشهوات الدنيوية يصبح أصعب بعد تعلمه، ولهذا السبب فعندما يُصعَب الامتحان على الإنسان فإن أجر وثواب الفائزين يزداد بمقدار تلك المصاعب، وبذلك فإن الإنسان يمكنه الحصول على المكافآت الكبيرة بالابتعاد عن المحرمات.

وهكذا فإن الله سبحانه وتعالى قد امتحن قوم طالوت خلال توجههم إلى المعركة في ذلك اليوم الحارّ بعدم الشرب من الذي مرّوا عليه، وقال طالوت بموجب الأمر الإلهي:

﴿... إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ ...﴾ [١٢٦٠]

وخلاصة القول، فإن ما يُفهم من كل هذه التفاسير، أن لله تعالى حكماً كثيرة من وراء إرسال هذين الملكين وتعليمهما الناس السحر، ومما لا شك فيه أن لله تعالى حكمة في كل شيءٍ، وهو العالم بكل الأمور.

تفضيل رسولنا الكريم ﷺ على سليمان عليه السلام:

- سُخرت الرياح لأمر سليمان عليه السلام، أما الرسول ﷺ فقد خدمته الملائكة جميعاً صغيرهم وكبيرهم.
- كان سليمان عليه السلام يقطع مسافة شهرين بيوم واحد، أما رسول الله ﷺ فقد صعد إلى العرش في ليلة المعراج بلحظة واحد.
- كانت الطيور تظلّل على سيدنا سليمان عليه السلام بأجنحتها، أما النبي عليه الصلاة والسلام فقد كانت الغيوم تظلله.

١٢٦٠. البقرة: ٢٤٩.

- كانت المخلوقات كلها تجتمع للخدمة تحت ختم سليمان عليه السلام، وأما الرسول ﷺ فإن جميع الأنبياء، والأولياء، والشهداء سوف يجتمعون يوم القيامة تحت رايته التي تُسمى «لواء الحمد».
- لقد أُعطي لسليمان عليه السلام ملك الدنيا كلها، أما النبي ﷺ فقد أُعطي لأضعف رجلٍ من أمته ملكاً أكبر من الدنيا بعشرة أضعاف يوم القيامة. [١٢٦١]
- أُعطي لسليمان عليه السلام «الكرسي»، أما الرسول ﷺ فقد أُعطي «آية الكرسي»، فآية الكرسي من خزائن الجنة، ويهرب منها الشيطان.

١٢٦١. انظر: مسلم، الإيمان، ٣٠٨؛ الترمذي، جهنم، ١٠.

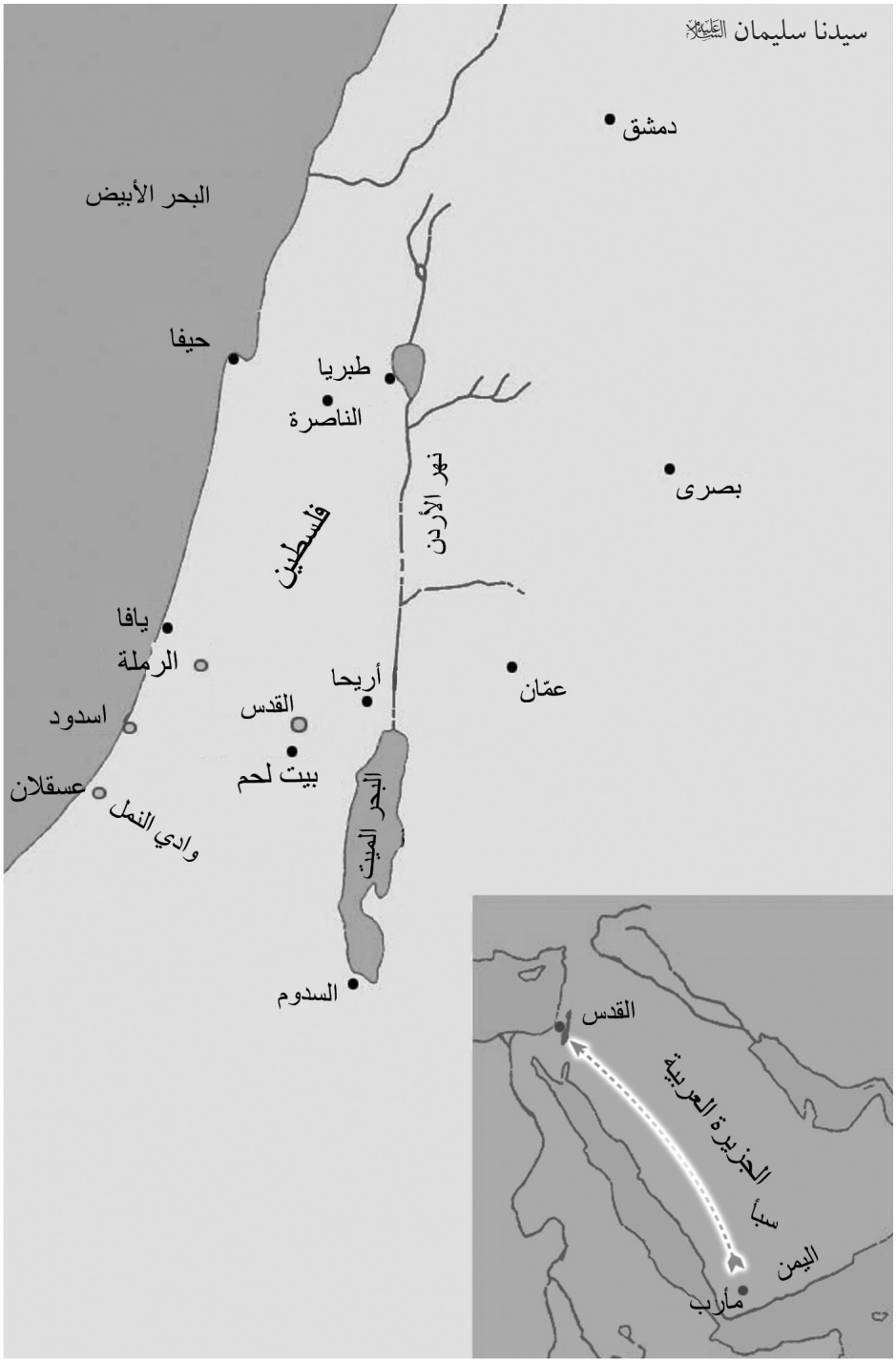
سيدنا سليمان عليه السلام
دمشق
البحر الأبيض
حيفا
طبريا
الناصرة
نهر الأردن
بصرى
فلسطين
يافا
الرملة
أريحا
عمّان
اسدود
القدس
بيت لحم
عسقلان
وادي النمل
البحر الميت
السدوم
القدس
الجزيرة العربية
سبأ
اليمن
مأرب

الملك لله ﷻ:

لقد جعل الله سبحانه وتعالى سليمان عليه السلام الذي آتاه الملك والغنى من بين الأنبياء مثلاً ونموذجاً، لأن سليمان عليه السلام حمل ثروة الدنيا التي وُهبت له خارج قلبه وحفظه من الافتتان بها. ولا يمكن أبداً بلوغ غنى سليمان عليه السلام وملكه حتى لو اجتمع الناس جميعاً وتضافرت جهودهم معاً، لأن الرياح، والحيوانات، والشياطين العنيفة المصفّدة كلها كانت تحت تصرف سليمان عليه السلام، وعلى الرغم من كل هذه السلطة والملك فإن سليمان عليه السلام كان يجلس مع الغرباء وأبناء السبيل، ويقول:

«إني مجرد مسكين! والمسكين ينسجم ويليق به الجلوس مع المسكين»

وإن مولانا قدس الله سره يبين بشكلٍ جميل في الأبيات الآتية الكسب المعنوي لوحدة الحال مع الفقراء والمهمومين، حيث يقول:

«إن القلوب الغارقة في الفقر والحاجة، تشبه البيت المليء بالدخان، وأنت باستماعك لهمومه، وعلاجك لآلامه تفتح لذلك البيت المليء بالدخان نافذة نجاة، فليخرج ذلك الدخان، وليرق قلبك فتطهر وتسمو روحك...».

وإن المظهر الأجمل لهذه الحالة يمكن تحقيقه بالإنفاق، وفي نفس الوقت فإن الإنفاق شكر للمنعم على النعمة والثروة، وزيادة النعمة بالشكر وعد إلهي، حيث يقول الله تعالى:

﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ...﴾ [١٢٦٢]

والنبي ﷺ كان يحب الإنفاق كثيراً، ويقول عليه الصلاة والسلام في الحديث الشريف:

«قال الله تبارك وتعالى: يا ابن آدم ! أنفق أنفق عليك» [١٢٦٣]

١٢٦٢. إبراهيم: ٧.

١٢٦٣. مسيلم، ٣٦/ ٩٩٣؛ الزكاة؛ البخاري، التفسير، ٢/ ١١.

وكان النبي عليه الصلاة والسلام يتمنى أن يتحوّل الكرم إلى الطبيعة الأصلية لكل مسلم، إذ يقول:

«لا حسد إلا في اثنتين: رجل آتاه الله مالاً، فسلطه على هلكته في الحق، ورجل آتاه الله حكمة، فهو يقضي بها ويعلمها»[١٢٦٤]

ويقول الله تعالى في القرآن الكريم:

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴾[١٢٦٥]

يستنتج من الآية الكريمة أن ملكية الأموال ليست للفرد ولا للمجتمع، وإنما هي ملك لله تعالى، فكل الكائنات الحية تعيش في ملك الله ﷻ وبالنعم التي أنعم الله بها عليها تستمر في الحياة، وأما الملكية الممنوحة للفرد فهي في الحقيقة عبارة عن قدرة التصرف بالمال لمدة زمنية محدودة.

وبهذا الاعتبار، فإن المال، والملك، والمكانة هي من أكبر وسائل الامتحان للإنسان. وقد جاءت لحظة جُرد سيدنا سليمان عليه السلام من سلطته وملكه، ونتيجة استغفاره ولجوئه إلى ربه ﷻ أعيدت إليه سلطته من جديد، وإن في النصيحة التي يقدمها أحد أصحاب الحق والتي تبين هذه الحقائق حكمة وعبرة كبيرة:

- لا تجري خلف الرزق، وإنما اجري إلى الرزاق!.

ويروى أن ملكة النمل قالت يوماً لجماعتها بشأن ملك سليمان عليه السلام:

- ما أعظم ملك سليمان!.

فقال سليمان عليه السلام الذي سمع هذا الكلام:

- إن ملكي فانٍ؛ وأما الملك الذي تأتي به كلمة التوحيد فهو باقٍ وأبدي!...

لأنه كان يعلم بحقٍ أن الملك والسلطة لله تعالى.

يقول الله ﷻ:

١٢٦٤. البخاري، العلم، ١٥/ ٧٣؛ مسلم، المسافرين، ٢٦٨/ ٨١٦.

١٢٦٥. فاطر: ١٥.

﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا...﴾ [١٢٦٦]

﴿إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا﴾ [١٢٦٧]

﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [١٢٦٨]

﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ. تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [١٢٦٩]

يتبين من خلال هذه الآيات الكريمة أن الملك الحقيقي والأساسي للعباد في هذه الدنيا هو ذكر الله تعالى وعدم نسيانه في كل الأحوال، وخدمة جميع مخلوقاته، والإنفاق في سبيله لنيل رضاه.

إن الإنفاق الذي ورد ذكره في القرآن الكريم لما يزيد عن مائتي مرة هو التضحية في سبيل الله تعالى بالمال والروح، أي صرف النعم التي منَّ ربنا بها علينا في سبيله، وعلى ذلك، فإن المسلم يقدم أمواله وروحه تضحية لله تعالى.

❁

إن ثمرة الإيمان الأولى هي الرحمة، فالقلب البعيد عن الرحمة لا يُعد متمتعاً بالحياة، وإن رأس كل خير «البسملة والفاتحة» وكل منهما يبدأ بالإعلان عن صفة الرحمة لله تعالى من خلال اسميه «الرحمن» و «الرحيم»، وحياة الأنبياء والأولياء التي اصطبغت بالرحمة والشفقة مليئة بنماذج سامية من مناقب الرحمة.

وفي قول النبي عليه الصلاة والسلام:

«**الراحمون يرحمهم الرحمن. ارحموا من في الأرض، يرحمكم من في السماء..**» [١٢٧٠]

١٢٦٦. فاطر: ١٠.

١٢٦٧. مريم: ٩٣.

١٢٦٨. آل عمران: ١٨٩.

١٢٦٩. آل عمران: ٢٦-٢٧.

١٢٧٠. الترمذي، البر، ١٦-١٩٢٤؛ أبو داود، الأدب، ٥٨/ ٤٩٤١.

دعوة للمؤمنين لكي يشملوا برحمتهم كل المخلوقات على وجه الأرض.

إن من أكمل مظاهر الرحمة، القيام بالإنفاق الذي هو أحد واجبات ووظائف العبودية للإنسان.

وإن ضعف مشاعر الأخوة، وفقدان الهدوء والطمأنينة الاجتماعية، وانتشار الأحقاد والخصومات في مجتمعنا بشكل واسع، كل ذلك يحيجنا إلى الاستنفار الجدي وبذل جهود جبارة من أجل الإنفاق وبالتالي القضاء على هذه الظواهر السلبية، وينبغي عدم النسيان، بأننا قد نكون يوماً مكان هؤلاء المحتاجين والمكروبين، ولهذا فإن واجب الإنفاق عليهم هو دين لله تعالى في رقابنا.

وقد ذكر الله ﷻ من بين صفات المتقين:

﴿...وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ [١٢٧١]

وثمة أنواع كثيرة للصدقة والإنفاق اللذان هما اسم لعموم العطاء والبذل لوجه الله سبحانه وتعالى.

تبدأ الصدقة والإنفاق بحق من يملك زيادة عن حاجته بالعطاء، ومن ليس لديه مال فإن تقديم شق تمرة منه يعتبر صدقة حسنة. وتحمي الصدقة صاحبها من نار جهنم بنسبة الإخلاص لديه حين التصدق.

يظهر من النظر إلى الإنفاق أنه النتيجة الطبيعية للرحمة والشفقة، وأنه الذي رغب النبي عليه الصلاة والسلام بأن يتحلى به كل مؤمن حتى يغدو من طبيعته، ومن كل هذا ندرك أن كل مؤمن يُعتبر غنياً، وذلك لأنه حسب ما جاء في الأحاديث الشريفة أن النبي ﷺ اعتبر من الصدقة كلاً من: قيام المؤمن بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والتكبير، والتوحيد، ونصرة المظلوم، ومواساة المهمومين والمكدورين، وتطيب قلوب المحتاجين بالكلمة الطيبة، وإماطة الأذى عن الطريق، وعيادة المريض، وحتى التبسم في وجه الناس كل ذلك عدّه نبينا الكريم من الصدقات عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم.

وبناء على ما تقدم، فإن الغنى الحقيقي هو القناعة التي تسود في القلب، فكل إنسان يُعتبر غنياً بقدر قناعته، إن أغنياء القلب يعدّ تبسّمهم صدقة لهم، لأن تبسم غني القلب

١٢٧١. البقرة: ٣.

يعكس المحبة، والسكينة، والفرح الذي بداخله على من حوله، وهذه الحالة ما أجملها من إنفاق، أما القلوب الفقيرة التي هي عكس تلك القلوب فلا يغنيها شيءٌ أبداً.

إذاً، فإن الغنى الحقيق ليس بكثرة جمع الأموال، وإنما بامتلاء القلب، والمؤمنون الحقيقيون يتمثلون بنعمة غنى القلب ويكثرون من الإنفاق، فالإنفاق مظهر من مظاهر كمال الحساسية والشعور بالمسؤولية لكل مؤمن مكلف.

ويمكننا الاعتبار بحالة الصحابة حارث بن هشام، وعكرمة بن أبي جهل، وعياش بن أبي ربيعة رضوان الله عليهم الذين اشتهدوا في معركة اليرموك، حيث أن أبطال الإسلام هؤلاء بينما كانت أكبادهم تحترق من شدة العطش في نفسهم الأخير وهم ممددين على الرمال التي تحرق أجسادهم مثل اللهب، يأبى أحدهم شرب كأس الماء الذي يقدم له ويحيله إلى صاحبه ليشربه، وفي النتيجة لم يشرب أحد منهم الماء قبل الوفاة، فلم يذوقوا شربة ماء إلا أنهم نهلوا من شراب الشهادة وانتقلوا إلى الرفيق الأعلى، وبقي كأس الماء قائماً بينهم في المكان. [١٢٧٢]

إن هذه الحالة هي أعلى درجات الإنفاق وهي «الإيثار»، أي أنها الفضيلة التي تجعل المؤمن يقدم حاجة أخيه على حاجة نفسه.

حيث يقول الله تعالى في القرآن الكريم:

﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [١٢٧٣]

يروى أنه كان لجعفر الصادق رحمه الله عبدٌ يخدمه في حاجاته الخاصة، وفي أحد الأيام بينما كان العبد يحضر قصعة من الحساء لسيده جعفر انسكب عليه دون قصد منه، فغرق جعفر في الحساء من فرق رأسه حتى أخمص قدميه، فنظر جعفر رحمه الله إلى العبد وعلامات الغضب بادية عليه، فقال العبد:

يا سيدي، إن الله تعالى يعد في كتابه «**الكاظمين الغيظ**» بالمغفرة والجنة.

قال جعفر الصادق: إن كان كذلك فقد كظمت غيظي.

١٢٧٢. الحاكم، المستدرك، ٣، ٢٧٠.

١٢٧٣. آل عمران: ١٣٤.

وتابع العبد قراءة الآية: «**والعافين عن الناس**»

فقال جعفر الصادق: لقد عفوت عنك.

فتابع العبد من جديد قراءة الآية: ﴿**والله يحب المحسنين**﴾

فقال له جعفر الصادق: اذهب فإني أعتقك لوجه الله تعالى! وإليك ألف دينار تستعين به على حاجاتك!

إن هذه الحادثة مثال حي للأمة على مظاهر الإنفاق الحسن.

وقد أخبر النبي ﷺ أن امراة مذنبة سقت كلباً أشرف على الهلاك من شدة العطش، فغفر لها ذنوبها لرحمتها بهذا المخلوق وجعلها الله بلطفه من أهل الجنة، ومقابل ذلك فقد دخلت امرأة النار لأنها تصرفت بدون رحمة مع هرة، إذ حبست هرة لا هي أطعمتها، ولا تركتها تأكل من حشاش الأرض. [١٢٧٤]

كل هذه الأمثلة هي عبرة لنا من أجل استقامة عوالم قلوبنا.

ينبغي للمؤمن أن يكون مثل قمر الليلة الظلماء منيراً، مرهف الإحساس والمشاعر، رقيقاً، عطوفاً، ورحيماً بخلق الله مشفقاً بهم، كريماً وسخياً عليهم.

ويُعلمنا الله ﷻ بأننا حتى نكون قريبين منه ينبغي علينا الإنفاق من أحب الأموال إلينا، وأغلاها بالنسبة لنا، إذ يقول الحق ﷻ:

﴿**لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ**﴾ [١٢٧٥]

وقد فُسرت كلمة البر المذكورة في الآية الكريمة بمعاني عدة فهي تعني نقطة الكمال للخير، ورحمة الله تعالى، ورضا الله وجنته، وإلى جانب ذلك، فقد عرفها الله ﷻ في آية أخرى، حيث يقول:

﴿**لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى**

١٢٧٤. انظر: البخاري، الأنبياء، ٤٥؛ مسلم، السلام، ١٥١- ١٥٢.

١٢٧٥. آل عمران: ٩٢.

وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ [١٢٧٦]

وكما يظهر من تعريف الآية الكريمة للبر، فقد جمعت كل الصفات التي يجب على المؤمن التحلي بها.

❁

إن الحالة أو الأسلوب المؤسساتي للإنفاق المادي والمعنوي هو «الوقف»، فالوقف مظهر من مظاهر المسؤولية والتضحية التي ينبغي على المؤمن القيام بها تجاه كل المخلوقات، لأن الأوقاف مؤسسات تظهر آثار محبة الخالق وحبه، ولطفه بالمخلوقات، إذ وصف الله سبحانه وتعالى الإنسان، والكائنات، والأشياء بالأمانة، وقد حُمّل الإنسان أمانة كل شيء في الكون، وهذه الأمانة تتضمن كل شيء من أولاد، ومال، وملك، وصحة وغيرها. والإنسان مجبر على حماية هذه الأمانة بكل حرص ومطلق الشعور بالمسؤولية، وإن رعاية حق الأمانة والقيام بواجبها على أكمل وجه وسيلة للرحمة والبركة.والنقاش الذي ذكرناه سابقاً، الذي دار بين سليمان عليه السلام وطائر الهدهد، فيه الكثير من العبرة فيما يتعلق بأهمية الوقف وضرورة الحرص والاهتمام به، وبالأخص للعاملين في مجال خدمات الوقف، حيث من الواجب عليهم التحلي بمنتهى المسؤولية والإخلاص تجاه أموال الوقف.

إن غاية الثروة الصحيحة هي الوصول إلى سر الحديث الشريف:

«**أحب الناس إلى الله أنفعهم** ...» [١٢٧٧]

ومما ينبغي عدم نسيانه، أن مكان النقود ليس القلب، وإنما المحفظة! .

وينبغي أن نعلم بأن دعاء الفقراء وأبناء السبيل وسيلة للبركة والرحمة بالنسبة لذوي المال والأقوياء، ومن ناحية أخرى مصدر للطمأنينة والسكينة. وينبغي أن نعلم أيضاً بأن الفقر والحاجة ليستا مذلة أو مسكنة، وربما هي من مظاهر اللطف والحكمة المضيئة.

١٢٧٦. البقرة: ١٧٧.

١٢٧٧. السيوطي، الجامع الصغير، ٢، ٨/ ١٧٦.

وفيما يرويه أمية بن خالد ﷺ عن النبي ﷺ أنه كان يتوسل إلى الله تعالى بفقراء المهاجرين ويسأله العون والنصر للمسلمين بحرمة أولئك الفقراء. [١٢٧٨]

وفي رواية لأبي الدرداء ﷺ، أن النبي ﷺ قال لأصحابه:

«ابغوني الضعفاء، فإنما ترزقون وتنصرون بضعفائكم» [١٢٧٩]

لقد خُلق الإنسان وجعل من أكرم المخلوقات، وإذا وجد بين الأفراد فروق وتفاضل مثل الأقوياء والضعفاء، والأصحاء والمرضى، والعلماء والأميين، والأغنياء والفقراء، فليس ذلك إلا من أجل تأسيس نظام مجتمعي وتأمين انسجام للحياة الاجتماعية.

وإن كلاً من الغنى والفقر اللذان يحتلان مكاناً مهماً في هذا التفاضل هما حالتان من التضاد الاقتصادي، إن حالة أصحاب الإمكانات المتفاوتة مثل الغنى والفقر هي تقديرات إلهية بقصد امتحان الإنسان، وتحتوي على كثير من الحكم العميقة والدقيقة، وبناء عليه فليس الغنى عزة ولا الفقر مذلة. وإنما قسمة إلهية، ومظهر لحكمة ومصلحة مقدرة، حيث يقول الله تعالى:

﴿...نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [١٢٨٠]

لقد فُرضت الزكاة في الإسلام على المؤمنين ذوي الأموال والأملاك لأهداف وحكم عظيمة، ومن هذه الحكم الوقوف في وجه الانحرافات أو المجون المحتمل نتيجة خضوع الأغنياء لبريق الثروة والمال، ومنع بروز الميول والمشاعر السلبية في قلوب المحتاجين مثل الحقد والحسد تجاه الأغنياء، وتأسيس حياة اجتماعية متماسكة يرتبط أفرادها ببعضهم البعض بروابط المحبة والحنان، وإن لعبادة الزكاة والإنفاق مكانة مهمة ومتميزة في النظام الاجتماعي للإسلام من أجل تأمين توازن بين الفقراء والأغنياء وإنماء روح الألفة والمحبة بينهم. وسوف يحاسب الغني أمام الله تعالى يوم القيامة عن ماله، من أين اكتسبه وفي أي شيءٍ صرفه وأنفقه، أي فيما إذا كان قد كسب ماله من طريق

١٢٧٨. أنظر: الطبراني، المعجم الكبير، ١، ٢٩٢.

١٢٧٩. أبو داود، الجهاد، ٧٠/ ٢٥٩٤ .

١٢٨٠. الزخرف: ٣٢.

الحلال أم الحرام، وإذا ما كان قد أخرج الزكاة، والصدقات، وصرفه على أعمال الخير والإحسان، إن الأمر بوجوب إعطاء جزء معين من المال للفقراء تابع للامتحان الكبير من جهة الثروة، وفي حال تجاوز هذا الامتحان إلى جانب تجاوزه في الأمور الأخرى بنجاحٍ ينال المرء رضا الله تعالى ونعيم الجنة.

وأما الفقير، فإنه سوف يلقى الحساب عن مدى التزامه أو عدم التزامه بالعفة والأخلاق الحميدة مثل نفاذ الصبر عن حالة الفقر، والتأفف والشكوى، والاتّكال على الناس، والطلبات الزائدة عن الحاجة، وعن الحقد، والحسد، والعصيان، ففي حال كان سلوكه مرضياً لله تعالى في هذه الأمور، فإن معاناته وآلامه في الدنيا سوف تنقلب إلى سعادة أبدية في الآخرة.

❁

إن الأغنياء الكرماء وأهل الشكر، والفقراء الصابرين والمحافظين على كرامتهم وعفتهم متساوون في الشرف الإنساني والرضا الإلهي، ولكن الإسلام ذمّ الأغنياء المتكبرين وخسيسي الطبع، ومعه ذم أيضاً الفقراء الذين لا يصبرون لحالهم، ولا يظهرون الرضا بفقرهم فينجرفون إلى المعاصي والآثام، ولهذا، فإن الفقر والغنى واحد من الامتحانات الكبيرة التي يتعرض لها الإنسان في الحياة، وبسبب ذلك كان النبي ﷺ يقول في دعائه:

«**اللهم إني أعوذ بك... ومن شر فتنة الغنى وشر فتنة الفقر**» [١٢٨١]

وبالتالي، فالغني الحقيقي... من غلبت على أحواله القناعة والتوكل، والتسليم لأمر لله تعالى.

والخلاصة، إن الإنسان ميال بطبعه الخَلقي إلى الدنيا، نعم الدنيا جاذبة ومغرية للنفس، فمن ينخدع ببريقها لا يعرف الشبع والاكتفاء. وإذا ما انجرف الإنسان نحو المال يزداد جشعه، ويصير أكثر حرصاً وتمسكاً به، والإنسان الذي تعلق قلبه بالمادة والمال تضعف لديه مشاعر الرحمة والشفقة، ويصبح الإنفاق من أصعب الأمور لديه، وإن مثل هذا الإنسان شديد الحرص يُعتبر مريضاً نفسياً وروحياً، ومضطرباً بدنياً. فنفسه تقول له: «اعمل لتكون غنياً، وفي المستقبل ستفعل الكثير بنا في الخير! ». إلا أنه ينبغي عدم نسيان

١٢٨١. البخاري، الدعوات، ٤٥/ ٣٨٣٨.

المقولة الشهيرة «لقد هلك القائلون سأفعل غداً "، لأن كل أيام المستقبل عبارة عن شيء غيبي مجهول بالنسبة للإنسان.

وقد بين الله سبحانه وتعالى في القرآن الكريم الندامة والحسرة الأبدية التي تصيب الإنسان لحظة الموت، حيث يكون وكأنه مستيقظ من حلم عميق فقال:

﴿وَأَنْفِقُوا مِنْ مَا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [١٢٨٢]

ولأن ندم الإنسان وحسرته تكون بعد فوات الأوان في الحالة المشار إليها، فقد أمر الله تعالى في الآية نفسها إلى جانب بيان تلك الحقيقة، أمر العبد بالإنفاق من المال الذي رزقه به قبل أن يصل إلى تلك الحالة من الحسرة والندامة، وقد بين الله حالة الندامة التي سيقع فيها العبد يوم القيامة في آيات أخرى بشكل يدعو إلى الاعتبار ، حيث يقول الله تعالى:

﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا﴾ [١٢٨٣]

﴿يَوْمَ هُمْ بَارِزُونَ لَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ [١٢٨٤]

﴿وَلَوْ تَرَى إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُو رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ [١٢٨٥]

الأدب في الإنفاق:

الأدب في الإنفاق مهم جداً، وخاصة من المنفق، حيث ينبغي عليه الإحساس بالشكر والامتنان تجاه الذي أعطاه المال لقبوله أخذ الصدقةن وذلك لأن هذا الفقير قد أصبح وسيلة لأداء العبادة المالية والتي هي دين الشكر لله تعالى، وعمل على نيله الأجر والثوابن وفي نفس الوقت فإن الصدقات تشكل حاجزاً يحمي المتصدق من الأمراض والمصائبن وقد أبرز الله تعالى الأهمية الكبيرة لعبادة الإنفاق حيث قال تعالى على سبيل المجاز:

١٢٨٢. المنافقون: ١٠.

١٢٨٣. النازعات: ٤٣.

١٢٨٤. غافر: ١٦.

١٢٨٥. السجدة: ١٢.

﴿... أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ... ﴾ [١٢٨٦]

ويوضح القرآن الكريم الأدب الواجب التزامه في الإنفاق:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآَخِرِ...﴾ [١٢٨٧]

إن الآية الكريمة إلى جانب تشجيعها وتحريضها المؤمنين على عمل الخير والإحسان، فإنها مع ذلك تبين بصورة جلية وجوب مراعاة الأدب عند الإقدام على عمل الخير، وعليه فإن أعمال الخير التي تترافق مع كسرٍ لقلوب الفقراء واستحقارهم، وإيذاء لمشاعرهم، وإظهار الرياء، كلها لا قيمة لها عند الله سبحانه وتعالى، لأن القلوب محطّ الاعتبار الإلهي، يقول مولانا جلال الدين الرومي -رحمه الله-:

«أنفق أموالك، وأملاكك بشكل جميل، واكسب قلباً! ليكون دعاء ذلك القلب شمعة تضيء ظلام الليل الدامس في قبرك، ونوراً بين يديك!..».

ومرة يبين مولانا بكلامه المليء بالحكمة وجوب تجنب إيذاء وجرح قلوب المحتاجين والفقراء الذين يعتبرون وسيلة لإيفاء الأغنياء دين الشكر لله تعالى على نعمه، وهم بذلك نعمة كبرى للمنفقين، حيث يقول:

«الإنسان الفقير مرآة الكرماء، فاحذر من تلويث المرآة بالكلمات الجارحة للقلب! -أي كن بالغ الرقة تجاه قلوب الفقراء! لأن القلوب محط النظر الإلهي-».

«إن الفقراء هم مظاهر تجليات كرم الله تعالى، وأولئك الفقراء يرجعون إلى صاحب الكرم، ويشكون إليه همومهم وكدوراتهم، وبذلك يمهّدون للأغنياء ذوي الحميّة سبل السعادة، وإن من البركات الأخرى لدخول الأغنياء إلى قلوب الفقراء بأعمال الخير والإنفاق هي إنماء بذور الرحمة والمحبة في تلك القلوب المضطربة والمهمومة تجاه أنفسهم».

«وبهذه الحالة فإن الفقراء مرايا لكرم الحق سبحانه وتعالى، فالأغنياء يرون مكرماتهم في تلك المرايا، وكذلك غدا الأغنياء الفانون الصالحون انعكاساً للكرم الإلهي عندما

١٢٨٦. التوبة: ١٠٤.

١٢٨٧. البقرة: ٢٦٤.

أدركوا بأن الثروة التي بين أيديهم أمانة عندهم، وعرفوا أنفسهم تجاه ربهم وغدوا مرآة للجود الإلهي، وقد أخذوا نصيبهم من كرم الحق ففنوا في السخاء».

«إن ما عدا أصحاب الغنى الذين صانوا نفوسهم من أسر أموالهم القليلة أو الكثيرة وأبقوها خارج قلوبهم، هم سيؤوا الحظ وفقراء الآخرة، فهذا الصنف من الناس ليسوا على باب الحق سبحانه وتعالى، إن غناهم ظاهري، وهو مثل النقش والصور على الوجه الخارجي للباب».

«وإن هؤلاء الذين ابتعدت قلوبهم عن الله تعالى هم الفقراء والمساكين الحقيقيون، وأما غناهم الظاهري فهو نقش لا روح فيه، ورسم باهت لسوء حظهم وخسرانهم، إن هؤلاء أشخاص غائبون عن الحقيقة، ولا روح فيهم، فلا تظهر القرب إليهم! وإياك أن ترمي العظام لصورة الكلب!...».

«مثل هؤلاء الأشخاص هم أسرى المصالح وغائبين عن عطش الحق».

«كن حذراً، فلا تضع طبق الطعام أمام هؤلاء الموتى! أي لا تهتم بهم ولا تظهر القرب منهم! فهكذا أغنياء، سوف يتحولون يوم المحشر إلى متسولين أذلاء!».

«وأمثال هؤلاء دراوشة الخبز وليسوا دراوشة المعنى، إنهم يشبهون سمك اليابسة؛ وإن شابهوا السمك شكلاً، إلا أنهم يخشون من البحر ويلوذون بالهرب».

«إنهم يظنون السفالة سعادة، وبرأيهم السعادة هي تناول لذائذ الطعام، وتذوق حلو الأشربة، أما في الحقيقة، فإنهم محرومون من اللقمة الإلهية».

«يا من لا تودّ الوقوع في هذا الخسران المبين! احتضن بالكرم المخلوقات لتكن من العارفين...».

والأدب الأجمل في الإنفاق على الفقراء والذي يعد مرآة الكرم هو «أن لا تعلم اليد اليسرى ماذا أنفقت اليد اليمنى»، وهذا نوع من الأدب في الإنفاق الذي أصبح مضرب المثل للأمة جمعاء، وبحسب الحديث الشريف فإن الذين ينفقون بهذا الشكل هم ممن يظلّهم الله تحت عرشه يوم لا ظلّ إلا ظله.[١٢٨٨] ولتحقيق هذا الأمر فقد أنشأ أجدادنا أوقافاً كثيرة لا حصر لها، وقد تم تجنب الرياء أو إزالته كلياً بالإنفاق عن طريق

١٢٨٨. انظر: البخاري، الأذان، ٣٦.

الأوقاف، لأن الأموال تأتي من أشخاص غير معينين، فالمتلقي للإنفاق يدعو للمعطي من دون معرفة هويتهن وإن وقف السلطان محمد فاتح خير مثال على هذه الأوقاف، حيث يقول:

«أنا فاتح اسطنبول العبد الفقير والضعيف إلى الله تعالى السلطان محمد فاتح؛ أوقف دكاكيني البالغ عددها / ١٣٦/ دكاناً والتي ملكتها بعرق جبيني، أوقفها تحت الشروط الآتية:

... تحضير الطعام في المطعم الذي أمرت ببنائه وإنشائه في كليتي لزوجات الشهداء، واليتامى، وفقراء اسطنبول! وأما الذين يتعذر عليهم المجيء لتناول طعامهم أو أخذه، فليوضع طعامهم في علبٍ مغلقة بعد حلول الظلام ويؤخذ إلى بيوتهم خفية عن الأعين!...».

فكما يتبين في الوقفية، فقد وضع السلطان محمد فاتح قواعد لأرقى أنواع الأدب في الإنفاق من أجل حماية الأفراد المحتاجين في المجتمع. وكذلك أفراد مجتمع السلطان الذين غمرهم مثل هذا الأدب كانوا يضعون زكاة أموالهم في مظاريف ويودعها في أحجار الزكاة الموضوعة في المساجد، فيأخذ منها المحتاجون والفقراء بقدر حاجتهم ودون رؤية المتصدقين وأصحاب الأموال.

ومن جانب آخر، فإن من الأهمية بمكانٍ الإنفاق على المتعففين الذين تأبى عليهم عزتهم وكرامتهم عرض أحوالهم الضيقة على الناس، ويقول الله تعالى بشأن هؤلاء في كتابه العزيز:

﴿لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ. الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [١٢٨٩]

❁

١٢٨٩. البقرة: ٢٧٣-٢٧٤.

إن الهدف الأساسي للدين بعد الإيمان بالله تعالى، هو تربية إنسان يتمتع بالرقة وعمق التفكير والإحساس بالمسؤولية، ومن ثم تأسيس مجتمع مطمئن يسوده الهدوء والتفاهم، وإن تحقيق مثل هذا المجتمع المتكامل يكون بالإنفاق والزكاة اللذان يعدان المظهر الرائع لبروز مشاعر الرحمة والشفقة في القلوب، وإن قلب المؤمن بحقٍ ينبغي أن يحتضن جميع مخلوقات الله تعالى بالشفقة والرحمة.

إننا نعيش في ملك ربنا سبحانه وتعالى، ونُرزق بنعمه التي لا تعد ولا تحصى، ألا يتفكر المهملون لعبادات المال «الزكاة والصدقات» لمن هذه الأموال، وممن يُرزقون؟

إن نتيجة المحبة التضحية والفداء، وإن المحب يفتدي محبوبه بقدر محبته ويضحي من أجله بكل ما هو غالٍ وثمين لديه بشعورٍ من الرضا والمسؤولية. وإن هذا العاشق على استعداد لتقديم روحه في سبيل معشوقه، وهذا الإنفاق على مخلوفات الله تعالى من أجمل مظاهر محبة المحب لمحبوبه، لأنه قد ورد في القرآن الكريم أن الله تعالى هو الذي يأخذ الزكاة والصدقات التي يقدمها المؤمنون في سبيله، حيث يقول الله تعالى:

﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ...﴾ [١٢٩٠]

اللهم يا مالك الملك! اجعل عوالم قلوبنا خزائن لا تفرغ من مظاهر الرحمة، والشفقة، والإنفاق في سبيلك!

آمين!

١٢٩٠. التوبة: ١٠٤.

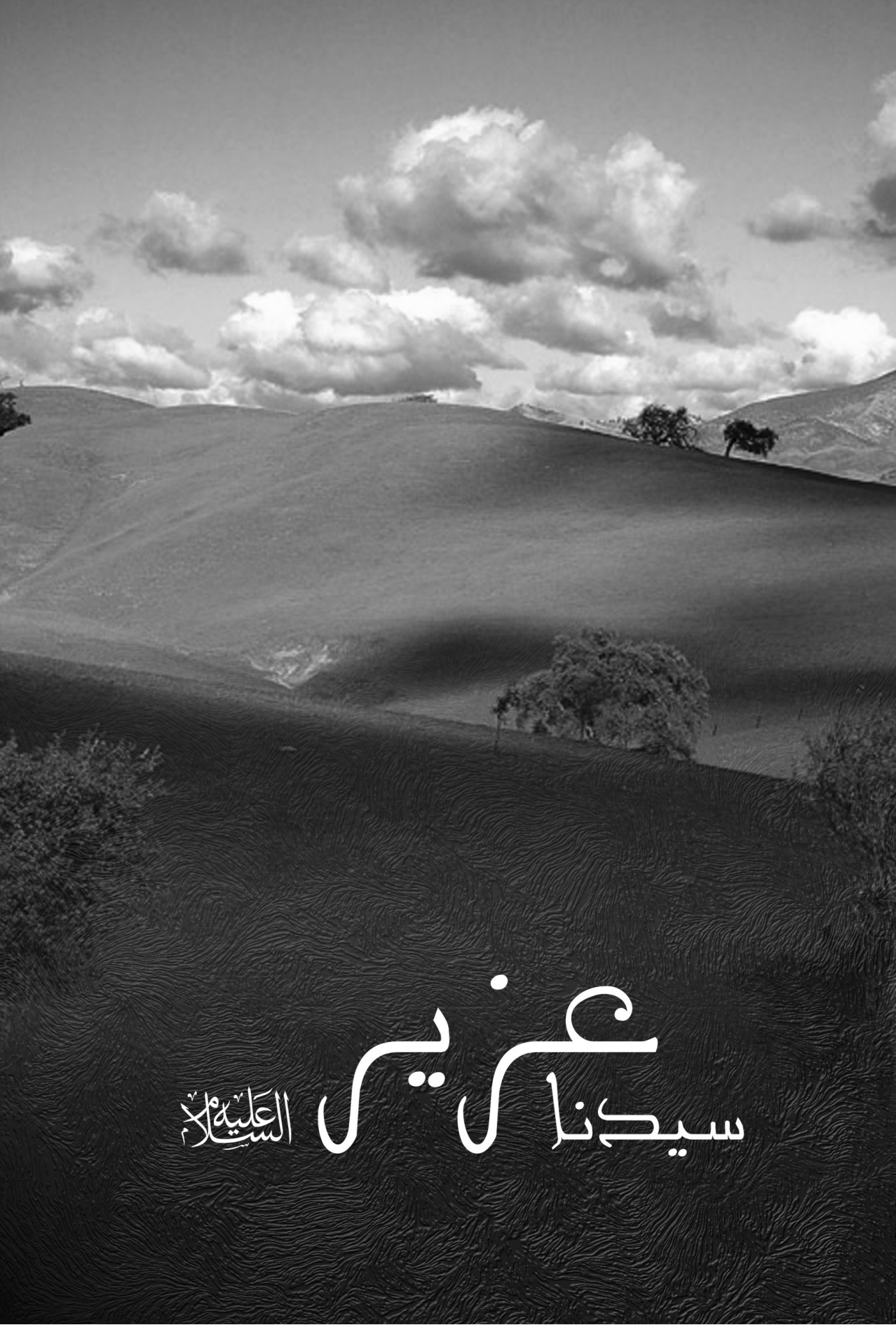
سیدنا عزیر علیہ السلام

سيدنا عزير عليه السلام
الذي بُعث بعد مائة عام من وفاته،
وأصبح مثال البعث من جديد يوم القيامة

هو من نسل هارون عليه السلام.

وواحد من المعدودين الذين حفظوا التوراة عن ظهر غيب، ويُعرف من قبل اليهود بـ «عزرا».

لا يوجد في القرآن معلومات قاطعة تؤكد أو تنفي نبوة سيدنا عزير عليه السلام، وهكذا فإن النبي ﷺ يقول أيضاً:

«... **وما أدري أعزير نبي هو أم لا!**» [١٢٩١]

وقد ورد ذكر عزير في القرآن الكريم على أن الله تعالى أماته مائة عام ثم أحياه من جديد، ولم ترد أية معلومات أخرى بشأنه في كتاب الله ﷻ.

وفي عهد عزير عليه السلام ابتلى الله تعالى بني إسرائيل الذين ازدادت انحرافاتهم ومجونهم، ابتلاهم ببختنصر، فاستولى بختنصر على مناطق الأردن والشام، وهدم المسجد الأقصى، ودمّر البساتين والحدائق، وقتل الضعفاء بدم بارد، وأما الشباب ومن رآهم صالحين للاستخدام في الأعمال فأسرهم واصطحبهم معه، وكان عزير عليه السلام من بين هؤلاء الأسرى.

وحسب الروايات تمكّن عزير من الإفلات من الأسر والهروب عندما كان في الخمسين من عمره، فركب حماراً وشقّ طريقه مباشرة باتجاه القدس. وعندما اقترب من القدس أصابه حزن عميق لرؤيته تلك الأبنية المهدمة، والبساتين التي أصابها الفساد

١٢٩١. أبو داود، السنة، ١٤ / ٤٦٧٤.

والخراب، ولأن الجوع قد بدأ يشتد عليه، نزل عن حماره وربطه إلى شجرة، ومن ثم جمع بعض التين وأكله، وعصر بعض العنب وشرب ماءه، وبعدها جلس تحت ظل شجرة ونظر إلى البلاد المدمرة، والأبدان البالية، والعظام المتناثرة نظرة اعتبار، وتفكَّرَ بقدرة الله سبحانه وتعالى، وبينما كان يتساءل في نفسه عن كيفية بعث هؤلاء الأموات من جديد إلى الحياة، غط في نوم عميق.

يقول الله تعالى في هذا الشأن:

﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَلْ لَبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانْظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانْظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ وَانْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنْشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [١٢٩٢]

عندما نام عزير كان الوقت صباحاً، ولما أفاق لم تكن الشمس قد غربت، ولكن الوقت الذي مضى على نومه كان مائة سنة، وخلال هذه الفترة كان بختنصر قد مات وأما الأسرى فقد أخلي سبيلهم ورجعوا إلى القدس، وكان المسجد الأقصى قد أُعيد بناؤه، وعمرت المدينة كلها من جديد.

وبعد هذه التجليات التي تحققت وظهرت له، ركب حماره واتجه إلى القدس، وعندما دخلها وجد كل شيءٍ متغيراً، فلم يكن الناس هم الناس الذين عرفهم، ولا الأبنية هي تلك التي عهدها، فبدأ بالبحث عن حيه على وجه التقريب، فوقف امام أحد البيوت، وقال لامرأة عمياء وكسيحة رآها أمام البيت سائلاً:

- أين بيت عزير؟

فأجابت المرأة بحزن شديد:

- إن هذا هو بيت عزير، ولكنه فُقد منذ مائة عام، وأنا جاريته!،

١٢٩٢. البقرة: ٢٥٩.

قال عزير: أنا عزير!

فعرّفها عن نفسه، وروى لها ما جرى عليه من أحداث.

سُرّت الجارية برجوعه، وطلبت منه الدعاء لها لتعود إلى حالتها السابقة، فشكر عزير ربه سبحانه وتعالى على النعم التي أسبغها عليه ودعاه من أجل المرأة، فاستعادت المرأة صحتها وعادت إلى حالتها السابقة.

عندما مات عزير عليه السلام كان له ولدٌ في الثامنة عشر من عمره، وأصبح الآن بعد بعثه عجوزاً بلحيةٍ بيضاء وعمره مائة وثمانية عشر عاماً. وأما والد هذا العجوز عزيرٌ فقد كان في الخمسين من عمره، ولم يتمكن الولد من التعرف على أبيه، وقال:

- لقد كان على ظهر أبي شامة سوداء على شكل الهلال!

ولما كشفوا عن ظهر العزير ونظروا إليه وجدوا تلك الشامة السوداء بشكل الهلال على ظهره، ولم يبق لدى أحد شبهة بأن هذا الرجل هو العزير عليه السلام.

وعندما احتلّ بختنصر القدس ونهبها، كانت كل نسخ التوارة قد أحرقت وأتلفت، ولذلك فإن عزير عليه السلام عمل على إحياء الدين من جديد.

وحسب رواية ابن عباس رضي الله عنه، أن الله تعالى لما رأى أن بني إسرائيل قد تركوا التوراة وتعاليمها واتبعوا أهواءهم وآراءهم، سلبهم الصندوق "التابوت" الذي بداخله التوراة، وأنساهم التوراة ونسخها من صدورهم، وأصاب بني إسرائيل حزن وهمّ شديد من جراء هذا الأمر. وخاصة العزير الذي عبد الله كثيراً ولجأ وتوسل إلى الله بأن يعيد إليهم التوراة، وبينما هو قائم يصلي ويدعو الله عز وجل نزل نور من الله فدخل جوفه، وعاد إليه الذي كان قد ذهب من جوفه من التوراة فتذكرها كلها، فنادى القوم من بني إسرائيل وعلمهم من جديد، وبعد ذلك تم العثور على الصندوق الذي بداخله التوراة، ولما وجد بنو إسرائيل أن التوراة التي علمهم إياها العزير مطابقة للنسخة التي بداخل الصندوق ازدادت محبتهم وثقتهم أكثر بعزير عليه السلام.

وبعد كل هذه التجليات الكبيرة انزلق قوم بني إسرائيل إلى عقائد باطلة، ووصل بهم الأمر أن ادعوا بأن العزير «ابن الله».[١٢٩٣]

١٢٩٣. الطبري، جامع البيان، ١٠، ١٤٣.

ويقول الله تعالى بهذا الشأن في كتابه العزيز:

﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ. اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [١٢٩٤]

وعلى الرغم من أن اليهود اليوم لا يقبلون بدعوى أن العزير عليه السلام "ابن الله"، إلا أن قسماً من اليهود في ذلك العصر أفرطوا كثيراً في تعظيم وتقديس العزير، ووصل الأمر ببعضهم أن وصفوه بأنه "ابن الله".

١٢٩٤. التوبة: ٣٠-٣١.

البعث بعد الموت:

البعث بعد الموت: هو العودة إلى الحياة التي لا موت فيها بعد الموت في الحياة الدنيا، وهو رحلة الروح نحو الخلود الأبدي، يُمضي الإنسان من الناحية الجسدية عمره أولاً مدة من الزمن كعنصرٍ طبيعي في التراب، ثم ينتقل بعدها إلى صلب أبيه فترة من الزمن، وبعد ذلك يستقر في رحم أمه ويبقى في بطنها مدة معينة، ثم ينتقل إلى الحياة بين ذراعي أبيه وأمه، ويتابع حياته مدة من الزمن في قلب الأبوين، وبعدها يودّع مهد الدنيا إلى مهد القبر ليبدأ رحلته الأبدية من القبور إلى يوم القيامة والحشر، ومن ثم ليستقر به المقام إما في الجنة، أو الجحيم.

وقد تكرم الله سبحانه وتعالى على القلوب السميعة البصيرة بجملة من المعجزات والدلائل الإلهية التي توقظ العباد من غفلتهم، وتشدهم إلى عالم الحقيقة ليتداركوا تقصيرهم في أداء واجب العبودية تجاه ربهم ﷻ، إلى جانب هذه الدلائل التي لا حصر لها، وبخاصة فيما يتعلق بحقيقة البعث بعد الموت فقد وضع الله سبحانه وتعالى أمام أعين العباد في القرآن الكريم وفي المنظومة الدقيقة للكون تجليات قدرته العظيمة المليئة بالاعتبار والتي تنبه إلى تلك الحقيقة.

وقد ذكر الله تعالى في القرآن الكريم قصة العزير عليه السلام وقصة أصحاب الكهف المليئة بالحكمة والعبرة، من أجل تقريب حقيقة البعث بعد الموت إلى مدارك البشر وعقولهم، فجعلهما مثلين للإحياء بعد الموت.[١٢٩٥]

إن هذه الأمثلة الإلهية تحتوي على حقائق تقود القلوب إلى الكمال وتقربها من الحق سبحانه وتعالى، فتصل بها إلى مرتبة «**القلب السليم**».

أصحاب الكهف:

أصحاب الكهف، هم شباب صالحون دافعوا عن عقيدة التوحيد والإيمان بالله، عاشوا في عهد حكم الملك الوثني دقيانوس في مدينة طرسوس.

١٢٩٥. ومن الأمثلة الأخرى المذكورة في القرآن الكريم والتي تدور حول حقيقة النشور بعد الموت حادثة إحياء الطيور التي ذكرت في سورة البقرة، في الآية ٢٦٠.

ولم يرد في القرآن الكريم ذكر عدد أصحاب الكهف بشكل صريح، وإنما قال الله تعالى في هذا الخصوص: ﴿**إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ**﴾ هذا لأن الهدف الأساسي الذي يراد الوصول إليه من ذكر قصتهم في القرآن الكريم ليس عددهم، ولا أسماؤهم، ولا البلاد التي عاشوا فيها، وإنما العبرة هي إظهار كون أعمال القلب هي التي رفعت من قيمة أولئك العباد الصالحين عند الله تعالى، وأكسبتهم مشاعر الإحسان، إن هذه القصة مليئة بالحكم والعبر التي تعرِضُ قضية الدفاع عن التوحيد والإيمان في مواجهة الوثنية والشرك، وتمثل أيضاً نموذجاً ملموساً لحقيقة البعث بعد الموت، وهكذا فإن هذه القصة يراد بها إدراك بني آدم لكثير من الحقائق الإلهية، وليس لمجرد رواية أحداث قصصية.

لقد كان هؤلاء الفتية أي أصحاب الكهف من المقربين للملك دقيانوس، ولأنهم اعتنقوا عقيدة التوحيد فقد كانوا يدعون الله تعالى ويبكون على أعتابه متضرعين إليه على الدوام لأن يرفع ظلم هذا الملك الوثني عن عاتق العباد، ويضع حداً لطغيانه، إلا أن الملك نتيجة لغروره واسكتباره أصبح إلحاده وظلمه يزداد يوماً بعد يوم، ووصل به الأمر أن ادعى الألوهية لنفسه على الناس، ولم يقف عند هذا الحد فقط، وإنما أمر بإلقاء القبض على كل من يدين بعقيدة التوحيد وإيقاع أشد أنواع العذاب بهم، فبدأت حملة كبيرة للإمساك بالمؤمنين.

وفي هذه الأثناء، علم بأن أصحاب الكهف المقربين إليه هم أيضاً من المؤمنين، فأمر بحزم إحضارهم إليه، ووجه إليهم تهديداً شديداً، ولأنهم وصلوا إلى نشوة الإيمان الأبدية فلم يعرف الخوف من تهديدات الملك طريقه إلى قلوبهم ووقفوا في وجه الملك الظالم، ولم يترددوا عن قول الحقيقة في وجهه.

وقد بين الله ﷻ أحوالهم في القرآن الكريم حيث يقول الله ﷻ:

﴿**نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُمْ بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى. وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَنْ نَدْعُوَ مِنْ دُونِهِ إِلَهًا لَقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا**﴾ [١٢٩٦]

١٢٩٦. الكهف: ١٣-١٤.

﴿وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيُهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مِرْفَقًا﴾ [١٢٩٧]

قال أولئك الفتية في حق عبادة الأوثان ومواجهة طلب دقيانوس الملحِّ عليهم بترك عقيدة التوحيد:

- نحن لنا ربٌّ نعبده، ولا نعرف إلهاً غيره، ولن نترك عبادة رب السموات والأرض أبداً لنعبد قطعاً من الحجارة التي لا روح فيها ويصنعها العباد بأيديهم، ولا مجال مطلقاً لاحتمال استجابتنا إلى ما تدعونا إليه! فاحكم علينا بما بدا لك!.

وهكذا فإنهم أظهروا قوةً وأصالة في الإيمان في مواجهة جبروت الملك الظالم دقيانوس، تشبه في ذلك القوة الإيمانية التي أبداها السحرة الذين تحدّوا بسحرهم في البداية موسى عليه السلام ومن ثم تشرّفوا بنعمة الإيمان وواجهوا فرعون.

فالسحرة بعد أن تشرفوا بنعمة الإيمان، قالوا في مواجهة تهديد فرعون لهم:

- إنك بعملك لن تضرنا بشيء! لأننا في كل الأحوال سوف نرجع إلى ربنا سبحانه وتعالى! فافعل بنا ما شئت!.

لقد اشتد غضب وغيظ الملك دقيانوس كثيراً في مواجهة هذه الشجاعة والجرأة النادرة لهؤلاء الشبان المؤمنين، وجردهم من كل الرتب والميزات التي كان قد أعطاهم في السابق، وبعدها قال لهم مهدداً:

- إنكم ما زلتم في ريعان شبابكم، فلا تخسروا أنفسكم! وإني أمهلكم ثلاثة أيام لتعودوا عن فعلتكم! ففكروا، وتشاوروا، وقلبوا الأمور على جميع وجوهها، ولننظر أتختارون النجاة، أم إهلاكي لكم؟ وبعد ذلك تركهم على حالهم وذهب إلى نينوى.

لقد أصبحت المهلة التي أعطاهم إياها الملك بمثابة لطف الله تعالى ورعايته لأصحاب الكهف، إذ أنعم عليهم بوقت ثمين للنجاة من شر ذلك الملك الظالم، أخذ هؤلاء الفتية الواثقون برحمة الله تعالى ونصره معهم كلبهم الذي أصبح واحداً منهم

١٢٩٧. الكهف: ١٦

وهربوا من المدينة، فاختبؤوا في مغارة. وصاروا يقتاتون على الطعام الذي جلبوه معهم من بيوتهم، وهم يعبدون الله سبحانه وتعالى ويلتجؤون إليه ليل نهار في تلك المغارة، ويتضرعون إليه:

﴿... رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾ [١٢٩٨]

وحسب الروايات فقد كان النبي ﷺ يلتجئ إلى الله تعالى بهذا الدعاء عندما اختبأ في غار ثور أثناء هجرته إلى المدينة المنورة.

وقد أحيط أصحاب الكهف بنصرٍ مملوءٍ بالرحمة الإلهية بفضل أعمالهم الصالحة، وإخلاصهم، وبركة هذا الدعاء الذي توجهوا به إلى الله ﷻ. وخلال ذلك عاد الملك دقيانوس من نينوى واطّلع على أخبارهم وأحوالهم، فخرج من فوره يقتفي أثرهم ولم يطل به الوقت حتى عثر على المغارة التي يختبئون فيها، وبينما هو يفكر بعقوبة قاسية ينزلها بهم، ألهم الله تعالى عقله بأن يسدّ على الفتية باب المغارة، فلم يطل التفكير وقال لجنوده آمراً:

- أغلقوا مدخل المغارة في الحال! فليموتوا من الجوع والعطش؛ ولتكن المغارة قبراً لهم!

وهكذا، وحسب اعتقاده أنه دفنهم في المغارة أحياءاً. ولكنه لم يكن يعلم بأن الله تعالى الذي حمى موسى عليه السلام من شر فرعون بتنشئته وتربيته في قصره، قادر على حماية أصحاب الكهف من شر دقيانوس.

فهو تعالى «خير الحافظين» فأحاط أصحاب الكهف برحمته التي وسعت كل شيء، وضرب على آذانهم نوماً دام / ٣٠٩/ سنين وهم أحياء.

يقول مولانا جلال الدين-رحمه الله-:

«النوم أولى من البقاء بين الغافلين إن كانت غفلتهم ستنعكس على المرء، إذ أن الله سبحانه وتعالى حفظ قلوب أصحاب الكهف من الغفلة بإبعادهم عن الفاسقين».

يقول الله ﷻ في كتابه الكريم عن حالة أصحاب الكهف في المغارة:

١٢٩٨. الكهف: ١٠.

﴿وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَتْ تَزَاوَرُ عَنْ كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَتْ تَقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِنْهُ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا. وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ وَكَلْبُهُمْ بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا﴾ [١٢٩٩]

ولما أيقظ الله ﷻ أصحاب الكهف من نومهم ظنّوا أنهم لم يلبثوا في نومهم إلا وقتاً قصيراً، تُبين الآية الكريمة حالهم:

﴿وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَامًا فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا. إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَنْ تُفْلِحُوا إِذًا أَبَدًا﴾ [١٣٠٠]

فاتجه أحدهم نحو المدينة ليجلب لهم طعاماً وشراباً يُسكتوا به جوعهم الذي بدؤوا يشعرون به بعد هذا النوم، ولما رأى أهل المدينة النقود بين يدي الشاب والتي تعود إلى عصورٍ قديمة خلت ظنوا أنه قد وجد كنزاً في الأرض، فشكوه إلى الحاكم.

وكان حاكم ذلك العصر رجلاً صالحاً، دائم النصح والإرشاد لمن حوله، ويدعوهم باستمرار إلى ديانة التوحيد، ويحدث عن "البعث بعد الموت"، أي عن أسرار النشور والعودة إلى الحياة من جديد بعد قيام الساعة، إلا أن الجاهلين من أتباعه كانوا ينظرون إلى النشور والعودة إلى الحياة بعد الموت بعين الريبة والشك، فلم يصدقوا هذا الحديث بشكل ما، وكان الملك يتجه إلى الله تعالى بحزن، ويدعوه متوسلاً:

«يا رب! أظهر لهؤلاء القوم تجلياً بشأن الحقيقة التي ينكرونها علي!».

وعندما أبصر بالفتى الذي من أصحاب الكهف ماثلاً أمامه، استبشر من الفرح وأعلنه على الملأ من حوله لأن التجلي الذي سأل ربه عنه قد تحقق ورآه القوم بأمّ أعينهم، فحمد

١٢٩٩. الكهف: ١٧-١٨.

١٣٠٠. الكهف: ١٩- ٢٠.

الله تعالى وشكره على هذه النعمة، وبعدها خرج متجهاً إلى أصحاب الكهف لزيارتهم، وبعد ذلك قبض الله ﷻ أرواح أصحاب الكهف الطاهرة.

ولقد تمّ تكريم أصحاب الكهف في القرآن الكريم بشكل مبارك لثباتهم على الإيمان ومواجهة الظلم، ولأنهم لم ينحرفوا عن صراط الله المستقيم وهجروا بلادهم وبيوتهم في سبيل ذلك، وهكذا فقد جرت تسمية السورة التي وردت فيها قصتهم بصفة هؤلاء الفتية، فأطلقت عليها تسمية «سورة الكهف».

وقد وردت قصص أخرى ذات أهمية بالغة في هذه السورة بجانب قصة أهل الكهف، وإن في إطلاق تسمية «الكهف» عليها إشارة إلى الأهمية الخاصة التي تتميز بها هذه القصة.

وقد قال النبي ﷺ في فضل سورة الكهف:

«من قرأ سورة الكهف ليلة الجمعة، أضاء له من النور فيما بينه وبين البيت العتيق» [١٣٠١]

ولأن هذه السورة تحتوي على مواضيع بالغة الأهمية، من التي يجب تذكرها على الدوام مثل موضوع الدفاع عن الإيمان والثبات عليه، وقضية البعث بعد الموت، وقصة موسى والخضر عليهما السلام، والكثير من التجليات الإلهية العظيمة الدالة على قدرته، فقد أوصى النبي عليه الصلاة والسلام بتلاوته كل جمعة.

ومن جهة أخرى ومما يلفت الانتباه، أن الكلب الذي كان بصحبة أصحاب الكهف قد نال نصيباً من اللطف الذي كان مظهراً لحال أولئك. وحسب ما بينه المفسرون، فإن كلب أصحاب الكهف "قطمير"فرغم كونه كلباً فإنه سوف يدخل الجنة ببركة صحبته للصادقين، وحراسته باب المغارة لهم بصدق وإخلاص.[١٣٠٢]

يقول مولانا جلال الدين- رحمه الله-:

«لأن ذاك الكلب قد اختار حراسة أصحاب الكهف بصدقٍ وإخلاص فإنه قد شرب من ماء الرحمة الإلهية أمام الكهف بدون أوانٍ ولا قدور. وقد كسب حق الدخول إلى الجنة بصحبتهم».

١٣٠١. الدرامي، فضائل القرآن، ١٨/ ٣٤٥٠؛ السيوطي، الجامع الصغير، ١، ٨٩/ ٦٤٧١.

١٣٠٢. انظر: حقي بصروي، روح البيان، V، ٢٢٦.

ويقول الشيخ سعيد رحمه الله تعالى:

«لأن امرأة لوط عليه السلام كانت مع الفاسقين فقد فقدت مستواها، وفسقت، أما قمطير "كلب" أصحاب الكهف، فلأنه حرس الصالحين فقد تخلّص من صفته الكلبية وكسب وصف الإنسان».

❁

وفيما يبين الله سبحانه وتعالى من جهةٍ في قصة أصحاب الكهف، الحِكَم المتجلية بشأن تنويم الفتية مدة / ٣٠٩ / سنين بدون طعام، ولا شراب وهم أحياء، يشير من جهة أخرى إلى سهولة هذا الأمر بالنسبة إليه عندما يقول الله ﷻ:

﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا﴾ [١٣٠٣]

وذلك لأن الله تعالى مالكٌ وخالقٌ لتجلياتٍ أكبر مما حصل لأصحاب الكهف بكثير، إنه الذي يوجِد من العدم، وهو المحيي والمميت بيده الأمر وهو على كل شيءٍ.

إن الإنسان يُدرك بالتجليات اليومية وجوده وحقيقة موته، ولكي يفهم النشور أيضاً فإن الله تعالى يبين له في كتابه الكريم القصص التي تتحدث عن النشور وإلى جانب آيات القصص يورد الله سبحانه وتعالى آيات مليئة بالحكم والمواعظ القلبية والعقلية والتي تذكِر الإنسان بحقيقية "البعث بعد الموت"، وبعظمة وقدرة الخالق ﷻ، ومن هذه الآيات قول الله تعالى:

﴿أَوَلَمْ يَرَ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ. وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ. قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ [١٣٠٤]

﴿أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَلَّنْ نَجْمَعَ عِظَامَهُ. بَلَى قَادِرِينَ عَلَى أَنْ نُسَوِّيَ بَنَانَهُ﴾ [١٣٠٥]

﴿أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى﴾ [١٣٠٦]

١٣٠٣. الكهف: ٩.

١٣٠٤. يس: ٧٧-٧٩.

١٣٠٥. القيامة: ٣-٤.

١٣٠٦. القيامة: ٤٠.

ويدلّل الله تعالى في آيات أخرى على بساطة بعث الأموات وعدم صعوبتها عليه بأمثلة من النظام الكوني والدنيوي، ويحث أصحاب العقول والقلوب السليمة إلى التفكير والتدبر، إذ يقول:

﴿زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [١٣٠٧]

﴿وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا. ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا﴾ [١٣٠٨]

﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [١٣٠٩]

﴿فَانْظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَلِكَ لَمُحْيِ الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [١٣١٠]

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى بَلَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [١٣١١]

﴿قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا. أَوْ خَلْقًا مِمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرِيبًا﴾ [١٣١٢]

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى الظَّالِمُونَ إِلَّا كُفُورًا﴾ [١٣١٣]

١٣٠٧. التغابن: ٧.
١٣٠٨. نوح: ١٧-١٨.
١٣٠٩. الأعراف: ٥٧.
١٣١٠. الروم: ٥٠.
١٣١١. الأحقاف: ٣٣.
١٣١٢. الإسراء: ٥٠-٥١.
١٣١٣. الإسراء: ٩٩.

ويشير الله ﷻ في الآية الآتية بصورة رائعة إلى أن مثل الموت والبعث كمثل نومنا في الليل ونهوضنا منه في الصباح، فيقول تعالى:

﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَى أَجَلٌ مُسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [١٣١٤]

كما ذكرت الآيات الكريمة فإن انقلاب النهار إلى الليل، وعودة الليل إلى نهار، ودوران الكواكب حول بعضها البعض في الفضاءات المحيطة بعالم الدنيا، وفي الوقت نفسه دورة الحياة والموت التي تحدث في محاصيل الأرض وغيرها من المظاهر الأخرى كل ذلك يعتبر مذكراً بحقيقة النشور في يوم القيامة، أي "البعث بعد الموت"

وقد قدم الله تعالى لعقل الإنسان وإدراكه في آيات كثيرة أدلة واضحة وصريحة وبطرق مختلفة لا تدع مجالاً للشك أو الريب في القلب حول حقيقة البعث والنشور بعد الموت، حيث يقول الله ﷻ:

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ. ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِ الْمَوْتَى وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ. وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ﴾ [١٣١٥]

❁

إن الصفحة الأولى "للبعث بعد الموت" تبدأ بالنفخة الأولى في الصور. فيموت الجميع نتيجة هذه النفخة، وبالنفخة الثانية في الصور يتحقق "البعث بعد الموت" بالشكل العملي.

١٣١٤. الأنعام: ٦٠.

١٣١٥. الحج، ٥-٧.

ويبين الله تعالى هذه الحقيقة بالتصوير القرآني، حيث يقول:

﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ﴾ [١٣١٦]

ويصور لنا البيان الإلهي حالة الهلع والحيرة التي تصيب الناس الذين يُحيون في ذلك اليوم «البعث بعد الموت» وأهوال المحشر، وما يجري فيه من أحداث في الآيات الآتية:

﴿يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَى نُصُبٍ يُوفِضُونَ. خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ذَلِكَ الْيَوْمُ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ﴾ [١٣١٧]

﴿فَيَوْمَئِذٍ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَعْذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ [١٣١٨]

﴿هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا﴾ [١٣١٩]

﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ. وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ. وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ. لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ. وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُسْفِرَةٌ. ضَاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ. وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ. تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ. أُولَئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ﴾ [١٣٢٠]

﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ. وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [١٣٢١]

❁

١٣١٦. الزمر: ٦٨.

١٣١٧. المعارج: ٤٣- ٤٤.

١٣١٨. الروم: ٥٧.

١٣١٩. الكهف: ٤٤.

١٣٢٠. عبس: ٣٤—٤٢.

١٣٢١. آل عمران: ١٠٦- ١٠٧.

ألا يتفكر الإنسان الذي يتمتع بالنظرة والمحاكمة السليمة للأمور بأن كل شيء في هذا الكون، من انفلاق حبة إلى جنان الربيع، ومن الولادات إلى الأموات، ومن عالم الميكروبات المجهرية إلى عالم المشاهدات، ومن الذرات إلى الأجرام محتواة كلها بالشكل الذي يتلائم معها، وضمن نظام لا يُجارى تسير جميعاً حتى يوم القيامة بتماسك وانسجام دائم متناه في الدقة، وهل أوجد خالق هذا الانسجام الإنسانَ في هذا الكون الذي يعجز عقل البشر عن إدراك نظامه المتكامل وداخل الملك الإلهي، هل أوجده عبثاً ومن غير حكمة؟.

ويقول الله تعالى في ذلك:

﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ...﴾ [١٣٢٢]

﴿أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى﴾ [١٣٢٣]

ما أغرب استغراق الإنسان في غفلته وتجاهله للحقائق والحكم الإلهية العظيمة في الوقت الذي تعبر فيه كل ذرة في الكون، وكل حرف في القرآن، وكل خلية في الإنسان، تعبر بلسان حالها بأنها لم تُخلق هباءً وعبثاً!

للأسف، فما عسى أن يقدم النائمون للنائمين مثلهم من منافع؟ وهل دنيا أهل الغفلة أكثر من لعبة «الاختباء» للأطفال الصغار حيث يربطون على أعينهم ويتظاهرون بالاختفاء عن بعضهم؟

إن أصحاب البصائر العمياء عن الحقيقة قد اعترضوا واحتجوا على الأنبياء والأولياء الذين مدوا إليهم أياد الإنقاذ والخلاص لأنهم قد وقعوا ضحية أهوائهم النفسية، وانغمسوا في شهواتهم البهيمية، وعملو على إنشاء وعمارة عالم خيالي داخل حدود عقولهم المغلقة بعيداً عن حقيقة الموت وانشغلوا في هذا العالم الخيالي بالملهيات الفارغة.

إنهم مثل الذباب الذي ينشأ ويتغذى على النفايات والترسبات، يعيشون في هذه الدنيا المليئة بالتعاسة والظلام بأجسادهم التي تبدو أنها حاملة للأموات الأحياء

١٣٢٢. المؤمنون: ١١٥.

١٣٢٣. القيامة: ٣٦.

معتقدين بأنها هي السعادة المنشودة ثم يهجرونها. وكم من ضغاة متجبرين لا تعرف ظهورهم التراب اختطفتهم أيادي الموت بلمحة بصر فأصبحوا جثثاً هامدة ممدة على الأرض!..

أما أصحاب القلوب التي تخلّصت من ألاعيب الدنيا وبريقها ودخلت إلى عالم القلب، فإن الموت بالنسبة لهم يُعتبر لحظة الولادة للحياة الحقيقية، فالموت انتقال من عالم الظلال إلى العالم الأصل.

إن كان يُتطلّب منا الهرب والخوف من الموت، فيجب أن نرتجف ونضطرب عند اقتراب الليالي، بينما في الواقع أننا عندما نغرق في أسرار الليالي لا نحمل في قلوبنا الخوف، لأن حلول الصباح قاعدة خَلقية، ونظام إلهي.

وعلى ذلك، يتطلب منا النظر إلى القيام من حضن الموت كأمر طبيعي مثل الاستيقاظ من النوم في الصباح، ويبين الله لنا بشكل رائع بأننا قريبون في كل لحظة من هذا الامتداد الزمني من الصباح الحقيقي، أي الموت، وذلك في قوله تعالى:

﴿وَمَنْ نُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ﴾ [١٣٢٤]

يقول أحد المتفكرين العارفين:

«الدنيا بالنسبة لذوي العقول مشاهدة للمحاسن، -شعور وتلذذ بشهود التجلي الإلهي، وبديع نظمه وصنعه-، أما الدنيا بالنسبة للحمقى فهي عبارة عن طعام وشهوات».

إن لا مبالاة ابن آدم بسنين عمره التي تسير مثل عربة قد تعطلت مكابحها، وبعواصف الأجل التي تقترب منه، وبمظاهر خريفه الذي يلوح في الأفق، ومشاهدة هذا الكون الفسيح ببلادة على أنه هيكل بسيط التركيب وسهل التكوين، وطرقه على أبواب من حديد في سبيل رغباته وطموحاته الفانية، وهربه وخوفه من أحداث الرحلة الأرضية التي سيدخل في أحضانها، ومتابعة حياته بالقلق والانشغال بالمادة والملذات الجسدية إلى أية درجة تأتلف وتليق بالشرف والكرامة الإنسانية التي متعه الخالق بها.

إن الإنسان الذي يُعد خلاصة الكتاب الكوني، وفاتحته، وتجليات كل أسمائه والذي يتغذى في هذا النظام على الغذاء المادي، والروحي، والمعنوي، أليس هو النسخة

١٣٢٤. يس: ٦٨.

الكبرى للخلق وزبدته الكاملة؟ وأليس الكفن الذي هو اللباس والبضاعة الأصلية لسوق الحياة، هو نفسه الذي يضع نقطة النهاية لكل هذا التسوق الكوني الفاني ويبطله؟

إن العيش في هذه الحياة التي تشبه سحابة الصيف العابرة دون هاجس وانشغال بالتفكير في الآخرة، أليس مثل تصور نهارٍ بدون ليل؟

يقول الله تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ﴾ [١٣٢٥]

عندما ينظر الإنسان إلى نفسه وإلى المنظومة الكونية بعين الاعتبار والتدبر، يجد نفسه مضطراً لإعادة التفكير بكيفية العيش في حياته الدنيوية. إنّ حدث الموت هو الحقيقة الأكثر ارتباطاً بالحياة، وهو الذي يضطر الإنسان لإحياء حياته وفق الغايات العلوية السامية، ذلك الوداع المهيب يشكل صورة مليئة بالعبرة للإنسان، والموت نهاية محزنة لأولئك الذين تعهدوا في الحياة الدنيا البناء العظمي الذي تكون من التراب أي «الجانب النفسي» تعهدوه بالرعاية والاهتمام، وأهملوا البناء الروحي الذي تآكل وأُتلف بغبار الأهواء والشهوات!

إن هؤلاء سوف يدركون الوجه المأساوي والمفجع للتعاسة والقذارة الدنيوية التي ظنوها سعادتهم بعد الموت في إحداث "البعث بعد الموت". حيث يقول الله تعالى:

﴿إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ. وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انْتَثَرَتْ. وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ. وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ. عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ﴾ [١٣٢٦]

ويوضح لنا البيان الإلهي المدة الزمنية التي يحس الناس يوم المحشر بأنهم قضوها في الحياة الدنيا بالقياس والمقارنة مع أبدية وخلود عالم الآخرة، وذلك في الآية الآتية:

﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا﴾ [١٣٢٧]

ومن أجل ذلك فإن النبي ﷺ يعرف لنا الدنيا بقوله:

١٣٢٥. فاطر: ٥.

١٣٢٦. الإنفطار: ١ ـ ٥.

١٣٢٧. النازعات: ٤٦.

«ما لي، وللدنيا، إنما مثلي ومثل الدنيا كمثل راكب، قال في ظل شجرة في يوم صائف، ثم راح وتركها» [١٣٢٨]

ويبين الله تعالى حال صاحب الإدراك الحقيقي في الآية الكريمة بتصوير قرآني رائع:

﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ [١٣٢٩]

❁

لقد أقيم الكون بأجمعه على نظام بالغ الدقة والتألق، فكل شيء في الكون يقوم على قانون متوازن دقيق يتحرك بموجبه، والسماوات والأرض بكل إحداثياتها وأجرامها وكواكبها أمثلة رائعة على النظام المبهر الذي لا مثيل له، فالشمس والقمر يشرقان ويغيبان بحسبان، ويتعاقب الليل والنهار بحساب دقيق، وتتشكل الغيوم بقدر معلوم، وتتساقط الأمطار بقطرات محسوبة ومعينة على الأرض، وتمر على الأرض بحساب دقيق فصول الربيع والخريف، والصيف والشتاء، وتنبت الأزهار والمروج والنباتات المختلفة بقدر محسوب؛ وتُحضر الأرزاق لمختلف المخلوقات في الكون بحساب وقدر معلوم. وهكذا فإن كل الكائنات تستمر في وجودها وتسير في الكون ضمن نظام إلهي دقيق ومحكم لا يداخله شذوذ، فهل يعقل بعد هذا أن يكون الإنسان الذي هو الكائن الأعلى مرتبة في العالم، وزينة الكائنات، وبديع خلقه سبحانه وتعالى، هل يُعقل التفكير بأنه يسير في هذه الحياة بدون حساب، ولا قيود، ولا شعور بالمسؤولية، ومن غير هدف، ونظام، ومعنى؟

إن الإنسان الذي خُلق من أجل الامتحان، مجبر على إقامة نوع من التوازن بين العقل، والمشاعر، والجسم.

ويحقق الإنسان هذا التوازن بالأسلوب التالي:

في التوازن العقلي يُلجأ إلى نور الحق والحقيقة، عوضاًعن الأفكار الجانحة.

١٣٢٨. ابن ماجه: الزهد، ٣؛ أحمد، مسند، ٧، ٢٥٩/ ٤٢٠٨.

١٣٢٩. آل عمران: ١٩١.

وفي التوازن الحسي أي الانسجام القلبي يلجؤ إلى الاخلاق الحميدة والالتزام بوصف "القلب السليم"

وفي التوازن البدني أو الجسدي يلجأ إلى الاستقامة والتحلي بالعبودية الخالصة لله تعالى والأعمال الصالحة، والمنبع الذي يفيض بكل هذه التوازنات هو القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة.

وباختصار فإن الإنسان الذي هو أشرف المخلوقات بحاجة ماسة إلى الدخول ضمن الانسجام الإلهي في الكائنات عن طريق الإيمان والأعمال الصالحة التي ترفع من درجته.

ويبين الله تعالى في الآية الكريمة جوانب الدقة المتناهية في نظام الإنسان، والقرآن، والكائنات الأخرى، حيث يقول:

﴿الرَّحْمَنُ. عَلَّمَ الْقُرْآنَ. خَلَقَ الْإِنْسَانَ. عَلَّمَهُ الْبَيَانَ. الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ. وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ. وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ. أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ. وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ﴾ [١٣٣٠]

ربنا اجعلنا في هذه الدنيا بصحبة عبادك الصالحين خزائن حكمتك وأسرارك! واحشرنا معهم يوم الدين!..

آمين!

١٣٣٠. الرحمن: ١ - ٩.

سيدنا أيوب عليه السلام

سيدنا أيوب عليه السلام
صاحب التفكير العميق وحجر الصبر

هو من نسل العيص أخو يعقوب عليه السلام، عاش في أنحاء بلاد الشام، وقد آمن به قلة من الناس.

وقد منحه الله ﷻ ببركة دعاء جده إسحاق عليه السلام مالاً، وملكاً، وأولاداً كثيرين، وكانت لديه الكثير من الحقول والخدم والحيوانات، يساعد اليتامى والفقراء، والأرامل من النساء، ولم يكن يتناول طعامه إذا لم يكن على الطعام أحد من الفقراء والمحتاجين، وقد كان يحب الإحسان وتكريم أبناء السبيل من النعم التي أسبغها الله ﷻ عليه لدرجة كبيرة.

بدأ أيوب عليه السلام حياته غنياً، وفي منتصف حياته تحول إلى غريب فقير؛ وفي النهاية وبنتيجة شكره، وصبره الذي أصبح مضرب المثل للناس أغرقه الله تعالى بفضله وإحسانه.

وقد أثنى الله ﷻ على تحمله وصبره على الشدائد، حيث يقول ﷻ في كتابه العزيز:

﴿وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِبْ بِهِ وَلَا تَحْنَثْ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ [١٣٣١]

بعث الله تعالى أيوب عليه السلام نبياً إلى الناس الذين كانوا يعيشون حول بلاد الشام. وقد ذكر الله تعالى في القرآن نبوة أيوب عليه السلام الذي أصبح مظهر الوحي الإلهي:

﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا﴾ [١٣٣٢]

﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ [١٣٣٣]

١٣٣١. ص: ٤٤.

١٣٣٢. النساء: ١٦٣.

١٣٣٣. الأنعام: ٨٤.

الامتحان، والصبر، والمكافأة:

لقد تعرض أيوب عليه السلام للامتحان الإلهي في ماله، وملكه، وأولاده وكل النعم التي تمتع بها فحُرم منها واحدة تلو الأخرى. وبعد ذلك وقع فريسة مرض عضال، إلا أنه قابل المصائب التي حلّت به بالتوكل والتسليم الكلي لله تعالى، وأظهر صبراً عظيماً على البلايا، فرَضي بقضاء الله وقدره.

وقد أصبح صبره وتسليمه الأسطوري لأمر الله تعالى نموذجاً ومثلاً للاعتبار، ودخل التاريخ البشري من أوسع أبوابه.

ويعود الامتحان الذي تعرّض له أيوب عليه السلام إلى عهد نبوته، وقد كان سبب الامتحان الذي تعرض له أيوب عليه السلام ومختلف المصائب التي حلت به هو إبليس اللعين. فقد دخل إبليس الملعون الذي يكره الفضيلة، دخل بزيّ الإنس بين الناس يوسوس لهم قائلاً:

- إن من السهولة بمكان القيام بواجب العبودية داخل حالةٍ من الغنى والوفرة، ينبغي أن تروا أيوب عليه السلام في حالة من الضيق والبلاء لتعرفوا مدى قيامه بواجب العبودية!.. وهكذا استمر في وسوسته للناس ليحطّ من قدر وقيمة النبي أيوب عليه السلام.

وبناء على ذلك فقد أراد الله تعالى إظهار مدى طاعة أيوب عليه السلام له ومدى تسليمه وتوكله عليه، فأنزل مختلف المصائب على ذلك النبي عليه السلام.

ولما تعلقت إرادة الله عز وجل بامتحان عبده ونبيه أيوب عليه السلام، كانت أول المصائب أن جرده من كل أمواله وأملاكه، فجرفت السيول أغنامه وأغرقتها، ودمرت الريح حقوله ومزارعه، فتلبّس إبليس اللعين بثياب راعٍ واتجه مسرعاً إلى أيوب عليه السلام، أراد استغلال الفرصة التي جاءت بين يديه، فأخبر أيوبً عليه السلام وهو يبكي بشدة:

- يا أيوب! لقد وقعت كارثة عظيمة، لقد أتلف الله تعالى كل أموالك وأملاكك.

ودون أن يتأثر أيوب عليه السلام بهذا الخبر حمد ربه عز وجل بكل سكينة وتوكل، وقال للشيطان الذي دخل بين الناس بثياب الإنس:

- إن مالي وملكي هو مما وهبني ربي، وأخذه الآن مني. فهو صاحبه الوحيد! إن شاء أعطى، وإن شاء أخذ!.....

أذهلت هذه الكلمات والتصرفات إبليس اللعين وأذلته.

وبعد ذلك توفي أولاد أيوب عليه السلام نتيجة زلزال بينما كان يتلقون دروساً، وفي هذه المرة أيضاً جاء الشيطان يبكي ويصرخ ودخل على أيوب عليه السلام، فأسال سيلاً من الدموع متظاهراً بالحزن والرثاء لحال أيوب عليه السلام من أجل أن يوقعه في المعصية، وقال له:

– يا أيوب! لقد هدم الله تعالى بيتك بزلزال شديد، وسلب منك كل أولادك، لقد كانت آهاتهم واستغاثاتهم وتألماتهم مما تنفطر له القلوب، ولا يتحمله عقل، أما زلت تقف في مكانك؟

وقد نقل الحادثة بصورة مؤلمة ومؤثرة للغاية، إلا أن أيوب عليه السلام استقبل الخبر بكل توكل وتسليم لأمر الله تعالى، وأدمعت عينه التي نقلت مشاعر الرحمة في قلبه، وقد أظهر صبراً عظيماً تجاه هذا الامتحان أيضاً ورضي بالتجليات الإلهية.

كاد الشيطان الرجيم ينفجر من الغيظ والغضب لعدم بلوغه غايته من جديد، وكان على وشك قول شيءٍ آخر فبادره أيوب عليه السلام بالكلام قائلاً:

– أيها اللعين! إنك إبليس وتريد أن توقعني في معصية ربي! اِعلم أن أولادي كانوا أمانة بين يدي، وقد عادوا إلى صاحبهم الآن! فهو المعطي، وهو الآخذ؛ فلم أجزع؟ إني عبدٌ أحمد الله تعالى في كل الأحوال!.

يقول عزيز محمود عن تسليم العباد الصالحين لأمر الله تعالى، في أحد أبياته الرائعة:

أنت الآخذ وأنت المعطي والمبقي أنت؛
فما أعطيته هو العطاء؛ فما لنا إذاً!...

ويقول أنس بن مالك رضي الله عنه:

«أنس بن مالك رضي الله عنه، يقول: اشتكى ابن لأبي طلحة، قال: فمات، وأبو طلحة خارج، فلما رأت امرأته أنه قد مات هيأت شيئا، ونحته في جانب البيت، فلما جاء أبو طلحة قال: كيف الغلام؟ قالت: قد هدأت نفسه، وأرجو أن يكون قد استراح، وظن أبو طلحة أنها صادقة، قال: فبات، فلما أصبح اغتسل، فلما أراد أن يخرج أعلمته أنه قد مات، فصلى مع النبي ﷺ، ثم أخبر النبي ﷺ بما كان منهما، فقال رسول الله ﷺ:

«لعل الله أن يبارك لكما في ليلتكما» [١٣٣٤]

١٣٣٤. البخاري: الجنائز، ٤٢، الأدب، ١١٦/ ١٣٠١.

إن الحادثة التي رواها أنس بن مالك ﷺ، يظهر مدى ذكاء وتقوى أم سليم، وخاصة تسليمها لأمر الله تعالى، وتوضح هذه الحادثة بشكل جلي أن الأم والأب، والأولاد، والمال، والملك وكل ممتلكات الإنسان إنما هي أمانة بين يديه ومتى ما أراد صاحبها الحقيقي استعادتها يستعيدها. وكأن لسان حال أم سليم يقول لأبي طلحة:

«إن ولدنا قد دُعي من قبل القدرة التي منحتنا إياه، وإننا بعد مدة من الزمن سوف نلتقي به من جديد يوم القيامة، فلا تحزن ولا ترفع صوتك من الجزع! وارض بحكم الحق سبحانه وتعالى...».

وقد وهب الله تعالى أم سليم بعد مدة قصيرة ولداً مثل نور القمر، وقد سمي من قبل النبي ﷺ بعبد الله.

❁

وفي النهاية ابتلى الله تعالى سيدنا أيوب عليه السلام بمرض[١٣٣٥] لم يسمّه في القرآن الكريم، ومن شدة ما ازداد عليه المرض لم يعد أحد يمر به، وإنما فقط إمرأته رحيمة خاتون كانت الوحيدة والتي كانت تجسيداً حقيقياً للشفقة استمرت على خدمته بصدق ووفاءً لا نظير لهما. فقامت المرأة بالعمل بيدها لتأمين معيشتها وزوجها، وأدت واجبها بالخدمة بكل وفاء.

وأما أيوب عليه السلام فلم يشتكِ يوماً من حاله أو مرضه، وظل صابراً ملتجئاً إلى الله تعالى، يلهج لسانه على الدوام بالحمد والثناء عليه. وقد أضاف أيوب عليه السلام تعبه ومرضه إلى الشيطان مظهراً أدباً نبوياً رفيعاً، فقد ذكر الله تعالى حاله في القرآن الكريم بقوله:

﴿وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ﴾[١٣٣٦]

وذلك لأن الشيطان حسد حالة أيوب عليه السلام الجيدة وتسلط عليه، إلا أن أيوب عليه السلام كان يدرك أن كل شيء في النهاية من الله تعالى، ولذلك فإنه في كل مرة سلّم أمره لله تعالى وتوكل عليه بكل سكينة.

١٣٣٥. لم يُذكر اسم المرض في القرآن الكريم، لأن العبرة المراد فهمها وتلقيها هنا ليس المرض، وإنما القصد هو بيان صبر أيوب عليه السلام ورضاه عن أمر الله تعالى في كل الأحوال.

١٣٣٦. ص: ٤١.

وعندما ذهبت كل جهود الشيطان في إبعاد أيوب عليه السلام عن حالة الشكر، والحمد، والرضى سدى وهباءاً، بدأ هذه المرة بالوسوسة لسكان المدينة، قائلاً لهم:

- إياكم والاقتراب من رحيمة امرأة أيوب، وتقديم العون لها! وإلا فإن عدوى مرض أيوب سوف تنتقل إليكم! واطردوهم من مدينتكم في الحال!

وقد استجاب أهل المدينة لهذه الوسوسة ومالوا لهذا الرأي، فقالوا لرحيمة مهددين:

- اتركي المكان وارحلي من هنا أنت وأيوب! وإلا سوف نرجمكما ونقتلكما!

وجدت رحيمة نفسها وحيدة محتارة في أمرها، فأخذت أيوب عليه السلام إلى ظهرها وفارقت المكان. فأوت إلى مكان خارج المدينة، جمعت بعض الرمال تحت ظهر أيوب عليه السلام وأسندت رأسه إلى حجرة كوسادة له، وبعدها أقامت هنالك كوخاً تابعت خدمته بإخلاص وصدق.

إن نبي الله أيوب الصابر عليه السلام حتى في تلك الحالة الصعبة قام بواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لكل من يتردد على ذلك المكان ويمر به.

وقد كانت امرأة أيوب رحيمة خاتون تغزل الصوف لنساء المدينة من أجل تأمين متطلبات المعيشة، وذات مرة عندما قالت لزوجها:

- إنك نبي! لو سألت الله تعالى الصحة والعافية، وأن يذهب عنك هذا المرض والمعاناة! سألها أيوب عليه السلام:

- كم هي المدة التي قضيتها وأنا أتمتع بالصحة والعافية؟

فقالت رحيمة خاتون:

- كانت ثمانون سنة.

حينها قال لها أيوب عليه السلام:

- يا رحيمة! إني أستحي أن أشكو إلى الله تعالى حالي قبل أن تمضي على بلائي ومرضي مدة تساوي تلك المدة التي قضيتها وأنا أتمتع بالصحة والسلامة. فعندما يغدق الله سبحانه وتعالى علينا بالنعم نفرح بها ونرضى، فلمَ لا نصبر عندما يبتلينا بالشدائد والأمراض؟

فكما أن الله سبحانه وتعالى قد مدح تحمّل وصبر أيوب عليه السلام في القرآن الكريم، كذلك جاء الثناء والمدح عليه في الحديث الشريف، حيث قال النبي ﷺ:

«كان أيوب أحلم الناس وأصبر الناس وأكظمهم للغيظ» [١٣٣٧]

لقد كان رضاه تجاه الله تعالى تاماً لا نقص فيه، وإن هذا الشعر ربما يعكس صبره العالي وحالة التسليم المطلق لله تعالى:

جميل ما جاءني منك، سواء كانت وردة متفتحة أو شوكة، وسواء أكان رداءً أم كفناً، فنارك جميلة، ونورك جميل!..

❁

وعندما عجز الشيطان عن الوسوسة لأيوب عليه السلام، تسلط هذه المرة على زوجه رحيمة خاتون. فغدا يخرج بين يديها ويعمل على افتتان وتحريف عقلها، وكانت رحيمة خاتون تنقل ما يجري معها إلى أيوب عليه السلام، وأيوب عليه السلام يقول لها محذراً ومنبهاً:

- يا رحيمة! إن من يخرج في طريقك هو إبليس. فاحذري وتنبهي؛ إنه يريد تفريقك وإبعادك عني بوسوسته لك!..

لقد كانت رحيمة خاتون من أحفاد يوسف عليه السلام، وقد كان لها نصيب من جمال جدها يوسف عليه السلام، إذ لم يكن في محيطها من هي أجمل منها، ولذلك فقد خرج الشيطان أمامها ذات يوم متمثلاً في صورة شخص جذاب وجميل، وقال لها:

- لم أر أجمل منك في حياتي... إني من تلك القرية القريبة، ولدي من الثروة ما لا يعد ولا يُحصى...

فالتجأت رحيمة خاتون إلى ربها عز وجل قائلة:

- إني امرأة النبي أيوب المريض، وأنا قائمة على خدمته، ولا أميل أبداً إلى شخص غير ذلك النبي الشريف..». ثم لاذت بالفرار.

ولما عادت رحيمة خاتون إلى أيوب عليه السلام، حدثته بكل ما جرى، أصاب أيوب عليه السلام الضيق من هذا الكلام، وقال بحدّة حالفاً بالله:

١٣٣٧. ابن أبي شيبة، المصنف، ٧، ٦٨/ ٣٤٢٥٥.

- يا رحيمة! لقد سبق وأنْ حذرتك منه من قبل، لئن استعدت عافيتي لأجلدنك مائة جلدة!

ومع مرور الوقت ازدادت شدة المرض على سيدنا أيوب عليه السلام أكثر، وبدأت هذه الحالة تتحول إلى عائقٍ أمام قيامه بواجب النبوة ومهامها، ففتح يديه إلى السماء منادياً المولى ﷻ بقوله:

﴿... أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ [١٣٣٨]

وتوجه من كل قلبه إلى الله تعالى داعياً أن تنزل عليه تجليات الرحمة الإلهية وتشمله بالشفاء والعافية.

وقد وردت عدة روايات بشأن تفسير سبب دعاء أيوب عليه السلام بهذا الشكل ومنها:

قال الإمام جعفر الصادق رحمه الله تعالى:

«عندما طالت مدة البلاء على أيوب عليه السلام، قال له الشيطان: يا أيوب! إن كنت تريد التخلص من هذا المرض فاسجد لي، فأصاب قلبَه حزن شديد من هذا الكلام وقال: لست مستاءاً من المرض، وإنما مستاءٌ من لؤم العدو. ثم توجه إلي قائلاً: أني مسني الضر».

وفي رواية أخرى، إن بعض الذين آمنوا به قالوا:

«لو كان الله علم من أيوب خيراً ما ابتلاه بهذا! فجزع أيوب من هذا القول جزعاً لم يجزع من شيء قط!».

وحسب رواية أخرى، أن رحيمة خاتون قد أصابتها ضائقة مادية صعبة، ولم يبقَ أمامها سوى بيع ثيابها لتأمين الطعام لهما، ولما سمع أيوب عليه السلام بهذا الأمر التجأ إلى ربه ﷻ بحزنٍ عميق.

وفي رواية أخرى، أن جبريل عليه السلام جاء إلى أيوب عليه السلام وقال له:

«إن في خزائن الله تعالى الكثير من امتحان المصائب، ولن تطيقها كلها، فاطلب من الله تعالى العافية لك!»

ومن ثم طلب منه أن يدعو الله ﷻ ليمنحه الشفاء.

١٣٣٨. الأنبياء: ٨٣.

وفي الحديث، روي أن رجلاً دخل إلى مسجد النبي ﷺ وسأله بعض الأسئلة المتعلقة بأيوب عليه السلام، فبكى المصطفى عليه الصلاة والسلام، وقال:

«إن نبي الله أيوب لبث به بلاؤه ثماني عشرة سنة، فرفضه القريب والبعيد، إلا رجلان من إخوانه كانا من أخص إخوانه به، كانا يغدوان إليه ويروحان، فقال أحدهما لصاحبه: تعلم والله لقد أذنب أيوب ذنبا ما أذنبه أحد من العالمين، قال له صاحبه: وما ذاك؟ قال: من ثماني عشرة سنة لم يرحمه الله فيكشف ما به؛ فلما راحا إليه لم يصبر الرجل حتى ذكر ذلك له، فقال أيوب: لا أدري ما تقول، غير أن الله يعلم أني كنت أمر على الرجلين يتنازعان فيذكران الله، فأرجع إلى بيتي فأكفر عنهما كراهية أن يذكر الله إلا في حق» [١٣٣٩]

إن الكلمات التي وردت في كلام أيوب عليه السلام وإن كانت تشبه الشكوى، إلا أنها في الحقيقة كانت دعاءاً. لأن الشكوى تكون بحق الناس، أما التوجه إلى الله تعالى فليس شكوى، حيث أن يعقوب عليه السلام أيضاً عندما أصابه البأس والحزن والاضطراب لفقد ولده يوسف عليه السلام، وكان يلفه حزن عميق، قد قال في الكلام الذي نقله على لسانه الله تعالى في القرآن الكريم:

﴿قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [١٣٤٠]

الخلاص «الشفاء» من المرض:

كانت رحيمة خاتون قد خرجت للبحث عن طعام، وفي هذه الأثناء جاء جبريل عليه السلام مُرسلاً من قبل الحق سبحانه وتعالى إلى أيوب عليه السلام، وأخبره الخبر عن الله تعالى:

– يا أيوب! لقد ابتليتك بالمرض فصبرت... والآن سوف أعيد إليك الصحة والنعمة من جديد!.

ومع هذا الخبر نقل إليه أمراً من الله تعالى:

﴿ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ﴾ [١٣٤١]

١٣٣٩. الطبري، التفسير، ٢٠، ١٠٩؛ الطبراني، الأحاديث الطوال، ١، ٢٧٦.

١٣٤٠. يوسف: ٨٦.

١٣٤١. ص: ٤٢.

وبموجب الأمر الإلهي ضرب سيدنا أيوب عليه السلام برجله الأرض، فنبعت عين من الماء، فاغتسل من ماء ذلك النبع وبمعجزة إلهية تخلّص تماماً من المرض الداخلي والخارجي.

وفي رواية أخرى، أن سيدنا أيوب عليه السلام لما ضرب برجله الأرض نبعت منها عينا ماء إحداهما باردة، والأخرى ساخنة، فاغتسل من العين الساخنة، وشرب من تلك الباردة.

وإن في قول الله تعالى لأيوب عليه السلام «**ارْكُضْ بِرِجْلِكَ**» دلالة على أنه حتى في المعجزات يُطلب من العبد بذل الجهد والتمسك بالعمل، إذاً يجب على العبد الأخذ بالأسباب في كل أموره، وعدم الاكتفاء بالدعاء ثم القعود عن العمل وترك الأسباب، وبالإضافة إلى ذلك، حتى يُقبل الدعاء من العبد ينبغي عليه استيفاء شروطه، وهذا الأمر يشبه الأمر الذي وُجه إلى مريم العذراء في قوله تعالى:

﴿وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا﴾ [١٣٤٢]

ومن جهة أخرى فإن هذا الأمر فيه تذكير بقوله تعالى:

﴿... إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ...﴾ [١٣٤٣]

وهكذا، بنتيجة توجه سيدنا أيوب عليه السلام إلى ربه ﷻ بكل تأدبٍ، وخشوع، وتعظيم تمّ قبول دعائه، وفُتحت عليه أبواب شفاء الله سبحانه وتعالى ولطفه، وررحمته. ويقول الله تعالى في ذلك:

﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَذِكْرَى لِلْعَابِدِينَ﴾ [١٣٤٤]

ووضع جبريل على رأس أيوب عليه السلام الذي استعاد صحته تماماً، وضع على رأسه تاجاً بأمر من الله ﷻ، وألبسه ثياباً جميلة، ومن ثم جاءت غيوم الكرم واللطف الإلهي فأمطرت عليه قطعاً من الذهب.

١٣٤٢. مريم: ٢٥.

١٣٤٣. فاطر: ١٠.

١٣٤٤. الأنبياء: ٨٤.

وفي ذلك يقول نبينا عليه أفضل الصلاة وأتمّ التسليم:

«بينا أيوب يغتسل عريانا، فخر عليه جراد من ذهب، فجعل أيوب يحتثي في ثوبه، فناداه ربه: يا أيوب، ألم أكن أغنيتك عما ترى؟ قال: بلى وعزتك، ولكن لا غنى بي عن بركتك» [١٣٤٥]

وخلال هذه الأحداث رجعت رحيمة خاتون من المدينة، ولم تتمكّن من التعرف على أيوب عليه السلام، فظنت أنه فُقد في الصحراء وأخذت تجري فيها بحثاً عنه، وبدأت تستغيث وتبكي، فناداها أيوب عليه السلام:

- عما تبحثين أيتها السيدة؟

قالت له:

- لقد كان لي مريض، وكان صديق عمري، ورفيق دربي، لقد عانى من الآلام والضيق كثيراً، والآن فقدت تلك الخزينة...

فقال أيوب عليه السلام:

- كيف كان ذلك الإنسان؟

قالت:

- إنه كان أيوب الصبور. وعندما كان سليماً ومعافاً كان يشبهك.

فقال أيوب عليه السلام:

- يا رحيمة! إنه أنا أيوب، لقد أعطاني الله تعالى الصحة والعافية من جديد.

فاستغرق كلاهما بالبكاء فرحاً وتوجها بالشكر والحمد لله تعالى.

استعاد أيوب عليه السلام شبابه وقوته السابقة، وعلاوة على ذلك فقد أكرمه الله تعالى بأموال وممتلكات أكثر من تلك التي كانت لديه من قبل. حيث يقول الله عز وجل:

﴿وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنَّا وَذِكْرَى لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [١٣٤٦]

وفي النهاية، بينما كان أيوب عليه السلام وعائلته في حالة اضطراب التمّ شملهم من جديد، ونالوا بركاتٍ من ألطاف الله تعالى أكثر مما كانوا عليه في سابق عهدهم.

١٣٤٥. البخاري، الغسل، ٢٠/ ٢٧٩، الأنبياء، ٢٠/ ٣٣٩١؛ النسائي، الغسل، ٧/ ٤٠٩.

١٣٤٦. ص: ٤٣.

وفي صباح الليلة الأولى من استعادة أيوب عليه السلام لعافيته وتخلصه من المرض، تأوّه بعمق من كل قلبه، ولما سألوه عن سبب ذلك قال:

– لقد كنت أسمع في وقت السحر من كل ليلة صوت يناديني: كيف أنت يا مريضنا؟ والآن جاء ذلك الوقت من جديد، ولكني لم أسمع النداء يقول لي: كيف أنت يا عبدنا الصحيح المعافي؟ فلهذا أبكي.

مكافأة خدمة رحيمة خاتون:

بحسب الروايات، فإن أيوب عليه السلام كان قد أقسم على ضرب امرأته رحيمة خاتون مائة سوط بعدما يستعيد صحته لخطءٍ اقترفته، إلا أن خدمة زوجه رحيمة وتضحيتها في سبيله كانت عظيمة جداً، ولهذا السبب فإن الله تعالى أوحى إليه أن يأخذ مائة عود، فيجمعها كلها في حزمة ويضربها بها ضربة واحدة، ويكون هذا منزّلاً منزلة الضرب بمائة سوط ويبرّ بيمينه، ولا يحنث، حيث يقول الله تعالى في كتابه العزيز:

﴿وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِبْ بِهِ وَلَا تَحْنَثْ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ [١٣٤٧]

وقد بقيت الرخصة المذكورة في الآية الكريمة قائمة في الإسلام، وتمّ العمل بها في باب الجزاء الشرعي والأيمان تحت اسم "رخصة أيوب"، ولأنه لم يتم تحديد طبيعة نوع الضغث أو الحزمة التي وردت في الآية بشكل واضح، فقد فُسرت وحُملت على معانٍ أخرى، بمعنى أن ذلك الأمر لم يعد يقتصر على الرخصة فقط، وإنما بنفس الوقت فيه إشارة إلى ضرورة تشكيل جماعة تحت إمرة رجل واحد.

١٣٤٧. ص: ٤٤.

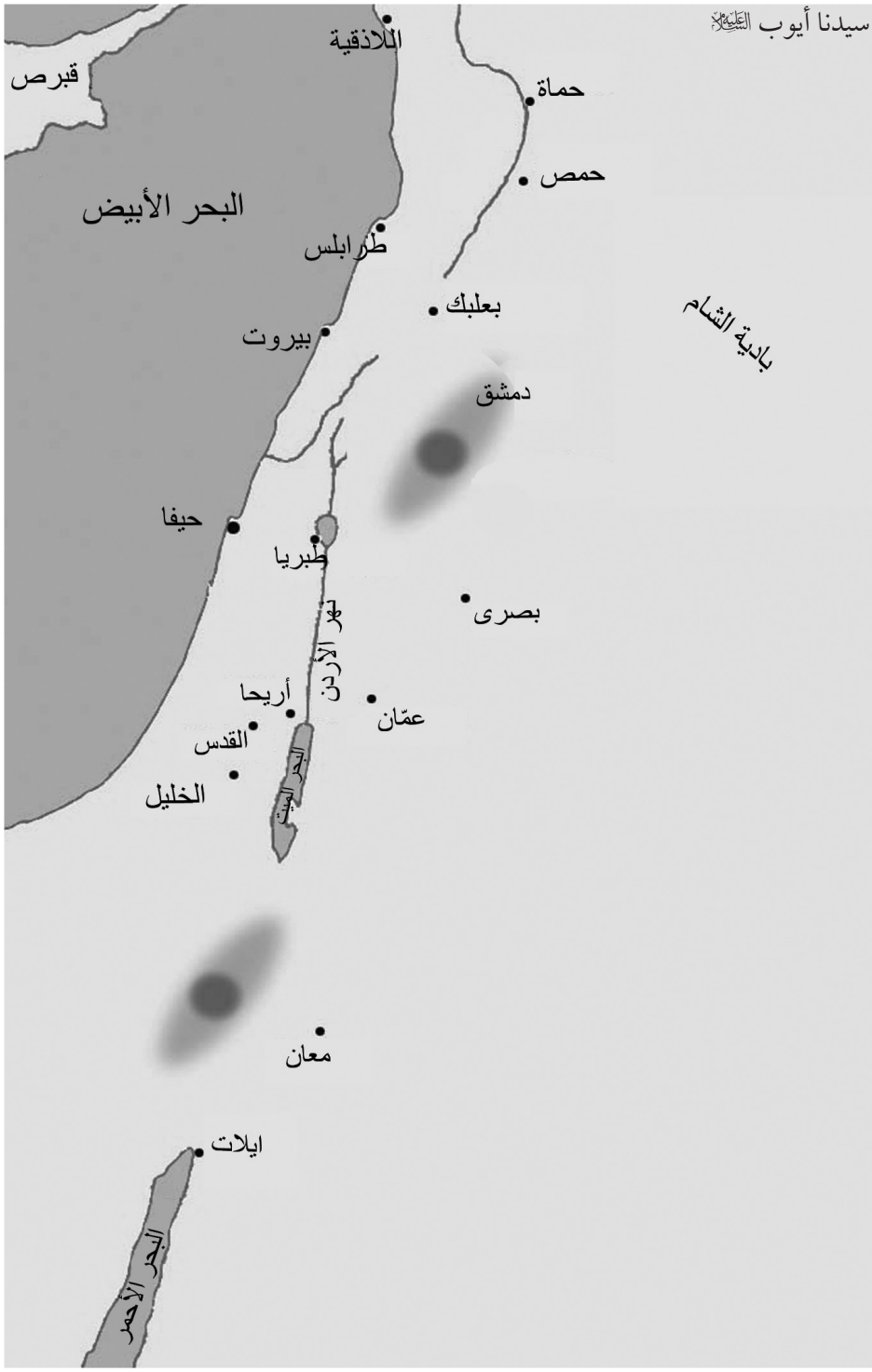
سيدنا أيوب عليه السلام
اللاذقية
قبرص
حماة
حمص
البحر الأبيض
طرابلس
بعلبك
بادية الشام
بيروت
دمشق
حيفا
طبريا
بصرى
نهر الأردن
أريحا
عمّان
القدس
البحر الميت
الخليل
معان
ايلات
البحر الأحمر

الرضا:

يقول الله تعالى:

﴿... إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ [١٣٤٨]

لقد خُلقت كل الكائنات في الوجود ابتداءاً من أبسطها تركيباً إلى أعقدها وفق نظام من التدرج «الترتيب» الخلقي، ويتربع الإنسان على قمة هذا النظام الترتيبي، وذلك لأنه الكائن الذي نال نصيباً من كل صفات الربوبية، وبسبب ذلك فقد جمع في ذاته كل الأضداد، أي أنه جُهز بمشاعر الميل إلى قطبين متعاكسين هما الخير والشر، إن الأضداد المعروفة في الذات الألوهية لله تعالى والتي هي في حالةٍ من الصفاء والانسجام، تكون في حالة صراعٍ أبدي داخل الإنسان.

إن الإنسان يقترب من ربه سبحانه وتعالى بقدر ما يفلح في استخدام إرادته باتجاه الميول والرغبات الإيجابية، وبقدر ما يحقق غلبة جانب الخير في شخصه بنتيجة تعهّد قلبه بالتزكية والتصفية، وإن القلوب التي تُوفق لهذه الحال تعيش حياتها بمشاعر البهجة والسعادة مثل المغترب الذي وصل إلى نهاية طريق رحلة غربته فحقق غايته ومناه، وهكذا فبتضاؤل المسافة بين العبد وربه بتزكية القلب وتصفيته من كدورات النفس، تضمحل صفة الغربة والوحشة عن حياته، وإن المعاناة والاضطرابات في المشاعر والتي يكون منبعها الأكثر عمقاً وتجذراً هو الآلام الناشئة عن البعد عن الله تعالى، وفي الحقيقة فإن هذه الآلام حتى وإن بقيت قائمة تبدأ بالتناقص والتراجع، وحتى لو أضيفت إلى هذه المعاناة الأساسية، المعاناةُ البشرية الناتجة عن الكدورات والمآسي الدنيوية فإنها تتحول إلى حالةٍ من اللاشعور لدى من ينال نصيباً من القرب مع ربه ﷻ. فالآلام، والاضطرابات والمعاناة الدنيوية تصبح وكأنها تصاب بالخدر.

إن المعاناة والاضطرابات في هذه المرحلة تلتقي مع التفاتة ولطف من ربنا سبحانه وتعالى لتتحول إلى هناء وسرور، وإن هذا السرور الذي يستولي على الروح يمتد أحياناً

١٣٤٨. ص: ٤٤.

ليشمل الجوانب المادية والمحسوسة للجسم، وإن الحادثة التي جرت مع علي بن أبي ﷺ عندما أصيبت ساقه بسهم، وأمْره لأصحابه بإخراجه في لحظة وقوفه في الصلاة حيث يكون في أقرب وضع إلى الله تعالى، مثال بارز وواضح على الكلام الذي ذكرناه.

إن الفكر والإدراك الإنساني عندما يسمو ويكتسب مستوىً من الشفافية عن طريق تطهير وتصفية القلب، وتزكية النفس من شوائب الأهواء، فإنه يتحرر من أسر المظاهر الدنيوية الخادعة والفانية ليخضع للحق سبحانه وتعالى، وإن الإنسان الذي يصل إلى هذه المرحلة يتمكن من رؤية سلسلة الأسباب في كل حادثة تقع في هذا الكون والتي تمتد لتصل إلى السبب الأول، وببلوغ إدراكه إلى الكمال فإنه ينتقل به مباشرة إلى مسبب الأسباب «وهو الله تعالى خالق الأسباب». وفي هذه الحالة فإنه يبلغ النشوة واللذة الروحية التي يعبر عنها البيت الشعري:

كل ما هو آتٍ منك إلي جميل .. سواء كانت وردة متفتحة، أو شوكة

والذين يصلون إلى الحالة من السمو الروحي لا يبالون بالأغيار، ولا يعيرون الأسباب والوسطاء أي اهتمام بسبب تفتح بصائرهم القلبية، ويبذلون جهودهم للفناء في المسبب النهائي والخالق الحقيقي للأسباب، أما الذين لا يستطيعون بلوغ هذا الصفاء والكمال فإنهم يتعلقون بأحد الأسباب البَينية ويبقون حيث هم، وتلك الأسباب بمثابة "ليلى" التي تخطف القلب، فتقف مانعاً في أغلب الأحيان أمام الوصال مع المولى ﷻ.

ويقول يونس الحزين الذي تجاوز الميول والرغبات الدنيوية والنفسية، يقول عبارات رائعة عن مراحل تزكية القلب، والفناء في الحق سبحانه وتعالى:

المتصوفون يحتاجون للمذاكرة،

والواصلون يحتاجون للمؤانسة،

والعاشقون يحتاجون للأنس مع ليلى،

أما أنا أحتاج إليك وتكفيني أنت.

إن إحدى أكثر الوسائط الموصلة إلى هذا الكمال بركة، هي الابتلاءات التي تشكل منبع المعاناة، ولهذا السبب فقد ورد في الحديث الشريف أن أكثر الناس عرضة للابتلاءات هم الأنبياء والرسل، وذلك لأنهم قدوة لأمتهم، ومن متطلبات رسالتهم

وتكاليفهم أن يكونوا في أقرب مكانة من ربهم ﷻ، وإن أساس أو أرضية هذه المكانة القريبة هي الابتلاءات التي تحدد درجة ارتباط الصاحب بصاحبه حيث يمكن أن نشاهد القدرة على التحمل التي لا يمكن حتى تصوره في الأنبياء بفضل كونهم أصحاب الرضا والصبر والتوكل اللذين هما في مقام النتيجة له، والذي يحفظهم من الوقوع في الإفراط الذي يعتبر كشباكِ فخٍ للنفس مثل السرور المبالغ به والحزن والتألم المجاوز للحد.

عندما أصاب النبي ﷺ مرض شديد ذهب الصحابي أبو سعيد الخدري رضي الله عنه إلى بيته لزيارته، وشاهد بنفسه صبر وتحمل النبي ﷺ على آلامه ومعاناته الشديدة، يقول الصحابي الخدري رضي الله عنه عن ذلك:

دخلت على النبي ﷺ وهو يوعك، فوضعت يدي عليه فوجدت حره بين يدي فوق اللحاف، فقلت: يا رسول الله ما أشدها عليك قال:

«إنا كذلك يضعف لنا البلاء، ويضعف لنا الأجر»

قلت: يا رسول الله أي الناس أشد بلاء؟ قال:

«الأنبياء»

قلت: يا رسول الله ثم من؟ قال:

«ثم الصالحون، إن كان أحدهم ليبتلى بالفقر، حتى ما يجد أحدهم إلا العباءة يحوبها، وإن كان أحدهم ليفرح بالبلاء، كما يفرح أحدكم بالرخاء»[١٣٤٩]

ولأجل هذا، فإنه ليس من الصحيح ألبتة إبداء الرضا والقبول تجاه الأحداث التي تبعث الفرح والسعادة في القلب، وإظهار السخط والتململ من تلك التي تجلب الهموم والشدائد، إلا أن الإنسان إذا لم يصل إلى قمة الكمال، فليس من السهولة عليه التخلص أو التفوق على ضعفه البشري، وإن كان يعقوب عليه السلام قد تمكن من كتم ودفن آلامه وحسرته على فقدان ولده يوسف عليه السلام، والتحلي بمنتهى الصبر والقبول بقوله: "فصبر جميل وبالله المستعان "، فذلك من قبيل الكمال الاستثنائي الذي تمتع به باعتباره صاحب نبوة، وفي الحقيقة فإنه لم يعرض حاله على أحد غير ربه ﷻ، وهكذا، فإن حزنه وحسرته قد انقلبت في النهاية إلى حالة من الوصال مع الله تعالى.

١٣٤٩. ابن ماجه، الفتن، ٢٣/ ٤٠٢٤.

عن الحسن ﷺ عن النبي ﷺ أنه سئل: ما بلغ وجد يعقوب على ابنه يوسف؟

قال: «**وجد سبعين ثكلى**»

قال: فما كان له من الأجر؟

قال: «**أجر مائة شهيد، قال: وما ساء ظنه بالله ساعة من ليل ولا نهار**» [١٣٥٠]

أي أنه ليس من الصواب أيضاً النظر إلى الهموم والمحن الدنيوية على أنها من موانع سعادة المرء في الحياة، فالرضا عن كل ما يأتي من الله تعالى من المصائب والابتلاءات يُعتبر من أجل العارفين بربهم وسيلة للوصول إلى مزيد من السرور والسعادة في الحياة.

يعبر مولانا الرومي عن هذه الحالة بصورة وجيزة، حيث يقول:

«إن يد الحزن تُساقط الأوراق المصفرة عن أغصان القلب، لتتفتح مكانها أوراق السعادة واللطف الخضرة الندية».

❁

إن الحزن، والألم، والمعاناة كل ذلك من المؤثرات الكبيرة التي تضعف الميول والرغبات النفسية لتسمو روح الإنسان إلى مراتب عالية، ومن أجل ذلك كان لا بد لجنود القلب الذي يفتح السبل أمام الإنسان أن تمرّ من حدود معاناة واضطرابات شديدة، وإن أكثر واسطة تحقق الكسب والفائدة من المعاناة هي «العشق».

إن الحزن، والسرور في نظر أهل الله تعالى هما توأمان، فأهل الوجد والقلوب الصافية يعرفون أسباب منح هذه المعاناة والأحزان، والمسرات، ولذلك فإنهم دائماً في حالة من التسليم لله تعالى. ويتغنى الشاعر «الحزين» الذي عجن قلبه بسر هذه الحقيقة، يتغنى بحزنه وألمه بشكل جميل:

إنا ممن شُويتْ أكبادهم على حطب العشق
وممن بكيت عيونهم من بلواء وأنين الوجد
هدمت وعمرت منا الدور وبتنا كخراب نهدٍ
فتساوَ العدم والفناء عندنا مع نعيم الخلد.

١٣٥٠. السيوطي، الدر المنثور، ٤، ٥٧٠؛ الطبري، التفسير، ١٣، ٣٠٧.

وهكذا، فإن السحرة الذين وقفوا عاجزين أمام عصا موسى عليه السلام قالوا:

- إننا نسجد لرب موسى وهارون.

فهددهم فرعون بإذاقتهم أشد أنواع العذاب، والآلام، قائلاً:

- لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف، وأصلبنكم إلى جذوع النخل! ولأذيقنكم أشد ألوان العذاب والموت!.

وكان جواب السحرة:

- لن يضرنا عذابك! وإنا إلى ربنا لمنقلبون!.

فأعلموا فرعون الأحمق بأن الآلام والمعاناة الدنيوية إنما هي عابرة وفانية، وتحدوا تهديداته بكل صبر وثبات. وذلك لأن السرور والسعادة الروحية لبلوغ الحقيقة ـ مثل التماس في الطاقة الكهربائية الأولى ـ تُصغر حجم الآلام والعذابات الدنيوية، وتجعلها تافهة لا أهمية لها.

فالسحرة الذين خرجوا في البداية لمبارزة النبي موسى عليه السلام الذي هو من أولي العزم، صدقوا وآمنوا به بوجدٍ إيماني رفيع عندما أدركوا الحقيقة الجليلة. وآثروا شرب مدام الشهادة بحماس ووهج إيماني كبير. وأصبحوا في سياحة رحلة إلهية لا نهاية لها متحدّين الآلام والعذابات الدنيوية بتوكل وتسليم عظيم. وهكذا فإن الظلم الذي يتراءى أمام الأعين عذاباً قد تحول بالنسبة إليهم إلى وسيلة للفوز الأبدي، فصاروا من الصالحين الذين تقبلوا القهر والظلم كلطف كبير نزل عليهم من الحق سبحانه وتعالى.

وأما فرعون الذي غلبه الغرور والاستكبار مثل إبليس فقد استمر في عناده وإنكاره للحقيقة الساطعة كالشمس، ويفسر مولانا الرومي حالة المنكرين الذين بلغوا درجة الكفر بعنادهم، بقوله:

«إذا أمعنت النظر فإنك تلحظ بأن إنكار المنكرين ليس لمجرد الإمعان في الإنكار، وإنما بسبب الحسد، فيريد إما قهر وهزيمة خصمه، أو إظهار علو شأنه ومنزلته عليه».

❁

إن جفاء وعذاب الحق سبحانه وتعالى أولى وأهم لدى العباد الصادقين بألف مرة من أفراح ومسرات هذا العالم السرابي والخيالي العابر! وقد نفض هؤلاء الصادقون

أيديهم من الأمور والأشياء التي يظنها عوام الناس ألطافاً وسعادة. يتابع مولانا -رحمه الله- تفسيره لحالة الناس، حيث يقول:

«إن الأشياء التي تُعد من تمام اللطف لعوام الناس، فإنه يُعد قهراً لأهل الله».

«في هذه الحالة ينبغي أن يتعرض الناس للبلاء والآلام حتى يفهموا الفرق بين الصنفين».

يعجز الإنسان عن وصف مقام الرضا الذي بلغه أهل الله، أي مرتبة الفناء في الحق سبحانه وتعالى، بكلمة، أو صوت، أو عبارة، لأن ذلك المقام ذوقٌ بديع فريد مملوء بتجليات الأسرار الإلهية المحجوبة عمن لم يأتلف معها.

ولذلك، عندما قالت رحيمة خاتون لأيوب عليه السلام وهو في أشد أيام مرضه: إنك نبي! لو أنك تسأل الله تعالى الصحة والعافية ليخلصك من هذا المرض!

قال لها أيوب عليه السلام:

- كم كانت الأيام التي قضيتها وأنا أتمتع بالصحة والعافية؟

فقالت رحيمة خاتون:

- لقد كانت ثمانون عاماً.

عند ذلك قال أيوب عليه السلام:

- يا رحيمة! إني أستحي أن أشكو الله تعالى أمري قبل مضي مدة على بلائي ومرضي تساوي على الأقل تلك التي قضيتها في الرخاء والعافية، فلم لا نصبر على ابتلاء الله تعالى، بينما نفرح ونرضى عندما يغدق علينا بالنعم؟ فها أنا راضٍ لأمر ربي!.

إن موقف أيوب عليه السلام هذا يقدم أجمل مثال لحالة الرضا التام، وإن أيوب عليه السلام وعلى الرغم من كل المشقات والمصائب التي حلّت به خلال مرضه تجنب حتى عرض حاله ومرضه على الله تعالى أو سؤاله الصحة والعافية، وذلك لكي لا ينزلق إلى موقفٍ قد يبدو حالة من الشكوى عن مرضه، ولكي يُظهر الصبر الذي يحقق الرضا.

وفي النهاية وبإصرار زوجه، قال بتضرع عبارة قصيرة فقط:

«أنت أرحم الراحمين»

وبموجب هذا الدعاء، ولكي يكون ذكرى رحمة لأولئك الذين في عبوديةٍ دائمة لربهم فقد منح الله ﷻ أيوب عليه السلام الشفاء من المرض وأزال عنه الهم والشدة، وهكذا، فقد أُعيدت إلى أيوب عليه السلام حياته الكريمة السابقة بنتيجة الصبر، والشكر، والتسليم، ومحبة الله تعالى.

لقد بين الله تعالى من خلال كل الأحداث التي جرت لأيوب عليه السلام مدى صبر عبده أيوب وحالة الرضا التي أحاط نفسه بها.

إن حالة رضا وصبر أيوب عليه السلام تُعتبر من أروع الأمثلة التي ينبغي أن يستمد السائرون في طريق الحق ﷻ من السالكين، والدراويش، أن يستمدوا منها العبر والمشاعر الروحانية.

ولقد مهدت المعاناة والآلام التي تعرض لها النبي ﷺ في الطائف، الأرضية اللازمة لحادثة "المعراج" التي لم ينل شرفها أحد من العباد.

وفي تجلٍ آخر، تقدم حالةُ خليل الله إبراهيم عليه السلام مظهراً مختلفاً من مظاهر التسليم والالتجاء إلى الله تعالى:

فعندما ألقي إبراهيم عليه السلام في النار، جاءه جبريل عليه السلام وقال له:

- هل لك حاجة في شيء؟ وهل لك أي طلب مني؟

أما إبراهيم عليه السلام فقال:

- لي حاجة، ولكن ليست إليك!

وبعد ذلك سأل جبريلَ عليه السلام:

- من الذي يعطي قوة الحرق للنار؟

وفي النهاية، انقلبت نار الدنيا في لحظةٍ إلى حدائق غنّاءة بتجلي عشق إبراهيم عليه السلام لربه سبحانه وتعالى. وذلك لأنه قد تجلت في إبراهيم عليه السلام أسرار أسماء الأشياء وهو قد فني في الحق.

❁

يُعد كل ما يأتي من الله تعالى بالنسبة للفانين في الحق سواء أكان لطفاً، أم قهراً وسيلة للسمو والارتقاء الروحي للعبد. فالمنغّصات، والآلام والمعاناة تُعتبر كلها في نظرهم ألطافاً من الله تعالى، وإنهم يمتنعون عن اللجوء إلى استخدام الوسائط مثل إبراهيم عليه السلام

حتى وإن كان جبريل عليه السلام، لأنهم أصبحوا مظهراً للحق، ولم يبق من فرقٍ بينهم وبين الفراشات التي تفنى وتهلك نفسها من أجل نيل نور الضوء.

ولكن ينبغي الانتباه هنا إلى أن من يرمي بنفسه في النار متخذاً لنفسه من حالة عدم إحراق النار لإبراهيم عليه السلام نموذجاً، ومن ثم انتظار ظهور النتيجة نفسها يعتبر متجاوزاً لحده وجاهلاً بنفسه، ونهايته الخسران المبين.ويوضح مولانا الرومي هذه الحقيقة بصورة حسنة، إذ يقول:

«الدخول إلى النار واردٌ في طريق الله، ولكن فلينظر المرء قبل إلقاء نفسه في النار هل تحققت فيه الحالة الإبراهيمية أم لا! لأن النار لا تعرفك، وإنما تعرف إبراهيم فلا تحرقه!..».

وخلاصة القول، فإن قياس المرء نفسه بالكبار من أصحاب مقامات الكمال، ثم إيرادها موارد الخطر والمهالك جهالة لا أصل لها. فالمطلوب منا اتباع الوسائل والتدابير ضمن الإمكانات المتاحة، وترك نتائجها إلى الله بالتوكل عليه والالتجاء إليه.

وفي هذا المقام يقول النبي ﷺ:

«من كان يحب أن يعلم منزلته عند الله تعالى فلينظر كيف منزلة الله تعالى عنده، فإن الله تعالى ينزل العبد منه حيث أنزله من نفسه» [١٣٥١]

وإن المثال الآتي يوضح هذه الحقيقة بشكل جلي:

روي أن النبي ﷺ لقي رجلاً يقال له حارثة في بعض سكك المدينة فقال:

«كيف أصبحت يا حارثة-حارث-؟»

قال حارثة-حارث-: أصبحت مؤمناً حقاً.

قال النبي ﷺ:**«إن لكل إيمان حقيقة فما حقيقة إيمانك؟»**

قال حارثة رضي الله عنه: عزفت نفسي عن الدنيا فأظمأت نهاري وأسهرت ليلي وكأني بعرش ربي بارزاً وكأني بأهل الجنة في الجنة يتنعمون فيها وكأني بأهل النار في النار يعذبون.

فقال عليه الصلاة والسلام: «**أصبت فالزم، مؤمن نور الله قلبه**»[١٣٥٢]

١٣٥١. الحاكم، المستدرك، ١، ٦٧٢/ ١٨٢٠.

١٣٥٢. الهيثمي، مجمع الزوائد، ١، ٥٧/ ١٩٠.

وفي حديث آخر يقول النبي ﷺ عن حارثة رضي الله عنه:

«من سرّه أن ينظر إلى من نوّر اللّه قلبه فلينظر إلى الحارث ابن مالك» [١٣٥٣]

ويقول الله ﷻ واصفاً حال الصالحين في كتابه العزيز:

﴿... رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ...﴾ [١٣٥٤]

وإن العباد الصالحون يدعون مثل سليمان عليه السلام:

﴿... رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ﴾ [١٣٥٥]

ويقول الله تعالى في الآية الكريمة:

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾ [١٣٥٦]

إن سبب نزول هذه الآية الكريمة يسترعي الانتباه كثيراً:

عندما أراد صهيب الرومي رضي الله عنه قصدَ الهجرة إلى النبي ﷺ وأثناء خروجه من مكة، خرج في إثره جماعة من قريش للإمساك به وإعادته مجدداً إلى مكة المكرمة. فلما أحس صهيب رضي الله عنه بتعقبهم له نزل عن ناقته واختبأ عن الأعين، وثم أخذ سهماً من جعبته ووضعه في قوسه وبات ينتظر، ولما أصبح القرشيون على مسافة مرمى السهم منه، ناداهم:

- يا معشر قريش! تعلمون أني أمهركم في رمي السهام، وسوف أمطركم بكل السهام التي في جعبتي قبل أن تصلوا إلي، وثم سآخذ سيفي بيدي وأقاتلكم به حتى آخر جزء يتبقى منه في يدي، وبعدها يمكنكم أن تفعلوا بي ما تريدون، ولكن إن كنتم تودون غير هذا فإني سوف أعلمكم عن مكان أموالي التي تركتها في مكة، فتأخذوها وتخلّوا بيني وبين ما أنا مقدم عليه، ودعوني أذهب في سبيلي.

فقبل منه القرشيون هذا العرض، وتركوه وشأنه. [١٣٥٧]

١٣٥٣. ابن حجر، الإصابة، ١، ٢٨٩.

١٣٥٤. البينة: ٨.

١٣٥٥. النمل: ١٩.

١٣٥٦. البقرة: ٢٠٧.

١٣٥٧. ابن الجوزي، زهد المسير، ١، ٢٢٣؛ ابن كثير، التفسير، ١، ٢٦٠- ٢٦١.

وبعدها خرج صهيب ﷺ في طريقه إلى المدينة المنورة دون إضاعة مزيد من الوقت. وأنزل الله تعالى هذه الآية على النبي ﷺ في المدينة المنورة، وعندما رأى النبي ﷺ في المدينة قال له:

«يا أبا يحيى، ربح البيع»

فقال صهيب ﷺ: يا رسول الله، ما سبقني إليك أحدٌ، وما أخبرك إلا جبريل.[١٣٥٨]

يقول الله تعالى في كتابه العزيز:

﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[١٣٥٩]

ويقول تعالى في الآية التالية:

﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾[١٣٦٠]

إن كل هذه النعم المعدودة في الآية الكريمة وُعد بها أهل الإيمان والعمل الذين في المراتب الأولى. وإن شيئاً صغيراً من رضا الله تعالى لأكبر من كل تلك النعم المعدودة للجنة. لأن مصدر كل خير، وكل سعادة، وكل شرف وسمو هو الله تعالى.

وإن الله سبحانه وتعالى يمتدح عباده الصالحين الذين ينفقون أموالهم في سبيل نيل رضاه، حيث يقول:

﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِنْ لَمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾[١٣٦١]

١٣٥٨. الحاكم، المستدرك، ٣، ٤٥٠- ٤٥٢/ ٥٧٠٦.

١٣٥٩. التوبة: ٧١.

١٣٦٠. التوبة: ٧٢.

١٣٦١. البقرة: ٢٦٥.

ويقول في آية أخرى:

﴿وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ﴾ [١٣٦٢]

إن أعلى مقام يمكن للإنسان الوصول إليه في طريق الحق هو مقام رضا الله تعالى عن العبد، وهذا المقام بدوره مكافأة للعبد على رضاه عن ربه والتسليم له في كل أموره.

عندما سئل عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه: ماذا تحب؟

قال لهم: إن بهجتي هي في المقدّرات فقط، وإني أحب حكم الله تعالى...

يقول الله تعالى في كتابه الكريم:

﴿قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [١٣٦٣]

وقال رسول الله ﷺ:

«إن الله تبارك وتعالى يقول لأهل الجنة: يا أهل الجنة؟ فيقولون: لبيك ربنا وسعديك، فيقول: هل رضيتم؟ فيقولون: وما لنا لا نرضى وقد أعطيتنا ما لم تعط أحدا من خلقك، فيقول: أنا أعطيكم أفضل من ذلك، قالوا: يا رب، وأي شيء أفضل من ذلك؟ فيقول: أحل عليكم رضواني، فلا أسخط عليكم بعده أبدا» [١٣٦٤]

❁

إن الرضا هو الثمرة النهائية للمحبة، وإن العبد الذي يمتلئ قلبه بالعشق، يحتضن كل ما هو آت إليه من ربه وبنسبة محبته بالامتنان والقبول، وإن العاشق حتى لو شعر بقسوة الألم فإنه يزداد بالرضا أكثر، ويبلغ مرحلةً يرغب ويهوى فيها المعاناة، فهو يرضى بالألم العابر الآن من أجل نيل المكافأة التي تنتظره في المستقبل، وقد كان شقيق البلخي رحمة الله عليه يقول: «العارف بمكافأة الشدائد لا يحرص على التخلص منها!»

١٣٦٢. الرعد: ٢٢.

١٣٦٣. المائدة: ١١٩.

١٣٦٤. البخاري، الرقاق، ٥١/ ٦٥٤٩؛ مسلم، الجنة، ٩/ ٢٨٢٩.

لأن المريض لا يبالي بمرارة الدواء من أجل الشفاء، وحتى أنه يقبل بمحض إرادته أشد أخطر العمليات الجراحية.

وإن المرتبة العليا للرضا مرتبطةٌ بقصد إسعاد قلب المحبوب، وأما رضا الله تعالى فهو أعلى من نعيم الجنة، وإن محبة العبد التي في هذا المقام تحييه في عالم لا يشعر فيه بالألم، حتى ولو لا يعلم الذين لم يصلوا إلى ذوق المحبة بهذه الحالة، فإن هناك حالات عجيبة للعشاق أكثر مما نفهمه وندركه.

ولكن بالرغم من كل هذه الأحوال ينبغي علينا التوضيح في هذا الشأن بأنه:

لا ينبغي طلب الامتحان بالبلاء والمصائب من الله تعالى من منظور كبر حجم المكافأة على الرضا عن الآلام والمعاناة، وذلك لأن العبد قد لا يتمكن من تعيين الحمل الذي بوسعه تحمله، وبالتالي يرزح تحت وطأة الشدائد التي ستقع عليه ولا يتمكن من تحملها. وأما إن جاءت هذه المصائب من الله تعالى، فعلينا أن نعلم بأن الله ﷻ لا يكلف ولا يُحمل عبداً أكثر مما يحتمل!

كان في أحد العصور شخص يُدعى جان بابا، ومن شدة تلذذه بعشق ومحبة الله تبارك وتعالى كان قد تجاوز نفسه، وفي أحد الأيام فتح يديه إلى الإله العلي القدير قائلاً:

«يا رب! ليست لي نشوة ولذة من غيرك! فامتحني بالشكل الذي تريده لي!"

فأصيب الرجل بعد ذلك بابتلاءٍ شديد، ولكن عندما بدأت طاقته بالضعف والنفاد نتيجة تقدم عمره، أصبح قلبه يعتصر بنيران الندامة وصار يذهب إلى أبواب مدرسة يتلقى فيها التلاميذ الصغار الدروس، ويقول لكل ولد صغير يخرج من أمامه متوسلاً إليه:

«يا بني! ادع لعمّك الشيخ الكذاب هذا ليتفضل الله تعالى عليه بالشفاء!».

ومن جهة أخرى، فإن القبول بالأعمال السيئة، وبالأشياء التي تقود الإنسان إلى الفسوق ليس من الرضا في شيء، فإن الرضا بالعصيان، والفجور، والكفر من أكبر الغفلات والجهالات، وهناك عدد لا يحصى من التحذيرات الإلهية في هذا الخصوص، يقول الله تعالى في أحد هذه التحذيرات:

﴿لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ...﴾ [١٣٦٥]

١٣٦٥. آل عمران: ٢٨.

أي أن السكوت في مواجهة مرتكبي المعاصي ليس من الرضا.

إن بمتابعة والانتباه إلى الرجال ذوي القامات الكبيرة وكيفية نيلهم لهذا الكمال المتسامي، وتكوينهم لشخصياتهم المتميزة، نشاهد أنهم جميعاً قد اكتووا بنيران آلاف البلايا، والآلام والشدائد حتى وصلوا إلى ذلك الكمال الذي هم فيه.

ومما يلفت الانتباه أن الولي الكبير بهاء الدين نقشبندي قدس الله سره الذي أنيرت عوالم قلبه بالروحانية، قد كُلف من قبل المرشد أمير كُلال لخدمة الناس مدة سبع سنوات، وأُسندت إليه مهمات مثل مداواة الحيوانات المريضة التي تخلى عنها أصحابها وأُبعدت عن الناس، وتنظيف الطرقات التي يسير عليها الناس وغيرها من الأعمال التي يأنفها عامة الشعب. وقد وفّى وأدى هذه الإعمال بكل وجد ومحبة، وفي نهاية الأمر أوصلته العذابات، والآلام، والمعاناة التي لقيها من تلك الخدمات، أوصلته إلى الأسرار الإلهية لمقامات لا يمكن لأحد بلوغها، وإن البيتين الآتيين يعبران بشكل رائع عن كيفية وصوله إلى ذلك المقام السامي ضمن مناخ من التواضع والعدم:

الناس قمح وأنا قشره،

الكل طيبون، وأنا السيء!

وعلى ضوء هذه الحقيقة يقول مولانا رحمه الله:

«السبيل الوحيد للخلاص من أسر المعصية هو الألم، والمعاناة، والمشقة!».

ولكن إذا لم توقظ أو تنبّه هذه الأمور أهلَ الدنيا، أي الذين يعيشون حياتهم على هوى ورغبة أنفسهم الأمارة بالسوء معتقدين أن في ذلك سعادتهم المنشودة، فإنهم يهلكون تحت وطأة مخالب أنفسهم الحادة، وحسب نظر أهل الله فإن هذا هو القهر الحقيقي.

فالسعادة الأخروية تتطلب منا عدم الافتتان بالجاذبية العابرة للدنيا، وألحانها الخادعة. حيث تروي لنا أم المؤمنين زوج النبي ﷺ حفصة رضي الله عنها أحد تصرفات الرسول عليه الصلاة والسلام والتي تعكس موقفه من الدنيا، فتقول:

– كان له مِسْحًا نثنيه ثنيتين فينام عليه ، فلما كان ذات ليلة قلت: لو ثنيته أربع ثنيات لكان أوطأ له فثنيناه له بأربع ثنيات، فلما أصبح قال: «**ما فرشتم لي الليلة**» قالت: قلنا: هو

فراشك إلا أنا ثنيناه بأربع ثنيات، قلنا: هو أوطأ لك قال: «**ردوه لحالته الأولى، فإنه منعتني وطاءته صلاتي الليلة**» [١٣٦٦]

❁

إن سبيل الأنس الإلهي هو المحبة، ومن شأن المحب اتباعه وطاعته للمحبوب، فالمحبون مجبرون على تلقي كل ما هو آت إليهم من محبوبهم بالرضا والقبول الحسن، إذ المُحب لمن يحب مطيع، ولا يفارق ذكر المحبوب لسان وقلب المحبين، فالقلوب التي تلهف إلى حياة ملؤها الصفاء والبهجة تداوم على زيادة ذكر الله تعالى، فتذكر الله تعالى في كل الأحوال قياماً، وقعوداً، وعلى الجنب، وتغرق بالتفكير في خلق السماوات والأرض وبالحكم الدقيقة والعظيمة الظاهرة منها والخفية وراء هذا الكون العجيب، لتقول بلسان حالها:

﴿... رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ [١٣٦٧]

ويقول الله تعالى يوم القيامة لأرواح عباده الذين رضوا عنه:

﴿ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً. فَادْخُلِي فِي عِبَادِي. وَادْخُلِي جَنَّتِي﴾ [١٣٦٨]

فيكرمهم بالنعيم الأبدي الخالد، ويشرفهم بجمائله التي لا يحدها وصف.

يا رب! اجعلنا من عبادك الذين ينالون رضاك، ويتوكلون عليك حق التوكل، ويسلمون لأمرك في كل أحوالهم!

آمين!..

١٣٦٦. الترمذي، الشمائل، ١، ١٨٨/ ٣١٢.

١٣٦٧. آل عمران:١٩١.

١٣٦٨. الفجر: ٢٨ - ٣٠.

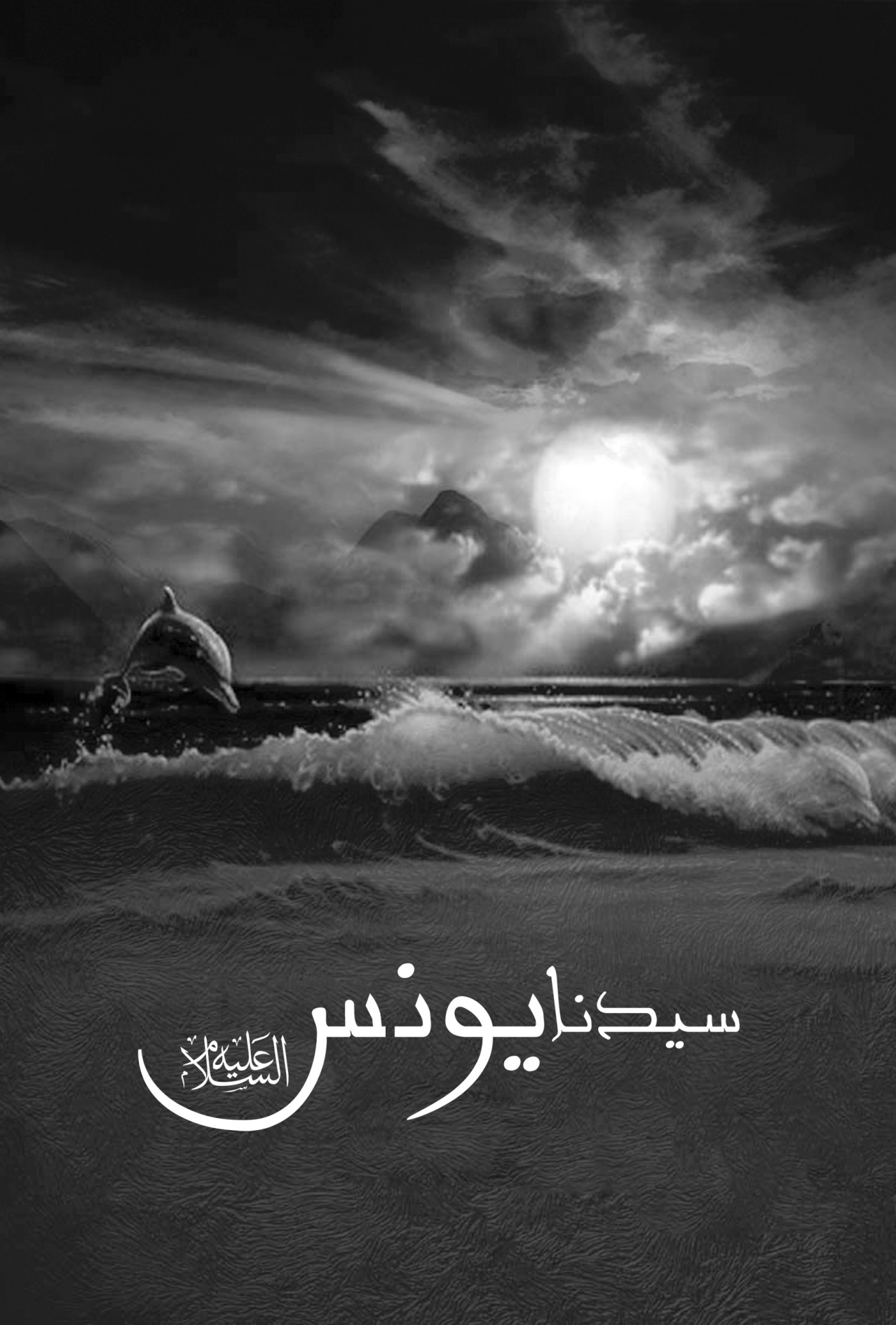
سیدنا یونس
علیہ السلام

سيدنا يونس عليه السلام
الذي تجاوز الظلمات غرقاً في أعماق حقيقة الذكر والدعاء والاستغفار ضمن حالةٍ من الوجد

سيدنا يونس عليه السلام الذي أنزلت سورة في القرآن الكريم باسمه، هو النبي المرسل إلى شعب نينوى [١٣٦٩] عاصمة دولة الآشوريين، وحسب التوقعات فإنه عاش في عصر الثمانينات قبل الميلاد، ووالده هو«متى» الرجل الصالح.

لقد وُلد سيدنا يونس عليه السلام في نينوى وترعرع فيها، وعندما بلغ عمره الثلاثين عاماً كلفه الله تعالى بمهمة النبوة، ويقول علي رضي الله عنه:

«أصبح سيدنا يونس عليه السلام نبياً وعمره ثلاثون عاماً، ودعا قومه إلى الإيمان لسنوات طويلة».

وقد وردت آيات في القرآن الكريم تتعلق بشأن نبوة يونس عليه السلام:

﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [١٣٧٠]

﴿وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ﴾ [١٣٧١]

﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا﴾ [١٣٧٢]

١٣٦٩. مدينة نينوى، هي مدينة تقع في محيط مدينة موصل الحالية على شاطئ نهر دجلة.
١٣٧٠. الصافات: ١٣٩.
١٣٧١. الصافات: ١٤٧.
١٣٧٢. النساء: ١٦٣.

شعب نينوى:

لقد كان أهل نينوى يعبدون الأصنام والهياكل، لأنهم كانوا من الظالمين، وعندما بدأ يونس عليه السلام بدعوتهم إلى التوحيد، آمن به من القوم شخصان فقط، أما أحدهما فكان عالماً حكيماً، وأما الثاني فكان عابداً زاهداً، إلا أن القوم الآخرون قالوا ليونس عليه السلام:

إنك تخرج علينا لوحدك لتخبرنا بخطأ سبيل آبائنا وأجدادنا، بينما يوجد بيننا الكثير من الكهنة، والعلماء، وأولو الصنائع والفنون! إنك بقولك هذا تنكر آلهتنا! أتريد أن تقيد أرجلنا بحكم من لم يألفه ولم يعتد عليه أحد؟!

ولكنهم لم يكتفوا بالاعتراض على يونس عليه السلام بالكلام، وإنما أذاقوه مختلف أنواع العذاب والأذى، وأما يونس عليه السلام فقابل إيذاءهم وإساءتهم إليه بالصبر والتحمل، واستمر في دعوتهم إلى التوحيد بقلب مليء بالرحمة والشفقة، وكان يذكرهم ويحذرهم من عذاب الله الشديد، إلا أنهم استهزأوا بنصائحه ومواعظه، وقالوا له:

- إن كان سيأتي العذاب ويمحق الجميع من أجل شخص واحد، فاعذرنا، وليأتنا ذلك العذاب.

لقد أصاب يونسَ عليه السلام حزن عميق بسبب عناد قومه وإصرارهم الشديد على الكفر، فلم يستطع تحمل المزيد، وفارق القوم دون انتظار ورود الإذن الإلهي، وبينما هو في طريق الذهاب جاءه الوحي من الله تعالى:

- أن يا يونس! عد إلى القوم؛ وادعهم إلى الإيمان لأربعين يوم جديد!.

أطاع يونس عليه هذا الأمر الذي تلقاه من ربه، وعاد إلى قومه من جديد، فأخبرهم بأمر الله تعالى وعذابه، ولكنهم لم يتعظوا أبداً، وعندما مر سبعة وثلاثون يوم على مدة الأربعين يوم التي أمره الله تعالى أن يقضيها في دعوة القوم إلى الإيمان، ولم يكن القوم قد آمنوا بعد، قال لهم يونس عليه السلام:

- انتظروا العذاب الذي سوف يحل بكم لثلاثة أيام!.

وفارق القوم من جديد دون انتظار الأمر الإلهي، والحزن العميق يلفه.

ولم تكن مفارقته القوم هروباً من الوظيفة الإلهية، ولا عصياناً للأمر الإلهي الذي جاءه، وإنما تصرفه كان فقط بنية الابتعاد عن القوم العصاة الرافضين للدعوة الجليلة السامية.

الإيمان والتوبة والعفو:

لم يطل الانتظار واقترب موعد اليوم الذي أخبر به سيدنا يونس عليه السلام، وبدأت العلامات المنبئة بالعذاب تلوح في الأفق، فاصفرت وجوه أهل نينوى جميعاً، وشحبت ألوانهم، وأدركوا كل شيءٍ، فقالوا لبعضهم والخوف من العذاب القادم يتصاعد من وجوههم:

- إذاً، هذه علامة العذاب الذي حذرنا منه يونس عليه السلام! فلم نرَ منه الكذب أبداً إلى يومنا هذا.

بدأت السماء تسوّد من فوقهم، وكان الجميع في حالة استغاثة ونداء، وبحثوا بيأسٍ عن باب أمل ينفذون منه، وقالوا لبعضهم:

- إن كان يونس عليه السلام ما زال قائماً بيننا فلا تخافوا! أما إن كان قد غادرنا فسوف يهلكنا العذاب!.

وأصابتهم ندامة بالغة، وامتلأت قلوبهم بالندم على ما اقترفت يداهم، لأن العذاب الإلهي قد أصبح قاب قوسين أو أدنى منهم، فهرعوا في حالة من لا يعرف ماذا يفعل وفي اشتياقٍ كبير للتوبة، هرعوا إلى شخصٍ صالح بينهم.

فقال لهم:

- ما زال يوجد يومان على حلول موعد العذاب، فاصعدوا إلى تلك التلة "تلة التوبة"! وسامحوا بعضكم البعض وأعيدوا الحقوق المغتصبة إلى أصحابها! ومن بعد ذلك اذبحوا قرابين من أجل إله يونس، وليأكل الجميع كباراً وصغاراً، أغنياءً وفقراءً من هذه القرابين! ومن ثم اكشفوا عن رؤوسكم وتوسلوا إلى الله بدعائكم:

«يا رب يونس! ها نحن قد تبنا إليك، وآمنا بك، وقبلنا بنبوة يونس، وإن وجدنا يونس فإننا سوف نتعلم منه أوامرك ونواهيك ونعمل على تطبيقها فيما بيننا!».

نفّذ أهل نينوى كل الكلام الذي طُلب منهم والدموع تنهمر من أعينهم، وقبل الله تعالى باسمه الشريف "الرحمن"، قبل توبتهم ورفع عنهم ذلك العذاب الإلهي، وكان ذلك اليوم هو يوم الجمعة ويوم عاشوراء، ويقول الله تبارك وتعالى في هذا الشأن في كتابه العزيز:

﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ﴾ [١٣٧٣]

إن قوم يونس عليه السلام كانوا القوم الوحيد الذين أشرفوا على الهلاك بسبب كفرهم وعدم إيمانهم، ونجوا منه بالتوبة والإيمان، وهذه من التجليات المميزة للطف الإلهي، وإن الآيات الكثيرة الواردة في سورة يونس عليه السلام تبين أن رحمة الرحمن أوسع وأكثر من العذاب الإلهي.

عندما فارق يونس عليه السلام نينوى:

يقول الله تعالى في الآية الكريمة:

﴿وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا...﴾ [١٣٧٤]

ذو النون هو لقب يونس عليه السلام، ويأتي بمعنى "صاحب الحوت". وقد أُطلق عليه هذا اللقب بسبب ابتلاع الحوت إياه.

عندما غادر يونس عليه السلام مدينة نينوى اتجه إلى شاطئ نهر دجلة. وركب سفينة كانت هناك. حيث يقول الله تعالى في ذلك:

﴿إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ﴾ [١٣٧٥]

وبعد إبحار السفينة بمدة من الوقت توقفت وسط المياه، ولم يتمكن الربان من تسييرها بشكل من الأشكال، اعتبر من كان على ظهر السفينة تحت وطأة هواجس اضطراب السفينة وإشرافها على الغرق أنّ حالةً من النحس قد أصابتهم فتشاءموا منها، واعتقدوا أن ما يحصل لهم بسبب وجود شخصٍ مذنب معهم في السفينة.

واتفقوا على إجراء القرعة لمعرفة ذلك الشخص، فوقعت القرعة على يونس عليه السلام، وقد أدرك يونس عليه السلام أن ما جرى له هو امتحان رباني، فقال بكل توكل:

- أجل، إن ذلك العاصي هو أنا!

١٣٧٣. يونس: ٩٨.

١٣٧٤. الأنبياء: ٨٧.

١٣٧٥. الصافات: ١٤٠.

ولكن لإدراك من كانوا على ظهر السفينة بأنه رجل صالح لما يبدو من مظهره وحالته، فقد كرروا القرعة عدة مرات، ولكن القرعة دائماً كانت تقع على يونس عليه السلام، وفي النهاية قالوا بشكل يائس:«في كل الأحوال لا بد أن لهذا العبد ذنب ما» ورموا سيدنا يونس عليه السلام في غمار المياه. ويقول الله تبارك وتعالى في ذلك:

﴿فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ﴾ [١٣٧٦]

﴿... فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ...﴾ [١٣٧٧]

﴿فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ﴾ [١٣٧٨]

وأصبح يونس عليه السلام في بطن حوتٍ، يحيط به ظلام دامس مطبق، وهو لا يزال على قيد الحياة، ويحتفظ بكامل وعيه وشعوره. فلقد أمر الله عز وجل الحوت بأن لا يلحق به جرحاً ولا يمسّ عظامه بأي سوء. وأظهر يونس عليه السلام الرضا بالتقدير الإلهي، وسلم أمره لربه سبحانه وتعالى، يخبرنا الله تعالى عن حاله هذه في كتابه الكريم، حيث يقول:

﴿...فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [١٣٧٩]

وفي هذه الأثناء تناهت إلى مسامعه بعض الأصوات وهو في بطن الحوت، فأصابه القلق والفضول لمعرفة هذه الأصوات. فأوحى الله عز وجل إليه أنه في بطن الحوت، وقال له:

«يا يونس! إن هذه الأصوات هي صوت الأحياء الذاكرين لربهم في البحر».

وحتى في هذه الظروف الصعبة والضيقة فإن يونس عليه السلام بذل غاية جهده كما في كل أوقاته لكي لا يقصر في ذكر الله تعالى وتسبيحه، فانشغل بالاستغفار والدعاء، ولدى اطلاع الملائكة على حال يونس عليه السلام توجهوا إلى الله تعالى يشفعون له، وفي نهاية الأمر وبعد التسبيح والاستغفار الكثير من يونس عليه السلام، واعترافه بالذنب الذي اقترفه بقوله:

«لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين»

١٣٧٦. الصافات: ١٤١.

١٣٧٧. الأنبياء: ٨٧.

١٣٧٨. الصافات: ١٤٢.

١٣٧٩. الأنبياء: ٨٧.

غفر الله تعالى لنبيه المبارك، وعفا عنه، حيث يقول ﷻ:

﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ﴾ [١٣٨٠]

إن السبب الوحيد للعفو عن يونس عليه السلام هو كثرة تسبيحه، حيث يقول الله ﷻ:

﴿فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ. لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [١٣٨١]

لقد نجا يونس عليه السلام من خلال ذكره لربه سبحانه وتعالى، وإدراكه خطأه، والتوكل على الله ﷻ. وقد أصبحت هذه الحالة وسيلة لنعمة ورحمة عظيمة بالنسبة ليونس عليه السلام.

ومن الأمور المهمة في هذا الشأن، أن يونس عليه السلام لم يصبر على مهلة الأربعين يوم من أجل هلاك قومه، إذ صبر مدة سبعة وثلاثين يوماً، ولم يصبر على الأيام الثلاثة الباقية. ومقابل ذلك فإن الله تعالى حبسه في بطن الحوت من أجل تعليمه الصبر، وهو تابع للامتحان الكبير الذي تعرض له يونس عليه السلام.

وفي نهاية الأمر، ترك ذلك الحوت الذي حمل يونس عليه السلام مثل أمانة في بطنه، تركه على الساحل. حيث يقول الله تعالى:

﴿فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ. وَأَنْبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِنْ يَقْطِينٍ﴾ [١٣٨٢]

وعندما أخرج الحوت يونس عليه السلام من بطنه وتركه على الساحل، كان قد أصابه الضعف، والإغماء، والمرض وكان في أمس الحاجة إلى الحماية والعون، حيث كان جسده محاطاً بغشاء هلامي، وقد أصبح الجو يزداد حرارة، ولكي يحميه الله تعالى من حرارة الشمس المحرقة أنبت عليه نبتة ذات أوراق واسعة وكثيفة، ولم يكن في ظل هذه النبتة أية حشرات أو ذباب. ومن جهة أخرى فقد قطَر الله تعالى الحليب من هذه النبتة على يونس عليه السلام.

وعندما استجمع يونس عليه السلام نفسه، واستعاد قواه، توجه إلى نينوى. ولدى وصوله إلى مقربة من المدينة صادف راعياً في طريقه، فسأله عن حال القوم، فقصّ عليه الراعي كل ما جرى لهم من أحداث، وأخبره بأن قومه قد آمنوا بالله تعالى، وتابوا مما كانوا فيه

١٣٨٠. الأنبياء: ٨٨.

١٣٨١. الصافات: ١٤٣- ١٤٤.

١٣٨٢. الصافات: ١٤٥- ١٤٦.

من الذنوب والمعاصي، وهكذا فإن الله تبارك وتعالى قد عفا عنهم وغفر لهم، وقال له بأن الجميع في انتظار عودة نبي الله يونس عليه السلام من أجل تعليمهم الأوامر الإلهية.

ولما وصل خبر عودة سيدنا يونس عليه السلام إلى قومه توجهوا إليه من فورهم وجاؤوا إليه. وفي هذه الأثناء كان يونس عليه السلام في الصلاة. وبعد انتهائه من الصلاة احتضنه القوم بحسرة وشوق معتذرين إليه عما بدر منهم تجاهه. فأبدى لهم سيدنا يونس عليه السلام العفو والمسامحة، ومن ثم علمهم أوامر الله تبارك وتعالى ونواهيه، وبعد كل ما جرى تحولت حالة قومه إلى طاعة الله سبحانه لاتعالى ونبيه عليه السلام، وعاشوا حياة مليئة بالسعادة والخيرات. حيث يقول الله عز وجل:

﴿فَآمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ﴾ [١٣٨٣]

يتطلب من أصحاب دعوى الحق التحرك والعمل بكل صبر، وأناة، وعزيمة. ولأن سيدنا يونس عليه السلام قد أصابه سأمٌ كبير من قومه وفارقهم من شدة ما عاناه من الآلام دون انتظار نزول الوحي الإلهي عليه، فقد اُعتبر متعجلاً في أمره وفاقداً للصبر، فعلى الرغم من أنه كان في ظروف شديدة وصعبة للغاية، إلا أن هذا التصرف عُدّ بمثابة زلة في حقه.

وأما نبينا محمد ﷺ فقد تحمل كل ما لاقاه على أيدي مشركي مكة من الظلم، والأذى، والجفاء، وظل صابراً محتسباً، ومنتظراً حتى مجيء الأمر الإلهي بالهجرة إلى المدينة المنورة. وفي نفس الوقت فقد أذن الله تعالى لنبيه عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم بالهجرة، هذا الإذن الذي جاء في ماهية دعاء في القرآن الكريم:

﴿وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَصِيرًا﴾ [١٣٨٤]

ويذكر الله تعالى قصة يونس عليه السلام وسبب تركه لقومه دون إذن منه، يذكرها لنبينا ﷺ من أجل حثّه على الصبر على الشدائد والمصاعب التي تواجهه في أداء مهمة الرسالة، حيث يقول الله عز وجل في هذا الشأن:

١٣٨٣. الصافات: ١٤٨.

١٣٨٤. الإسراء: ٨٠.

﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْظُومٌ. لَوْلَا أَنْ تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِنْ رَبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ. فَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [١٣٨٥]

فلأن يونس عليه السلام كان من الذاكرين لله كثيراً، فقد أظهر أنه أهل للخلاص من البقاء في بطن الحوت حتى يوم القيامة، وإخراجه منه من جديد. ولهذا السبب فقد جاء في الآية الكريمة:

﴿فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ﴾ [١٣٨٦]

إن الآية / ٤٩ / من سورة القلم متعلقة بحال يونس عليه السلام بعد استحقاقه الإخراج من بطن الحوت. وحسب المعنى الذي يُفهم من هذه الآية الكريمة، هو أنه لو لم يقبل الله تعالى توبة يونس عليه السلام، ولو لم يرد الوحي إليه من جديد وإرساله إلى قومه من أجل القيام بمهمة التبليغ، لكان قطعاً ترَكَه في ذلك المكان المعزول، وفي حالةٍ لا تروق له أبداً. ولكن قبول توبته أصبح مظهراً للعفو عنه ووصل إلى الخلاص والنجاة، وعندما تم إخراج يونس عليه السلام من بطن الحوت إلى مكان مقفر خالٍ من النباتات والأبنية، لم يكن يونس عليه السلام في حالة سيئة، ومذمومة. فكما يفهم ويستنتج من سورة الصافات، فهو على الرغم من وقوعه في حالة ضعف مادية، إلا أنه نال اللطف الإلهي واستعاد عافيته وشفاءه خلال مدة قصيرة، وأعيدت إليه صحته. وذلك لأنه نال عفو ورحمة ربه ﷻ، وكان نبياً صالحاً مُختاراً من الله سبحانه وتعالى.

العبر المستنتجة من قصة يونس عليه السلام:

١. الدقة، والثبات، والصبر في التبليغ.
٢. أهمية الذكر والاستغفار.
٣. قبول التوبة المترافقة مع الإخلاص
٤. قبول التوبة في سكرات الموت ميزة خاصة بقوم يونس عليه السلام.

١٣٨٥. القلم: ٤٨ – ٥٠.
١٣٨٦. الصافات: ١٤٥.

ولكن حالة السكرات هذه لم تكن حالة تامّة لسكرات الموت، وذلك لأنه عندما تاب قوم يونس عليه السلام لم يكن العذاب قد حلّ بهم بعد، وإنما بدت أمارات العذاب فقط، ولمعرفتهم بأن يونس عليه السلام لم يكذب من قبل أبداً، أدركوا بأن العذاب الذي وُعدوا به محققٌ لا محالة، فأسرعوا من فورهم إلى التوبة، بينما حالة الهلاك التي حلّت بالأقوام الأخرى لم تكن مشابهة لهذه، فمثلاً، إيمان فرعون كان بعد تحقق العذاب والموت، ولذلك لم يقبل منه لأنه كان في حالة يأس تام.ويقول النبي ﷺ عن فضل يونس عليه السلام بعبارة تتضمن منتهى تواضعه، حيث قال:

«لا ينبغي لعبد أن يقول: أنا خير من يونس بن متى» [١٣٨٧]

١٣٨٧. البخاري، الأنبياء، ٣٥/ ٣٣٩٥؛ مسلم، الفضائل، ١٦٦/ ٤٣.

سيدنا يونس عليه السلام
نينوى
الموصل
الفرات
نصيبين
حرّان
حلب
حماة
حمص
أنطاكية
بادية الشام
دمشق
طرابلس
بيروت
طبريا
الناصرة
عمّان
البحر الأبيض
قبرص
يافا
القدس

سيدنا إلياس
عليه السلام

سيدنا إلياس عليه السلام
الذي ترك مجداً رفيعاً،
حتى قيل من بعده «سلام على إلياس»

هو من نسل هارون عليه السلام، ومن الأنبياء الذين أُرسلوا إلى بني إسرائيل، يقول الله سبحانه وتعالى:

﴿وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [١٣٨٨]

عندما استولى بنو إسرائيل على فلسطين سكنت إحدى قبائلهم في بعلبك. وكان يحكمها ملك ظالم، وحسب الروايات فإن اسم المدينة كان في السابق «بك»، إلا أن ذلك الحاكم الظالم أمر بصنع صنم باسم "بعل" وأجبر الناس على عبادة هذا الصنم، وبعد ذلك مُزج الاسمان ببعضهما، وصار الناس يطلقون عليها اسم «بعلبك» [١٣٨٩]

وها هو ذا إلياس عليه السلام أُرسل إلى المدينة نبياً لكي يدعو الناس الذين ابتعدوا عن التوحيد ووقعوا في الشرك، يدعوهم إلى الحق.

وقد كان الصنم الذي يعبده الناس يبلغ طوله عشرة أمتار تقريباً ومصنوعاً من الذهب.

فكان إلياس عليه السلام يقول لهم:

«دعوا عبادة صنم بعلبك! وآمنوا بالله تعالى خالق كل شيء واعبدوه وحده!»

حيث يقول الله تبارك وتعالى:

﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلَا تَتَّقُونَ. أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ. اللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ﴾ [١٣٩٠]

١٣٨٨. الصافات: ١٢٣.

١٣٨٩. حالياً يُطلق على هذه المدينة اسم «بعلبك».

١٣٩٠. الصافات: ١٢٤- ١٢٦.

إلا أن بني إسرائيل لم يصغوا لنصائح إلياس عليه السلام، وأخرجوه من البلدة التي يقطنونها، ولذلك فقد حلت برؤوسهم مختلف أنواع المصائب والبلايا، وفي نهاية الأمر أدركوا الحقيقة فبحثوا عن إلياس عليه السلام ووجدوه، فآمنوا به ونجوا وتخلصوا من كل الشدائد التي أصابتهم.

ولكن لأنهم قوم متقلبون، لم يثبتوا على دينهم وانحرفوا إلى العصيان من جديد، وفارقوا السبيل القويم، وعلى الرغم من الجهود التي بذلها إلياس عليه السلام في نصحهم وإرشادهم إلا أنهم لم يلقوا إليه بأسماعهم. وأمام هذا الكفر والعناد فارق إلياس عليه السلام القوم وخرج من بينهم بناءً على أمر إلهي. فدمّر وتفرق جميعهم، وأصبحوا عرضة للعقاب والعذاب في الدنيا والآخرة.

حيث يقول الله عز وجل في كتابه العزيز:

﴿فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ. إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾ [١٣٩١]

وبعد أن غادر إلياس عليه السلام مدينة بعلبك مرّ بقرية، ودعا الناس هناك إلى الإيمان، فقبل أهل تلك القرية الدعوة الإلهية وطلبوا منه الإقامة بينهم في القرية. فنزل إلياس عليه السلام ضيفاً في بيت امرأة مسنّة، وكان لدى تلك المرأة ابن مريض، فصلى إلياس عليه السلام ركعتين ودعا الله تعالى من أجل شفاء الولد، فبرئ الولد من مرضه، وأصبح مرافقاً لإلياس عليه السلام منذ ذلك الوقت ولم يفارقه أبداً، وتعلم منه التوراة، وكان اسمه اليسع.

والخلاصة، فإن إلياس عليه السلام قد انتقل إلى الرفيق الأعلى بعد أن خلّف صدىً جميلاً في السماء «ذكراً طيباً». وأصبح مظهراً للطف والالتفات الإلهي، فيقول الله في حقه في القرآن الكريم:

﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ. سَلَامٌ عَلَى إِلْ يَاسِينَ. إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ. إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ﴾ [١٣٩٢]

يروى أن إلياس عليه السلام لما أبصر ملك الموت عزرائيل عليه السلام ارتجف وسط دهشة شديدة، تعجب عزرائيل عليه السلام من هذا الأمر وأخذه الفضول لمعرفة السبب، فسأله:

١٣٩١. الصافات: ١٢٧-١٢٨.

١٣٩٢. الصافات: ١٢٩- ١٣٢.

- يا نبي الله! هل خفت من الموت؟

فأجاب إلياس عليه السلام:

- لا! ليس هذا بسبب خوفي من الموت، وإنما أنا في هذه الحالة لأني سوف أودع الحياة الدنيا...

وتابع حديثه قائلاً:

إني أبذل جهدي في الحياة الدنيا لأداء واجب العبودية لله تعالى، والعمل على القيام بواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأحاول تمضية أوقاتي بالعبادات والأعمال الصالحة، والعيش وفق الأخلاق الحسنة.

وإن هذه الحالة تصبح مصدر طمأنينتي وسكينتي، ويمتلئ قلبي بالسرور والنشوة الروحية الرائعة، وإذا متّ فإني لن أعيش هذه اللذات والمتع الروحية، ولسوف أبقى رهين القبر إلى يوم القيامة، فلهذا تراني حزيناً!.

عليه السلام!..

أدعو الله العلي القدير أن نمضي حياتنا الدنيوية على الصلاح والاستقامة، وأن يجعلنا من العباد المقربين إليه، وأن يبعدنا عن الانخداع بملذات الدنيا الفانية، ويجعل سعادة العقبى من نصيبنا أجمعين!..

آمين!

سيدنا إلياس عليه السلام
بعلبك
دمشق
بصرى
طبريا
عمّان
بيروت
حيفا
القدس
معان
إيلات
البحر الأبيض
الاسكندرية
مصر

سيدنا أليسع
عليه السلام

سيدنا أليسع عليه السلام
الذي فُضِّل على العالمين

هو من أنبياء بني إسرائيل، وقع في صغره فريسة مرضٍ شديد، وشفي منه ببركة دعاء إلياس عليه السلام له. ومنذ ذلك الحين لازم إلياس عليه السلام ولم يفارقه، وتعلم على يديه التوراة.

وحاول أليسع عليه السلام إصلاح بني إسرائيل الذين اشتهروا بالتقلب والعنف، وبذل في سبيل ذلك جهوداً كبيرة. فأحياناً كانوا يتبعونه وما يدعوهم إليه، وتارة ينقلبون عليه ويعارضونه في دعواه.

وقد ورد ذكر أليسع عليه السلام في القرآن الكريم من خلال آيتين، حيث يقول الله تعالى:

﴿وَاذْكُرْ إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ وَكُلٌّ مِنَ الْأَخْيَارِ﴾ [١٣٩٣]

وإن كلمة «اذكر» التي وردت في الآية الكريمة بحق الأنبياء تتضمن دعوة إلى التفكر في الجهود الجبارة التي بذلها الأنبياء، والتضحيات الكبيرة التي قدموها، والتحلي بالثبات والصبر المنقطع النظير في سبيل نشر دين الله الحق.

وأما الآية الثانية التي وردت في القرآن الكريم والمتعلقة بالنبي أليسع عليه السلام فهي:

﴿وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [١٣٩٤]

لقد بدأت خلال فترة نبوته منافسة بين قبائل قومه على تولي رئاسة الدولة واستلام زمام الحكم والإدارة في البلاد، فوقع بينهم الخلاف على الأمر ولم يسمعوا لنصيحة أليسع عليه السلام، وحصلت بينهم فتن، وصراعات، ومشاحنات لا نهاية لها. ومن أجل ذلك فقد سلط الله عز وجل عليهم دولة الآشوريين. وفي النتيجة، ابتعدوا عن الرحمة بسبب الأعمال السيئة التي اقترفوها وهُزموا أمام الآشوريين، فتشردوا في البلاد وأصابهم الذل والهوان.

١٣٩٣. ص: ٤٨.

١٣٩٤. الأنعام: ٨٦.

يقول السيد محي الدين محمد نيشانجي زاده في كتابه «ميراث الكائنات» حول معجزات النبي اليسع عليه السلام:

«لقد أصابت المرارة مياه شرب شعب مدينة أريحا. فاتجهوا على الفور إلى النبي أليسع عليه السلام، وطلبوا منه العون والمساعدة. وقد ألقى أليسع عليه السلام في تلك المياه التي أصابتها المرارة بعض الملح، وقال: صيري عذبة. فانقلبت المياه بإذن الله تعالى إلى حالة من اللذة والعذوبة أكثر من ذي قبل».

ويروى أن امرأة أرملة وعليها دين جاءت إلى أليسع عليه السلام، وعرضت عليه فقرها وبؤسها، فسألها اليسع عليه السلام:

- ماذا يوجد في بيتك؟

قالت المرأة:

- يوجد قليل من الزيت!

فقال لها أليسع عليه السلام:

- اذهبي إلى بيتك، وضعي ذلك الزيت في وعاء!

ولما ذهبت المرأة إلى بيتها وفعلت ما أمرها به اليسع عليه السلام، وجدت أن كل أوعيتها وأوانيها قد امتلأت بالزيت، فأدت كل ما عليها من الديون بفضل هذه المعجزة الربانية، ولم ينفد الزيت من بين يديها.

ولما دنا الأجل من اليسع عليه السلام نادى ذا الكفل، وعيّنه خلفاً له من بعده بناءً على أمر الله سبحانه وتعالى.

عليه السلام!..

سیدنا الکفل علیہ السلام

سيدنا ذو الكفل عليه السلام
النبي الصالح الذي تغمده الله تعالى برحمته

هو من أنبياء بني إسرائيل، وهو ابن عم أليسع عليه السلام.

وحسب الروايات، فإن اسمه «بشر» وأما ذو الكفل فهو لقبه، وقد أُطلق عليه هذا اللقب لأنه تكفل بتعليم بني إسرائيل أمور دينهم من بعد اليسع عليه السلام، بالإضافة إلى أنه قام بأعمال الأنبياء الذين كانوا في عصره فنال بذلك ثواباً وحسنات مضاعفة، فأطلق عليه هذا اللقب تكريماً له. حيث أن معنى «ذو» في اللغة العربية هو صاحب، والكفل يأتي من الكفالة والكفيل، ويأتي بمعاني مثل النصيب، والثروة، والمضاعف. ولا يقصد بهذا اللقب الغنى والثروة الدنيوية، وإنما يقصد به التميز بخصائص الفضل الشخصية والدرجات العالية في الآخرة.

وهناك رواية عن ابن عباس رضي الله عنه:

«أن الله تعالى أعطى نبياً من بني إسرائيل إلى جانب النبوة ملكاً وحكماً عظيماً، ولما دنا الأجل من هذا النبي، أُعلم بقبض روحه عن طريق الوحي، وقيل له:استخلف في الحكم واحداً من بني إسرائيل يصوم النهار، ويقوم الليل، ولا يغضب!»

فأعلم هذا النبي بني إسرائيل بالأمر الذي جاءه، فقام من بينهم فتى وقال:

- أنا أتكفل بهذا الأمر! وأتحمّل هذه المهمة!

فقال النبي لذلك الفتى:

- بين القوم من هو أكبر منك؛ فاجلس أنت!

وبعدها، أعاد عرضه على القوم مرة ثانية، فقال ذلك الفتى:

- أنا أتكفل بالأمر.

وعندما أعاد العرض للمرة الثالثة سكت الناس، وقام ذلك الفتى من جديدٍ فكرر قوله. فاستخلف النبي ذلك الفتى كفيلاً من بعده، وأسند إليه ملكه، وكان هذا الفتى هو «بشر».

أصاب الشيطان حسد شديد من الفتى، ولجأ إلى حيل وأساليب شتى للحيلولة دون قيام الفتى بالمهمة التي حملها على عاتقه، ولكنه لم يستجب لوساوس الشيطان ولم يلتفت إليها، وأدى الأمانة التي تحمّلها بكل إخلاص وجدارة، وكان جهده وحماسه على أكمل وجه، ولهذا السبب لُقب بـ «ذو الكفل».

ويوجد في القرآن الكريم آيتان تتناولان النبي ذا الكفل عليه السلام:

﴿وَاذْكُرْ إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ وَكُلٌّ مِنَ الْأَخْيَارِ﴾ [١٣٩٥]

﴿وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِنَ الصَّابِرِينَ. وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُمْ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [١٣٩٦]

وعمل ذو الكفل عليه السلام بشريعة موسى عليه السلام، وعلّم الناس الأوامر والنواهي التي في التوراة.

وقد روي أنه وافته المنية في بلدةٍ بالشام.

عليه السلام!..

١٣٩٥. ص: ٤٨.

١٣٩٦. الأنبياء: ٨٥- ٨٦.

سيدنا لقمان الحكيم عليه السلام

سيدنا لقمان الحكيم عليه السلام
شيخ حكماء الظاهر والباطن
الذي أصبح أسطورة بنصائحه الحكيمة

لقمان عليه السلام إما نبي أو ولي صالح، وهو شيخ الحكماء.

وقد ذكر القرآن الكريم في "سورة لقمان" التي حملت اسمه، بأنه واحد من الذين أوتوا حكمة كبيرة، حيث يقول الله تعالى:

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ [١٣٩٧]

الشكر هو، فرح العبد بالنعم التي تسبغ عليه، وإظهار الامتنان بمختلف الأقوال والأفعال تجاه ربه سبحانه وتعالى، والشكر اسم لمعرفة النعمة، ولهذا المعنى فقد أطلق اسم "الشكر" على الإسلام والإيمان أيضاً.

❁

الروايات التي وردت حول نسب لقمان الحكيم تفيد بأنه من أقرباء النبي أيوب عليه السلام، ويذكر بأنه ابن أخته أو ابن خالته [١٣٩٨]. ويرى جمهور علماء المسلمين بأن لقمان الحكيم ليس بنبي، وإنما رجل صالح أوتي حكمة عظيمة، ومن أحد معاني الحكمة أنها ملَكة تعين صاحبها على الصواب في القول والفعل من خلال الكمال الروحي الذي يتم اكتسابه بعد الإحاطة بالعلوم النظرية. حيث يقول الله تعالى في كتابه العزيز:

﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [١٣٩٩]

١٣٩٧. لقمان: ١٢.

١٣٩٨. انظر: كتاب العرائس للثعالبي، ص. ٣٩١.

١٣٩٩. البقرة، ٢٦٩.

الحكمة تمكّن الإنسان من إدراك حقائق الأشياء وأسرارها، ويمكن تحقيق هذا الأمر بتجلي النور الإلهي في القلب.

وينقل لنا الزمخشري الحادثة الآتية كمثالٍ على حكمة لقمان عليه السلام:

ذات يوم طلب داوود عليه السلام من لقمان الحكيم أن يذبح خروفاً، ويأتيه بأفضل عضوين من جسمه، فذبح لقمان الحكيم الخروف وجاءه بلسانه وقلبه، وبعد مضي أيام على هذا الأمر، طلب داوود عليه السلام من لقمان الحكيم أن يأتيه هذه المرة بقطعتين من أسوأ الأعضاء في الخروف، فجاءه لقمان الحكيم بلسانه وقلبه مرة أخرى، ولما سأله داوود عليه السلام عن سبب ذلك، قال لقمان الحكيم:

- إذا صلح هذان العضوان فلا أفضل منهما، وإذا فسدا فلا أسوأ منهما!. [١٤٠٠]

وفي الحديث الشريف الذي يرويه عبد الله بن عمر رضي الله عنهما يقول:

«لم يكن لقمان نبياً ولكن كان عبداً كثير التفكر حسن اليقين، أحب الله تعالى فأحبه، فمّن عليه بالحكمة...» [١٤٠١]

ويقول الإمام مالك رحمه الله تعالى:

«أنه بلغه أنه قيل للقمان: ما بلغ بك ما نرى - يريدون الفضل -؟ فقال لقمان الحكيم: صدق الحديث وأداء الأمانة وترك ما لا يعنيني» [١٤٠٢]

❁

ويعلمنا القرآن الكريم بالحكم والنصائح التي كان يقدمها لقمان الحكيم لابنه، حيث يقول الله تعالى:

﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [١٤٠٣]

وفي الحقيقة فإن الشرك الذي هو ظلمٌ كبير يورد العبد إلى نار جهنم خالداً فيها أبداً.

١٤٠٠. الزمخشري، الكشاف، ٥، ١٨.

١٤٠١. القرطبي، التفسير، ١٤، ٥٩- ٦٠.

١٤٠٢. الإمام مالك، موطأ، الكلام، ١٧.

١٤٠٣. لقمان: ١٣.

ويتابع لقمان الحكيم نصائحه لابنه، إذ يقول:

﴿يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ [١٤٠٤]

ويقول الله تعالى في آية كريمة مشابهة أخرى:

﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ. وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ [١٤٠٥]

ويقول لقمان الحكيم في متابعة نصائحه:

﴿يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ [١٤٠٦]

إن ما يلفت الانتباه في الآية الكريمة هو التركيز على الصلاة، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والصبر.

فالصلاة، هي معراج المؤمن، ومن أهم وظائف العبد في هذه الدنيا. ولا يجوز تركها حتى خلال أشد المعارك مع الأعداء. وإن الله سبحانه وتعالى يبشر الساجدين لوجهه الكريم في قوله:

﴿...سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ...﴾ [١٤٠٧]

ويقول في آية أخرى:

﴿...وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ﴾ [١٤٠٨]

وتقول أم المؤمنين السيدة عائشة رضي الله عنها:

«أتيت النبي ﷺ، وهو يصلي ولجوفه أزيز كأزيز المرجل» يعني: يبكي.[١٤٠٩]

١٤٠٤. لقمان: ١٦.

١٤٠٥. الزلزلة: ٧- ٨.

١٤٠٦. لقمان: ١٧.

١٤٠٧. الفتح: ٢٩.

١٤٠٨. العلق: ١٩.

١٤٠٩. النسائي، السهو، ١٨/ ١٢١٤؛ أبو داود، الصلاة، ١٥٧.

وإن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أيضاً من أهم وظائف المؤمن في الحياة، إن إيصال المؤمن لكل النعم التي أحسن الله تعالى بها عليه ـ وعلى رأسها نعمة الإيمان والهداية ـ إلى غيره يُعتبر نوعاً من أداء وظيفة الشكر التي في عاتقه لله تعالى، وقد بين الله ﷻ هذا المنهج التبليغي في شخص النبي ﷺ، حيث يقول الله سبحانه وتعالى في كتابه العزيز:

﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [١٤١٠]

ويبين الله تعالى منهج التبليغ في آية كريمة أخرى:

﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ...﴾ [١٤١١]

وأما الصبر فهو الآخر يحتل المراتب الأولى من بين المواضيع المهمة التي تناولها القرآن الكريم، فالجانب الدنيوي للصبر مؤلم وفيه مرارة كبيرة، أما الجانب الأخروي منه أي المكافأة التي ينالها الصابر يوم القيامة ففيها من اللذة والحلاوة الشيء الكثير، وكل الأنبياء والرسل قد مرّوا من غربال الصبر، حيث يقول الله تعالى:

﴿... وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾ [١٤١٢]

ويقول عبد الله بن مغفل ﷺ:

قال رجل للنبي ﷺ: يا رسول الله والله إني لأحبك. فقال له:

«انظر ماذا تقول»

قال: والله إني لأحبك، ثلاث مرات، فقال:

«إن كنت تحبني فأعد للفقر تجفافا، فإن الفقر أسرع إلى من يحبني من السيل إلى منتهاه» [١٤١٣]

١٤١٠. آل عمران: ١٥٩.

١٤١١. النحل: ١٢٥.

١٤١٢. البقرة: ١٥٥.

١٤١٣. الترمذي، الزهد، ٣٦/ ٢٣٥٠.

وكأن الرسول الأكرم ﷺ يريد بحديثه هذا القول:

«ما دمت تحبني لوجه الله، إذاً، فحضّر نفسك لتحمل البلايا، والمصائب، والشدائد وارض بها! لأن من شروط المحبة اتباع المحبوب!..

❁

ويتابع لقمان الحكيم نصائحه كما جاء في القرآن الكريم:

﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾[١٤١٤]

إن التفاخر أو الغرور، والكبر، والعجب هي خصال تمتد جذورها في جهنم، فصفة الكبرياء محصورة بالحق سبحانه وتعالى، حيث أن سبب طرد إبليس من الجنة وتحوله إلى العمل على دفع عباده في الضلالات والانحرافات هو شعوره بالغرور تجاه آدم عليه السلام، ومن ثم خروجه عن طاعة ربه، وكذلك قارون فقد هلك بسبب غيرته وحسده لسيدنا هارون عليه السلام، على الرغم من أنه قد أوتي الكثير من العلوم المعنوية.

وقال لقمان الحكيم لابنه أيضاً:

﴿وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ﴾[١٤١٥]

إن هذه الآية الكريمة تعلّم المؤمنين الأدب واللطف والرقة، فصوت الحمار الذي يمثل انعدام الرقة يبدأ حاداً ثم يميل إلى الخفوت والاضمحلال. إن هذا الصوت الذي يصدر في غير مكانه المناسب وبصورة مرتفعة للغاية لصوت منكر وشنيع، وإن هذا الأسلوب في الخطاب لا يلائم قواعد الرقة والأدب. إن الله تعالى في هذه الآية الكريمة يدعو عباده إلى التخاطب بشكل رقيق ومؤدب، أي أن رفع الصوت عالياً في غير مكانه اللازم أشبه بصوت الحمار وبالتالي يُعد مستهجناً وقبيحاً.

يقول حسن البصري رحمه الله تعالى:

«كان المشركون يتفاخرون بإعلاء أصواتهم، فأجابهم الله ﷻ: لو كان إعلاء أصواتكم خيراً، لجعلت بذلك الحمير أعلى منهم شأناً!».

١٤١٤. لقمان: ١٨.

١٤١٥. لقمان: ١٩.

لقد ورد في الروايات ما يفيد أن التأدب والرقة التي قد تبدو في الدنيا غير ذات أهمية أو أموراً بسيطة، تكسب أهمية كبيرة يوم الحساب، ولذلك ينبغي الحرص والحذر من التفوه بالكلام غير المسؤول، والانتباه إلى معاني الكلمات التي ننطق بها، حيث يقول النبي عليه الصلاة والسلام في الحديث الشريف:

«إن العبد ليتكلم بالكلمة، ما يتبين فيها، يزل بها في النار أبعد مما بين المشرق» [١٤١٦]

ويقول أيضاً عليه الصلاة والسلام:

«إن أحدكم ليتكلم بالكلمة من رضوان الله ما يظن أن تبلغ ما بلغت فيكتب الله له بها رضوانه إلى يوم يلقاه، وإن أحدكم ليتكلم بالكلمة من سخط الله ما يظن أن تبلغ ما بلغت، فيكتب الله عليه بها سخطه إلى يوم يلقاه» [١٤١٧]

إن من بين الآيات الآنفة الذكر والتي تضمنت نصائح لقمان الحكيم، آيتان كريمتان مهمتان للأمة من ناحية ما تضمنتا من مواضيع الاستقامة. ووفق الرواية، فإنها قد نزلت في حق سعد بن وقاص ﷺ ووالدته. حيث أن سعد بن وقاص ﷺ كان باراً بوالدته ومطيعاً لها، ولما دخل سعد الإسلام قالت له أمه:

- ماذا فعلت يا سعد؟ إذا لم تدع دينك الجديد هذا، أقسم أني لن آكل، ولن أشرب حتى أموت. وليقال عنك بسبب ذلك -قاتل أمه-!.

أما هو فقال:

- لا تفعلي ذلك يا أماه، فإني لن أترك هذا الدين!.

ولما قال لها ذلك، مكثت أمه يومين وليلتين لا تأكل فيهما شيئاً، حتى انهارت قواها. وعندما رأى سعد هذا قال لها:

- يا أماه! اِعلمي لو أن لك مائة روح، وخرجت منك واحدة تلو الأخرى على أن أترك هذا الدين، ما تركته! فإن شئت كلي، وإن شئت فلا تأكلي!.

عندئذ بدأت أمه بتناول الطعام ونزلت الآيتان الكريمتان:

١٤١٦. البخاري، الرقاق، ٢٣/ ٦٤٧٧؛ مسلم، الزهد، ٤٩-٥٠/ ٢٩٨٨.

١٤١٧. الترمذي، الزهد، ١٢/ ٢٣١٩؛ ابن ماجه، الفتن، ١٢/ ٣٩٦٩.

﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ. وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [١٤١٨] . [١٤١٩]

❁

يروي أبو أمامة رضي الله عنه، أن النبي ﷺ قال:

«إن لقمان قال لابنه: يا بني، عليك بمجالسة العلماء، واسمع كلام الحكماء، فإن الله يحيي القلب الميت بنور الحكمة كما يحيي الأرض الميتة بوابل المطر» [١٤٢٠]

ويقول لقمان الحكيم في إحدى نصائحه ووصاياه:

«يا بني إني خدمت أنبياءً كثيرين، وأخذت من كلامهم أربع كلمات وهي:

١. إذا كنت في الصلاة فاحفظ قلبك.

٢. وإذا كنت على المائدة فاحفظ بطنك .

٣. وإذا كنت في بيت الغير فاحفظ بصرك .

٤. وإذا كنت بين الخلق فاحفظ لسانك.

يا بني اخترت من كلمات الحكمة أربع كلمات اذكر اثنتين وانس اثنتين،

أما اللتين تذكرهما: فالله سبحانه وتعالى ، والموت!

وأما اللتين تنساهما فإحسانك في حق الغير، وإساءة الغير في حقك!».

❁

١٤١٨. لقمان: ١٤- ١٥.

١٤١٩. مسلم، فضائل الصحابة، ٤٣- ٤٤/ ١٧٤٨؛ ابن الأثير، أسد الغابة، ٢، . ٣٦٨.

١٤٢٠. الهيثمي، مجمع الزوائد، ١، ١٢٥/ ٥١٨.

وهذه بعض الوصايا والحكم التي نقلت في الكتب المعتبرة عن لقمان الحكيم:

- يا بني! اجعل التقوى رأسمال آخرتك، لأن التقوى من أربح التجارات.
- يا بني! احضر الجنائز، ولا تحضر العرس، فإن الجنائز تذكرك الآخرة، والعرس يشهيك الدنيا.
- يا بني! إياك والكذب وسوء الخلق، فإن من كذب ذهب ماء وجهه، ومن ساء خلقه كثر غمه.
- يا بني ! نقل الصخور من مواضعها أيسر من إفهام من لا يفهم.
- يا بني! لا ترسل رسولك جاهلاً، فإن لم يكن حكيماً فكن رسول نفسك.
- يا بني! الدنيا بحر عميق، وقد هلك فيها عالم كثير، فاجعل سفينتك فيها الإيمان بالله ﷻ، واجعل شراعها التوكل على الله، واجعل زادك فيها تقوى الله ﷻ، فإن نجوت فبرحمة الله وإن هلكت فبذنوبك.
- يا بني! لا تكن أعجز من هذا الديك الذى يصيح بالأسحار وأنت نائم على فراشك.
- يا بني! إذا امتلأت المعدة نامت الفكرة وخرست الحكمة وقعدت الأعضاء عن العبادة.
- يا بني! اختر صديقاً، إذا فارقته لم يذكرك بسوء، وإن فارقك لم تذكره بسوء."
- «يا بني! احفظ أصحابك، وصل أرحامك.
- يا بني! تُعرف ثلاثة أشياء عند ثلاثة: الحلم عند الغضب، والشجاعة عند المعركة، والصداقة عند الحاجة.
- يا بني! كن موافقاً لأصحابك فيما خلا المعاصي!..
- يا بني! إذا أهمل الناس العبادات والطاعات كل يوم، فاعلم بأنهم لا يخشون من العذاب الموعود.
- يا بني! خذ من الدنيا بقدر حاجتك، فلا تستسلم له فتضر آخرتك. ولا تنفض يدك من الدنيا بشكل تام فتصبح حملاً ثقيلاً على الناس. وعليك بالصيام فإنه يقطع الشهوة، ولكن لا تصم صياماً يمنعك من الصلاة! فإن الصلاة أعظم عند الله تعالى من الصيام...

- يا بني! أحسن إلى من يعرف الإحسان. فكما لا صداقة بين الذئب والخروف، فلا صداقة بين الإحسان والإساءة، ومن يحب الشجار يتعرض للمهانة؛ ومن يذهب إلى مواطن السوء، يعرّض نفسه للتهم؛ ومن يعمل السيئات، فلا يحمي نفسه من المعاصي، ولا يحفظ لسانه من قول السوء يقع في الندامة.
- يا بني! كن عبداً للأخيار، ولا تكن خليلاً للأشرار.
- يا بني! كن أميناً، تكن غنياً. ولا تنظر إلى من اتسخ قلبه بالذنوب، كنظرتك إلى من يخاف الله.
- يا بني! لا تأمر الناس بالبر وتنسى نفسك! وإلا تكن كالشمعة التي تنير على من حولها، وتحرق نفسها!..
- يا بني! الأدب في الصغر، يفيد عند الكبر."
- «يا بني! لا تحقرنّ صغائر الأمور! لأن الصغير يكبر في الغد.
- يا بني! لا تركن إلى الدنيا، ولا تشغل قلبك بهمومها وأحزانها. واحذر من الجشع. وارض بالقدر. واقنع بما أعطاك الله تعالى تحلو حياتك، ويمتلأ قلبك بالسعادة.
- يا بني! إن الحياة الدنيا قصيرة، وعمرك فيها أقصر، وقد بقي جزء قليل من عمرك القصير.

❁

ويخبرنا النبي ﷺ عن لقمان الحكيم قوله:

«أن لقمان الحكيم قال: إن الله إذا استودع شيئا حفظه، وإني أستودع الله دينكم، وأماناتكم، وخواتيم أعمالكم» [١٤٢١]

ويروى أنه كانت توجد العبارة الآية على حجر خاتم لقمان الحكيم:

«الستر لما عاينت أحسن من إذاعة ما ظننت».

١٤٢١. النسائي، السنن الكبرى، عمل اليوم والليلة، ٦٥/ ١٠٢٧٦؛ حمد، مسند، ٢، ٨٧/ ٥٦٠٥.

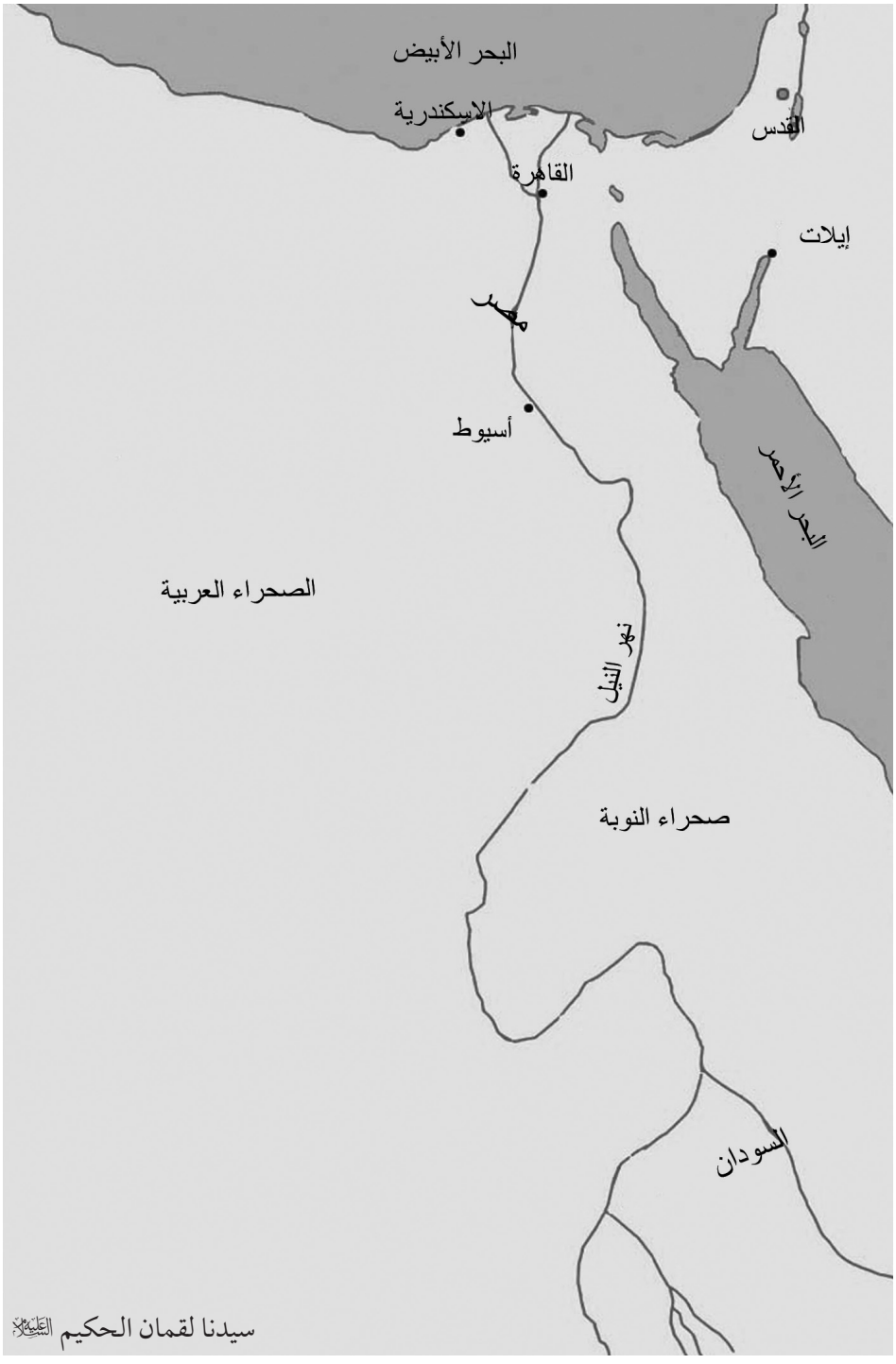
البحر الأبيض
الإسكندرية
القدس
القاهرة
إيلات
مصر
أسيوط
البحر الأحمر
الصحراء العربية
نهر النيل
صحراء النوبة
السودان
سيدنا لقمان الحكيم عليه السلام

الحمد والشكر:

يقول الله تعالى:

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ [١٤٢٢]

إن من أحد أهم الأعمال التي يتطلبها واجب العبودية لله تعالى هو: الحمد والشكر. وإن صيغة وكيفية هذا العمل "الحمد والشكر" واردة وثابتة في القرآن الكريم، حيث يقول الله تعالى:

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [١٤٢٣]

فالحمد هو: المدح والثناء على عظمة الخالق سبحانه وتعالى وتجليات صفاته، وبديع الصنع الإلهي؛ وأما الشكر: فهو المدح الثناء على لطف الله تعالى، وكرمه، ونعمه التي لا تحصى باللسان، والعمل، والقلب. واللفظان قريبان من بعضهما من حيث المعنى.

إن «**الحمد والشكر**» من أعمق وأهم المسائل الدينية في حياة الإنسان، وهذه الأهمية تأتي من كون الإنسان يُعد من "أشرف المخلوقات" على وجه الأرض، حيث جعله الله تعالى يتربع على قمة الكائنات التي خلقها بصورة متسلسلة تدريجية من أبسط الأنواع إلى أتمها وأعقدها.

وإن الإنسان الذي يحافظ على عزته وأصالته التي جبل عليها بفطرته يوم خلقه الله تعالى، إن هذا الإنسان يشعر وجدانياً بأنه مدين بالشكر حتى إلى من يقدم له كأساً من الماء. فإن كان الحال كذلك، فكيف ينبغي أن يكون موقف الإنسان تجاه ربه سبحانه وتعالى الذي هو مصدر كل النعم التي يتمتع بها ومنبع المكرمات التي يتقلب فيها؟ لعمري، إن مقابلة هذا الربّ بالإعراض والتجاهل أمرٌ لا يقر به عقل، ولا يقبله ضمير ووجدان. إن هذه الحالة، لا بد أن تكون تعبيراً واضحاً عن ضحالة التفكير، وبلادة في المشاعر.

١٤٢٢. لقمان: ١٢.

١٤٢٣. الفاتحة: ٢.

إن هذا الكون الذي تم تزيينه بكل طبقاته على درجة عالية من العناية والدقة كغرفة العروس لمتعة الإنسان وإدراكه، والذي تم ترتيب وتنظيم كل موجوداته بحسب طبيعتها وأشكالها بشكل عجيب، وذلك من المجرات، والذرات والخلايا، و آلاف الأنواع والأصناف من الفاكهة والزهور المختلفة في الرائحة والمذاق، وكذلك مختلف الحيوانات الأهلية منها والوحشية والتي تقدم مظاهر لا حد لها للقدرة الإلهية، وكل ذلك من أجل أن يتمكن هذا الإنسان الكامل الذي يمثل بديع خلق وصنع الله تعالى، يتمكن من الوفاء بوظيفة العبودية بالشكل الأمثل.

المؤمن هو، ذلك الشخص الفاضل الذي يبذل غاية جهده من أجل أن يحيا حياته ضمن مشاعر من العبودية، والوجدان، والعقل.

ولا ينبغي للذين يريدون أن يكونوا عباداً شاكرين بالصورة الأمثل، الاكتفاء فقط بالتعرف على مختلف النعم. وإنما من الضروري بعد التعرف على المنعم الحقيقي، القيام باستعمال هذه النعم في الوظائف والمجالات التي يوجبها عليهم. لأن إضافة النعمة إلى المنعم بهذه الصورة لها تأثير فياض في مجال إنماء مشاعر المحبة والمعرفة في القلوب التي تجذب الإنسان إلى ربه ﷻ.

ومما لا شك فيه أنه لا يوجد في الكائنات حتى ذرة واحدة لا تلهج بحمد الله وتسبيحه. فحتى الحيوانات تعرف التسبيح والتضرع إلى الله تعالى. ويطلق على التسبيحات التي تقوم بها المخلوقات جميعها ما عدا الإنسان اسم "التسبيح التسخيري". ويعاين هذه التسبيحات أهل القلوب فقط. وأما الإنسان باعتباره المخلوق الوحيد المتكامل في سلسلة كل الموجودات فحالته تستدعي أن يكون "حمده وتسبيحه" ملائماً لهذا الكمال الذي متعه الله تعالى به.

وفي الحقيقة، إن غفلتنا عن الشكر تَقلب كل هذه النعم التي بين أيدينا إلى عبء ثقيل على كاهلنا. وتصبح هذه الترسبات التي أبقيناها لدينا إلى مجرد وبالٍ علينا.

وإن المهمة الأساسية لكل عبد من العباد، القيام بواجب الشكر على النعم بالتعرف على المنعم الحقيقي.

ما هي النعمة؟

إن الذي سيعطينا معيار النعمة هو نور القرآن وفيضه. والذي يبين لنا الماهية الحقيقية للنعم هو أيضاً القرآن الكريم. ويمكن إدراك الحكمة المتجلية في الكائنات، وماهية الإنسان بالشكر. حيث يقول الله تعالى:

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ...﴾ [١٤٢٤]

وبمقتضى الآية الكريمة يتبين أن الحكمة، وحقائق عالم الأسرار تُفتح للشاكرين، ويتفضل الله بذلك على من يستمر في حالة الشكر.

إن الله سبحانه وتعالى يجلي إرادته في العالم بأربعة مظاهر:

١. اللطف.

٢. الشدة.

٣. الشدة التي تبدو بصورة اللطف.

٤. اللطف الذي يبدو بصورة الشدة.

إن الناس عندما ينظرون إلى الحوادث نظرة سطحية ـ مثل المرايا التي تعكس سطح الأشياء ـ يدركون فقط الوجه الخارجي لها، فيسيئون فهمها وتفسيرها بشكل عام. ولكن الذين ربوا عقولهم بالوحي الإلهي، فبإمكانهم النظر إلى الحوادث من خلال قلبهم السليم مثل الشعاع الذي يسلط على مكان الإصابة، فيتخلصون من كثير من اضطراباتهم ومعاناتهم وقلقهم بفضل الوقوف على الحكمة المستترة وراء تلك الحوادث.

ولذلك يقول الله تعالى في كتابه العزيز:

﴿... وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [١٤٢٥]

لقد تمت الإشارة في الآية الكريمة إلى اللطف الذي يبدو بصورة الشدة، وإلى الشدة الذي يظهر بصورة اللطف.

١٤٢٤. لقمان: ١٢.

١٤٢٥. البقرة: ٢١٦.

ومن جهة أخرى، عندما يتم توسيع وإنماء الإدراك والفراسة، ويتكامل القلب ليصعد إلى قمة الصفاء، فإنه يعرض تلقي النعمة بصورة مختلفة ويكسب كمالاً يصعب على عوام الناس الوصول إليه. وعندئذٍ فإنه يدرك بموجب حاله أن الشدة التي يتعرض لها هي إيقاظ له من غفلته أو تتضمن حكمة لإيقاف النفس عند حدها... إلخ. وإن قول الحاج بيرم الآتي هو من هذا القبيل، إذ يقول:

«جميل ما جاءني منك، سواء كانت وردة ناعمة، أو شوكة قاسية».

إن المؤمن الذي وصل إلى هذا الصفاء والمزاج الروحي الشفاف يتلقى كل تجلٍ على أنه نعمة تستوجب الشكر والحمد، سواء أكان إيجابياً أو سلبياً. يمكن لبعض العوام ـ حسب نسبة الإدراك لديهم ـ رؤية اللطف الذي بداخل الشدة، أو الشدة التي تظهر بمظهر اللطف وذلك مع مرور الزمن، بينما من تعهدوا أنفسهم بالتزكية ووصلوا بها إلى مرحلة الحكمة يرون ذلك من أول الأمر ويدركونه وقت حدوثه. ولهذا السبب، كان الواجب المترتب على العوام هو الشكر على النعمة الظاهرة، والصبر على الشدة الظاهرة، بينما الخواص فإن مجموعة التجليات الأربعة المذكورة في الأعلى تمثل حالة واحدة بالنسبة لهم، فلا يختلف عندهم الأمر، ولا يتغير سلوكهم تجاه ربهم في الحالات الأربعة. لأنه كما أن المداومة على حالة الحمد مع الشدة من شأنها الحفظ من مصائب أكبر، كذلك فإنها تصبح وسيلة لانقلابها إلى لطف. وإن قول النبي ﷺ في كل حالة وتجلٍ:

«**الحمد لله على كل حال**» فيه توصية وتعليم لنا على الذكر الدائم. وأما البعيدون عن هذه الحالة، فإنهم بسبب غفلتهم وسطحيتهم يعلنون نوعاً من الحرب على القدر.

إن الذين ينجحون في المداومة على حالة الشكر والحمد تجاه مختلف المصائب التي يتعرضون لها، هم في قمة مراتب الطمأنينة والسكينة التي وُعد بها أتباع ديننا الحنيف، وتنال القلوب هذه الطمأنينة والسكينة بقدر نجاحها في الوصول إلى هذه النقطة.

إن أفضل مثال على اللطف الذي يبدو بصورة الشدة هو حالة يعقوب وابنه يوسف عليهما السلام، ففي التجليات التي ظهرت فيها الكثير من العبرة والحكمة. لقد قدر الله سبحانه وتعالى لهما هماً شديداً، وكدراً، وقهراً، وفراقاً، واضطراباً، ومشقة، وابتلاءات فوق طاقة البشر حتى يدركا سر وجودهما معه، ولكي يقطعا صلتهما عن كل ما سواه تماماً، وهكذا حتى يصلا إلى الدرجات العليا من القرب منه. ولذلك ونتيجة لوصولهما

إلى مرتبة الكمال بعيشهما منفردين غريبين، وبعيدين عن بعضهما، فقد قدم الله تعالى قصة حياتهما لنا تحت اسم "أحسن القصص" وذلك في القرآن الكريم.

وكذلك، فإن النبي ﷺ عندما اتفق مع المشركين على صلح الحديبية، فقد رأى الصحابة الكرام في هذا الصلح خلال أيامه الأولى تجلياً من الشدة والقهر لهم. ولكن الصحابة الكرام أدركوا مع الزمن كم كان ذلك الصلح لطفاً إلهياً عظيماً عندما هيأ الله تعالى لهم فتح أبواب مكة المكرمة وتزاحمت عليهم آلاف النعم، حيث أن عدد المسلمين بعد معاهدة صلح الحديبية بسنتين قد ازداد أضعافاً مضاعفة عما كان عليه عددهم خلال ثمان عشرة سنوات قبل هذه المعاهدة. وإضافة إلى ذلك، فقد فتحت مكة المكرمة سلماً دون إراقة الدماء.

وأما الشدة التي تبدو بصورة اللطف، فأجلى وأوضح مثال عليها هو حال عاد قوم هود عليه السلام. حيث أنهم عندما رأوا الغيوم قد أطبقت عليهم في السماء والتي أرسلت إليهم عذاباً لهم من الله تعالى، استهزأوا بنبيهم، وقالوا له:

– أنت تحدثنا عن العذاب، ولكننا نرى أن السماء سوف تمطر علينا! فخدعوا بذلك أنفسهم، ولكن لم يهطل المطر، وإنما ضربت عاصفة هوجاء هؤلاء القوم الظالمين المنحرفين، فقلبت عاليهم سافلهم، وأُهلكوا جميعاً.

إن ما سوف يلقاه الغافلون يوم القيامة من الخزي بسبب انخداعهم بالنعم الدنيوية التي يظنونها نعماً دائمة لهم، فيدمرون بذلك حياتهم الأخروية، ليس إلا عبارة عن إحدى الشدائد التي سوف تحيق بهم في ذلك اليوم، ولذلك فقد بين القرآن الكريم ببيان إلهي واضح لا مرية فيه العاقبة الحزينة والمخزية التي سيؤول إليها سيئوا الحظ الذين ظنوا أن السعادة الدنيوية التي أُعطيت لهم هي جنتهم الأبدية.

وكذلك الإنسان الغني الذي أُعطي نصيباً من المال، يُعتبر هذا بالنسبة إليه من حيث الظاهر لطفاً. ولكن إن لم ينفق هذا المال في سبيل الله تعالى، فإنه سوف ينقلب إلى أحد تجليات الشدة والقهر يوم القيامة، ويورد صاحبه في خسران مبين.

وقد وصف العارفون من أهل القلوب بشكل رائع هذا العالم المتأرجح والمتقلب بين تجليات اللطف والشدة، فقالوا:

– إن هذه الدنيا بالنسبة للعقلاء بداية السير، وبالنسبة للحمقى عبارة عن طعام وشهوات.

فكل ما بين يدي العباد من أشياء هي عائدة إلى الله سبحانه وتعالى. وإن المالك الحقيقي لمختلف النعم التي تأتي من الطبيعة، أو من الإنسان وخالقها الحق هو الله سبحانه وتعالى. ومن موجبات القلب السليم عدم الغفلة عن هذه الحقيقة، فالمخلوقات جميعها عبارة عن واسطات ووسائل، لأن كل كائن في هذا الوجود مكلف بتنفيذ وظيفة ما موكلة إليه.

وكل الواسطات التي تقوم بتوزيع النعم هي عبارة عن عمال وموظفين، فصاحب النعم الحقيقي والمتفضل بها هو رب الكائنات جميعاً. ولهذا السبب فإن كل مؤمن ينبغي أن يكون مديناً بمشاعر الشكر لمرسل النعمة أكثر من جالبها أو موصلها إليه، وأن يعيش حياة مملوءة بأحاسيس الشكر، ولا يليق بكرامة الإنسان الارتباط بالأشخاص أو الأسباب التي توصل النعم إليه، ونسيان أو تجاهل صاحب النعمة الحقيقي.

ولكن مع ذلك، فمن مستلزمات الأخلاق الحميدة والرقة في المعاملة شكر المخلوقات، أي التي تكون وسيلة لإيصال النعمة، حيث يقول النبي عليه الصلاة والسلام في الحديث الشريف:

«من صنع إليه معروف فقال لفاعله: جزاك الله خيرا فقد أبلغ في الثناء»[١٤٢٦]

وأما عكس هذه الحالة، أي نسيان صاحب النعمة الحقيقي، والتوجه بالشكر والامتنان إلى الأمناء أو من هم بحكم الوسائط الفانية حماقة وتصرف في غير محله. فمن سنن الله تعالى في الكون ارتباط كل شيء بسبب، ولكن لا ينبغي الركون إلى الأسباب والتعلق بها، ونسيان " مسبب الأسباب " أي خالق الأسباب.

ينبه الله تعالى عباده ببيان إلهي جميل، حيث يقول:

﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [١٤٢٧]

١٤٢٦. الترمذي، البر، ٨٧/ ٢٠٣٥.
١٤٢٧. النحل: ٧٨.

إن الإيفاء بواجب الشكر لله تعالى يكون بثلاثة صور:

١. الشكر اللساني:

الشكر اللساني هو أدنى مراتب الشكر، وهو عبارة عن نطق الناس كلمات الشكر باللسان تجاه الخالق سبحانه وتعالى، كأن يقول: «يا رب! أشكرك شكراً لا نهاية له».

يقول الله تعالى في القرآن الكريم:

﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ [١٤٢٨]

بينما نجد لسوء الحظ أناساً من ميتي القلب أو مرضاها، أو في غفلة من أمرهم يتمتعون بنعم الخالق سبحانه وتعالى بدافع من الغريزة الحيوانية، ومع ذلك لا يذكرون اسم الله تعالى بقدر ما تذكره الحيوانات، فينحدرون إلى مستويات من الدون والسفالة لينطبق عليهم قول الله تعالى:

﴿ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ﴾ [١٤٢٩]

﴿...كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ...﴾ [١٤٣٠]

٢. الشكر الفعلي:

الشكر الفعلي هو: صرف النعمة التي تفضل الله سبحانه وتعالى بها في سبيله، وبالشكل الذي أمر به.

وبناءً على ذلك، فإن شكر الغني هو الإنفاق، وشكر العلم هو الإحسان وتعليم الغير، وأما شكر الجسم فهو استعمال كل عضو منه بصورة مشروعة وفي سبيل الحق.

٣. الشكر القلبي:

الشكر القلبي هو: محبة الخالق ﷻ، والارتباط بالمعرفة، والرضا على كل حال.

وفي الحقيقة ليس من الممكن أداء واجب الشكر على نعم الله تعالى المختلفة بالمعنى المطلق، فطاقة البشر أقل من أن تكفي لذلك، وحتى الأنبياء فلأنهم لم يستطيعوا

١٤٢٨. الضحى: ١١.
١٤٢٩. التين، ٥.
١٤٣٠. الأعراف، ١٧٩.

القيام بالشكر على وجهه التام، لذا كانوا في حالة من الاستغفار الدائم، حيث يقول النبي عليه الصلاة والسلام:

«... وإني لأستغفر الله، في اليوم مائة مرة» [١٤٣١]

إن كان هذا حال الأنبياء، فغير الأنبياء، الذين لا يتمكنون أبداً من أداء واجب الشكر كم مرة ينبغي أن يستغفروا في اليوم؟

ومن جهة أخرى، فإن إمكانية القيام بالحمد والشكر من اللطف والإحسان الرباني للعباد، أي أنها نعمة أخرى، وفي حال اتباعنا هذا المنطق إلى ما لا نهاية يتبين أن كل شكر يولد ديناً بشكر آخر نظراً للتوفيق الإلهي للعبد في الشكر الأول، وبالتالي لا يمكن الوصول إلى نهاية هذه السلسلة والخلاص من أداء دين الشكر لله تعالى الذي جعل هذا الشكر المتسلسل من نصيب عبده! ولهذا السبب فإن جميع البشر ومن ضمنهم الأنبياء عاجزون عن الإيفاء بدين الشكر بمعناه الكامل والمطلق.

وفي هذه الحالة فإن الواجب علينا هو التسليم بعجزنا عن إدراك نعم الله تعالى بحق، وعن القيام بواجب الشكر تجاه هذه النعم بالشكل الأمثل، ومن ثم الحمد والثناء على الله تعالى بما يتأتى لنا، وبذل الجهد على قدر استطاعتنا للقيام بواجب الشكر، حيث أن الحكمة القائلة: «من عرف نفسه، عرف ربه...» [١٤٣٢]، تفيد بأن معرفة الرب تكون أيضاً من خلال إدراك الإنسان عجزه أمام بديع الصنع الإلهي والنعم المتجلية في نفسه.

فالنعم لا تحصى، والألسنة عاجزة، والأجسام ضعيفة... وكذلك فإن من أكبر النعم أيضاً عدم نسيان صاحب تلك النعم، وكما أن شكر النعم يكون وسيلة لزيادة النعمة، فإن عدم الشكر يكون سبباً في نقصان النعمة.

إن الشكران رأسمال الجنة، وأما الكفران فهو وثيقة جهنم، فحالة انعدام الشكر تُعد من كفران النعمة، أي أنه نكران للجميل بطريقة حمقاء، فالمال الذي لا تُدفع زكاته، ولا يتم الإيفاء بالشكر الفعلي في حقه، يخرج من وصف النعمة ليتحول إلى حالةٍ من الفتنة، ويكون سبباً في وقوع المصائب على مالكه.

١٤٣١. مسلم، الذكر، ٤١/ ٢٧٠٢.

١٤٣٢. العجلوني، كشف الخفاء، ٢، ٣٦١.

ويقول الله تعالى في ذلك:

﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [١٤٣٣]

﴿ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾ [١٤٣٤]

﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ [١٤٣٥]

﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ﴾ [١٤٣٦]

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ [١٤٣٧]

إن قيام الإنسان بالشكر مقابل كل نعمة ينالها من ربه عزو جل من أهم وظائف العبودية المكلف بها. وإن المؤمن الذي يتمتع بإدراك هذا الأمر مع مرور الوقت لا يمكنه البقاء دون القيام بواجب الشكر، والحمد، والثناء على الله تعالى. إن خُلُق الشكر تجاه نعم الخالق سبحانه وتعالى يشكل نصف رأسمال بالنسبة للمؤمن الصادق. حيث جاء في الحديث الشريف عن النبي ﷺ:

«**الإيمان نصفان فنصف في الصبر ونصف في الشكر**» [١٤٣٨]

وإن العبد صاحب العقل الراجح ينبغي أن يغتبط الصالحين الذين يتمتعون بالميزات المعنوية والروحانية، ومن ثم يبذل كل جهده وطاقته للوصول إلى مراتبهم، وأما من الناحية المادية فينبغي عليه أن يقارن نفسه بمن هم أقل منه مالاً وغنى، وثم يشكر الله سبحانه وتعالى على نعمه. وقد جعل الأنبياء، ومن بعدهم الأولياء والعلماء الشكر حالة من الورد اليومي.

١٤٣٣. التوبة: ٣٤.

١٤٣٤. التكاثر: ٨.

١٤٣٥. إبراهيم: ٧.

١٤٣٦. البقرة: ١٥٢.

١٤٣٧. لقمان: ١٢.

١٤٣٨. السيوطي، الجامع الصغير، ١، ١٠٧/ ٥١١٨.

حيث أن الله تعالى قال بحق نوح عليه السلام:

﴿... إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾ [١٤٣٩]

وقال عن إبراهيم عليه السلام:

﴿شَاكِرًا لِأَنْعُمِهِ...﴾ [١٤٤٠]

وقال أيضاً عن لقمان عليه السلام:

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ... ﴾ [١٤٤١]

وكان رسول الله ﷺ، إذا صلى، قام حتى تتفطر رجلاه، قالت عائشة رضي الله عنها:

يا رسول الله! أتصنع هذا، وقد غفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ فقال النبي ﷺ:

«يا عائشة! أفلا أكون عبدا شكوراً» [١٤٤٢]

❁

إن بحث الشكر بحث عميق وطويل، ولا يمكن الإحاطة به وتوضيحه بالشكل الأمثل، وإن فيض وبركة الشكر الحقيقي لا يمكن أن يدركه إلا الذين عاشوا تلك الحالة وأحسوا بها.

والخلاصة، هي أنه ينبغي على كل إنسان بذل جهد لأداء واجب الشكر بحسب النعمة التي أُعطيت له، وبناءً على ذلك فإن:

شكر العلماء:

هو نقل العلم الذي أكرمهم الله تعالى به إلى غيره، وتعليم المحرومين منه، والعمل علمهم، وإن حال الإمام الأعظم رحمه الله تعالى أفضل مثال ونموذج على هذا الشكر، فقد أنفق الإمام الأعظم مؤسس المذهب الحنفي أبو حنيفة النعمان رحمه الله، أنفق علمه طيلة سنوات عمره بصورة حسنة ورائعة؛ وقد خرّج وربى كبار الأئمة المجتهدين الذين

١٤٣٩. الإسراء: ٣.

١٤٤٠. النحل: ١٢١.

١٤٤١. لقمان: ١٢.

١٤٤٢. البخاري، التفسير، ٤٨، ٢/ ١١٣٠؛ مسلم، المنافقين، ٨١/ ٢٨٢٠.

ستظل اجتهاداتهم قائمة إلى يوم القيامة، والذين أناروا العالم الإسلامي بأكمله من أمثال: الإمام أبي يوسف، والإمام محمد، والإمام زفر. ومن أجل أن يحمي ذلك الإمام الجليل شرف وكرامة علمه فقد فضل ظلمات السجن وتحمل أنواع العذاب من الضرب والجلد على أن يعتلي أعلى مناصب عصره في بغداد ليصبح آلة بيد الخليفة الظالم ويصدر الفتاوى الخاطئة لإرضائه.

شكر الأغنياء:

ينبغي على الغني التصرف وفق سر الآية الكريمة

﴿... وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ...﴾ [١٤٤٣]

وينفق ماله في سبيل الله تعالى وفي المواضع التي يأمره بها. وعليه إدراك أن المالك الحقيقي لهذا المال الذي بين يديه هو الله تعالى فلا يغترّ به، ولا يقع في الإسراف والتبذير، وباختصار، على الغني بذل غاية طاقته ليكون من الأغنياء الشاكرين.

إن الإسراف الذي يُعد تصرفاً معاكساً للشكر، فهو تحقير للنعمة التي أنعمها الله على عباده، وسوء استعمال لها. وينبهنا الله ﷻ في كتابه الكريم إلى هذا السلوك ويحذرنا منه بلهجة شديدة القسوة، حيث يقول:

﴿وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا. إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا﴾ [١٤٤٤]

وقد اعتبر أهل الحال أن تناول الطعام، وشرب الماء، ولبس الثياب، واستعمال أي شيء آخر بغفلة عن الشكر من قبيل الإسراف.

شكر صاحب الخُلق الحسن:

هو إدراكه التام بأن كل خصاله الحميدة هي من لطف الله تعالى به وكرمه عليه، ومن ثم تجنب تحقير الأشخاص الآخرين أو الاستهزاء بهم، والمحافظة على حالة التواضع التي يتحلى بها ليكون بذلك مثالاً وقدوة حسنة للآخرين.

١٤٤٣. القصص: ٧٧.

١٤٤٤. الإسراء: ٢٦- ٢٧.

شكر أهل السير والسلوك:

هو التعلق بالمرشد الكامل الذي أصبح تابعاً له، والانتباه بدقة إلى الحلال والحرام، وحسب الأمر الموجه إلى النبي ﷺ في الآية الكريمة:

﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ...﴾ [١٤٤٥]

هو الالتزام بالاستقامة، وباختصار، هو التخلق بأخلاق القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة، وبذل الجهد لكسب المشاعر من معرفة الله، والعمل على خدمة مخلوقات الله تعالى. ومن جهة أخرى حفظ النفس من الرياء والعجب في حال نيل المقامات والمراتب المعنوية والروحانية.

شكر الأصحاء وذوي الأمراض:

هو التعايش مع الحالة بشعور من الرضا والتسليم لله تعالى مع الإدراك بأن هذه الحالة هي من إرادة الله سبحانه وتعالى وتقديراته، وعبارة عن امتحان دنيوي زائل، وأما الأصحاء فيجب عليهم العلم بأن هذه الصحة قد أُعطيت لهم ليستخدموها في سبيل الله سبحانه وتعالى بالأعمال الصالحة، والعيش في حياتهم على أساس هذا الهدف. وأما المريض فعليه النظر إلى مرضه على أنه نعمة كبيرة من ربه سبحانه وتعالى، والعيش برضا وضمن مشاعر من الوجد بقول "يا رب الحمد لك على كل حال."، وينبغي أن نعلم؛ بأن الأعمى الذي لا يقع في النظر إلى الحرام والتلصص على أعراض الناس بسبب عميه قد يكون أفضل حالاً من البصير الذي ينظر إلى المحرمات ويقع في الفتنة بسبب ذلك! ولكن هذه الحقيقة لا تتبين لنا إلا يوم القيامة حيث تُزال الغشاوات عن الأعين وتنجلي الأمور.

شكر الفقراء:

هو التجمل بالصبر، يستوي الفقراء الصابرون مع الأغنياء الشاكرين بالرضا الإلهي، وإن الحوار الذي دار بين إبراهيم بن أدهم وشقيق البلخي رحمهما الله تعالى خيرٌ مثال وعبرة بشأن الشكر الحقيقي لمن هم في حالة الفقر: حيث يسأل شقيق البلخي إبراهيمَ بن أدهم:

١٤٤٥. هود، ١١٢.

- ماذا تفعل؟ وماهي أحوالك؟

يجيب إبراهيم بن أدهم:

- إن وجدت شكرت، وإن لم أجد صبرت!..

وعندما قال شقيق البلخي:

- إن هذا ما يفعله كلابنا في خراسان أيضاً! وهذه المرة سأله إبراهيم بن أدهم:

- حسناً، وماذا تفعل أنت؟

فأجاب شقيق البلخي قائلاً:

- إن وجدت شكرت وأنفقت، وأما إن لم نجد نصبر ونشكر.

❁

إن كل إحسان ونعمة هي من الله ﷻ، ويقول إبراهيم الدسوقي -رحمه الله- في هذا المجال:

«يا أخي! أحذر من الركون إلى ادعائك القدرة على القيام بعمل خاص!

لأنك بعدها ستحاول الادعاء بأنك صاحب حقّ بجهد نفسك!

اعلم جيداً، بأنك إذا كنت تصوم، فإن الذي يمكّنك من الصيام هو الله تعالى.

أتقيم الصلاة؟ أتقف بين يدي الله؟ إن ذلك بفضل الله ولطفه.

وكل أعمالك مثل ذلك. لتعلم أن كل شيءٍ منه... وإن رأيت شيئاً فأدرك بأن الذي أراك هو الله، وعندما تداوم على هذه الحال وتتذوق الشراب الروحي، ستقول هو الذي أشربني».

من موجبات تمام الإيمان العلم بأن حدوث كل شيء هو من تجليات صفة الله تعالى «الخالق»، حتى وإن ظهر في العمل أثر الإرادة البشرية. ومن أجل ذلك كان من شروط الإيمان الاعتقاد بأن «الخير والشر من الله تعالى». ولكن يجب عدم الخلط بين «**إرادة الله و رضاه**». لأنه بينما إرادة الله تعالى موجودة في كل فعل، فإن رضاه موجود في الخير فقط. ولكن قد يقال لما يُحدث الله عملاً دون رضاه، ويخلقه بسبب اختيار العبد له، فإن الجواب هو من أجل إعطاء هذه الدنيا صفة «**الامتحان**»، لأنه لا امتحان دون إرادة واختيار.

فمهمة الطبيب وهدفه مداواة المريض، وأما إن لم يتبع المريض إرشادات الطبيب، ولم يتناول الدواء الذي وصفه له، فلا مسؤولية على الطبيب، وكذلك المعلم فإن هدفه هو إنجاح جميع طلابه وتوفيقهم، ولكن إن لم يبذل الطلاب جهوداً، ولم يجتهدوا فلا يُسأل المعلم عن فشلهم، والله سبحانه وتعالى أيضاً قد دعا عباده إلى دار السلام «الجنة»، ولكن إذا لم يحقق العبد شروط هذه الدعوة ولم يتبع إرشاداتها، فإن النتيجة هي حرمانه من الجنة. فلو أن العبد لم يُمنح القدرة والحق في اختيار الخير أو الشر، لكان «الجزاء» أو «الثواب» ضرباً من العبث وبعيداً عن العدالة الإلهية، وحاشى لله أن يكون هذا شأنه، ومن أحد أهم الأفعال التي تدخل ضمن ساحة اختيار العبد وبالتالي تستلزم الثواب والجزاء، الفهم الحقيقي لمفهوم الحمد والشكر، والقيام بالأعمال بناءً على هذا الفهم والاستيعاب.

اللهم ياربنا اجعلنا مثل لقمان عليه السلام الذي شكرك فآتيته نصيبه من الحكمة، واجعلنا من عبادك الذين تستفيد الأمة من فعالهم وقالهم وحكمهم وخواطرهم. آمين.

سيدنا

زكريا ويحيى وعيسى عليهم السلام

سيدنا زكريا عليه السلام
النبي المظلوم والشهيد الذي قسم جسده إلى نصفين بالمنشار
وسيدنا يحيى عليه السلام
الذي لاقى مصير أبيه في الموت والشهادة
وسيدنا عيسى عليه السلام
الذي شفى المرضى وأحيا الموتى

إن هؤلاء الأنبياء يتشابهون فيما بينهم من حيث الآلام التي عاشوها، والمعاناة التي تعرضوا لها، والنضال في سبيل نشر دين التوحيد.

لقد بذل هؤلاء جهوداً جبّارة في سبيل إعادة اليهود إلى طريق الاستقامة، وهدايتهم إلى سبيل الهداية، هؤلاء اليهود المنحرفون الذين بلغوا درجة كبيرة من الفساد والضلال بعد النبي موسى عليه السلام، وقد أصبح الأنبياء الثلاثة عرضة للإيذاء والتحقير والاستهزاء على أيدي غالبية اليهود الذين لم يؤمنوا بهم، ما عدا قسم قليل منهم، وقد قضوا حياتهم الدنيا وهم يعانون خلالها من الآلام والشدائد، والمحن ممالا نهاية لها. وهكذا فإن سيدنا زكريا ويحيى عليهما السلام قد نالا في النهاية شرف الشهادة وانتقلا إلى جوار ربهما الرحيم، وأما سيدنا عيسى عليه السلام فقد رفعه الله تعالى بين يديه ليصعد ويحلق حياً في السماء.

وإلى جانب تشابه هؤلاء الأنبياء الأربعة من حيث تجليات الامتحان الذي ظهر في مهمات رسالتهم النبوية، فإن بينهم صلة قربى ورباط من التربية الروحية والمعنوية. وهذه القرابة على الشكل التالي:

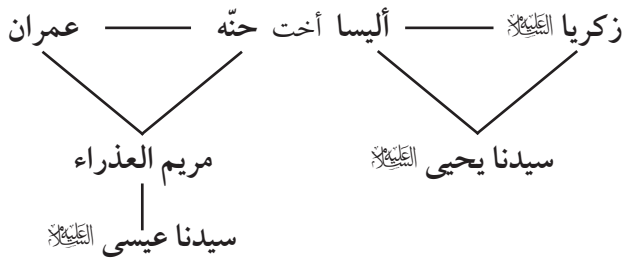

سيدنا زكريا عليه السلام:

هو نبي من أنبياء بني إسرائيل، ويصل نسبه إلى سليمان، كان يكتب التوراة في المسجد الأقصى ويشرف على إدارة ذبح القرابين والأضاحي هناك. وكان يجهد في سبيل تقوية دين موسى عليه السلام، ويعمل في مهنة النجارة فيكسب قوته من كدّ يده وعرق جبينه، وقد استشهد على يد قومه الظالمين، ويوجد قبره في حلب المدينة السورية حالياً.

لقد كانت الشام والقدس في عصر زكريا عليه السلام بيد البطالسة، وقد كان هؤلاء البطالسة يقدسون البيت المقدس ويحبون بني إسرائيل، ولم يكن رهبان هؤلاء القوم يخرجون من معابدهم أبداً، و يتعبدون في بيت المقدس ليلاً نهاراً، ولم يكن في ذلك الوقت من نبيٍ بين بني إسرائيل، ولذلك التجؤوا إلى الله تعالى من أجل أن يبعث إليهم نبياً.

وفي النهاية أرسل الله سبحانه وتعالى إليهم زكريا عليه السلام نبياً.

لقد كان في البيت المقدس أربعمائة عابد معتق بحالة عبادةٍ دائمة، وإذا أراد العابد المعتق أن يكون ذا شأن ومعتبراً عند الله تعالى، فإنه كان يقول عندما تحمل امرأته:

– يا رب! نذرت أن أضع الولد الذي ستلده امرأتي في البيت المقدس من أجل عبادتك.

وبذلك فإن الأولاد الذكور كانوا يُنذرون للعبادة في البيت المقدس، وقد بقيت هذه العادة من عصر موسى عليه السلام. حيث قال الله عز وجل لموسى عليه السلام:

– يا موسى! إني أحب من عبادي ذلك الإنسان الذي قضى عمره من عهد شبابه حتى شيخوخته بحالة عبادةٍ لي. ولم يرتكب ذنباً في شبابه، وتعلق قلبه بي فكسب بذلك محبتي.

❁

لقد تزوج زكريا عليه السلام بأليسا التي يرجع نسبها إلى سليمان عليه السلام، وأليسا هي أخت حنّة أم مريم العذراء، وزوج حنّة هو عمران. وقد ولد لزكريا عليه السلام وأليسا يحيى عليه السلام.

عاش زكريا عليه السلام حياته نبياً صالحاً صادقاً، وراضياً تجاه إلهه سبحانه وتعالى، وكما ذكرنا في السابق وسيمر معنا ذكره لاحقاً فإنه استشهد على أيدي بني إسرائيل المتجبّرين بشكل دموي.

سيدنا يحيى عليه السلام:

يحيى عليه السلام هو ابن خالة مريم العذراء، وقد تعلم التوراة في صغره، وقد كلف بمهمّة النبوة عندما بلغ سنّ الرشد.

ويبين القرآن الكريم إحسان الله تعالى إلى زكريا عليه السلام بيحيى عليه السلام، حيث يقول الله سبحانه وتعالى:

﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ [١٤٤٦]

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا﴾ [١٤٤٧]

﴿وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا﴾ [١٤٤٨]

﴿يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا﴾ [١٤٤٩]

وقد قُبل هذا الدعاء الذي دعا به زكريا عليه السلام من صميم قلبه ووجدانه من الله تعالى، حيث يقول الله تعالى في كتابه العزيز:

﴿فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [١٤٥٠]

حسبما بينه المفسرون فإن المقصود بـ«كلمة» الواردة في الآية الكريمة هو سيدنا عيسى عليه السلام. وتشير الآية / ٤٥ / من سورة آل عمران إلى هذا الأمر بشكل واضح.

يقول الله عزّ وجلّ في آية أخرى بشأن زكريا عليه السلام و ولده الذي بُشر به:

﴿يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا﴾ [١٤٥١]

١٤٤٦. آل عمران: ٣٨.
١٤٤٧. مريم: ٤.
١٤٤٨. مريم: ٥.
١٤٤٩. مريم: ٦.
١٤٥٠. آل عمران: ٣٩.
١٤٥١. مريم: ٧.

إن قول الله تعالى في الآية الكريمة ﴿لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا﴾ هو من أجل تكريم يحيى عليه السلام، وذلك لأن اسم يحيى أطلق لأول مرة عليه هو ولم يُسمّى أحدٌ به من قبل، وعلاوة على ذلك فقد أُطلق عليه هذا الاسم من الله تعالى بالذات، وهذا في الوقت نفسه دليل على فضيلة أخرى ليحيى إضافة إلى فضائله الأخرى الاستثنائية.

إن «يحيى» من معاني الحياة. فمنح ولد لشخصين مسنين كأنه خلق للحي من الميت، حيث يقول الله تعالى:

﴿قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾[١٤٥٢]

﴿قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا﴾[١٤٥٣]

وقد صارت علامة قبول دعاء زكريا عليه السلام أن لا يكلم الناس ثلاثة أيام إلا إشارة، والانشغال بذكر ربه عز وجل، حيث يقول الله عز وجل:

﴿قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا وَاذْكُرْ رَبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ﴾[١٤٥٤]

فلم يكلم زكريا عليه السلام الناس لمدة ثلاثة أيام، وقد كان يبلغ قومه بالكتابة على التراب، وعن طريق الإشارة. يقول الله تعالى:

﴿فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾[١٤٥٥]

ويقول عز وجل:

﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَى وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾[١٤٥٦]

١٤٥٢. مريم: ٤٠.
١٤٥٣. مريم: ٩.
١٤٥٤. آل عمران: ٤١.
١٤٥٥. مريم: ١١.
١٤٥٦. الأنبياء: ٩٠.

وعندما بلغ يحيى عليه السلام سن الرشد أمره الله تعالى التمسك بالتوراة، حيث قال:

﴿يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا﴾ [١٤٥٧]

﴿وَحَنَانًا مِنْ لَدُنَّا وَزَكَاةً وَكَانَ تَقِيًّا﴾ [١٤٥٨]

﴿وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُنْ جَبَّارًا عَصِيًّا﴾ [١٤٥٩]

بُعث يحيى عليه السلام نبياً، واتبع شريعة موسى عليه إلى أن بُعث عيسى عليه السلام نبياً وأُنزل عليه الإنجيل المقدس، وأصبح يحيى عليه السلام بذلك آخر الأنبياء الذين اتبعوا شريعة موسى عليه السلام وعملوا بها، واستشهد مثل أبيه زكريا عليه.

بحسب الشريعة التي جاء بها موسى عليه السلام يحرم الزواج من زوجة الأخ، وجزاء من يفعل ذلك الإخصاء. [١٤٦٠]، بينما عقوبة الزنا بين الأجانب في التوراة هي الموت، في حين أن عقوبة الزنا بين المحارم «من يحرم الزواج بينهم» مختلفة جداً [١٤٦١] حيث تروى حادثة تتعلق بهذا الموضوع والذي كان سبباً في استشهاد يحيى عليه السلام، وهذه الحادثة هي:

خلال فترة نبوة يحيى عليه السلام زنا الملك هيرودوتس بزوجة أخيه، وعندما قال يحيى بأن هذا الفعل مخالف للقوانين الإلهية ألقي في السجن بأمر من الملك، وبعد ذلك وخلال احتفال الناس بيوم ميلاد الملك انضمت المرأة التي زنا بها مع ابنتها إلى هذا الاحتفال، ومن خلال الاستعراضات والرقصات التي قامت بها تلك الفتاة كأنها قد سحرت الملك وأسكرت عقله، وقطع الملك ذلك اليوم وعداً بأن يتمّ تنفيذ كل ما تتمناه وتطلبه هذه الفتاة، وقد طلبت الفتاة رأس يحيى عليه السلام بناءً على تحريض وخديعة أمها لها، حزن الملك كثيراً تجاه هذا الطلب، إلا أنه تذكر الوعد الذي قطعه على نفسه فأمر بقطع رأس يحيى عليه لينال شرف الشهادة في سبيل ربه. [١٤٦٢]

١٤٥٧. مريم: ١٢.

١٤٥٨. مريم: ١٣.

١٤٥٩. مريم: ١٤.

١٤٦٠. لاويين، ١٨/ ٦- ١٨، ٢٠/ ١٩- ٢١.

١٤٦١. التثنية، ٢٢/ ٢٢- ٢٧؛ لاويين، ٢٠/ ١١، ١٢، ١٤، ١٧.

١٤٦٢. لوقا، ٣/ ١٩- ٢٠، متى، ١٤/ ١- ١٢.

وجاء في رواية أن يحيى عليه السلام حتى بعد أن تم قطع رأسه قال عدة مرات لذاك الظالم هيرودوتس:

- لا تحل لك هذه الفتاة!..

إنها لغفلة كبيرة، فعلى الرغم من رؤية المعجزات النبوية الخارقة إلا أنه مع الأسف لم يعتبر هيرودوتس فعاند يحيى عليه السلام وقتله ليسقط شهيداً عليه السلام.

إن جسد يحيى عليه السلام المبارك في مدن مختلفة، وأما رأسه فمدفون في الجامع الأموي في دمشق بسوريا حالياً.

وأما تلك الفتاة التي تزوج بها هيرودوتس فقد خسف الله بها الأرض فغاصت في باطن الأرض.

إن صعود عيسى عليه السلام إلى السماء يصادف هذا العصر من الزمن. لأن اليهود في ذلك العهد كان قد بلغ بهم العنف والانحراف مبلغاً دفعهم إلى حد قتلهم الأنبياء، ولذلك فقد لعنهم الله تعالى وطبع على قلوبهم بسبب هذه الجريمة المنكرة وغيرها من الجرائم المشابهة لها، حيث يقول الله تعالى:

﴿فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ وَكُفْرِهِمْ بِآيَاتِ اللَّهِ وَقَتْلِهِمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلا﴾ [١٤٦٣]

❁

ولما استشهد يحيى عليه السلام كان له من العمر بضع وثلاثون سنة.

وكما تبين الآية الكريمة فإنه قد نال رحمة الله تعالى في ثلاثة أيام خطيرة ومهولة، فيقول الله تعالى:

﴿وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا﴾ [١٤٦٤]

«وسلام عليه من الله يوم ولد من أن يناله الشيطان بما ينال به بني آدم، ويوم يموت من عذاب القبر، ويوم يبعث حياً من عذاب النار القيامة."

١٤٦٣. النساء: ١٥٥.

١٤٦٤. مريم: ١٥.

سيدنا عيسى عليه السلام:

لقد شرف عيسى عليه السلام الدنيا بعد ولادة يحيى عليه السلام بسبعة أشهر في مدينة القدس، وعيسى عليه السلام هو آخر الأنبياء الذين أرسلوا إلى بني إسرائيل.

وهو واحد من الأنبياء ذوي الفضل العالي ويأتي في المرتبة الرابعة من الأنبياء "أولي العزم". وقد كرمه الله تعالى بأن قال عنه "روح الله"، ويعود سبب تكريمه إلى أن الله ﷻ قد خلقه مثل آدم ونفخ فيه من روحه.

بُعث عيسى عليه السلام نبياً وهو في عمر الثلاثين عاماً، وأُنزل عليه الكتاب السماوي إنجيل المقدس، ورفعه الله تعالى إلى السماء حياً وهو في عمر الثلاثة والثلاثين عاماً.

سوف ينزل عيسى عليه السلام إلى الأرض عند اقتراب يوم القيامة، وسوف يتزوج ويرزق بأولاد، وسيلتقي "بالمهدي"، وسوف ينشر الإسلام في جميع العالم، ويتوفى في المدينة المنورة. وسوف يدفن بجوار قبر النبي ﷺ في الحجرة الشريفة.

❁

إن والدة عيسى عليه السلام السيدة مريم من نسل داوود عليه السلام، فأمها حنّة وأبوها عمران.

وحسب ما ذُكر في المصادر التاريخية فإن حنة لم تكن تنجب الأطفال، فنذرت لله نذراً بقولها:

«يا رب! إن رزقت بولد سوف أجعله في خدمة بيت المقدس!»

وبعد أن نذرت حنة هذا النذر حملت بطفل، حيث يقول الله تعالى في هذا الشأن:

﴿إِذْ قَالَتِ امْرَأَةُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [١٤٦٥]

وبعد مدة من الزمن رزقت بمولود أنثى، فسمتها مريم، إذ يقول الله تعالى:

﴿فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَى وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَى وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ [١٤٦٦]

١٤٦٥. آل عمران: ٣٥.

١٤٦٦. آل عمران: ٣٦.

لقد كان نذر الأولاد الذكور إلى البيت المقدس في ذلك العصر جائزاً وله ثواب كبير. وهكذا فإن الأولاد الذكور المنذورين يوضعون في البيت المقدس منذ ولادتهم ويخدمون فيه حتى بلوغهم سن الرشد، وأما بعد سن الرشد فكانوا إذا شاءوا يستمرون بالخدمة في ذلك المكان، وإن شاءوا ذهبوا إلى مكان آخر يختاروه، ولكن في كل الأحوال لم يكن من الجائز مغادرة البيت المقدس قبل سن البلوغ.

وهذه النذور لم تكن تحدث إلا بالنسبة للذكور من الأطفال، وبعد أن قبل الله تعالى تضرّع والدة مريم العذراء من أجل قبولها في البيت المقدس، وبعد أن تفضل بقبول النذر بحق الأطفال الإناث، أصبح من الجائز نذر الإناث للبيت المقدس.

قامت حنة بتسليم ابنتها مريم إلى المكلفين بالخدمة في البيت المقدس، فاختلفوا على أمر تولي رعايتها وتربيتها، ولجؤوا بعد ذلك إلى القرعة لتحديد الشخص الذي سوف يتولى أمرها، ويقول الله تبارك وتعالى في ذلك:

﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ [١٤٦٧]

ووقعت القرعة على إمام البيت المقدس وزوج أخت حنّة زكريا عليه السلام، فقال زكريا عليه السلام:

- إن خالتها على عصمتي، ومن ثم أخذ مريم البتول تحت وصايته.

وعندما تم فطام مريم عن الرضاع، خصصت لها غرفة مستقلة في البيت المقدس، وقد سميت هذه الغرفة في القرآن الكريم بـ «المحراب». والمحراب هو من وسائط الحرب والجهاد، ومن وجهة النظر هذه، فإن الكلمة تحمل معنى غرفة الرباط.

وكان زكريا عليه السلام هو الشخص الوحيد الذي يدخل إلى غرفة مريم البتول، واستمرت هذه الحالة إلى أن بلغت الثانية عشرة سنة من عمرها، وكان زكريا عليه السلام عندما يدخل إلى غرفتها يفتح الباب بالمفتاح ويدخل، ولدى خروجه يغلق الباب عليها بالمفتاح أيضاً، ويأخذ لها كل يوم من الطعام والشراب ما يكفيها طيلة فترة النهار، ولكنه كلما دخل عليها ذلك المحراب يجد عندها مختلف أنواع الفاكهة فيستغرب من الأمر وتصيبه الحيرة من

١٤٦٧. آل عمران: ٤٤.

هذا الأمر، وعندما يسألها عن مصدر هذه الفاكهة، كانت مريم تقول بأنها مرسلة إلي من عند الله تعالى، ومن بين هذه الأطعمة فاكهة الصيف في الشتاء، وفاكهة الشتاء في الصيف. حيث يقول الله ﷻ:

﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [١٤٦٨]

إن مكرمات الله تعالى الكبرى لمريم العذراء هي:

١. على الرغم من نذور الأطفال للبيت المقدس كان مقتصراً على الذكور فقط إلى ذلك الوقت، فإن الله تعالى قد قبل نذر مريم البتول بتضرع والتجاء والدتها حنة إلى ربها.
٢. جعلها الله تعالى تحت حماية ووصاية نبيه زكريا عليه السلام.
٣. تفضل الله تعالى عليها بالرزق من نعيم الجنة.
٤. قابلت الملاك الذي يُرسله الله تعالى إلى أنبيائه وهو جبريل عليه السلام.
٥. حفظها الله تعالى وولدها عيسى عليه السلام من شر ومسّ الشيطان.
٦. لقد تكلم ابنها عيسى عليه السلام وهو ما يزال في المهد، ورد على الافتراءات التي قيلت بحق أمه.

وقال رسولنا الكريم عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم بحق مريم العذراء:

«خير نسائها مريم بنت عمران وخير نسائها خديجة بنت خويلد» [١٤٦٩]

❁

لقد كانت مريم البتول تعبد الله تعالى ليل نهار، وأصبح ورعها وتقواها مضرب المثل بين بني إسرائيل، فقد كانت من عباد الله المختارين، وقد أثنى الله تعالى عليها ومدحها في القرآن الكريم فسماها «صدِّيقة».

١٤٦٨. آل عمران: ٣٧.

١٤٦٩. مسلم، فضائل الصحابة، ٦٩/ ٢٤٣٠.

يقول الله ﷻ:

﴿وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ . يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ [١٤٧٠]

وقد أطاعت مريم العذراء أوامر ربها خير طاعة، وبلغ تقواها الآفاق، وقد كانت تقوم إلى الصلاة حتى تتورم قدماها.

الذي يخلق من العدم، يخلق من غير أب أيضاً!

لقد كانت مريم العذراء مخطوبة لرجل يُدعى «يوسف النجار» عندما كانت في الخامسة عشر عاماً من عمرها. إلا أن الله سبحانه وتعالى قد بشرها قبل الزواج بأنها سوف تُرزق بغلام من قبل أن تتزوج، حيث يقول الله تعالى في كتابه العزيز:

﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ [١٤٧١] **عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ. وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾** [١٤٧٢]

كانت البشارة مفاجئة لمريم البتول، وأصابتها بالدهشة والحيرة، ويصور البيان الإلهي حالها وكلامها، وجواب ربها لها:

﴿قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [١٤٧٣]

وتابعت الملائكة خطابها لمريم العذراء، وقالت بحق عيسى عليه السلام:

﴿وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ﴾ [١٤٧٤]

١٤٧٠. آل عمران: ٤٢-٤٣.

١٤٧١. المسيح، كلمة عبرية، وهي لقب لعيسى عليه السلام، وتأتي بمعنى «المبارك».

١٤٧٢. آل عمران: ٤٥-٤٦.

١٤٧٣. آل عمران: ٤٧.

١٤٧٤. آل عمران: ٤٨.

إن المقصود بكلمة «الملائكة» التي مرت في الآيات الكريمة المذكورة آنفاً هو جبريل عليه السلام، وقد ورد ذكر جبريل عليه السلام بصيغة الجمع تكريماً له، إذ أن استخدام صيغة الجمع في الكلام بالنسبة للمفرد يدل على التعظيم والتكريم.

❁

يقول الله عز وجل:

﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا﴾ [١٤٧٥]

إن المكان الذي أشير إليه في الآية الكريمة بعبارة "مكاناً شرقياً" حسب رأي المفسرين هو الجهة الشرقية من المسجد الأقصى، أو الجهة الشرقية لبيت مريم البتول، وقالوا بأن المسيحيين لهذا السبب يتجهون إلى الشرق.

ولم يمض وقت طويل حتى أرسل الله تبارك وتعالى جبريل عليه السلام إلى مريم العذراء، حيث يقول في الآية الكريمة:

﴿فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾ [١٤٧٦]

إن المقصود بالروح هنا هو جبريل عليه السلام، وقد كان سبب إرساله في مرة على هيئة شاب حسن الهيئة والأناقة هو كي لا ترتعب مريم البتول وتخاف منه، لأن مريم لو رأت جبريل عليه السلام على هيئته الحقيقية، لا شك أنها ما كانت لتتحمل ذلك.

ومع ذلك عندما رأت إنساناً شاباً أمامها خافت كثيراً بسبب عفتها وأدبها المتكامل، ولأنها لم تكن تعرف سيدنا جبريل عليه السلام، أصابها اضطراب وقلق شديد، وكما جاء في الآيات الكريمة:

﴿قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا. قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا. قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا. قَالَ كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَقْضِيًّا﴾ [١٤٧٧]

١٤٧٥. مريم: ١٦.
١٤٧٦. مريم: ١٧.
١٤٧٧. مريم: ١٨-٢١.

وتحققت مشيئة الله سبحانه وتعالى، وحملت مريم العذراء، حيث يقول الله تعالى:

﴿فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا﴾ [١٤٧٨]

وبدأت آلام المخاض تزداد على مريم البتول، فلجأت إلى جذع شجرة نخل يابسة وأسندت ظهرها إليه، ويقول الله ﷻ في ذلك:

﴿فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسْيًا مَنْسِيًّا﴾ [١٤٧٩]

وفي نهاية الأمر أبصر عيسى عليه السلام الدنيا تحت تلك الشجرة اليابسة، وبذلك خلقه الله تعالى من غير أب.

وهكذا فإن ربنا ﷻ بمقتضى عظمته وقدرته التي لا حدود لها قد خلق عيسى عليه السلام من غير أب، كما خلق من قبله أبانا آدم عليه السلام من التراب دون أب أو أم، وكما خلق أمنا حواء من ضلع آدم عليه السلام من غير أم.

وإن التشابه الذي بين خلق آدم عليه السلام وخلق عيسى عليه من ناحية أن كلاهما قد خلقا بمقتضى أمر الله تعالى الذي تجلى في قوله لهما "**كن**". وقد بين الله تبارك وتعالى هذه الحقيقة في كتابه الكريم بقوله:

﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [١٤٨٠]

إن هذه الآية تشير من جهة إلى عظمة قدرة الخالق ﷻ اللامتناهية، ومن جهة أخرى تؤكد على براءة وعفة مريم العذراء تجاه الافتراءات القذرة والسيئة التي اتهمها بها اليهود بعدما أصيبوا بالحيرة والاستغراب من حالها الخارق للعادة، والذي يمثل معجزة إلهية.

❁

لا توجد كتابات ثابتة في المصادر التاريخية بشأن تاريخ ميلاد عيسى عليه السلام، ولم يتم العثور على أية معلومات تتعلق بهذا الموضوع في مختلف الأناجيل، وقد ورد في أحد الأناجيل أن عيسى بن مريم عليه السلام قد وُلد في عهد أحد ملوك اليهود [١٤٨١]، ولكن المصادر

١٤٧٨. مريم: ٢٢.
١٤٧٩. مريم: ٢٣.
١٤٨٠. آل عمران: ٥٩.
١٤٨١. متى، ٢/ ١.

الرومانية تشير إلى وفاة هذا الملك قبل ميلاد المسيح عليه السلام، وكل البيانات والأبحاث التي وردت وأجريت في هذا المجال تتناقض، وتفنّد بعضها البعض. وإن كان الأمر كذلك، فلا ينبغي اعتبار معنى «عيد الميلاد» أكثر من أسطورة مختلقة لا أساس لها من الصحة.

ولهذا السبب، فبينما يحتفل الكاثوليك بعيد الميلاد في يومي الرابع والعشرين والخامس والعشرين من شهر كانون الأول في كل عام، تحتفل الكنائس الأرمنية بهذا العيد في السادس من شهر كانون الثاني، وأما قسمٌ من البروتستانت فلأنهم يعتبرون أن هذا التاريخ لم يرد في المصادر والكتابات المقدسة بشكل قاطع، لذلك فإنهم لا يحتفلون بعيد الميلاد.

❁

وبعد ولادة عيسى عليه السلام، جاء نداء إلى مريم العذراء من عيسى عليه السلام أو من الملك، حيث يقول الله تعالى:

﴿فَنَادَاهَا مِنْ تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا﴾ [١٤٨٢]

وتشير الآية الكريمة إلى المعنى الآتي:

«يا مريم، لا تتكدري وتقلقي! فإن الذي تحتك «عيسى عليه السلام» قد خُلق ليكون قائداً له شأن وشرف رفيع بين الناس!".

وتابع الصوت الذي خاطب مريم البتول، قائلاً:

﴿وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا﴾ [١٤٨٣]

ولما أمسكت مريم بغصن شجرة النخل وهزته إليها بدأت الشجرة تساقط الرطب الطازجة عليها، على الرغم من أن الفصل كان شتاءً وليس موسم ثمار النخيل. وأخذت مريم البتول تشرب من ماء الساقية التي تجري بجوارها، وتأكل من الرطب الطازجة، وكان عطاء شجرة النخيل لثمارها الجنية في موسم الشتاء عزاءً لمريم العذراء على محنتها التي تمر بها، ونُوديت مريم:

١٤٨٢. مريم: ٢٤.

١٤٨٣. مريم: ٢٥.

﴿فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا﴾ [١٤٨٤]

وحسب الروايات، فإن قوم مريم كانوا يصومون عن طريق الامتناع عن الكلام «الصوم عن الكلام» مثلما كانوا يصومون بالامتناع عن الطعام والشراب، أو أنهم كانوا يمتنعون عن الكلام عندما يكونون في حالة الصيام عن الطعام والشراب.

وبولادة عيسى عليه السلام أطلّت إشاعات وافتراءات عظيمة في حقها بين قومه، وتبين الآيات الكريمة هذه الحالة بالشكل الآتي، حيث يقول الله تعالى:

﴿فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا. يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا﴾ [١٤٨٥]

إن هارون الذي تشير الآية الكريمة إليه ليس هارون شقيق موسى عليه السلام، وحسب أقرب الآراء إلى الصواب التي وردت في هذا الشأن هو أن هارون المذكور في الآية السابقة شقيق مريم الحقيقي، وهو أيضا كان رجلاً صالحاً وعفيفاً مثل أبيه وأمهن ولهذا السبب، فإن القوم تعجبوا من أمر مريم العذراء، وأرادوا التعبير عن تعجبهم واستغرابهم بأنه ليس من المعقول واللائق إطلاقاً لأخت مثل هذا الإنسان أن ترتكب معصية الزنا!

لقد كان تحقير واتهامات بني إسرائيل متتابعة بحق مريم البتول، وهي تستمع إلى أقاويلهم بفارغ الصبر، ولا تكلمهم بناءً على الأمر الإلهي الذي جاءها، ولكن تصرفات بني إسرائيل الرعناء ازدادت تجاهها، وفي نهاية الأمر أدركتها العناية الإلهية.

حيث يقول الله تعالى في كتابه الكريم:

﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا﴾ [١٤٨٦]

أنطق الله تعالى عيسى عليه السلام الذي سوف يصبح رسوله في المستقبل، وكلم الناس وهو ما يزال في المهد، إذ قال لهم:

١٤٨٤. مريم: ٢٦.
١٤٨٥. مريم: ٢٧-٢٨.
١٤٨٦. مريم: ٢٩.

﴿...إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا. وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا. وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا. وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾ [١٤٨٧]

إن كلام عيسى عليه السلام الناس وهو ما يزال طفلاً رضيعاً في المهد أثار حيرة من حوله، وأصابهم بالذهول، فبرّأ بذلك أمه مريم العذراء من الافتراءات التي تعرضت لها على ألسنة القوم.

وهكذا، فإن مريم البتول كلما وُجه إليها سؤال من القوم بقولهم : «من أين لك هذا الطفل الصغير» تشير دائماً إلى رضيعها الصغير ليجيب عن أسئلتهم، وكان عيسى عليه السلام على الرغم من أنه طفل في مهده يقول لهم:

«إن والدتي امرأة ذات عفة وشرف، أيها الجهلة! لا تسيئوا إلى أمي العابدة ذات الحياء والعفة! واعلموا أن الله تعالى قد خلقني وأوجدني في هذه الدنيا من غير والد، وهذه من معجزات الله ﷻ !».

فقال كثير من الناس حول هذا الأمر:

«إن هذه معجزة ربانية ساطعة لا ريب فيها، فمن المستحيل لطفل وليد للتوّ التكلم وهو ما يزال في المهد، الحق أن هذا الأمر من الله تعالى؛ وهذه حادثة تظهر مدى عظمة الخالق وقدرته».

وأما قسم آخر من الناس فلم يتعظوا، ولم يتراجعوا عن خبثهم ونذالتهم.

ويقول الله تعالى:

﴿ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾ [١٤٨٨]

إن اعتبار عيسى عليه السلام في الآية الكريمة «قول الحق» هو كونه من أثر قول الله تعالى له «كن». وتتبين هذه الحقيقة في آية أخرى، حيث يقول الله تعالى:

﴿وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ [١٤٨٩]

١٤٨٧. مريم، ٣٠-٣٣.

١٤٨٨. مريم: ٣٤.

١٤٨٩. الأنبياء: ٩١.

ويقول الله تعالى:

﴿وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ﴾ [١٤٩٠]

❁

لقد دحض تكليم عيسى عليه السلام وهو في المهد الكثير من الافتراءات والأقاويل، وأسقطها، إلا أنه لم يمض وقت طويل حتى بدأت الفتنة والافتراءات من جديد، وقال القوم الغافلون:

_ أيعقل أن يولد طفل من غير أب؟!

وبعد ذلك، قالوا:

_ لا بد أن زكريا هو من ارتكب الزنا!

واتجهوا إلى زكريا عليه السلام عندما كان وحيداً في البيت المقدس، وقالوا له:

_ أنت الذي زنيت بمريم!. ظلماً وبهتاناً، وهجموا عليه.

ولكي يتقي زكريا عليه السلام شرّهم اختبأ في جوف شجرة، فتمثل الشيطان بهيئة إنسان ودخل بين الباحثين التعساء عن زكريا عليه السلام، ودلّهم على الشجرة التي يختبئ فيها قائلاً:

_شقوا تلك الشجرة بالمنشار إلى نصفين! فلن تفقدوا شيئاً! فزكريا بداخل تلك الشجرة!.

أسرع أولئك التعساء إلى الشجرة وانهمكوا بقطع الشجرة، ولما بدأ المنشار بجرح رأس زكريا عليه السلام تأوّه النبي المظلوم من الألم، إلا أنه جاء نداءٌ قائلاً:

_ أنْ يا زكريا! لا تشكو أمرك لأحد!.

فتجمّل زكريا عليه السلام بالصبر والتوكل البالغ، وقسمه المنشار إلى نصفين ليستشهد ويسلم الروح إلى بارئها، ووصل إلى المراتب العلا عند الإله القدير.

وفي هذه الأثناء انضمّ يوسف النجار خطيب مريم العذراء السابق إلى الافتراء ذاته.

❁

١٤٩٠. التحريم: ١٢.

لقد أراد الله تعالى حفظ مريم العذراء وابنها عيسى عليه السلام من أذى اليهود المفترين الذين استُشهد زكريا عليه السلام على أيديهم ظلماً وعدواناً، وإحاطتهما بأمنه وسلامه، حيث قال الله تعالى في كتابه العزيز:

﴿وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً وَآوَيْنَاهُمَا إِلَى رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾ [١٤٩١]

جاء في رواية أن هذا المكان في مصر، وقد أقامت مريم العذراء وابنها عيسى عليه السلام هناك مدة اثنتي عشرة سنة، وخلال هذه المدة وقعت عدة حوادث خارقة منها:

ذات يوم فُقد بعض النقود من صاحب البيت الذي تقيم فيه مريم وابنها عيسى عليه السلام، وكان يوجد في ذلك البيت فقراء ومساكين. ولم يتمكن صاحب البيت معرفة الشخص الذي أخذ النقود، وأصبح الجميع عرضة للمظنة والاتهام، وقد صعبت هذه الحالة كثيراً على مريم العذراء، وكان من بين أولئك الناس شخص أعمى وآخر كسيح. وأمام حزن أمه قال عيسى عليه السلام لهذين الشخصين:

_ هيا! أخرجا النقود من المكان الذي خبأتماها فيه!

فلم يجدا مهرباً أمام هذه المعجزة وأخرجا النقود التي أخذوها مضطرين، ومن بعد هذه الحادثة ارتفع شأن عيسى عليه السلام في نظر القوم هناك.

نبوة سيدنا عيسى عليه السلام:

وبعد أن مكث عيسى عليه السلام مدة اثنتي عشرة سنة عاد إلى القدس، وسكن في مدينة الناصرة، ولهذا السبب يطلق على المسيحي تسمية «نصراني». وقد بُعث عيسى عليه السلام نبياً وهو في الثلاثين عاماً من عمره، فقام على الفور بأداء المهمة التي كُلف بها، وبدأ بدعوة الناس إلى دين التوحيد.

يقول الله تبارك وتعالى:

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ فَمِنْهُمْ مُهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ [١٤٩٢]

١٤٩١. المؤمنون: ٥٠.

١٤٩٢. الحديد: ٢٦.

يفهم من الآية الكريمة أن الكتب السماوية الأربعة الرئيسية التي مرّ ذكرها في القرآن الكريم قد أنزلت على الأنبياء الذين جاؤوا من هذين النبيين نوح وإبراهيم عليهما السلام.

﴿ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِمْ بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ [١٤٩٣]

الرهبانية مفهوم وطراز من المعيشة ظهر إلى الوجود بعد المسيحيين، وحسب الروايات فإن المؤمنين قد عملوا بعد عيسى عليه السلام على القضاء على الطغاة المنكرين، وقد تكبدوا خلال الحروب الثلاثة التي خاضوها معهم الكثير من الخسائر في أرواح المؤمنين، فقرر من بقي على قيد الحياة من أهل الإيمان عدم خوض مزيد من الحروب بسبب خوفهم وقلقهم من أن لا يبقى أحد من المؤمنين يدعو الناس إلى الدين في حال تعرضهم للموت أيضاً، وبدأوا مرحلة جديدة انشغلوا فيها بالعبادة فقط دون أمر آخر غيرها، وهكذا فإن هؤلاء الناس قد ابتعدوا عن الفتنة وأظهروا إخلاصاً وتصميماً منقطع النظير لدينهم، وفارقوا كل ملذات الدنيا، واكتفوا بالحد الأدنى من الطعام والشراب، وامتنعوا عن الزواج؛ وفرغوا أنفسهم للعبادة في الجبال، والكهوف، والمغارات، والحجر المنعزلة عن الناس، ولكن كثير من هؤلاء المؤمنين لم يلتزموا بهذا الأمر، فأنكروا دين عيسى عليه السلام، ودخلوا في دين حكّامهم؛ وخرجوا على الناس بعقيدة التثليث؛ وعندما حصلت بعثة النبي ﷺ أنكروا نبوة محمد عليه الصلاة والسلام، ووقعوا في انحرافات مشابهة كثيرة.

❁

لقد كان عيسى عليه السلام يتابع تبليغ الناس الدين، إلا أن كثيراً من الناس كانوا معاندين ومصرين على كفرهم.

وقد أظهر عيسى عليه السلام الكثير من المعجزات، وصدّق كتاب التوراة الذي أُنزل على موسى عليه السلام، وبلّغ الناس بعض الأحكام التي غيرها الله عز وجل. حيث يقول الله عز وجل:

١٤٩٣. الحديد: ٢٧.

﴿وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَلِأُحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ. إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ [١٤٩٤]

﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ [١٤٩٥]

وقد ورد في القسم الرابع عشر من إنجيل يوحنا أن عيسى عليه السلام قال:

«وأنا أطلب من الأب فيعطيكم معزياً آخر ليمكث معكم إلى الأبد؛ روح الحق الذي لا يستطيع العالم أن يقبله، لأنه لا يراه ولا يعرفه، وأما أنتم فتعرفونه لأنه ماكث معكم ويكون فيكم» [١٤٩٦]

وقد قال في القسم السادس عشر:

«لكني أقول لكم الحق: إنه خير لكم أن أنطلق، لأنه إن لم أنطلق لا يأتيكم المُعَزِي، ولكن إن ذهبت أرسلُه إليكم * ومتى جاء ذاك يُبَكِتُ العالم على خطيَةٍ وعلى برٍ وعلى دينونةٍ * وإن لي أموراً كثيرةً أيضاً لأقول لكم، ولكن لا تستطيعون أن تحتملوا الآن * وأما متى جاء ذاك، روح الحق، فهو يرشدكم إلى جميع الحق، لأنه لا يتكلم من نفسه، بل كل ما يَسمعُ يتكلم به، ويخبركم بأمور آتية» [١٤٩٧]

إن كلمة «المُعَزي» مقابلة لكلمة «الحمد». وبعض المسيحيين يستخدمون كلمة «المخلص» للتعبير عن ذلك؛ والبعض الآخر من المسيحيين فسروا تلك الكلمة بـ «الحمَاد» و «الحميد»، وإن كلمة «المُعَزي» تتوافق مع معنى أحمد ومحمد وبالتالي يُفهم منها بشكل واضح أنها إشارة إلى ذلك الاسم الأصلي.

ويوجد في الباب التاسع والثلاثين من إنجيل برنابا الحوار التالي:

١٤٩٤. آل عمران: ٥٠- ٥١.
١٤٩٥. الصف: ٦.
١٤٩٦. يوحنا، ١٤/ ١٦- ١٧.
١٤٩٧. يوحنا، ١٦/ ٧-٩، ١٢- ١٣.

قال الحواريون:

- ما هو الاسم المسيح الذي قلته لنا، وكيف نعرف مجيئه؟

فأجاب عيسى عليه السلام على سؤالهم بالكلام الآتي:

- اسم المسيح «الرسول»موجود في الجمال الذي يبعث الحيرة والإعجاب، منحه الحق تعالى هذا الاسم عندما خلق نوره، ووضعه في الرقي والسمو السماوي، وقال بعد ذلك:

- من أجلك أنت خلقت الجنة والدنيا والكثير من المخلوقات، وأنا اليوم أهبك هذه كلها، وكل من عظّمك نال النعم مني، ومن أنكرك تعرض للعنتي، وسوف أبعثك إلى الدنيا رسولاً من عندي، وإنك سون لن تنطق إلا بالحق، و ربما تزول الأرض والسموات ولكن إيمانك سوف يدوم للأبد.

«اسم ذلك الرسول أحمد»

وبناءً على هذا صاح المؤمنون الذين اجتمعوا بجوار سيدنا عيسى عليه السلام وتضرعوا بالدعاء:

- يا أحمد عجّل المجيء والفرج حتى تنقذ الدنيا... [١٤٩٨]

❁

وبمرور الوقت ازداد غيظ وحقد المنافقين على عيسى عليه السلام كثيراً، وعندما أدرك عيسى عليه السلام هذا الأمر قال للرجال الاثني عشر الذين كان قد اختارهم تلامذة له من بين القوم أي «الحواريين»:

- من منكم يقوم بمساعدتي من أجل خدمة دين الله عزوجل، والمحافظة عليه؟

فقال الحواريون جميعهم:

- نحن أعوانك ومساعدوك، وسوف نقوم بكل ما نملك بمساعدتك وإعانتك في سبيل الله تعالى، لأننا أعطينا قلوبنا لدينه، واشهد بأننا مسلمون صادقون وحقيقيون نتبع دينك ولا نفارقه!.

١٤٩٨. يمكن الاطلاع على أقوال مشابهة في الأبواب، ٤١ و ٩٧ من إنجيل برنابا.

ويقول الله تبارك وتعالى في كتابه العزيز حول هذا الأمر:

﴿فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [١٤٩٩]

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنْصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ فَآمَنَتْ طَائِفَةٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَتْ طَائِفَةٌ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَى عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ﴾ [١٥٠٠]

إن كلمة «حواري» دخلت من اللغة الحبشية إلى اللغة العربية وأصلها «حواريا»، وتحمل معنى «المساعد». ومن جهة أخرى فإنها تأتي بمعنى "الإنسان المُختار."

وأطلق اسم الحواريين على المؤمنين الاثني عشر الذين سبقوا الجميع في الإيمان بعيسى عليه السلام، وأخلصوا في خدمته ومساعدته، وأُطلق عليهم اسم «أنصار الله» أيضاً، وقد تم اختيار الحواريين من قبل عيسى عليه السلام من أجل نشر المسيحية بين الناس، ومن بين هؤلاء الحواريين برنابا كاتب الإنجيل الشهير برنابا ، وسُمي هذا الإنجيل باسمه.

المائدة المنزلة من السماء:

لقد طلب الحواريون من عيسى عليه السلام أن يدعو ربه من أجل أن ينزل عليهم مائدة من السماء. فسألهم عيسى عليه السلام:

– هل ترتابون في قدرة الله عز وجل؟ كيف تجرؤون على طلب مثل هذا الأمر؟

قال الحواريون:

–لا نقصد بطلبنا شيئاً مما ذكرت. وإنما طلبنا مائدة من السماء حتى ننال من لطف الله تعالى وكرمه، وتطمئن قلوبنا أكثر!.

فاغتسل سيدنا عيسى عليه السلام وصلى ركعتين لله تعالى، ومن ثم لبس أرثّ الثياب وأقدمها لإظهار التذلل، والتجأ إلى الله عز وجل بالدعاء، وتضرع إلى الله تعالى أن ينزل عليه مائدة من السماء وأن يجعل يوم إحسانه ذاك عيداً لهم.

١٤٩٩. آل عمران: ٥٢.

١٥٠٠. الصف: ١٤.

فتقبل الله تعالى دعاءه ونزلت المائدة من السماء، وكان على المائدة سمك مشوي، وعلى جانب الرأس ملح، وعلى جانب الذيل يوجد الخل، وقد زُيّنت المائدة بالخضار، وكان يوجد على الخبز زيتون، وعسل، وجبن وغيرها من النعم الكثيرة.

فقال الحواريون هذه المرة:

- يا نبي الله! أظهر لنا معجزة داخل هذه المائدة!

قال عيسى عليه السلام للسمكة التي على المائدة:

- أيتها السمكة! عودي إلى الحياة بإذن رب الكائنات جميعاً!

فأُحييت السمكة، وأصاب الحواريين خوفٌ ورعب شديد، فقال عيسى عليه السلام هذه المرة:

- أيتها السمكة! ارجعي إلى سابق عهدك بإذن ربنا عز وجل!

وعادت السمكة إلى حالتها السابقة، فقال الحواريون لعيسى عليه السلام:

- يا روح الله! كل أنت قبلنا!

فقال لهم عيسى عليه السلام:

- لا! إن من طلب المائدة يأكلها!

فأصبح الحواريون في حالة خوف وجزع، ولما أحسّ عيسى عليه السلام بذلك أمر قائلاً:

- ليأتي المرضى والفقراء ويأكلوا من هذه المائدة!

وعلى وجه السرعة أخبروا الفقراء والمرضى بالأمر، فجاء ألف وثلاثمائة شخص وأكلوا من هذه المائدة، وعلى الرغم من ذلك لم تنته السمكة، وشُفي جميع المرضى الذين أكلوا من هذه المائدة؛ وأما من لم يأكلوا فقد أصابهم ندم شديد.

وجاء في أخرى، أن عيسى عليه السلام أمَر الحواريين بالصوم مدة ثلاثين يوماً، ولما أتمّ الحواريون صيامهم طلبوا من عيسى عليه السلام مائدة تنزل عليهم من الناس يكفي طعامها جميع الفقراء والأغنياء، وأن يجعل ذلك اليوم عيداً لهم، وذلك من أجل أن يطمئنوا إلى قبول العبادة التي أدوها.

قلِق عيسى عليه السلام وخاف على حواريه من أن لا يتمكنوا من القيام بشكر هذا الطلب حق القيام، فأخذ يعظهم وينصحهم محاولاً منعهم من هذا الطلب والتراجع عنه.

ولما أصرّ الحواريون على رغبتهم ولم يتراجعوا، اتجه عيسى عليه السلام إلى مُصلّاه واصطّف خلفه الحواريون. وأخذ روح الله يبكي متضرعاً إلى الحق سبحانه وتعالى، ولما انتهى من التجائه وتضرعه نزلت عليهم مائدة من السماء بلطف الله تعالى وإحسانه، وكان يحمل المائدة شخصان على رأسهما عمامة. فدعا عيسى عليه السلام ربه من أجل أن تكون هذه المائدة رحمة لهم وليس عذاباً وعقاباً.

اقتربت المائدة النازلة من السماء ووقفت أمام عيسى عليه السلام، أزاح روح الله الغطاء عن المائدة، فكانت عليها سبع سمكات، وسبع كعكات، وخلّ، ورمان، ومختلف أنواع الفاكهة.

وبدأت المائدة بالنزول يومياً، واستمرت هذه الحالة مدة أربعين يوماً، حيث كانت المائدة تنزل في مقتبل الصباح فيأكل منها كل الناس من الأغنياء والفقراء، وترتفع إلى السماء وقت الظهيرة، وكانت المائدة خلال ذلك تنزل في مكان مظلل.

وبعد ذلك، جاء وحي من الله تعالى بأن «لا يأكل من المائدة الأغنياء والأصحاء!». وأثار هذا الأمر الإلهي حنقَ ذوي القلوب الفاسدة من الأصحاء والأغنياء، فاتبعوا أهواء أنفسهم وغضبوا من حرمانهم من تلك المائدة، وبدأوا بالاستهزاء قائلين:

- أتعتقدون بأن هذه المائدة حق فعلاً؟

وكان عدد هؤلاء ثلاثون أو ثلاثمائة وثلاثون شخصاً، وقد تعرّضوا إلى غضب الله تعالى ومُسخوا ذات ليلةٍ إلى خنازير، فذاقوا بذلك العذاب الذي أخبرهم الله تعالى به، وأما الآخرون فقد أصابهم خوفٌ عظيم لمّا رأوا حالة هؤلاء بأم أعينهم، والتجأوا إلى عيسى عليه السلام.

وعندما كان هؤلاء الذين مُسخوا إلى خنازير يرون عيسى عليه السلام كانوا يطلبون منه علاجاً لحالتهم، حيث كانوا يتجولون في الأنحاء ويقومون بحركاتٍ تعبر عن طلبهم هذا، وعندما يخاطب عيسى عليه السلام هؤلاء بأسمائهم كانوا يستغرقون بالبكاء؛ فيشيرون برؤوسهم طالبين العون والمدد من عيسى عليه السلام، ولكن لأنهم قد ارتكبوا معصية كبيرة في حق الله تعالى كان هذا العذاب حقاً عليهم، واستمر مدة ثلاثة أيام ثم هلك الجميع، واختفت جثثهم.

ويروى أن عيسى عليه السلام كان يقول عندما يمر بجانبه خنزيرٌ من أولئك الممسوخين «لك الخلاص»، فكان يسأله الذين حوله:

- لماذا تقول لهم ذلك، بالرغم من أنهم قد استحقوا العذاب الإلهي؟

فيقول لهم عيسى عليه السلام:

- لكي لا أعوّد فمي على قول السوء!.

❁

يبين الله تعالى لنا حادثة نزول المائدة من السماء في كتابه الكريم، حيث يقول عز وجل:

﴿إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ. قَالُوا نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ. قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِنْكَ وَارْزُقْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ. قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدُ مِنْكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ﴾[١٥٠١]

وكما يتبين من الآيات الكريمة فإن طلب الحواريين من عيسى عليه السلام مائدة تنزل عليهم من السماء كان من أجل اطمئنان قلوبهم بالإيمان. وليس بسبب شكٍ أو ريب في قلوبهم. إذ كانوا يرغبون برؤية معجزة إلهية تتجلى أمام أبصارهم، ولأن هذا الطلب يرتب عليهم مسؤوليات عظيمة تجاه أنعم الله تعالى، فقد قال لهم عيسى عليه السلام:

﴿اتَّقُوا اللَّهَ واخشوه إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾

وينبغي التنبيه هنا إلى أمرين:

١. إن عيسى عليه السلام قال لمن طلب منه معجزة وحدد طبيعتها، اتقوا الله واخشوه!. وذلك لأن طلب المعجزة لمجرد رغبة النفس بذلك يشكل جرماً، وهو تجاوز للحد، وهو نوع من الجرأة على الله، وإن طلب من رأى المعجزات مزيداً منها، طلب خاطئ في غير محله، ولا يليق هذا الأمر بإنسان مؤمن، ويناقض واجب تسليم الأمور لله تعالى.

١٥٠١. المائدة: ١١٢- ١١٥.

٢. ومن جهة أخرى، فإن قول عيسى عليه السلام «**اتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ**»، فيه توجيه للقوم، بأنه: إن كنتم تريدون تحقيق طلبكم فالتزموا بتقوى الله تعالى.

❁

وجاء في الحديث الشريف الذي رُوي عن عمار بن ياسر رضي الله عنه:

«أنزلت المائدة من السماء خبزا ولحما، وأمروا أن لا يخونوا ولا يدخروا لغد، فخانوا وادخروا ورفعوا لغد، فمسخوا قردة وخنازي» [١٥٠٢]

ذهاب عيسى عليه السلام والحواريين إلى نصيبين:

رُوي عن سلمان الفارسي رضي الله عنه:

أن عيسى بن مريم عليه السلام أُمر بدعوة ملك نصيبين المعروف بكبره، وظلمه، وبطشه إلى الإيمان، ففكر في البداية أن يرسل إلى هناك بعضاً من حواريه، وسألهم:

- من يود التوجه إلى نصيبين؟

فقال يعقوب:

- أنا سوف أذهب.

فالتحق به كل من توماس وشمعون، حيث قال شمعون لعيسى عليه السلام راجياً:

- يا روح الله! إن أذنت لي ذهبت أنا أيضاً معه، ولكن إن وقعنا في ضائقةٍ وناديتك، فلا تحرمنا من مساعدتك، وحفظك، ورعايتك لنا!.

فخرج الثلاثة في طريقهم إلى نصيبين، وعندما اقتربوا من المدينة لم يدخلها شمعون، وإنما بقي خارجها وقال:

- إن احتجتما إلى المساعدة سآتيكما.

فدخل شمعون وتوماس إلى المدينة، وجمعوا الناس حولهم وبدأوا بدعوتهم إلى عقيدة التوحيد، ولأن الناس كانت لديهم أفكار خاطئة عن عيسى عليه السلام وأمه مريم العذراء ويظنون سوءً بهما، فلم يتقبلوا دعوتهما وردوها، حتى أنهم لعنوهما وسبوهما، وفي

١٥٠٢. الترمذي، التفسير، ٥/ ٣٠٦١.

النهاية اقتادوا توماس إلى الحاكم. فأمر الحاكم بتقطيع يديه ورجليه، واقتلع عينيه وألقاه في السجن.

وفي هذه الأثناء تنكر شمعون ودخل سراً إلى المدينة، فتقرب من الملك وأقام معه علاقة طيبة، وأصبح من منادميه ورجال مجلسه، وذات يوم طلب شمعون مساعدة الحاكم لكي يوجه بعض الأسئلة إلى توماس، وتصرّف الاثنان وكأنهما لا يعرفان بعضهما البعض.

فقال شمعون سائلاً:

- يا هذا! ما قولك؟

فقال توماس:

- إن قولي هو أن عيسى عليه السلام عبد الله ورسوله.

وبعدها تابعا حديثهما كما يلي:

- ما هو الدليل على صحة قولك هذا؟
- شفاء كل مريض من مرضه.
- إن هذا ما يفعله الأطباء أيضاً، هل لديك دليل آخر؟
- إنه يعلم ما يأكله الناس في بيوتهم، وما يدخرون.
- هذا ما يعرفه الكهنة أيضاً، فهل من دليل آخر؟
- إنه يصنع من الطين طيراً ويطيره.
- إن هذا ما يفعله السحرة أيضاً، هل لديك من دليل غيره؟
- إنه يحيي الموتى!..
- إن هذا الأمر فوق طاقة البشر، فعلينا أن ننادي عيسى عليه السلام، فإن كان يحيي الموتى حقاً نؤمن به!

سُرّ الملك بكلام شمعون وتقبله بقبول حسن، فأوصلوا الخبر على الفور إلى سيدنا عيسى عليه السلام، وقد أتى إلى مدينة نصيبين، وتصرف كأنه لا يعرف شمعون أبداً.

فقال شمعون للحاكم:

- إذا أردتم نمتحن توماس أيضاً مع عيسى عليه السلام .

فأحضروا توماس إلى مجلس الملك، ولما مسح عيسى عليه السلام على يدي ورجلي توماس عاد جسمه إلى حالته السابقة، وبعد ذلك مسح بيده على عيني توماس فاستعاد بصره.

فنظر شمعون إلى الحاكم وقال:

- إن هذا دليل على نبوته حقاً.

وبعد ذلك قال شمعون سائلاً:

- يا عيسى! ماذا أكل الليلة الذين في مجلسي في بيوتهم؟ وما الذي ادّخروه؟

فأخبر عيسى عليه السلام عن كل ما أكله كل واحد منهم.

فكلفه بتصنيع خفاش من الطير، فصنعه عيسى عليه السلام وطيّره أمام أعينهم. وطُلب منه إشفاء المرضى، فاستعاد المرضى صحتهم وشُفي الجميع، وطلبوا منه إحياء ميت، وفوق ذلك عيّنوا له سام بن نوح عليه السلام لكي يحييه، فأحيا عيسى بن مريم عليه السلام سام بن نوح عليه السلام بإذن الله تعالى، فقالوا لسام:

- هل كنت مسناً هكذا عندما توفاك الله تعالى؟

فقال سام:

- لا! ولكني ظننت أن القيامة قد قامت!..

وبعد ذلك صدق سام بن نوح عليه السلام بنبوة عيسى عليه السلام، ومن ثم توفي من جديد.

وأمام هذه المعجزات الخارقة والتي لا مرية فيها آمن الحاكم وكل جنوده بسيدنا عيسى عليه السلام.

ويُفهم من هذه الحادثة أن على المسلم صاحب العقل السليم والإدراك القويم أن يتصرف بحكمة وفراسة، لأنه ليس كل ما يُعرف يقال، وإنما ينتظر الوقت المناسب ويحضر الأرضية المناسبة ليقوله.

حبيب النجار:

أرسل عيسى عليه السلام اثنين من حواريه إلى أنطاكية، ودعا هذان الحواريان الناس إلى ترك عبادة الأوثان والأصنام والتوجه إلى الإيمان بالله تعالى، إلا أنه كان هناك ملك وثني فأمر بالقبض على الدعاة الجدد وألقاهم في ظلمات السجن.

وبسبب ذلك فقد أرسل عيسى عليه السلام رئيس الحواريين شمعون إلى تلك البلاد.

وأول ما فعله شمعون هو التقرب من الملك وإقامة علاقة صحبة معه، وبعد أن وصل بتأثيره الإيجابي على الملك وحاشيته إلى درجة عالية من الكمال والثبات، بدأ بدعوتهم إلى الإيمان بأسلوب لين وحسن، فاطمأن الملك وحاشيته إلى هذه الدعوة الجديدة وآمن جميعهم، إلا أن الشعب لم يؤمن.

وعندما سمع شخص يُدعى حبيب النجار بأمر اعتراض الناس على الدعوة الجديدة خرج من بيته الذي يقع بعيداً عن المدينة ودخل بين الناس. فكلم الناس عن إيمانه بالرسل الجدد ودعاهم إلى الإيمان بهم مثله، إلا أن الناس الغافلون لم يسمعوا كلامه وركبوا رؤوسهم واتبعوا أهواءهم وغضبهم فقتلوا حبيب النجار لينال شرف الشهادة وينتقل إلى الرفيق الأعلى.

ويبين القرآن الكريم هذه الحادثة في قوله تعالى:

﴿وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ. إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُمْ مُرْسَلُونَ. قَالُوا مَا أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَمَا أَنْزَلَ الرَّحْمَنُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ. قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ. وَمَا عَلَيْنَا إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ. قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ. قَالُوا طَائِرُكُمْ مَعَكُمْ أَئِنْ ذُكِّرْتُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ. وَجَاءَ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ. اتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ [١٥٠٣]

وبسبب هذه النصائح استداروا إلى الرجل وقالوا له:

١٥٠٣. يس: ١٣-٢١.

- أأنت أيضاً على دين هؤلاء؟

فأجاب عليهم الرجل بالكلام الآتي كما ينقله لنا القرآن الكريم:

﴿وَمَا لِيَ لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ. أَأَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً إِنْ يُرِدْنِ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لَا تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلَا يُنْقِذُونِ. إِنِّي إِذًا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ. إِنِّي آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ﴾ [١٥٠٤]

إلا أن القوم الظالم ذوي القلوب القاسية لم يستمعوا إلى كلام الرجل وأمطروه بالحجارة، فقال حبيب النجار وهو مشرفٌ على الموت في الرمق الأخير من حياته:

﴿قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ. بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ﴾ [١٥٠٥]

يقول مجاهد رحمه الله تعالى:

«إن أحمق المخلوقات هو النفس، لأنها تطلب دائماً أشياء معادية لها».

وهكذا فإن أولئك التعساء لم يتقبلوا دعوة حبيب النجار المباركة والسامية، واتهموه بالشؤم لأن دعوته لم توافق أهواء أنفسهم، بينما كان حبيب النجار إلى تأمين سلامتهم وسعادتهم الدنيوية والأخروية، إلا أنهم اتبعوا أنفسهم فلم يؤمنوا، وخسروا آخرتهم.

رفع سيدنا عيسى عليه السلام إلى السماء:

لقد أظهر بنو إسرائيل إهمالاً وتراخياً كبيراً في الدين الذي أُرسل به موسى عليه السلام، وأبدوا اعتراضات كثيرة على ذلك الدين وخرجوا عن الطريق السليم تماماً. وعلى الرغم من قيام الأنبياء الذين جاؤوا بعد موسى عليه السلام بنصحهم وإرشادهم بشكل دائم، إلا أن هذا الشعب الذي اتصف بالعنف والقسوة أمعن في الفساد وواجه بالشدة والعنف؛ وحتى أنه وصل بهم الأمر إلى قتل أنبيائهم، وحملوا صفة قاتل الأنبياء على مرّ التاريخ.

وعندما ظهر عيسى عليه السلام كان هؤلاء القوم في حالة من الشتات والتفرق الكبير. وكانوا ينتظرون مخلصاً ينتشلهم مما هم فيه. وكانوا يريدون أن يكون نبيهم المنتظر شديد

١٥٠٤. يس: ٢٥.

١٥٠٥. يس: ٢٦- ٢٧.

البأس، قوي العزيمة، ومحارباً صلباً، لأنه كان على ذلك النبي أن يخلّصهم من الأسر ويحقق لهم منافع ومصالح كثيرة.

ولذلك لما أُرسل إليهم عيسى بن مريم عليه السلام بدعوة الهداية وجده اليهود ليناً ولطيفاً للغاية، ولم يودوا اتباعه والإيمان به.

ولكن على الرغم من كل شيء فقد تجمّل عيسى عليه السلام بالصبر وبذل جهوداً جبارة من أجل نشر مشاعر المحبة والسلام في الأرض، وإصلاح العلاقات بين الناس وإحلال الصلح والتفاهم بينهم، وعمل على تخليص اليهود من سبل الانحراف والفساد التي وقعوا فيها، إلا أن هؤلاء اليهود القساة المنحرفين الذين تلطخت أيديهم بدماء الأنبياء ضاقوا ذرعاً بهذه الدعوة، وقرروا في النهاية قتل سيدنا عيسى عليه السلام، فبدأوا بممارسة الظلم والاضطهاد بحق عيسى عليه السلام وبحق أتباعه الذين اجتمعوا حوله.

وتحت وطأة الظلم والعذاب الذي تعرض له أتباع عيسى عليه السلام ارتدّ من الحواريين كل من يودس، وإسهار، ويوط «يهودا»، وعلاوة على ذلك فقد دلّ يهودا الجناة اليهود الذين قتلوا زكريا ويحيى عليهما السلام على مكان تواجد عيسى عليه السلام، ولكن يهودا صار من ضمن الذي تعرضوا لغضب الله وعذابه ونال عقابه العادل بأن شُبه لليهود بعيسى عليه السلام وصلب مكانه، وأما عيسى عليه السلام فقد رُفع إلى السماء.

❁

هناك عدة روايات بشأن رفع عيسى عليه السلام إلى السماء:

فحسب الرواية الواردة عن ابن عباس رضي الله عنهما أن جماعة من اليهود أطالوا ألسنتهم بحق عيسى عليه السلام وأمه مريم العذراء، فرفع عيسى عليه السلام يديه إلى السماء داعياً:

- يا رب! لقد خلقتني بقولك لي "كن"، فالْعن اللهم الذين نالوا بألسنتهم مني ومن أمي!

واستجاب الله دعاءه فمسخ الذين تطاولوا عليه بالافتراءات والسخرية قردة وخنازير.

وبعد هذه الحادثة قرر اليهود قتل عيسى عليه السلام، فدفعوا ليهودا وهو أحد حواري سيدنا عيسى عليه السلام بعض المال وعرفوا منه مكان عيسى عليه السلام، إلا أن جبريل عليه السلام لم يكن يفارق روح الله أبداً من اجل حمايته وحفظه من أذى اليهود، حيث يقول الله تبارك وتعالى:

﴿... وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ...﴾ [١٥٠٦]

وفي نهاية الأمر رفع الله ﷻ عيسى إلى السماء، وكان عمره إذ ذاك ثلاثة وثلاثون عاماً، وعندما دخل اليهود إلى المكان الذي كان يتواجد فيه عيسى عليه السلام وجدوا هناك يهودا الذي ألقى الله تعالى عليه شبه عيسى عليه السلام فقتل اليهود يهودا بدلاً من روح الله عيسى بن مريم عليه السلام. ويقول الله سبحانه وتعالى في كتابه الكريم بشأن هذا الأمر:

﴿وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا. وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا. بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [١٥٠٧]

لقد حفظ الله ﷻ عيسى وحماه من اليهود ومنعهم من قتله، وهذا الأمر قطعي لا ريب فيه، ولا شك في أن الله تعالى قد رفع عيسى إليه، ولكن هناك عدة روايات تتعلق بكيفية وشكل هذا الرفع، وزمانه. وحسب أكثر الروايات أن الله تعالى قد رفع عيسى عليه السلام إلى مكانٍ ما في السماوات، وسوف يرسله إلى الدنيا مرة أخرى قبل يوم القيامة، وسوف يؤمن به جميع المسيحيين ويدخلوا الإسلام، ولن يبق على وجه الأرض غير دين الإسلام، حيث يقول الله ﷻ:

﴿وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ. إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ. فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ. وَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ [١٥٠٨]

١٥٠٦. البقرة: ٢٥٣.

١٥٠٧. النساء: ١٥٦- ١٥٨.

١٥٠٨. آل عمران: ٥٤-٥٧.

بعد رفع سيدنا عيسى عليه السلام إلى السماء:

لقد افترق المسيحيون بعد رفع عيسى عليه السلام إلى السماء إلى اثنتين وسبعين فرقة، وظهرت عقيدة التثليث، فقالت فرقة اليعقوبيين من المسيحيين:

«لقد حل ﷻ في عيسى عليه السلام، وقد تجسّد في جسم عيسى عليه السلام وظهر في شكله، أي أن الله هو عيسى...».

لقد جاءت هذه العقيدة أو الرأي من الفلسفة الهندية، إذ أن القدس كانت واقعة دائماً تحت تأثير الحضارة الهندية والرومانية، وحسب الفلسفة الهندية فإن الله ﷻ قد نزل إلى الدنيا، وحل في «كريشنا» المولود من أب وأم بشريين، وأصبح كريشنا بذلك الخالق؛ وصار هو الله.وعلى أية حال فإن الله تبارك وتعالى يقول:

﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾ [١٥٠٩]

﴿مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ انْظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ انْظُرْ أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ [١٥١٠]

يبين الله تعالى في هاتين الآيتين بما لا يدع مجالاً للشك بطلان عقيدة التثليث، وأنها عبارة عن شرك بالله تعالى.

❁

لقد انقسمت الفرق الاثنتان والسبعون التي تشكلت بعد رفع عيسى إلى السماء، انقسمت إلى ثلاثة أقسام رئيسية بحسب عقيدتها:

١. فالقسم الأول قالوا: بأن عيسى كان هو الله بيننا، وذهب الآن.

٢. والقسم الثاني قالوا: بأن عيسى ابن الله، وذهب الآن.

١٥٠٩. المائدة، ٧٢.

١٥١٠. المائدة، ٧٥.

٣. والقسم الثالث قالوا: بأن الله عيسى عليه السلام عبد الله ورسوله. وقد كرمه الله تعالى بأن رفعه إلى السماء.

فأما القسمان الأول والثاني فإنهم وقعوا في الشرك والضلال، وأما القسم الثالث فإنهم المؤمنون حقاً.

❁

وبعد أن رُفع عيسى عليه السلام إلى السماء فقد استمر اليهود بإيذاء الحواريين والإساءة إليهم. وقد أظهر الحواريون الحقيقيون والصادقون صبراً وجلداً منقطع النظير في تحمل الظلم والإيذاء الذي تعرضوا له على أيدي اليهود الظالمين. ومن بين هؤلاء الحواريين كان برنابا، وقد نقلت المعلومات التي سنذكرها والمتعلقة بالأيام الأخيرة لعيسى عليه السلام في البابين «٢٢١ – ٢٢٢» من إنجيل برنابا الذي سُمي باسمه، نقلت ما يلي:

لما دخل الجنود الرومان إلى البيت الذي يتواجد فيه عيسى عليه السلام من أجل إلقاء القبض عليه، أخرجه أربعة من الملائكة العظام من نافذة البيت ورفعوه إلى السماء، فقال الجنود الرومان ليهودا الذي كان في البيت:

– أنت عيسى بن مريم! ومن ثم أمسكوا به وأخذوه إلى الصليب فعلقوه به وقتلوه رغم كل توسلاته إليهم وإنكاره بأنه ليس عيسى، إذ أن الله تعالى كان قد ألقى شبه سيدنا عيسى عليه السلام على يهودا.

وبعد ذلك ظهر عيسى عليه السلام لأمه مريم البتول وحواريه، وقال لأمه مريم:

– يا أماه! إنك ترين بأني لم أعلق على الصليب، وإنما جيء بيهودا بدلاً عني إلى الصليب وعُلّق عليه، فاحذروا من الشيطان؛ لأنه سوف يزين الدنيا في أعينكم ويعمل على تضليلكم وخداعكم.

وبعدها دعا الله تعالى من أجل أن يحفظ ويحمي المصدقين والمؤمنين، ومن ثم توجه إلى حواريه بالقول:

– ليرحمكم الله تعالى ويسبغ عليكم نعمه الدائمة!

وبعد هذه الكلمات رفعه الملائكة الأربعة مرة أخرى إلى السماء.

❁

بعد رفع سيدنا عيسى عليه السلام إلى السماء بأربعين عاماً «في عام ٧٠ ميلادي» نهب الرومان القدس واستباحوها تحت إمرة قائدهم تيتوس، فقتلوا قسماً من اليهود وأسروا القسم الآخر، وأحرقوا التوراة وكل الكتب الأخرى التي كانت بين أيديهم، ودمّروا القدس وخربوها، وهدموا معبد سيدنا سليمان عليه السلام، وبقي من أثر المعبد حائط واحد فقط، ويُعرف هذه الحائط لدى اليهود اليوم بـ «حائط المبكى» «الحائط الغربي» حيث يذهبون إلى هذا الأثر المتبقي فيقفون أمامه ويغرقون في الدموع والبكاء مستذكرين تلك الأيام الأليمة، ولم يجتمع شمل اليهود بعد تلك الأحداث، وعاشوا حياة ذل ومهانة.

وعندما ارتد الحواري يهودا عن دينه اختار الحواريون ماتياس بدلاً منه، فانتشروا في أنحاء البلاد وبدأوا بدعوة الناس إلى دين عيسى عليه السلام، ونشره بينهم.

وعندما بدأت الديانة العيسوية بالانتشار بين الناس، اتحدّ اليهود والرومان، واليونانيون، والوثنيون فيما بينهم لمواجهة هذا الدين الذي انتشر في البلدان، فألقي باليهود الأوائل الذين اعتنقوا المسيحية في ساحات السيرك والألعاب بين السباع لتمزقهم بأنيابها شرّ تمزيق، وأنزلوا بهم مختلف صنوف الظلم والتعذيب.

وقد كان زنوس اليهودي ورجاله يلقون بمسيحيي نجران الذين لم يقبلوا باليهودية، يلقونهم مكبلين إلى الخنادق، فيشعلون بهم النيران ويستمتعون بالفرجة إليهم، وبالرغم من كل هذا الظلم فلم يترك المؤمنون الصادقون عقيدتهم ولم يتزحزحوا عنها، وإنما كانوا يستقبلون الموت بكل سعادة ورضا في سبيل دينهم ودعوتهم، وقد ورد ذكر هؤلاء في القرآن باسم «**أصحاب الأخدود**»،

حيث يقول الله تعالى في كتابه الكريم بشأنهم:

﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ. وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ. وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ. قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ. النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ. إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ. وَهُمْ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ﴾ [١٥١١]

١٥١١. البروج: ١ - ٧.

ولم يكتفوا بهذه الوحشية، ولم تشفي كل هذه المظالم غليلهم، وإنما وضعوا خططاً لاجتثاث المسيحية من جذورها، حيث قام بولس اليهودي بكتابة عدة رسائل مختلفة ضمَنها أكاذيبه، وافتراءاته، وقال فيها:-إن عيسى ابن الله!.

وأحل في تلك الرسائل شرب الخمر وأكل لحم خنزير، وقال بعدم لزوم الختان، وعدم وجوب اتباع النواهي المتعلقة بيوم السبت، وهكذا فإنه أعلم الناس في رسائله بعدم ضرورة أو وجوب اتباع الأوامر والنواهي الواردة في شريعة موسى عليه السلام. وورد فيما قاله أيضاً أن الإيمان وحده يكفي للإنسان ولا حاجة له إلى القيام بالعمل، بينما عمل سيدنا عيسى عليه السلام بشريعة سيدنا موسى عليه السلام، حيث أنه ورد في الإنجيل كلاماً مسنداً إلى سيدنا عيسى عليه السلام بأنه قال:

«لا أني جئت لأنقُضَ الناموس أو الأنبياء، ما جئت لأنقض بل لأكمل»[١٥١٢]

ولهذا فإن عيسى عليه السلام ظل طيلة سنوات حياته يتعبد ربه في معابد اليهود، وقد أجري له الختان، وامتنع عن شرب الخمر، وأكل لحم الخنزير وحرمهما على أتباعه وحذّرهم منهما، بينما بولوس وأصحابه شرعوا وحللوا المحرمات وحرفوا الدين دونما وازع أو تأثر بأوامر الله تعالى ولا تعاليم ومواعظ المسيح عيسى بن مريم عليه السلام، وعملوا على تكوين المسيحية من جديد بما تتوافق مع أهوائهم وشهواتهم النفسية .

وقد كان بولوس يقول: «إن الله واحد، وصفاته ثلاثة». وكان يؤلف الدين وفق فلسفة أفلاطون، وفلسفة أفلاطون تتلخص باختصار فيما يلي:

١. الإله الخالق الذي لا يُرى،
٢. المنطق أو العقل الذي هو المساعد والوزير المرئي والمعلوم للإله.
٣. الكائنات المرئية والمعلومة.

ورتب بولوس أيضاً العقيدة الألوهية للمسيحية وفق الترتيب الآتي:

١. الله.
٢. ابن الله عيسى.
٣. روح القدس.

١٥١٢. متى، ٥/ ١٧.

وهكذا فقد دخلت عقيدة التثليث المعروفة اليوم إلى المسيحية.

ولقد كانت الظروف في تلك الفترة مساعدة لظهور أو نشر مثل هذه العقيدة، وذلك لأن الناس لم يكونوا يتقبلون اليهودية بسبب تعصبهم المفرط، وقد وجدوا عقيدة التثليث أقرب إلى عقيدة تعدد الآلهة التي ورثوها عن آبائهم وأجدادهم.

وبعد ذلك انقسمت المسيحية إلى قسمين هما:

١. **البولوسيون:**

وقد أصبح الملوك ممن آمنوا بهم، ولذلك فقد ازدادوا قوة وشوكة.

لقد قام بولوس الذي اعتنق المسيحية بعد رفع عيسى عليه السلام إلى السماء بإبعاد الدين الجديد عن عقيدته الأساسية، وإعادته إلى عقيدة التثليث. وقد كتب بولوس فيما بعد أربع عشرة رسالة، وهي التي تشكل قسماً هاماً من الأناجيل المتداولة اليوم، والتي تُعتبر أيضاً مصدراً مهماً للأناجيل الأربعة الأولى، وتُعد هذه الرسائل من النصوص المقدسة لدى المسيحيين مثل الأناجيل الأربعة.

٢. **البرنابانيون،**

وقد كانوا يقولون: «بأن عيسى عليه السلام بشر، وأحد الأنبياء المرسلين، ولا تجوز عبادته أبداً». وبالإضافة لذلك فإن الأبيونتيين برئاسة الحواري يعقوب كانوا يدخلون ضمن هذه المجموعة وكانوا يدافعون عن المعتقد نفسه، ولأن الملوك لم يقفوا في صف هؤلاء، ولم يساندوهم فقد بقي هذا القسم في حالة من الضعف.

ومن جهة أخرى، فقد كانت التصرفات العدائية للبولوسيين تجاه البرنابانيين في ازدياد مع مرور الوقت، وعملوا على صَهرهم وطمس عقيدتهم، وعلاوة على ذلك، فقد اعتبرت هيئة البابوات المؤلفة من المستشارين والتي اجتمعت بإمرة الملك قسطنطين في عام / ٣٢٥ ميلادي / ، اعتبرت هذه الهيئة أن إنجيل برنابا ليس صحيحاً وغير مُعترف به، واختاروا من بين الأناجيل الكثيرة أربعة قريبة من بعضها البعض، واعتبروها الأناجيل الصحيحة والمعترف بها، وهذه الأناجيل هي: إنجيل لوقا، وإنجيل يوحنا، وإنجيل مرقس، وإنجيل متى. وقاموا بإتلاف الأناجيل الباقية عدا هذه الأربعة، واعتُبرت الأناجيل ما عدا تلك الأربعة أناجيل مزورة من قبل الكنيسة الرسمية.

وقد بُدئ رسمياً بكتابة الأناجيل الأربعة المحرفة فقط واعتمادها في التلاوة والتعاليم، وبذلك تمّ إلغاء الأناجيل الأخرى بما فيها إنجيل برنابا ـ على الرغم من أنه يُعتبر الإنجيل الأصح والأكثر وثوقية ـ وفي الحقيقة كان برنابا من أقدم حواريي سيدنا عيسى عليه السلام، وقد كان قد التقى بعيسى عليه السلام وكتب ما سمعه منه مباشرة، ولكن لم ترقْ هذه الحالة لبوليس اليهودي وأتباعه، ولذلك فقد أخرجوه وأزالوه عن طريقهم تماماً. لذا فإن المسيحيين اليوم لا يعتبرون برنابا الذي استشهد في قبرص بعد رفع عيسى عليه السلام بثلاثين عاماً، لا يعتبرونه من الحواريين نظراً للقرار الذي تم اتخاذه في اجتماع إزنيق والمتعلق بها الشأن، ويعتبرون توماس بدلاً عنه كأحد الحواريين.

وجاء بعد برنابا أحد البابوات الذي عرف باسم «أريوس»، ودخل في تحدٍ ونزاع مع البولسيين، ولكنه تم حظره وطرده، فتوجه إلى مصر، وقُتل خلال نشره لعقيدة التوحيد.

ولم تنجح الأجوبة التي خرجت بها الكنيسة الرسمية رداً على انتقادات أريوس للمسيحية، لم تنجح في تطمين المسيحيين على مدى التاريخ. وظهرت مثل هذه الانتقادات خلال تاريخ المسيحية في عصر توفرت فيه الأرضية والظروف المناسبة، وتسببت كثيراً باهتزاز هيبة وتسلط الكنيسة الرسمية وزعزعة الثقة بالعقيدة التي تتبناها، وقد نظم رجال الدين المسيحيين العديد من الاجتماعات والمؤتمرات واتخذوا قرارات مختلفة وذلك في سبيل الإجابة والرد على هذه الانتقادات، والحفاظ على وحدة الكنيسة، والأهم من ذلك كله تثبيت الأسس التي تقوم عليها المسيحية.

وكمثالٍ على ذلك، فقد نظم أول مؤتمر في إزنيق في العام / ٣٢٥ ميلادي / وتم الإعلان عن ألوهية عيسى عليه السلام في هذا المؤتمر، وفي عام / ٣٨١ / تم الإعلان عن ألوهية روح القدس في مؤتمر إسطنبول، وبذلك اكتملت عقيدة التثليث، وبينما تم القبول بعقيدة أن مريم العذراء هي أم الإله وذلك في مؤتمر أفس عام / ٤٣١ /، فقد حصلت انقسامات بين الكنائس أثناء مناقشة وجهات النظر المتعلقة بطبيعة عيسى عليه السلام وذلك خلال مؤتمر الذي عُقد في مدينة "قاضي كوي" عام / ٤٥١ميلادي /. ومرة أخرى تم البدء بنقاش حول مصدر مجيء روح القدس وذلك عام / ٨٦٩ ميلادي / في المؤتمر الثامن الذي عُقد في إسطنبول. وبنتيجة هذه المناقشات والمباحثات التي استمرت طويلاً فقد انقسمت المسيحية إلى مذهبين في عام / ١٠٥٤ ميلادي /، هما: الكاثوليك في

«روما»، والأرثوذوكس في «إسطنبول». وفي القرن السادس تولّد المذهب البروتستانتي نتيجة الضغوطات والدراسات المضادة التي جرت بحق الكاثوليكية.

إن التدخلات البشرية التي جرت على كل الأمور المتعلقة بالمسيحيين، وفي نفس الوقت على العقائد الأصلية، والمبادئ الأساسية التي تشكل صلب الديانة المسيحية، والتي تم تثبيتها من قبل الناس بعد عصور مختلفة تُظهِر بوضوح مدى التحريف الذي تعرضت له الديانة المسيحية، والفساد الذي طرأ على أساسه. وبالإضافة إلى ذلك، فإن القرارات التي اتخذت في المؤتمرات ناقضت بعضها البعض خلال أزمنة مختلفة، ولا يمكن أن نرى ديناً آخر في العالم قد جرى التلاعب به إلى هذه الدرجة، وفي كل مرة تتم إضافة أشياء عليه أو إنقاصها منه مثل هذا الدين.

سبب كتابة أناجيل كثيرة:

حسب عقيدة التثليث في الديانة المسيحية المحرفة هناك:

«الله، وابن الله -عيسى عليه السلام-، وروح القدس».

وقد كتب الكثير من البابوات الذين يعتنقون هذه العقيدة الإنجيلَ مدعين بأن روح القدس قد نزل عليهم بالوحي، وقد تم تعريف روح القدس بعبارات متضاربة، فإما أنه سيدنا جبريل عليه السلام، أو قوة روحية تلهم قلب الإنسان، ولا يوجد تعريف دقيق وواضح، حيث يوجد حتى في أيامنا هذه من يكتب الإنجيل بهذه الطريقة.

نزول سيدنا عيسى عليه السلام من السماء:

سوف ينزل عيسى عليه من السماء إلى الأرض قبل يوم القيامة بفترة قصيرة، وثمة الكثير من الأحاديث النبوية الشريفة التي تتعلق بهذا الأمر. ويقول الله سبحانه وتعالى:

﴿وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَاتَّبِعُونِ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ [١٥١٣]

تبين هذه الآية الكريمة أن عيسى عليه السلام من علامات يوم القيامة وتشير بأنه سوف يعود مرة ثانية إلى الدنيا في آخر الزمان. حيث أن كلمة "علم" الواردة في الآية الكريمة يُقصد بمعناها الإشارة أو العلامة، ولذلك تقرأ الكلمة أيضاً بلفظ «عَلَم».

١٥١٣. الزخرف: ٦١.

وعندما ينزل عيسى عليه السلام إلى الأرض فإنه سوف يتبع شريعة نبينا محمد عليه الصلاة والسلام ويحكم بها بين الناس.

وسوف يلتقي سيدنا عيسى عليه السلام بالمهدي، ويقتل المهدي عليه السلام المسيحَ الدجال، ويرجع المهدي عليه السلام الذي سوف يظهر في آخر الزمان، يرجع بنسبه إلى بني هاشم من عترة النبي ﷺ، وسوف تنتقل الخلافة منه إلى عيسى عليه السلام.

وقد قال النبي ﷺ:

«إني لأرجو إن طال بي عمر أن ألقى عيسى ابن مريم، فإن عجل بي موت، فمن لقيه منكم فليقرئه مني السلام» [١٥١٤]

وإن نزول عيسى عليه السلام إلى الأرض سوف يكون وسيلة رحمة لكل الإنسانية. حيث جاء في الحديث الشريف عن النبي عليه الصلاة والسلام:

«ليس بيني وبينه نبي - يعني عيسى - وإنه نازل، فإذا رأيتموه فاعرفوه: رجل مربوع إلى الحمرة والبياض، بين ممصرتين، كأن رأسه يقطر، وإن لم يصبه بلل، فيقاتل الناس على الإسلام، فيدق الصليب، ويقتل الخنزير، ويضع الجزية، ويهلك الله في زمانه الملل كلها إلا الإسلام، ويهلك المسيح الدجال، فيمكث في الأرض أربعين سنة، ثم يتوفى فيصلي عليه المسلمون» [١٥١٥]

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«والذي نفسي بيده، ليوشكن أن ينزل فيكم ابن مريم حكما عدلا، فيكسر الصليب، ويقتل الخنزير، ويضع الجزية، ويفيض المال حتى لا يقبله أحد، حتى تكون السجدة الواحدة خيرا من الدنيا وما فيها»

ثم يقول أبو هريرة: واقرؤوا إن شئتم:

﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلاَّ لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً﴾ [١٥١٦]

١٥١٤. أحمد، مسند،٢، ٢٩٨/ ٧٩٧٠.

١٥١٥. أبو داوود، خروج الدجال، ٤، ١١٧/ ٤٣٢٤ ؛ أحمد، مسند، ١٥، ١٥٣/ ٩٢٧٠.

١٥١٦. النساء: ١٥٩. البخاري، البيوع، ١٠٢، الأنبياء، ٤٩/ ٣٤٤٨؛ مسلم، الإيمان، ٢٤٢/ ١٥٥.

معجزات سيدنا عيسى عليه السلام:

لقد حصلت المعجزات الآتية على يد سيدنا عيسى عليه السلام بإذن الله عز وجل:

١. إحياء الموتى.

٢. إشفاء المرضى.

٣. علمه بما يأكله الناس في بيوتهم من طعام، وما يدخرونه.

٤. كان يصنع من الطين طيراً، ويطيره.

٥. أُنزلت عليه مائدة من السماء.

٦. لقد كان يسمع ويعلم بما يدور حوله من الأحاديث والأعمال حتى عندما يكون نائماً.

٧. لقد كانت تأتيه الفاكهة والطعام من السماء عندما يريد ذلك.

٨. كان يسمع الأحاديث البعيدة، أو التي تجري في السر.

لقد بشرت الملائكة مريم العذراء بعيسى عليه السلام كما جاء في القرآن الكريم بقولهم لها:

﴿وَرَسُولًا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [١٥١٧]

ويقول الله تبارك وتعالى في آيات أخرى:

﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾ [١٥١٨]

﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَى وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدْتُكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ

١٥١٧. آل عمران: ٤٩.

١٥١٨. المائدة: ١٠٩.

وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنْفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي وَتُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَى بِإِذْنِي وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنْكَ إِذْ جِئْتَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ [١٥١٩]

١٥١٩. المائدة: ١١٠.

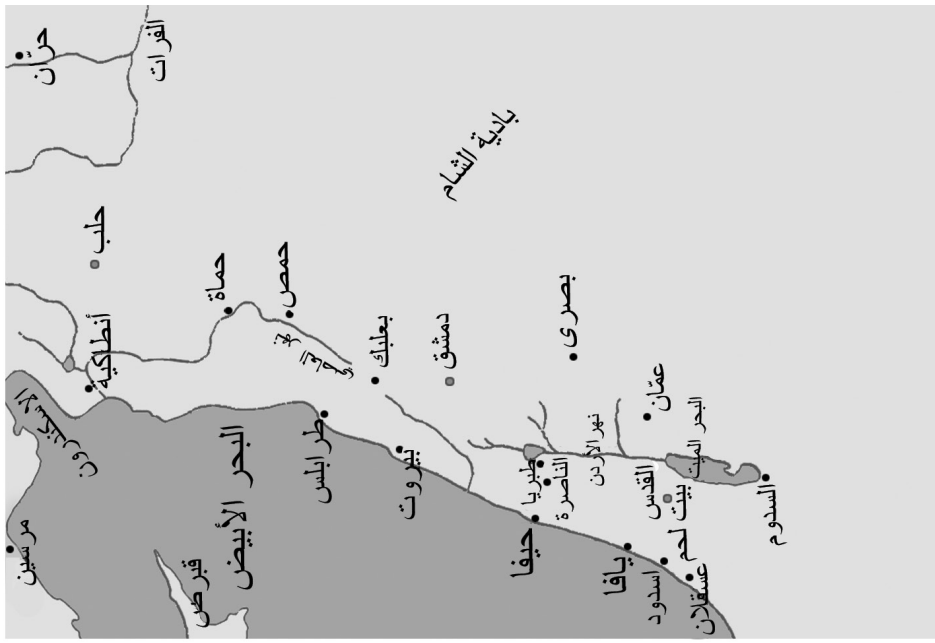

سيدنا زكريا وسيدنا يحيى وسيدنا عيسى عليهم السلام

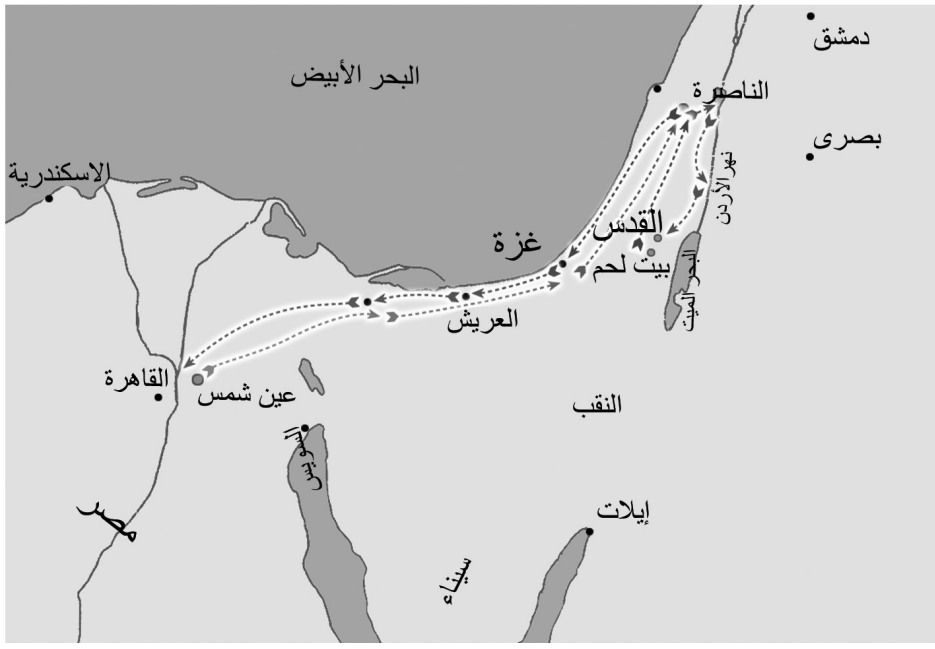

المسيحية اليوم

كما ذكرنا من قبل، فإن المسيحية قد تعرضت بعد سيدنا عيسى عليه السلام إلى تدخلات وتأثيرات بشرية كثيرة. ولأجل ذلك فقد استخدم القرآن الكريم في حق أهل الكتاب تعبير:

﴿...الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا...﴾ [١٥٢٠]

ويقول الرسول ﷺ في الحديث الشريف:

«... ولقد مكث أصحاب المسيح على سننه وهديه مائتي سنة» [١٥٢١]

ثم بدلوا دينهم وحرفوه

وفي الحقيقة فقد تم إفساد وتحريف المسيحية على أيدي رجال الدين المسيحيين، وجُردت المسيحية الموجودة والتي نعرفها اليوم من عقيدة التوحيد تماماً. وبسبب هذا التحريف الذي لحق بالمسيحية كما الأديان السماوية الأخرى فقد رُفعت هذه الأديان عن التطبيق، وأُلغيت أحكامها، وأنزل الله ﷻ الإسلام دين الحق خاتماً وخالداً إلى يوم القيامة، حيث يقول الله تبارك وتعالى:

﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ...﴾ [١٥٢٢]

لم يرض اليهود ولا المسيحيون بهذا الحكم الإلهي، فلم يقبلوا الإسلام، ولم يؤمنوا بنبيه محمد عليه الصلاة والسلام وذلك لأنهم كانوا يعتقدون بأن النبي الجديد سوف يُبعث من بينهم، ولما لم يحدث ما كانوا يعتقدونه أنكروا نبوته، إذ أن أتباع الديانتين كانوا يبشرون الناس ببعثة النبي ﷺ بالنظر إلى ما هو ثابتٌ في كتبهم، ولكن على الرغم من ذلك فقد غيّروا رأيهم وسلوكهم بعد البعثة. ألما رأوا أن النبي ﷺ والدين الجديد الذي بُعث به لم يكن من بين أتباعهم وملتهم أصابهم الحسد، وامتنعوا عن الإيمان به.

١٥٢٠. الروم: ٣٢.

١٥٢١. الهيثمي، مجمع الزوائد، ٨، ٢٠٧/ ١٣٧٩٧.

١٥٢٢. آل عمران: ١٩.

ويقول الله تبارك وتعالى في ذلك:

﴿... وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ [١٥٢٣]

ولم يكتف أهل الكتاب بالحسد والاختلاف وعدم التصديق ببعثة النبي عليه الصلاة والسلام، وإنما ذهبوا أبعد من ذلك، حيث أنهم قاموا بحذف وتحريف الأقسام والعبارات التي تبشر ببعثة نبي الإسلام محمد ﷺ من كتبهم. وذلك لأن بعضاً من اليهود والمسيحين الذين يقرؤون هذه الأقسام بتدبر وفراسة، كانوا يدركون الحقيقة في الحال ويدخلون الإسلام نتيجة ذلك، إذ أن كثيراً من الشخصيات من ذوي الشأن الرفيع قد دخلوا الإسلام بهذه الطريقة، فمن اليهود أمثال عبد الله بن سلام العالم اليهودي وغيره كثير، ومن المسيحين سلمان الفارسي، وحتى النجاشي ملك الحبشة قد دخل الإسلام وتقبله بصدق من كل قلبه بهذه الوسيلة. ويقول الله تبارك وتعالى في هذا المجال:

﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ [١٥٢٤]

وحتى هرقل امبراطور بيزنطة عندما سمع بظهور النبي ﷺ علم بصفاته الكريمة أصابه الحماس والتوتر، وقال لرسول رسول الله ﷺ:

«إن ذاك الشخص ليحكمنّ في زمن قصير ما تحت قدمي، وقد كنت أعلم من قبل ظهور هذا النبي، ولكني ما كنت أتوقع أنه سوف يُبعث منكم، ولو أني أملك الوصول إليه لتحمّلت مختلف الصعاب والمشاق للقاء به، ولو كنت بجانبه لغسلت له قدميه»

فهذه الحوادث وغيرها من الحوادث المشابهة الكثير، وكلها شاهدة على ما ذكرنا، إلا أن عُميَ القلوب وضعاف الإرادة من اليهود والمسيحين بدأوا يشعرون بالقلق مع مرور الزمن من أن يتحول كل المتدينين فيهم إلى الإسلام، وأخذوا يبحثون عن حلٍّ يتداركون به هذا الأمر ويمنعوه، فاستقر رأيهم على تغيير النصوص الواردة في كتبهم والتي تبشر

١٥٢٣. آل عمران: ١٩.

١٥٢٤. آل عمران: ١٩٩.

ببعثة النبي ﷺ وبدينه الذي سوف يكون خاتمة الرسل والأديان، فعملوا على ذلك دون كلل أو ملل وحرفوا تلك النصوص. ويبين لنا الله تعالى العاقبة الوخيمة والمحزنة التي وقعوا فيها نتيجة عملهم هذا، حيث يقول ﷻ:

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [١٥٢٥]

﴿بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ بَغْيًا أَنْ يُنَزِّلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ [١٥٢٦]

كما تشير وتوضح الآيتان الكريمتان فإن أهل الكتاب الذين لم يتبعوا الهدى ولم يدخلوا تحت عباءة سعادة إسلامية قد أضاعوا دنياهم وأخراهم باتباع كتبهم الباطلة التي جرى تحريفها وتشكيلها لتوافق أهواءهم ورغباتهم النفسية. وذلك لأن الله تعالى الذي أنزل كل الكتب الإلهية قد اعتبر الذين لم يتبعوا الدين الإسلامي الخاتم واتبعوا الأديان التي أُبطلت وحُرفت، اعتبرهم مغرقين في البطلان، ولا يقبل إيمانهم، وقد بين ذلك في كتابه العزيز، حيث يقول:

﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [١٥٢٧]

ففي الحقيقة عندما ننظر إلى أصول وأساسيات العبادة والإيمان الموجودة في الدين المسيحي وغيره من الأديان الأخرى عدا الإسلام، نجد أنها تتعارض مع إرادة الله ﷻ، وتناقض أوامره ووصاياه، فضلاً عن ماهيتها الخارجة عن المنطق البشري. فوفق المسيحية:

الإنسان يولد مذنباً، وذلك لأن آدم عليه السلام لم يلتزم بأوامر الله ﷻ وأخرج من الجنة جراء ذلك، والآن فإن هذا الذنب أو المعصية تستمر متسلسلة في جميع البشر، وقد جاء عيسى عليه السلام إلى الدنيا من أجل تخليص الإنسان من هذا «**الذنب الأزلي**». وأن الله ﷻ قد علّق ابنه عيسى على الصليب من أجل تخليص الناس من هذا الذنب.

١٥٢٥. البقرة: ١٧٤.

١٥٢٦. البقرة: ٩٠.

١٥٢٧. آل عمران: ٨٥.

إذ أن الله سبحانه وتعالى لم يبين في أي كتاب سماوي أن الإنسان يتحمّل جزاء وتبعة أعمال وذنوب الناس الآخرين، وذلك لأن جعل الإنسان البريء ضحية لذنوب غيره ليس إلا محض ظلم.

ومن جهة أخرى، فإن الاعتقاد بولادة الإنسان مذنباً فيه إسناد الظلم إلى الله جل وعلا وحاش لله عن ذلك، إن النبي ﷺ يبين حقيقة هذه المسألة بشكل رائع في الحديث الشريف، حيث يقول:

«ما من مولود إلا يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه، كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء، هل تحسون فيها من جدعاء؟" [١٥٢٨]

ويقول الله ﷻ في كتابه الكريم:

﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [١٥٢٩]

❁

إن إحدى المعتقدات الباطلة التي تأخذ مكانها في الديانة المسيحية هي **"التعميد"**. فتعميد معتنقي المسيحية باسم الأب، والابن، وروح القدس واحد من الأوامر الكنسية، فالكنيسة تقوم بالتعميد برشّ الماء على وجه الذي يجري تعميده، أو بغطس جسده في الماء، وهذا الإجراء هو إعلان على قبول الشخص في الديانة المسيحية، ومن جانب آخر هناك اعتقادٌ بأن الإنسان يتم العفو عن ذنبه الأزلي عن طريق التعميد، ومن أجل ذلك فإن المسيحين يعتبرون أن الشخص الذي يموت دون إجراء التعميد عليه في حياته، يعتبرونه قد مات على الذنب.

وبحسب الديانة المسيحية أيضاً إن الدنيا عبارة عن مكان للألم والعذاب، فلا مكان فيها للمتعة والابتهاج، فالناس قد خُلقوا من أجل التألم والمعاناة، إلا أن حياة المتعة والبهجة المنفلتة عن القيود التي يعيشها المسيحيون مضادة بشكل صارخٍ للمعايير والمقاييس الدينية التي يتكلمون عنها.

١٥٢٨. مسلم، القدر، ٢٢-٢٥/ ٢٦٥٨.

١٥٢٩. الروم: ٣٠.

لا يمكن لديار الامتحان التي من شأنها إكساب الإنسان السعادة الأبدية أن تكون ممتلئة بتناقضاتٍ وشقاقات من هذا القبيل، فمما ينبغي إدراكه والتنبه إليه أن الله تبارك وتعالى يمتحن عباده بمختلف أشكال الامتحان، وانطلاقاً من ذلك، فإن العبد يتعرض أحياناً للضيق، وأحياناً يتمتع بالسعة؛ وأحياناً يعيش حالات من الألم والمعاناة، وأحياناً أخرى يعيش في تجليات من السرور والفرح.

ووفق المعتقدات المسيحية أيضاً، لا يمكن للناس إيجاد صلة مباشرة بينهم وبين الله تعالى، ولا يمكنهم طلب شيء من الله تعالى بأنفسهم، وإنما يتوسل البابوات إلى الله ﷻ باسم الناس، وكذلك فإن ذنوب الناس يمكن أن يغفرها لهم الباباوات، بمعنى أن الباباوات هم وسطاء فيما بين العباد وربهم ﷻ، ومن أجل ذلك فقد أصبح الاعتراف في المسيحية شكلاً من أشكال العبادات، وهكذا فإن الكنيسة تجبر الناس على الاعتراف بذنوبهم، وأعطي الباباوات صلاحية العفو عن الذنوب مقابل مبلغ مادي، وإن لم يجد المعترف المراد العفو عنه مالاً فإنه يدفع بدل العفو بالخدمة والعمل في الكنيسة، وإن المسيحيين يقولون متأثرين بعبارات الإنجيل المحرف:

– فقال لهم يسوع أيضاً: سلام لكم! كما أرسلني الآب أرسلكم أنا؛ ولما قال هذا نفخَ وقال لهم: اقبلوا روح القدس، من غفرتم خطاياه تُغفَر له، ومن أمسكتم خطاياه أمسكت.[١٥٣٠]

إن هذا الأصل والركن بالإضافة إلى أنه يبعد الناس عن طريق الهدى، فإنه يضفي على الباباوات نوعاً من الألوهية، ويدفع الآخرين إلى استسهال اقتراف المعاصي أو إجازتها استناداً إلى اعتقادهم بالعفو عنهم من قبل الباباوات.

فهل يمكن للباباوات الذين ليس بمقدورهم العفو عن ذنوب أنفسهم، أن يعفوا عن ذنوب الآخرين؟ وكيف يمكن لإنسان لا يخلو من الذنوب، أن يعفو عن ذنوب إنسان آخر مثله؟ إن مثل هذه الصلاحية لم تمنح لنبي ولا رسول من قبل، حتى للرسل أولي العزم، إن الاعتقاد بأن المغفرة الإلهية مرتبطة بعفو الباباوات الذين لا يخلون من المعاصي والذنوب، بينما الأنبياء والرسل على الرغم من عصمتهم من الذنوب قد قضوا عمرهم بالتوبة والاستغفار ضلالةٌ ما بعدها ضلالة!.

١٥٣٠. يوحنا، ٢٠/ ٢١- ٢٣.

ويقول الله تبارك وتعالى عن أهل الكتاب الذين يوهمون الناس بأن أصحاب الصلاحية بالعفو عن ذنوبهم مقابل مبلغ من المال، أو العمل والخدمة في الكنيسة على عكس الحقائق الإلهية، يقول الله في حقهم:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ...﴾ [١٥٣١]

وعلى الرغم من ذلك فإن المسيحيين يتبعون رهبانهم بشكل أعمى، وفي الوقت الذي ترى فيه أن الكتاب المقدس للمسيحية مملوء بالافتراءات على الأنبياء وإلصاق مختلف الذنوب والتهم بهم، فإننا نجد أن المسيحيين يعتبرون «البابا» الذي لا يتمتع بأية خاصية نبوية، يعتبرونه معصوماً خالياً من الذنوب، ويرون أن كل ما يأتيه من عمل هو الصواب.

ومما يلفت الانتباه، أن الدعوات الإلهية للأنبياء الذين اختارهم الله ﷻ من أجل تنفيذ أوامره قد صعُبت على نفوس المسيحيين، فقد عمل هؤلاء على الاستخفاف بالمؤسسة النبوية وإضعافها من خلال إلصاق مختلف التهم والصفات السيئة بأولئك الأنبياء من زنا، وشرب الخمر، والكذب، والخداع، والوثنية وغيرها من الصفات والمعاصي الشنيعة، [١٥٣٢] بينما يسندون إلى البابا الذي يختارونه هم بأنفسهم صفات علوية وسامية بشكل مفرط ومبالغ فيه، ويبجلونه إلى درجة التقديس. [١٥٣٣]

يقول الله ﷻ في كتابه العزيز:

﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [١٥٣٤]

إن المظهر الآخر للحقيقة التي وردت في الآية هو أن المسيحيين قد وقعوا في خطأ حول طبيعة الإنسان، إذ أنهم يرون أن روح الإنسان وبدنه مفترقين عن بعضهما،

١٥٣١. التوبة: ٣٤.

١٥٣٢. للاطلاع على الأوصاف والأفعال الشنيعة المسندة إلى الأنبياء في الكتب المسيحية المقدسة انظر، التكوين، ١٢/ ١١-١٣، ١٩/ ٣٠-٣٨، ٢٠/ ١-٧، ٣٠/ ٣٢-٤، ٢. صموئيل، ١١. الباب، ١، الملوك، ١١/ ١-١٣.

١٥٣٣. إلا أن أتباع المذهب البروتستانتي لا يقبلون بعصمة البابا وتأثيره في العفو عن الذنوب.

١٥٣٤. التوبة: ٣١.

فالروح لا يستطيع تطهيرها وتنقيتها إلا الباباوات، أما البدن فإن الغالبية يعتبرونه كائناً مذنباً وبشعاً.

بينما هذه العبارات هي تعريفات مجحفة بحق الإنسان الذي هو «زبدة العالم» و «أشرف المخلوقات».

فيبين الله ﷻ حقيقة هذا الأمر في كتابه الكريم، حيث يقول:

﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [١٥٣٥]

ويبين الشيخ غالب هذه الحقيقة بعبارة جميلة:

تدبر ما في نفسك ببصيرتك لأنك زبدة الأكوان

يا ابن آدم تأمل في خلقك يا قرة عين الأكوان

لأن الإنسان ذاك المخلوق الذي كرمه الله تعالى يتربع على قمة الصنع الإلهي في هذا العالم الذي زُيّن بآلاف النقوش والأشكال من المخلوقات بقدرة الإله ﷻ.

إلا أن الذين لا يصطبغون بحياة ملؤها الإيمان والعبادة التي تليق بهذه المكانة السامية للإنسان، فإنهم يفقدون هذه الصفات المتميزة والعلوية التي تمتعوا بها في بدء الخلق، وإنهم ينحدرون إلى الحالة التي وصفها الله تبارك وتعالى في كتابه العزيز:

﴿ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ﴾ [١٥٣٦]

فيفقدون بذلك الأمانة الإلهية التي حُملوها، وإلا فإن كل إنسان في بدء خلقه يدخل ضمن الخطاب الإلهي الذي يبين حقيقة الإنسان، حيث يقول ﷻ:

﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ...﴾ [١٥٣٧]

❁

يسوق المسيحيون العديد من الأدلة من الأناجيل ليؤكدوا أن الدين المسيحي هو دين المحبة والسلام، إلا أن هناك الكثير من العبارات التي تناقض هذه الأدلة حتى في

١٥٣٥. التين: ٤.

١٥٣٦. التين: ٥.

١٥٣٧. الإسراء: ٧٠.

الأناجيل المحرفة. فمثلاً ينقل لوقا عن عيسى عليه السلام الكلام الآتي: «لكن إيتونني أعدائي الذين يرفضون أن أملك عليهم ثم قوموا بقتلهم» [١٥٣٨]

وقد جاء أيضاً في رسائل بولوس إلى أهل كورنتوس:

«لأنه يجب عليه أن يستمر في الحكم ويدوم سلطانه حتى يضع جميع أعدائه تحت أقدامه» [١٥٣٩]

ويقول عيسى عليه السلام في مكان آخر:

«لا تظنوا أني جئت لألقي سلاماً على الأرض، ما جئت لألقي سلاماً بل سيفاً؛ فإني جئت لأفرق الإنسان ضد أبيه، والابنة ضد أمها، والكنة ضد حماتها» [١٥٤٠]

ومن جانب آخر، فقد جاء في العهد القديم:

«وأما مدن هؤلاء الشعوب التي يعطيك الرب إلهك، فلا تستبق منهم نسمة ما حياً في مدنهم بل عليك أن تفنيهم كما أمرك الرب إلهك» [١٥٤١]

«فالآن اذهب، واضرب عماليق، وحرّموا كل ما له، ولا تعف عنهم، بل اقتل رجلاً وامرأة، طفلاً ورضيعاً، بقراً وغنماً، جملاً وحماراً » [١٥٤٢]

وكما يتبين من النصوص السابقة فإن الكتاب المقدس المحرف للمسيحيين يتضمن عبارات من العنف والشدة بحيث تغرق بظلالها رسالة المحبة والسلام التي يدّعونها.

وأما القرآن الكريم فإنه يبين حدود الحرب التي يجب على المسلمون التقيد بها في حال اضطروا إليها بقوله تعالى:

﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ [١٥٤٣]

الحرب في الإسلام هي من أجل تأمين تبليغ دين الله عز وجل. والآيات التي تأمر المسلمين بمحاربة الأعداء، موجهة إلى الناس الذين يعلنون الحرب مع المسلمين، وتكون مقتصرة

١٥٣٨. لوقا، ١٩/ ٧.

١٥٣٩. رسالة بولس إلى أهل كورنتوس، ١/ ١٥.

١٥٤٠. متى، ١٠/ ٣٤- ٣٥.

١٥٤١. التثنية، ٢٠/ ١٦- ١٧.

١٥٤٢. صموئيل، ١، ١٥/ ٢- ٣.

١٥٤٣. البقرة: ١٩٠.

على الأشخاص المحاربين من حاملي السلاح دون غيرهم. فلا يجوز المساس بغير المحاربين من النساء، والأطفال، والشيوخ، والمرضى، وحتى لا يجوز قتل الحيوانات، ولا قطع الأشجار، أو إتلاف المزروعات.

❁

لقد كان سيدنا عيسى عليه السلام مثل بقية الأنبياء يحرم ما حرمه الله تعالى، ويحلل ما أحله الله، وكان يأمر أمته بذلك ويدعوهم إليه. وفي الوقت الذي كان فيه عيسى عليه السلام يرد الأعمال أو «البدع» – ما عدا المحرمات – التي تبدو صحيحة في ظاهرها ولكنها لا تتوافق مع أصول الدين، نجد المسيحيين اليوم قد جعلوا الكثير من الذنوب والمعاصي ضمن العبادات، ومن أحد هذه الأمور «**عشاء الرب**».

وعشاء الرب هو طعام مؤلف من كسرات الخبز ويضاف إليه الخمر، وفيه ترميز إلى الطعام الذي تناوله سيدنا عيسى عليه السلام في الليلة الأخيرة، حيث أن الطعام هنا يمثّل لحم عيسى عليه السلام، وأما الخمرة فتمثل دمه، ويعتقد المسيحيون أنهم بتناولهم عشاء الرب هذا يتوحدون في عيسى عليه السلام، إن هذا الطقس المسيحي المعروف يعتبر من أهم العبادات، ويأتي في المرتبة بعد التعميد، ويتم أداء هذا والإيفاء بهذا الطقس من قبل جميع المسيحيين.

فبينما كان في السابق يتم أداء هذا الطقس مرة واحدة خلال السنة، أما فيما بعد فقد أصبح طقساً أسبوعياً، ودخلت ضمن معتقدات المسيحيين، إن هذا الاعتقاد الذي يؤدي إلى نوعٍ من الاشتراك في الألوهية عن طريق مثل تلك العبادات، وبالتالي يودي بصاحبه إلى الشرك المناقض للتوحيد والذي لا يغفره الله تعالى أبداً.

العبادة في المسيحية عبارة عن كثير من الأدعية ومجموعة من الأناشيد التي تُقرأ باسم الرب، ولا يوجد في الديانة المسيحية عبادات مفروضة كما في الدين الإسلامي مثل الصلاة، والصيام، والحج وما شابه ذلك، فيما عدا طقس الطعام والخمر، وبعض العبادات التي تمثل بعض الأدعية كما ذكرنا. فالصيام في المسيحية عبارة عن نوع من الحمية، فلا يمكن تناول بعض الأطعمة والأشربة التي تشتهيها النفس خلال فترة الصوم، إلا أنه يمكن تناول فطور خفيف في الصباح، وكذلك تناول عشاء خفيف في المساء.

وقد بين الله ﷻ بطلان الأعمال والمعتقدات التي أدخلها المسيحيون إلى دينهم، وأنها ليست من المسائل التي أُمروا بها من قبل، وذلك في قوله تعالى:

﴿وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَةُ. وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ﴾ [١٥٤٤]

إلى جانب كل ما ذكرناه في الأعلى، فإن أكبر إضافة للمسيحية والتي أُلحقت بالدين فيما بعد هو «**عقيدة التثليث**». حيث أن النبي ﷺ وقف عند هذا الأمر في رسائله التي بعثها إلى ملوك المسيحيين يدعوهم فيها الإسلام، وقد قال في رسالته التي أرسلها إلى هرقل امبراطور بيزنطة:

«بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد عبد الله ورسوله إلى هرقل عظيم الروم: سلام على من اتبع الهدى، أما بعد، فإني أدعوك بدعاية الإسلام، أسلم تسلم، يؤتك الله أجرك مرتين، فإن توليت فإن عليك إثم الأريسيين، [١٥٤٥] و:

﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [١٥٤٦]

عقيدة التثليث «ثلاثة آلهة»:

التثليث مفهوم عقائدي مسيحي يشير إلى أن الإله يتكون من ثلاثة «**الأب، والابن، وروح القدس**». وفي الأصل يُذكر الدين المسيحي بشكل عام بين الأديان التي تؤمن بالإله الواحد، إن عقيدة التوحيد في المسيحية التي تمت المحافظة عليها بحزم في العهد القديم، قد تأثرت بالثقافة الهندية، واليونانية التي انتشرت بين المسيحيين في القدس حيث مركزهم الأساسي، وتحوّلت العقيدة المسيحية إلى شكل مناقض للتوحيد.

إن دخول التثليث إلى المسيحية كان بعد ظهور هذا الدين بفترة طويلة، إذ لم تكن عقيدة التثليث موجودة بعدْ في المؤتمر الذي انعقد في إزنيق عام / ٣٢٥ ميلادي/ .

١٥٤٤. البينة: ٤- ٥.

١٥٤٥. يقصد به الأتباع وعامة الشعب.

١٥٤٦. آل عمران: ٦٤.

حيث كان يجري التباحث حول الطبيعة الإلهية للأب والابن، وفيما إذا كانا من الجوهر نفسه، وبعد ذلك، وخلال المؤتمر الذي عُقد في قسطنطين وبولوس عام / ٣٨١ ميلادي/ فقد تمت إضافة روح القدس إلى الطبيعة الإلهية، واعتُمدت عقيدة التثليث، وأرادوا من المسيحيين عبادة إله متكون من «**ثلاثة أقانيم**»، أي ثلاثة عناصر الأب والابن وروح القدس.

ولكن اليوم يتم التوجه إلى تأويل عقيدة التثليث نتيجة الاعتراضات والانتقادات التي واجهتها؛ فقالوا أن الإله واحد والقوة بيده، وأما عيسى فهو ابنه، وروح القدس قوته، إلا أن هذه التعديلات التي أجريت على هذه العقيدة لا تقرّب الشرك من التوحيد، ومن جهة أخرى، فإن نَسب ابن إلى الله ﷻ المُنزه عن الصفات البشرية وعن كل نقص ليس إلا الشرك عينه الذي يهوي بصاحبه في أشد أنواع العذاب يوم القيامة، ويتسبب بطرده من رحمة الله تعالى، ويقول الله ﷻ في هذا الشأن:

﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ﴾ [١٥٤٧]

﴿قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ إِنْ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بِهَذَا أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾[١٥٤٨]

﴿قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ﴾ [١٥٤٩]

﴿مَتَاعٌ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ [١٥٥٠]

﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذًا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [١٥٥١]

لا يمكن العثور على دليل واضح وصريح في الأناجيل مما يثبت أو يشير إلى عقيدة التثليث التي دخلت إلى الدين المسيحي فيما بعد ظهوره، حيث كان في البداية دين توحيد

١٥٤٧. البقرة: ١١٦.
١٥٤٨. يونس: ٦٨.
١٥٤٩. يونس: ٦٩.
١٥٥٠. يونس: ٧٠.
١٥٥١. المؤمنون: ٩١.

صاف ونقي عمّا يشوبه من الشركيات والانحرافات، إن الكلمة المقابلة «للتثليث» في الغرب هي «ترينايت» وهذه الكلمة لم ترد في أي مكان من الإنجيل، وقد استخدمت هذه الكلمة لأول مرة في التاريخ المسيحي من قبل الترتليين في القرن الثاني للميلاد.

وبالإضافة إلى ذلك، ففي العهد الجديد لا يقول عيسى عليه السلام في أي مكان منه «أنا الإله». وإنما يقول عكس ذلك تماماً، حيث يقول بأنه عبد وليس إله.[١٥٥٢] ويخبرنا الله تعالى في القرآن الكريم بأن عيسى عليه السلام عبد ورسوله.[١٥٥٣] ولم يكن عيسى عليه السلام ينزعج أو يرفض صفة العبودية، وإنما على العكس من ذلك فقد كان يحسّ بالتشرف بهذه الصفة كما يتبين ذلك في الكتاب المقدس[١٥٥٤]، وقد كان يعيش حياته بعبودية خالصة لربه عز وجل، وبالإضافة إلى ذلك، فقد كان عيسى عليه السلام يداوم على العبادة، ويستمر في تعبد الله تعالى طوال الليل، حيث أن العبادة أو التعبد ليس من علامات الألوهية، وإنما من تجليات العبودية.

يذكر المسيحيون باستمرار العبارة الآتية الواردة في الإنجيل كدليل على ثبوت عقيدة التثليث في ديانتهم:

«فلما اعتمد يسوع صَعِد للوقت من الماء، وإذا السماوات قد انفتحت له، فرأى روح الله نازلاً مثل حمامة وآتياً عليه؛ وصوتٌ من السماوات قائلاً: وهذا هو ابني الحبيب الذي به سُررت» [١٥٥٥]

وترد عبارات مشابهة لهذه العبارة في أقسام أخرى من الإنجيل.[١٥٥٦] ولكن بالتدقيق في هذه العبارات والنصوص يتبين أنه لا يمكن الاستنتاج منها ما يدل على ثلاثة آلهة، أو يشير إلى معنى بأن الإله الواحد يتكون من ثلاثة أقانيم، أو ثلاثة عناصر.

ومما يجب قوله هنا، أنه حتى في الإنجيل الذي تم تحريفه عن أصله والذي يُعتبر الكتاب السماوي للمسيحيين كما أخبر بذلك القرآن الكريم أيضاً، حتى في هذه الأناجيل

١٥٥٢. راجع متى، ١٢/ ١٨.
١٥٥٣. انظر في سورة النساء، ١٧٢.
١٥٥٤. راجع متى، ١٢/ ١٨؛ إشعيا، ٤٢/ ١.
١٥٥٥. متى، ٣/ ١٦- ١٧.
١٥٥٦. راجع يوحنا، ١/ ١، ١٤.

لا يمكن العثور على دليل صحيح وبين يثبت عقيدة التثليث، ولذلك فمهما تمّ تأويل هذه العقيدة، ومهما حاول المسيحيون على إيجاد تعاريف مناسبة لها، فإنها لا يمكن أن تتوافق أو تنسجم مع عقيدة "التوحيد" الذي جاء به الإسلام مُنزلاً من عند الله تعالى كخاتمة للأديان السماوية، إن جاز تعبير الأديان، إذ المعلوم أن الدين عند الله الإسلام منذ أن خلق آدم عليه السلام!

ومن جانب آخر، فإن استخدام المسيحيين كلمة "بابا " للتعبير عن الإله فيه انتقاص كبير بحق الله تعالى، وذلك لأنه يوجد في نظر الإنسان أصناف من الآباء الذين يثيرون انطباعات سيئة لديهم، وفي نفس الوقت فإن مفهوم البابا أو الأب يذكّر الإنسان بالكيفية أو الخصائص البشرية مثل العلاقات الجنسية، وفكرة تركه وارثاً من بعده، وتحقق الموت بحقه، والتي يتنزه الله سبحانه وتعالى عنها كلها.

إن خلق الله سبحانه وتعالى لسيدنا عيسى عليه السلام من غير أب معجزة خارقة للعادة. إلا أن هذه الحالة لا تستوجب رفعه إلى مرتبة الإله. وذلك لأن سيدنا آدم عليه السلام قد خُلق من التراب من غير أب، وعلاوة على ذلك فإنه لم تكن له أم حين خلْقه. فكما أنه لا يجوز إضفاء صفة الألوهية على سيدنا آدم عليه السلام الذي خُلق من غير أب ولا أم، وعلى حواء التي خُلقت من آدم عليه السلام، كذلك لا يجوز إضفاء هذه الصفة على سيدنا عيسى عليه السلام. حيث أنه ينبغي التوجه بالعبودية إلى الله الذي خلق من فتاةٍ عزباء ابناً من غير أب، وليس تعبد هذا الابن البشري.

إن الإسلام يعلن بأن ﷻ إله واحد أحدٌ متصف بصفات علوية سامية، لا يشبه أحداً من المخلوقات، ومنزه عن كل عيب أو نقص، ولا إله غيره، وهو صاحب العظمة والقدرة كلها، وهذا الإعلان قد تم بيانه بصورة موجزة في سورة الإخلاص:

﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ. اللَّهُ الصَّمَدُ. لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ. وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾

إن هذه الصورة القصيرة تلخص كل خصائص التوحيد، وتكفي للدلالة على أن عيسى عليه السلام كائنٌ بشري محدود بأبعاد الحياة والموت، ولا علاقة له بالألوهية وبالتالي فإن عقيدة التثليث باطلة لا أصل لها من الصحة. وانطلاقاً من ذلك، فإن الله تعالى يحذر بشدة الذين يدينون بعقيدة التثليث، حيث يقول في كتابه الكريم:

﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ. لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ. أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ. مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ انْظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ انْظُرْ أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾[١٥٥٧]

إن قول الله تعالى في الآية الكريمة: «**كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ**» بحق عيسى عليه السلام وأمه هو من أجل الدلالة على طبيعتهما البشرية. وذلك لأن تناولهما الطعام يستوجب إحساسهما بالجوع والشبع وهي من الخصائص البشرية، والله عز وجل منزه بلا ريب عن كل ذلك.

وعلى الرغم من ذلك، فإن أهل الكتاب يميلون إلى عقيدة تسند إليهما الصفات الألوهية، وما ذلك إلا بسبب جهالتهم وغفلتهم المطبقة. وإلا فإن عيسى عليه السلام لم يفتح في هذا المجال حتى ولو باباً صغيراً لينفذ منه أهل الكتاب إلى التمسك بمثل هذا الاعتقاد. حيث يقول الله تعالى:

﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾[١٥٥٨]

﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ. مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾[١٥٥٩]

١٥٥٧. المائدة: ٧٢-٧٥.

١٥٥٨. المائدة: ١٠٩.

١٥٥٩. المائدة، ١١٦-١١٧.

العقل السليم يدعو الإنسان إلى التفكير بأنه حسبما هو معروف بأن عيسى عليه السلام لم يكن موجوداً في الحياة قبل الميلاد بسنوات طويلة، وولد بعد ذلك، فهل يمكن إضافته إلى الله تعالى بعد هذا الميلاد؟ وقد ورد في إنجيل يوحنا خطابٌ إلى عيسى عليه السلام بعبارة "يا رب" مسندين إليه بذلك القدرة الإلهية، فهل بعد ذلك اتصف هذا الإله بالضعف والعجز في مواجهة الناس الذين اقتادوه إلى الصليب لتعليقه عليه؟ لأنه قد وردت جُملٌ في الأناجيل تفيد بأن عيسى عليه السلام اِقتيد إلى الصلب دونما إرادة منه، وحسب هذه الجمل فإن عيسى عليه السلام قد قال حين أخذوه إلى الصليب صارخاً بصوت عالٍ، كما جاء في الإنجيل:

«ونحو الساعة التاسعة صرخ يسوع بصوت عظيم قائلاً: إيلي، إيلي، لما شبَقتني؟ أي: إلهي، إلهي لماذا تركتني؟» [١٥٦٠]

أليست هذه العبارات مليئة بالضعف، والعجز، والعصيان البشري.

إن الدين الإسلامي يأمر بمراعاة الحذر والدقة الفائقة فيما يتعلق بمسألة «التوحيد». ويصف أي عمل، أو تصرف قد يمسّ بالتوحيد مهما كان صغيراً، يصفه بالشرك، ويمكن أن نورد مثالاً على ذلك، فقد حكم الله تعالى الشخص الذي يدع أوامره جانباً ويتبع رغبته بأنه: «**اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ**» [١٥٦١] إضافة إلى ذلك، فقد وصف الله تعالى الذين الرهبان الذين حرموا ما أحله، وحللوا ما حرمه عليهم بـ«الأرباب» والذين اتبعوا أهواءهم وأطاعوهم، وصفهم بأنهم «اتخذواأولئك أرباباً من دون الله». واعتبر الإسلام الرياء الذي يرد في قلب المؤمن عندما يقوم بالأعمال الصالحة نوعاً من الشرك الخفي.ولذلك فإن القرآن الكريم الذي يبدي أهمية كبيرة لموضوع التوحيد، يردُ بطلان عقيدة التثليث التي يدين بها المسيحيون، ويحكم على هذه العقيدة بالكفر والخروج عن التوحيد.

ويحذر الله تعالى في القرآن الكريم الكتاب السماوي الخاتم، يحذر أهل الكتاب بسبب الضلالات التي انحرفوا إليها نتيجة عقيدة التثليث، حيث يقول الله تبارك وتعالى:

١٥٦٠. متى، ٢٧/ ٤٦.

١٥٦١. الفرقان، ٤٣.

﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ انْتَهُوا خَيْرًا لَكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلا﴾ [١٥٦٢]

﴿لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا﴾ [١٥٦٣]

﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [١٥٦٤]

كما ذكرنا من قبل وحسبما يثبته الباحثون في تاريخ الأديان فإن فكرة ألوهية عيسى عليه السلام قد دخلت إلى الديانة المسيحية بتأثير من الفلسفة اليونانية، والاسكندرية، والهندية.

حيث ورد في الموسوعة البريطانية أن:

«عيسى عليه السلام لم يدّع أبداً أنه من عنصرٍ فوق الطبيعية، ولم يقل أيضاً أنه من طبيعةٍ أعلى من الطبيعة البشرية» [١٥٦٥]

وقال عيسى عليه السلام:

«اسمع يا إسرائيل! الرب إلهنا رب واحد» [١٥٦٦]

ويوجد في أماكن أخرى العبارات الآتية:

«فأخذ الجميع الخوف، ومجدوا الله قائلين: قد قام فينا نبي عظيم، وافتقد الله شعبه» [١٥٦٧]

١٥٦٢. النساء، ١٧١.

١٥٦٣. النساء، ١٧٢.

١٥٦٤. المائدة، ١٧.

١٥٦٥. الموسوعة البريطانية، المجلد الخامس، ص. ٦٣٦.

١٥٦٦. مرقس، ١٢/ ٢٩؛ وانظر أيضاً، متى، ٢٣/ ٨؛ ولوقا، ١٣/ ٣٣.

١٥٦٧. لوقا، ٧/ ١٦.

«فلما رأى الناس الآية التي صنعها يسوع قالوا: إن هذا هو بالحقيقة النبي الآتي إلى العالم» [١٥٦٨]

وكما يتبين مما أوردناه آنفاً من النصوص، فإن المعلومات الواردة في المصادر المسيحية بالذات وحدها كافية لإثبات أن عيسى هو عبد الله ورسوله، ولا علاقة له بالطبيعة الإلهية، إلا أن رجال الدين المزيفين والمدعين من أمثال بولس قد عادوا الدين متستّرين تحت عباءة الإيمان، ولم يكتفوا بخداع الناس بحق عيسى عليه السلام، وإنما ساقوهم إلى الضلال بتقديم كثير من المعلومات المغلوطة والخاطئة عن عيسى عليه السلام. وعلى الرغم من ذلك، فإن المسيحين اليوم يدعون بأنهم أحباء الله ﷻ، وأنهم وحدهم سوف يدخلون الجنة يوم القيامة. ويجيب الله ﷻ على ادعائهم هذا في كتابه الكريم:

﴿وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [١٥٦٩]

﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ [١٥٧٠]

❁

إن هذه العاقبة المحزنة التي وقع فيها المسيحيون نابعة من تحريفهم الكتاب الإلهي الذي أُنزل إليهم وفق أهوائهم ورغباتهم مثل اليهود، وإفراغ محتواه الإلهي بإدخال أقوال بشرية منحرفة وفاسدة إليه. وذلك لأنهم بعملهم هذا وجدوا أن ما أدخلوه من التحريفات يلبي رغباتهم وأهواءهم النفسية أكثر، ويمكّنهم من إضفاء نوع من المشروعية على الجرائم التي اقترفوها بإدخالها إلى الكتاب الإلهي، إلا أنه من الطبيعي أن هذه الحالة قد أصبحت وسيلة لفقدانهم السعادة الأبدية في الآخرة، وكم تدعو حالة كثير من أهل

١٥٦٨. يوحنا، ٦/ ١٤.
١٥٦٩. البقرة: ١١١.
١٥٧٠. المائدة: ١٨.

الكتاب الذين لم يتعظوا ولم يتنبهوا إلى أوهامهم حتى ببعثة النبي ﷺ وبقوا مغرقين في الباطل والضلال، كم تدعو حالتهم إلى الحزن والأسى!.

جاء وفد من نصارى نجران إلى رسول الله ﷺ وقالوا له:

«باعتبار أن القرآن الكريم يقرّ بأن عيسى عليه السلام لا أب له، فهذا دليل على أنه هو الله!»

فنزلت في ذلك آية المباهلة، حيث قال الله تعالى:

﴿فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾[١٥٧١]

ولما دعاهم النبي ﷺ إلى المباهلة وفق ما تقضيه الآية الكريمة، لم يجرؤ نصارى نجران على الإقدام عليها، فوقّعوا مع النبي عليه الصلاة والسلام على اتفاقية قبلوا بموجبها الدخول تحت حماية المسلمين، وعادوا إلى بلادهم. يقول الله تعالى في كتابه العزيز بشأن تحذير وتنبيه أهل الكتاب وإيقاظهم من غفلتهم:

﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ﴾[١٥٧٢]

﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[١٥٧٣]

﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنْتُمْ شُهَدَاءُ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾[١٥٧٤]

إن المسيحيين يدركون بأن ما أخبرت به الآيات الكريمة من معلومات هي حقائق صحيحة، وأن دينهم قد تم تحريفه وإبعاده عن أصوله الأساسية، ولهذا السبب فإنهم يعلمون أن النبي ﷺ الذي هو خاتم الأنبياء والقرآن الكريم خاتم الكتب السماوية مبعوث من الله تعالى. وحتى لو لم يصرحوا بذلك بشكل علني وواضح، فإن الله ﷻ قد بين ذلك في كتابه العزيز:

١٥٧١. آل عمران: ٦١.

١٥٧٢. آل عمران: ٧٠.

١٥٧٣. آل عمران: ٧١.

١٥٧٤. آل عمران: ٩٩.

﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [١٥٧٥]

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ﴾ [١٥٧٦]

إن ابتعاد أهل الكتاب إلى درجة كبيرة عن الإسلام الذي هو الدين الوحيد المقبول عند الله تعالى مؤسف حقاً! ولكن ما يدعو للسرور والسعادة أن منهم من يدرك ويفهم الحقيقة الجليلة فيتوجه إلى الله تعالى بالعبودية بمعناها الحقيقي! حيث أن الله سبحانه وتعالى قد أخبرنا في القرآن الكريم بأن أهل الكتاب سوف يدخلون إلى الإيمان والإسلام عندما ينزل عيسى عليه السلام إلى الأرض في آخر الزمان:

﴿وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا﴾ [١٥٧٧]

إن السبب الوحيد لعدم ترك المسيحيين للضلالة التي هم فيها اليوم هي حالة الأناجيل، حيث أنهم أعملوا فيها أقلامهم، ووجهوها بما يتوافق مع أهوائهم ورغباتهم، ليحرفوا بذلك الإنجيل المقدس الحق الذي أنزله الله تعالى على نبيه عيسى. يقول الله سبحانه وتعالى في ذلك:

﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ﴾ [١٥٧٨]

وذلك لأن التدخلات التي أجروها على الكتاب الإلهي مسألة خطيرة للغاية ومحظورة، إذ لم يأذن بها الله عز وجل حتى لأنبيائه الكرام عليهم السلام. حيث أنه ورد في هذا الشأن أمر وتحذير إلهي حتى بحق نبينا محمد عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم. إذ قال الله عز وجل:

١٥٧٥. البقرة: ١٤٦.
١٥٧٦. البقرة: ١٥٩.
١٥٧٧. النساء: ١٥٩.
١٥٧٨. البقرة: ٧٩.

﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ. لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ. ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ. فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ﴾ [١٥٧٩]

ومن جهة أخرى فقد قال الله تعالى:

﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ...﴾ [١٥٨٠]

فاقتضت إرادة الله ﷻ أن يظل حكم الإسلام الذي هو الدين الحق والخاتم إلى يوم القيامة. ولن يأتي بعده أي دين آخر. وبناءً على ذلك فقد حفظ الله تعالى القرآن الكريم من التدخلات والتحريفات البشرية. ويبين الله ﷻ هذه الحقيقة بقوله:

﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [١٥٨١]

ماهية الأناجيل الأربعة:

إن مما لا شك فيه أن الإنجيل المقدس الذي أنزله الله تعالى على عيسى عليه السلام حق، ويُعتبر الإيمان به من أركان إيمان كل مؤمن، حيث يدخل ضمن ركن الإيمان بالكتب السماوية الواجب على كل مؤمن. وقد ذكر الله تعالى في كثير من آيات القرآن الكريم الإنجيل والتوراة في إشارة إلى الأحكام والتعاليم الإلهية التي وردت فيهما، والتصديق بهما من قبل النبي عليه الصلاة والسلام، وذلك لأن الإنجيل الأصلي سبيل للهداية الإلهية مثله كمثل القرآن الكريم.

وكما ذكرنا من قبل فإن الكنيسة المسيحية قد عملت بشتى الوسائل على بترٍ حقيقي وجدّي لكثير من حقائق حياة عيسى عليه السلام وتقطيع أوصال التعاليم السماوية التي جاء بها، وكان أول قطعة بتروها هي الجذع الأساسي لهذا الدين، فأخرجوا من المسيحية عقيدة التوحيد التي هي أساس الدين.

إن نظام الوحي في المسيحية على خلاف الحالة في الإسلام، عبارة عن شهادات لمجموعة من البشر ـ على عكس ما يتخيله كثير من المسيحين ـ التي نقلوها بالوكالة.

١٥٧٩. الحاقة: ٤٤ -- ٤٧.

١٥٨٠. آل عمران: ١٩.

١٥٨١. الحجر: ٩.

وكما يقرّ به العلماء المسيحيون، فإنه لا يوجد أي دليل أو معلومة سليمة في المسيحية التي نعرفها اليوم تعود إلى الزمن الذي عاش فيه عيسى عليه السلام.

وفي الحقيقة، إن أهم مشكلة يواجهه الكتاب المقدس اليوم هي اللغة الأصلية التي استخدمت في كتابته، إذ أن اللغة العبرية هي اللغة الأصلية لقسم «العهد القديم» الذي يحتوي على الكتب التي تعود إلى عصر ما قبل عيسى عليه السلام، وأما اللغة الاصلية لقسم «العهد الجديد» الذي يحتوي على الكتب العائدة إلى عصر ما بعد عيسى عليه السلام فهي اللغة اليوناني، في حين أن اللغة الأصلية لهذا القسم كانت اللغة العبرية أيضاً، ولا توجد النسخة الأساسية للإنجيل التي تُرجمت عنها النسخ اليونانية، وفي هذه الحالة، لا نعلم إلى أية درجة يمكن القول بصحة أسانيد الترجمات التي أُجريت على الإنجيل في ظلّ عدم وجود النسخة الأصلية؟

وحتى الآن فإن أقدم النسخ الموجودة للأناجيل ـ ما عدا إنجيل متى ـ هي باللغة اليونانية، وأما المصادر المسيحية فإنها تفيد بأن المسيح عيسى عليه السلام كان يتكلم باللغة العبرية ـ الآرامية ويلقي على الناس تعاليمه ومواعظه بهذه اللغة. وفي هذه الحالة إذا أخذنا موضوع لغة الأناجيل وأقوال سيدنا عيسى عليه السلام بعين الاعتبار، أليس من المفروض- على الأقل النسخ الأصلية ـ كتابتها بلغة عيسى عليه السلام والمحافظة عليها من الضياع والتلف؟ ولكن الذي نراه اليوم أنه لا الأناجيل المعروفة، ولا أقوال عيسى عليه السلام مكتوبة بلغته الأصلية.

وعلى الرغم من كتابة مسودات الإنجيل الأولى باللغة العبرية، إلا أنه فُقدت هذه المسودات وسرعان ما تمت ترجمة الأناجيل الأخرى المكتوبة باللغة العبرية إلى اللغة اليونانية، وإتلاف النسخ العبرية، وحتى أنه تُرجم «العهد الجديد» مع «العهد القديم» إلى اللغة اليونانية، وبذلك تم تدوين الكتاب المقدس بشكل كامل إلى اللغة اليونانية، ونتيجة لذلك يظهر بشكل واضح تأثير الثقافة اليونانية على جوانب مهمة من الثقافة المسيحية. وبهذه الحالة، فإن الثقافة اليونانية قد سيطرت بتأثيرها بشكل طبيعي على المسيحية بنفس الدرجة التي أثرت عليها فلسفتها من قبل، فأفسدت المسيحية، وأَدخلت عليها الكثير من المفاهيم والأفكار اليونانية الجانحة عن الحق، وبذلك قُضي على الجانب التوحيدي لهذا الدين الإلهي، ولهذا السبب قال الله تعالى في كتابه الكريم:

﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ﴾ [١٥٨٢]

ولهذا السبب أيضاً، فإن هناك فجواتٌ عميقة وخلافات بين الحقائق العلمية الثابتة وبين الأناجيل المتداولة في عصرنا هذا. حيث أن العالم المشهور «غاليليه» عندما اطّلع على ثقافة المسلمين وعلومهم، وتوصل منها إلى قناعة بالدوران «دوران الأرض»، أخبر هذه الحقيقة إلى الناس من حوله، ولما وجدت الكنيسة أن ما يقول به هذا العالم يتناقض بشكل صارخ مع المعلومات الواردة في الإنجيل بهذا الخصوص، أظهرت معارضة شديدة ومدهشة ، وقالت له مع التهديد والوعيد:

- إما أن تعود عما قلته، أو نقتلك!.

أما غاليليه الذي تلقى التهديد بالقتل لأنه قال الحقيقة، فوقف عاجزاً أمامهم، وقال:

- ليكن كما تقولون! ومن ثم قال بصمت متذمّراً من عملهم والحكم الذي أصدروه عليه:

- فحتى لو قلتم أن الدنيا لا تدور، فإنها تدور! ولم يستطع أن يفعل شيئاً غير ذلك.

وبسبب هذه الفجوات، والإحساس بضرورة إخفاء التناقضات الواردة في الأناجيل، نجد أن الكتب المتعلقة بالتعاليم الدينية للمسيحية بشكل عام في حالة من الأجزاء المختارة. فلا تُقرأ الأناجيل كلها بحالتها الكلية. وحتى داخل المذهب والجماعات يتم اللجوء إلى نوع من الاختيار للكتاب، إن هذه الحالة لوحدها، لا تدع مجالاً لأصحاب العقول السليمة إلا القبول بمنطق القول بعدم صحة الكتاب المقدس حتى من ناحية طرق نقله وتداوله بين الناس.

وهكذا، فإن «ي. جاكوب» خرج بنتيجة بعد البحث والتدقيق الذي أجراه على الرواية التي في الأناجيل، خرج بنتيجة أن هذه الأناجيل كأنها أخذت شكل الأساطيرلا أكثر.

ويقول «موريس بوتشيل» أيضاً:

١٥٨٢. البقرة: ٧٩.

«إن الكتاب المقدس الذي غيّر متنه الناس وفق ما تودّه قلوبهم، عبارة عمّا تركوه لنا من أهوائهم ورغباتهم. ومن أجل ذلك فإنه لا يتم التوقف على أهم الموضوعات الأساسية التي تتناولها هذه الكتب التي خُطت بالأقلام، وإنما يتم تجاوزها، وإنّ هذه الكتب قد تعرضت لتدخلات كثيرة من قبل البشر مثل الشيء الذي يُمرر من خلال الغربال لدفعات عدة، ولا يتم في كل مرة تحليل المعلومات الخاطئة التي بلغت أعداداً لا حصر لها، وإنما يتم تجاوزها بالاكتفاء بالسكوت عنها، ولكن ما أشد الألم الذي يسببه للإنسان اعتبار الكتاب البشري الذي لا يتم حتى تصويبه، اعتباره كتاباً مقدساً!».

ونحن حتى لو لم نجد مثل هؤلاء الذين يعترفون بخطأ وتحريف الكتاب المقدس "الأناجيل"، فإن بيان الله تعالى الذي أنزل هذه الكتب السماوية والإنجيل واحد منها بأنه قد تعرض للتحريف والتدخل البشري، إن هذا البيان كاف لنا لإثبات ذلك، حيث أن الله ﷻ يقول في معرض بيانه لهذه الحقيقة، وفي نفس الوقت تحذيره لأمة محمد ﷺ من الغفلة والانزلاق في مثل هذه الضلالات:

﴿مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ [١٥٨٣]

كما يُفهم من هذا البيان الإلهي أيضاً، أن كل الأديان التي كانت قبل الإسلام وكل كتبهم قد تم تحريفها مثلما فعل المسيحيون من التبديل والتحريف في الدين الذي أرسل الله تعالى به عيسى عليه والكتاب «الإنجيل المقدس» الذي أنزله عليه، وبناءً على ذلك فإن الأناجيل الأربعة المعروفة والمتداولة اليوم لا علاقة لها ألبتّة بالإنجيل المقدس الذي أنزله الله تعالى على عيسى عليه السلام. وهكذا فإن:

إنجيل متى:

متى هو يهودي كان جامعاً للضرائب باسم الامبراطورية الرومانية، وقد كتب الإنجيل للجماعة المسيحية التي يعود أصلها لليهودية. ويقال أن هذا الإنجيل قد كُتب في سنة / ٦٥ ميلادية/ .

وبحسب إحدى وجهات النظر أن هذا الإنجيل قد جرى تدوينه بهدف إثبات أن عيسى إنما جاء ليتمّم التاريخ الإسرائيلي، ولكن يقول بعض الباحثين أن كاتب إنجيل متى

١٥٨٣. الروم: ٣٢.

الذي يتم تداوله اليوم ليس «متى» وإنما كاتب هذا الإنجيل هو يهودي فلسطيني مجهول الاسم، وفي الحقيقة، فإنه بالتدقيق والنظر بانتباه في هذا الإنجيل يتبين أنه يعكس نمط التفكير اليهودي أكثر مما يعكس التفكير المسيحي.

إضافة إلى ذلك، عند كتابة إنجيل متى تمت الاستعانة بالإنجيل الذي كتبه مرقس والذي لا يُعد من حواريي عيسى عليه السلام، وفي الحقيقة إن استعانة متى الذي يعتبر نفسه من الحواريين في كتابة إنجيله، بإنجيل شخص آخر لا يُعدّ من الحواريين أمر لا معنى له. ويقول «أ. تريكوت» في حق هذا الإنجيل:

«إن هذا الكتاب الذي أُلبس الثوب اليوناني، هو كتاب يهودي بلحمه، وعظمه، وروحه، وتوجد فيه الآثار اليهودية واضحة، ويحمل بشكل واضح علاماتها الفارقة».

إنجيل مرقس:

لقد كتب مرقس في البداية إنجيلاً مختصراً، ووسّعه فيما بعد. ولكن بعد ذلك بفترة ضاعت ثلاثة أرباع هذا الإنجيل، فقام مرقس بكتابة الإنجيل مستعيناً بالمجموعات السابقة له ليصل إلينا إنجيله بالشكل الحالي، وفي مواجهة هذه الحالة، يحاول المؤلفون المسيحيون عبثاً جعله تلميذاً لبتروس، وبولس وذلك من أجل خلق نوع من الاطمئنان، والاعتماد على الإنجيل الذي كتبه.

وهناك كثير من علامات الاستفهام حول كون مرقس هو المؤلف الحقيقي لإنجيل مرقس، فحسب رأي البعض أن هذا الإنجيل لم يكتبه مرقس، وإنما دوّنه بيتروس.

وفي الواقع فإن مرقس لم يلتقِ بعيسى عليه السلام ، ولم يسمع منه، وما كانت كتاباته إلا مما سمعه، وما علق في ذهنه مما تعلمه من غيره، وهذه الكتابات غير منتظمة ومليئة بالأخطاء، وإن العبارات والفصول التي يتضمنها لا تحمل أي أثر للاهتمام بالتسلسل الزمني أو التاريخي.

ويقول «م. ب. روغت» بحق كاتب هذا الإنجيل الذي يُعتقد بأنه كُتب بين عام / ٦٣ و ٧٠ ميلادي / :

«إن مرقس كاتب أعجمي، وهو من أقل كتاب الإنجيل مستوى».

إنجيل لوقا:

إن مهنة كاتب هذا الإنجيل الثالث لوقا الأصلية هي الطب، وقد كتب هذا الشخص كتاباً يتعلق بأعمال الأنبياء أيضاً.

وقد تم تدوين هذا الإنجيل الذي كتبه لوقا من أجل اليونانيين، ولكن هذا الكتاب مليء بمغالطات وأخطاء تاريخية كثيرة. وقد استعان لوقا خلال كتابته الإنجيل بمرقس، إضافة إلى ذلك فقد اعتمد لوقا على الآثار غير الإلهية، وحتى على مصادر شفوية، وأضاف عليها الكثير من الأمثال. ولهذا السبب فقد وصفه «م. ب. كانينجيسر» بأنه: «روائي حقيقي!».

إن لوقا ذو الأصل اليوناني عندما يتناول وصف عيسى عليه السلام فإنه إنما يتبنّى خيال مؤرخ يوناني، وإن استخدامه لأسلوب من يبحث في حياة بطل يوناني، ومنطق الروائي الذي يضمنه كتابه يوحي للوهلة الاولى بأننا لسنا أمام كتاب إلهي، بمعنى أن إنجيل لوقا عبارة عن كتاب يحاول لوقا إبرازه بأنه نتيجة لجهد بشري وليس وحي إلهي.

إنجيل يوحنا:

يُقدم إنجيل يوحنا الذي يعتبر الإنجيل الرابع على أنه الإنجيل الذي كتبه زبدة صديق عيسى عليه السلام وحواريه، ويوحنا بن سالوم. ولكن يرى الباحثون بأنه بالنظر في هذا الإنجيل يتبين بأنه قد أُخذ من مكتبة الفسلفة الاسكندرية، وأن أساسه قد تأثر بفكر منطق الفلسفة اليونانية بشكل واضح، ولذلك فإنه قد كُتب من قبل شخص آخر تحت اسم مستعار وهو يوحنا، وذلك لأنه ليس من المعقول أن يكون كاتب الإنجيل يوحنا حواري عيسى عليه السلام ومن ثم يتشبّع بالفلسفة اليونانية ويبقى تحت تأثيرها ليعكسها على الإنجيل الذي يكتبه، ومن جانب آخر فإن هدف كاتب إنجيل يوحنا هو إثبات ألوهية عيسى عليه السلام، وإظهار أنه ليس ذاك الحواري الذي آمن في الحقيقة بروح الله.

ولا يمكن العثور في إنجيل يوحنا هذا الذي يُقال بأنه كتب بين عام / ٩٠ و ١١٠ ميلادي / على أية معلومة أو عبارة تشير على أنه وحي إلهي. وقد ورد في هذا الإنجيل أيضاً بأن الحواريين يخاطبون عيسى عليه السلام بقولهم له: «يا رب!». ولهذا الاعتبار، فإنه يرجح أن يكون يوحنا هو شخص من أتباع بولس اليهودي الذي حرف الإنجيل خلفه

وراءه ليتابع التحريف الذي بدأه. ولذلك فإن «م. ب. روغيت» يوضح الفكر الذي يتضمنه الإنجيل الذي صاغه يوحنا بقوله:

«بينما الأناجيل الثلاثة الأولى متى، ومرقس، ولوقا التي تشبه بعضها البعض تنقل أقوالاً متضاربة لعيسى عليه السلام، وتقترب من بعضها بأسلوب القول، في حين نرى أن كل شيء في إنجيل يوحنا يغرق بفكر مؤلفه. لدرجة أننا نضطر للوقوف أمام أنفسنا لنتساءل: هل المتكلم عيسى عليه السلام، أم أن أقواله يتم التوسع فيها من قبل كاتب الإنجيل بحيث تتداخل مع مقدماته، وتوضيحاته.؟»

❁

لقد تم الاعتراف بهذه الحالات الغريبة للأناجيل من قبل بعض رجال الدين المسيحي بالذات:

وقد قال «توست» الذي ينتمي إلى المذهب المناوية والذي يحتل المرتبة الثالثة، قال بشأن مؤلفي الأناجيل:

«الجميع يعلم بأن الأناجيل لم تُكتب لا من قبل عيسى عليه السلام، ولا من قبل حواريه، وإنما كُتبت من قبل أشخاص مجهولين جاؤوا بعد عيسى عليه السلام والحواريين بزمن طويل، ولأن هؤلاء الأشخاص قد علموا بأن الناس لن تصدقهم بشأن أشياء لم يروها بأنفسهم، فقد نسبوا بداية كلامهم إلى الحواريين، أو إلى أسماء أشخاص كانوا قريبين من الحواريين».

وأما الإنجيل المقدس الحقيقي الذي أُنزل على عيسى عليه السلام والذي لم يعد له وجود الآن، فإنه ليس كما هو وارد في الأناجيل المتداولة اليوم، وإنما كان كتاب هداية وموعظة للمتقين. ويبين الله عز وجل ذلك في كتابه الكريم:

﴿وَقَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِمْ بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ﴾ [١٥٨٤]

١٥٨٤. المائدة: ٤٦.

ويبين الله ﷻ أن أهل الكتاب الذين فسد دينهم، إذا ما اتبعوا الإسلام خاتم الأديان، والتزموا بأوامر الله فإنه سوف يغفر لهم سيئاتهم وذنوبهم، حيث يقول في كتابه العزيز:

﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾ [١٥٨٥]

❁

وكما ذكرنا من قبل فإنه بالإضافة إلى الأناجيل الأربعة المتداولة حالياً هناك إنجيل آخر مشهور، وهو «**إنجيل برنابا**». وبرنابا هو من أصحاب عيسى عليه السلام المقربين، ويدين بعقيدة التوحيد. ولذلك فقد حدثت مشاكل وصراعات كبيرة بين البرنابيين الذين تمسكوا بعقيد التوحيد ودافعوا عنها بقوة، وبين البولسيين الذين انحرفوا عن عقيدة التوحيد واعتنقوا عقيدة التثليث.

إن إنجيل برنابا الذي يفترق عن الأناجيل الأخرى، فإنه يتميز عنها بالفروقات الرئيسية الآتية:

١. إن عيسى عليه السلام في إنجيل برنابا ليس إلهاً، ولا ابناً للإله. وإنما هو نبي من أنبياء الله الذي أرسله إلى الناس.
٢. إن ابن إبراهيم عليه السلام الذي أراد التضحية به في سبيل الله تعالى هو إسماعيل عليه السلام، وليس إسحاق عليه السلام.
٣. إن عيسى عليه السلام لم يُصلب.
٤. إن المسيح المنتظر هو سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام.

التناقضات التي في الأناجيل الأربعة:

قبل الخوض في هذا الموضوع لا بد أن نذكِر هنا بأن الدين الوحيد على وجه الأرض الذي يُقر بأن عيسى عليه السلام الذي يُعتبر أساس العقيدة المسيحية قد وُلد من فتاةٍ بكر تتمتع بعفة وشرف منقطع النظير من غير أب، هو الدين الإسلامي. وقد كان نبي الإسلام سيدنا محمد ﷺ يعلم أصحابه الكرام بأن عيسى عليه السلام من كبار الأنبياء الذي أرسله الله تعالى ليخرج الناس من ظلمات الضلالة والجهل إلى نور الهداية والإيمان.

١٥٨٥. المائدة: ٦٥.

ولم يتعرض الإسلام في أي عصر من العصور للدين المسيحي الحق الذي بُعث به عيسى عليه وبلغه للناس بأي سوء أو تجريح، وإنما على العكس من ذلك فقد أوجب على المسلمين ضرورة الإيمان بنبوة عيسى عليه السلام والإنجيل الذي أُنزل عليه وإظهار بالغ الاحترام والتبجيل لمريم العذراء أمّ عيسى عليه السلام، ولكن هذا التبجيل، والتقديس والإيمان موجه إلى الدين الأصلي الذي جاء به عيسى عليه السلام، والذي لم يدخله التحريف والتغيير.

وبعد هذا التذكير القصير سوف نخوض في تقييم الأناجيل المتداولة في أيامنا هذه والتي فُقدت هويتها الأصلية:

ليس هناك اتفاق حتى بين اثنين من المؤلفين على تاريخ كتابة الأناجيل الأربعة التي لم يرها عيسى عليه السلام، ولم يأمر بكتابتها، ولهذا السبب فإنه لا يخفى على أحد الأخطاء الكثيرة، والتحريفات، والتناقضات الموجودة في هذه الأناجيل، إن التدخلات والكتابات البشرية التي وكأنها قد صفت الأناجيل من طبيعتها العلوية غير قابلة للفهم، ومليئة بالمعلومات المتضاربة مع بعضها البعض.

وإن من أهم هذه المعلومات هي:

* يتم تبيين ونقل الحوادث نفسها في مختلف الأناجيل، وأحياناً في الإنجيل الواحد نفسه بشكلين أو ثلاثة أشكال أو أكثر من ذلك وبطريقة مليئة بالتناقضات، ومن الثابت والمحقق أن الله سبحانه وتعالى لا يبين الأمور للناس بصورة مناقضة للحقيقة.

* في حين أن إنجيل مرقس وإنجيل يوحنا لا يبحثان في نسب عيسى عليه السلام، نجد أن إنجيل متى وإنجيل لوقا يقدمان سجلاً لنسبه. وبينما يعدد إنجيل متى أربعين شخصاً يصل من خلالهم عيسى عليه السلام بنسبه إلى إبراهيم عليه السلام، نجد أن إنجيل لوقا يذكر خمسة وخمسين شخصاً في هذا النسب. إضافة إلى أن إنجيل لوقا يضيف عشرين شخصاً ليصل بنسبه إلى آدم عليه السلام، فيكون العدد خمسة وسبعون شخصاً، بينما لا يقدم إنجيل متى أية معلومات تتعلق بنسب عيسى عليه السلام قبل إبراهيم عليه السلام.[١٥٨٦]

وإن عدد الأربعين شخصاً في نسب عيسى عليه السلام إلى إبراهيم عليه السلام المذكورين في متى غير ناشئ عن نسيان الخمسة عشر رجلاً المذكورين في لوقا، إذ أنه عند دراسة الأسماء

١٥٨٦. متى، ١/ ١٧؛ لوقا، ٣/ ٢٣- ٣٨.

نجد وبشكل واضح للعيان أن كلها أسماء غير متشابهة وحتى الأسماء المتشابهة مع بعضها أيضاً موجودة في أماكن مختلفة من سلسلة النسب.

إن هذه التناقضات التي لا تُقبل حتى في الكتب البشرية هي نواقص جدية في الأناجيل، فلا نعلم كيف نقيّم قبول الإنسان اليوم بكتب لا دليل عليها، ولا سند لها، ومليئة بالتناقضات ومن ثم الإيمان بها، بينما كان يطلب أدلة ومعجزات للإيمان بالأنبياء وكتبهم على الرغم من أنه كان يرى هؤلاء الأنبياء بأمّ عينه، ويسمع ويشهد على الكتب التي يتلونها؟

* بحسب إنجيل متى فإن يحيى عليه السلام هو "إيليا" [١٥٨٧]، بينما يبين إنجيل يوحنا بأنه ليس "إيليا" [١٥٨٨]

* هناك عبارات مختلفة حول ما إذا كان يحيى يعرف عيسى، أم لا يعرفه. وأما فيما يتعلق بمقتل يحيى فإننا نجد أن إنجيل متى وإنجيل مرقس يستفيضان بالكلام حول هذا الموضوع، في حين نرى أن إنجيل يوحنا يقتصر على جملة أو جملة بشأن هذا الأمر. [١٥٨٩]

* يوجد الكثير من العبارات البعيدة عن بعضها البعض والمتضاربة بين تلك الموجودة في إنجيل يوحنا وبين ما هو موجود في غيره من الأناجيل الأخرى والتي تتعلق بلقاء عيسى عليه مع حوارييه واتخاذهم إلى جانبه. [١٥٩٠]

* هنالك معلومات متضاربة في الأناجيل حول بلاد وقوم المرأة التي طلبت من عيسى العون والمساعدة من أجل إشفاء ابنتها التي تلبّسها المرض خلال مجيء عيسى إلى منطقة صور وصيدا، فحسب إنجيل متى إن تلك المرأة كانت كنعانية.[١٥٩١] وأما حسب إنجيل مرقس فإن المرأة كانت يونانية. [١٥٩٢] إن هذا التضارب بين هذه الكتب التي يُدعى زوراً بأنها كتب إلهية يثير العجب والاستغراب حقاً، فإن كان حتى إنسان عادي

١٥٨٧. متى، ١١/ ٤.
١٥٨٨. يوحنا، ١/ ٢١.
١٥٨٩. يوحنا، ١٩/ ٢٨- ٣٠؛ متى، ٢٧/ ٣٢- ٥٦؛ مرقس، ١٥/ ٣٣- ٤١ .
١٥٩٠. لوقا، ٥/ ١- ١٧؛ يوحنا، ١/ ٣٥- ٥١؛ متى، ٤/ ١٨- ٢٢.
١٥٩١. متى، ١٥/ ٢١- ٢٢.
١٥٩٢. مرقس، ٧/ ٢٦.

لا يمكن أن يلتبس عليه مكان ولادته، فهل من الممكن أن يلتبس على الخالق المنزه عن كل صفات النقص مكان ولادة أو خلق أحد من مخلوقاته؟ بالتأكيد لا، وحاش لله!

وهذه الحالة تبين أن الأناجيل قد كتبت من قبل أشخاص منفصلين لا يمتّ أحدهم بصلةٍ للآخر ، أو خبر، وقد ألف كل واحد منهم إنجيله بحسب مستوى ثقافته وعلمه، ووفق ما تمليه عليه أهواؤه النفسية وميوله الشخصية، ولذلك فهي مليئة بالاختلافات والتناقضات الحادة.

* على الرغم من الأناجيل تذكر عيسى عليه السلام بإسناد صفة الألوهية إليه، إلا قد أنه ورد ذكر عيسى عليه السلام في كثير من الأماكن على أنه «ابن آدم» و «عبد الرب» [١٥٩٣]. فكيف يمكن أن نفسر حالة شخص هو ابن الله، وفي نفس الوقت ابن لإنسان؟ وحتى لو اعتبرنا في هذه الحالة أن الإنسان = الله، فإن هذه الفكرة تستحيل مناقشتها أو تصورها. وذلك لأن الله هو الخالق، وأما الإنسان فهو مخلوق.

ولذلك فإن المسيحين الذين يدركون هذه الحالة يرون بأن تفسير عبارة ابن «الله» الواردة في الأناجيل هو أن الله تعالى قد حل بعيسى عليه السلام، ودخل في جسده واستقر فيه، وقد تجلى للناس من خلال جسد عيسى، ولهذا السبب فإنهم بجهالة مطبقة يدعون بأن عيسى عليه السلام قد تأله. إن قبول مثل هذا الأمر لا يليق البتة بالخالق عز وجل المنزه عن كل صفات المخلوقات، وبألوهيته التي فوق كل شيء.

ويستخدم تعبير «ابن الله» في الأناجيل للدلالة على المسيحيين الآخرين أيضاً، حيث يقول عيسى عليه السلام في الإنجيل لحواريه:

«وأما أنا فأقول لكم: أحبوا أعداءكم، باركوا لاعنيكم، أحسنوا إلى مبغضيكم، وصلوا لأجل الذين يسيئون إليكم ويطردونكم؛ لكي تكونوا **أبناء أبيكم** الذي في السماوات...!» [١٥٩٤]

وكذلك يُروى أن عيسى عليه السلام قال:

١٥٩٣. متى، ١٢/ ١٧- ١٨؛ أعمال الرسل، ٣/ ١٣، ٤/ ٢٧- ٢٨.
١٥٩٤. متى، ٥/ ٤٤- ٤٥، ٦/ ١؛ لوقا، ٦/ ٣٥.

«طوبى لصانعي السلام، لأنهم **أبناء الله** يُدعون» [١٥٩٥]

إن العقيدة الباطلة للثقافة المسيحية التي تنعكس من تعبير «الله هو البابا» واضحة للغاية إلى درجة أنها تمزق أغشية التأويل الذي يجري بحقها بهدف إخفائها عن الأبصار. ومن جهة أخرى، فإن المسيحيين يعتبرون هذه العبارة سبباً لعلو شأنهم على الناس الآخرين. ولكن الله ﷻ يرد على سلوكهم هذا في كتابه العزيز بقوله:

﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ [١٥٩٦]

❁

وتمتد التناقضات الواردة في الإنجيل إلى أمور أخرى:

* لقد ذكرت الأناجيل الأربعة الأحداث التي وقعت ليلة القبض على عيسى عليه السلام بشكل مفصل، ولكن البيان الذي ورد في هذا الشأن في كل إنجيل يختلف عما ورد في الأناجيل الأخرى، بحيث تظهر الاختلافات فيما بينها إلى درجة التناقض والتضارب. [١٥٩٧]

* إن زوج السيدة مريم العذراء يوسف بحسب إنجيل لوقا هو ابن هالي، ووفق إنجيل متى هو ابن يعقوب. [١٥٩٨]

* يتبين من أناجيل متى، ومرقس، ولوقا أن سيدنا عيسى عليه السلام تم تعميده من قبل يحيى عليه السلام، في حين لم يرد في إنجيل يوحنا أي ذكر للتعميد. [١٥٩٩]

* وفق أناجيل متى، ومرقس، ولوقا فإن مملكة عيسى عليه السلام الأصلية هي الجليل، بينما يذكر إنجيل يوحنا أن مملكته هي اليهودية. [١٦٠٠]

١٥٩٥. متى، ٥/ ٩.

١٥٩٦. المائدة: ١٨.

١٥٩٧. متى، ٢٦/ ٤٧- ٥٦؛ مرقس، ١٤/ ١٣- ٥٢، ٢٢/ ٤٧- ٥٣.

١٥٩٨. لوقا، ٣/ ٢٣؛ متى، ١/ ١٦.

١٥٩٩. متى، ٣/ ١٧؛ مرقس، ١/ ٩- ١٢؛ لوقا، ٣/ ٢١- ٢٢.

١٦٠٠. متى، ١٣/ ٥٤- ٥٨؛ مرقس، ٦/ ٤؛ لوقا، ٦/ ٢٩؛ يوحنا، ٤/ ٣، ٤٣، ٤٥.

* يبين إنجيل متى، وإنجيل مرقس أن مهمة عيسى عليه السلام قد بدأت بعد إلقاء يحيى عليه السلام في السجن، بينما يذكر إنجيل يوحنا أن مهمته بدأت قبل سجن يحيى عليه السلام.[١٦٠١]

* إن وجود معلومات متناقضة بدرجة كبيرة في الأناجيل والتي تتعلق بحادثة إلقاء القبض على عيسى عليه السلام، ومحاكمته، وتعليقه على الصليب، ودفنه، وقيامته حياً من المقبرة ولقائه مع تلاميذه، ومن ثم صعوده إلى السماء؛ يؤكد أن ذلك لا يمكن أن يكون من شأن كتاب إلهي.[١٦٠٢]

* ومن ناحية أخرى فإن العبارة التي وردت على لسان عيسى عليه السلام عندما اقتيد إلى الصليب حسبما جاء في إنجيل متى، وإنجيل مرقس:

* إلهي، إلهي لماذا تركتني؟[١٦٠٣]، لا يمكن أن تكون من كلام نبي، لأن مثل هذه العبارة تظهر سلوكاً اعتراضياً على الإله ﷻ. وهذا ليس من شأن الأنبياء عليهم السلام.

* إن عيسى عليه السلام وفق إنجيل متى عندما وصل إلى بلاد «الجَدَريين» التقى بشخص تلبّسه جان، ومجنونين، وأما بحسب ما جاء في إنجيل مرقس، وإنجيل لوقا فإنه التقى بمجنون.[١٦٠٤]

* وفيما يتعلق بطلب اليهود من عيسى عليه السلام دليل نبي الله يونس عليه السلام يذكر إنجيل مرقس أن عيسى عليه السلام يخبر القوم:

«لن يُعطى هذا الجيل آية، بينما ورد في إنجيل متى: أنهم سوف يُعطون هذا الدليل أو الآية»[١٦٠٥]

فهذا هو الدين المسيحي اليوم! دين يتلاطم بين أمواج المعلومات المختلفة والمتضاربة، كما تأرجح بين آراء المؤرخين المختلفة!..

١٦٠١ متى، ٤/ ١٢- ١٧؛ مرقس، ١/ ١٤- ١٥؛ يوحنا، ٣/ ٢٢- ٢٦، ٤/ ١- ٣.

١٦٠٢ متى، ٢٧- ٢٨؛ مرقس، ١٥- ١٦؛ لوقا، ٢٣- ٢٤؛ يوحنا، ١٩- ٢٠.

١٦٠٣. متى، ٢٧/ ٤٦؛ مرقس، ١٥/ ٣٤.

١٦٠٤. متى، ٢/ ٢٨؛ مرقس، ٥/ ١- ٢؛ لوقا، ٨/ ٢٧- ٢٩.

١٦٠٥. متى، ١٢/ ٣٨- ٤١؛ مرقس، ٨/ ١١- ١٢.

سبب صلب سيدنا عليه السلام وفق رأي المسيحيين:

بحسب رأي المسيحيين أن آدم عليه السلام وأمنا حواء قد اقترفا الذنب الإنساني بأكلهما من فاكهة الشجرة المحرمة عندما كانا في الجنة.[١٦٠٦] ولهذا السبب فقد حكم الله ﷻ بحرق كل البشر الذين سوف يولدون من نسلهما في نار جهنم، إلا أن عيسى عليه السلام قد تألّم قلبه كثيراً لحال الإنسانية، ولأجل ذلك تحمّل كفارة وزر الناس جميعاً بتعليقه على الصليب، وفدى بنفسه في سبيل الإنسانية جمعاء. وبذلك فقد تخلّص الناس من الذنب الذي توارثوه من آدم وحواء. [١٦٠٧]

وقد بين الله تعالى في القرآن الكريم بطلان هذا الأمر، وعدم وقوعه، حيث يقول الله تبارك وتعالى:

﴿وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا. وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا﴾ [١٦٠٨]

﴿بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [١٦٠٩]

فعلى الرغم أن هذه هي الحقيقة الناصعة التي بينها القرآن الكريم، نقول أيضاً ما أغرب هذه العقيدة حيث أن الله ﷻ من أجل أن يهدئ غضبه وسخطه يقرر قتل ابنه بسبب فاكهة أكلها جده، فيتحمل الإنسان بذلك جريرة ووزر غيره الذي أكل فاكهة بأن يُقتل! إن الادعاء بوجود مثل هذه العقيدة في دين أنزله الله تعالى الذي بين لنا بأنه لا يتحمّل العبد وزر عبد آخر، ولا يمكن لعبد أن يُحَمّل ذنبه لغيره؛ وهذا ليس إلا دليلاً على تحريف ذلك الدين وبطلانه، وعندما يدعو المسيحيون اليوم الناس إلى دينهم، فإنهم يعملون على تجميل هذا الدين الذي أُفسد أصله تماماً وجعله جذاباً للنفس من

١٦٠٦. التكوين، ٣/ ٢٤.
١٦٠٧. رسالة بولس الرسول إلى أهل رومية، ٣/ ٢٣- ٢٦.
١٦٠٨. النساء: ١٥٦- ١٥٧.
١٦٠٩. النساء،: ١٥٨.

خلال قولهم بأن عيسى عليه السلام قد افتدى بنفسه في سبيل البشرية جمعاء، وتحمّل عنهم أوزارهم كلها مستغلين غفلة الناس وضعف أنفسهم.

إلا أنه ينبغي التفكير والتساؤل هنا، أنهم بينما يعتبرون أن أكل فاكهة محظورة ذنباً إنسانياً عظيماً، فكيف يقبلون على أنفسهم الانغماس في مظالم عظيمة لا تليق بالكرامة والشرف الإنساني، وإغراق أنفسهم في المنكرات، والمعاصي، والإنكار، والرذائل التي يأبى الإنسان السوي التلفظ بها بلسانه، ومن ثم يجيزون كل ذلك لأنفسهم؟!.. وإن بقاء المسيحين في موقف المتفرج حيال المجازر البشعة التي حصلت على مرّ التاريخ ومن بينها الإبادة الجماعية التي حصلت مؤخراً في بوسنة وأشباهها، وإنّ تجاوز المؤسسات البابوية والبطارقة هذه الجرائم المنكرة بصمت، هل يأتلف هذا السلوك مع موقف من يدعون أنهم من أتباع نبي الرحمة والسلام عيسى عليه السلام؟ وهل لا يذنب هؤلاء، ولا يرتكبون جرماً ومعصية عندما يبقرون بطون النساء الحوامل فقط لأنهن لسن من أتباع ديانتهم، ويريقون دماء أطفالهن البرآء الطاهرة بوحشية منقطعة النظير؟

إن عيسى عليه السلام أحد أنبياء الله الأجلاء الذي أحرز المقام العالي والبارز بين الناس، والمرسل من أجل تعليم الإنسانية الأخلاق الحميدة، ومقبول من عند الله تعالى في كل شيء. ولذلك فإنه يستحيل حتى مجرد التفكير ـ بغض النظر عن الاعتقاد ـ بأن هذا الرسول الذي اختاره الله تعالى وأحبه، وجعله من أولي العزم قد سيق ـ بسبب ذنب اقترفه جده ـ إلى التعليق على الصليب ليذوق أشد العذاب، ويتعرض لأبشع أنواع التنكيل، عدا عن أن هذا الأمر جهالة بحق الخالق عز وجل، وإسناد للظلم إليه بشكل منكر، وخارج عن واجب الخضوع والإذعان للمولى عز وجل. على أية حال فإن الله سبحانه وتعالى قد وعد أنبياءه عليهم السلام بمراتب سامية ومشرفة كثيرة، وأعد لهم إحساناً، ومكرمات، ومقامات عالية، وبقي أن نقول، إن عيسى عليه السلام الذي أُسندت إليه الألوهية، لو كان هو الله كما يدعون، فهل يُعقل أن يكون الله ضعيفاً إلى درجة يقف فيها عاجزاً بين أيدي بضعة من البشر يقودونه إلى التعليق على الصليب؟

ومن جهة أخرى، فإننا لو نظرنا إلى حكم الله تعالى وبيانه في هذه المسألة التي يدعون فيها بأن عيسى عليه السلام قد تحمّل جزاء غيره، تستبين لنا الحقيقة جلية ناصعة لا مرية فيها، حيث يقول الله عز وجل:

﴿مَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولا﴾ [١٦١٠]

إن الآية الكريمة تبين بأنه حتى الإنسان المذنب لا يمكن أن يُحمل ذنوب غيره، وبالتالي فإن الادعاء بأن بتحمل إنسان بريء ذنوب غيره من البشر مجاف للحقيقة الإلهية، وإن هذا الادعاء مناقض حتى للمنطق الإنساني! فمن يمكن له أن يقبل بتحمّل مسؤولية ذنب يقترفه غيره ولا علاقة له به؟

❁

إذا أمعنا النظر في حقيقة مسألة اقتراب سيدنا آدم عليه السلام من الفاكهة المحظورة في الجنة؛ نجد أن ذلك كان بالنسبة له ذلة لا أكثر، أي مجرد خطأ لاإرادي. ومن وجهة جانب آخر فإن ذلك قد حصل بموجب الإرادة الإلهية. وذلك لأن الإرادة الإلهية قد اقتضت إنزال سيدنا آدم عليه السلام وأمنا حواء إلى الأرض التي خُلقت من أجل الإنسان، واستمرار نسله بالتكاثر والبقاء فيها إلى يوم القيامة؛ ومن ثم، فمن تعهد نفسه بالتزكية والتطهير، وسما بروحه بالقرب من الله سبحانه وتعالى فإنه سوف يعود إلى الجنة التي خرج منها سيدنا آدم عليه السلام، وأما من اتبع أهواءه نفسه ورغباتها فإنه يكون صاحباً للشيطان ويدخل نار جهنم. ويوضح لنا النبي ﷺ هذه الإرادة الإلهية، حيث يقول:

«احتج آدم وموسى، فقال له موسى: يا آدم أنت أبونا خيبتنا وأخرجتنا من الجنة، قال له آدم: يا موسى اصطفاك الله بكلامه، وخط لك بيده، أتلومني على أمر قدره الله علي قبل أن يخلقني بأربعين سنة؟ فحج آدم موسى، فحج آدم موسى» [١٦١١]

ومن جهة أخرى، فإن آدم عليه السلام وأمنا حواء لما اقترفا الذنب قالا كما ينقل لنا الله تعالى كلامهما في القرآن الكريم:

﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [١٦١٢]

وانشغلا بالتوبة والاستغفار لربهما ﷻ، وفي النهاية نالا العفو الإلهي، وأُسبغت عليهما نعمه الكثيرة.

١٦١٠. الإسراء: ١٥.

١٦١١. البخاري، القدر، ١١/ ٦٦١٤؛ مسلم، القدر، ١٣/ ٠٢٦٥٢.

١٦١٢. الأعراف: ٢٣.

وعلاوة على تنقية آدم عليه السلام من أثر الذنب الذي اقترفه بالمغفرة التي تفضل الله تعالى بها عليه، فإنه تشرف بأكثر المقامات قرباً من الله تعالى والذي لا يناله المرء بكسب يده وإنما بلطف الله تعالى وفضله ألا وهو مرتبة النبوة.

وخلاصة القول، إذا كان الذنب الذي لم يُغفر بعد، لا يمكن تسلسله وتعديه إلى غير مرتكبه، فمن باب أولى ألا يتسلسل الذنب المغفور إلى الغير! حتى إن الذنوب التي تصبح مظهراً للعفو بعد التوبة الصادقة المخلصة، فإنها تُبدل إلى ثواب، وحسنات بلطف الله تعالى وفضله. حيث قال الله عز وجل في كتابه العزيز:

﴿إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [١٦١٣]

❁

إن كل الكتب السماوية الإلهية التي أرسلها الله تعالى من عنده إلى عباده تحمل صفة "المبين". وإن القرآن الكريم الذي يُعد آخر هذه الكتب وخاتمها يبرز هذه الصفة بشكل واضح، وتتكرر فيه كلمة "المبين" بكثرة التنبه إلى هذه الحقيقة، وتؤكدها بشكل صريح، إلا أننا لا يمكن أن نعثر على ما يشير إلى هذه الخاصية في الأناجيل التي حرفت وشكلت سبباً لنزول القرآن الكريم.

إن التناقضات الموجودة في الأناجيل تعطينا معلومات أكثر مما نقدمه بخصوص ما إذا كانت هذه الأناجيل حصيلة الوحي أم لا. لأن كل صاحب عقل سليم يدرك بأن الله تعالى القادر على كل شيء، والمنزه عن كل نقص يستحيل أن يرسل إلى عباده كتاباً إلهياً متناقضاً إلى هذه الدرجة، ومليئاً بكثير من النواقص والمغالطات، لأنه سبحانه وتعالى فوق كل نقص.

الحقيقة أن المسيحية التي حُرفت بسرعة بعد رفع عيسى عليه السلام إلى السماء قد فقدت صفتها الأصلية كدين حق خلال فترة قصيرة، وأُحيطت بطبيعة وثنية.

وقد طُبقت فكرة «بطل الشعب المصلوب» التي كانت سائدة في الثقافة الوثنية على عيسى عليه السلام بالذات، وجُعل الصليب المتعلق بهذه الحادثة رمزاً للقدسية، لأن الصليب كان موجوداً في الثقافة الأوروبية قبل المسيحية.

١٦١٣. الفرقان: ٧٠.

في العصور الأولى للمسيحية لم يكن يُحتفل باليوم الأول من شهر كانون الثاني كبداية لرأس السنة، وإنما أثرت احتفالات رأس السنة التي كان يقوم بها الوثنيون في الفترة الواقعة بين / ٢٤ كانون الأول و ٦ كانون الثاني / والتي كانت تضمّ أياماً مختلفة، أثرت في المسيحيين فتمّ الادعاء بأن الأول من كانون الثاني يصادف ميلاد عيسى عليه السلام، وشكّلوا تقويماً جديداً، وبدأوا بالاحتفال بهذا اليوم كعيد للميلاد.

وقد كان الهدف الأول والوحيد للأباطرة والملوك الرومانيين، واليونانيين القدماء أن يتم تأليههم بعد الموت، وطُبق هذا المفهوم بحق عيسى عليه السلام، وتم إظهاره في الأناجيل وكأنه بطل أسطوري متأله.

باختصار، إن كلام الله تعالى في الأناجيل قد تداخل بشكل معقد مع كلام البشر والأفكار الباطلة.

لقد أفسد اليهود الماديون عقيدة التوحيد التي جاء به عيسى عليه السلام منذ الأزمنة الأولى، إن هذا السلوك طبيعي بالنسبة إلى اليهود الذين اعتادوا منذ القدم على هذه التصرفات من تحميل أنبيائهم أقوالاً وأفعالاً زوراً وبهتاناً بما يسهّل عليهم حياتهم، ويحقق لهم منافعهم ومصالحهم الخاصة، وتلبي أهواءهم ورغباتهم النفسية.

❁

ولا ينبغي أن ننسى بأنه كما أن التوراة التي أنزلت على سيدنا موسى عليه السلام كانت سراجاً منيراً يضيء طريق الهداية، فإن هذا الحكم ذاته يسري على الإنجيل الذي أنزل على عيسى عليه السلام، والقرآن الكريم الذي أنزل على سيدنا محمد ﷺ فهما مرشدان إلى الهداية في الزمن الذي أُنزلا فيه، ومن المؤكد هنا، أن الذي يضع حكماً «قانوناً» يسري على نفس الأمر في الأزمنة المختلفة والمتعاقبة، وأما إذا نُسخ الحكم القديم بحكم جديد فلا شك في هذه الحالة أن الحكم الأخير هو الذي يسري، فلو أنه في عهد موسى عليه السلام لم يُعمل بالتشريع الذي أُنزل على موسى عليه السلام، وإنما اتُبع التشريع الذي أُنزل على سيدنا إبراهيم عليه السلام، فإن ذلك لا يُعد طاعة لله تعالى، بل على العكس هو عصيان لله سبحانه وتعالى. ولأن إرادة الله تعالى تعلقت بجعل الإسلام خاتمة الأديان، وإبقاء حكمه سارياً إلى يوم القيامة، لذلك فإن الكتاب الإلهي الوحيد الذي بقي حكمه جارياً حتى اليوم وسوف يبقى إلى يوم القيامة هو القرآن الكريم.

إن المصدر والمنبع الأصلي والوحيد لكل الكتب السماوية الإلهية هو الله تعالى. وقد بُعث جميع الأنبياء والرسل لغاية واحدة، فآمنوا بالأنبياء الذين أُرسلوا من قبلهم وصدقوهم، وبشروا بالأنبياء الذين سوف يُبعثون من بعدهم، وقد صدَق نبينا محمد ﷺ وأيّد الرسل والأنبياء المرسلين من قبله، إلا أنه بلغ الناس بأن الإسلام هو آخر الأديان، وأنه خاتم الرسل والأنبياء، وأن القرآن الكريم هو خاتم الكتب السماوية.

يقول رسول الله عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم:

«أنا أولى الناس بعيسى ابن مريم في الدنيا والآخرة، والأنبياء إخوة لعلات، أمهاتهم شتى ودينهم واحد»[١٦١٤]

❁

لقد عاش عيسى عليه السلام حياة ملؤها الزهد والتقشّف على عكس الكنيسة اليوم، وقد كانت علامته الفارقة تزكية النفس وتصفية القلب؛ أي أنه كان في حالة من الابتعاد والتخلي التام عن الرغبات والأهواء النفسية، والتوجه نحو حياة روحانية، والتمسك بالأخلاق الحميدة، والتحلي بمشاعر الرحمة والأخوة.

وقد نزل الوحي الإلهي على عيسى عليه السلام بشأن واحد من أهم وأبرز دساتير التصوف وهو "الحب في الله، والبغض في الله" بهذه الصورة:

«إن عبدتني بمقدار عبادة من في السماوات والأرض، ولم يكن في قلبك صداقة لأجلي وعداوة لأجلي، فلن ينفعك كل عبادتك!».

إن كمال كل عبادتنا وحركاتنا بمثابة عمقنا الروحي. أي ينبغي أن يكون حبنا من أجل الله تعالى، وبغضنا أيضاً من أجل الله تعالى.

اللهم أرنا الحق حقاً وارزقنا اتباعه، وأرنا الباطل باطلاً وارزقنا اجتنابه، واجعلنا من عبادك الصالحين الذين يتقلبون بالنعم التي في بساتين رضاك!

آمين!..

١٦١٤. البخاري، أحاديث الأنبياء، ٧٨/ ٣٤٤٣؛ مسلم، الفضائل، ١٤٣-١٤٥/ ٢٣٦٥.

الغربة:

إن طريق التصوف بشكل عام هو طريق الغربة، لأن نتيجة هذا الطريق هي تولُّدُ الوحشة والغربة تجاه الناس، والقرب من الله ﷻ.

وهكذا فقد رأى كل من زكريا عليه السلام، وابنه يحيى عليه السلام، وابن خالة يحيى عيسى عليه السلام مظاهر مختلفة من الغربة، فعلى الرغم من أن هؤلاء الأنبياء الثلاثة كانوا في وطنهم وبين قومهم وجماعتهم إلا أنهم عايشوا غربة صعبة للغاية، إذ أن قليلاً من الناس المحيطين بهم آمنوا بهم وصدقوهم خلال دعوتهم إلى سبيل الهدى والرشاد، وفي نهاية الأمر استُشهد اثنان منهم على أيدي القوم، وأما الثالث فقد أريد قتله بإصرار وتصميم إلا أن رعاية الله تعالى أدركته، فنجى منهم ورُفع إلى السماء، إلا أن هؤلاء الأنبياء الثلاثة كانوا يعيشون في غربتهم هذه حياة تضحية وإخلاص لله تعالى إلى أن كانت النتيجة تكريم الله ﷻ لسيدنا زكريا ويحيى بشرف الشهادة، وتكريم سيدنا عيسى عليه السلام برفعه إلى السلام، وقوله لهم «سلام عليكم».

وقد ذُكر شعور الوحدة والغربة الذي أُسند إلى هؤلاء الأنبياء الثلاثة بصفة ملفتة للانتباه في الحديث الشريف، حيث يقول النبي ﷺ:

«**كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل**» [١٦١٥]

«... **فطوبى للغرباء**»[١٦١٦]

❁

التصوف ينمّي الميول السامية والرفيعة الموجودة في فطرة الإنسان عن طريق مهذب الكلام، والذكر، والرياضة الروحية، والإخلاص، ليخرج هوية "الإنسان الكامل" من الإنسان الفطري الخام، ولأن استعدادات الناس وقدراتهم العقلية والنفسية مختلفة ومتفاوتة فيما بينها، لذلك فإن تعريف الناس واطلاعهم على أسرار الحوادث والأشياء

١٦١٥. البخاري، الرقاق، ٣/ ٦٤١٦؛ الترمذي، الزهد، ٢٥/ ٢٣٣٣.

١٦١٦. مسلم، الإيمان، ٢٣٢/ ١٤٥.

باستخدام مناهج وطرق التصوف لا يعطي النتيجة ذاتها مع كل فرد. إلا أنه يظهر قدر مشترك في بعض الميول ـ حتى مع وجود الفروقات الفردية بينهم ـ بين كل الناس. ومن أحد هذه الميول التي يشترك فيها جميع الناس هو الحنين والميل نحو العودة إلى المكان الذي انحدر منه الإنسان، أي العودة إلى الموطن الأصلي.

ولهذا فإن من إحدى غايات التصوف هي الارتقاء بالإنسان من المشاعر الدونية إلى المشاعر العلوية عن طريق تحقيق الكمال بالذكر الدائم في استعداداته وميوله، ورغباته، وبحثه المتعلق بالعودة إلى إقليم الوصل واللقاء مع ربه الذي يتجلى في ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾. وإن سبيل الوصول إلى هذه الحالة التي تعبر عن كمال العبودية يبينها الله تعالى في الآية الكريمة، حيث يقول:

﴿...أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ [١٦١٧]

إن هذه الحالة هي إحدى الكيفيات التي تظهر بالشكل الأجمل في الإنسان الكامل. لأن الإنسان الكامل يكون قد وصل إلى سر الآية الكريمة التي تقول:

﴿الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ [١٦١٨]

إن الميل نحو العودة إلى الموطن الأصلي يصبح مصدراً للقلق والحسرة لدى الإنس والجن المجهزين بأعلى قدرات الإدراك من بين جميع الكائنات وذلك بقدر ما يُفلح هؤلاء بالوصول إلى المستوى الأعلى لهذا الميل والإدراك، وعند ذلك فإن كل عبد صاحب إدراك سليم يُحس بنفسه في غربة دائمة مع كل شهيق وزفير.

في الحقيقة إن الغربة تعرض مظاهر متنوعة من الصفحات المختلفة التي مرت بها الكائنات اعتباراً من منشئها الأول مروراً بالمكان الذي استقرت فيه. فمثلاً، بينما يكون الإنسان في البدء في عالم الأرواح، إلا أنه يفارق هذا العالم والمكان ليستقر بعده في عالم الرحم، ومن ثم ينتقل منه ليأتي إلى الدنيا، ويمكن أن يمر في الدنيا بأماكن مختلفة ومتنوعة، وثم يتجاوز هذه الدنيا ليهاجر إلى عالم البرزخ، وفي نهاية الأمر يعود إلى ربه سبحانه وتعالى.

١٦١٧. الرعد: ٢٨.

١٦١٨. البقرة: ١٥٦.

أجل، إن الغربة عندما نأخذ كل الكلام الذي ذكرناه بعين الاعتبار والدقة هي عبارة عن مراحل، وحسرات، ودرجات، ويمكن تنحية هذه الغربة جانباً، وتجاوز كل المراحل التي تفصل الإنسان عن الموطن الأول بالعودة إلى ربه سبحانه وتعالى. وبناء على هذه الحالة، فإن الذي يزيح الحسرة العميقة والمتجذرة لهذه الغربة التي تولد القلق والاضطراب في الروح هو الوصل مع الله تعالى. وإن المعاني العميقة لهذه الغربة تبقى في الحقيقة في طيات اللاشعور من أعماق أولئك الناس العاديين المضطربين بسبب مفارقة منازلهم وديارهم والذين لم يدركوا هذه الحسرة العميقة والاضطراب الروحي. ولا يفهم اضطراب الروح هذا بشكل لائق إلا أولياء الله الصالحين أصحاب الإدراك العلوي السامي الذين يتبرؤون من هموم المراحل الفاصلة ويعيشون حياة مليئة بالشوق إلى الوصال الإلهي.

ولهذا السبب فإن جنيد البغدادي يعرف التصوف بأنه:

«هو أن يميتك الحق عنك، ويحييك به»

وإن أجمل مظهر لهذه الحالة يتحقق بوصول العبد إلى سر الصحبة مع ربه، والمداومة على ذكره بمشاعر فياضة من المحبة.

فالذكر ليس مجرد ترديد لفظ الجلالة باللسان، وإنما هو الشعور باحتلال الله تعالى كل مكان في القلب عن طريق إدراك ذات الله تعالى وإحاطة التجليات الإلهية على كيان العبد كله. وبمداومة الذكر يتوصل العبد إلى مرحلة تتوحد فيها حقيقة الذكر مع غاية خلق الإنسان بحيث تعكس الذكر. إن حقيقة الذكر منزهة عن الحروف، والكلمات والأصوات.

ولأن جوهر القلب شيء رباني وإلهي، فإنه لأجل ذلك لطف منزه. وعندما تصبح هاتان الماهيتان بهذه الحالة المجردة عن المادة، فإنهما تصبحان شيئاً واحداً، وتتوحدان، لتصلا إلى التوحيد الحقيقي. يصل القلب هناك إلى التجرد والفراغ، حيث يمحى ويُزال منه كل شيء ما عدا مذكوره ومحبوبه وهو الله سبحانه وتعالى. لأن القلب في هذا المقام يصبح مركزاً لتجلي الأسماء الإلهية مثل عدسة المكبر التي تستجمع أشعة الشمس لتحرق كل ما تحته، فيحرق كل ما سواه، ويزيله. وهذه الحالة تُسمى بـ «الفناء».

في هذا المقام يخرج كل الفانين من القلب ليستقر فيه «الباقي»، وهو الاطمئنان؛ حيث يصل العبد فيه إلى السكينة والهدوء.

❁

والخلاص من غربة الدنيا والتلاقي مع الوصال هو الحقيقة التي جعلت من مولانا جلال الدين الرومي في مقام يشبه الموت وكأنه «شبيه العروس» أي العروس التي تأتي ليلة الزفاف.

إن من إحدى أهم خصائص أهل الله هي احتراقهم بالحسرة الكبيرة في هذه الدنيا التي هي ديار الغربة للحصول على الخلود الحقيقي. ويرى مولانا أن هذا التحرق والاكتواء بنار العشق الإلهي لا يسكن حتى بالموت، ويبين ذلك في البيت الذي قال فيه:

«افتحوا قبري بعد موتي لتروا الدخان الذي ينبعث من كفني بسبب النار المشتعلة داخلي!»

وقد سئل أحد العشاق الإلهيين وقد كان يتألق وجهه فرحاً وسروراً على الرغم من أنه على فراش الموت:

- كيف يمكنك الابتسام بينما أنت في لحظات الموت؟

فرد العاشق بالجواب الآتي:

- الآن تحول كل جسدي إلى شفةٍ وتبتسم! في هذه اللحظة تضحك شفتي بابتسامة أخرى!..

البروانة «نوع من الفراشات» تواقة للسراج، وبسبب توقها للسراج وارتباطها بالوهج الذي يحيط بالسراج لا يقال لها فراشة، وإنما يقال لها بروانة. فإذا ما أبصرت وهج السراج تقع في جاذبيته، وتنتفي إرادتها، وفي النهاية تصطدم بالسراج وتحرق بدنها، لتفنى في السراج، وتنال الوصل. ويقول مولانا:

«لا يمكن الوصول إلى لذة العشق والمحبة الإلهية من غير إحراق البدن!».

وهكذا فإن حلّاج المنصور نتيجة تعرضه لاختلاجات الروح العميقة اشتاق إلى الموت، فقال:

«إن بعثي، وحياتي، ووصلي يكمن في مماتي!»

إن الغربة وفق التجليات الداخلية هي:

- فراق عن الخالق.
- نار متقدة في القلب.
- اكتواء بالحسرة.
- وحدة.

لأن الإنسان تابع لرحلة إلهية. وقد بدأ الإنسان هذه الرحلة من ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ ومن ثم أُرسل إلى هذه الدنيا حيث ديار «الغربة». ودخلت الروح الحرة الطليقة في أسر الجسد، وأصبحت تحت حكم خمس حواس، ولأنها أصبحت في حالة فراق عن منشئها، ظهر فيها انجذاب وحسرة نحو العالم الذي جاءت منه، ويشتد اضطراب هذه الحسرة، ويزداد اشتياق العودة إلى المكان الذي جاءت منه بمقدار صفاء المشاعر، وهذا يعني أن الإنسان غريب دائماً، ويعيش حالة الغربة باستمرار.

وللغربة أنواع كثيرة:

وبعبارة عامة نقول هنا، إن للأنبياء والأولياء الصالحين في غربة هذه الدنيا غربة ثانية وهي اكتواؤهم بألم ونار فراق الأحبة والأصحاب، ولذلك فإن الفراق والهموم والغربة الشديدة التي قدرت لنبي الله يعقوب عليه السلام وابنه يوسف عليه السلام أراد الله تعالى لهم من خلال ذلك أن تزداد إنابتهم إليه أكثر! وهكذا فإنهم يتوجهون إليه بشكل دائم، ويكون حاضرين بقلوبهم وكيانهم مع الله، فتنقطع علاقاتهم عما سوى ربهم سبحانه وتعالى لينالوا عنده أعلى المراتب والدرجات!..

وبناءً على هذه الحكمة، فقد قُدرت الغربة على الأنبياء مدة من الزمن بعيداً عن أوطانهم، ليذوقوا مرارة وحسرات الغربة بجميع أشكالها وماهياتها.

ولهذا فقد أُذيق نبينا ﷺ الغربة في الطائف بأشد أشكال القسوة والمرارة. حيث رُجم بالحجارة من قبل سفهاء ومجانين الطائف حتى غرق جسده الشريف بالدم، ولكن بسبب رحمته الواسعة تجمّل بالصبر والرضا بكل توكل، وبدل أن يدعو على أهل الطائف الذين رجموه بالحجارة بالهلاك والبلاء، دعا لهم بالهداية والإيمان. وبعد هذا تجلت مكافأة الله ﷻ لعبده ونبيه عليه الصلاة والسلام ووصله له بحادثة «المعراج».

ومن أجل ذلك فإن الغربة هي معرض القلق والاضطراب، والألم. يقول مولانا الرومي في مثنويته التي تعتبر في مقام بحر الحكم:

«أصغي سمعك لما تحدث عنه الكون....إنه يشتكي إليك من آلام الفراق».

ومن جهة أخرى، فقد عانى آدم عليه السلام من القلق والاضطراب والحسرة، وذرف الدموع لسنوات طويلة بسبب فراقه الجنة المكان الذي بدأ حياته فيه كان في مناخ وصل ربه سبحانه وتعالى، وإرساله إلى غربة ووحشة الدنيا. لأن موطنه الأصلي هو في الجنة قرب إلهه. وهناك إحساس بهذه الغرب والوحشة في نسله أيضاً. ولدى التفكير بأنين البلبل الذي ينوح باكياً صارخاً حتى في أجمل الأقفاص الذهبية يقول: "وطني، وطني!" نفهم جيداً الحكمة من نواح وبكاء الإنسان الذي هبط من العالم العلوي السامي إلى المكان السفلي.

ويجري مولانا مقايسة بين الناي والإنسان، ويوضح لنا الأمر الآتي:

- يقول الناي: أنوح وأئن بألم يعتصر صميم قلبي منذ أن اقتلعتموني من أصلي القصب، فأبكى كل ما في الكون واغروقت أعينهم بالدموع.
- ليمزق الفراق صدري أشتاتاً، حتى أتمكن من التعبير عن آلام العشق!.
- فكل من يفارق أصله ويبتعد عن موطنه، يبقى أبد الدهر منتظراً لحظة الوصل واللقاء!
- أنا صاحب كل من يبكي في المجالس سواء كان من الصالحين أو من الفاسقين.
- كل أمرئ يلقي بالود إليّ حسب ظنه، ويريد تعلم أشياء من مجالستي وصحبتي.
- على الرغم أن نُواحي وأنيني يفشي سري، ولكن لا يوجد في كثير من القلوب نور يفهم هذا!.
- الروح والبدن ليسا مخفيين عن بعضهما، إلا أنه ليس من المسموح رؤية الروح.
- صار صدى الناي ناراً، فلا تظنن أنه نغمة فارغة! واحسرتاه على كل من ليس فيه هذه النار!.

ويقول مولانا أيضاً في إحدى رباعياته:

- اِستمع إلى الناي فإنه يقول الكثير؛ إنه يفشي أسرار الله المخبوءة المخفية. إنه يئن وينوح قائلاً من غير كلام ولا لسان «الله... الله...» على الرغم من وجهه المصفر، وداخله المفرغ، ورأسه المقطوع، أو على الرغم من تركه لنَفَسَ العازف.

لأن الناي قُطع عن القصب الناضج وفارقه؛ وفتحت ثقوب في صدره بكويه بالنار. وعلقت أسلاك وحلقات معدنية على رأسه، وقدميه، وحتى بين مفاصله، أي أنه أُحكم أسره بالأصفاد، وبذلك فإنه أصبح ذابلاً شاحباً من الصفرة، واليباس.

وإن الإنسان مثل ذلك تماماً، فقد جيء به إلى الدنيا من موقعه في العالم الإلهي وتمّ تكبيله بالقيود البشرية، واكتوى قلبه بنار الفراق فتمزق إلى شرائح شتى، ولكن هذه الحقيقة التي هي واقع كل إنسان، فإنها تتميز بفضل التفكر والتخصص وتظهر للعلن عندما يبلغ حالة الإنسان الكامل.

إن كل المخلوقات في الكون التي نراها، والتي نعجز عن رؤيتها هي مظاهر لقسم من أسماء الله ﷻ. وأما الإنسان فتوجد فيه التجليات الكاملة لكل أسماء الله ﷻ. فالإنسان قد نال سر الآية الكريمة:

﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي﴾ [١٦١٩]

ولهذا السبب فإن الإنسان يُعد بديع خلق الله تعالى، أي أنه أعجوبة صنعه. فقد تجلت صنعة الخالق، وقدرته، وقوة خلقه في الإنسان بمعناها الكامل. وبهذا الاعتبار فإن الإنسان إذا تمت تنقيته من الأدران المعنوية، ومن الأهواء النفسية فإنه يصبح كاملاً بمعناه التام، إن الإنسان يحس باشتياق وحنين شديد نحو العالم الذي قدم منه مثل المغناطيس الذي يجذب إليه القطع المعدنية التي تحيط به.

إن الإنسان مجهّز بقابلية واستعداد الوصل إلى الله لأنه آت من روح الله تعالى، وأداة هذا الاستعداد هي المحبة، فالمحبة مثل الشعلة في القلب حيث لا يترك فيه سوى الله تعالى، فيحرق كل شيء غيره. وبهذا الاحتراق يظهر في الإنسان الميل نحو العودة إلى المكان الذي جاء منه، ويزداد اشتياقه ورغبته إلى ربه، وتشتد حنينه وحزنه.

ويشرح ويبين لنا مولانا -رحمه الله- رغبة بلال ﷺ بالتخلص من عالم الغربة والوصل إلى ربه تعالى، بالشكل الآتي:

لقد أصبح سيدنا بلال من الضعف مثل الهلال رفيعاً، وظهر على وجهه لون الموت وظله، ولما أبصرت امرأته حالته هذه قالت:

١٦١٩. الحجر، ٢٩.

- يا حسرتاه، لقد تهدم بيتي!

أما بلال فقال لها:

- لا، لا يا امرأة! لا تقولي ذلك! إن هذا وقت النشوة والسرور، لقد عُمر بيتي!

وتابع بلال قائلاً:

- وقد كنت إلى الآن داخل قدر هذه الدنيا، أي حياة الغربة البعيد عن الحق سبحانه وتعالى!

وعندما كان بلال ينطق بهذه الكلمات كانت تتفتح على وجهه أزهار النرجس، والخزامى، والورود العطرة الجميلة، وكان وجهه المبارك يتلألأ بالنور والضياء أكثر.

ولما رأت امرأته أن نفس بلال بدأ بالضعف، وازداد وهنه ونقصت طاقته، قالت:

- يا بلال، يا صاحب الطبع الجميل، والأخلاق العالية الرفيعة! يبدو إذاً قد دنت لحظة الفراق!..

وأما بلال فقال:

- لا، لا! لقد حان وقت الوصل واللقاء، وسوف تنتهي هذه الحسرة والغربة!

قالت زوجه:

- إنك ذاهب هذه الليلة إلى الغربة؛ وإنك تفارق أقاربك، وأولادك، وأحبابك وتغيب عن أعينهم!..

فقال بلال:

- لا، ربما روحي تعود الليلة إلى موطنها الأصلي من ديار الغربة هذه!

وقالت زوجه سائلة:

- ألن نرى وجهك بعد اليوم؟

فقال بلال:

- إن نظرتِ إلى العلا فسوف ترين وجهي بين الخواصّ من عباد الحق سبحانه وتعالى! وإياك والنظر إلى الأمور الدنيا؛ فهناك الوجوه البشعة للعالم الملوث بالقذارة!

قالت زوجه مرة أخرى:

- وا أسفاه عليّ، لقد تهدم بيتي!

فقال بلال هذه المرة:

- انظري إلى الروح؛ ولا تنظري إلى الجسد! لقد كان أولادي كثيرون، وبيتي ضيقاً، وقد هدم الله تعالى بيت جسدي من أجل أن يكون معمراً بشكل أفضل، وأكثر جمالاً، لأنه في حال لم يُهدم بيتي الجسدي لما انتهت غربتي وعدت إلى موطني الأصلي حيث العالم المليء بالجمال والخالي من الكدورات، ولَما وصلتُ إلى الحسن المطلق!

ويقول أيضاً عزيز محمود هدائي وهو واحد من أهل الله الكبار الذي عاش هذه الحالة الروحية الفريدة، مترنّماً بأحاسيسه التي في حياة الغربة هذه:

ما لي وللدنيا أنا محتاج إليك يا رب....تركت ما سواك محتاج إليك يا رب

أهل الدنيا في دنياه وأهل العقبى في عقباه.....وكلٌ عاشق ليلاه وأنا عاشق لك يا رب

أينفع عشق الهوى ابحث عن ربك يا صاح.....هذا ما قاله الهدائي يكفيني قربك يا إلهي

ومن أحد الذين جاؤوا إلى ديار الغربة هذه ولم ينجذبوا لحب هذه الدنيا الزائلة، واحترقوا بنار الوصل هو حضرة الزاهد يونس امره. وقد كان في هذا العالم مثل مجنون ليلى الذي لم ير في الكون غير محبوبه ومعشوقه، وتعجب غاية العجب من أمر المخدوعين ببريق هذه الدنيا الفانية، ووصف حياة الغربة والحسرة التي عاناها في هذه الديار الغريبة، حيث قال:

لقد أتيت بأمر عجب ولا يعلم أحد ما بحالي

أقول فلا يسمعه غيري لا يفهم أحد مقال لساني

❁

لأن كيان الإنسان المادي متكون من التراب، لذلك فإنه يعيش على التراب، ويتغذى من التراب، وفي النهاية يفنى في التراب؛ فيتوحد مع التراب ليعود إلى أصله الحقيقي.

ولأجل هذا السبب ولاعتبار أن «الغربة» هي المعنى المراد للكمال في هذا العالم وبسبب حمله صفة الوجود والعدم، فقد صار من المعلوم والمشهور تلقي هذا العالم على أنه "دار للضيافة» «عابر سبيل». لأن شرط العودة في الوقت الذي تريده غير

موجود في الغربة. ومقابل ذلك فإن مسألة المؤقتية «الأجل» في الاستضافة، وفكرة العودة إلى المحل الذي أتى منه عاجلاً أو آجلاً، فإنها تظهر منذ اللحظات الأولى من بدء الضيافة.

لذلك فإن النبي ﷺ نام ذات يوم على حصير وقد ترك الحصير آثاراً على جسده الشريف، ولما قال له أصحابه الكرام:

- لو أننا مددنا لك شيئاً على الحصير! قال لهم النبي ﷺ:

«ما لي وللدنيا؟ ما مثلي ومثل الدنيا، إلا كراكب سار في يوم صائف، فاستظل تحت شجرة ساعة من نهار، ثم راح وتركها» [١٦٢٠]

ومن جهة أخرى، فقد وضع النبي ﷺ ذات يوم يده على كتف عمر بن الخطاب رضي الله عنه وقال له عبارة مبيناً له فيها حالة الدنيا المؤقتة:

«كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل» [١٦٢١]

وكم من عاشق محروق الفؤاد عاش غريباً في سبيل الوصال الإلهي، الذي نشأ من حقيقة الغربة التي تفضل بها النبي ﷺ في هذا الحديث. حتى غدا ترنّم أولئك بالعشق الإلهي:

إلهي اجعلنا من الذين دخلوا دار جنانك...

اجعلنا من الذين دخلوا وشاهدوا جمالك

و إلى جانب الدعاء، و بحب رسول الله ﷺ:

انكويت يا رسول الله بحبك فدعنا نفرح بجمالك.

أصبح نحيبهم وبكاؤهم تعابير عما يختلج في أعماق القلوب المحترقة.

ومن كبار مشايخ متأخري العصر السيد محمد أسد الأربيلي يناجي معشوقه وهو في دائرة ذاك الاشتياق:

يتمنى قلبي المظلم لمعة من نور جمالك يا حبيبي

وتتشوق عيني كحلاً بغبار سبيلك الحق يا طبيبي.

١٦٢٠. أحمد، مسند، ١، ٣٩١/ ٢٧٤٤.

١٦٢١. البخاري، الرقاق، ٣/ ٦٤١٦؛ الترمذي، الزهد، ٢٥/ ٢٣٣٣.

«يا حبيبي! إن قلبي الذي رُمي به في ظلمة ديار الغربة هذه يتمنى لمعة من نور جمالك. يا طبيبي! إن ديار الغربة هذه التي حجزتني عن رؤيتك، تتمنى عيناي فيها أن تتكحل بإثمد غبار سبيلك».

لا تهدأ عيناي من الدموع ولا مدد لي من نوح الفؤاد

أملي من ذاك مغفرة لآثام أثقلت كاهلي وكذا لطف الأنبياء

«لا راحة لي من دموع العيون ولا مدد يأتيني من أنين قلبي الباكي، يا حبيبي أرجو تلطفاً من جناب الأنبياء لوضع ثقل هذه الذنوب التي لم يعد لي قدرة على حملها، أي أتمنى أن أنال الشفاعة منك».

كيف يرجو المفتون بجمال وجهك غيراً سواك

أيرغب بمال وملك وجاه أو شهوة صفاء كل من يهواك

«مما لا شك فيه أن الذين عشقوا جمال وجهك لا يريدون شيئاً سواك، ولذلك فإنهم لا يؤثرون عليك بمال أو ملك أو مقام أو شهوة وصفاء».

رجوتك يا حبيبي شهوداً ولو مرة لبهاء كمال جمالك

أكرمه بذاك يا من عُبيدُك أسعد الفقير بمهجته يفتديك

«يا حبيبي! إن عبدي الفقير الذي يتمنى أن يفتديك بنفسه، يرجوك ولو مرة واحدة أن تشرفه بجمالك الذي لا يدرك ولا يتخيل كمال ماهيته، وأن تدخل السرور بذلك إلى نفسه».

إن كل فانٍ يأتي إلى الدنيا – دار الغربة – فإن تقويم عمره ينتهي بالموت، ولذلك فإن الذين يعيشون كعابر سبيل وهم في حال إدراك تام على أن الدنيا عبارة عن دار مرور لا استقرار، يعملون بشوق التوفيق الإلهي حتى يكونوا موفّقين قدر الإمكان في ابتلاءات الدنيا المليئة بالمشقات والاضطراب والهموم والأحزان، ويعيش أولئك دائماً في حالةٍ من التوكل والتسليم والصبر والرضا أمام المظاهر المختلفة لحياة الغربة التي تتجلى على شكل سرور وأحياناً عل شكل أحزان، وموت هؤلاء المحظوظين تظهر على شكل وصالٍ يبحث عن أبواب الرحمة الأبدية، يعني اللقاء مع الرب سبحانه وتعالى.

وكم من بواعث للاعتبار نشاهدها في شواهد القبور التي تعتبر آخر ذكريات الغربة، فإن لكل واحدة منهم لساناً مختلفاً عن لسان الأخرى، تحكي لنا عمّا لا يعد من الحقائق المعبرة:

حيث أن أماً تتوفى مع توأميها أثناء الولادة، وبتأثر طاهر المولولي ـ شارح المثنوية ـ من هذه الحادثة كثيراً جداً ثم يقوم بالبحث عن أقارب المرأة المتوفية حتى يجدهم، ويقول لهم:

«إني أريد أن أعدّ شواهد قبور هؤلاء الموتى الثلاث وأكتب عليها»

ثم يكتب عليها هذه الرباعية: أنت صفحة المكتوب يا قبر:

لم يترك الأجل للاحتضان في الدنيا مجال

مع فلذتا كبدي في مقبر واحد كان المآل

قابضاً أيادي اليتامى وبهم يكون المقال

وبيّتم طفلين منك إلهي أبتغي السؤال

وهذه الأسباب كلها فإن المتصوف الكبير مولانا جلال الدين الرومي كان يصور أحياناً الحياة الدنيا على أنها غربة، ويصورها بعالم عابر السبيل حيناً آخر. وبسبب عدم الوفاء والفناء والخداع الذي تصتف بها الدنيا، كان يؤكد دائماً خسران الذين يعتمدون عليها. وكان حضرة مولانا يشبه الدنيا أحياناً بسبب عدم ديمومتها يشبهها بدار الضيافة، وحتى لعدم ديمومة الروح في البدن فإنه كان يؤكد أنه يعيش كحياة الضيف فيها.

وهكذا فإنه يمكن مشاهدة العديد من الأشكال المتداخلة مع بعضها من مظاهر وصفحات هذه الضيافة، ويشرح لنا حضرة مولانا وبأسلوبه الحكيم هذه الحقيقة وهو يتعرض أيضاً لحقيقة معايشة الأضداد جنباً إلى جنب وبشكل متداخل في هذا العالم، فيقول:

- يا أيها الشاب المراهق! إن هذا البدن عبارة عن مكان للاستضافة، وإن النشوة والفرحة التي تحلّ بك ضيفاً في كل صباح، فإنهم يأتون إلى ذلك المكان مسرعين.
- تعقّل، وإياك أن تقول أن هذا الضيف يقيم فيّ دائماً، فإنه سوف يطير للفناء ويفنى، يعني لا بقاء للسرور والهموم على الدوام.
- فليأتي من يأتيك من عالم الغيب، فما هو إلا ضيفٌ يحلّ في قلبك فعليك أن ترحب به دائماً، يعني لا تغرق في الحزن جراء الهموم، ولا تسبح في بحار النشوة جراء السرور النازل بك.

- إن التفكر بالهمّ يغلق باب النشوة، فلا تنالها، مع أن الغمّ في حقيقتها تفتح سبيلاً مختلفاً جداً للسرور والنشوة.
- إن الأفكار والهموم تكنس دار القلوب من الأفكار الأخرى حتى يأتي للقلب أفكار ومسراتٍ أخرى جديدة.
- إن يد الهموم تزيل الأوراق المصفرة عن أغصان القلوب حتى تأتي الأورق الخضراء من الأغصان متتالية خلف بعضها.
- أن كل ما تسقطه الهموم من القلوب وتزيله، فإنها تأتي مكانها ما هو خير منها.

وكذلك الشاعر المعاصر قدير مصر أوغلو يترنّم بهذه الحقيقة في شعره الذي يحمل اسم «الغربة» والذي كتبه أثناء إقامته بعيداً عن الوطن، فيقول:

ليس للوطن ولكن للرب...
لعالم السكونة
بالرجوع لها تنتهي الغربة
الأبدي المطلق هو العقبى
ولكن حتى تلك المنتهى
يعز ألف ذليل ويذلُّ عزيز
من أشهر ما قيل من الأمثال
كفاك لا تتعب و تنهي الأنفاس
يكفيك الله وما سواه شهوة النفس.

اللهم يارب! أكرمنا أن نحيا حال الوصال في دار الغربة هذه. وأدخلنا في زمرة عبادك الصالحين الذين يشاهدون جمالك.

آمين...

فهرس

المقدمة / ٧

تمهيد/ ١٣

أهمية القصص في القرآن الكريم ١٣

الهدف من وجود القصص القرآني ١٤

الخصوصيات التي تميز القصص في القرآن الكريم..... ١٧

الحكمة من التكرار ١٧

الأنبياء والقصص في القرآن الكريم ٢١

عظمة القرآن الكريم وفضائل النبي ﷺ..... ٢٤

سيدنا آدم عليه السلام/ ٣٩

الأسباب والحِكَم الأساسية من خلقنا..... ٤٤

خلق سيدنا آدم عليه السلام ٤٨

حكمة السؤال الذي سألته الملائكة لله سبحانه وتعالى..... ٤٩

١. مرحلة التراب..... ٥٤

٢. مرحلة الطين..... ٥٤

٣. مرحلة الطين اللازب «الملتصق بعضه ببعض»..... ٥٤

٤. مرحلة الصلصال «الطين المجفف بالهواء»..... ٥٤

٥. مرحلة الحمأ المسنون «الطين المُشَكَّل»..... ٥٥

٦. «مرحلة «صلصال كالفخار..... ٥٥

نفخ الروح ٥٧

الأطوار الخمسة للروح ٥٨

١. طور العدم ٥٨

٢. طور وجود عالم الأرواح «مرحلة ألست»..... ٥٨

٣. طور إرسال الأرواح إلى الأجساد..... ٥٩
٤. طور الانفصال عن الأبدان..... ٥٩
٥. طور العودة إلى الأبدان مرة أخرى..... ٥٩
سجود الملائكة لآدم عليه السلام..... ٦٧
خلق السيدة حواء..... ٧٦
الحياة في الجنة..... ٧٩
النزول من الجنة إلى الأرض..... ٨٠
نقاط الضعف في نفس الإنسان..... ٨٤
١. الإنسان ظلوم جهولاً..... ٨٤
٢. خُلق الإنسان عَجُولاً..... ٨٨
٣. الإنسان ولع بما ينفعه..... ٩٠
٤. إن الإنسان لربه لكنود..... ٩١
٥. الإنسان حريص وبخيل..... ٩٢
٦. «الإنسان حسود غيور..... ٩٣
٧. خُلق الإنسانُ ضعيفاً..... ٩٤
العفو عن سيدنا آدم وأمنا حواء..... ٩٩
أول جريمة على سطح الأرض..... ١٠١
العبر المستقاة من قصة آدم عليه السلام..... ١٠٤
التوبة والاستغفار..... ١٠٧

سيدنا إدريس عليه السلام/ ١١٩

القلب وأسراره..... ١٢٣
١. القلوب المقفلة والمختومة..... ١٢٥
٢. القلوب المريضة..... ١٢٧
٣. القلوب الغافلة..... ١٢٩

أ- الطعام الحلال ١٣٠
ب- قراءة القرآن الكريم بتفكر..... ١٣١
ج- أداء العبادات بخشوع..... ١٣٢
د- الإستمرار في ذكر الله ﷻ..... ١٣٤
هـ- إحياء الليل..... ١٣٥
و- مصاحبة الصالحين والصادقين..... ١٣٧
٤. القلوب الذاكرة ١٣٨
٥. القلوب الحية «القلب السليم» ١٤٣

سيدنا نوح عليه السلام/ ١٤٧

خصائص قوم نوح عليه السلام ١٤٨
سنوات التبليغ الطويلة ١٥٢
طلب القوم السيئي الطالع للعذاب ١٥٦
العذاب القادم: الطوفان ١٥٩
انحسار الماء ١٦٢
كوارث في الدنيا، وعذاب أليم في الآخرة ١٦٣
يوم عاشوراء ١٦٤
الأسباب الرئيسية لهلاك قوم نوح ١٦٧
من أوصاف نوح عليه السلام ١٦٨
الصبر..... ١٧١

سيدنا هود عليه السلام/ ١٨١

قوم عاد ١٨١
تحذيرات إلهية مليئة بالعبر ١٨٥
الريح التي قلبت عاليها سافلها ١٨٧
معجزات هود عليه السلام ١٩٠

سيدنا صالح عليه السلام / ١٩٥

قوم ثمود ١٩٥
بداية التبليغ ١٩٦
معجزة الناقة ٢٠٠
الجحود ٢٠٢
هلاك القوم الضالين بالصيحة المرعبة والزلزلة ٢٠٤
أسباب هلاك قوم ثمود ٢٠٧
هلاك الأقوام ٢٠٩

سيدنا إبراهيم عليه السلام / ٢٢١

نمرود ٢٢٣
ربي الله ٢٢٤
دعوة التوحيد ٢٢٦
تحطيم إبراهيم عليه السلام للأصنام ٢٢٧
إلقاء إبراهيم عليه السلام في النار ٢٢٩
تحول النار إلى حديقة للورود ٣٢١
هجرة إبراهيم عليه السلام ٢٣٣
هلاك نمرود وقبيلة الكلدانيين ٢٣٧
إحياء الطير ٢٣٧
زواج إبراهيم عليه السلام بأمنا هاجر ٢٤٠
امتحان الذبح ٢٤٣
ولادة إسحاق عليه السلام ٢٥٠
زيارة إبراهيم عليه السلام لسيدنا إسماعيل ٢٥٣
بناء الكعبة ٢٥٥
حجة إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام الأولى ودعوة الناس للحج ٢٥٨

أدعية إبراهيم عليه السلام ومناجاته ٢٥٩
نصائح إبراهيم عليه السلام ٢٦٠

سيدنا إسماعيل عليه السلام / ٢٦٥

معجزاته ٢٦٦

سيدنا إسحاق عليه السلام / ٢٦٩

معجزاته بحسب الروايات المختلفة ٢٧٠
التوكل، التسليم والحج ٢٧١

سيدنا لوط عليه السلام / ٢٧٩

شعب السدوم ٢٧٩
الصيحة «الصوت الرهيب» ومطر الحجارة الحامية ٢٨١
نساء سيدنا لوط وأولاده ٢٨٤
الأفعال السيئة الموجودة في قوم لوط وأسباب الهلاك ٢٨٥
هلاك قوم البومباي ٢٨٧
جمال الأخلاق وحماية النسل ٢٩٠
حماية النسل ٢٩٢

سيدنا ذو القرنين عليه السلام / ٢٩٥

الأوصاف المهمة لذو القرنين ٢٩٧
أسفار دعوة التوحيد ٢٩٨
قومي يأجوج ومأجوج ٣٠٠
من قصص ذي القرنين المليئة بالحكمة والعبرة ٣٠٣
الجهاد والأمر بالمعروف ٣٠٧

سيدنا يعقوب عليه السلام
و سيدنا يوسف عليه السلام/ ٣١٩

أحسن القصص: قصة يوسف عليه السلام..... ٣٢١
رؤيا يوسف عليه السلام..... ٣٢٦
أقسام الرؤيا الثلاثة..... ٣٢٧
النار التي تقتل القلب: الحسد..... ٣٢٨
خطة الغدر..... ٣٣١
البلاء مرتبط بما يخرج من اللسان..... ٣٣٢
خيانة الإخوة..... ٣٣٣
إلقاء يوسف عليه السلام في البئر..... ٣٣٤
صبر جميل..... ٣٣٧
إخراج يوسف عليه السلام من البئر وبيعه..... ٣٣٨
سيدنا يوسف عليه السلام وزليخة..... ٣٤١
النساء تقطعن أيديهن عند رؤية يوسف..... ٣٤٤
السجن..... ٣٤٦
تأويل يوسف عليه السلام للأحلام..... ٣٤٨
رؤيا حاكم مصر..... ٣٥٠
قصة ضروان..... ٣٥١
فراسة سيدنا يوسف عليه السلام..... ٣٥٣
ويجعل الله من العبد سلطاناً..... ٣٥٥
زواجه من زليخة..... ٣٥٨
الأخوة الآتون لطلب الرزق وخطة يوسف عليه السلام..... ٣٥٩
أنا أخوك يوسف..... ٣٦١
احتجاز يوسف عليه السلام لبنيامين..... ٣٦٢

الأسى الذي يفتح باب المكافاة..... ٣٦٦
ولا تيأسوا من رحمة الله..... ٣٦٨
عفو رائع..... ٣٧٠
ألقوا بقميصي على وجه أبي..... ٣٧٢
رؤية يعقوب عليه السلام «شفاء عينيه»..... ٣٧٢
الوصول وتحقق الرؤيا..... ٣٧٥
الآيات الأخيرة من سورة يوسف..... ٣٧٦
الارتباط والاستعانة والاستغاثة ٣٨٠
انعكاس الأحوال..... ٣٨٢
١. النظر: «الرؤية المعنوية»..... ٣٨٢
٢. القول..... ٣٨٢
٣. الصحبة..... ٣٨٢
٤. التبرك ببقية الطعام..... ٣٨٢
٥. نقل الحال عبر الأشياء..... ٣٨٥
رابطة الموت..... ٣٩٠

سيدنا شعيب عليه السلام/ ٣٩٥

أهل مدين..... ٣٩٥
التحذيرات الأخيرة..... ٤٠٠
الصيحة المرعبة تأتي من الأعلى ٤٠٢
أصحاب الأيكة..... ٤٠٣
عذاب من السماء: نار حامية ٤٠٥
بعد الهلاك ٤٠٦

سيدنا موسى عليه السلام

وسيدنا هارون عليه السلام / ٤١١

الرؤيا التي أرعبت فرعون..... ٤١٢

سيدنا موسى عليه السلام في قصر فرعون..... ٤١٤

مقتل القبطي..... ٤١٧

من مصر إلى مدين..... ٤٢٠

شعيب عليه السلام يدعو موسى عليه السلام إلى جواره..... ٤٢١

زواج سيدنا موسى عليه السلام بسفورة..... ٤٢٥

عصا موسى عليه السلام..... ٤٢٦

العودة من مدين إلى مصر ووادي طوى..... ٤٢٧

النبوة المعطاة بمعجزتين كبيرتين..... ٤٣٠

فرعون الأحمق..... ٤٣٦

مبارزة بين المعجزة والسحر..... ٤٣٩

سجود السحرة..... ٤٤٢

ماشطة فرعون..... ٤٤٦

استشهاد سيدتنا آسيا..... ٤٤٧

القلعة ٤٤٨

معجزات متفرقة ٤٥٠

١. الطوفان..... ٤٥٠

٢. الجراد..... ٤٥١

٣. القمل والبرغوث..... ٤٥١

٤. الضفادع..... ٤٥١

٥. الدم..... ٤٥٢

دعاية فرعون البائسة ٤٥٥

الخروج من مصر ٤٥٦
البحر الأحمر: بحر السلامة والكارثة ٤٥٨
إيمان لم يقبل: إيمان فرعون ٤٥٩
بعد عبور البحر الأحمر ٤٦٠
امتحانهم بمحاربة العمالقة في بلدة أريحا وصحراء التيه ٤٦٢
نزول التوراة ٤٦٥
حكمة الرقم أربعين ٤٦٨
موسى عليه السلام يطلب رؤية الله عز وجل ٤٦٩
مقابلة عند جبل الطور ٤٧٤
عجل من الذهب ٤٧٤
ذبح البقرة قربانا ٤٨١
لقاء سيدنا محمد ﷺ مع موسى عليه السلام ليلة المعراج ٤٨٤
قارون ٤٨٥
افتراء بشع ٤٨٨
موسى عليه السلام والخضر عليه السلام ٤٩٠
ثلاثة رجال صالحون ٤٩٩
جار موسى عليه السلام في الجنة ٥٠٠
فضائل موسى عليه السلام وشمائله وصفاته ٥٠٢
اليهودية اليوم ٥٠٥
مفهوم الرب في اليهودية ٥٠٥
التوراة ٥٠٩
التلمود ٥١١
مفهوم النبوة ٥١٢
مفهوم الحياة الآخرة ٥١٥

سيدنا داوود عليه السلام/ ٥١٩

طالوت وجالوت والتابوت ٥١٩
الامتحان ٥٢٢
سيدنا داوود عليه السلام والنصر ٥٢٣
امتحان داوود عليه السلام ٥٢٩
قصة أصحاب السبت ٥٣٢
الذكرى الباقية من داوود عليه السلام: صوم داوود عليه السلام ٥٣٥
فضل سيدنا داوود عليه السلام ٥٣٦
وفاة سيدنا داوود عليه السلام ٥٣٧
الزبور ومحتواه ٥٣٧
القراءة الجميلة لأجمل كلام ٥٤١

سيدنا سليمان عليه السلام/ ٥٦١

محبة سيدنا سليمان عليه السلام للخيل ٥٦٩
امتحان سيدنا سليمان عليه السلام ٥٧١
بناء بيت المقدس ٥٧٤
سيدنا سليمان عليه السلام والنمل ٥٧٦
سيدنا سليمان عليه السلام وطائر الهدهد وبلقيس ٥٧٧
الكرامات ٥٨٢
وفاة سيدنا سليمان عليه السلام ٥٨٥
السلطة والتواضع ٥٨٦
فترة ما بعد سيدنا سليمان عليه السلام ٥٨٧
قصة هاروت وماروت ٥٨٨
تفضيل رسولنا الكريم ﷺ على سليمان عليه السلام ٥٩٠
الملك لله عز وجل ٥٩٣
الأدب في الإنفاق ٦٠٢

سيدنا عزير عليه السلام/ ٦٠٩

البعث بعد الموت ٦١٣

أصحاب الكهف ٦١٣

سيدنا أيوب عليه السلام/ ٦٣١

الامتحان، والصبر، والمكافأة ٦٣٢

الخلاص «الشفاء» من المرض ٦٣٨

مكافأة خدمة رحيمة خاتون ٦٤١

الرضا ٦٤٣

سيدنا يونس عليه السلام/ ٦٥٩

شعب نينوى ٦٦٠

الإيمان والتوبة والعفو ٦٦١

عندما فارق يونس عليه السلام نينوى ٦٦٢

سيدنا إلياس عليه السلام/ ٦٧١

سيدنا أليسع عليه السلام/ ٦٧٧

سيدنا ذو الكفل عليه السلام/ ٦٨١

سيدنا لقمان الحكيم عليه السلام/ ٦٨٥

الحمد والشكر ٦٩٥

سيدنا زكريا ويحيى وعيسى عليهم السلام/ ٧١١

سيدنا زكريا عليه السلام ٧١١

سيدنا يحيى عليه السلام ٧١٢

سيدنا عيسى عليه السلام ٧١٧

نبوة سيدنا عيسى عليه السلام ٧٢٧

المائدة المنزلة من السماء ٧٣١

ذهاب عيسى عليه السلام والحواريين إلى نصيبين ٧٣٥
حبيب النجار ٧٣٨
رفع سيدنا عيسى عليه السلام إلى السماء ٧٣٩
بعد رفع سيدنا عيسى عليه السلام إلى السماء ٧٤٢
نزول سيدنا عيسى عليه السلام من السماء ٧٤٨
معجزات سيدنا عيسى عليه السلام ٧٥٠
المسيحية اليوم ٧٥٣
عقيدة التثليث ٧٦٢
ماهية الأناجيل الأربعة ٧٧٢
إنجيل متى ٧٧٥
إنجيل مرقس ٧٧٦
إنجيل لوقا ٧٧٧
إنجيل يوحنا ٧٧٧
التناقضات التي في الأناجيل الأربعة ٧٧٩
سبب صلب سيدنا عيسى عليه السلام وفق رأي المسيحيين ٧٨٥
الغربة ٧٩١

حمل مجانًا

كتب إسلامية

يمكنكم الآن تحميل حوالي 1300 من الكتب الإسلامية
بـ 55 لغة من الإنترنت مجانًا

كتب إسلامية بلغات مختلفة وبصيغة pdf
جاهزة للتحميل من موقع www.islamicpublishing.org